



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



اشرافيية
عليه صلوات الله
عليه و آله

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مَجْمَعُ الْبَيْتِ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

لِلشَّيْخِ أَبِي تَحْيَى الْفَضْلِ بْنِ الْحَسَنِ الطَّبْرِيِّ

مُسْتَوْجِبٌ وَتَوْجِيهٌ وَتَسْبِيحٌ

مَكْتَبَةُ مَطْبَعَةِ مَدِينَةِ الْمَدِينَةِ وَ مَكْتَبَةُ مَدِينَةِ الْمَدِينَةِ
تَدَاوَلَتْ بَيْنَهُمَا

الجزء الخامس

دار المعرفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجمع البيان فى تفسير القرآن

كاتب:

طبرسى (معروف) ، امين الاسلام ابو على فضل بن حسن
(صاحب مجمع البيان و اعلام الورى و...)

نشرت فى الطباعة:

دار المعرفة

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٣٧	مجمع البيان فى تفسير القرآن المجلد ٥
٣٧	اشاره
٣٧	اشاره
٤٠	(٩) سورة التوبه مدينه و آياتها تسع و عشرون و مائه (١٢٩)
٤٠	اشاره
٤٠	[توضيح]
٤٠	عدد آيها
٤٠	اختلافها
٤٠	أسمائها عشره
٤١	فضلها
٤١	عله ترك التسميه - فى أولها قراءه و كتابه
٤١	تفسيرها
٤٣	[سوره التوبه (٩): الآيات ١ الى ٢]
٤٣	اشاره
٤٣	اللغه
٤٣	الإعراب
٤٣	المعنى
٤٥	[القصه]
٤٧	[سوره التوبه (٩): الآيات ٣ الى ٤]
٤٧	اشاره
٤٧	القراءه
٤٩	الحجه
٤٩	اللغه

الإعراب ٤٩

المعنى ٤٩

[سوره التوبه (٩): الآيات ٥ الى ٦] ٥١

اشاره ٥١

اللغه ٥١

الإعراب ٥١

المعنى ٥٣

[سوره التوبه (٩): الآيات ٧ الى ٨] ٥٤

اشاره ٥٤

القراءه ٥٤

الحجه ٥٤

اللغه ٥٥

[سوره التوبه (٩): الآيات ٩ الى ١٣] ٥٧

اشاره ٥٧

القراءه ٥٧

الحجه ٥٧

اللغه ٥٨

المعنى ٥٨

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٤ الى ١٥] ٥٩

اشاره ٥٩

القراءه ٥٩

الحجه ٦٠

المعنى ٦٠

[سوره التوبه (٩): آيه ١٦] ٦٠

اشاره ٦٠

اللغه ٦٠

المعنى ٦١

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ١٨] ٦١

اشاره ٦١

القراءه ٦١

الحجه ٦٢

اللغه ٦٢

المعنى ٦٢

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٩ الى ٢٢] ٦٣

اشاره ٦٣

القراءه ٦٣

الحجه ٦٣

اللغه ٦٤

المعنى ٦٥

[سوره التوبه (٩): الآيات ٢٣ الى ٢٤] ٦٦

اشاره ٦٦

القراءه ٦٦

الحجه ٦٦

اللغه ٦٦

المعنى ٦٦

[سوره التوبه (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٧] ٦٧

اشاره ٦٧

اللغه ٦٧

الإعراب ٦٨

المعنى ٦٨

[سوره التوبه (٩): آيه ٢٨] ٧٣

اشاره ٧٣

٧٣ القراءه

٧٣ الحججه

٧٣ اللغه

٧٤ [سوره التوبه (٩): آيه ٢٩]

٧٤ اشاره

٧٤ اللغه

٧٥ الإعراب

٧٥ المعنى

٧٦ [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٠ الى ٣١]

٧٦ اشاره

٧٦ القراءه

٧٦ الحججه

٧٧ اللغه

٧٧ المعنى

٧٨ [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

٧٨ اشاره

٧٨ اللغه

٧٨ الإعراب

٨٠ المعنى

٨١ [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٤ الى ٣٥]

٨١ اشاره

٨١ اللغه

٨١ الإعراب

٨٣ [سوره التوبه (٩): آيه ٣٦]

٨٣ اشاره

٨٣ القراءه

٨٤ الحجه

٨٤ اللغة و الإعراب

٨٤ المعنى

٨٦ [سوره التوبه (٩): آيه ٣٧]

٨٦ اشاره

٨٦ القراءة

٨٦ الحجه

٨٧ اللغة

٨٧ المعنى

٨٨ [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

٨٨ اشاره

٨٨ اللغة

٨٩ الإعراب

٨٩ المعنى

٩٠ [سوره التوبه (٩): آيه ٤٠]

٩٠ اشاره

٩٠ القراءة

٩٠ الحجه

٩٠ الإعراب

٩٠ المعنى

٩٢ [سوره التوبه (٩): الآيات ٤١ الى ٤٣]

٩٢ اشاره

٩٢ القراءة

٩٢ اللغة

٩٢ المعنى

٩٤ [سوره التوبه (٩): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

٩٤ اشارة

٩٤ المعنى

٩٥ [سوره التوبه (٩): الآيات ٤٦ الى ٤٨]

٩٥ اشارة

٩٥ اللغه

٩٦ المعنى

٩٨ [سوره التوبه (٩): الآيات ٤٩ الى ٥٢]

٩٨ اشارة

٩٨ القراءه

٩٨ القراءه المشهوره «لَنْ يُصِيبَنَا» وقرأ طلحه بن مصرف قل هل يصيبنا و كذلك هو فى مصحف ابن مسعود.

٩٩ المعنى

١٠١ [سوره التوبه (٩): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

١٠١ اشارة

١٠١ القراءه

١٠١ الحجه

١٠١ اللغه

١٠١ الإعراب

١٠١ المعنى

١٠٣ [سوره التوبه (٩): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

١٠٣ اشارة

١٠٤ القراءه

١٠٤ الحجه

١٠٤ اللغه

١٠٤ المعنى

١٠٥ [سوره التوبه (٩): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

١٠٥ اشارة

١٠٥ القراءه

١٠٥ اللغه

١٠٦ المعنى

١٠٧ [سوره التوبه (٩): آيه ٦٠] -

١٠٧ اشاره

١٠٧ الإعراب

١٠٧ المعنى

١٠٩ [سوره التوبه (٩): الآيات ٦١ الى ٦٣] -

١٠٩ اشاره

١٠٩ القراءه

١٠٩ الحجه

١١٠ اللغه

١١١ الإعراب

١١٢ المعنى

١١٣ [سوره التوبه (٩): الآيات ٦٤ الى ٦٦] -

١١٣ اشاره

١١٣ القراءه

١١٣ الحجه

١١٣ اللغه

١١٤ المعنى

١١٦ [سوره التوبه (٩): الآيات ٦٧ الى ٧٠] -

١١٦ اشاره

١١٦ اللغه

١١٦ الإعراب

١١٦ المعنى

١١٩ [سوره التوبه (٩): الآيات ٧١ الى ٧٣] -

١١٩ اشارة

١١٩ اللغة

١١٩ المعنى

١٢١ [سوره التوبه (٩): آيه ٧٤]

١٢١ اشارة

١٢١ اللغة

١٢٣ المعنى

١٢٤ [سوره التوبه (٩): الآيات ٧٥ الى ٧٨]

١٢٤ اشارة

١٢٤ اللغة

١٢٥ الإعراب

١٢٤ المعنى

١٢٧ [سوره التوبه (٩): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

١٢٧ اشارة

١٢٧ اللغة

١٢٧ الإعراب

١٢٧ المعنى

١٢٩ [سوره التوبه (٩): الآيات ٨١ الى ٨٣]

١٢٩ اشارة

١٢٩ اللغة

١٢٩ الإعراب

١٢٩ المعنى

١٣١ [سوره التوبه (٩): الآيات ٨٤ الى ٨٥]

١٣١ اشارة

١٣١ الإعراب

١٣١ المعنى

١٣٣ [سوره التوبه (٩): الآيات ٨٦ الى ٨٩]

١٣٣ اشاره

١٣٣ اللغه

١٣٣ الإعراب

١٣٤ المعنى

١٣٤ [سوره التوبه (٩): آيه ٩٠]

١٣٤ اشاره

١٣٤ القراءة

١٣٤ الحجه

١٣٥ المعنى

١٣٥ [سوره التوبه (٩): الآيات ٩١ الى ٩٣]

١٣٥ اشاره

١٣٦ اللغه

١٣٦ الإعراب

١٣٦ المعنى

١٣٨ [سوره التوبه (٩): الآيات ٩٤ الى ٩٦]

١٣٨ اشاره

١٣٩ المعنى

١٤٠ [سوره التوبه (٩): الآيات ٩٧ الى ٩٩]

١٤٠ اشاره

١٤٠ القراءة

١٤٠ الحجه

١٤١ اللغه

١٤١ الإعراب

١٤١ المعنى

١٤٣ [سوره التوبه (٩): آيه ١٠٠]

١٤٣ اشارة

١٤٣ القراءة

١٤٣ الحججه

١٤٣ الإعراب

١٤٣ المعنى

١٤٧ [سوره التوبه (٩): الآيات ١٠١ الى ١٠٢] -

١٤٧ اشارة

١٤٧ اللغه

١٤٧ الإعراب

١٤٧ المعنى

١٤٩ [سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٣ الى ١٠٥] -

١٤٩ اشارة

١٤٩ القراءة

١٥٠ الحججه

١٥٠ الإعراب

١٥٠ المعنى

١٥٢ [سوره التوبه (٩): آيه ١٠٦] -

١٥٢ اشارة

١٥٢ القراءة

١٥٢ الحججه

١٥٣ المعنى

١٥٤ [سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠] -

١٥٤ اشارة

١٥٤ القراءة

١٥٤ الحججه

١٥٥ اللغه

الإعراب ١٥٦

المعنى ١٥٨

[سوره التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١١٢] ١٦٠

اشاره ١٦٠

القراءه ١٦٠

الحجه ١٦٠

اللغه ١٦١

الإعراب ١٦١

المعنى ١٦١

[سوره التوبه (٩): الآيات ١١٣ الى ١١٤] ١٦٤

اشاره ١٦٤

اللغه ١٦٤

المعنى ١٦٤

[سوره التوبه (٩): الآيات ١١٥ الى ١١٦] ١٦٦

اشاره ١٦٦

المعنى ١٦٦

[سوره التوبه (٩): الآيات ١١٧ الى ١١٨] ١٦٧

اشاره ١٦٧

القراءه ١٦٧

الحجه ١٦٧

اللغه ١٦٨

المعنى ١٦٩

[سوره التوبه (٩): آيه ١١٩] ١٧١

اشاره ١٧١

القراءه ١٧١

اللغه ١٧١

المعنى ١٧١

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٠ الى ١٢١] ١٧٢

اشاره ١٧٢

اللغه ١٧٢

المعنى ١٧٢

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٢ الى ١٢٥] ١٧٤

اشاره ١٧٤

اللغه ١٧٤

الإعراب ١٧٤

المعنى ١٧٥

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٦ الى ١٢٩] ١٧٧

اشاره ١٧٧

القراءه ١٧٧

الحجه ١٧٧

اللغه ١٧٧

الإعراب ١٧٨

المعنى ١٧٨

(١٠) سوره يونس مكيه و آياتها تسع و مائه (١٠٩) ١٨٠

اشاره ١٨٠

[توضيح] ١٨٠

عدد آيها ١٨٠

اختلافها ١٨٠

فضلها ١٨٠

تفسيرها ١٨٠

[سوره يونس (١٠): الآيات ١ الى ٢] ١٨١

اشاره ١٨١

١٨١ القراءه

١٨١ الحججه

١٨١ اللغه

١٨٢ الإعراب

١٨٢ المعنى

١٨٤ [سوره يونس (١٠): الآيات ٣ الى ٤]

١٨٤ اشاره

١٨٤ القراءه

١٨٤ الحججه

١٨٤ اللغه

١٨٥ الإعراب

١٨٥ المعنى

١٨٦ [سوره يونس (١٠): الآيات ٥ الى ٦]

١٨٦ اشاره

١٨٦ القراءه

١٨٦ الحججه

١٨٦ اللغه

١٨٧ المعنى

١٨٨ [سوره يونس (١٠): الآيات ٧ الى ١٠]

١٨٨ اشاره

١٨٨ القراءه

١٨٨ الحججه

١٨٨ اللغه

١٨٩ المعنى

١٩٠ [سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٢]

١٩٠ اشاره

١٩٠ القراءه

١٩٠ الحجه

١٩٢ الإعراب

١٩٢ المعنى

١٩٣ [سوره يونس (١٠): الآيات ١٣ الى ١٤]

١٩٣ اشاره

١٩٣ اللغه

١٩٣ الإعراب

١٩٣ المعنى

١٩٤ [سوره يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ١٧]

١٩٤ اشاره

١٩٤ القراءه

١٩٤ الحجه

١٩٥ اللغه

١٩٥ المعنى

١٩٧ [سوره يونس (١٠): الآيات ١٨ الى ٢٠]

١٩٧ اشاره

١٩٧ القراءه

١٩٧ الحجه

١٩٧ المعنى

١٩٩ [سوره يونس (١٠): الآيات ٢١ الى ٢٣]

١٩٩ اشاره

١٩٩ القراءه

٢٠٠ الحجه

٢٠١ اللغه

٢٠١ الإعراب

المعنى ٢٠١

[سوره يونس (١٠): الآيات ٢٤ الى ٢٥] ٢٠٣

اشاره ٢٠٣

القراءه ٢٠٣

الحجه ٢٠٣

اللغه ٢٠٤

المعنى ٢٠٤

[سوره يونس (١٠): الآيات ٢٦ الى ٢٧] ٢٠٥

اشاره ٢٠٥

القراءه ٢٠٥

الحجه ٢٠٥

اللغه ٢٠٥

الإعراب ٢٠٦

المعنى ٢٠٦

[سوره يونس (١٠): الآيات ٢٨ الى ٣٠] ٢٠٨

اشاره ٢٠٨

القراءه ٢٠٨

الحجه ٢٠٨

اللغه ٢٠٨

الإعراب ٢٠٩

المعنى ٢٠٩

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٣] ٢١٠

اشاره ٢١٠

القراءه ٢١٠

الحجه ٢١٠

الإعراب ٢١١

المعنى ٢١١

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣٤ الى ٣٦] ٢١٣

اشاره ٢١٣

القراءه ٢١٣

الحجه ٢١٣

الإعراب ٢١٣

المعنى ٢١٣

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣٧ الى ٤٠] ٢١٥

اشاره ٢١٥

اللغه ٢١٥

الإعراب ٢١٥

المعنى ٢١٦

[سوره يونس (١٠): الآيات ٤١ الى ٤٤] ٢١٧

اشاره ٢١٧

المعنى ٢١٧

[سوره يونس (١٠): الآيات ٤٥ الى ٤٧] ٢١٩

اشاره ٢١٩

القراءه ٢١٩

الحجه، و الإعراب ٢١٩

المعنى ٢٢١

[سوره يونس (١٠): الآيات ٤٨ الى ٥٢] ٢٢٢

اشاره ٢٢٢

اللغه ٢٢٢

الإعراب ٢٢٢

المعنى ٢٢٢

[سوره يونس (١٠): الآيات ٥٣ الى ٥٦] ٢٢٤

٢٢٤ اشارة

٢٢٤ اللغة

٢٢٤ الإعراب

٢٢٤ المعنى

٢٢٤ [سوره يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

٢٢٤ اشارة

٢٢٤ القراءة

٢٢٤ الحججه

٢٢٧ المعنى

٢٢٨ [سوره يونس (١٠): الآيات ٥٩ الى ٦١]

٢٢٨ اشارة

٢٢٨ القراءة

٢٢٨ الحججه

٢٢٩ اللغة

٢٢٩ الإعراب

٢٢٩ المعنى

٢٣٠ [سوره يونس (١٠): الآيات ٦٢ الى ٦٥]

٢٣٠ اشارة

٢٣٠ اللغة

٢٣٠ الإعراب

٢٣١ المعنى

٢٣٣ [سوره يونس (١٠): الآيات ٦٦ الى ٦٧]

٢٣٣ اشارة

٢٣٣ اللغة

٢٣٣ المعنى

٢٣٤ [سوره يونس (١٠): الآيات ٦٨ الى ٧٠]

٢٣٤ اشارة

٢٣٤ الإعراب

٢٣٤ المعنى

٢٣٥ [سوره يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٣]

٢٣٥ اشارة

٢٣٥ القراءة

٢٣٦ الحججه

٢٣٦ اللغه

٢٣٦ المعنى

٢٣٨ [سوره يونس (١٠): الآيات ٧٤ الى ٧٨]

٢٣٨ اشارة

٢٣٨ القراءة

٢٣٨ الحججه

٢٣٨ اللغه

٢٣٨ المعنى

٢٣٩ [سوره يونس (١٠): الآيات ٧٩ الى ٨٢]

٢٣٩ اشارة

٢٣٩ القراءة

٢٤٠ الحججه

٢٤٠ المعنى

٢٤١ [سوره يونس (١٠): الآيات ٨٣ الى ٨٦]

٢٤١ اشارة

٢٤١ اللغه

٢٤٢ الإعراب

٢٤٢ المعنى

٢٤٣ [سوره يونس (١٠): الآيات ٨٧ الى ٨٩]

٢٤٣ اشارة

٢٤٣ القراءة

٢٤٣ الحججه

٢٤٤ اللغه

٢٤٤ الإعراب

٢٤٥ المعنى

٢٤٦ [سوره يونس (١٠): الآيات ٩٠ الى ٩٢]

٢٤٦ اشارة

٢٤٦ القراءة

٢٤٦ الحججه

٢٤٧ اللغه

٢٤٧ الإعراب

٢٤٨ المعنى

٢٤٩ [سوره يونس (١٠): آيه ٩٣]

٢٤٩ اشارة

٢٤٩ الإعراب

٢٤٩ المعنى

٢٥٠ [سوره يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ٩٧]

٢٥٠ اشارة

٢٥٠ القراءة

٢٥٠ اللغه

٢٥٠ الإعراب

٢٥١ المعنى

٢٥٢ [سوره يونس (١٠): آيه ٩٨]

٢٥٢ اشارة

٢٥٢ الإعراب

٢٥٣ المعنى

٢٥٥ [سوره يونس (١٠): الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

٢٥٥ اشاره

٢٥٥ القراءه

٢٥٦ الحججه

٢٥٦ اللغه

٢٥٦ الإعراب

٢٥٦ المعنى

٢٥٧ [سوره يونس (١٠): الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

٢٥٧ اشاره

٢٥٧ القراءه

٢٥٧ الحججه

٢٥٧ اللغه

٢٥٨ الإعراب

٢٥٨ المعنى

٢٥٩ [سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٤ الى ١٠٧]

٢٥٩ اشاره

٢٥٩ اللغه

٢٦٠ الإعراب

٢٦٠ المعنى

٢٦١ [سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

٢٦١ اشاره

٢٦١ المعنى

٢٦٢ (١١) سوره هود مكيه و آياتها ثلاث و عشرون و مائه (١٢٣)

٢٦٢ اشاره

٢٦٢ [توضيح]

٢٦٢ عدد آيها

٢٦٢ اختلافها

٢٦٢ فضلها

٢٦٢ تفسيرها

٢٦٤ [سوره هود (١١): الآيات ١ الى ٤]

٢٦٤ اشاره

٢٦٤ اللغه

٢٦٤ الإعراب

٢٦٤ المعنى

٢٦٤ [سوره هود (١١): آيه ٥]

٢٦٤ اشاره

٢٦٤ القراءه

٢٦٤ الحجه

٢٦٤ اللغه

٢٦٧ الإعراب

٢٦٧ المعنى

٢٦٨ [سوره هود (١١): الآيات ٦ الى ٨]

٢٦٨ اشاره

٢٦٨ اللغه

٢٦٨ الإعراب

٢٦٨ المعنى

٢٧٠ [سوره هود (١١): الآيات ٩ الى ١١]

٢٧٠ اشاره

٢٧٠ اللغه

٢٧٠ الإعراب

٢٧١ المعنى

٢٧١ [سوره هود (١١): الآيات ١٢ الى ١٤]

٢٧١ اشاره

٢٧٢ اللغه

٢٧٢ الإعراب

٢٧٢ المعنى

٢٧٥ [سوره هود (١١): الآيات ١٥ الى ١٦]

٢٧٥ اشاره

٢٧٥ القراءة

٢٧٥ الحججه

٢٧٥ اللغه

٢٧٦ المعنى

٢٧٧ [سوره هود (١١): الآيات ١٧ الى ٢٢]

٢٧٧ اشاره

٢٧٧ اللغه

٢٧٨ الإعراب

٢٧٨ المعنى

٢٨١ [سوره هود (١١): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

٢٨١ اشاره

٢٨٢ اللغه

٢٨٢ المعنى

٢٨٣ [سوره هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٢٨]

٢٨٣ اشاره

٢٨٣ القراءة

٢٨٣ الحججه

٢٨٥ اللغه

٢٨٥ الإعراب

٢٨٦ المعنى

٢٨٨ [سوره هود (١١): الآيات ٢٩ الى ٣١]

٢٨٨ اشاره

٢٨٨ اللغة

٢٨٨ المعنى

٢٨٩ [سوره هود (١١): الآيات ٣٢ الى ٣٥]

٢٨٩ اشاره

٢٨٩ اللغة

٢٩٠ المعنى

٢٩٢ [سوره هود (١١): الآيات ٣٦ الى ٣٩]

٢٩٢ اشاره

٢٩٢ اللغة

٢٩٢ الإعراب

٢٩٢ المعنى

٢٩٥ [سوره هود (١١): الآيات ٤٠ الى ٤٣]

٢٩٥ اشاره

٢٩٥ القراءة

٢٩٥ الحجج

٢٩٩ اللغة

٢٩٩ الإعراب

٣٠٠ المعنى

٣٠٣ [سوره هود (١١): آيه ٤٤]

٣٠٣ اشاره

٣٠٣ اللغة

٣٠٣ المعنى

٣٠٥ [سوره هود (١١): الآيات ٤٥ الى ٤٩]

٣٠٥ اشارة

٣٠٥ القراءه

٣٠٥ الحججه

٣٠٦ الإعراب

٣٠٧ المعنى

٣١٠ [سوره هود (١١): الآيات ٥٠ الى ٦٠]

٣١٠ اشارة

٣١٠ اللغه

٣١١ الإعراب

٣١٢ المعنى

٣١٥ [سوره هود (١١): الآيات ٦١ الى ٦٨]

٣١٥ اشارة

٣١٥ القراءه

٣١٥ الحججه

٣١٨ اللغه

٣١٨ الإعراب

٣١٨ المعنى

٣٢١ [سوره هود (١١): الآيات ٦٩ الى ٧٦]

٣٢١ اشارة

٣٢١ القراءه

٣٢١ الحججه

٣٢٤ اللغه

٣٢٥ الإعراب

٣٢٦ المعنى

٣٣٠ [سوره هود (١١): الآيات ٧٧ الى ٨٣]

٣٣٠ اشارة

٣٣٠ القراءه

٣٣٠ الحججه

٣٣٢ اللغه

٣٣٣ الإعراب

٣٣٤ المعنى

٣٣٨ [سوره هود (١١): الآيات ٨٤ الى ٩٥]

٣٣٨ اشاره

٣٣٨ القراءه

٣٣٩ الحججه

٣٣٩ اللغه

٣٤٠ المعنى

٣٤٤ [سوره هود (١١): الآيات ٩٦ الى ١٠٣]

٣٤٤ اشاره

٣٤٤ اللغه

٣٤٧ [سوره هود (١١): الآيات ١٠٤ الى ١٠٨]

٣٤٧ اشاره

٣٤٨ القراءه

٣٤٨ الحججه

٣٤٩ اللغه

٣٤٩ الإعراب

٣٥٠ المعنى

٣٥٥ [سوره هود (١١): الآيات ١٠٩ الى ١١٢]

٣٥٥ اشاره

٣٥٥ القراءه

٣٥٥ الحججه

٣٥٨ اللغه

الإعراب ٣٥٨

المعنى ٣٥٨

[سوره هود (١١): الآيات ١١٣ الى ١١٧] ٣٦٠

اشاره ٣٦٠

القرءاه ٣٦٠

الحجه ٣٦٠

اللغه ٣٦٠

الإعراب ٣٦١

المعنى ٣٦١

[سوره هود (١١): الآيات ١١٨ الى ١٢٣] ٣٦٦

اشاره ٣٦٦

القرءاه ٣٦٦

الحجه ٣٦٦

اللغه ٣٦٦

الإعراب ٣٦٦

المعنى ٣٦٨

(١٢) سوره يوسف مكيه و آياتها إحدى عشره و مائه (١١١) ٣٧٢

اشاره ٣٧٢

[توضيح] ٣٧٢

عدد آيها ٣٧٢

فضلها ٣٧٢

تفسيرها ٣٧٢

[سوره يوسف (١٢): الآيات ١ الى ٣] ٣٧٣

اشاره ٣٧٣

الإعراب ٣٧٣

المعنى ٣٧٣

٣٧٤ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٤ الى ٦]

٣٧٤ اشاره

٣٧٥ القراءة

٣٧٥ الحججه

٣٧٧ اللغه

٣٧٧ الإعراب

٣٧٧ المعنى

٣٧٩ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ١٠]

٣٧٩ اشاره

٣٧٩ القراءة

٣٧٩ الحججه

٣٨٠ اللغه

٣٨١ الإعراب

٣٨١ المعنى

٣٨٣ [سوره يوسف (١٢): الآيات ١١ الى ١٢]

٣٨٣ اشاره

٣٨٣ القراءة

٣٨٤ الحججه

٣٨٥ المعنى

٣٨٧ [سوره يوسف (١٢): الآيات ١٣ الى ١٨]

٣٨٧ اشاره

٣٨٧ اللغه

٣٨٧ الإعراب

٣٨٩ المعنى

٣٩٢ [سوره يوسف (١٢): الآيات ١٩ الى ٢٠]

٣٩٢ اشاره

٣٩٣ القراءه

٣٩٣ الحجه

٣٩٤ اللغه

٣٩٤ الإعراب

٣٩٥ المعنى

٣٩٦ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٢١ الى ٢٢]

٣٩٦ اشاره

٣٩٧ اللغه

٣٩٧ المعنى

٣٩٨ [سوره يوسف (١٢): آيه ٢٣]

٣٩٨ اشاره

٣٩٨ القراءه

٣٩٩ الحجه

٣٩٩ اللغه

٣٩٩ الإعراب

٣٩٩ المعنى

٤٠٠ [سوره يوسف (١٢): آيه ٢٤]

٤٠٠ اشاره

٤٠٠ القراءه

٤٠٠ الحجه

٤٠٠ اللغه

٤٠١ المعنى

٤٠٤ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٢٥ الى ٢٩]

٤٠٤ اشاره

٤٠٤ القراءه

٤٠٥ الحجه

اللغه - ٤٠٥

المعنى - ٤٠٦

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٣٠ الى ٣٥] - ٤٠٧

اشاره - ٤٠٧

القراءه - ٤٠٧

الحجه - ٤٠٨

اللغه - ٤٠٩

المعنى - ٤١١

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٣٦ الى ٣٨] - ٤١٤

اشاره - ٤١٤

اللغه - ٤١٤

الإعراب - ٤١٤

المعنى - ٤١٤

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٣٩ الى ٤٢] - ٤١٧

اشاره - ٤١٧

اللغه - ٤١٧

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٤٣ الى ٤٩] - ٤٢١

اشاره - ٤٢١

القراءه - ٤٢١

الحجه - ٤٢١

اللغه - ٤٢٣

الإعراب - ٤٢٤

المعنى - ٤٢٤

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٥٠ الى ٥٣] - ٤٢٧

اشاره - ٤٢٧

القراءه - ٤٢٧

اللغه - ٤٢٧

الإعراب - ٤٢٧

المعنى - ٤٢٨

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٥٤ الى ٥٧] - ٤٣٠

اشاره - ٤٣٠

القراءه - ٤٣٠

الحجه - ٤٣٠

اللغه - ٤٣٠

المعنى - ٤٣٠

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٥٨ الى ٦٢] - ٤٣٦

اشاره - ٤٣٦

القراءه - ٤٣٦

الحجه - ٤٣٦

اللغه - ٤٣٦

المعنى - ٤٣٦

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٣ الى ٦٦] - ٤٣٩

اشاره - ٤٣٩

القراءه - ٤٣٩

الحجه - ٤٣٩

اللغه - ٤٤٠

المعنى - ٤٤١

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٧ الى ٦٨] - ٤٤٢

اشاره - ٤٤٢

اللغه - ٤٤٢

المعنى - ٤٤٢

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٩ الى ٧٦] - ٤٤٦

٤٤٦ اشارة

٤٤٦ القراءه

٤٤٧ اللغه

٤٤٨ المعنى

٤٥٢ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٧٧ الى ٨٠]

٤٥٢ اشارة

٤٥٢ اللغه

٤٥٢ الإعراب

٤٥٤ المعنى

٤٥٦ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٨١ الى ٨٧]

٤٥٦ اشارة

٤٥٦ القراءه

٤٥٧ الحججه

٤٥٧ اللغه

٤٥٧ الإعراب

٤٥٩ المعنى

٤٦٢ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٨٨ الى ٩٣]

٤٦٢ اشارة

٤٦٢ القراءه

٤٦٢ الحججه

٤٦٣ اللغه

٤٦٤ الإعراب

٤٦٥ المعنى

٤٦٨ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٩٤ الى ٩٨]

٤٦٨ اشارة

٤٦٨ اللغه

٤٦٨ المعنى

٤٧٠ [سوره يوسف (١٢): الآيات ٩٩ الى ١٠٢]

٤٧٠ اشاره

٤٧٠ الإعراب

٤٧١ المعنى

٤٧٦ [سوره يوسف (١٢): الآيات ١٠٣ الى ١٠٧]

٤٧٦ اشاره

٤٧٦ القراءة

٤٧٦ الحجج

٤٧٦ اللغة

٤٧٦ الإعراب

٤٧٦ المعنى

٤٧٩ [سوره يوسف (١٢): الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

٤٧٩ اشاره

٤٧٩ القراءة

٤٧٩ الحجج

٤٧٩ اللغة

٤٧٩ المعنى

٤٨١ [سوره يوسف (١٢): الآيات ١١٠ الى ١١١]

٤٨١ اشاره

٤٨١ القراءة

٤٨٢ الحجج

٤٨٤ اللغة

٤٨٤ المعنى

٤٨٦ تعريف مركز

مجمع البيان في تفسير القرآن المجلد ٥

اشاره

سرشناسه: طبرسي، فضل بن حسن، ٤٦٨ - ٥٤٨ ق.

عنوان و نام پديدآور: مجمع البيان في تفسير القرآن

تاليف ابوعلی الفضل بن الحسن الطبرسي

مصصح: هاشم رسولي

مصصح: فضل الله يزدي طباطبائي

مشخصات نشر: دارالمعرفه - بيروت - لبنان

مشخصات ظاهري: ١٠ ج.

يادداشت: عربي

موضوع: تفاسير شيعه -- قرن ٦ ق.

ص: ١

اشاره

بسم الله الرحمن الرحيم

ص: ٢

مجمع البيان فى تفسير القرآن

تأليف ابو على الفضل بن الحسن الطبرسى

مصصح: هاشم رسولى

مصصح: فضل الله يزدى طباطبايى

ص: ٣

(٩) سورة التوبه مدنيه و آياتها تسع و عشرون و مائه (١٢٩)

اشاره

[توضيح]

و هي مدنيه كلها و قال بعضهم غير آيتين «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» إلى آخر السوره نزلت سنه تسع من الهجره و فتحت مكه سنه ثمان و حج رسول الله ص حجه الوداع سنه عشر و قال قتاده و مجاهد و هي آخر ما نزلت على النبي ص بالمدينه

عدد آياتها

هي مائه و تسع و عشرون آيه كوفى و ثلاثون فى الباقيين

اختلافها

ثلاث آيات «بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بصرى «عَذَاباً أَلِيماً» شامى و «عَادٍ وَ ثَمُودَ» حجازى

أسمائها عشره

سوره براءه سميت بذلك لأنها مفتتحة بها و نزلت بإظهار البراءه من الكفار- التوبه- سميت بذلك لكثره ما فيها من التوبه كقوله «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ» «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا»- الفاضحه- عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سوره التوبه فقال تلك الفاضحه ما زال ينزل حتى خشينا أن لا يبقى منهم أحد إلا ذكر و سميت بذلك لأنها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم- المبعثره- عن ابن عباس أيضا سماها بذلك لأنها تبعثر عن أسرار المنافقين أى تبحث عنها- المقشقشه- عن ابن عباس سماها بذلك لأنها تبرئ من آمن بها من النفاق و الشرك لما فيها من الدعاء إلى الإخلاص

و فى الحديث كان يقال لسورتى (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) المقشقشتان سميتا بذلك لأنهما تبرئان من الشرك و النفاق

يقال قشقشه إذا برأه و تقشقش المريض من علته إذا أفاق و برأ منها- البحوث- عن أبى أيوب الأنصارى سماها بذلك لأنها تتضمن ذكر المنافقين و البحث عن سرائرهم- المدمدمه- عن سفيان بن عيينه أى المهلكه و منه قوله

«فَدَمَيدَمَ عَلَيْهِم رُبُّهُم» (الحافره) عن الحسن لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسترونه- المشيره- عن قتاده لأنها أثارت مخازيهم و مقابحهم- سورة العذاب- عن حذيفه بن اليمان لأنها نزلت بعذاب الكفار و روى عاصم عن زر بن حبيش عن حذيفه قال يسمونها سورة التوبه و هى سورة العذاب فهذه عشره أسماء.

فضلها

أبى بن كعب عن النبى ص قال من قرأ سورة الأنفال و براهه فأنا شفيح له الخبر بتمامه

و قد مضى ذكره مع ما فى معناه فى أول الأنفال

و قد روى عن أبى عبد الله (عليه السلام) أنه قال الأنفال و البراءه واحد

و روى ذلك عن سعيد بن المسيب

و روى الثعلبى بإسناده عن عائشه عن رسول الله ص أنه قال ما نزل على القرآن إلا آيه آيه و حرفا حرفا خلا سورة البراءه و قل هو الله أحد فإنهما نزلتا على و معهما سبعون ألف صف من الملائكه كل يقول يا محمد استوص بنسبه الله خيرا

عله ترك التسميه - فى أولها قراءه و كتابه

للعلماء و المفسرين فيه أقوال- (أحدها)- أنها ضمت إلى الأنفال بالمقاربه فصارتا كسوره واحده إذ الأولى فى ذكر العهود و الثانيه فى رفع العهود عن أبى بن كعب- (و ثانيها)-

أنه لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس سورة براهه لأن بسم الله للأمان و الرحمه و نزلت براهه لرفع الأمان بالسيف عن على (عليه السلام)

و سفيان بن عيينه اختاره أبو العباس المبرد- (و ثالثها)- ما روى عن ابن عباس أنه قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم على أن عمدتهم إلى براهه و هى من المثين و إلى الأنفال و هى من المثانى فجعلتموهما فى السبع الطوال و لم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم

فقال كان النبى ص تنزل عليه الآيات فيدعو بعض من يكتب له فيقول له ضع هذه الآيات فى السوره التى يذكر فيها كذا و كذا

و كانت الأنفال من أول ما نزل من القرآن بالمدينه و كانت براهه من آخر ما نزل من القرآن و كانت قصتها شبيهه بقصتها فظننا أنها منها و قبض رسول الله ص و لم يبين أنها منها فوضعناهما فى السبع الطوال و لم نكتب سطر بسم الله الرحمن الرحيم و كانتا تدعيان القرينتين

تفسيرها

لما ختم الله سبحانه سورة الأنفال بإيجاب البراءه عن الكفار افتتح هذه السوره بأنه تعالى و رسوله بريثان منهم كما أمر المسلمين

بالبراءه منهم فقال

ص: ٥

إشاره

بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيَّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)

اللغة

معنى البراءة انقطاع العصمه يقال برأ يبرأ براءة و تبرء تبرءا و أبرأه إبراء و السيح السير على مهل يقال ساح سائح سيحا و سياحه و سيوحا و سيحانا و الإعجاز إيجاد العجز و العجز ضد القدره عند من أثبتته معنى و الإخزاء الإذلال بما فيه الفضيحه و العار و الخزي النكال الفاضح.

الإعراب

براءه ترتفع على أنها خبر مبتدأ محذوف و تقديره هذه الآيات براءة و يحتمل أن يكون مبتدأ و خبره في الظرف و هو قوله «إِلَى الَّذِينَ» و جاز أن يكون المبتدأ نكرة لأنها موصوفه و الأول أجود لأنه يدل على حضور المدرك كما تقول لمن تراه حاضرا حسن و الله أى هذا حسن.

المعنى

«بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ» أى هذه براءة من الله «وَرَسُولِهِ» أى انقطاع للعصمه و رفع للأمان و خروج من العهود «إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» الخطاب للنبي ص و للمسلمين و المعنى تبرؤا ممن كان بينكم و بينهم عهد من المشركين فإن الله و رسوله بريتان منهم قال الزجاج معناه قد برىء الله و رسوله من إعطائهم العهود و الوفاء لهم بهما إذ نكثوا و إذا قيل كيف يجوز أن ينقض النبي ص العهد فالقول فيه أنه يجوز أن ينقض ذلك على أحد ثلاثه أوجه إما أن يكون العهد مشروطا بأن يبقى إلى أن يرفعه الله تعالى بوحى و إما أن يكون قد ظهر من المشركين خيانه و نقض فأمر الله سبحانه بأن ينبذ إليهم عهدهم و إما أن يكون مؤجلا إلى مده فتنقضى المده و ينتقض العهد و قد

وردت الروايه بأن النبي ص شرط عليهم ما ذكرناه

و

روى أيضا أن المشركين كانوا قد نقضوا العهد أو هموا بذلك فأمره الله سبحانه أن ينقض عهدهم

ثم خاطب الله سبحانه المشركين فقال «فَسِيَّحُوا فِي الْأَرْضِ» أى سيروا في الأرض على وجه المهل و تصرفوا في حوائجكم آمنين من السيف «أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» فإذا انقضت هذه المده و لم تسلموا انقطعت العصمه عن دمائكم و أموالكم «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» أى غير فائتين عن الله كما يفوت ما يعجز عنه لأنكم حيث كنتم في سلطان الله و ملكه «وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» أى

مذلهم و مهينهم و اختلف فى هذه الأشهر الأربعة

فقيل كان ابتداءها يوم النحر إلى العاشر من شهر ربيع الآخر عن مجاهد و محمد بن كعب القرظى و هو المروى عن أبى عبد الله
(عليه السلام)

و قيل إنما ابتداء أجلهم الأشهر الأربعة من أول شوال إلى آخر المحرم لأن هذه الآية نزلت فى شوال عن ابن عباس و الزهرى
قال الفراء كانت المدة إلى آخر المحرم لأنه كان فيهم

ص: ٦

من كانت مدته خمسين ليله و هو من لم يكن له عهد من النبي ص فجعل الله له ذلك و قيل إن من كان له عهد من النبي ص أكثر من أربعة أشهر حط إلى أربعة أشهر و من كان له عهد أقل منها رفع إليها عن الحسن و ابن إسحاق قيل كان ابتداء الأشهر الأربعة يوم النحر لعشرين من ذى القعدة إلى عشرين من شهر ربيع الأول لأن الحج فى تلك السنه كان فى ذلك الوقت ثم صار فى السنه الثانيه فى ذى الحجه و فيها حجه الوداع و كان سبب ذلك النسى ء الذى كانوا يفعلونه فى الجاهليه على ما سيأتى بيانه إن شاء تعالى عن الجبائى.

[القصه]

أجمع المفسرون و نقله الأخبار

أنه لما نزلت براءه دفعها رسول الله ص إلى أبى بكر ثم أخذها منه و دفعها إلى على بن أبى طالب (عليه السلام) و اختلفوا فى تفصيل ذلك فقيل أنه بعثه و أمره أن يقرأ عشر آيات من أول هذه السوره و أن ينبذ إلى كل ذى عهد عهده ثم بعث عليا خلفه ليأخذها و يقرأها على الناس فخرج على ناقه رسول الله ص العضاء حتى أدرك أبا بكر بنى الحليفه فأخذها منه

و

قيل أن أبا بكر رجع فقال هل نزل فى شىء فقال ص لا إلا خيرا و لكن لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى

و

قيل أنه قرأ على براءه على الناس و كان أبو بكر أميرا على الموسم

عن الحسن و قتاده و

قيل أنه ص أخذها من أبى بكر قبل الخروج و دفعها إلى على (عليه السلام) و قال لا يبلغ عنى إلا أنا أو رجل منى

عن عروه بن الزبير و أبى سعيد الخدرى و أبى هريره و روى أصحابنا أن النبى ص و لاه أيضا الموسم و أنه حين أخذ البراءه من أبى بكر رجع أبو بكر

و روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن سماك بن حرب عن أنس بن مالك أن رسول الله ص بعث براءه مع أبى بكر إلى أهل مكه فلما بلغ ذا الحليفه بعث إليه فرده و قال لا يذهب بهذا إلا رجل من أهل بيتى فبعث عليا (عليه السلام)

و روى الشعبى عن محرز بن أبى هريره عن أبى هريره قال كنت أنادى مع على حين أذن المشركين فكان إذا صحل صوته فيما ينادى دعوت مكانه قال فقلت يا أبت أى شىء كنتم تقولون قال كنا نقول لا يحج بعد عامنا هذا مشرك و لا يطوفن بالبيت عريان و لا يدخل البيت إلا مؤمن و من كانت بينه و بين رسول الله ص مده فإن أجله إلى أربعة أشهر فإذا انقضت الأربعة الأشهر فإن الله برىء من المشركين و رسوله

و روى عاصم بن حميد عن أبى بصير عن أبى جعفر (عليه السلام) قال خطب على (عليه السلام) الناس و اخترط

ص: ٧

سيفه فقال لا يطوفن بالبيت عريان و لا يحجن البيت مشرك و من كانت له مده فهو إلى مدته و من لم يكن له مده فمدته أربعه أشهر

و كان خطب يوم النحر و كانت عشرون من ذى الحجه و المحرم و صفر و شهر ربيع الأول و عشر من شهر ربيع الآخر و قال يوم النحر يوم الحج الأكبر

و ذكر أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن زيد بن نفيح قال سألتنا عليا (عليه السلام) بأى شىء بعثت فى ذى الحجه قال بعثت بأربعه لا يدخل الكعبه إلا نفس مؤمنه و لا يطوف بالبيت عريان و لا يجتمع مؤمن و كافر فى المسجد الحرام بعد عامه هذا و من كان بينه و بين رسول الله ص عهد فعهدته إلى مدته و من لم يكن له عهد فأجله أربعه أشهر

و

روى أنه (عليه السلام) قام عند جمره العقبه و قال يا أيها الناس إني رسول الله إليكم بأن لا يدخل البيت كافر و لا يحج البيت مشرك و لا يطوف بالبيت عريان و من كان له عهد عند رسول الله فله عهده إلى أربعه أشهر و من لا عهد له فله مده بقيه الأشهر الحرم و قرأ عليهم سوره براءه

و

قيل قرأ عليهم ثلاث عشره آيه من أول براءه

و

روى أنه (عليه السلام) لما نادى فيهم أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ أى من كل مشرك قال المشركون نحن نتبرأ من عهدك و عهد ابن عمك ثم لما كانت السنه المقبله و هى سنه عشر حج النبى ص حجه الوداع و قفل إلى المدينه و مكث بقيه ذى الحجه الحرم و المحرم و صفر و ليالى من شهر ربيع الأول حتى لحق بالله عز و جل.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣ الى ٤]

اشاره

وَ أَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَ رَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيٌّ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتَيْتُمَا إِلَيْهِمْ وَعَهَدْتُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)

القراءه

قرأ يعقوب بروايه روح و زيد و رسوله بالنصب و هى قراءه الحسن و ابن أبى

إسحاق و عيسى بن عمرو و قرأ سائر القراء «وَرَسُولِهِ» بالرفع و فى الشواذ قراءه عكرمه و عطا لم ينقضوكم بالضاد المعجمه

الحجه

من قرأ «وَرَسُولِهِ» بالرفع فإنه على الابتداء و خبره محذوف و يدل عليه ما تقدمه و تقديره و رسوله أيضا برى ء منهم و يجوز أن يكون معطوفا على المضمر فى برى ء و حسن العطف عليه و إن كان غير مؤكد لأن قوله «مِنَ الْمُشْرِكِينَ» قام مقام التوكيد و ذكر سيبويه وجهها ثالثا و هو أن يكون معطوفا على موضع أن و هذا وهم منه لأن أن المفتوحه مع ما بعدها فى تأويل المصدر فقد تغيرت عن حكم المبتدأ و صارت فى حكم ليت و لعل و كان فى إحداثها معنى يفارق المبتدأ فكما لا يجوز العطف على مواضعهن فكذا لا يجوز العطف على موضع أن و إنما يجوز العطف على موضع إن المكسوره كما قال الشاعر:

فمن يك أمسى بالمدينه رحله فإنى و قيار بها لغريب

و لعل سيبويه توهم أنها مكسوره فحمل على موضعها فقد قرأ فى الشواذ إن الله برى ء بالكسر فلعله تأول على هذه القراءه و من نصب عطفه على اسم الله تعالى و على هذا فيكون خبره محذوفا أيضا و من قرأ لم ينقضوكم فمعناه لم ينقضوا أموركم و عهودكم.

اللغه

الأذان الإعلام يقال أذنته بكذا فأذن أى أعلمته فعلم و قيل إن أصله من النداء الذى يسمع بالأذن و معناه أوقعه فى أذنه و تأذن بمعنى آذن كما يقال تيقن و أيقن و المده و الزمان و الحين نظائر و أصله من مددت الشى ء مدا فكأنه زمان طويل الفسحه و المده عند المتكلمين اسم للمعدود من حركات الفلك و هو محدث.

الإعراب

و أذان عطف على براءه عن الزجاج و قيل إن تقديره عليكم أذان لأن فيه معنى الأمر فيكون مبتدأ و خبره محذوف عن على بن عيسى و يجوز أن يكون مبتدأ و الخبر قوله «أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ» على حذف الباء كأنه قال بأن الله و على الوجهين الأولين يكون موضع أن نصبا على أنه مفعول له و قوله «الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ» فى موضع نصب على الاستثناء و بشر معطوف على معنى الأذان أى أذن و بشر عن أبى مسلم.

المعنى

ثم بين سبحانه أنه يجب إعلام المشركين ببراءه منهم لثلاث ينسبوا المسلمين إلى الغدر قال «وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ» معناه و إعلام و فيه معنى الأمر أى أذنوا

الناس يعنى أهل العهد وقيل المراد بالناس المؤمن والمشرک لأن الكل داخلون فى هذا الإعلام وقوله «إِلَى النَّاسِ» أى للناس يقال هذا إعلام لك وإليك «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» فيه ثلاثه أقوال (أحدها)

أنه يوم عرفه عن عمر و سعيد بن المسيب و عطا و طاووس و مجاهد و روى ذلك عن على (عليه السلام) و رواه المسور بن مخزومه عن النبى ص

قال عطا الحج الأكبر الذى فيه الوقوف و الحج الأصغر الذى ليس فيه وقوف و هو العمره (و ثانيها)

أنه يوم النحر عن على و ابن عباس و سعيد بن جبير و ابن زيد و النخعى و مجاهد و الشعبى و السدى و هو المروى عن أبى عبد الله (عليه السلام) و رواه ابن أبى أوفى عن النبى ص

قال الحسن و سمي الحج الأكبر لأنه حج فيه المشركون و المسلمون و لم يحج بعدها مشرك (و ثالثها) أنه جميع أيام الحج عن مجاهد أيضا و سفيان فمعناه أيام الحج كلها كما يقال يوم الجمل و يوم صفين و يوم بعث يراد به الحين و الزمان لأن كل حرب من هذه الحروب دامت أياما «أَنَّ اللَّهَ بَرَىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ» أى من عهد المشركين فحذف المضاف «وَرَسُولِهِ» معناه و رسوله أيضا برىء منه و قيل إن البراءة الأولى لنقض العهد و البراءة الثانية لقطع الموالاة و الإحسان فليس بتكرار «فَإِنْ تُبْتِغُوا فَهَوْ خَيْرٌ لَّكُمْ» معناه فإن تبتم فى هذه المدة أيها المشركون و رجعتم عن الشرك إلى توحيد الله فهو خير لكم من الإقامة على الشرك لأنكم تنجون به من خزي الدنيا و عذاب الآخرة «وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» عن الإيمان و صبرتم على الكفر «فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» أى لا تعجزونه عن تعذيبكم و لا تفوتون بأنفسكم من أن يحل بكم عذابه فى الدنيا و فى هذا إعلام بأن الإمهال ليس بعجز و إنما هو لإظهار الحججه و المصلحه ثم أوعدهم بعذاب الآخرة فقال «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» أى أخبرهم مكان البشاره بعذاب موجه و هو عذاب النار فى الآخرة «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» قال الفراء استثنى الله تعالى من براءته و براءه رسوله من المشركين قوما من بنى كنانة و بنى ضمره كان قد بقى من أجلهم تسعه أشهر أمر بإتمامها لهم لأنهم لم يظاهروا على المؤمنين و لم ينقضوا عهد رسول الله ص و قال ابن عباس عنى به كل من كان بينه و بين رسول الله ص عهد قبل براءه و ينبغى أن يكون ابن عباس أراد بذلك من كان بينه و بينه عقد هدنه و لم يتعرض له بعداوه و لا ظاهر عليه عدوا لأن النبى ص صالح أهل هجر و أهل البحرين و إيله و دومه الجندل

وله عهود بالصلح و الجزية و لم ينبذ إليهم بنقض عهد و لا حاربهم بعد و كانوا أهل ذمه إلى أن مضى لسييله ص و وفى لهم بذلك من بعده «ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئاً» معناه لم ينقصوكم من شروط الهدنه شيئاً و قيل معناه لم يضرؤكم شيئاً «وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِداً» أى لم يعاونوا عليكم أيها المؤمنون أحداً من أعدائكم «فَاتَّبَعُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ» أى إلى انقضاء مدتهم التى وقعت المعاهده بينكم إليها «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» لنقض العهود.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٥ الى ٦]

إشاره

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)

اللغه

الانسلاخ خروج الشىء مما لابسه و أصله من سلخ الشاه و هو نزع الجلد عنها و سلخنا شهر كذا نسلخه سلخا و سلوخا و الحصر المنع من الخروج عن محيط و الحصر و الحبس و الأسر نظائر و المرصد الطريق و مثله المرقب و المربا و رصده يرصده رصداً.

الإعراب

قال أبو الحسن الأخفش قوله «كُلَّ مَرْصِدٍ» المعنى على كل مرصد فحذفت على و أنشد:

نغالى اللحم للأضياف نيا و نرخصه إذا نضج القدور

المعنى نغالى باللحم فحذفت الباء قال الزجاج «كُلَّ مَرْصِدٍ» ظرف كقولك ذهبت مذهبا و ذهبت طريقا و ذهبت كل طريق قال أبو على لا يحتاج فى هذا إلى تقدير على إذا كان المرصد اسما للمكان كما إنك إذا قلت ذهبت مذهبا و دخلت مدخلا إذا جعلت المذهب و المدخل اسمين للمكان لم يحتج إلى على و لا إلى تقدير حرف جر إلا أن أبا الحسن ذهب

إلى أن المرصد اسم للطريق و إذا كان اسما للطريق كان مخصوصا و إذا كان مخصوصا وجب أن لا يصل الفعل الذى لا يتعدى إليه إلا- بحرف جر نحو قعدت على الطريق إلا أن يجىء فى ذلك اتساع نحو ما حكاه سيبويه من قولهم ذهب الشام و دخلت البيت و قد غلط أبو إسحاق الزجاج فى قوله «كُلَّ مَرَصِدٍ» ظرف كقولك ذهبت مذهبا و ذهبت طريقا فى أن جعل الطريق ظرفا كالمذهب و ليس الطريق بظرف لأنه مكان مخصوص و قد نص سيبويه على اختصاصه ألا ترى أنه حمل قول ساعده:

لدى بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

على أنه قد حذف منه الحرف اتساعا كما حذف من ذهب الشام و إذا أثبت ذلك فالمرصد مثله أيضا فى الاختصاص و أن لا يكون ظرفا إذا كان اسما للطريق و قوله «أَحَدٌ» فأعراه أنه مرفوع بفعل مضمر الذى ظهر تفسيره، المعنى و إن استجارك أحد قال الزجاج و من زعم أنه يرفع أحدا بالابتداء فقد أخطأ لأن إن الجزاء لا يتخطى ما يرفع بالابتداء و يعمل فيما بعده فلو أظهرت المستقبل لقلت إن أحد يقيم أكرمه و لا يجوز إن أحد يقيم زيد يقيم لا يجوز أن يرفع زيد بفعل مضمر الذى ظهر تفسيره و يجزم و إنما جاز فى إن لأن إن يلزمها الفعل و جواب الجزاء يكون بالفعل و غيره و لا يجوز أن تضم و تجزم بعد المبتدأ لأنك تقول هاهنا إن تأتني فزيد يقوم فالموضع موضع ابتداء قال أبو على اعلم أن جواب الشرط و إن كان بغير الفعل فالأصل فيه الفعل و الفاء و إذا واقعان موقع الفعل بدلاله أن قوله و يذرهم على قراءه من قرأ بالجزم فمحمول على الموضع من قوله فلا هادى له و أما قول أبو إسحاق لا- يجوز أن تضم و تجزم بعد المبتدأ و لعمرى أنه لا- يجوز أن يضم الفعل فيرفع الاسم الذى يرتفع بالابتداء بالفعل المضمر فى نحو قولك إن تأتني فزيد يقوم لأن الجزم لا يقع بعد المبتدأ و لكن لا يمتنع أن يقع الجزم بعد الفاعل فى الجزاء كما يقع فى الشرط لأن الجزاء موضع فعل كما أن الشرط موضع فعل فالمسألة التى منع أبو إسحاق إجازتها جائزه لا إشكال فى جوازها و هى قوله إن يقيم أحد زيد يقيم و قد نص سيبويه على إجازته ذلك قال الزجاج و إنما يجوز الفصل فى باب إن لأن إن أم الجزاء و لا يزول عنه إلى غيره فأما أخواتها فلا يجوز ذلك فيها إلا فى الشعر قال:

المعنى

ثم بين سبحانه الحكم فى المشركين بعد انقضاء المده فقال «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ» قيل هى الأشهر الحرم المعروفه ذو القعده و ذو الحجه و المحرم و رجب ثلاثه سرد و واحد فرد عن جماعه و قيل هى الأشهر الأربعة التى حرم القتال فيها و جعل الله للمشركين أن يسيحوا فى الأرض آمنين على ما ذكرناه من اختلاف المفسرين فيها و على هذا فمنهم من قال معناه فإذا انسلخ الأشهر بانسلاخ المحرم لأن المشركين من كان منهم لهم عهد أمهلوا أربعه أشهر من حين نزلت براءه و نزلت فى شوال و من لا عهد لهم فأجلهم من يوم نزول النداء و هو يوم عرفه أو يوم النحر إلى تمام الأشهر الحرم و هى بقيه ذى الحجه و المحرم كله فيكون ذلك خمسين يوما فإذا انقضت هذه الخمسون يوما انقضت الأجلان و حل قتالهم سواء كان لهم عهد خاص أو عام و منهم من قال معناه إذا انسلخ الأشهر الأربعة التى هى عشرون من ذى الحجه و المحرم و صفر و شهر ربيع الأول و عشر من شهر ربيع الآخر إذ حرمت فيها دماء المشركين و جعلنا لهم أن يسيحوا فيها آمنين «فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» أى فضعوا السيف فيهم حيث كانوا فى الأشهر الحرم و غيرها فى الحل أو فى الحرم و هذا ناسخ لكل آيه وردت فى الصلح و الإعراض عنهم «وَ خُذُوهُمْ» قيل فيه تقديم و تأخير و تقديره فخذوا المشركين حيث وجدتموهم و اقتلوهم و قيل ليس فيه تقديم و تأخير و تقديره فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم أو خذوهم و احصروهم على وجه التخيير فى اعتبار الأصلح من الأمرين و قوله «وَ اخْضِرُّوهُمْ» معناه و احبسوهم و استرقوهم أو فادوهم بمال و قيل و امنعوهم دخول مكة و التصرف فى بلاد الإسلام «وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ» أى بكل طريق و بكل مكان تظنون أنهم يمرون فيه و ضيقوا المسالك عليهم لتمكنوا من أخذهم و قوله «لَهُمْ» معناه لقتلهم و أسرهم «فَإِنْ تَابُوا» أى رجعوا من الكفر و انقادوا للشرع «وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ» أى قبلوا إقامة الصلاة و إيتاء الزكاه لأن عصمه الدم لا- تقف على إقامة الصلاة و أداء الزكاه فثبت أن المراد به القبول «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» أى دعوهم يتصرفون فى بلاد الإسلام لهم ما للمسلمين و عليهم ما عليهم و قيل معناه فخلوا سبيلهم إلى البيت أى دعوهم يحجوا معكم «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» و استدلووا بهذه الآيه على أن من ترك الصلاة متعمدا يجب قتله لأن الله تعالى أوجب الامتناع من قتل المشركين بشرط أن يتوبوا و يقيموا

الصلاه فإذا لم يقيموها وجب قتلهم «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ» معناه وإن طلب أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم منك الأمان من القتل بعد الأشهر الأربعة ليسمع دعوتك واحتجاجك عليه بالقرآن فأمنه و بين له ما يريد و أمهله حتى يسمع كلام الله و يتدبره و إنما خص كلام الله لأن معظم الأدله فيه «ثُمَّ أبلغه مأمنه» معناه فإن دخل فى الإسلام نال خير الدارين و إن لم يدخل فى الإسلام فلا تقتله فتكون قد غدرت به و لكن أوصله إلى ديار قومه التى يأمن فيها على نفسه و ماله «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» أى ذلك الأمان لهم بأنهم قوم لا يعلمون الإيمان و الدلائل فأمنهم حتى يسمعوا و يتدبروا و يعلموا و فى هذا دلالة على بطلان قول من قال المعارف ضروريه و فى الآيه دلالة على أن المتلو و المسموع كلام الله لأن الشرع و العرب جعلوا الحكايه كعين المحكى يقال هذا كلام سيبويه و شعر امرئ القيس و من ظن أن الحكايه تفارق المحكى لأجل هذا الظاهر فقد غلط لأن المراد ما ذكرناه.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٧ الى ٨]

اشاره

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)

القراءه

فى الشواذ قراءه عكرمه إيلا بياء بعد الهمزه.

الحجه

يمكن أن يكون أراد «إِلَّا» كقراءه الجماعه إلا- أنه أبدال اللام الأولى ياء لثقل الإدغام و لكسر الهمزه كما قالوا دينار و قيراط و الأصل دنار و قراط لقولهم دنانير و قراريط و قد جاء مع التضعيف وحده قال:

يا ليتما أمنا شالت نعمتها أيما إلى جنه أيما إلى نار.

الظهور العلو بالغلبه و أصله خروج الشىء إلى حيث يصح أن يدرك الرقبه و الانتظار و المراقبه و المراعاة و المحافظه نظائر و الرقيب الحافظ و الإيل العهد مأخوذ من الأليل و هو البريق يقال أل يؤول ألا إذا لمع و الآله الحربه للمعانها و أذن مؤلله مشبهه للحربه فى تحديدها قال الشاعر:

وجدناهم كاذبا إلهم و ذو الإل و العهد لا يكذب

و الإل القرابه قال حسان:

لعمرك إن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام

. المعنى

لما أمر سبحانه بنبد العهد إلى المشركين بين أن العله فى ذلك ما ظهر منهم من الغدر و أمر بإتمام العهد لمن استقام على الأمر فقال «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ» أى كيف يكون لهؤلاء عهد صحيح مع إضمارهم الغدر و النكث و هذا يكون على التعجب أو على الجحد و يدل عليه ما روى أن فى قراءه عبد الله كيف يكون عهد عند الله «وَلَا ذِمَّةٌ» فأدخل الكلام لا لأن معنى الأول جحد أى لا يكون لهم عهد و قيل معناه كيف يأمر الله و رسوله بالكف عن دماء المشركين ثم استثنى سبحانه فقال «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» أى فإن لهم عهدا عند الله لأنهم لهم يضمروا الغدر بك و الخيانه لك و اختلف فى هؤلاء من هم فقولهم قريش عن ابن عباس و

قيل هم أهل مكه الذين عاهدهم رسول الله يوم الحديبيه فلم يستقيموا و نقضوا العهد بأن أعانوا بنى بكر على خزاعه فضرب لهم رسول الله ص بعد الفتح أربعة أشهر يختارون أمرهم إما أن يسلموا و إما أن يلحقوا بأى بلاد شاءوا فأسلموا قبل الأربعة الأشهر

عن قتاده و ابن زيد و قيل هم من قبائل بكر بنو خزيمه و بنو مدلج و بنو ضميره و بنو الدئل و هم الذين كانوا قد دخلوا عهد قريش يوم الحديبيه إلى المده التى كانت بين رسول الله ص و بين قريش فلم يكن نقضها إلا قريش و بنو الدئل من بكر فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن له نقض إلى مدته و هذا القول أقرب إلى الصواب لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد و بعد فتح مكه «فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ» معناه فما استقاموا لكم على العهد أى ما داموا باقين معكم على الطريقه المستقيمه فكونوا معهم كذلك «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» للنكث و الغدر «كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا

عَلَيْكُمْ» هاهنا حذف و تقديره كيف يكون لهم عهد و كيف لا تقتلونهم و إنما حذفه لأن ما قبله من قوله كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ يدل على ذلك و مثله قول الشاعر يرثي أخا له قد مات:

و خبرتmani أنما الموت بالقرى فكيف و هاتا هضبه و قلب

أى فكيف مات و ليس بقريه و مثله قول الحطيئة:

فكيف و لم أعلمهم حدلوكم على معظم و لا أديمكم قدوا

أى و كيف تلموننى على مدح قوم و تدمونهم فاستغنى عن ذكر ذلك لأنه جرى فى القصيده ما يدل على ما أضمره و معناه كيف يكون لهؤلاء عهد عند الله و عند رسوله و هم بحال إن يظهروا عليكم و يظفروا بكم و يغلبوكم «لا- يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَ لا ذِمَّةً» أى لا- يحفظوا و لا يراعوا فيكم قرابه و لا عهدا و الإل القرابه عن ابن عباس و الضحاك و العهد عن مجاهد و السدى و الجوار عن الحسن و الحلف عن قتاده و اليمين عن أبى عبيده و قيل أن الإل اسم الله تعالى عن مجاهد و روى أن أبا بكر قرئ عليه كلام مسيلمه فقال لم يخرج هذا من إل فأين يذهب بكم و من قال إن الإل هو العهد قال جمع بينه و بين الذمه و إن كان بمعناه لاختلاف معنى اللفظين كما قال:

" و ألقى قولها كذبا و مينا"

و قال:

" متى أدن منه يتأ عنى و يبعد"

«يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ» معناه يتكلمون بكلام الموالين لكم لترضوا عنهم و تأبى قلوبهم إلا العداوه و الغدر و نقض العهد «وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» أى متمردون فى الكفر و الشرك عن ابن الإخشيد و قال الجبائى أراد كلهم فاسقون لكنه وضع الخصوص موضع العموم و قال القاضى معناه أكثرهم خارجون عن طريق الوفاء بالعهد و أراد بذلك رؤساءهم.

ص: ١٦

إشارة

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا - فَصِدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) - لَا يَزِقُّيُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا - وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأَخِوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَانَهُمُ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣)

القراءة

قرأ أهل الكوفة و الشام «أَيْمَانَهُ الْكُفْرِ» بهمزتين و قرأ الباقون أيمه بهمزه واحده و ياء بعدها و

قرأ ابن عامر لا إيمان بكسر الهمزة و رواه ابن عقده بإسناده عن عريف بن الوضاح الجعفي عن جعفر بن محمد (عليه السلام)

و الباقون بفتحها.

الحج

قال أبو علي أئمه أصله أفعله واحدها إمام فإذا جمعته على أفعله ففيه همزة هي فاء الفعل و يزيد عليها همزة أفعله الزائدة فيجتمع همزتان و اجتماع الهمزتين في كلمة لا يستعمل بحقيقتها قال الزجاج أصله أئمه و لكن الميمين لما اجتمعتا أدغمت الأولى في الثانية و ألقيت حركتها على الهمزة فصارت أئمه فأبدل النحويون من الهمزة المكسورة الياء قال و من قال هذا أوم من هذا كان أصله أم فجعلها واوا مفتوحة كما قالوا في جمع آدم أوادم قال أبو علي و من جمع بين الهمزتين في أئمه فحجته أن سيويه قال زعموا أن ابن أبي إسحاق كان يحقق الهمزتين في أناس معه و قد يتكلم ببعضه العرب و هو ردى ء و وجهه من القياس أن تقول أن الهمزة حرف من حروف الحلق كالعين و غيره و قد جمع بينهما في نحو كعاعه و كع يكع فكما جاز اجتماع العينين جاز اجتماع الهمزتين قال علي بن عيسى إنما جاز اجتماع الهمزتين هنا لثلاث - يجتمع على الكلمة تغيران الإدغام و القلب مع خفه التحقيق لأجل ما بعده من السكون و على هذا تقول هذا أم من هذا بهمزتين قال و إنما قلبت الهمزة من أئمه دون حركة ما قبلها لأن الحركة إنما نقلت من الميم إلى الهمزة لبيان زنه الكلمة فلو ذهبت بقلبها على ما قبلها لكانت مناقضا للغرض فيها و أما قوله «لَا أَيْمَانَ لَهُمْ» فمن فتح الهمزة قال هو أشبه بالموضع فقد قال نَكُثُوا أَيْمَانَهُمْ و من كسرهما جعله مصدر آمنتته إيماننا

خلاف خوفته ولا يريد مصدرا من الذى هو صدق فيكون تكرارا لدلاله ما تقدم من قوله فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ عَلَى أَنْ أَهْلَ الْكُفْرِ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ.

اللغة

الأيمان جمع يمين و هو القسم و الطعن الاعتماد بالعيب و أصله الطعن بالرمح و الإمام هو المتقدم للاتباع فالإمام فى الخير مهتد هاد و فى الشر ضال مضل و الهم مقارنه الفعل بالعزم من غير إيقاع له و قد ذموا بهذا الهم فيه دليل على العزم و قد يستعمل الهم على مقارنه العزم و البدء فعل الشىء من قبل غيره و هو فعل الشىء أولا و المره فعل لم يتكرر و هى الفعله من المر و المره و الدفعه و الكره نظائر.

المعنى

ثم بين سبحانه خصال القوم فقال «اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَيَّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ» و معناه أعرضوا عن دين الله و صدوا الناس عنه بشىء يسير نالوه من الدنيا و أصل الاشتراء استبدال ما كان من المتاع بالثمن و نقيضه البيع و هو العقد على تسليم المتاع بالثمن و معنى الفداء هنا أن اشتراءهم هذا أدهمهم إلى الصد عن الإسلام و هذا ورد فى قوم من العرب جمعهم أبو سفيان على طعمامه ليستميلهم على عداوه النبي ص عن مجاهد و قيل ورد فى اليهود الذين كانوا يأخذون الرشا من العوام على الحكم بالباطل عن الجبائى «إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى بشىء العمل عملهم «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَا لَا ذِمَّةً» سبق معناه و الفائدته فى الإعادة أن الأول فى صفة الناقضين للعهد و الثانى فى صفة الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا- و قيل إنما كرر تأكيدا «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» أى المجاوزون الحد فى الكفر و الطغيان «فَإِنْ تَابُوا» أى ندموا على ما كان منهم من الشرك و عزموا على ترك العود إليه و قبلوا الإسلام «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ» أى قبلوها و أدوها عند لزومهما «فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ» أى فهم إخوانكم فى الدين فعاملوهم معاملة إخوانكم من المؤمنين «وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ» أى نبينها و نميزها بخاصه لكل واحده منها تتميز بها من غيرها حتى يظهر مدلولها على أتم ما يكون من الظهور فيها «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» ذلك و يتبينونه دون الجهال الذين لا يتفكرون «وَإِنْ نَكُنُوا» أى نقضوا «أَيْمَانَهُمْ» أى عهودهم و ما حلفوا عليه «مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ» أى من بعد أن عقده «وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ» أى عابوه و قدحوا فيه «فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ» أى رؤساء الكفر و الضلاله و خصهم بالأمر بقتالهم لأنهم يضلون أتباعهم قال الحسن و أراد به جماعه الكفار و كل كافر إمام لنفسه فى الكفر و لغيره فى الدعاء إليه و قال ابن عباس و قتاده أراد به رؤساء قريش مثل الحرث بن هشام و أبى سفيان بن حرب و عكرمه بن أبى جهل و سائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد و كان حذيفه بن اليمان يقول لم يأت أهل

هذه الآية بعد و قال مجاهد هم أهل فارس و الروم و

قرأ على (عليه السلام) هذه الآية يوم البصره ثم قال أما و الله لقد عهد إلى رسول الله ص و قال لى يا على لتقاتلن الفئه الناكثه و الفئه الباغيه و الفئه المارقه

«إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ» من قرأ بفتح الهمزه فمعناه أنهم لا يحفظون العهد و اليمين كما يقال فلان لا عهد له أى لا وفاء له بالعهد و من قرأ بالكسر فمعناه لا تؤمنوهم بعد نكثهم العهد و يحتمل أن يكون معناه أنهم إذا آمنوا إنسانا لا يفون به و يحتمل أن يكون معناه أنهم كفروا فلا إيمان لهم «لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» معناه قاتلوهم لينتهوا عن الكفر فإنهم لا ينتهون عنه بدون القتال و قيل معناه ليكن قصدكم فى قتالكم انتهاؤهم عن الشرك فإن قيل كيف نفى بقوله «لا أَيْمَانَ لَهُمْ» ما أثبتته بقوله «إِنْ نَكَّثُوا أَيْمَانَهُمْ قِيلَ لَهُ إِنْ الْإِيمَانَ الَّتِي أَثْبَتَهَا هِيَ مَا حَلَفُوا بِهَا وَ عَقَدُوا عَلَيْهَا وَ إِنَّمَا نَفَاهَا مِنْ بَعْدِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَفُوا بِهَا وَ لَمْ يَتَمَسَّكُوا بِمَوْجِبِهَا «أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ» الألف للاستفهام و المراد به التحضيض و الإيجاب و معناه هلا تقاتلونهم و قد نقضوا عهودهم التي عقدوها و اختلف فى هؤلاء ف قيل هم اليهود الذين نقضوا العهد و خرجوا مع الأحزاب و هموا بإخراج الرسول من المدينه كما أخرجه المشركون من مكه عن الجبائى و القاضى و قيل هم مشركو قريش و أهل مكه «وَ هُمْ بَدَأُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» أى بدءوكم بنقض العهد عن ابن إسحاق و الجبائى و قيل بدءوكم بقتال حلفاء النبى ص من خزاعه عن الزجاج و قيل بدءوكم بالقتال يوم بدر و قالوا حين سلم العير لا- ننصرف حتى نستأصل محمدا و من معه «أَتَخَشَوْنَهُمْ» أى أ تخافون أن ينالكم من قتالكم مكروه لفظه استفهام و المراد به تشجيع المؤمنين و فى ذلك غايه الفصاحه لأنه جمع بين التقرير و التشجيع «فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» المعنى لا- تخشوهم و لا- تتركوا قتالهم خوفا على أنفسكم منهم فإنه سبحانه أحق أن تخافوا عقابه فى ترك أمره بقتالهم إن كنتم مصدقين بعقاب الله و ثوابه أى إن كنتم مؤمنين فخشيته الله أحق بكم من خشية غيره و الله أعلم و أحكم.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٤ الى ١٥]

اشاره

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)

القراءه

فى الشواذ قراءه الأعرج و ابن أبى إسحاق و عيسى الثقفى و عمرو بن عبيد و يتوب الله بالنصب و رويت عن أبى عمرو أيضا.

ص: ١٩

قال ابن جنى إذا نصب فالتوبه داخله فى جواب الشرط و إذا رفع فهو استئناف و تقديره فى النصب أن تقاتلوهم تكن هذه الأشياء كلها التى أحدها التوبه من الله على من يشاء و الوجه قراءه الجماعه على الاستئناف لأنه تم الكلام على قوله و يُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ثم استأنف فقال «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» لأن التوبه منه سبحانه على من يشاء ليست مسببه عن قتالهم.

المعنى

ثم أكد سبحانه ما تقدم بأن أمر المسلمين بقتالهم و بشرهم بالنصر و الظفر عليهم فقال «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ» قتلا و أسرا «وَيُخْزِهِمْ» أى و يذلهم «وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ» أى و يعنكم أيها المؤمنون عليهم «وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ» يعنى صدور بنى خزاعه الذين بيت عليهم بنو بكر عن مجاهد و السدى لأنهم كانوا حلفاء النبى ص «وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ» معناه و يكون ذلك النصر شفاء لقلوب المؤمنين التى امتلأت غيظا لكثرة ما نالهم من الأذى من جهتهم ثم استأنف سبحانه فقال «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» أى و يقبل توبه من تاب منهم مع فرط تعديهم رحمه و فضلا «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» عليهم بتوبتهم إذا تابوا حكيم فى أمرهم بقتالهم إذا نكثوا قبل أن يتوبوا و يرجعوا لأن أفعاله كلها صواب و حكمه و فى هذا دلالة على نبوه نبينا ص لأنه وافق خبره المخبر.

النظم

و الوجه فى اتصال قوله «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» بما قبله شيان (أحدهما) البشاره بأن فيهم من يتوب و يرجع عن الكفر إلى الإيمان (و الآخر) بيان أنه ليس فى قتالهم اقتطاع لأحد منهم عن التوبه.

[سوره التوبه (٩): آيه ١٦]

اشاره

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)

اللغه

الحسبان قوه المعنى فى النفس من غير قطع و هو مشتق من الحساب لدخوله فيما يحتسب به و الترك ضد ينافى الفعل المبتدأ فى محل القدره عليه و يستعمل بمعنى أن لا يفعل كقوله «وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ» و الوليجه الدخيله فى القوم من غيرهم و البطاناه مثله وليجه الرجل من يختص بدخله أمره دون الناس الواحد و الجمع فيه سواء و كل شىء دخل فى شىء ليس منه فهو وليجه قال طرفه:

فإن القوافي يتلجن موالجا تضايق عنه أن تولجه الإبر

. الإعراب

أم حرف عطف يعطف به الاستفهام و «أَمْ حَسِبْتُمْ» معطوف على ما تقدم من قوله أَلَا تَقَاتِلُونَ و هو من الاستفهام المعترض فى وسط الكلام فجعل نفي الفعل مع تقريب لوقوعه و لم يفعل نفي الفعل بعد إطماع فى وقوعه.

المعنى

ثم نبه سبحانه على جلاله موقع الجهاد فقال «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا» معناه أظننتم أيها المؤمنون أن تتركوا من دون أن تكلفوا الجهاد فى سبيل الله مع الإخلاص «وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ» معناه و لما يظهر ما علم الله منكم فذكر نفي العلم و المراد نفي المعلوم تأكيداً للنفي و إلا- فإن الله عز اسمه عالم بما يكون قبل أن كان و بما لا يكون لو كان كيف كان يكون و تقديره أظننتم أن تتركوا و لم تجاهدوا «وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَ لِيَجْهَ» أى و لم يعلم الله الذين لم يتخذوا سوى الله و سوى رسوله و المؤمنين بطانه و أولياء يوالونهم و يفشون إليهم أسرارهم و قال الجبائى هو أن يكونوا منافقين و هو قول الحسن و فى هذه دلالة على تحريم موالاه الكفار و الفساق و الألف بهم «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» أى عليم بأعمالكم فيجازيكم عليها.

النظم

وجه اتصال هذه الآيه بما قبلها أنه لما تقدم الأمر بالقتال عطف عليه بهذا الشرط و هو الإخلاص فى الجهاد على وجه قطع العصمه ليظهر الظفر و يستحق الثواب.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ١٨]

إشارة

ما كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

القراءة

قرأ أهل البصره و ابن كثير مسجد الله على الواحد و هو قراءة ابن عباس و سعيد بن جبير و مجاهد و الباقون «مَسَاجِدَ اللَّهِ».

ص: ٢١

حجه من أفرد أنه عنى به المسجد الحرام و حجه من جمع أنه عنى به المسجد الحرام و غيره من المساجد و يحتمل أن يكون أراد المسجد الحرام و إنما جمع لأن كل موضع منه مسجد يسجد عليه فيكون القراءتان بمعنى.

اللغة

الأصل فى المسجد هو موضع السجود فى العرف و يعبر به عن البيت المهيأ لصلاة الجماعة فيه و العماره أن يجدد منه ما استرم من الأبنية و منه اعتمر إذا زار لأنه يجدد بالزياره ما استرم من الحال.

المعنى

لما أمر الله سبحانه بقتال المشركين و قطع العصمه و الموالاه عنهم أمر بمنعهم عن المساجد فقال «ما كان للمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ» معناه لا ينبغى للمشركين أن يكونوا قواما على عماره مساجد الله و متولين لأمرها و ينبغى أن يعمرها المسلمون و قيل أن المراد بذلك المسجد الحرام خاصة و قيل هى عامه فى جميع المساجد «شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ» أى حال شهادتهم على أنفسهم بالكفر أو مع شهادتهم و اختلف فى العماره للمسجد فقيل هى بدخوله و نزوله كما يقال فلان يعمر مجلس فلان إذا أكثر غشيانه لأن المسجد تكون عمارته بطاعه الله و عبادته و قيل هى باستصلاحه و رم ما استرم منه لأنه إنما يعمر للعباده عن الجبائى و قيل هى بأن يكونوا من أهله أى لا ينبغى أن يترك المشركون فيكونوا أهل المسجد الحرام عن الحسن و اختلف فى شهادتهم على أنفسهم بالكفر كيف هى فقيل هى أن النصرانى يسأل ما أنت فيقول أنا نصرانى و اليهودى يقول أنا يهودى و كذلك المشرك إذا سئل ما دينك يقول مشرك لا- يقولها أحد غير العرب عن السدى و قيل معناه إن كلامهم يدل على كفرهم كما يقال كلام فلان يدل على بطلان دعواه عن الحسن و قيل هى قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملكك و قيل شهادتهم سجودهم لأصنامهم مع إقرارهم بأنها مخلوقه عن ابن عباس و معناه أنهم يشهدون على أنفسهم بأفعالهم و أحوالهم و من أظهر شيئا و بينه يقال قد شهد به «أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» التى هى من جنس الطاعه من المؤمنين أى بطلت لأنهم أوقعوها على الوجه الذى لا يستحق لأجله الثواب عليها عند الله «وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ» أى مقيمون مؤبدون «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ» و لفظه إنما لإثبات المذكور و نفى ما عداه فمعناه لا يعمر مساجد الله بزيارتها و إقامة العبادات فيها أو بنائها و رم المسترم منها إلا- «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» أى من أقر بوحدانية الله و اعترف بالقيامه «وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ» بحدودها «وَ آتَى الزَّكَاةَ» أى أعطاهما إن وجبت عليه إلى مستحقها «وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» أى لم يخف سوى الله أحدا من المخلوقين

و هذا راجع إلى قوله «أَتَخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ» أى إن خشيتموهم فقد ساوَيْتموهم فى الإِشْرَاقِ كما قال فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ الْآيَةَ «فَعَسَى أَوْلَىٰ لَكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» إلى الجنة و نيل ثوابها لأن عسى من الله واجبه عن ابن عباس و الحسن و فى ذكر الصلاة و الزكاة و غير ذلك بعد ذكر الإيمان بالله دلالة على أن الإيمان لا يتناول أفعال الجوارح إذ لو تناولها جاز عطف ما دخل فيه عليه و من قال إن المراد فيه التفصيل و زياده البيان فقد ترك الظاهر.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٩ الى ٢٢]

اشاره

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَتُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أَوْلَىٰ لَكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

القراءه

فى الشواذ

قراءه محمد بن على الباقر (عليه السلام) و ابن الزبير و أبى وجره السوارى و أبى جعفر السعدى القارى أ جعلتم سقاه الحاج و عمره المسجد الحرام و قرأ الضحاك سقايه الحاج بالضم و عمره المسجد.

الحجه

أما سقاه فهو جمع ساق و عمره جمع عامر و أما «سِقَايَةَ» فقد قال ابن جنى فيه نظر و وجهه أن يكون جمعا جاء على فعال كعرق و عراق و رخل و رخال و ظئر و ظوار و توم

ص: ٢٣

و توأم و برى ء و براء و إنسان و إناس ثم أنت كما يؤنث من المجموع أشياء نحو حجاره و عيوره و كان من عدل عن قراءه الجماعة «سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ» إلى هذا إنما هرب من أن يقابل الحدث بالجواهر و ذلك أن من آمن جوهر و سقايه و عماره مصدران فلا بد إذن من حذف المضاف أى أ جعلتم هذين الفعلين كفعل من آمن بالله فلما رأى أنه لا بد من حذف المضاف قرأ سقاه و عمره على ما مضى.

اللغة

السقايه آله تتخذ لسقى الماء و السقايه مصدر كالسقى أيضا و قيل إنهم كانوا يسقون الحجيج الماء و الشراب و بيت البئر سقايه أيضا و البشاره الدلاله على ما يظهر به السرور فى بشره الوجه كما يقال بشرته أبشره بشرى و رضوان هو معنى يستحق بالإحسان و يدعو إلى الحمد على ما كان و يضاد سخط العصيان و النعيم مشتق من النعمه و هى اللين فأما النعمه بكسر النون فهى منفعه يستحق بها الشكر لأنها كنعمه العيش و أبدا للزمان المستقبل من غير آخر كما أن قط للماضى يقال ما رأيت قط و لا أراه أبدا و جمع الأبد آباد و أبود يقال لا أفعل ذلك أبد الأبيد و أبد الآبدين و تأبد المنزل أتى عليه و الأوابد الوحش سميت بذلك لطول أعمارها و قيل لم يموت وحشى حتف أنفه و إنما يموت بآفه و الآبده الداهيه.

النزول

قيل أنها نزلت فى على بن أبى طالب (عليه السلام) و العباس بن عبد المطلب و طلحه بن شيبه و ذلك أنهم افتخروا فقال طلحه أنا صاحب البيت و بيدى مفتاحه و لو أشاء بت فيه و قال العباس أنا صاحب السقايه و القائم عليها و

قال على (عليه السلام) ما أدرى ما تقولان لقد صليت إلى القبله سته أشهر قبل الناس و أنا صاحب الجهاد

عن الحسن و الشعبى و محمد بن كعب القرظى و

قيل أن عليا (عليه السلام) قال للعباس يا عم ألا تهاجر و ألا تلحق برسول الله فقال أ لست فى أفضل من الهجره أ عمر المسجد الحرام و أسقى حاج بيت الله فنزلت «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ»

عن ابن سيرين و مره الهمدانى و

روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن بريده عن أبيه قال بينا شيبه و العباس يتفاخران إذا مر بهما على بن أبى طالب (عليه السلام) فقال بما ذا تتفاخران فقال العباس لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد سقايه الحاج و قال شيبه أوتيت عماره المسجد الحرام فقال على (عليه السلام) استحييت لكما فقد أوتيت على صغرى ما لم تؤتيا فقالا و ما أوتيت يا على قال ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله و رسوله فقام العباس مغضبا يجر ذيله حتى دخل على رسول الله ص و قال أ ما ترى إلى ما يستقبلنى به

على فقال ادعوا لى عليا فدعى له فقال ما حملك على ما استقبلت به عمك فقال يا رسول الله صدمته بالحق فمن شاء فليغضب و من شاء فليرض فنزل جبرائيل (عليه السلام) فقال يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام و يقول اتل عليهم «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ» الآيات فقال العباس إنا قد رضينا ثلاث مرات

و فى تفسير أبى حمزه أن العباس لما أسر يوم بدر أقبل عليه أناس من المهاجرين و الأنصار فعيروه بالكفر و قطيعه الرحم فقال ما لكم تذكرون مساوئنا و تكتمون محاسننا قالوا و هل لكم من محاسن قال نعم و الله لنعمر المسجد الحرام و نحجب الكعبة و نسقى الحاج و نفك العانى فأنزل الله تعالى «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا» إلى آخر الآيات.

المعنى

«أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» هذا استفهام معناه الإنكار أى لا تجعلوا و فيه حذف يدل الكلام عليه و تقديره أ جعلتم أهل سقايه الحاج و أهل عماره المسجد الحرام كمن آمن بالله حتى يكون مقابله الشخص بالشخص أو يكون تقديره أ جعلتم السقايه و العماره كإيمان من آمن بالله حتى تكون مقابله الفعل بالفعل و سقايه الحاج سقيهم الشراب قال الحسن و كان نبىذ زبيب يسقون الحاج فى الموسم بين الله سبحانه أنه لا- يقابل هذه الأشياء بالإيمان بالله «وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» و بالجهاد فى سبيله فإنه لا مساواه بين الأمرين «لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ» فى الفضل و الثواب «وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي» إلى طريق ثوابه «الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» كما يهدى إليه من كان عارفا به فاعلا لطاعته مجتنباً لمعصيته ثم ابتداء سبحانه فقال «الَّذِينَ آمَنُوا» أى صدقوا و اعترفوا بوحدانيه الله «وَ هَاجَرُوا» أوطانهم التى هى دار الكفر إلى دار الإسلام «وَ جَاهِدُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ» أى تحملوا المشاق فى ملاقاته أعداء الدين «بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ» من غيرهم من المؤمنين الذين لم يفعلوا هذه الأشياء «وَ أَوْلِيكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» أى الظافرون بالبغيه «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ» برحمه فى الدنيا على ألسنه الرسل و بما بين فى كتبه من الثواب الموعود على الجهاد «بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ» فى الآخرة «وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فيها نَعِيمٌ مُّقِيمٌ» أى دائم لا يزول و لا ينقطع «خالدين فيها أبداً» أى دائمين فيها مع كون النعيم مقيماً لهم «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ» أى جزاء على العمل «عَظِيمٌ» أى كثير متضاعف لا يبلغه نعمه غيره من الخلق.

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

القراءة

قرأ أبو بكر عن عاصم و عشيراتكم على الجمع و الباقون «و عَشِيرَتُكُمْ» على التوحيد.

الحجه

من أفرد فلان العشيره يقع على الجمع و قال أبو الحسن العرب لا تجمع العشيره عشيرات و إنما تقول عشائر و من جمع فلان كل واحد من المخاطبين له عشيره.

اللغة

الاستحباب طلب المحبه و يجوز أن يكون استحب بمعنى أحب كما أن استجاب يكون بمعنى أجاب فيكون كأنه طلب محبه فوقع له و العشيره الجماعه ترجع إلى عقد واحد كالعشيره و منه المعاشره و الاعتراف اقتطاع الشىء من مكانه إلى غيره من قرفت القرحة إذا قشرتها و القرف القشر و التربص التثبت فى الشىء حتى يجىء وقته و التربص و التثبت و التنظر و التوقف نظائر و نقيضه التعجل.

النزول

روى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (عليه السلام) أنها نزلت فى حاطب بن أبى بلتعه حيث كتب إلى قريش يخبرهم بخبر النبى ص لما أراد فتح مكه.

المعنى

ثم نهى الله سبحانه المؤمنين عن موالاته الكافرين و إن كانوا فى النسب الأقربين فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ أَوْلِيَاءَ» و هذا فى أمر الدين فأما فى أمر الدنيا فلا بأس بمجالستهم و معاشرتهم لقوله سبحانه و صاحبهما فى الدنيا مَعْرُوفًا قال ابن عباس لما أمر الله تعالى المؤمنين بالهجره و أرادوا الهجره فمنهم من تعلقت به زوجته و منهم من تعلق به أبواه و أولاده فكانوا يمنعونهم من الهجره فيتركون الهجره لأجلهم فبين

سبحانه أن أمر الدين مقدم على النسب و إذا وجب قطع قرابه الأبوين فالأ-جنبي أولى «إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ» أى إن اختاروا الكفر و آثروه على الإيمان قال الحسن من تولى الشرك فهو مشرك و هذا إذا كان راضيا بشركه «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ» فترك طاعه الله لأ-جلهم و أطلعهم على أسرار المسلمين «فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» نفوسهم و الباخسون حقها من الثواب لأنهم وضعوا الموالاه فى غير موضعها لأن موضعها أهل الإيمان «قُلْ» يا محمد لهؤلاء المتخلفين عن الهجره إلى دار الإسلام «إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ» الذين ولدوكم «وَأَبْنَاؤُكُمْ» الذى ولدتموهم و هم الأولاد الذكور «وَأِخْوَانُكُمْ» فى النسب «وَأَزْوَاجُكُمْ» اللاتى عقدتم عليهن عقده النكاح «وَعَشِيرَتُكُمْ» أى و أقاربكم «وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا» أى اكتسبتموها و أقطعتموها و جمعتموها «وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا» أى تخشون أنها تكسد إذا اشتغلتم بطاعه الله تعالى و الجهاد «وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا» أى مساكن اخترتموها لأنفسكم و يعجبكم المقام فيها «أَحَبَّ إِلَيْكُمْ» أى أثر فى نفوسكم و أقرب إلى قلوبكم «مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» أى من طاعه الله و طاعه رسوله «وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ» أى و من الجهاد فى سبيل الله «فَتَرَبَّصُوا» أى انتظروا «حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» أى بحكمه فيكم و قيل بعقوبتكم على اختياركم هذه الأشياء على الجهاد و طاعه الله إما عاجلا و إما آجلا و فيه وعيد شديد عن الحسن و الجبائى و قيل بفتح مكه عن مجاهد و قال بعضهم و هذا لا يصح لأن سوره براءه نزلت بعد فتح مكه «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» مضى تفسيره.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٧]

اشاره

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَكَلْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

اللغه

الموطن الموضع الذى يقيم فيه صاحبه و هو مفعول من الوطن و استوطن

بالمكان إذا اتخذته وطننا و حنين اسم واد بين مكة و الطائف و الإعجاب السرور بما يتعجب منه و العجب السرور بالنفس و
الرحب السعه فى المكان و ضده الضيق و قولهم مرحبا معناه أتيت سعه و السكينه الطمأنينه و الأمانه و هى فعله من السكون قال
الشاعر:

لله قبر عالها ما ذا أجن لقد أجن سكينه و وقارا

و الجنود الجموع التى تصلح للحروب.

الإعراب

مواطن لا- ينصرف لأنه جمع ليس على مثال الآحاد «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ» أى و فى يوم حنين عطف على مواطن أى و نصركم فى يوم
حنين و إنما صرف حنينا لأنه اسم لمذكر و هو واد و لو ترك صرفه على أنه اسم للبقعه لجاز قال الشاعر:

نصروا نبيهم و شدوا أزرهم بحنين يوم تواكل الأبطال

و ما فى قوله «بِمَا رَحِبَتْ» مصدرية أى برحبها و سعتها.

المعنى

لما تقدم أمر المؤمنين بالقتال ذكرهم بعده بما أتاهم من النصر حالا بعد حال فقال «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ» اللام
للقسم فكانه سبحانه أقسم بأنه نصر المؤمنين أى أعانهم على أعدائهم فى مواضع كثيرة على ضعفهم و قله عددهم حثا لهم على
الانقطاع إليه و مفارقه الأهلين و الأقربين فى طاعته و

ورد عن الصادقين (عليه السلام) إنهم قالوا كانت المواطن ثمانين موطنا

و

روى أن المتوكل اشتكى شكايه شديده فنذر أن يتصدق بمال كثير إن شفاه الله فلما عوفى سأل العلماء عن حد المال الكثير
فاختلفت أقوالهم فأشير عليه أن يسأل أبا الحسن على بن محمد بن على بن موسى (عليه السلام) و قد كان حبسه فى داره فأمر أن
يكتب إليه فكتب يتصدق بثمانين درهما ثم سأله عن العله فى ذلك فقرا هذه الآية و قال عددنا تلك المواطن فبلغت ثمانين
موطنا

«وَيَوْمَ حُنَيْنٍ» أى و فى يوم حنين «إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ» أى سرتكم و صرتم معجبين بكثرتكم قال قتاده و كان سبب انهزام
المسلمين يوم حنين أن بعضهم قال حين رأى كثرة المسلمين لن نغلب اليوم عن قله فانهمزوا بعد ساعه و كانوا اثنى عشر ألفا و
قيل إنهم كانوا عشره آلاف و قيل ثمانيه آلاف و الأول أصح و أكثر فى الروايه «فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ

شَيْئًا» أى فلم يدفع عنكم كثرتمكم سوءا «وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ» أى برحبتها و الباء بمعنى مع و المعنى ضاقت عليكم الأرض مع سعتها كما يقال أخرج بنا إلى موضع كذا أى معنا و المراد لم تجدوا من الأرض موضعا للفرار إليه «ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» أى وليتم عن عدوكم منهزمين و تقديره وليتموهم أذباركم و انهزمتهم «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ» أى رحمته التى تسكن إليها النفس و يزول معها الخوف «عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» حين رجعوا إليهم و قاتلوهم و قيل على المؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله على و العباس فى نفر من بنى هاشم عن الضحاک بن مزاحم و

روى الحسن بن على بن فضال عن أبى الحسن الرضا أنه قال السكينة ریح من الجنة تخرج طيبة لها صورة كصوره وجه الإنسان فتكون مع الأنبياء أورده العياشى مسندا

«وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا» أراد به جنودا من الملائكة و قيل إن الملائكة نزلوا يوم حنين بتقوية قلوب المؤمنين و تشجيعهم و لم يباشروا القتال يومئذ و لم يقاتلوا إلا يوم بدر خاصة عن الجبائى «وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا» بالقتل و الأسر و سلب الأموال و الأولاد «وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ» أى و ذلك العذاب جزاء الكافرين على كفرهم «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» ذكر سبحانه ثم فى ثلاثة مواضع متقاربه (الأول) «ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» عطف على ما قبله من الفعل و هو قوله «ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ» (و الثانى) «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ» عطف على «وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» (و الثالث) «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ» عطف على «أَنْزَلَ» و إنما حسن عطف المستقبل على الماضى لأنه يشاكله فإن الأول تذكير بنعمه الله و الثانى وعد بنعمه الله و المعنى ثم يقبل الله توبه من تاب عن الشرك و رجع إلى طاعه الله و الإسلام و ندم على ما فعل من القبيح و يجوز أن يريد ثم يقبل الله توبه من انهزم من بعد هزيمته و يجوز أن يريد يقبل توبتهم عن إعجابهم بالكثرة و إنما علقه بالمشيئة لأن قبول التوبه تفضل من الله و لو كان واجبا على ما قاله أهل الوعيد لما جاز تعليقه بالمشيئة كما لا يجوز تعليق الثواب على الطاعه بالمشيئة و من خالف فى ذلك قال إنما علقها بالمشيئة لأن منهم من له لطف يصلح به و يتوب و يؤمن عنده و منهم من لا لطف له منه «وَ اللَّهُ غَفُورٌ» أى ستار للذنوب «رَحِيمٌ» بعباده.

[القصة]

ذكر أهل التفسير و أصحاب السير

أن رسول الله ص لما فتح مكة خرج منها متوجها إلى حنين لقتال هوازن و تقيف فى آخر شهر رمضان أو فى شوال من سنه ثمان من الهجره

و قد اجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النصرى و ساقوا معهم أموالهم و نساءهم و ذراريهم و نزلوا بأوطاس و قال كان دريد بن الصمه فى القوم و كان رئيس چشم و كان

ص: ٢٩

شيخا كبيرا قد ذهب بصره من الكبر فقال بأى واد أنتم قالوا بأوطاس قال نعم مجال الخيل لا حزن ضررس و لا سهل دهس مالى
أسمع رغاء البعير و نهيق الحمير و خوار البقر و ثغاء الشاه و بكاء الصبيان فقالوا إن مالك بن عوف ساق مع الناس أبناءهم و
أموالهم و نساءهم ليقاتل كل منهم عن أهله و ماله فقال دريد راعى ضان و رب الكعبه ثم قال ائتوني بمالك فلما جاءه قال يا
مالك إنك أصبحت رئيس قومك و هذا يوم له ما بعده رد قومك إلى عليا بلادهم و ألق الرجال على متون الخيل فإنه لا
ينفعك إلا رجل بسيفه و فرسه فإن كانت لك لحق بك من ورائك و إن كانت عليك لا تكون فضحت فى أهلك و عيالک
فقال له مالك إنك قد كبرت و ذهب علمك و عقلک و

عقد رسول الله ص لواءه الأ-كبر و دفعه إلى على بن أبى طالب (عليه السلام) و كل من دخل مکه برايه أمره أن يحملها و خرج
بعد أن قام بمکه خمسه عشر يوما و بعث إلى صفوان بن أميه فاستعار منه مائه درع فقال صفوان عاريه أم غضب فقال ص عاريه
مضمونه مؤداه فأعاره صفوان مائه درع و خرج معه و خرج من مسلمه الفتح ألفا رجل و كان (عليه السلام) دخل مکه فى عشره
آلاف رجل و خرج منها فى اثنى عشر ألفا و بعث رسول الله ص رجلا من أصحابه فانتهى إلى مالك بن عوف و هو يقول لقومه
ليصير كل رجل منكم أهله و ماله خلف ظهر و اكسروا جفون سيوفكم و أكمنوا فى شعاب هذا الوادى و فى الشجر فإذا كان فى
غشب الصبح فاحملوا حملة رجل واحد فهدوا القوم فإن محمدا لم يلق أحدا يحسن الحرب و لما صلى رسول الله ص بأصحابه
الغداه انحدر فى وادى حنين فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحيه و انهزمت بنو سليم و كانوا على المقدمه و انهزم ما
وراءهم و خلى الله تعالى بينهم و بين عدوهم لإعجابهم بكثرتهم و بقى على (عليه السلام) و معه الرايه يقاتلهم فى نفر قليل و مر
المنهزمون برسول الله ص لا يلوون على شىء و كان العباس بن عبد المطلب آخذ بلجام بغله رسول الله ص و الفضل عن يمينه
و أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب عن يساره و نوفل بن الحرث و ربيعة بن الحرث فى تسعه من بنى هاشم و عاشرهم أيمن
بن أم أيمن و قتل يومئذ و فى ذلك يقول العباس:

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعه و قد فر من قد فر عنه فأقشعوا

و قولى إذا ما الفضل كر بسيفه على القوم أخرى يا بنى ليرجعوا

و عاشرنا لاقى الحمام بنفسه لما ناله فى الله لا يتوجع

و لما رأى رسول الله ص هزيمة القوم عنه قال للعباس و كان جهوريا صيتا اصعد هذا الظرب فناد يا معشر المهاجرين و الأنصار يا أصحاب سوره البقره يا أهل بيعة الشجره إلى أين تفرون هذا رسول الله فلما سمع المسلمون صوت العباس تراجعوا و قالوا لبيك لبيك و تبادر الأنصار خاصه و قاتلوا المشركين حتى قال رسول الله ص الآن حمى الوطيس:

" أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب "

و نزل النصر من عند الله تعالى و انهزمت هوازن هزيمة قبيحه فمروا فى كل وجه و لم يزل المسلمون فى آثارهم و مر مالك بن عوف فدخل حصن الطاييف و قتل منهم زهاء مائه رجل و أغنم الله المسلمين أموالهم و نساءهم و أمر رسول الله بالذرارى و الأموال أن تحدر إلى الجعرانه و ولى على الغنائم بدليل بن ورقاء الخزاعى و مضى ص فى أثر القوم فوافى الطاييف فى طلب مالك بن عوف فحاصر أهل الطاييف بقيه الشهر فلما دخل ذو القعدة انصرف و أتى الجعرانه و قسم بها غنائم حنين و أوطاس قال سعيد بن المسيب حدثنى رجل كان فى المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن و أصحاب رسول الله لم يقفوا لنا حلب شاه فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغله الشهباء يعنى رسول الله فتلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا و ركبوا أكتافنا فكانوا إياها يعنى الملائكه قال الزهرى و بلغنى أن شيبه بن عثمان قال استدبرت رسول الله ص يوم حنين و أنا أريد أن أقتله بطلحه بن عثمان و عثمان بن طلحه و كانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله على ما فى نفسى فالتفت إلى و ضرب فى صدرى و قال أعيدك بالله يا شيبه فأرعدت فرائصى فنظرت إليه هو أحب إلى من سمعى و بصرى فقلت أشهد أنك رسول الله و أن الله أطلعك على ما فى نفسى و قسم رسول الله الغنائم بالجعرانه و كان معه من سبى هوازن ستة آلاف من الذرارى و النساء و من الإبل و الشاه ما لا يدرى عدته

قال أبو سعيد الخدرى قسم رسول الله للمتألفين من قريش من سائر العرب ما قسم و لم يكن فى الأنصار منها شىء قليل و لا كثير فمشى سعد بن عباده إلى رسول الله فقال يا رسول الله أن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى قسمك هذه الغنائم فى قومك و فى سائر العرب و لم يكن

فيهم من ذلك شىء فقال ص فأين أنت من ذلك يا سعد فقال ما أنا إلا امرؤ من قومي فقال رسول الله فاجمع لى قومك فى هذه الحظيره فجمعهم فخرج رسول الله فقام فيهم خطيبا فحمد الله و أثنى عليه ثم قال يا معشر الأنصار أ و لم آتكم ضلالا فهداكم الله و عاله فأغناكم الله و أعداء فألف بين قلوبكم قالوا بلى يا رسول الله ثم قال أ لا تجيبونى يا معشر الأنصار فقالوا و ما نقول و بما ذا نجيبك المن لله و لرسوله فقال رسول الله أما و الله لو شئتم لقلتم فصدقتم جئنا طريدا فأويناك و عائلا فأسيناك و خائفا فأمناك و مخذولا فنصرناك فقالوا المن لله و لرسوله فقال رسول الله ص و جدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعه من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا و و كلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام أ فلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء و البعير و تذهبون برسول الله إلى رحالكم فو الذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا و سلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار و لو لا الهجره لكنت امرءا من الأنصار اللهم ارحم الأنصار و أبناء الأنصار و أبناء أبناء الأنصار فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم و قالوا رضينا بالله و رسوله قسما ثم تفرقوا

و

قال أنس بن مالك و كان رسول الله ص أمر مناديا فنادى يوم أو طاس أ لا لا توطأ الجبالى حتى يضعن و لا غير الجبالى حتى يستبرئن بحيضه ثم أقبلت وفود هوازن و قدمت على رسول الله ص بالجعرانه مسلمين فقام خطيبهم و قال يا رسول الله إنما فى الحظائر من السبايا خالاتك و حواضنك اللاتى كن يكفلنك فلو أنا ملكنا ابن أبى شمر أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك رجونا عائدتهما و عطفهما و أنت خير الكفولين ثم أنشد أبياتا فقال ص أى الأمرين أحب إليكم السبى أو الأموال قالوا يا رسول الله خيرتنا بين الحسب و بين الأموال و الحسب أحب إلينا و لا نتكلم فى شاه و لا بعير فقال رسول الله ص أما الذى لبنى هاشم فهو لكم و سوف أكلم لكم المسلمين و أشفع لكم فكلموهم و أظهروا إسلامكم فلما صلى رسول الله ص الهاجره قاموا فتكلموا فقال النبى ص قد رددت الذى لبنى هاشم و الذى بيدي عليهم فمن أحب منكم أن يعطى غير مكره فليفعل و من كره أن يعطى فليأخذ الفداء و على فداؤهم فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم إلا قليلا من الناس سألوا الفداء و أرسل رسول الله ص إلى مالك بن عوف و قال إن جئتنى مسلما رددت إليك أهلك و مالك و لك عندى مائه ناقه فخرج إليه من الطائف فرد عليه أهله و ماله و أعطاه مائه من الإبل و استعمله على من أسلم من قومه.

ص: ٣٢

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

القرءاء

فى الشواذ قرءاء ابن السميعف أنجاس على الجمع و فى مصحف عبد الله ابن مسعود و إن خفتم عائله.

الحجه

قال ابن جنى هذا من المصادر التى جاءت على فاعله كالعاقبه و العافيه و اللاغيه.

اللغه

كل مستقذر نجس يقال رجل نجس و امرأه نجس و قوم نجس لأنه مصدر و إذا استعملت هذه اللفظه مع الرجس قيل رجس
نجس بكسر النون و العيله الفقر تقول عال يعيل إذا افتقر قال الشاعر:

و ما يدرى الفقير متى غناه و ما يدرى الغنى متى يعيل

. المعنى

لما تقدم النهى عن ولايه المشركين أزال سبحانه ولايتهم عن المسجد الحرام و حظر عليهم دخوله فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا
الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» معناه أن الكافرين أنجاس «فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» أى فامنعوهم عن المسجد الحرام قيل
المراد به منعهم من دخول الحرم عن عطا قال و الحرم كله مسجد و قبله و العام الذى أشار إليه هو سنه تسع الذى

نادى فيه على (عليه السلام) بالبراءه و قال لا يحجن بعد هذا العام مشرك

و قيل المراد به منعهم من دخول المسجد الحرام على طريق الولايه للموسم و العمره و قيل منعوا من الدخول أصلاً فى المسجد و
منعوا من حضور الموسم و دخول الحرم عن الجبائى و اختلف فى نجاسه الكافر فقال قوم من الفقهاء إن الكافر نجس العين و
ظاهر الآيه يدل على ذلك و روى عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب امنعوا اليهود و النصرارى من دخول مساجد المسلمين و أتبع
نهيه قول الله تعالى «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» الآيه و عن الحسن قال لا تصافحوا المشركين فمن صافحهم فليتوضأ و هذا يوافق ما
ذهب إليه أصحابنا من أن من صافح الكافر و يده رطبه و جب أن يغسل يده و إن كانت أيديهما يابستين مسحهما بالحائط و قال
آخرون إنما سماهم الله نجسا لخبث اعتقادهم و أفعالهم و أقوالهم و أجازوا للذمى دخول

المساجد قالوا إنما يمنعون من دخول مكة للحج قال قتاده سماهم نجسا لأنهم يجنبون ولا يغتسلون و يحدثون ولا يتوضئون فمنعوا من دخول المسجد لأن الجنب لا يجوز له دخول المسجد «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً» أى فقرا و حاجه و كانوا قد خافوا انقطاع المتاجر بمنع المشركين عن دخول الحرم «فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ» أى فسوف يغنيكم الله من جهه أخرى إن شاء أن يغنيكم بأن يرغب الناس من أهل الآفاق فى حمل الميره إليكم رحمه منه و نعمه عليكم قال مقاتل أسلم أهل نجده و صنعاء و جرش من اليمن و حملوا الطعام إلى مكة على ظهور الإبل و الدواب و كفاهم الله تعالى ما كانوا يتخوفون و قيل معناه يغنيكم بالجزية المأخوذه من أهل الكتاب و قيل بالمطر و النبات و قيل بإباحه الغنائم و إذا سئل عن معنى المشيئه فى قوله «إِنْ شَاءَ» فالقول فيه أن الله تعالى قد علم أن منهم من يبقى إلى وقت فتح البلاد و اغتنام أموال الأكاسره فيستغنى و منهم من لا يبقى إلى ذلك الوقت فلهدا علقه بالمشيئه و قيل إنما علقه بالمشيئه ليرغب الإنسان إلى الله تعالى فى طلب الغنى منه و ليعلم أن الغنى لا يكون بالاجتهاد «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ» بالمصالح و تدبير العباد و بكل شىء «حَكِيمٌ» فيما يأمر و ينهى.

[سوره التوبه (٩): آيه ٢٩]

اشاره

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)

اللغه

الدين فى الأصل الطاعه قال زهير:

لئن حللت بجوفى بنى أسد فى دين عمرو و حالت بيننا فداك

و الجزية فعله من جزى يجزى مثل القعهه و الجلسه و هى عطيه مخصوصه و جزاء لهم على تمسكهم بالكفر عقوبه لهم عن على بن عيسى و الصغار و الذل و النكال الذى يصغر قدر صاحبه يقال صغر يصغر صغارا فهو صاغر.

ص: ٣٤

«عَنْ يَدٍ» فى موضع نصب على الحال أى نقدا كما يقال باعه يدا بيد.

النزول

قيل هذه الآية نزلت حين أمر رسول الله ص بحرب الروم فغزا بعد نزولها غزوه تبوك عن مجاهد وقيل هى على العموم.

المعنى

ثم بين الله سبحانه أن من الكفار من يجوز تبيته بالجزية فقال «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» يعنى الذين لا يعترفون بتوحيد الله ولا يقرون بالبعث والنشور وهذا يدل على صحه ما يذهب أصحابنا إليه من أنه لا يجوز أن يكون فى جملة الكفار من هو عارف بالله وإن أقر باللسان وإنما يكونون معتقدين لذلك اعتقادا ليس بعلم لأنه صريح فى أن أهل الكتاب الذين يؤخذ منهم الجزية لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ومن قال إنه يجوز أن يكونوا عارفين بالله قال إن الآية خرجت مخرج الذم لهم لأنهم بمنزلة من لا يقر به فى عظم الجرم قال الجبائى لأنهم يضيفون إليه ما لا يليق به فكأنهم لا يعرفونه وإنما جمعت هذه الأوصاف لهم ولم يذكروا بالكفار من أهل الكتاب للتحريض على قتالهم لما هم عليه من صفات الذم التى توجب البراءة منهم والعداوة لهم «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» موسى وعيسى (عليه السلام) من كتمان نعت محمد ص وقيل يعنى ما حرمه محمد ص «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» وقيل الحق هاهنا هو الله تعالى أى دين الله والعمل بما فى التوراه من اتباع نبينا (عليه السلام) وقيل الحق هو الله ودينه الإسلام عن قتاده وقيل معناه ولا يطيعون الله طاعه أهل الإسلام عن أبى عبيده وقيل معناه لا يعترفون بالإسلام الذى هو الدين الحق «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» وصف الذين ذكروهم بأنهم من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى و قال أصحابنا إن المجوس حكمهم حكم اليهود والنصارى «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ» أى نقدا من يده إلى يد من يدفعه إليه من غير نائب كما يقال كلمته فما بفم وقيل معناه عن قدره لكم عليهم وقهر لهم كما يقال كان اليد لفلان وقيل يد لكم عليهم ونعمه تسدونها إليهم بقبول الجزية منهم «وَهُمْ صَاغِرُونَ» أى ذليلون مقهورون يجرون إلى الموضع الذى يقبض منهم فيه بالعنف حتى يؤدوها وقيل هو أن يعطوا الجزية قائمين والآخذ جالس عن عكرمه.

إشارة

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)

القراءة

قرأ عاصم و الكسائي و يعقوب و سهل «عُزَيْرٌ» منونا و الباقون عزير ابن الله بغير تنوين و قرأ عاصم وحده «يُضَاهِئُونَ» بالهمزة و قرأ الباقون يضاھون بغير الهمزة.

الحجج

قال أبو علي من نون عزيرا جعله مبتدأ و جعل ابنا خبره و إذا كان كذلك فلا بد من إثبات التنوين في حال السعه و الاختيار لأن عزيرا و نحوه ينصرف عجميا كان أو عربيا و أما من حذف التنوين فإنه حذفه على وجهين (أحدهما) أنه جعل الصفه و الموصوف بمنزله اسم واحد كما جعلهما كذلك في قوله لا رجل ظريف و حذف التنوين و لم يحرك لالتقاء الساكنين كما يحرك في زيد العاقل لأن الساكنين كأنهما التقيا في تضاعيف كلمه واحده فحذف الأول منهما و لم يحرك لكثرة الاستعمال و لا يجوز إثبات التنوين في هذا الباب إذا كان صفه و إن كان الأصل لأنهم جعلوا من الأصول المرفوضه كما أن إظهار الأول من المثليين في نحو ظنوا لا يجوز في الكلام فإذا كانا بمنزله اسم مفرد و المفرد لا يكون جمله مستقلة بنفسها مفيده في هذا النحو فلا بد من إضمام جزء آخر يقدر انضمامه إليه ليتم جمله و يجعله الظاهر إما مبتدأ أو خبر مبتدأ فيكون التقدير صاحبنا أو نسينا أو نبينا عزير ابن الله إن قدرت المضمرة المبتدأ و إن قدرت بعكس ذلك جاز فهذا أحد الوجهين و الوجه الآخر أن لا تجعلهما اسما واحدا و لكن يجعل الأول من الاسمين المبتدأ و الآخر الخبر فيكون المعنى فيه على هذا كالمعنى في إثبات التنوين و تكون القراءةان متفقتين إلا أنك حذف التنوين لالتقاء الساكنين و على هذا ما يروى من قراءه بعضهم أحد الله الصمد فحذف التنوين لالتقاء الساكنين و قد جاء ذلك في الشعر كثيرا قال الشاعر:

حميد الذي أمج داره أخو الخمر ذو الشيبه الأصلع

و قال:

" و حاتم الطائي وهاب المثنى "

فأما «يُضَاهِئُونَ» فقد قال الزجاج أصل المضاهاه

المشابهة والأكثر ترك الهمزة و اشتقاقه من قولهم امرأه ضهياء و هي التي لا ينبت لها ثدى و قيل هي التي لا تحيض و معناها أنها قد أشبهت الرجال فى أنه لا ثدى لها و كذلك إذا لم تحض و ضهياء فعلاء الهمزة زائده كما زيدت فى شمال و غرقى البيض و لا نعلم الهمزة زيدت غير أول إلا فى هذه الأشياء و يجوز أن يكون فعيلًا و إن كانت بنيه ليس لها فى الكلام نظير قال أبو على ليس قوله «يُضَاهِؤْنَ» من امرأه ضهياء لأن هذه الهمزة زائده غير أصلية و ليس بفعيل لأنه لو كان إياه لكان مكسور الصدر و إنما أدخله فى هذا ما رامه من اشتقاق «يُضَاهِؤْنَ» و قد يجوز أن تجيء الكلمة من غير مشتقه و ذلك أكثر من أن يحصى.

اللغة

الحبر العالم الذى صنعته تحبير المعانى بحسن البيان عنها و هو الحبر و الحبر بفتح الحاء و كسرهما و الرهبان جمع الراهب و هو الخاشى الذى يظهر عليه لباس الخشية و قد كثر استعماله على متنسكى النصارى.

المعنى

ثم حكى الله سبحانه عن اليهود و النصارى أقوالهم الشنيعة فقال «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ» و قال ابن عباس القائل لذلك جماعه منهم جاءوا إلى النبى ص منهم سلام بن مشكم و نعمان بن أوفى و شاس بن قيس و مالك بن الضيف فقالوا ذلك قيل و إنما قال ذلك جماعه منهم من قبل و قد انقضوا و إن عزيرا أسمى التوراه من ظهر قلبه و قد علمه جبرائيل (عليه السلام) فقالوا أنه ابن الله إلا- أن الله تعالى أضاف ذلك إلى جميعهم و إن كانوا لا يقولون ذلك اليوم كما يقال إن الخوارج يقولون بتعذيب أطفال المشركين و إنما يقوله الأزارقه منهم خاصة و يدل على أن هذا مذهب اليهود أنهم لم ينكروا ذلك لما سمعوا هذه الآية مع شدة حرصهم على تكذيب الرسول ص «وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ» معناه أنهم اخترعوا ذلك القول بأفواههم لم يأتهم به كتاب و لا رسول و ليس عليه حجه و لا برهان و لا له صحة و قيل إنه لم يذكر القول مقرونًا بالأفواه إلا- إذا كان ذلك القول زورا كقوله يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ «يُضَاهِؤْنَ» يشابهون عن ابن عباس و قيل يوافقون عن الحسن «قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعنى عباد الأوثان فى عبادتهم اللات و العزى و مناه الثالثة الأخرى عن ابن عباس و مجاهد و الفراء قيل فى عبادتهم الملائكة و قولهم إنهم بنات الله «مِنْ قَبْلِ» أى ضاهت النصارى قول اليهود من قبل فقالت النصارى المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله عن قتاده و السدى و قيل شبه كفرهم بكفر الذين مضوا من الأمم

الكافره عن الحسن «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ» أى لعنهم الله عن ابن عباس قال ابن الأنبارى المقاتله أصلها من القتل فإذا أخبر عن الله بها كانت بمعنى اللعنه لأن من لعنه الله فهو بمنزله المقتول الهالك «أَنْتَى يُؤْفَكُونَ» أى كيف يصرفون عن الحق إلى الإفك الذى هو الكذب فكأنه قال لأى داع مالوا إلى ذلك القول «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ» أى علماءهم «وَرُهبَانَهُمْ» أى عبادهم «أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ»

روى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (عليه السلام) أنهما قالوا أما و الله ما صاموا و لا صلوا و لكنهم أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا فاتبعوهم و عبدوهم من حيث لا يشعرون

و

روى الثعلبى بإسناده عن عدى بن حاتم قال أتيت رسول الله ص و فى عنقى صليب من ذهب فقال لى يا عدى اطرح هذا الوثن من عنقك قال فطرحته ثم انتهيت إليه و هو يقرأ من سوره البراءه هذه الآيه «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهبَانَهُمْ أَرْبَابًا» حتى فرغ منها فقلت له إنا لسنا نعبدهم فقال أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه و يحلون ما حرم الله فتستحلونه قال فقلت بلى قال فتلك عبادتهم

«وَ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ» أى اتخذوا المسيح إلها من دون الله «وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» أى معبودا واحدا هو الله تعالى «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أى لا تحق العباده إلا له و لا يستحق العباده سواه «سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» أى عن شركهم و عما يقولونه و عما لا يليق به.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

اشاره

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَاءَ - أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

اللغه

الإطفاء إذهب نور النار ثم استعمل فى إذهب كل نور و الأفواه جمع فم و أصله فوه فحذفت الهاء و أبدلت من الواو ميم لأنه حرف صحيح من مخرج الواو مشاكل لها و الإباء الامتناع مما طلب من المعنى قال الشاعر:

" و إن أرادوا ظلمنا أئينا "

أى منعنا من الظلم.

الإعراب

قوله «إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ» إنما دخلت إلا- لأن فى آييت ضربا من الجحد تقول آييت أن أفعل كذا فيكون معناه لم أفعل كذا قال الشاعر:

و هل لى أم غيرها إن تركتها أبى الله إلا أن أكون لها ابنا

قال الزجاج فى الآيه حذف تقديره بأبى الله كل شىء إلا إتمام نوره قال ولا يكون

ص: ٣٨

الإيجاب جحدا و لو جاز ذلك على أن يكون فيه طرف من الجحد لجاز كرهت إلا- أخاك مثل أبيت إلا أن أبيت الحذف مستعمل معها.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى أنهم «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِقُوا نُورَ اللَّهِ» وهو القرآن والإسلام عن أكثر المفسرين وقيل نور الله الدلالة والبرهان لأنهما يهتدى بهما كما يهتدى بالأنوار عن الجبائي قال ولما سمي سبحانه الحجج والبراهين أنوارا سمي معارضتهم لذلك إطفاء ثم قال «بِأَفْوَاهِهِمْ» لأن الإطفاء يكون بالأفواه وهو النفخ وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم لأن الفم يؤثر في الأنوار الضعيفه دون الأقباس العظيمة «وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنَمَّ نُورَهُ» معناه و يمنع الله إلا- أن يظهر أمر القرآن وأمر الإسلام و حجته على التمام وأصل الإباء المنع والامتناع دون الكراهيه على ما ادعته المجبره ولهذا تقول العرب فلان يأبى الضيم وهو أبى الضيم ولا- مدحه في كراهيه الضيم لأنه يستوى فيه القوى والضعيف وإنما المدحه في الامتناع أو المنع منه «وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» أى على كرهه من الكافرين «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ» محمدا وحمله الرسالات التى يؤديها إلى أمته «بِالْمُهْدَى» أى بالحجج والبيانات والدلائل والبراهين «وَدِينِ الْحَقِّ» وهو الإسلام وما تضمنه من الشرائع التى يستحق عليها الجزاء بالثواب وكل دين سواه باطل يستحق به العقاب «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» معناه ليعلى دين الإسلام على جميع الأديان بالحجه والغلبه والقهر لها حتى لا يبقى على وجه الأرض دين إلا مغلوبا ولا يغلب أحد أهل الإسلام بالحجه وهم يغلبون أهل سائر الأديان بالحجه وأما الظهور بالغلبه فهو أن كل طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحيه من نواحي أهل الشرك ولحقهم قهر من جهتهم وقيل أراد عند نزول عيسى بن مريم لا يبقى أهل دين إلا أسلم أو أدى الجزية عن الضحاك و

قال أبو جعفر (عليه السلام) إن ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد فلا يبقى أحد إلا أقر بمحمد

وهو قول السدى وقال الكلبي لا يبقى دين إلا ظهر عليه الإسلام وسيكون ذلك ولم يكن بعد ولا تقوم الساعة حتى يكون ذلك و

قال المقداد بن الأسود سمعت رسول الله ص يقول لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمه الإسلام إما بعز عزيز وإما بذل ذليل إما يعزهم فيجعلهم الله من أهله فيعزوا به وإما يذلهم فيدينون له

وقيل إن الهاء فى «لِيُظْهِرَهُ» عائده إلى الرسول ص أى ليعلمه الله الأديان كلها حتى لا يخفى عليه شىء منها عن ابن عباس «وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» أى وإن كرهوا هذا الدين فإن الله يظهره رغما لهم.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَنُونَ (٣٥)

اللغة

الكنز في الأصل هو الشيء الذي جمع بعضه إلى بعض ويقال للشيء المجتمع مكنته و ناقه كناز اللحم مجتمعه قال نفطويه سمى الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى و سميت الفضة فضة لأنها تنفض أى تتفرق فلا تبقى و حسبك بالاسمين دلالة على فئتهما والإحماء جعل الشيء حاراً في الإحساس و هو فوق الإسخان و ضده التبريد يقال حمى يحمى حمى و أحماه غيره و الكى إلصاق الشيء الحار بالعضو من البدن

الإعراب

«الَّذِينَ يَكْتَنُونَ» موضعه نصب لأنه معطوف على اسم إن و يكون المعنى و إن الذين يكتنون الذهب و الفضة و لا- يأكلونها و يجوز أن يكون رفعاً على الاستئناف و ذكر في قوله «وَلَا يَنْفِقُونَهَا» وجوه (أحدها) أنه أراد لا ينفقون الكنوز فرجع الضمير إلى ما دل عليه الكلام (و الثاني) أنه لما ذكر الذهب و الفضة دل على الأموال فكأنه قال و لا ينفقون الأموال (و الثالث) أن الذهب مؤنث و هو جمع واحده ذهبه و هذا الجمع الذي ليس بينه و بين واحده إلا الهاء يذكر و يؤنث ثم لما اجتمعا في التأنيث و كان كل واحد منهما يؤخذ عن صاحبه في الزكاه على قول جمهور العلماء جعلهما كالشيء الواحد و رد الضمير إليهما بلفظ التأنيث (و الرابع) أنه اكتفى بأحدهما عن الآخر للإيجاز و رد الضمير إلى الفضة لأنها أقرب إليه كما قال حسان:

إن شرخ الشباب و الشعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا

و قد مر ذكر أمثاله فيما مضى

: المعنى

ثم بين سبحانه حال الأحبار و الرهبان فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ

الأخبارِ وَ الرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ» أى يأخذون الرشى على الحكم عن الحسن و الجبائى و أكل المال بالباطل تملكه من الجهات التى يحرم منها أخذه إلا- أنه لما كان معظم التصرف و التملك للأكل وضع الأكل موضع ذلك و قيل إن معناه يأكلون متاع أموال الناس من الطعام فكأنهم يأكلون الأموال لأنها ثمن المأكول كما قال الشاعر:

ذر الآكلين الماء لوما فما أرى ينالون خيرا بعد أكلهم الماء

أى ثمن الماء «وَ يَصِيدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أى يمنعون غيرهم عن اتباع الإسلام الذى هو سبيل الله التى دعاهم إلى سلوكها و عن اتباع محمد ص «وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أى يجمعون المال و لا يؤدون زكاته

فقد روى عن النبى ص أنه قال كل ما لم تؤد زكاته فهو كثر و إن كان ظاهرا و كل مال أدت زكاته فليس بكثر و إن كان مدفونا فى الأرض

و به قال ابن عباس و الحسن و الشعبى و السدى قال الجبائى و هو إجماع و

روى عن على (عليه السلام) ما زاد على أربعة آلاف فهو كثر أدى زكاته أو لم يؤد و ما دونها فهو نفقه

و تقدير الآيه و الذين يكتنون الذهب و لا ينفقونه فى سبيل الله و يكتنون الفضة و لا ينفقونها فى سبيل الله فحذف المعطوف من الأول لدلاله الثانى عليه كما حذف المفعول فى الثانى لدلاله الأول عليه فى قوله «وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَ الذَّاكِرَاتِ» و تقديره و الذكاكات الله و أكثر المفسرين على أن قوله «وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ» على الاستئناف و أن المراد بذلك مانعوا الزكاه من هذه الأمه و قيل إنه معطوف على ما قبله و الأولى أن يكون محمولا- على العموم فى الفريقين «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» أى أخبرهم بعذاب موجه و

روى سالم بن أبى الجعد أن رسول الله ص لما نزلت هذه الآيه قال تبا للذهب تبا للفضه يكررها ثلاثا فشق ذلك على أصحابه فسأله عمر فقال يا رسول الله أى المال نتخذ فقال لسانا ذاكرا و قلبا شاكرا و زوجه مؤمنه تعين أحدكم على دينه

«يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ» أى يوقد على الكنوز أو على الذهب و الفضة فى نار جهنم حتى تصير نارا «فَتَكْوَى بِهَا» أى بتلك الكنوز المحماه و الأموال التى منعوا حق الله فيها بأعيانها «جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ» و إنما خص هذه الأعضاء لأنها معظم البدن و كان أبو ذر الغفارى يقول بشر الكائنين بكى فى الجباه و كى فى الجنوب و كى فى الظهر حتى يلتقى الحر فى أجوافهم و فى هذا المعنى الذى أشار إليه أبو ذر خصت هذه المواضع بالكى لأن داخلها جوف بخلاف اليد و الرجل و قيل إنما خصت هذه المواضع بالعذاب لأن الجبهه محل الوسم لظهورها و الجنب محل الألم و الظهر محل الحدود و قيل لأن الجبهه محل السجود فلم تقم فيه بحقه و الجنب يقابل القلب الذى لم

يخلص في معتقده و الظهر محمل الأوزار قال «يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ» عن الماوردي و قيل لأن صاحب المال إذا رأى الفقير قبض جبهته و زوى عينيه و طوى عنه كشحه و ولاءه ظهره عن أبي بكر الوراق «هذا ما كُنزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ» أى يقال لهم فى حال الكى أو بعده هذا جزء ما كنزتم و جمعتم المال و لم تؤدوا حق الله عنها و جعلتموها ذخيره لأنفسكم «فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ» أى فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تكنزون أى تجمعون و تمنعون حق الله منه فحذف لدلاله الكلام عليه و

قال رسول الله ص ما من عبد له مال و لا يؤدى زكاته إلا جمع يوم القيامة صفائح يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى به جبهته و جنباه و ظهره حتى يقضى الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنه مما تعدون ثم يرى سبيله إما إلى الجنة و إما إلى النار أوردته مسلم بن الحجاج فى الصحيح

و

روى ثوبان عن النبى ص قال من ترك كنزا مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه و يقول ويلك ما أنت فيقول أنا كنتك الذى تركت بعدك فلا يزال يتبعه حتى يلقيه يده فيقصمها ثم يتبعه سائر جسده

و روى الثعلبى بإسناده عن الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال أتيت رسول الله ص و هو فى ظل الكعبه فلما رآنى قد أقبلت قال هم الأخسرون و رب الكعبه هم الأخسرون و رب الكعبه قال فدخلنى غم و جعلت أنفوس و قلت هذا شىء حدث فى قال قلت من هم فداك أبى و أمى قال الأكثرون إلا من قال بالمال فى عباد الله هكذا و هكذا عن يمينه و شماله و من خلفه و قليل ما هم

و روى عن أبى ذر أنه قال من ترك بيضاء أو حمراء كوى به يوم القيامة

[سوره التوبه (٩): آيه ٣٦]

إشارة

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)

القراءة

قرأ أبو جعفر اثنا عشر و أحد عشر و تسعه عشر بسكون العين و الباقون بفتحها.

ص: ٤٢

الوجه فى ذلك أن الاسمين لما جعلـا كـالاسـم الواحد و بنى الأول منهما لأنه كصدر الاسم و الثانى منهما لتضمنه معنى و او العطف جعل تسكين أول الثانى دليلا على أنهما قد صارا كالاسم الواحد.

اللغة و الإعراب

كافه بمعنى الإحاطه مأخوذ من كافه الشىء و هى حرفه و إذا انتهى الشىء إلى ذلك كف عن الزيادة و أصل الكف المنع و منه المكفوف و هو الممنوع البصر و كافه نصب على المصدر و لا يدخل عليها الألف و اللام لأنه من المصادر التى لا تتصرف لوقوعه موقع معا و جميعا بمعنى المصدر الذى فى موضع الحال المؤكده فهو فى لزوم النكره نظير أجمعين فى لزوم المعرفه هذا قول الفراء و قال الزجاج كافه تنصب على الحال و هو مصدر على فاعله كالعافيه و العاقبه و هو فى موضع قاتلوا المشركين محيطين بهم باعتقاد مقاتلهم و لا يثنى و لا يجمع فلا يقال قاتلوهم كافات و لا كافين كما أنك إذا قلت قاتلوهم عامه لم تثن و لم تجمع و كذلك خاصه هذا مذهب النحويين.

المعنى

لما ذكر الله سبحانه و عيد الظالم لنفسه بكنز المال من غير إخراج الزكاه و غيرها من حقوق الله منه اقتضى ذلك أن يذكر النهى عن مثل حاله و هو الظلم فى الأشهر الحرم الذى يؤدى إلى مثل حاله أو شر منه فى المنقلب فقال «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا» أى عدد شهور السنه فى حكم الله و تقديره اثنا عشر شهرا و إنما تعبد الله المسلمين أن يجعلوا سنينهم على اثنى عشر شهرا ليوافق ذلك عدد الأهله و منازل القمر دون ما دان به أهل الكتاب و الشهر مأخوذ من شهره الأمر لحاجه الناس إليه فى معاملاتهم و محل ديونهم و حجهم و صومهم و غير ذلك من مصالحهم المتعلقة بالشهور و قوله «فِي كِتَابِ اللَّهِ» معناه فيما كتب الله فى اللوح المحفوظ و فى الكتب المنزله على أنبيائه و قيل فى القرآن و قيل فى حكمه و قضائه عن أبى مسلم و قوله «يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ» متصل بقوله عِنْدَ اللَّهِ و العامل فيهما الاستقرار و إنما قال ذلك لأنه يوم خلق السماوات و الأرض أجرى فيها الشمس و القمر و بمسيرهما تكون الشهور و الأيام و بهما تعرف الشهور «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» أى من هذه الاثنى عشر شهرا أربعة أشهر حرم ثلاثه منها سرد ذو القعدة و ذو الحجه و المحرم و واحد فرد و هو رجب و معنى حرم أنه يعظم انتهاك المحارم فيها أكثر مما يعظم فى غيرها و كانت العرب تعظمها حتى لو أن رجلا لقى قاتل أبيه فيها لم يهجه لحرمتها و إنما جعل الله تعالى بعض هذه الشهور أعظم حرمة من بعض لما علم من المصلحه فى الكف عن الظلم فيها لعظم منزلتها و لأنه ربما أدى ذلك إلى ترك الظلم أصلا لانطفاء النائر و انكسار

الحميه فى تلك المده فإن الأشياء تجر إلى أشكالها و شهور السنه المحرم سمي بذلك لتحريم القتال فيه و صفر سمي بذلك لأن مكه تصفر من الناس فيه أى تخلو و قيل لأنه وقع وباء فيه فاصفرت وجوههم و قال أبو عبيده سمي بذلك لأنه صفرت فيه أوطابهم عن اللبن و شهرا ربيع سميا بذلك لإنبات الأرض و إمرأها فيهما و قيل لارتباع القوم أى إقامتهم و جماديان سميتا بذلك لجمود الماء فيهما و رجب سمي بذلك لأنهم كانوا يرجونه أى يعظمونه يقال رجبته و رجبته بالتخفيف و التشديد قال الكميت:

و لا غيرهم أبغى لنفسى جنه و لا غيرهم ممن أجل و أرجب

و قيل سمي بذلك لترك القتال فيه من قولهم رجل أرجب إذا كان أقطع لا يمكنه العمل

و روى عن النبي ص أنه قال إن فى الجنه نهرا يقال له رجب مأؤه أشد بياضا من الثلج و أحلى من العسل من صام يوما من رجب شرب منه

و شعبان سمي بذلك لتشعب القبائل فيه عن أبى عمرو

و روى زياد بن ميمون أن النبي ص قال إنما سمي شعبان لأنه يشعب فيه خير كثير لرمضان و شهر رمضان سمي بذلك لأنه يرمض الذنوب

و قيل سمي بذلك لشده الحر و قيل إن رمضان من أسماء الله و شوال سمي بذلك لأن القبائل كانت تشول فيه أى تبرح عن أمكنتها و قيل لشولان النوق أذناها فيه و ذو القعدة سمي بذلك لعودهم فيه عن القتال و ذو الحجه لقضاء الحج فيه «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» أى ذلك الحساب المستقيم الصحيح لا ما كانت العرب تفعله من النسى ء و منه

قوله الكيس من دان نفسه

أى حاسبها و سمي الحساب دينا لوجوب الدوام عليه و لزومه كلزوم الدين و العباده و قيل معناه ذلك القضاء المستقيم الحق عن الكلبى و قيل معناه ذلك الدين تعبد به فهو اللازم «فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِنَّ» أى فى هذه الشهور كلها عن ابن عباس و قيل فى هذه الأشهر الحرم الأربعة عن قتاده و اختاره الفراء قال لأنه لو أراد الاثنى عشر شهرا لقال فيها «أَنْفُسِيكُمْ» بترك أوامر الله و ارتكاب نواهيها و إذا عاد الضمير إلى جميع الشهور فإنه يكون نهيا عن الظلم فى جميع العمر و إذا عاد إلى الأشهر الحرم ففأئده التخصيص أن الطاعه فيها أعظم ثوابا و المعصيه أعظم عقابا و ذلك حكم الله فى جميع الأوقات الشريفه و البقاع المقدسه «وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً» أى قاتلوهم جميعا مؤتلفين غير مختلفين «كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً» أى جميعا كذلك فتكون كافه حالا عن المسلمين و يجوز أن تكون حالا من المشركين أى قاتلوا المشركين جميعا و لا تمسكوا منهم

بعهد و لا- ذمه إلا من كان من أهل الجزية و أعطاهما عن صغار و الظاهر هو الأول و قيل معناه قاتلوهم خلفا بعد سلف كما أنه يخلف بعضهم بعضا في قتالكم عن الأصم «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» بالنصره و الولايه و في هذه الآيه دلالة على أن الاعتبار في السنين بالشهور القمرية لا بالشمسية و الأحكام الشرعية معلقة بها و ذلك لما علم الله سبحانه فيه من المصلحة و لسهوله معرفه ذلك على الخاص و العام

[سوره التوبه (٩): آيه ٣٧]

اشاره

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يَحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

القراءه

قرأ أبو جعفر النسيء بالتشديد من غير همزه و

قرأ جعفر بن محمد (عليه السلام) و الزهري النسيء مخففا في وزن الهدى بغير همز

و روى مثل ذلك أيضا عن شبل عن ابن كثير و الباقون «النسيء» بالمد و الهمز و قرأ «يُضَلُّ» بضم الياء و فتح الضاد أهل الكوفه غير أبي بكر و قرأ يضل بضم الياء و كسر الضاد أوقيه من طريق ابن مقسم عن أبي عمرو و رويس عن يعقوب و الباقون يضل بفتح الياء و كسر الضاد.

الحججه

قال أبو علي النسيء مصدر كالنذير و النكير و عذير الحى و لا يجوز أن يكون فعلا بمعنى مفعول كما قاله بعض الناس لأنه إن حمل على ذلك كان معناه إنما المؤخر زياده في الكفر و المؤخر الشهر و ليس الشهر نفسه بزياده في الكفر و إنما الزياده في الكفر تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ليست له تلك الحرمة فأما نفس الشهر فلا و أما ما روى من النسيء بالياء فذلك يكون على إبدال الياء من الهمزه و لا- أعلمها لغه في التأخير كما أن أرجيت لغه في أرجأت و ما روى من النسيء بتشديد الياء فعلى تخفيف الهمزه و ليس هذا القلب مثل القلب في النسيء بالياء لأن النسيء بتشديد الياء على وزن فعيل تخفيف قياسى كما أن مقروه في مقروه تخفيف قياسى و ليس «النسيء» كذلك و ذكر ابن جنى فيه ثلاثه أوجه (أحدها) أن يكون أراد النسيء ثم خفف بأن أبدلت الهمزه ياء كما قال الشاعر:

أهبى التراب فوقه إهبايا

" أراد إهباء

(و الثاني) أن يكون فعلا من نسيت لأن الشئ ء إذا أخر فكأنه نسي (و الثالث) و فى الصيغه أن يكون أراد النسي ء على فعيل ثم خفف و أدم فصار النسي ثم قصر فعلا بحذف يائه فصار نسي ثم أسكن عين فعل فصار نسي كما قيل فى سميح سميح و فى رطب رطب و فى جديب جديب فأما قوله «يُضَلُّ» فليس فى يضل إشكال و لا فى يضل لأن المضل لغيره ضال بفعله إضلال غيره فأما يضل فالمعنى فيه أن كبراءهم و أشرافهم يضلونهم بحملهم على هذا التأخير فى الشهور و قرئ فى الشواذ يضل بفتح الياء و الضاد و هذه لغه أعنى ضللت أضل

اللغة

قال أبو زيد نسأت الإبل فى ظمئها يوما أو يومين أو أكثر من ذلك و المصدر النسي ء يقال نسأت الإبل عن الحوض أنسأها نساء إذا أخرتها عنه و المواطاه الموافقه يقال واطأ فى الشعر إذا قال بيتين على قافيه واحده و أوطأ مثله.

المعنى

لما قدم سبحانه ذكر السنه و الشهر عقبه بذكر ما كانوا يفعلونه من النسي ء فقال «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ» يعنى تأخير الأشهر الحرم عما رتبها الله سبحانه عليه و كانت العرب تحرم الشهور الأربعة و ذلك مما تمسكت به من مله إبراهيم و إسماعيل و هم كانوا أصحاب غارات و حروب فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثه أشهر متواليه لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمونه و يستحلون المحرم فيمكثون بذلك زمانا ثم يزول التحريم إلى المحرم و لا يفعلون ذلك إلا فى ذى الحجه قال ابن عباس و معنى قوله «زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ» أنهم كانوا أحلوا ما حرم الله و حرموا ما أحل الله قال الفراء و الذى كان يقوم به رجل من كنانه يقال له نعيم بن ثعلبه و كان رئيس الموسم فيقول أنا الذى لا أعاب و لا أخاب و لا يرد لى قضاء فيقولون نعم صدقت أنسئنا شهرا أو أخر عنا حرمة المحرم و اجعلها فى صفر و أحل المحرم فيفعل ذلك و الذى كان ينساها حين جاء الإسلام جناده بن عوف بن أميه الكنانى قال ابن عباس و أول من سن النسي ء عمرو بن لحي بن قمعه بن خندف و قال أبو مسلم بن أسلم بل رجل من بنى كنانه يقال له القلمس كان يقول إنى قد نسأت المحرم العام و هما العام صفران فإذا كان العام القابل قضينا فجعلناهما مجرمين قال شاعرهم:

" و ما ناسئ الشهر القلمس "

و قال الكميت:

و نحن الناسئون على معد شهور الحل نجعلها حراما

و قال مجاهد كان المشركون يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجه عامين ثم حجوا فى المحرم عامين ثم حجوا فى صفر عامين و كذلك فى الشهور حتى وافقت الحجه

التي قبل حجه الوداع في ذى القعدة ثم حج النبي ص في العام القابل حجه الوداع فوافقت في ذى الحجه فذلك حين

قال النبي ص و ذكر في خطبته إلا و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات و الأرض السنه اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثه متواليات ذو القعدة و ذو الحجه و المحرم و رجب مضر الذي بين جمادى و شعبان

أراد (عليه السلام) الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها و عاد الحج إلى ذى الحجه و بطل النسى ء «يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا» أى يضل بهذا النسى ء الذين كفروا و من قرأ بضم الباء فمعناه يضلون به غيرهم و إضلالهم أنهم فعلوا ذلك ليحللوا للناس الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها و أوجب الحج في بعضها فيستحلون ترك الحج في الوقت الذي هو واجب فيه و يوجبونه في الوقت الذي لا يجب فيه و جوزوا ذلك عليهم حتى ضلوا باتباعهم «يُحِلُّونَهُ عَاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عَاماً» أى يجعلون الشهر الحرام حلالا إذا احتاجوا إلى القتال فيه و يجعلون الشهر الحلال حراما و يقولون شهر بشهر و إذا لم يحتاجوا إلى القتال لم يفعلوا ذلك «لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» معناه أنهم لم يحلوا شهرا من الحرم إلا حرموا مكانه شهرا من الحلال و لم يحرموا شهرا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الحرم ليكون موافقه في العدد و ذلك المواطاه «زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ» أى زينت لهم أنفسهم أو زين لهم الشيطان سوء أعمالهم عن الحسن و قيل معناه استحسنوا ذلك بهوهم «وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» مر تفسيره.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لَا تَصْزُرُوهُ شَيْئاً وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

اللغه

النفرة الخروج إلى الشىء لأمر هيج عليه و منه نفور الدابه يقال نفرت الدابه نفورا و نفر إلى الثغر نفرا و نفيرا و الثاقل تعاطى إظهار ثقل النفس و مثله التباطؤ و ضده التسرع و المتاع الانتفاع بما يظهر للحواس و منه قولهم تمتع بالرياض و المناظر الحسان و يقال للأشياء

التي لها أثمان متاع تشبيها به و الاستبدال جعل أحد الشئيين بدل الآخر مع الطلب له.

الإعراب

«أَتَأَقْلَتُمْ» افاعلتم و أصله تفاعلتم أدغمت التاء فى الثاء لمناسبتها لها ثم أدخلت ألف الوصل ليتمكن الابتداء بها و مثله أَدَارَكُوا و أتابع فى قول الشاعر:

تولى الضجيع إذا ما أشتاقها خصرا عذب المذاق إذا ما أتابع القبل

النزول

قالوا لما رجع رسول الله ص من الطائف أمر بالجهاد لغزوه الروم و ذلك فى زمان إدراك الثمار فأحبوا المقام فى المسكن و المال و شق عليهم الخروج إلى القتال و كان (عليه السلام) قلما خرج فى غزوه إلا كنى عنها و ورى بغيرها إلا غزوه تبوك لبعده شقتها و كثره العدو ليتأهب الناس فأخبرهم بالذى يريد فلما علم الله سبحانه تتأقل الناس أنزل الآية.

المعنى

ثم عاتب سبحانه المؤمنين فى التثاقل عن الجهاد فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ» أى إذا دعاكم رسول الله ص و قال لكم «انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أى أخرجوا إلى مجاهدته المشركين و هو هاهنا غزوه تبوك عن الحسن و مجاهد «أَتَأَقْلَتُمْ إِلَى الْأَرْضِ» أى تثاقلتم و ملتتم إلى الإقامة فى الأرض التى أنتم عليها قال الجبائى هذا الاستبطاء مخصوص بنفر من المؤمنين لأن جميعهم لم يتثاقلوا عن الجهاد فهو عموم أريد به الخصوص بدليل «أَرَضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ» هذا استفهام يراد به الإنكار و معناه آثرتم الحياة الدنيا الفانية على الحياة فى الآخرة الباقية فى النعيم الدائم «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» أى فما فوائد الدنيا و مقاصدها فى فوائد الآخرة و مقاصدها إلا قليل لانقطاع هذه و دوام تلك ثم عقبه سبحانه بالتهديد و الوعيد فقال «إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا» و معناه لا تخرجوا إلى القتال الذى دعاكم إليه الرسول و تقعدوا عنه يعذبكم الله عذابا أليما مؤلما فى الآخرة و قيل فى الدنيا «وَيَسْتَبْدِلْ» بكم «قَوْمًا غَيْرَكُمْ» لا يتخلفون عن الجهاد و قيل هم أبناء فارس عن سعيد بن جبير و قيل هم أهل اليمن عن أبى روق و قيل هم الذين أسلموا بعد نزول هذه الآية عن الجبائى «وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا» أى و لا تضروا الله بهذا القعود شيئا لأنه غنى لنفسه لا يحتاج إلى شىء عن الحسن و أبى على و قيل معناه و لا تضروا الرسول شيئا لأن الله عصمه من جميع الناس و ينصره بالملائكة أو بقوم آخرين من المؤمنين «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فهو القادر على الاستبدال بكم و على غير ذلك من الأشياء قال الزجاج و هذا وعيد شديد فى التخلف عن الجهاد.

اشاره

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

القراءه

قرأ يعقوب وحده كلمه الله بالنصب والباقون بالرفع.

الحجه

من نصب عطفه على قوله «وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ» وجعل كلمه الله هي العليا» و من رفع استأنف و هو أبلغ لأنه يفيد أن كلمه الله هي العليا على كل حال.

الإعراب

«ثَانِيًا إِثْنَيْنِ» نصب على الحال و للعرب في هذا مذهبان (أحدهما) قولهم هذا ثاني اثنين و ثالث ثلاثه و رابع أربعة و خامس خمسه أى أحد اثنين و أحد ثلاثه و أحد أربعة و أحد خمسه (و الآخر) قولهم ثالث اثنين و خامس أربعة بمعنى أنه ثلث اثنين و خمس أربعة فالأول إضافة حقيقه محضه و الثاني إضافة غير محضه إذ هو فى تقدير الانفصال، «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ» بدل من قوله «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» وضع أحد الزمانين فى موضع الآخر لتقاربهما.

المعنى

ثم أعلمهم الله سبحانه أنهم إن تركوا نصره رسوله لم يضره ذلك شيئاً كما لم يضره قله ناصره حين كان بمكة و هم به الكفار فتولى الله نصره فقال «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» معناه إن لم تنصروا النبى ص على قتال العدو فقد فعل الله به النصر «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» من مكة فخرج يريد المدينة «ثَانِيًا إِثْنَيْنِ» يعنى أنه كان هو و أبو بكر «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ» ليس معهما ثالث أى و هو أحد اثنين و معناه فقد نصره الله منفرداً من كل شىء إلا من أبى بكر و الغار الثقب العظيم فى الجبل و أراد به هنا غار ثور و هو جبل بمكة «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ» أى إذ يقول الرسول لأبى بكر «لَا تَحْزَنْ» أى لا تخف «إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» يريد أنه مطلع علينا عالم بحالنا فهو يحفظنا و ينصرنا

قال الزهرى لما دخل رسول الله ص و أبو بكر الغار أرسل الله زوجاً من حمام حتى باضا

فى أسفل الثقب و العنكبوت حتى تنسج بيتا فلما جاء سراقه بن مالك فى طلبهما فرأى بيض الحمام و بيت العنكبوت قال لو دخله أحد لانكسر البيض و تفسخ بيت العنكبوت فانصرف و قال النبى ص اللهم أعم أبصارهم فعميت أبصارهم عن دخوله و جعلوا يضربون يمينا و شمالا حول الغار و قال أبو بكر لو نظروا إلى أقدامهم لرأونا

و

روى على بن إبراهيم بن هاشم قال كان رجل من خزاعه فيهم يقال له أبو كرز فما زال يقفو أثر رسول الله ص حتى وقف بهم باب الغار فقال لهم هذه قدم محمد ص هى و الله أخت القدم التى فى المقام و قال هذه قدم أبى قحافه أو ابنه و قال ما جازوا هذا المكان إما أن يكونوا قد صعدوا فى السماء أو دخلوا فى الأرض و جاء فارس من الملائكة فى صورته الإنس فوقف على باب الغار و هو يقول لهم اطلبوه فى هذه الشعاب فليس هاهنا و كانت العنكبوت نسجت على باب الغار و نزل رجل من قريش فبال على باب الغار فقال أبو بكر قد أبصرونا يا رسول الله فقال ص لو أبصرونا ما استقبلونا بعوراتهم

«فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» يعنى على محمد ص أى ألقى فى قلبه ما سكن به و علم أنهم غير واصلين إليه عن الزجاج «وَ أَيْدَهُ» أى قواه و نصره «بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا» أى بملائكة يضربون وجوه الكفار و أبصارهم عن أن يروه عن الزجاج و قيل معناه قواه بملائكة يدعون الله تعالى له عن ابن عباس و قيل معناه و أعانه بالملائكة يوم بدر و أخبر الله سبحانه أنه صرف عنه كيد أعدائه و هو فى الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر عن مجاهد و الكلبي و قال بعضهم يجوز أن تكون الهاء التى فى عليه راجعه إلى أبى بكر و هذا بعيد لأن الضمائر قبل هذا و بعده تعود إلى النبى ص بلا خلاف و ذلك فى قوله «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» و فى قوله «إِذْ أَخْرَجَهُ» و قوله «لِصَاحِبِهِ» و قوله فيما بعد و «أَيْدَهُ» فكيف يتخللها ضمير عائد إلى غيره هذا و قد قال سبحانه فى هذه السوره «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» و قال فى سوره الفتح «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» و قد ذكرت الشيعه فى تخصيص النبى ص فى هذه الآيه بالسكينه كلاما رأينا الإضراب عن ذكره أخرى لثلا ينسبنا ناسب إلى شىء «وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى» معناه أن الله سبحانه جعل كلمتهم نازله دنيه و أراد به أنه سفلى و عيدهم للنبى ص و تخويفهم إياه و أبطله بأن نصره عليهم فعبّر عن ذلك بأنه جعل كلمتهم السفلى لا- أنه خلق كلمتهم «وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» أى هى المرتفعه المنصوره بغير جعل جاعل لأنها لا يجوز أن تدعو إلى خلاف الحكمه و قيل إن كلمه الكفار كلمه الشرك و كلمه الله هى كلمه التوحيد و هى قوله لا إله إلا الله فمعناه جعل

ص: ٥٠

كلمه الكفار السفلى بأن جعلهم أذله أسفلين و أعلى كلمه الله بأن أعز الإسلام و المسلمين «وَاللَّهُ عَزِيزٌ» فى انتقامه من أهل الشرك «حَكِيمٌ» فى تدبيره.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٤١ الى ٤٣]

إشاره

انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِن بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)

القراءه

فى الشواذ قراءه الأعمش لو استطعنا بضم الواو و قد مضى الكلام فيه فى أوائل سوره البقره.

اللغه

القاصد السهل المقصد عن غير طول لأنه مما يقصد لسهولة و سمي العدل قصدا لأنه مما ينبغى أن يقصد و الشقه القطعه من الأرض التى يشق ركوبها على صاحبها لبعدها و يحتمل أن يكون من الشق الذى هو الناحيه من الجبل و يحتمل أن يكون من المشقه و الشقه السفر و المسافه و قریش يضمون الشين و قيس يكسرونها و قریش يضمون العين من بعدت و قيس يكسرونها.

المعنى

ثم أمر سبحانه بالجهد و بين تأكيد وجوبه على العباد فقال «انْفِرُوا» أى أخرجوا إلى الغزو «خِفَافًا وَ ثِقَالًا» أى شبانا و شيوخا عن الحسن و مجاهد و عكرمه و الضحاک و غيرهم و قيل نشاطا و غير نشاط عن ابن عباس و قتاده و قيل مشاغيل و غير مشاغيل عن الحكم و قيل أغنياء و فقراء عن أبى صالح و قيل أراد بالخفاف أهل العسره من المال و قله العيال و بالثقال أهل الميسره فى المال و كثره العيال عن الفراء و قيل معناه ركبانا و مشاه عن أبى عمرو و عطيه العوفى و قيل ذا صنعه و غير ذى صنعه عن ابن زيد و قيل عزابا و متأهلين عن يمان و الوجه أن يحمل على الجميع فيقال معناه أخرجوا إلى الجهاد خف عليكم أو شق على أى

حاله كنتم لأن أحوال الإنسان لا تخلو من أحد هذه الأشياء «وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و هذا يدل على أن الجهاد بالنفس و المال واجب على من استطاع بهما و من لم يستطع على الوجهين فعليه أن يجاهد بما استطاع «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ» معناه أن الخروج و الجهاد بالنفس و المال خير لكم من الثاقل و ترك الجهاد إلى مباح «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» إن الله عز اسمه صادق في وعده و وعيده و قيل معناه إن كنتم تعلمون الخير في الجملة فاعلموا أن هذا خير قال السدي لما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على الناس فنسخها الله تعالى بقوله «لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى» الآية «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا» معناه لو كان ما دعوتهم إليه غنيمه حاضره «وَسَفَرًا قاصِدًا» أى قريبا هينا و قيل قاصدا أى ذا قصد نحو تأمر و لابن عن المبرد و قيل سهلا متوسطا غير شاق «لَا تَبُوكُوا» طمعا في المال «وَلَكِنْ بَعِدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» أى المسافه يعنى غزوه تبوك أمروا فيها بالخروج إلى الشام «وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ» معناه إن هؤلاء سيعتذرون إليك فى قعودهم عن الجهاد و يحلفون لو استطعنا و قدرنا و تمكنا من الخروج لخرجنا معكم ثم أخبر سبحانه أنهم «يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ» بما أسروه من الشرك و قيل باليمين الكاذبه و العذر الباطل لما يستحقون عليها من العقاب «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» فى هذا الاعتذار و الحلف و فى هذه دلالة على صحه نبوه نبينا ص إذ أخبر أنهم سيحلفون قبل وقوعه فحلفوا و كان مخبره على ما أخبر به و فيه أيضا دلالة واضحه على أن القدره قبل الفعل لأن هؤلاء لا يخلو إما أن يكونوا مستطيعين من الخروج قادرين عليه و لم يخرجوا أو لم يكونوا قادرين عليه و إنما حلفوا لو أنهم قدروا فى المستقبل لخرجوا فإن كان الأول فقد ثبت أن القدره قبل الفعل و إن كان الثانى فقد كذبهم الله تعالى فى ذلك و بين أنه لو فعل لهم الاستطاعه لما خرجوا و فى ذلك أيضا وجوب تقدم القدره على المقدور فإن حملوا الاستطاعه على وجود الآله و عداه السفر فقد تركوا الظاهر من غير ضروره فإن حقيقه الاستطاعه القدره على أنه لو كان عدم الآله و العده عذرا فى التأخر فعدم القدره أصلا أحرى و أولى أن يكون عذرا فيه ثم خاطب النبى ص بما فيه بعض العتاب فى إذنه لمن استأذنه فى التأخر عن الخروج معه إلى تبوك فقال «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» فى التخلف عنك قال قتاده و عمرو بن ميمون اثنان فعلهما النبى ص لم يؤمر بهما إذنه للمنافقين و أخذه الفداء من الأسارى فعاتبه الله كما تسمعون و هذا من لطيف المعاتبه بدأه بالعفو قبل

العتاب و هل كان هذا الأذن قبيحا أم لا قال الجبائي كان قبيحا و وقع صغيرا لأنه لا يقال فى المباح لم فعلته و هذا غير صحيح لأنه يجوز أن يقال فيما غيره أفضل منه لم فعلته كما يقول القائل لغيره إذا رآه يعاتب أخا له عاتبته و كلمته بما يشق عليه و إن كان يجوز له معاتبته بما يشق عليه و كيف يكون إذنه لهم قبيحا و قد قال سبحانه فى موضع آخر «فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيُغْضِ شَأْنَهُمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتُمْ مِنْهُمْ» و قيل معناه أدام الله لك العفو لم أذنت لهؤلاء فى الخروج لأنهم استأذنوا فيه تملقا و لو خرجوا لأرادوا الخبال و الفساد و لم يعلم النبى ص ذلك من سريرتهم عن أبى مسلم «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ» أى حتى تعرف من له العذر منهم فى التخلف و من لا عذر له فىكون إذنك لمن أذنت له على علم قال ابن عباس و ذلك لأن رسول الله ص لم يكن يعرف المنافقين يومئذ و قيل أنه (عليه السلام) إنما خيرهم بين الظعن و الإقامة متوعدا لهم و لم يأذن فاعتنم القوم ذلك و فى هذا إخبار من الله سبحانه أنه كان الأولى أن يلزمهم الخروج معه حتى إذا لم يخرجوا أظهر نفاقهم لأنه متى أذن لهم ثم تأخروا لم يعلم أن نفاق كان تأخرهم أم لغيره و كان الذين استأذنوه منافقين و منهم جد بن قيس و معتب بن قشير و هما من الأنصار.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

إشارة

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)

المعنى

ثم بين سبحانه حال المؤمنين و المنافقين فى الاستئذان فقال «لَا يَسْتَأْذِنُكَ» أى لا يطلب منك الإذن فى القعود عن الجهاد معك بالمعاذير الفاسده و قيل معناه لا يستأذنك فى الخروج لأنه مستغن عنه بدعائك إلى ذلك بل يتأهب له عن أبى مسلم «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» و المعنى فى أن يجاهدوا فحذف فى فأفضى الفعل «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» قال ابن عباس هذا تعبير للمنافقين حين استأذنوه فى القعود عن الجهاد و عذر للمؤمنين فى قوله «لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ» و المعنى أنه لم يخرجهم من صفه المتقين إلا لأنه علم أنهم ليسوا منهم «إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ»

فى التأخر عن الجهاد و التألف عن القتال معك و قىل فى الخروج لأن المناق إنما يستأذنك فى الخروج تملقا و لا يتأهب المؤمنون عن أبى مسلم «الذىن لا يؤمنون بالله» أى لا يصدقون به «و الأيوم الأخر» يعنى بالبعث و النشور «و ارتابت قلوبهم» أى اضطربت و شكت «فهم فى ريبهم يترددون» فهم فى شكهم يذهبون و يرجعون و التردد هو التصرف بالذهاب و الرجوع مرات متقاربه مثل التحير و أراد به المنافقين أى يتوقعون الإذن لشكهم فى دين الله و فيما وعد المجاهدين و لو أنهم كانوا مخلصين لوثقوا بالنصر و بثواب الله فبادروا إلى الجهاد و لم يستأذنوك فيه.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٤٦ الى ٤٨]

اشاره

وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَتَبَطَّهْمُ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

اللغه

العهده و الأهبه و الآله نظائر و الانبعاث الانطلاق بسرعه فى الأمر و فلان لا- ينبعث فى الحاجه أى ليس له نفاذ فيها و الشيط التوقيف عن الأمر بالتهديد فيه و مثله التريث و الخبال الفساد و الخبال الموت و الخبال الاضطراب فى الرأى و الخبل بسكون الباء و فتحها الجنون و الخبل فساد الأعضاء قال:

أبنى لىنى لستم بيد إلا يدا مخبولة العضد

و الإيضاع الإسراع فى السير قال امرؤ القيس:

ص: ٥٤

أرانا موضعين لحتم غيب و نسكر بالطعام و بالشراب

و ربما قالوا للراكب وضع بغير ألف و وضعت الناقه تضع وضعا و وضوعا و أوضعتها إضاعا قال:

يا ليتنى فيها جذع أحب فيها و أضع

خلالكم أى بينكم مشتق من التخلل و

فى الحديث تراصوا بين الصفوف لا يتخللكم الشياطين كأنها بنات حذف

و التقليل تصريف الشىء بجعل أعلاه أسفله و رجل حول قلب كأنه يقلب الآراء فى الأمور و يحولها.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء المنافقين فقال «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ» مع النبى ص نصره له أو رغبه فى جهاد الكفار كما أراد المؤمنون ذلك «لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» أى لاستعدوا للخروج عده و هى ما يعد لأمر يحدث قبل وقوعه و المراد لأخذوا أهبة الحرب من الكراع و السلاح لأن أماره من أراد أمرا أن يتأهب له قبل حدوثه «وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ» معناه و لكن كره الله خروجهم إلى الغزو و علمه أنهم لو خرجوا لكانوا يمشون بالنميمة بين المسلمين و كانوا عيونا للمشركين و كان الضرر فى خروجهم أكثر من الفائده «فَتَبَطَّوهُمْ» عن الخروج الذى عزموا عليه لا- عن الخروج الذى أمرهم به لأن الأول كفر و الثانى طاعه و لا ينبغى أن يقال كيف كره انبعاثهم بعد ما أمر به فى الآية الأولى لأنه إنما أمر بذلك على وجه الذب عن الدين و نيه الجهاد و كره ذلك على نيه التضريب و الفساد فقد كره غير ما أمر به و معنى ثبطهم بطأ بهم و خذلهم لما يعلم منهم من الفساد «وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» أى و قيل لهم اقعدها مع النساء و الصبيان و يحتمل أن يكون القائلون لهم ذلك أصحابهم الذين نهوهم عن الخروج مع النبى ص للجهاد و يحتمل أن يكون ذلك من كلام النبى ص لهم على وجه التهديد و الوعيد لا على وجه الإذن و يجوز أن يكون أيضا على وجه الإذن لهم فى القعود الذى عاتبه الله تعالى عليه إذ كان الأولى أن لا يأذن لهم ليظهر للناس نفاقهم قال أبو مسلم هذا يدل على

أن الاستئذان كان في الخروج و أن الإذن من النبي ص لهم كان في الخروج لأنه إذا كره الله سبحانه خروجهم و أراد قعودهم و أذن النبي ص في قعودهم فلا- عتب عليه و لكنهم استأذنوا في الخروج تملقا و إرادته للفساد فأذن النبي ص لهم فيه و لم يعلم ضمائرهم فعلم الله تعالى ذلك من نياتهم و منعهم من الخروج إذ كره خروجهم ثم بين سبحانه وجه الحكمة في كراهيه انبعاثهم و تشييطهم عن الخروج فقال «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا» معناه لو خرج هؤلاء المنافقون معكم إلى الجهاد ما زادوكم بخروجهم إلا شرا و فسادا و قيل غدرا و مكرا عن الضحاك و قيل يريد عجزا و جبا عن ابن عباس أى أنهم كانوا يجبنونكم عن لقاء العدو بتهويل الأمر عليكم «وَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ» أى لأسرعوا في الدخول بينكم بالتضريب و الإفساد و النميمة يريد و لسعوا فيما بينكم بالتفريق بين المسلمين و يكون تقديره و لأعدوا الإبل و سطكم و قيل معناه لأوضعوا إبلهم خلالكم يتخلل الراكب الرجلين حتى يدخل بينهما فيقول ما لا- ينبغي «يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ» بعدو الإبل و سطكم و معنى يبغونكم يبغون لكم أو فيكم أى يطلبون لكم المحنة باختلاف الكلمة و الفرقه و قيل معناه يبغونكم أن تكونوا مشركين و الفتنة الشرك عن الحسن و قيل معناه يخوفونكم بالعدو و يخبرونكم أنكم منهزمون و إن عدوكم سيظهر عليكم عن الضحاك «وَفِيكُمْ سَيِّمَاعُونَ لَهُمْ» أى و فيكم عيون للمنافقين ينقلون إليهم ما يسمعون منكم عن مجاهد و ابن زيد و قيل معناه و فيكم قائلون منهم عند سماع قولهم يريد ضعفه المسلمين عن قتاده و ابن إسحاق و جماعه «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» أى بهؤلاء المنافقين الذين ظلموا أنفسهم لما أضمروا عليه من الفساد منهم عبد الله بن أبى و جد بن قيس و أوس بن قبطى ثم أقسم الله سبحانه فقال «لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ» اسم يقع على كل سوء و شر و المعنى لقد طلب هؤلاء المنافقون اختلاف كلمتكم و تشتيت أهوائكم و افتراق آرائكم من قبل غزوه تبوك أى فى يوم أحد حين انصرف عبد الله بن أبى بأصحابه و خذل النبي ص فصرف الله سبحانه عن المسلمين فتنتهم و قيل أراد بالفتنة صرف الناس عن الإيمان و إلقاء الشبهه إلى ضعفاء المسلمين عن الحسن و قيل أراد بالفتنة الفتك بالنبي ص فى غزوه تبوك ليله العقبه و كانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين وقفوا على الشيه ليفتكوا بالنبي ص عن سعيد بن جبير و ابن جريج «وَقَلَّبُوا لَمَكَ الْأُمُورِ» أى احتالوا فى توهين أمرك و إيقاع الاختلاف بين المؤمنين و فى قتلك بكل ما أمكنهم فيه فلم يقدرُوا عليه و قيل أنهم كانوا يريدون فى كيدته وجهها من التدبير فإذا لم يتم ذلك فيه تركوه و طلبوا المكيدة فى غيره فهذا تقليب الأمور عن أبى مسلم «حَتَّى

جاء الحقُّ معناه حتى جاء النصر و الظفر الذى وعده الله به «وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ» أى دينه و هو الإسلام على الكفار على رغمهم «وَ هُمْ كَارِهُونَ» أى فى حال كراهيتهم لذلك فهى جمله فى موضع الحال.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٤٩ الى ٥٢]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لَا- تَفْتِنِّي اَلَا- فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ اِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيْطَةٌ بِالْكَافِرِيْنَ (٤٩) اِنَّ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ اِنَّ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ اَخَذْنَا اَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُوْنَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا اِلَّا مَا كَتَبَ اللّٰهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَيَّ اللّٰهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُوْنَ بِنَا اِلَّا اِحْدَى الْحُسَيْنِيْنَ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ اَنْ يُصِيبَكُمْ اللّٰهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ اَوْ بِاَيْدِيْنَا فَتَرَبَّصُوْا اِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُوْنَ (٥٢)

القراءه

القراءه المشهوره «لَنْ يُصِيبَنَا» و قرأ طلحه بن مصرف قل هل يصيبنا و كذلك هو فى مصحف ابن مسعود.

النزول

قيل

إن رسول الله ص لما استنفر الناس إلى تبوك قال انفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر فقام جد بن قيس أخو بنى سلمه بن بنى الخزرج فقال يا رسول الله ائذن لى و لا- تفتنى بنات الأصفر فإنى أخاف أن أفتن بهن فقال قد أذنت لك فأنزل الله تعالى «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي»

الآيات عن ابن عباس و مجاهد

فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ص لبنى سلمه من سيدكم قالوا جد بن قيس غير أنه

ص: ٥٧

بخيل جبان فقال (عليه السلام) و أى داء أدوى من البخل بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن المعرور

فقال فى ذلك حسان بن ثابت:

و قال رسول الله و القول لاحق بمن قال منا من تعدون سيدا

فقلنا له جد بن قيس على الذى نبخله فينا و إن كان أنكدا

فقال و أى الداء أدوى من الذى رميتم به جدا و إن كان أمجدا

و سود بشر بن البراء لجوده و حق لبشر ذى النداء أن يسودا

إذا ما أتاه الوفد أنهب ماله و قال خذوه إنه عائد غدا

المعنى

«و مِنْهُمْ» أى و من المنافقين «مَنْ يَقُولُ ائْتَدَنْ لِي» فى القعود عن الجهاد «و لَا تَقْتَتِي» بينات الأصفر عن ابن عباس و مجاهد قال الفراء سميت الروم أصفر لأن حبشيا غلب على ناحيه الروم و كان له بنات قد أخذن من بياض الروم و سواد الحبشه فكن صفرا لعسا و قيل معناه لا- تؤثمنى أى لا- توقعنى فى الإثم بالعصيان لمخالفه أمرك بالخروج إلى الجهاد و ذلك غير متيسر لى عن الحسن و قتاده و الجبائى و الزجاج «أَلَا فى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» معناه ألا فى العصيان و الكفر وقعوا بمخالفتهم أمرك فى الخروج و الجهاد و قيل معناه لا تعذبني بتكليف الخروج فى شدة الحر ألا قد سقطوا فى حر أعظم من ذلك و هو حر نار جهنم عن أبى مسلم و يدل عليه قوله «و قالوا لا- تَنْفِرُوا فى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا» «و إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَحِيْطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» أى استحيط بهم فلا مخلص لهم منها «إِنَّ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ» هذا خطاب من الله سبحانه للنبي ص و معناه أن تلك نعمه من الله و فتح و غنيمه يحزن المنافقون «و إِنَّ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ» معناه و إن تصيبك شدة و نكبه و آفه فى النفس أو المال «يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ» أى أخذنا حذرنا و احترزنا بالقعود من قبل هذه المصيبة عن مجاهد و معناه أخذنا أمرنا من مواضع الهلكه فسلمنا مما وقعوا فيه «و يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ» أى رجعوا إلى بيوتهم فرحين بما أصاب المؤمنين من الشدة «قُلْ» يا محمد لهم «لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» أى كل ما يصيبنا من خير أو شر فهو ما كتبه الله فى اللوح المحفوظ من أمرنا و ليس على ما تظنون و تتوهمون من إهمالنا من غير أن يرجع أمرنا إلى تدبير عن الحسن و قيل معناه لن يصيبنا فى عاقبه أمرنا إلا ما كتب الله لنا فى القرآن من النصر الذى وعدنا و أنا نظفر بالأعداء فتكون النصره حسنى لنا أو نقتل فتكون

الشهادة حسنى لنا أيضا أى فقد كتب الله لنا ما يصيبنا و علمنا ما لنا فيه من الحظ عن الزجاج و الجبائى «هُوَ مَوْلَانَا» أى هو مالكننا و نحن عبيده و قيل هو ولينا و ناصرنا يحفظنا و يتولى حياتنا و دفع الضرر عنا «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين بالتوكل عليه و الرضا بتدبيره و تقديره فليتوكل على الله المؤمنون «قُلْ» يا محمد لهؤلاء المنافقين «هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ» معناه هل تنتظرون لنا إلا إحدى الخصلتين الحميدتين و النعمتين العظيمتين إما الغلبه و الغنيمه فى العاجل و إما الشهاده مع الثواب الدائم فى الآجل عن ابن عباس و الحسن و مجاهد و غيرهم و هل و إن كان حرف الاستفهام فمعناه هنا التقرير بالتربص المؤدى صاحبه إلى كل ما كرهه من خيبه و فوز خصمه و من هلاكه و نجاه خصمه و من شقوته و سعادته خصمه «وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ» أى و نحن نتوقع بكم «أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا» أى يوقع الله بكم عذابا من عنده يهلككم به أو بأن ينصرنا عليكم فيقتلكم بأيدينا «فَتَرَبَّصُوا» صورته صورته الأمر و المراد به التهديد كقوله «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» لأنه لو كان أمرا لهم لكانوا فى تربصهم بالمؤمنين القتل مطيعين الله «إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» أى منتظرون إما الشهاده و الجنه و إما الغنيمه و الأجر لنا و إما البقاء فى الذل و الخزى و إما الموت أو القتل مع المصير إلى النار لكم و هذه الآيه تفسير لقوله تعالى «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» و قيل معناه فتربصوا هلاكنا فإننا متربصون هلاككم و قيل تربصوا مواعيد الشيطان فى إبطال دين الله و نحن متربصون مواعيد الله فى إظهار دينه و نصره نبيه و استئصال مخالفيه.

إشارة

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسَالَى وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٥٥)

القراءة

قرأ أهل الكوفة غير عاصم أن يقبل بالياء و الباقون بالتاء.

الحج

وجه القراءة بالتاء أن الفعل مسند إلى مؤنث في اللفظ و وجه الياء إن التانيث ليس بحقيقي فجاز أن يذكر كما جاء فمن جاءه موعظه.

اللغة

الطوع الانقياد بإرادته لم يحمل عليها و الكره فعل الشيء بكرهه حمل عليها المنع أمر يصاد الفعل و ينافيه و هو على وجهين منع أن يفعل و منع أن يفعل به فهؤلاء منعوا من أن يفعل بهم قبول نفقتهم و الزهق الخروج بصعوبة و أصله الهلاك و كل هالك زاهق زهق يزهق زهوقا و الزاهق من الدواب السمين الشديد السمن لأنه هالك بثقل بدنه في السير و الكر و الفر و زهق فلان بين أيدي القوم إذا ذهب سابقا لهم حتى يهلك منهم و الإعجاب السرور بما يتعجب منه يقال أعجبنى حديثه أي سرني.

الإعراب

«أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» لفظ أمر و معناه معنى الشرط و الجزاء، المعنى إن أنفقتم طائعين أو مكرهين لن يتقبل منكم و مثله من الشعر قول كثير:

أسيئ بنا أو أحسنى لا ملومه لدينا و لا مقلية إن تقلت

فلم يأمرها بالإساءة و لكن أعلمها إن أساءت أو أحسنت فهو على عهدا فكأنه قال إن أحسنت أو أسأت فلا تلامي قال الزجاج فإن قال قائل كيف يكون الأمر في معنى الخبر قيل له إذا كان في الكلام دليل عليه جاز كما يكون لفظ الخبر في معنى الأمر و الدعاء كقولك غفر الله لزيد و رحمه الله و معناه اللهم اغفر له و ارحمه و قوله «أَنْ تُقْبَلَ» في موضع نصب و تقديره من أن تقبل، و «أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ» في موضع رفع، المعنى ما منعهم من قبول نفقاتهم إلا كفرهم و يجوز أن يكون التقدير و ما منعهم الله منه إلا لأنهم كفروا.

المعنى

ثم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين لا ينتفعون بما ينفقونه مع إقامتهم على الكفر فقال «قُلْ» يا محمد لهؤلاء «أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً»
أى طائعين أو مكرهين «لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا فَاسِقِينَ» معناه و إنما لم يتقبل منكم لأنكم كنتم متمردين عن طاعة الله و
الله سبحانه إنما يتقبل من المؤمنين المخلصين «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ» أى و ما يمنع
هؤلاء المنافقين أن يثابوا على نفقاتهم إلا كفرهم بالله و برسوله و ذلك مما يحبط الأعمال و يمنع من استحقاق الثواب عليها «وَ

لا

ص: ٦٠

يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلاَّ وَهُمْ كَسَالَى» أى متثاقلين و المعنى لم يؤدوها على الوجه الذى أمروا أن يؤدوها على ذلك الوجه «وَ لا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ» لذلك لأنهم إنما يصلون و ينفقون للرياء و التستر بالإسلام لا لابتغاء مرضاه الله تعالى و فى هذا دلالة على أن الكفار مخاطبون بالشرائع لأنه سبحانه ذمهم على ترك الصلاة و الزكاة و لو لا وجوبها عليهم لم يذموا بتركها «فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لا أَوْلَادُهُمْ» الخطاب للنبي ص و المراد جميع المؤمنين و قيل يريد لا تعجبك أيها السامع أى لا يأخذ بقلبك ما تراه من كثره أموال هؤلاء المنافقين و كثره أولادهم و لا تنظر إليهم بعين الإعجاب «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» قد ذكر فى معناه وجوه (أحدها) أن فيه تقدما و تأخيرا أى لا يسرك أموالهم و أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة عن ابن عباس و قتاده فيكون الظرف على هذا متعلقا بأموالهم و أولادهم و مثله قوله تعالى «فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَا ذَا يَرْجُؤْنَ» و التقدير فألقه إليهم فانظر ما ذا يرجعون ثم تول عنهم (و ثانيها) إن معناه إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا بالتشديد عليهم فى التكليف و أمرهم بالإنفاق فى الزكاة و الغزو فيؤدونها على كره منهم و مشقه إذ لا يرجون به ثوابا فى الآخرة فيكون ذلك عذابا لهم عن الحسن و البلخي (و ثالثها) إن معناه إنما يريد الله ليعذبهم بحفظها و المصائب فيها مع حرمان المنفعة بها عن ابن زيد (و رابعها) إن معناه إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الدنيا أى بسبب الأولاد و غنيمه الأموال عند تمكن المؤمنين من أخذها و غنمها فيتحسرون عليها فيكون ذلك جزاء على كفرهم عن الجبائى (و خامسها) إن المراد يعذبهم بجمعها و حفظها و حبها و البخل بها و الحزن عليها و كل هذا عذاب و كذلك خروجهم عنها بالموت لأنهم يفارقونها و لا يدرون إلى ما ذا يصيرون و اللام فى قوله «لِيُعَذِّبَهُمْ» يحتمل أن يكون بمعنى أن و يحتمل أن يكون لام العاقبه و التقدير إنما يريد الله أن يملى لهم فيها ليعذبهم «وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ» أى تهلك و تذهب بالموت «وَ هُمْ كَافِرُونَ» جملة فى موضع الحال أى حال كونهم كافرين و الإرادة تعلقت بزهوق أنفسهم لا بالكفر و هذا كما تقول أريد أن أضربه و هو عاص فالإرادة تعلقت بالضرب لا بالعصيان.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

إشارة

وَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَعُونَ (٥٧)

القراءه

قرأ يعقوب و سهل أو مدخلا بفتح الميم و سكون الدال و هو قراءه ابن أبى إسحاق و الحسن و الباقون «مُدْخَلًا» و فى الشواذ قراءه مسلمه بن محارب و مدخلا بضم الميم و سكون الدال و قراءه الأعرج مدخلا بتشديد الدال و الخاء وقرأ أنس و هم يجمزون رواه الأعمش عنه.

الحجه

أما قوله «مُيَدَّخَلًا» فى القراءه المشهوره فأصله متدخلا لكن التاء تبدل بعد الدال دالا لأن التاء مهموسه و الدال مجهوره و التاء و الدال من مكان واحد فكان الكلام من وجه أحد أخف و من قرأ مدخلا فهو من دخل يدخل مدخلا و من قرأ مدخلا فهو من أدخلته مدخلا قال:

الحمد لله ممسانا و مصبحنا بالخير صبحنا ربى و مسأنا

و من قرأ مدخلا بتشديد الدال و الخاء جعله متدخلا ثم أدغم التاء فى الدال و فى روايه الأعمش أنه سمع أنسا يقرأ يجمزون فقال و ما يجمزون قال يجمزون و يجمحون و يشتدون واحد.

اللغه

الفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر و أصله من مفارقه الأموال حال الانزعاج و الملجأ الموضع الذى يتحصن فيه و مثله المعقل و الموئل و المعتصم و المعتمد. و المغارات جمع مغاره مفعله من غار الشىء فى الشىء يغور إذا دخل منه فى موضع يستتره و الغار النقب فى الجبل و المدخل المسلك الذى يتدسس بالدخول فيه و هو مفتعل و الجماع مضى المار مسرعا على وجهه لا يرد شىء عنه و قيل هو المشى بين الشئين قال مهلهل:

لقد جمحت جماحا فى دمائهم حتى رأيت ذوى أحسابهم خمدوا

و الجموح الراكب هواه قال:

خلعت عذارى جامحا ما يردنى عن البيض أمثال الدمى زجر زاجر

المعنى

ثم أظهر سبحانه سرا من أسرار القوم فقال «وَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ» أى يقسم هؤلاء المنافقون أنهم لمن جملتكم أيها المؤمنون أى مؤمنون أمثالكم «وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ» أى ليسوا مؤمنين بالله كما أنتم كذلك «وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ» أى يخافون القتل

و الأسر إن لم يظهروا الإيمان «لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً» أى لو يجد هؤلاء المنافقون حرزا عن ابن عباس و قيل حصنا عن قتاده «أَوْ مَغَارَاتٍ» أى غيرانا فى الجبال عن ابن عباس و قيل سراديب عن عطا «أَوْ مِيدَخَلًا» أى موضع دخول يأوون إليه عن الضحاك و قيل نفقا كنفق اليربوع عن ابن زيد و

قيل أسرابا فى الأرض عن ابن عباس و أبى جعفر (عليه السلام)

و قيل وجها يدخلونه على خلاف رسول الله ص عن الحسن «لَعَوْلُوا إِلَيْهِ» أى لعدلوا إليه و قيل لأعرضوا عنكم إليه «وَهُمْ يَجْمَعُونَ» أى يسرعون فى الذهاب إليه و معنى الآية أنهم من خبت دخلتهم و سوء سريرتهم و حرصهم على إظهار ما فى نفوسهم من النفاق و الكفر لو أصابوا شيئا من هذه الأشياء لآووا إليه ليجاهروا بما يضمرونه و أعرضوا عنك.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

اشاره

و مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسِيخُطُونَ (٥٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)

القراءه

قرأ يعقوب يلمزك بضم الميم و هى قراءه الحسن و الأعرج و الباقر بكسر الميم.

اللغه

يقال لمزت الرجل لمزه و ألمزه إذا عبتة و كذلك همزته قال الشاعر:

إذا لقيتك تبنى لى مكاشره و إن تغيبت كنت الهامز اللمزه

و قيل الهمز العيب بكسر العين و غمزها أى يكسر عينه إذا غاب و اللمز العيب على وجه المساره و قيل لأعرابى أ تهمز الفأره قال الهر يهمزها فأوقع الهمز على الأكل و الهمز كاللمز.

النزول

عن أبى سعيد الخدرى قال بينا رسول الله ص يقسم قسما و قال ابن عباس كانت غنائم هوازن يوم حنين إذ جاءه ابن أبى ذى الخويصره التميمى

و هو حرقوص بن زهير أصل الخوارج فقال اعدل يا رسول الله فقال ويلك و من يعدل إذا لم أعدل فقال عمر يا رسول الله ائذن لى فأضرب عنقه فقال النبي ص دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم و صيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر فى قذذه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر فى رصافه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شىء قد سبق الفرث و الدم آيتهم رجل أسود فى إحدى ثدييه أو قال فى إحدى يديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر يخرجون على فتره من الناس

و فى حديث آخر فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم فنزلت «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ» الآية قال أبو سعيد الخدرى أشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ص و أشهد أن عليا (عليه السلام) حين قتلهم و أنا معه جىء بالرجل على النعت الذى نعته رسول الله ص رواه الثعلبى بإسناده فى تفسيره

و قال الكلبي نزلت فى المؤلفه قلوبهم و هم المنافقون قال رجل منهم يقال له ابن الجواظ لم يقسم بالسويه فأنزل الله الآية و قال الحسن أتاه رجل و هو يقسم فقال أ لست تزعم أن الله تعالى أمرك أن تضع الصدقات فى الفقراء و المساكين قال بلى قال فما لك تضعها فى رعاها الغنم قال أن نبى الله موسى (عليه السلام) كان راعى غنم فلما ولى الرجل قال (عليه السلام) احذروا هذا و قال ابن زيد قال المنافقون ما يعطيها محمد إلا من أحب و لا يؤثر بها إلا هواه فنزلت الآية.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عنهم فقال «وَمِنْهُمْ» أى و من هؤلاء المنافقين «مَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقَاتِ» أى يعيبك و يطعن عليك فى أمر الصدقات «فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا» أى من تلك الصدقات «رَضُوا» و أقروا بالعدل «وَ إِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسِيحُطُونَ» أى يغضبون و يعيبون و

قال أبو عبد الله (عليه السلام) أهل هذه الآية أكثر من ثلثى الناس

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» معناه و لو أن هؤلاء المنافقين الذين طلبوا منك الصدقات و عابوك بها رضوا بما أعطاهم الله و رسوله «وَقَالُوا» مع ذلك «حَسْبُنَا اللَّهُ» أى كافانا الله أو كافينا الله «سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ» أى سيعطينا الله من فضله و إنعامه و يعطينا رسوله مثل ذلك و قالوا «إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ» فى أن يوسع علينا من فضله فيغنيننا عن أموال الناس و قيل يعنى راغبون إليه فيما يعطينا من الثواب و يصرف عنا من العذاب و جواب أو محذوف و تقديره لكان خيرا لهم و أعود عليهم و حذف الجواب فى مثل هذا الموضع أبلغ على ما تقدم بيانه.

اشاره

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)

الإعراب

قال الزجاج فريضة منصوب على التوكيد لأن قوله إنما الصدقات لهؤلاء كقولك فرض الله الصدقات لهؤلاء.

المعنى

ثم بين سبحانه لمن الصدقات فقال «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ» ومعناه ليست الصدقات التي هي زكاة الأموال إلا لهؤلاء و اختلف في الفرق بين الفقير و المسكين على قولين (أحدهما) أنهما صنف واحد و إنما ذكر الصنفان تأكيداً للأمر و هو قول أبي على الجبائي و إليه ذهب أبو يوسف و محمد فقلاً فيمن قال ثلث مالى للفقراء و المساكين و فلان إن لفلان نصف الثلث و نصفه الآخر للفقراء و المساكين لأنهما صنف واحد و الآخر و هو قول الأكثرين أنهما صنفان و هو قول الشافعي و أبي حنيفة فإنه قال فى المسأله المذكوره أن لفلان ثلث الثلث و ثلثى الثلث للفقراء و المساكين ثم اختلف هؤلاء على أقوال فقل إن الفقير هو المتعفف الذى لا يسأل و المسكين الذى يسأل عن ابن عباس و الحسن و الزهرى و مجاهد ذهبوا إلى أن المسكين مشتق من المسكنه بالمسأله و روى ذلك عن أبى جعفر (عليه السلام) و قيل آت الفقير الذى يسأل و المسكين الذى لا يسأل و جاء فى الحديث ما يدل على ذلك

فقد روى عن النبى ص أنه قال ليس المسكين الذى يردده الأكله و الأكلتان و التمره و التمرتان و لكن المسكين الذى لا يجد غنيا فيغنيه و لا يسأل الناس شيئاً و لا يظن به فيتصدق عليه

و قيل الفقير هو الزمن المحتاج و المسكين هو الصحيح المحتاج عن قتاده و قيل الفقراء المهاجرون و المساكين غير المهاجرين عن الضحاك و إبراهيم ثم اختلفوا من وجه آخر فقل إن الفقير أسوأ حالاً من المسكين فإن الفقير هو الذى لا شىء له و المسكين الذى له بلغه من العيش لا تكفيه و إليه ذهب الشافعي و ابن الأنبارى و احتج بقوله تعالى «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ» و بأن الفقير مشتق من فقار الظهر فكأن الحاجه قد كسرت فقار ظهره و قيل إن المسكين أسوأ حالاً من الفقير الذى له بلغه من العيش و المسكين الذى لا شىء له و هو قول أبى حنيفة و القتيبي و ابن دريد و أئمه اللغه و أنشد يونس:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد

فسماه فقيرا وجعل له حلوبه و أجابوا عن السفينه بأنها كانت مشتركه بين جماعه و لكل واحد منهم الشىء اليسير و أيضا فإنه يجوز أن يكون سماهم مساكين على وجه الرحمه كما

جاء فى الحديث مساكين أهل النار

و قال الشاعر:

مساكين أهل الحب حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر

و قيل أنهم كانوا يعملون عليها فأضيفت إليهم «وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا» يعنى سعاه الزكاه و جباتها «وَ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ» و كان هؤلاء قوما من الأشراف فى زمن النبى ص و كان يعطيهم سهما من الزكاه ليتألفهم به على الإسلام و يستعين بهم على قتال العدو ثم اختلف فى هذا السهم هل هو ثابت بعد النبى أم لا

فقيل هو ثابت فى كل زمان عن الشافعى و اختاره الجبائى و هو المروى عن أبى جعفر (عليه السلام) إلا أنه قال من شرطه أن يكون هناك إمام عادل يتألفهم على ذلك به

و قيل إن ذلك كان خاصا على عهد رسول الله ص ثم سقط بعده لأن الله سبحانه أعز الإسلام و قهر الشرك عن الحسن و الشعبى و هو قول أبى حنيفه و أصحابه «وَ فِي الرِّقَابِ» يعنى فى فك الرقاب من العتق و أراد به المكاتبين و أجاز أصحابنا أن يشتري منه عبد مؤمن إذا كان فى شدة و يعتق و يكون ولاؤه لأرباب الزكاه و هو قول ابن عباس و الحسن و مالك «وَ الْغَارِمِينَ» و هم الذين ركبتهم الديون فى غير معصيه و لا إسراف يقضى عنهم الديون «وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و هو الجهاد بلا خلاف و يدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين و هو قول ابن عمر و عطا و هو اختيار البلخى و جعفر بن مبشر قالوا يبنى منه المساجد و القناطر و غير ذلك «وَ ابْنِ السَّبِيلِ» و هو المسافر المنقطع به يعطى من الزكاه و إن كان غنيا فى بلده ذا يسار و إنما سمي ابن السبيل للزومه الطريق فنسب إليه كما قال الشاعر:

أنا ابن الحرب ربتنى وليدا إلى أن شبت و اکتھلت لداتى

و قيل هو الضيف عن قتاده «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ» أى مقدره واجبه قدرها الله و حتمها

«وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بحاجه خلقه «حَكِيمٌ» فيما فرض عليهم و أوجب من إخراج الصدقات و غير ذلك.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٦١ الى ٦٣]

اشاره

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

القراءه

قرأ عاصم فى روايه الأعمش و البرجمى عن أبى بكر قل أذن خير لكم بالضم و التنوين فيهما و هو قراءه الحسن و قتاده و عيسى بن عمر و غيرهم و قرأ الباقون «أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ» بالإضافه و قرأ نافع أذن خير ساكنه الذال فى كل القرآن و قرأ حمزه وحده و رحمه للذين آمنوا بالجر و الباقون «وَ رَحْمَةٌ» بالرفع.

الحجه

قال أبو على أذن فى الآيه إذا خففت أو ثقلت فإنه يجوز أن يطلق على الجملة و إن كانت عباره عن جارحه منها كما قال الخليل فى الناب من الإبل إنه سميت به لمكان الناب البازل فسميت الجملة كلها به و قالوا للرئيس هو عين القوم و للرئيسه هو عينهم و يجوز فيه شىء آخر و هو أن الاسم يجرى عليه كالوصف له لوجود معنى ذلك الاسم فيه كقول جرير:

تبدو فتبدي جمالا زانه خفر إذا ترارات السود العناكيب

فأجرى العناكيب وصفا عليهن يريد أنهن من الحقاره و الدمامه كالعناكيب و قال آخر:

فلو لا الله و المهر المفدى لأبت و أنت غربال الإهاب

فجعله غربالاً- لكثرة الخروق فيه من آثار الطعن و كذلك قوله هُوَ أُذُنٌ أُجْرَى عَلَى الْجَمَلِ اسْمُ الْجَارِحَةِ لِمَا أَرَادَ بِهِ مِنْ كَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِ لَهَا فِي الْإِصْغَاءِ بِهَا وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِعْلاً مِنْ أُذِنَ يَأْذِنُ أَذْناً إِذَا اسْتَمَعَ وَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى «وَ أَذَنْتُ لِرَبِّهَا» أَيْ اسْتَمَعْتَ وَ قَوْلُهُ «أُذِّنْ لِي» أَيْ اسْتَمِعْ لِي وَ

فِي الْحَدِيثِ مَا أُذِنَ لِلَّهِ لَشَيْءٍ كَأِذْنِهِ لِنَبِيِّ يَتَغْنَى بِالْقُرْآنِ

فَعَلِي هَذَا يَكُونُ مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَثِيرُ الْاسْتِمَاعِ مِثْلَ أَنْفٍ وَ سَجَّحَ قَالَ أَبُو زَيْدٍ رَجُلٌ أُذِنَ إِذَا كَانَ يَصْدُقُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ وَ قَوْلُهُ «أُذِّنْ خَيْرٌ لَكُمْ» بِالْإِضَافَةِ وَ هُوَ الْأَكْثَرُ فِي الْقِرَاءَةِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ أُذِنَ خَيْرٌ أَيْ مَسْتَمَعَ خَيْرٌ وَ صِلَاحٌ لَكُمْ وَ مَصْغٌ إِلَيْهِ لَا مَسْتَمَعَ شَرٌّ وَ فِسَادٌ مِنْ قِرَاءَةِ أُذِنَ خَيْرٌ لَكُمْ قَالَ الزَّجَّاجُ مَعْنَاهُ مَنْ يَسْتَمَعُ مِنْكُمْ فَيَكُونُ قَرِيباً مِنْكُمْ قَابِلاً لِلْعُذْرِ خَيْرٌ لَكُمْ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ وَ مِنْ رَفَعٍ «وَ رَحْمَةٌ» كَانَ الْمَعْنَى هُوَ أُذِنَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ رَحِمَهُ جَعَلَهُ الرَّحِمَةَ لِكَثْرَةِ هَذَا الْمَعْنَى فِيهِ وَ عَلَى هَذَا «وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» وَ يَجُوزُ أَنْ يَقْدَرَ حَذْفُ الْمُضَافِ مِنَ الْمَصْدَرِ وَ إِمَّا الْجَرِّ فِي رَحِمَهُ فَعَلَى الْعَطْفِ عَلَى خَيْرٍ كَأَنَّهُ أُذِنَ خَيْرٌ وَ رَحِمَهُ فَإِنْ قُلْتَ فَيَكُونُ أُذِنَ رَحِمَهُ فَإِنْ هَذَا لَا يَمْتَنِعُ لِأَنَّ الْأُذْنَ فِي مَعْنَى مَسْتَمَعَ فِي الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فَكَأَنَّهُ مَسْتَمَعَ رَحِمَهُ فَيَجَازُ هَذَا كَمَا جَازَ مَسْتَمَعَ خَيْرٌ أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّحِمَةَ مِنَ الْخَيْرِ فَإِنْ قُلْتَ فَهَلَا اسْتَغْنَى بِشُمُولِ الْخَيْرِ لِلرَّحِمَةِ وَ غَيْرِهَا عَنْ تَقْدِيرِ عَطْفِ الرَّحِمَةِ عَلَيْهِ فَالْقَوْلُ فِيهِ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَمْتَنِعُ كَمَا لَا يَمْتَنِعُ «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» ثُمَّ خَصَّ فَقَالَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَ إِنْ كَانَ قَوْلُهُ خَلَقَ يَعْمُ الْإِنْسَانَ وَ غَيْرَهُ فَكَذَلِكَ الرَّحِمَةُ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْخَيْرِ لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ تَعَطْفَ فَتَخْصِصَ الرَّحِمَةَ بِالذِّكْرِ مِنْ ضُرُوبِ الْخَيْرِ لِغَلْبِهِ مِنْ ذَلِكَ فِي وَصْفِهِ كَثْرَتُهُ كَمَا خَصَّصَ الْإِنْسَانَ بِالذِّكْرِ وَ إِنْ كَانَ الْخَلْقُ قَدْ عَمَهُ وَ غَيْرَهُ وَ الْبَعْدَ بَيْنَ الْجَارِ وَ مَا عَطْفَ عَلَيْهِ لَا يَمْنَعُ مِنَ الْعَطْفِ أَلَا تَرَى أَنَّ مِنْ قِرَاءَةِ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّمَا يَحْمِلُهُ عَلَيَّ وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ عِلْمُ قَبْلِهِ.

اللغة

الفرق بين الأحق و الأصلح أن الأحق قد يكون من غير صفات الفعل كقولك زيد أحق بالمال و الأصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل و تقول الله أحق بأن يطاع و لا تقول أصلح و المحاده مجاوزة الحد بالمشاقه و هي و المخالفه و المجانبه و المعاداه نظائر و أصله المنع و المحاده ما يعتري الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب و الخزي الهوان و ما يستحي منه.

«أُذُنٌ خَيْرٌ» خبر مبتدأ محذوف و من لم يضيف جعل خيرا صفة لأذن و اللام فى قوله «يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» على حد اللام فى قوله رَدِفَ لَكُمْ أو على المعنى لأن معنى يؤمن يصدق فعدى باللام كما عدى مصدقا به فى نحو قوله مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ* و قيل إنما دخلت اللام للفرق بين إيمان التصديق و إيمان الأمان قوله «فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ» يحتمل أن يكون العامل فى أن أحد أمرين إما أن يكون على تقدير حذف الجار على معنى فلان له نار جهنم أو فبان له نار جهنم و إما أن يكون أعاد أن الأولى على التكرير للتوكيد بسبب طول الكلام عن الزجاج و أقول إن هذا على مذهب أبى الحسن و أبى على الفارسى يرتفع قوله «فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ» بظرف مضممر محذوف من هذا الموضع لطول الكلام و تقديره فله أن له نار جهنم و المعنى فله و جوب نار جهنم و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف و التقدير فأمره أو و شأنه أن له نار جهنم و لا يجوز أن يرتفع بفعل مضممر لأن الفعل لا يقع بعد الفاء فى جواب الشرط و إنما يدخل الفاء فى جواب الشرط إذا كان مبتدأ أو خبرا أو جملة فعلية غير خبرية نحو قوله فَقَوْلِي إِنِّي نَدَرْتُ هذا مذهب سيويه قال الزجاج و لو قرئ فإن له بكسر الهمزة على وجه الاستئناف لكان جائزا فيكون كقولك فله نار جهنم غير أنه لم يقرأ به أحد.

النزول

قيل نزلت فى جماعه من المنافقين منهم الجلاس بن سويد و شاس بن قيس و مخشى بن حمير و رفاعه بن عبد المنذر و غيرهم قالوا ما لا ينبغى فقال رجل منهم لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغ محمدا ما تقولون فيوقع بنا فقال الجلاس بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإن محمدا أذن سامعه فأنزل الله الآية و قيل نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث و كان رجلا أدلم أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقه و كان ينم حديث النبى ص إلى المنافقين ف قيل له لا تفعل فقال إنما محمد أذن من حدثه شيئا صدقه نقول ما شئنا ثم نأتيه و نحلف له فيصدقنا و هو الذى

قال فيه النبى ص من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث

عن محمد بن إسحاق و غيره و قوله «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ» الآية قيل أنها نزلت فى رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوه تبوك فلما رجع رسول الله ص من تبوك أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم من تخلفهم و يعتلون و يحلفون فنزلت الآية عن مقاتل و الكلبي و قيل فى جلاس بن سويد و غيره من المنافقين قالوا لئن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير و كان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس فقال و الله إنما يقول محمد حق و أنتم شر من الحمير ثم أتى النبى ص فأخبره فدعاهم فسألهم

فحلفوا أن عامرا كذاب فنزلت الآية عن قتاده و السدى.

المعنى

ثم رجع سبحانه إلى ذكر المنافقين فقال «وَمِنْهُمْ» أى و من هؤلاء المنافقين «الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ» و الأذى قد يكون بالفعل و قد يكون بالقول و هو هنا بالقول «وَيَقُولُونَ هُوَ أُوذُنٌ» معناه أنه يستمع إلى ما يقال له و يصغى إليه و يقبله «قُلْ» يا محمد «أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ» أى هو أذن خير يستمع إلى ما هو خير لكم و هو الوحى و قيل معناه هو يسمع الخير و يعمل به و من قرأ أذن خير لكم فمعناه قل كونه أذنا أصلح لكم لأنه يقبل عذرکم و يستمع إليکم و لو لم يقبل عذرکم لكان شرا لكم فكيف تعيونه بما هو خير لكم و أصلح «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» معناه أنه لا يضره كونه أذنا فإنه أذن خير فلا يقبل إلا الخبر الصادق من الله و يصدق المؤمنين أيضا فيما يخبرونه و يقبل منهم دون المنافقين عن ابن عباس فإيمانه للمؤمنين تصديقه لهم على هذا القول و قيل يؤمن للمؤمنين أى يؤمنهم فيما يلقى إليهم من الأمان و لا- يؤمن للمنافقين بل يكونون على خوف و إن حلفوا «وَ رَحِمَهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» أى و هو رحمه لهم لأنهم إنما نالوا الإيمان بهدأيته و دعائه إياهم «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» فى الآخرة «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ» أخبر سبحانه أن هؤلاء المنافقين يقسمون بالله أن الذى بلغكم عنهم باطل اعتذارا إليكم و طلبا لمرضاتكم «وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» أى و الله و رسوله أحق و أولى بأن يطلبوا مرضاتهما «إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ» مصدقين بالله مقرين بنبوه نبيه محمد ص و تقديره و الله أحق أن يرضوه و رسوله أحق أن يرضوه فحذف للتخفيف و لدلالة الكلام عليه كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا و أنت بما عندك راض و الرأى مختلف

و المعنى نحن بما عندنا راضون و أنت بما عندك راض ثم قال سبحانه على وجه التقرير و التوبيخ لهؤلاء المنافقين «أَلَمْ يَعْلَمُوا» أى و ما يعلموا «أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» أى من تجاوز حدود الله التى أمر المكلفين ألا يتجاوزوها و إنما قال ألم يعلم لمن لا- يعلم على وجه الاستبطاء لهم و التخلف عن عمله أى هلا- علموا بعد أن مكنوا من عمله و قيل هو أمر بالعلم أى يجب أن يعلموا بهذا الخبر و بالدلائل و قيل معناه ألم يخبرهم النبى ص بذلك عن الجبائى «فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا» أى دائما «ذَلِكَ الْخِزْيُ» أى الهوان و الذل «الْعَظِيمُ».

إشارة

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَ لَيْسَ سَأَلْتُهُمْ لِيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

القراءة

قرأ عاصم «إِنْ نَعْفُ» و «نُعَذِّبْ» فيهما بالنون طائفة بالنصب و قرأ الباقون أن يعف بالياء و ضمها و فتح الفاء تعذب بالتاء و ضمها طائفة بالرفع.

الحجة

قال أبو على حجة من قرأ «إِنْ نَعْفُ» قوله ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ و من قرأ أن يعف فالمعنى معنى نعف و أما تعذب بالتاء فلأن الفعل في اللفظ مسند إلى مؤنث ظاهر.

اللغة

الحذر إعداد ما ينفي الضرر و رجل حذر متحيز و رجل حذريان كثير الحذر شديد الفرع و المنافق الذي يظهر من الإيمان خلاف ما يبطنه من الكفر مشتق من نافقاء اليربوع لأنه يخفى بابا و يظهر بابا ليكون إذا أتى من أحدهما خرج من الآخر و الخوض دخول القدم فيما كان مائعا من الماء و الطين ثم كثر حتى استعمل في غيره و اللعب فعل ما فيه سقوط المنزل لتعجل اللذه كفعل الصبي و لذلك قالوا ملاعب الأسنان أى أنه لشجاعته يقدم على الأسنان كفعل الصبي الذي لا يفكر في عاقبه أمره و الاعتذار إظهار ما يقتضى العذر و الإجماع الانقطاع عن الحق إلى الباطل يقال جرم الثمر إذا صرمه و تجرمت السنه تصرمت.

النزول

قيل نزلت في اثني عشر رجلا وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله ص عند رجوعه من تبوك فأخبر جبريل رسول الله ص بذلك و أمره أن يرسل إليهم و يضرب وجوه رواحلهم و عمار كان يقود دابه رسول الله ص و حذيفه يسوقها فقال لحذيفه اضرب وجوه رواحلهم فضربها حتى نحاهم فلما نزل قال لحذيفه من عرفت من القوم قال لم أعرف منهم أحدا فقال رسول الله ص إنه فلان و فلان حتى عدتهم كلهم فقال حذيفه أ لا تبعث إليهم فتقتلهم فقال أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم عن ابن كيسان و روى عن

أبى جعفر الباقر (عليه السلام) مثله إلا أنه قال ائتمروا بينهم ليقتلوه

و قال بعضهم لبعض إن فطن نقول إنا كنا نخوض و نلعب و إن لم يفظن نقتله و

قيل إن جماعه من المنافقين قالوا فى غزوه تبوك يظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام و حصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه ص على ذلك فقال احبسوا على الركب فدعاهم فقال لهم قلتم كذا و كذا فقالوا يا نبي الله إنما كنا نخوض و نلعب و حلفوا على ذلك فنزلت الآية «وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ» (إلخ)

عن الحسن و قتاده و

قيل كان ذلك عند منصرفه من غزوه تبوك إلى المدينة و كان بين يديه أربعة نفر أو ثلاثة يستهزءون و يضحكون واحدهم يضحك و لا- يتكلم فنزل جبريل و أخبر رسول الله ص بذلك فدعا عمار بن ياسر و قال أن هؤلاء يستهزءون بى و بالقرآن أخبرنى جبرائيل بذلك و لئن سألتهم ليقولن كنا نتحدث بحديث الركب فاتبعهم عمار و قال لهم مم تضحكون قالوا نتحدث بحديث الركب فقال عمار صدق الله و رسوله احترقتم أحرقكم الله فأقبلوا إلى النبي ص يعتذرون فأنزل الله تعالى الآيات

عن الكلبي و على بن إبراهيم و أبى حمزه و قيل إن رجلا- قال فى غزوه تبوك ما رأيت أكذب لسانا و لا أجبن عند اللقاء من هؤلاء يعنى رسول الله و أصحابه فقال له عوف بن مالك كذبت و لكنك منافق و أراد أن يخبر رسول الله ص بذلك فجاء و قد سبقه الوحى فجاء الرجل معتذرا و قال إنما كنا نخوض و نلعب ففيه نزلت الآية عن ابن عمر و زيد بن أسلم و محمد بن كعب و قيل أن رجلا من المنافقين قال يحدثنا محمد أن ناقه فلان بوادى كذا و كذا و ما يدرىه ما الغيب فنزلت الآية عن مجاهد و قيل نزلت فى عبد الله بن أبى و رهطه عن الضحاك.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عنهم فقال «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ» فيه قولان (أحدهما) أنه إخبار بأنهم يخافون أن يفشوا سرايرهم و يحذرون ذلك عن الحسن و مجاهد و الجبائى و أكثر المفسرين و المعنى أنه يحذرون من أن ينزل الله عليهم أى على النبي و المؤمنين سورة تخبر عما فى قلوبهم من النفاق و الشرك و قد قيل إن ذلك الحذر إنما أظهره على وجه الاستهزاء لا على سبيل التصديق لأنهم حين رأوا رسول الله ص ينطق فى كل شىء عن الوحى قال بعضهم لبعض احذروا ألا ينزل وحى فيكم يتناجون بذلك و يضحكون عن أبى مسلم و قيل أنهم كانوا يخافون أن يكون (عليه السلام) صادقا فينزل عليه الوحى فيفتضحون عن الجبائى و قيل أنهم كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا سرنا عن مجاهد (و الثانى) إن هذا اللفظ لفظه الخبر و معناه الأمر فهو كقولك ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تخبرهم بما فى قلوبهم من

النفاق و حسن ذلك لأن موضع الكلام على التهديد «قُلِ اسْتَهْزِؤُا» معناه قل يا محمد لهؤلاء المنافقين استهزءوا أى اطلبوا الهزاء و هو وعيد بلفظ الأمر «إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ» أى مظهر ما تحذرون من ظهوره و المعنى أن الله يبين لنبية باطن حالكم و نفاقكم «وَلَيْسَ سِيَأْتَهُمْ» عن طعنهم فى الدين و استهزائهم بالنبى ص و بالمسلمين «لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» و اللام للتأكيد و القسم و معناه لقالوا كنا نخوض خوض الركب فى الطريق لا على طريق الجد و لكن على طريق اللعب و اللهو فكان عذرهم أشد من جرمهم «قُلْ» يا محمد «أَبِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ» أى حججه و بيناته و كتابه «وَ رَسُولِهِ» محمد ص «كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ» ثم أمر الله سبحانه نبيه ص أن يقول لهؤلاء المنافقين «لَا تَعْتَذِرُوا» بالمعاذير الكاذبه «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» أى فإنكم بما فعلتموه قد كفرتم بعد أن كنتم مظهرين الإيمان الذى يحكم لمن أظهره بأنه مؤمن و لا- يجوز أن يكونوا مؤمنين على الحقيقة مستحقين للشواب ثم يرتدون على ما تقرر بالدليل و ذكر فى غير هذا الموضع أن المؤمن لا- يجوز أن يكفر «إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» أى كافرين مصرين على النفاق هذا إخبار منه سبحانه أنه إن عفا عن قوم منهم إذا تابوا يعذب طائفه أخرى لم يتوبوا و أقاموا على النفاق و الطائفه اسم للجماعه على الحقيقة لأنه اسم لما يطيف بغيره و يحيط به و قد سمي الواحد طائفه على معنى أنها نفس طائفه و قد ورد القرآن بذلك فى قوله «وَ لَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» فقد

ورد فى الآثار عن أئمتنا (عليه السلام) أن أقل من يحذر عذابهما واحد من المؤمنين فصاعدا

و

روى أن هاتين الطائفتين كانوا ثلاثه نفر فهذا اثنان و ضحكك واحد و هو الذى تاب من نفاقه و اسمه مخشى بن حمير فعفا الله عنه.

ص: ٧٣

اشاره

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْأَفْسُقُونَ (٦٧) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا فَاسِيئَتُهُمْ بِخَلْقِهِمْ فَاسِيئَتُهُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسِيئْتُمْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبِيٌّ الْأَذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمَ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)

اللغة

الاستمتاع طلب المتعه و هى فعل ما فيه اللذه من المأكّل و المشرب و المناكح و الخلاف النصيب سواء كان عاجلا أو آجلا و قال الزجاج النصيب الذى هو عند صاحبه وافر الحظ و المؤتفكات جمع مؤتفكه قد اتفكت بهم الأرض أى انقلبت.

الإعراب

موضع الكاف من قوله «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» نصب أى وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم و الكاف فى قوله «كَمَا اسِيئْتُمْ» و «كَالَّذِي خَاضُوا» نصب بأنه صفة لمصدر محذوف و تقديره استمتعتم استمتعا مثل استمتاعهم و خضتم خوضا مثل خوضهم قال جامع العلوم النحوى البصير «كَالَّذِي خَاضُوا» تقديره على قياس قول سيبويه كالذى خاضوا فيه فحذف فى فصار كالذى خاضوه ثم حذف الهاء و هو على قول يونس و الأخفش الذى مصدرى و التقدير كالخوض الذى خاضوا فيه و مثل هذا اختلافهم فى قوله ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ عَلَى قَوْلِ سَبِيحِيهِ تَقْدِيرُهُ يَبْشُرُ اللَّهُ بِهِ عَلَى قَوْلِ يُونُسَ وَ الْأَخْفَشِ ذَلِكَ تَبْشِيرُ اللَّهِ عِبَادَهُ.

المعنى

ثم ذكر سبحانه أحوال أهل النفاق فقال «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» أى بعضهم من جمله بعض و بعضهم مضاف إلى بعض فى الاجتماع على النفاق و الشرك كما تقول أنا من فلان و فلان منى أى أمرنا واحد و كلمتنا واحده و قيل معناه بعضهم على دين بعض عن الكلبي و قيل بعضهم من بعض على لحوق مقت الله بهم جميعا عن أبى

مسلم «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ» أى بالشرك و المعاصى «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ» أى عن الأفعال الحسنه التى أمر الله بها و حث عليها «وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» أى يمسكون أموالهم عن إنفاقها فى طاعه الله و مرضاته عن الحسن و قتاده و قيل معناه يمسكون أيديهم عن الجهاد فى سبيل الله عن الجبائى «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» أى تركوا طاعته فتركهم فى النار و ترك رحمتهم و إثابتهم عن الأصم و قيل معناه جعلوا الله كالمنسى حيث لم يتفكروا فى أن لهم صناعا يشبههم و يعاقبهم ليمنعهم ذلك عن الكفر و الأفعال القبيحه فجعلهم سبحانه فى حكم المنسى عن الثواب و ذكر ذلك لازدواج الكلام لأن النسيان لا يجوز عليه تعالى «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» أى الخارجون عن الإيمان بالله و رسوله و عن طاعته و قيل الفاسقون المترددون فى الشرك «وَعِدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ» أخبر سبحانه أنه وعد الذين يظهرون الإسلام و يطنون الكفر النار و كذلك الكفار و إنما فصل النفاق من الكفر و إن كان النفاق كفرا لبيّن الوعيد على كل واحد من الصنفين «خَالِدِينَ فِيهَا» أى دائمين فيها «هِيَ حَسْبُهُمْ» معناه نار جهنم و العقاب فيها كفايه ذنوبهم كما يقول عذبتك حسب ما فعلت و حسب فلان ما نزل به أى ذلك على قدر فعله «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ» أى أبعدهم من جنته و خيره «وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ» أى دائم لا يزول «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» أى وعدكم على النفاق و الاستهزاء كما وعد الذين من قبلكم من الكفار الذين فعلوا مثل فعلكم عن الزجاج و الجبائى و قيل معناه فعلكم كفعل الذين من قبلكم من كفار الأمم الخاليه «كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً» فى أبدانهم «وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا» فلم ينفعهم ذلك شيئا و حل بهم عذاب الله تعالى «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ» أى بنصبيهم و حظهم من الدنيا بأن صرفوها فى شهواتهم المحرمه عليهم و فيما نهاهم الله عنه ثم أهلكوا «فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ» أى فاستمتعتم أنتم أيضا بحظكم فى الدنيا كما استمتعوا هم «وَأَخْضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا» أى و خضتم فى الكفر و الاستهزاء بالمؤمنين كما خاض الأولون «أُولَئِكَ» الذين «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» التى تقع طاعه من المؤمنين مثل الإنفاق فى وجوه الخير و صله الرحم و غيرها «فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» إذ لم يستحقوا عليها ثوابا فى الآخرة و لا تعظيما و تبجيلا فى الدنيا لكفرهم و شركهم «وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» خسروا أنفسهم و أهلكوها بفعل المعاصى المؤديه إلى الهلاك و وردت الروايه عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآيه* ما أشبه الليله بالبارحه كالذين من قبلكم هؤلاء بنو إسرائيل شبهننا بهم لا أعلم إلا أنه قال و الذى نفسى بيده لتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه و

روى مثل ذلك عن أبى هريره عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ص قال لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعا بذراع و شبرا

بشبر و باعا بباع حتى لو أن أحدا من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس و الروم و أهل الكتاب قال فهل الناس إلا هم

و قال عبد الله بن مسعود أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل ستما و هديا تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة غير أنى لا أدرى أ تعبدون العجل أم لا- و قال حذيفه المنافقون الذين فيكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ص قلنا و كيف قال أولئك كانوا يخفون نفاقهم و هؤلاء أعلنوه أورد ذلك جميعا الثعلبي فى تفسيره ثم قال سبحانه «أَلَمْ يَأْتِهِمْ» أى ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين وصفهم «نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أى خبر من كان قبلهم «قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ» ذكر سبحانه الأمم الماضيه و القرون السالفه و أنه سبحانه أهلکها و دمر عليها لتكذيبها رسلها لئلا يأمنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك فأهلك سبحانه قوم نوح بالغرق و عادا قوم هود بالريح الصرصر و ثمود قوم صالح بالرجفه و قوم إبراهيم بسلب النعمه و هلاك نمرود و أصحاب مدين و هى البلده التى فيها قوم شعيب بعذاب يوم الظله و قيل إن مدين اسم نسبت البلد إليه و قد مر ذكره «وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ» أى المنقلبات و هى ثلاث قرى كان فيها قوم لوط و لذلك جمعها بالألف و التاء عن الحسن و قتاده و قال فى موضع آخر وَ الْمُؤْتَفِكَهَ أَهْوَى فجاء بها على طريق الجنس أهلکهم الله بالخسف و قلب المدينه عليهم «أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أى بالحجج و المعجزات «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ» أى ما يظلمهم الله بإهلاكهم «وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ» أى و لكن عاقبهم باستحقاق إذ كذبوا رسل الله كما فعلتم فأهلكهم بكفرهم و عصيانهم.

إشاره

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)

اللغة

العدن و الإقامة و الخلود نظائر و منه المعدن و قال الأعشى:

فإن يستضيفوا إلى حكمه يضافوا إلى راجح قد عدن

و الرضوان مصدر رضى يرضى رضى و رضوانا و الجهاد ممارسه الأمر الشاق و أصله من الجهد.

المعنى

لما ذكر الله تعالى المنافقين و وصفهم بقبيح خصالهم اقتضت الحكمة أن يذكر المؤمنين و يصفهم بصد أوصافهم ليتصل الكلام بما قبله اتصال النقيض بالنقيض فقال «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» أى بعضهم أنصار بعض يلزم كل واحد منهم نصره صاحبه و مولاته حتى أن المرأة تهى أسباب السفر لزوجها إذا خرج و تحفظ غيبه زوجها و هم يد واحده على من سواهم «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ» و هو ما أوجب الله فعله أو رغب فيه عقلا أو شرعا «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» و هو ما نهى الله عن فعله و زهد فيه عقلا- أو شرعا «وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أى يداومون على فعل الصلاة و إخراج الزكاة من أموالهم و وضعها حيث أمر الله تعالى بوضعها فيه و يمتثلون طاعه الله و رسوله و يتبعون إرادتهما و رضاهما «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» أى الذين هذه صفتهم يرحمهم الله فى الآخرة «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» أى قادر على الرحمة و العذاب واضع كل واحد منهما موضعه و فى الآيه دلالة على أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من فروض الأعيان لأنه جعلهما من صفات جميع المؤمنين و لم يخص قوما منهم دون قوم «وَعَدَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» أى من تحت أشجارها الأنهار و الماء فيها «خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً» يطيب العيش فيها بناها الله تعالى من اللآلى و الياقوت الأحمر

و الزبرجد الأخضر لا أذى فيها و لا وصب و لا نصب عن الحسن «فِي جَنَّاتٍ عَٰدِنٍ» أى فى جنات إقامة و خلد و قيل هى بطنان الجنة أى وسطها عن ابن مسعود و قيل هى مدينة فى الجنة و فيها الرسل و الأنبياء و الشهداء و أئمة الهدى و الناس حولهم و الجنان حولها عن الضحاك و قيل إن عدنا أعلى درجة فى الجنة و فيها عين التسليم و الجنان حولها محدقه بها و هى مغطاه من يوم خلقها الله عز و جل حتى ينزلها أهلها الأنبياء و الصديقون و الشهداء و الصالحون و من شاء الله و فيها قصور الدر و اليواقيت و الذهب فتهب ريح طيبه من تحت العرش فتدخل عليهم كتبان المسك الأبيض عن مقاتل و الكلبى و

روى عن النبى ص أنه قال عدن دار الله التى لم ترها عين و لم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيين و الصديقين و الشهداء يقول الله عز و جل طوبى لمن دخلك

«وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» رفع على الابتداء أى و رضا الله تعالى عنهم أكبر من ذلك كله قال الجبائى إنما صار الرضوان أكبر من الثواب لأنه لا- يوجد شىء منه إلا- بالرضوان و هو الداعى إليه الموجب له و قال الحسن لأن ما يصل إلى القلب من السرور برضوان الله أكبر من جميع ذلك و إنما رفع رضوان لأنه استأنفه للتعظيم كما يقول القائل أعطيتك و وصلتك ثم يقول و حسن رأى فيك و رضاي عنك خير من جميع ذلك «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» أى ذلك النعيم الذى وصفت هو النجاح العظيم الذى لا- شىء أعظم منه ثم أمر سبحانه بالجهد فقال «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ» بالسيف و القتال «وَالْمُنَافِقِينَ» و اختلفوا فى كيفية جهاد المنافقين فقول إن جهادهم باللسان و الوعظ و التخويف عن الجبائى و قيل جهادهم بإقامه الحدود عليهم و كان نصيبهم من الحدود أكثر و قيل هو بالأنواع الثلاثة بحسب الإمكان يريد باليد فإن لم يستطع باللسان فإن لم يستطع بالقلب فإن لم يقدر فليكفرهم فى وجوههم عن ابن مسعود و

روى فى قراءه أهل البيت جاهد الكفار بالمنافقين قالوا لأن النبى ص لم يكن يقاتل المنافقين. و إنما كان يتألفهم لأن المنافقين لا يظهر الكفر و علم الله تعالى بكفرهم لا يبيح قتلهم إذا كانوا يظهر الإيمان

«وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ» و معناه و أسمعهم الكلام الغليظ الشديد و لا ترق عليهم «وَمَا أَوْاهُمْ جَهَنَّمَ» أى منزلهم و مقامهم و مسكنهم جهنم يريد مأوى الفريقين «وَبَسَّ الْمَصِيرُ» أى بس المرجع و المأوى.

اشاره

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)

اللغه

الهم مقارنه الفعل بتقليبه في النفس تقول هم بالشىء يهمهما وليس الهم من العزم فى شىء إلا أن يبلغ نهايه القوه فى النفس و النيل لحوق الأمر يقال نال ما اشتهى أو تمنى أى أدركه و نقم منه شيئاً أى أنكر قال:

ما نقموا من بنى أميه إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

و الفضل الزيادة فى الخير على مقدار ما و أما التفضل فهو الزيادة من الخير الذى كان للقادر عليه أن يفعله و أن لا يفعله.

النزول

اختلف فى من نزلت فيه هذه الآيه

فقيل أن رسول الله ص كان جالسا فى ظل شجره فقال إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعينى الشيطان فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ص فقال علام تشتمنى أنت و أصحابك فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا فأنزل الله هذه الآيه

عن ابن عباس و

قيل خرج المنافقون مع رسول الله ص إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله ص و أصحابه و طعنوا فى الدين فنقل ذلك حذيفه إلى رسول الله ص فقال لهم ما هذا الذى بلغنى عنكم فحلفوا بالله ما قالوا شيئاً من ذلك

عن الضحاك و

قيل نزلت فى جلاس بن سويد بن الصامت و ذلك أن رسول الله ص خطب ذات يوم بتبوك و ذكر المنافقين فسماهم رجسا و عابهم فقال الجلاس و الله لئن كان محمد صادقا فيما يقول فنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال أجل و الله إن محمدا لصادق و أنتم شر من الحمير فلما انصرف رسول الله ص إلى المدينه أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس كذب يا رسول الله فأمرهما رسول الله أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما قال ثم قام عامر فحلف بالله لقد قاله ثم قال اللهم أنزل على نبيك الصادق منا الصدق فقال رسول الله ص و المؤمنون آمين فنزل جبرائيل (عليه السلام) قبل أن يتفرقا بهذه الآيه حتى بلغ «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ» فقام الجلاس فقال يا رسول الله اسمع الله قد عرض على التوبه صدق عامر

بن قيس فيما قال لك لقد قتلته و أنا أستغفر الله

ص: ٧٩

و أتوب إليه فقبل رسول الله ص ذلك منه

عن الكلبي و محمد بن إسحاق و مجاهد و قيل نزلت في عبد الله بن أبي سلول حين قال لئن رجعتنا إلى المدينه لئخرجن الأعر منهن الأذل عن قتاده و

قيل نزلت في أهل العقبه فإنهم ائتمروا في أن يغتالوا رسول الله ص في عقبه عند مرجعهم من تبوك و أرادوا أن يقطعوا أنساع راحلته ثم ينخسوا به فأطلع الله تعالى على ذلك و كان من جملة معجزاته لأنه لا يمكن معرفه مثل ذلك إلا بوحى من الله تعالى فسار رسول الله ص في العقبه و عمار و حذيفه معه أحدهما يقود ناقته و الآخر يسوقها و أمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادى و كان الذين هموا بقتله اثني عشر رجلا أو خمسه عشر رجلا على الخلاف فيه عرفهم رسول الله ص و سماهم بأسمائهم واحدا واحدا

عن الزجاج و الواقدي و الكلبي و القصة مشروحه في كتاب الواقدي و

قال الباقر (عليه السلام) كانت ثمانيه منهم من قريش و أربعة من العرب.

المعنى

ثم أظهر سبحانه أسرار المنافقين فقال «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا» يعنى أنهم حلفوا كاذبين ما قالوا ما حكى عنهم ثم حقق عليهم ذلك و أقسم سبحانه بأنهم قالوا ذلك لأن اللام في «لَقَدْ قَالُوا» لام القسم و «كَلِمَةَ الْكُفْرِ» كل كلمه فيها جحد لنعم الله تعالى و كانوا يطعنون في الإسلام «وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» أى بعد إظهار إسلامهم يعنى ظهر كفرهم بعد أن كان باطنا «وَ هُمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» قيل فيه ثلاثه أقوال (أحدها) أنهم هموا بقتل النبي ص ليله العقبه و التنفير بناقته عن الكلبي و مجاهد و غيرهما (و ثانيها) أنهم هموا بإخراج الرسول من المدينه فلم يبلغوا ذلك عن قتاده و السدى (و ثالثها) أنهم هموا بالفساد و التضريب بين أصحابه و لم ينالوا ذلك عن الجبائي «وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» معناه أنهم عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر النعمه أن نقموها و بيانه أنهم نقموا فيما ليس بموضع للنقمه فإنه لم يكن للمسلمين ذنب ينقمونه منهم بل الله تعالى أباح لهم الغنائم و أغناهم بذلك فقابلوا النعمه بالكفران و كان من حقهم أن يقابلوها بالشكر و قد مر هذا المعنى عند قوله «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا» الآيه في سوره المائده و إنما لم يقل من فضلها لأنه لا يجمع بين اسم الله و اسم غيره في الكنايه تعظيما لله و لذلك

قال النبي ص لمن سمعه يقول من أطاع الله و رسوله فقد اهتدى و من عصاهما فقد غوى بشس خطيب القوم أنت فقال كيف أقول يا رسول الله ص قال قل و من يعص الله و رسوله

و هكذا القول في قوله سبحانه «وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» و قيل إنما لم يقل من فضلها لأن فضل الله سبحانه

منه و فضل رسول الله من فضل الله «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ» أى فإن يتب هؤلاء المنافقون و يرجعوا إلى الحق يكن ذلك خيرا لهم فى الدنيا و الآخرة فإنهم ينالون بذلك رضا الله و رسوله و الجنة «وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا» أى يعرضوا عن الرجوع إلى الحق و سلوك الطريق المستقيم «يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا» مؤلما «فِي الدُّنْيَا» بما ينالهم من الحسرة و الغم و سوء الذكر «وَ» فى «الْآخِرَةِ» بعذاب النار «وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ» أى ليس لهم فى الأرض «مِنْ وَلِيٍّ» أى محب «وَ لَا نَصِيرٍ» ينصرهم و يدفع عنهم عذاب الله.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٧٥ الى ٧٨]

إشاره

وَ مِنْهُمْ مَرٍنٌ عَاهِدَ اللَّهُ لِنِئْنِ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَاعْتَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

اللغه

المعاهدهه هى أن تقول على عهد الله لأفعلن كذا فإنه يكون بذلك قد عقد على نفسه وجوب ما ذكره لأن الله تعالى قد حكم بذلك و قدر وجوبه عليه فى الشرع و البخل منع السائل لشده الإعطاء ثم صار فى الشرع لمنع الواجب لأن من منع الزكاه فهو بخيل قال الرماني لا يجوز أن يكون البخل منع الواجب لمشقه الإعطاء كما قال زهير:

إن البخيل ملوم حيث كان و لكن الجواد على علاقته هرم

قال لأنه يلزم على ذلك أن يكون الجود هو بذل الواجب من غير مشقه الإعطاء و كان من قضى دينا عليه يكون جوادا لأنه أدى الواجب من غير مشقه و إنما قال زهير ما قاله لأن البخل

صفه نقص قال و من منع ما لا يضره بذله و لا ينفعه منعه مما تدعو إليه الحكمة فهو بخيل لأنه لا يقع المنع على هذه الصفه إلا لشده فى النفس و إن لم يرجع إلى ضرر إذ الشده من غير ضرر معقوله كما يصفون الجوره بأنها لئيمه لأجل الشده و أعقبه و أورثه و أداه نظائر و قد يكون أعقبه بمعنى جازاه قال النابغه:

فمن أطاع فأعقبه بطاعته كما أطاعك و أدله على الرشد

و من عصاك فعاقبه معاقبه تنهى الظلوم و لا تقعد على ضمد

و النجوى الكلام الخفى يقال ناجيته و تناجوا و انتجوا و فلان نجى فلان و الجمع أنجيه قال:

إنى إذا ما القوم كانوا أنجيه و اضطرب القوم اضطراب الأرشيه

و أصله من النجوى و هو البعد كان المتناجين قد تباعدا من غيرهما و قيل هو من النجوه أى المكان المرتفع الذى لا يصل إليه السيل فكأنهما رجعا حديثهما إلى حيث لا يصل إليه غيرهما.

الإعراب

معنى لما معنى إذا لأن لما الغالب عليها الجزاء و هى اسم يقع فى جواب متى يقال متى كان كذا فيقول السامع لما كان كذا و لما و لو لا- يكونان لما مضى بخلاف إن و إذا فإنهما لما يستقبل إلا أن لو لا على تقدير نفى و جوب الثانى لانتفاء الأول و لما يدل على وقوع الثانى لوقوع الأول. «فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» المفعول الثانى محذوف تقديره فلما آتاهم ما تمنوه من فضله «لَنْصَدِّقَنَّ» أصله لنتصدقن أدغمت التاء فى الصاد.

النزول

قيل نزلت فى ثعلبه بن حاطب و كان من الأنصار

فقال للنبي ص ادع الله أن يرزقنى مالا فقال يا ثعلبه قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه أ ما لك فى رسول الله أسوه حسنه و الذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهبا و فضه لسارت ثم أتاه بعد ذلك فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا و الذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فقال ص اللهم ارزق ثعلبه مالا قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضافت

عليه المدينة فتحنى عنها فنزل واديا من أوديتها ثم كثرت نموا حتى تباعد عن المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعه و الجماعة و بعث رسول الله ص إليه المصدق ليأخذ الصدقه فأبى و بخل و قال ما هذه إلا أخت الجزيه فقال رسول الله ص يا ويح ثعلبه يا ويح ثعلبه و أنزل الله الآيات عن أبى أمامه الباهلى

و روى ذلك مرفوعا و قيل إن ثعلبه أتى مجلسا من الأنصار فأشهدهم فقال لئن أتانى الله من فضله تصدقت منه و آتيت كل ذى حق حقه و وصلت منه القرابه فابتلاه الله فمات ابن عم له فورثه مالا- و لم يف بما قال فنزلت عن ابن عباس و سعيد بن جبير و قتاده و قيل نزلت فى ثعلبه بن حاطب و معتب بن قشير و هما من بنى عمرو بن عوف قال لئن رزقنا الله مالا لنصدقن فلما رزقهما الله المال بخلا به عن الحسن و مجاهد و قيل نزلت فى رجال من المنافقين نبتل بن الحارث و جد بن قيس و ثعلبه بن حاطب و معتب بن قشير عن الضحاك و قيل نزلت فى حاطب بن أبى بلتعه كان له مال بالشام فأبطأ عليه و جهد لذلك جهدا شديدا فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصدقن فأتاه الله تعالى ذلك فلم يفعل عن الكلبي.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عنهم فقال «و مِنْهُمْ» أى من جمله المنافقين الذين تقدم ذكرهم «مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْنِ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ» أى لئن أعطانا من رزقه «لِنَصَّدَّقَنَّ» أى لتصدقن على الفقراء «و لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ» بإنفاقه فى طاعه الله و صله الرحم و مؤاساه أهل الحاجه «فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» أى أعطاهم ما اقترحوه و رزقهم ما تمنوه من الأموال «بَخِلُوا بِهِ» أى شحت نفوسهم عن الوفاء بالعهد و منعوا حق الله منه «و تَوَلَّوْا» عن فعل ما أمرهم الله به «و هُمْ مُعْرِضُونَ» عن دين الله تعالى «فَمَاعَقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ» أى فأورثهم بخلهم بما أوجبوا الله تعالى على أنفسهم النفاق فى قلوبهم و أداهم إلى ذلك عن الحسن كأنهم حصلوا على النفاق بسبب البخل و هذا كمن يقول لابنه أعقبك صحبه فلان ترك التعلم و قيل معناه أعقبهم الله بذلك حرمان التوبه كما حرم إبليس عن مجاهد و أراد بذلك أنه دلنا على أنه لا يتوب كما دلنا من حال إبليس على أنه لا يتوب لأنه سلب عنه قدره التوبه «إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ» أى يلقون جزاء البخل فذكر البخل و أراد به جزاءه كقوله سبحانه «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ» و على القول الثانى فمعناه إلى يوم يلقون الله أى اليوم الذى لا يملك فيه النفع و الضر إلا الله تعالى و هذا إخبار من الله تعالى عن هؤلاء المنافقين أنهم يموتون على النفاق و كان ذلك معجزه للنبي ص لأنه خرج مخبره على وفق خبره «بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» بين سبحانه أن هذا إنما أصابهم بفعلهم السيئ و هو إخلافهم الوعد و كذبهم «أَلَمْ يَعْلَمُوا» أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون «أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ» أى ما يخفون فى أنفسهم

«وَنَجَّوَاهُمْ» ما يتناجون به بينهم و هذا استفهام يراد به التوبيخ المعنى أنه يجب عليهم أن يعلموا ذلك «وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» جمع غيب و هو كل ما غاب عن الأجسام و معناه يعلم كل ما غاب عن العباد و عن إدراكهم من موجود أو معدوم من كل وجه يصح أن يعلم منه لأن-إلا- صيغه مبالغه و فى قوله «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ» الآيه دلالة على أن بعض المعاصى قد يدعو إلى بعض بأنهم لما تهاونوا بأداء هذا الحق دعاهم ذلك إلى الثبات على النفاق إلى الممات و كذلك يدعو بعض الطاعات إلى بعض و على ذلك ترتيب الشرائع و فيه دلالة على أن الإخلاف و الخيانة و الكذب من أخلاق أهل النفاق و قد صح فى الحديث عن النبى ص أنه قال للمنافق ثلاث علامات إذا حدث كذب و إذا وعد أخلف و إذا أؤتمن خان.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

اشاره

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

اللفه

المطوع أصله المتطوع أدغمت التاء فى الطاء لأنها من مخرجها و الطاء أفضل منها بالاستعلاء و الإطباق و التطوع كل فعل يستحق المدح بفعله و لا يستحق الذم بتركه و نظيره النافله و الفضيله و الجهد و الجهد بمعنى و هو الحمل على النفس بما يشق و قيل بينهما فرق و الجهد بالفتح فى العمل و بالضم فى القوت عن الشعبى و قيل الجهد بالفتح المشقه و بالضم الطاعه عن القتيبى.

الإعراب

يجوز أن يكون موضع «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ» جراً بأن يكون بدلاً من الهاء و الميم فى قوله «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ» و يحتمل أن يكون رفعا على الابتداء و خبره «سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» و هذا أولى و قوله «فِي الصَّدَقَاتِ» من صله يلمزون و لا يكون من صله المطوعين لأنه فضل بينهما قوله «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» و «الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ» عطف على «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ».

المعنى

ثم وصفهم الله بصفه أخرى فقال «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ» أى يعيبون

«الْمُطَوِّعِينَ» المتطوعين بالصدقة «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» و يطعنون عليهم «فِي الصَّدَقَاتِ وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ» أى و يعيون الذين لا يجدون إلا طاقتهم فيتصدقون بالقليل قيل أتاه عبد الرحمن بن عوف بصره من دراهم تملأ الكف و أتاه عقبه بن زيد الحارثي بصاع من تمر و قال يا رسول الله عملت فى النخل بصاعين فصاعا تركته لأهلى و صاعا أقرضته ربي و جاء زيد بن أسلم بصدقه فقال معتب بن قشير و عبد الله بن نبتل إن عبد الرحمن رجل يحب الرياء و يتغى الذكر بذلك و إن الله غنى عن الصاع من التمر فعاثوا المكث بالرياء و المقل بالإقلال «فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ» أى فيستهزءون منهم «سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» أى جازاهم جزاء سخريتهم حيث صاروا إلى النار «وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أى موجه مؤلم و

روى عن النبي ص أنه سئل فقيل يا رسول الله أى الصدقة أفضل قال جهد المقل

«أَشِيَتْغَفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا- تَسِيَتْغَفِرُ لَهُمْ» صيغته صيغه الأمر و المراد به المبالغة فى الإياس من المغفرة بأنه لو طلبها طلب المأمور بها أو تركها ترك المنهى عنها لكان ذلك سواء فى أن الله تعالى لا يفعلها كما قال سبحانه فى موضع آخر سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسِيَتْغَفِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَعْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ «إِنْ تَسْتَعْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» الوجه فى تعليق الاستغفار بسبعين مره المبالغة لا العدد المخصوص و يجرى ذلك مجرى قول القائل " لو قلت لى ألف مره ما قبلت " و المراد إنى لا أقبل منك فكذلك الآيه و المراد بذلك فيها نفى الغفران جملة و قيل إن العرب تبالغ بالسبعه و السبعين و لهذا قيل للأسد السبع لأنهم تأولوا فيه لقوته أنها ضوعفت له سبع مرات و أما ما ورد

أن النبي ص قال و الله لأزيدن عن السبعين

فإنه خبر واحد لا يعول عليه و لا يتضمن أن النبي ص يستغفر للكفار و ذلك غير جائز بالإجماع و قد روى

أنه قال لو علمت أنه لو زدت على السبعين مره غفر لهم لفعلت

و يحتمل أن يكون النبي ص يرجو أن يكون لهم لطف يصلحون به فعزم على الاستغفار لهم فلما بين الله عز اسمه أنه ليس لهم لطف ترك ذلك و يحتمل أن يكون قد استغفر لهم قبل أن يعلم بكفرهم و نفاقهم و يحتمل أن يكون قد استغفر لهم قبل أن يخبر بأن الكافر لا يغفر له أو قبل أن يمنع منه و يجوز أن يكون استغفاره لهم واقعا بشرط التوبه من الكفر فمنعه الله منه و أخبره بأنهم لا يؤمنون أبدا فلا- فائده فى الاستغفار لهم و الله أعلم بحقيقه الأمر «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» معناه أن حرمان المغفرة لهم بكفرهم بالله و رسوله «وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» مر معناه.

اشاره

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا - وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عِدْوًّا إِنْ كُمْ رَضِيْتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)

اللغة

المخلف المتروك خلف من مضى و مثله المؤخر عن مضى و الفرح ضد الغم و هو لذه في القلب بنيل المشتهى و مثله السرور و قال البصريون من المعتزله إن السرور و الغم يرجعان إلى الاعتقاد فالسرور اعتقاد وصول منفعة إليه في المستقبل أو دفع ضرر مظنون عنه أو معلوم و الغم اعتقاد وصول ضرر إليه في المستقبل أو فوت منفعة عنه و إليه ذهب المرتضى قدس الله روحه و الخلاف مصدر خالفته مخالفه و خلافا و زعم أبو عبيده أن معناه بعد و أنشد:

عقب الربيع خلافهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا

و الشواطب النساء يقددن الأديم بعد ما يقدرنه و الخالف كل من تأخر عن الشاخص و المتخلف بمعناه و الضحك حال تفتح و انبساط يظهر في وجه الإنسان عن تعجب مع فرح و البكاء حال تقبض يظهر عن غم في الوجه مع جرى الدموع على الخد.

الإعراب

خلاف نصب على المصدر بمعنى المفعول له إذا جعلته بمعنى المخالفه و إذا جعلته بمعنى خلف فهو نصب على الظرف «فَلْيَضْحَكُوا» إنما سكنت لام الأمر و لم تسكن لام الإضافه لأنها تؤذن بعملها للجر المناسب لها فلذلك ألزمت الحركه مع أن العوامل في الأسماء أقوى من العوامل في الأفعال «جزاء» نصب على المصدر أى يجوزون جزاء على أفعالهم التي اكتسبوها.

المعنى

ثم أخبر سبحانه أن جماعه من المنافقين الذين خلفهم النبي ص و لم

يخرجهم معه إلى تبوك استأذنه في التأخر فأذن لهم فرحوا بقعودهم فقال «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِ دِيَارِهِمْ» أى بقعودهم عن الجهاد «خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ» أى بعده وقيل معناه لمخالفتهم النبي ص «وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ظاهر المعنى «وَقَالُوا» أى قالوا للمسلمين ليصدوهم عن الغزو «لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» أى لا تخرجوا إلى الغزو سراعا فى هذا الحر وقيل بل معناه قال بعضهم لبعض ذلك طلبا للراحة والصدع و عدولا عن تحمل المشاق فى طاعة الله و مرضاته «قُلْ» يا محمد لهم «نَارُ جَهَنَّمَ» التى وجبت لهم بالتخلف عن أمر الله تعالى «أَشَدُّ حَرًّا» من هذا الحر فهى أولى بالاحتراز و الحذر عنها إذ لا يعتد بهذا الحر فى جنب ذلك الحر «لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» أوامر الله تعالى و وعده و وعيده «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا» هذا تهديد لهم فى صورته الأمر أى فليضحك هؤلاء المنافقون فى الدنيا قليلا لأن ذلك يفنى و إن دام إلى الموت و لأن الضحك فى الدنيا قليل لكثرة أحزانها و همومها و ليبكوا كثيرا فى الآخرة لأن ذلك يوم مقداره خمسين ألف سنة و هم فيه يبكون فصار بكاءؤهم كثيرا «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» من الكفر و النفاق و التخلف بغير عذر عن الجهاد قال ابن عباس إن أهل النفاق ليكون فى النار عمر الدنيا فلا يرقأ لهم دمع و لا يكتحلون بنوم و

روى أنس بن مالك عن النبي ص أنه قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبيكتم كثيرا

«فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ» يا محمد أى فإن ردك الله من غزوتك هذه و سفرك هذا «إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ» أى من المنافقين الذين تخلفوا عنك و عن الخروج معك «فَأَسِيَتْ أَذُنُوكَ لِلْخُرُوجِ» معك إلى غزوه أخرى «فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا» إلى غزوه «وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا» ثم بين سبحانه سبب ذلك فقال «إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ» أى عن غزوه تبوك «فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ» فى كل غزوه و اختلف فى المراد بالخالفين ف قيل معناه مع النساء و الصبيان عن الحسن و الضحاك و قيل مع الرجال الذين تخلفوا من غير عذر عن ابن عباس و قيل مع المخالفين قال الفراء يقال عبد خالف و صاحب خالف إذا كان مخالفا و قيل مع الخساس و الأدياء يقال فلان خالفه أهله إذا كان أدونهم و قيل مع أهل الفساد من قولهم خلف الرجل على أهله يخلف خلوفا إذا فسد و نبذ خالف أى فاسد و خلف فم الصائم إذا تغيرت ريحه و قيل مع المرضى و الزمنى و كل من تأخر لنقص عن الجبائى.

إشاره

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ
وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)

الإعراب

مات جمله فى موضع جر صفة لأحد و تقديره على أحد ميت منهم و أبدا منصوب لأنه ظرف لقوله «تُصَلِّ» و إنما كسر أن من قوله «إِنَّهُمْ كَفَرُوا» و إن كان فى موضع التعليل لتحقيق الإخبار بأنهم على الصفة التى ذكرها.

المعنى

ثم نهى سبحانه نبيه ص عن الصلاة عليهم فقال «وَلَا تُصَلِّ» يا محمد «عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ» أى من المنافقين «مَاتَ أَبَدًا» أى بعد موته فإنه (عليه السلام) كان يصلى عليهم و يجرى عليهم أحكام المسلمين «وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ» أى لا تقف على قبره للدعاء

فإنه (عليه السلام) كان إذا صلى على ميت يقف على قبره ساعه و يدعو له فهناك الله تعالى عن الصلاة على المنافقين و الوقوف على قبورهم و الدعاء لهم ثم بين سبحانه سبب الأمرين فقال «إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ» فما صلى رسول الله ص بعد ذلك على منافق حتى قبض

و فى هذه الآية دلالة على أن القيام على القبر للدعاء عباده مشروع و لو لا ذلك لم يخص سبحانه بالنهى عنه الكافر و

روى أنه ص صلى على عبد الله بن أبى و ألبسه قميصه قبل أن ينهى عن الصلاة على المنافقين

عن ابن عباس و جابر و قتاده و

قيل إنه ص أراد أن يصلى عليه فأخذ جبرائيل بثوبه و تلا عليه «وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ» الآية

عن أنس و الحسن و

روى أنه قيل لرسول الله ص ووجهت بقميصك إليه يكفن فيه و هو كافر فقال إن قميصى لن تغنى عنه من الله شيئا و إنى أؤمل من الله أن يدخل بهذا السبب فى الإسلام خلق كثير فروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ص

ذكره الزجاج قال و الأ- كثر فى الرواية أنه لم يصل عليه «وَلَا تُعْجِبِكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ» الخطاب للنبي ص و المراد به الأمة «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا» بما يلحقهم فيها من المصائب و الغموم و بما يأخذها منهم المسلمون على وجه الغنيمه و

بما يشق عليهم من إخراجها في الزكاه و الإنفاق في سبيل الله مع اعتقادهم بطلان الإسلام فيشد عليهم فيكون ذلك عذابا لهم «وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ» أى تهلك بالموت «وَ هُمْ كَافِرُونَ» أى فى حال كفرهم و قد مضى تفسير مثل هذه الآيه و إنما كرر للتذكير فى موطنين مع بعد أحدهما عن الآخر

ص: ٨٨

و يجوز أن يكون الآيتان فى فريقين من المنافقين فيكون كما يقول القائل لا- تعجبك حال زيد و لا تعجبك حال عمرو عن الجبائى.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٨٦ الى ٨٩]

اشاره

وَ إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَهُ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طُبِحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أَوْلِيَّتِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَ أَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)

اللغه

قال الزجاج الخوالف النساء لتخلفهن عن الجهاد و يجوز أن يكون جمع خالفه فى الرجال و الخالف و الخالفه الذى هو غير نجيب و لم يأت فى فاعل فواعل صفه إلا- فى حرفين قالوا فارس و فوارس و هالك و هالك و الطبع و الختم بمعنى واحد و الخيرات المنافع التى تسكن النفس إليها و ترتاح لها من النساء الحسان و غيرهن من نعيم الجنان واحدها خيره قال الشاعر:

و لقد طعنت مجامع الربلات ربلات هند خيره الملكات

و قال المبرد الخيرات الجوارى الفاضلات جمع خيره و قيل يجوز أن يكون خيره بالتشديد فخففت نحو هين و هين و الإعداد جعل الشئ مهيناً لغيره و أصله من العدد لأنه قد عدد الله جميع ما يحتاج إلى تقديره له من الأمور و مثله اتخاذ الأعتاد.

الإعراب

«أَنْ آمَنُوا» فى موضع نصب بحذف حرف الجر على تقدير بأن آمنوا أى

ص: ٨٩

بالإيمان ولا يجوز الحذف مع صريح المصدر.

المعنى

ثم بين سبحانه تمام أخبار المنافقين فقال «وَ إِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً» من القرآن على محمد ص «أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ» أى بأن آمنوا و هو خطاب للمؤمنين و أمر لهم بأن يدوموا على الإيمان و يتمسكوا به فى مستقبل الأوقات و يدخل فيه المنافق و يتناوله الأمر بأن يستأنف الإيمان و يترك النفاق «وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ» أى أخرجوا إلى الجهاد معه فكأنه قال آمنوا أنتم و ادعوا إلى الإيمان غيركم «اسْتَأْذِنَكَ» أى طلب الإذن منك فى القعود «أُولُوا الطُّولِ» أى أولوا المال و القدره و الغنى عن ابن عباس و غيره «مِنْهُمْ» أى من المنافقين «وَ قَالُوا ذَرْنَا» أى دعنا «نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ» أى المتخلفين عن الجهاد من النساء و الصبيان و إنما لحق هؤلاء الدم لأنهم أقوى على الجهاد «وَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ» أى رضوا لنفوسهم أن يقعدوا مع النساء و الصبيان و المرضى و المقعدين «وَ طَبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ» ذكرنا معنى الطبع فيما تقدم قال الحسن هؤلاء قوم قد بلغوا الحد الذى من بلغه مات قبله «فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» أوامر الله و نواهيه و لا- يتدبرون الأدله ثم مدح النبى ص و المؤمنين فقال سبحانه «لَكِنَّ الرَّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ» ينفقونها فى سبيل الله و مرضاته «وَ أَنْفُسِهِمْ» يقاتلون الكفار ثم أخبر سبحانه عما أعد لهم من الجزاء على انقيادهم لله و رسوله فقال «وَ أُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ» من الجنة و نعيمها و قيل الخيرات المنافع و المدح و التعظيم فى الدنيا و الثواب و الجنة فى الآخرة «وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» أى الظافرون بالوصول إلى البغية «أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ» أى هيا و خلق لهم «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» مضى تفسيره فى غير موضع «ذَلِكَ» إشاره إلى ما تقدم ذكره «الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» و الفوز النجاه من الهلكه إلى حال النعمه و سميت المهلكه مفازه تفاؤلا لها بالنجاه و إنما وصفه بالعظيم لأنه حاصل على وجه الدوام و بالإعزاز و الإجلال و الإكرام.

[سوره التوبه (٩): آيه ٩٠]

اشاره

وَ جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)

القراءه

قرأ يعقوب و قتيبه المعذرون بسكون العين و تخفيف الذال و هى قراءه ابن عباس و الضحاك و مجاهد و الباقون بفتح العين و تشديد الذال.

الحجه

من قرأ بالتخفيف أراد الذين يأتون بالعدر و من قرأ بالتشديد احتمل أمرين

(أحدهما) أن يكون المراد المتعذرون كان لهم عذر أو لم يكن وإنما أدغم التاء في الذال لقرب مخرجهما (و الثاني) أنه أراد المقصرون من التعذير فالمعذر المقصر الذى يريك أنه معذور ولا عذر له و المعتذر يقال لمن عذر و لمن لا عذر له قال لبيد:

" و من يبك حولا كاملا فقد اعتذر "

أى أتى بعذر.

المعنى

لما تقدم حديث المخلفين صنف الله تعالى الأعراب منهم صنفين فقال سبحانه «وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ» أى المقصرون الذين يعتذرون و ليس لهم عذر عن أكثر المفسرين و قيل هم المعتذرون الذين لهم عذر و هم نفر من بنى غفار عن ابن عباس قال و يدل عليه قوله «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» فعطف الكاذبين عليهم فدل ذلك على أن الأولين فى اعتذارهم صادقون و قيل معناه الذين يتصورون بصورة أهل العذر و ليسوا كذلك «لِيُؤْذَنَ لَهُمْ» فى التخلف عن الجبائى «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أى و قعدت طائفه من المنافقين من غير أن اعتذروا و هم الذين كذبوا فيما كانوا يظهرونه من الإيمان «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قال أبو عمرو بن العلاء فى هذه الآيه كلا الفريقين كان مسيئا جاء قوم فعذروا و جنح آخرون فقعدوا يريد أن قوما تكلفوا عذرا بالباطل و تخلف آخرون من غير تكلف عذر و إظهار عله جراه على الله و رسوله.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٩١ الى ٩٣]

اشاره

لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَّا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)

ص: ٩١

النصح إخلاص العمل من الغش و الحمل إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول حملة يحمله حملا إذا أعطاه ما يحمل عليه قال:

ألا فتى عنده خفان يحملني عليهما إننى شيخ على سفر

و الفيض الجرى عن امتلاء من قولهم فاض الإناء بما فيه و الحزن ألم فى القلب بفوت أمر مأخوذ من حزن الأرض و هى الأرض الغليظة المسلك.

الإعراب

حزنا نصب لأنه مفعول له أى يكون للحزن و لا يجدوا منصوب بأن و موضع «أَلَّا يَجِدُوا» نصب تقديره لأن لا يجدوا حذف الجار فوصل الفعل.

النزول

قيل إن الآية الأولى نزلت فى عبد الله بن زائده و هو ابن أم مكتوم و كان ضرير البصر جاء إلى رسول الله ص فقال يا نبى الله إنى شيخ ضرير خفيف الحال نحيف الجسم و ليس لى قائد فهل لى رخصه فى التخلف عن الجهاد فسكت النبى ص فأنزل الله الآية عن الضحاك و قيل نزلت فى عائذ بن عمرو و أصحابه عن قتاده و الآية الثانية نزلت فى البكائين و هم سبعة نفر منهم عبد الرحمن بن كعب و عتبة بن زيد و عمرو بن غنمه و هؤلاء من بنى النجار و سالم بن عمير و هرم بن عبد الله و عبد الله بن عمرو بن عوف و عبد الله بن معقل من مزينة

جاءوا إلى رسول الله ص فقالوا يا رسول الله احملنا فإنه ليس لنا ما نخرج عليه فقال لا أجد ما أحملكم عليه

عن أبى حمزة الثمالى و قيل نزلت فى سبعة نفر من قبائل شتى أتوا النبى ص فقالوا له احملنا على الخفاف و البغال عن محمد بن كعب و ابن إسحاق و قيل كانوا جماعه من مزينة عن مجاهد و قيل كانوا سبعة من فقراء الأنصار فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين و العباس بن عبد المطلب رجلين و يامين بن كعب النضرى ثلاثة عن الواقدى قال و كان الناس يتبوك مع رسول الله ص ثلاثين ألفا منهم عشرة آلاف فارس.

المعنى

ثم ذكر سبحانه أهل العذر فقال «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ» و هم الذين قوتهم ناقصه بالزمانه و العجز عن ابن عباس و قيل هم الذين لا يقدر على الخروج «وَلَا عَلَى الْمَرْضَى» و هم أصحاب العلل المانعه من الخروج «وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ» يعنى من ليست معه نفقه الخروج و آله السفر «حَرَجٌ» أى ضيق و جناح فى التخلف و ترك الخروج مع رسول الله ص «إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ» بأن يخلصوا العمل من الغش ثم قال سبحانه «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» أى ليس على من فعل الحسن الجميل فى

التخلف عن الجهاد طريق للتفريع في الدنيا و العذاب في الآخرة و قيل هو عام في كل محسن

ص: ٩٢

و الإحسان هو إيصال النفع إلى الغير لينتفع به من تعريه من وجوه القبح و يصح أن يحسن الإنسان إلى نفسه و يحمد على ذلك و هو إذا فعل الأفعال الجميله التي يستحق بها المدح و الثواب «وَاللَّهُ غَفُورٌ» أى ساتر على ذوى الأعذار بقبول العذر منهم «رَحِيمٌ» بهم لا- يلزمهم ما فوق طاقتهم ثم عطف عليه فقال «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ» أى و لا- على الذين إذا جاءوك يسألونك مركبا يركبونه فيخرجون معك إلى الجهاد إذ ليس معهم من الأموال و الظهر ما يمكنهم الخروج به فى سبيل الله «قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ» أى لا أجد مركبا يركبونه و لا ما أسوى به أمركم «تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» أى رجعوا عنك و أعينهم تسيل بالدمع لحزنهم أن لا- يجدوا ما يركبونه من الدواب و ينفقونه فى الطريق ليخرجوا معكم و لحرصهم على الخروج المعنى و ليس على هؤلاء أيضا حرج فى التخلف عن الجهاد و ليس عليهم سبيل للدم و العقاب «إِنَّمَا السَّبِيلُ» و الطريق بالعقاب و الحرج «عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ» أى يطلبون الإذن منك يا محمد فى المقام و هم مع ذلك أغنياء متمكنون من الجهاد فى سبيل الله «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ» من النساء و الصبيان و من لا حراك به «وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» قد تقدم بيانه.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٩٤ الى ٩٦]

اشاره

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أُنْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيُخَلِّفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَ مِأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَخَلِّفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)

النزول

قيل نزلت الآيات فى جد بن قيس و معتب بن قشير و أصحابهما من

المنافقين و كانوا ثمانين رجلا و لما قدم النبي ص المدينة راجعا من تبوك قال لا تجالسوهم و لا تكلموهم

عن ابن عباس و قيل نزلت فى عبد الله بن أبى حلف للنبي ص أن لا يتخلف عنه بعدها و طلب إلى النبي ص أن يرضى عنه عن مقاتل.

المعنى

ثم أخبر الله سبحانه عن هؤلاء القوم الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ص فقال «يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ» من تأخرهم عنكم بالأباطيل و الكذب «إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ» أى إذا انصرفتم إلى المدينة من غزوه تبوك «قُلْ» يا محمد «لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» أى لسنا نصدقكم على ما تقولون «فَدَبْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ» أى قد أخبرنا الله و أعلمنا من أخباركم و حقيقه أمركم ما علمنا به كذبكم و قيل إنه أراد به قوله سبحانه «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا» الآية «وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ» أى سيعلم الله فيما بعد و رسوله عملكم هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه و قيل معناه سيعلم الله أعمالكم و عزائمكم فى المستقبل و يظهر ذلك لرسوله فيعلمه الرسول بإعلامه إياه فيصير كالشىء المرئى لأن أظهر ما يكون الشىء أن يكون مرئيا كما علم ذلك فى الماضى فأعلم به الرسول «ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ» أى ترجعون بعد الموت إلى الله سبحانه الذى يعلم ما غاب و ما حضر و ما يخفى عليه السر و العلانية «فَيَبْئُتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى يخبركم بأعمالكم كلها حسنها و قبيحها فيجازيكم عليها أجمع «سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ» أى سيقسم هؤلاء المنافقون و المتخلفون فيما يعتذرون به إليكم أيها المؤمنون «إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ» إنما تخلفوا لعذر «لِتُعْرَضُوا عَنْهُمْ» أى لتصفحوا عن جرمهم و لا توبخوهم و لا تعنفوهم ثم أمر الله سبحانه نبيه ص و المؤمنين فقال «فَاعْرَضُوا عَنْهُمْ» أى إعرضوا رد و إنكار و تكذيب و مقت ثم بين عن سبب الإعراض فقال «إِنَّهُمْ رَجِسٌ» أى نجس و معناه أنهم كالشىء المنتن الذى يجب الاجتناب عنه فاجتنبوهم كما تجتنب الأنجاس «وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ» أى مصيرهم و مآلهم و مستقرهم جهنم «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» أى مكافاه على ما كانوا يكسبونه من المعاصى «يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ» أى طلبا لمرضاةكم عنهم أيها المؤمنون «فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ» لجهلكم بحالهم «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» الخارجين من طاعته إلى معصيته لعلمه بحالهم و معناه أنه لا ينفعهم رضاكم عنهم مع سخط الله عليهم و ارتفاع رضاه عنهم و إنما قال سبحانه ذلك لئلا يتوهم أنه إذا رضى المؤمنون فقد رضى الله و المراد بذلك أنه إذا كان الله لا يرضى عنهم فينبغى لكم أيضا أن لا ترضوا عنهم و فى هذا دلالة على أن من طلب بفعله رضا الناس و لم يطلب رضا الله سبحانه فإن الله يسخط الناس عليه كما جاء فى

عن النبي ص أنه قال من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه و أرضى عنه الناس و من التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه و أسخط عليه الناس.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٩٧ الى ٩٩]

اشاره

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَ أَجِدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَ يَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

القراءه

قرأ ابن كثير و أبو عمرو دائره السوء بضم السين و فى سوره الفتح مثله و الباقون بفتح السين و قرأ ورش و إسماعيل عن نافع قربه بضم الراء و الباقون «قُرْبَةٌ» بسكون الراء.

الحجه

قال أبو على الدائره لا تخلو إما أن تكون صفة أو بمنزله العاقبه و العافيه و الصفه أكثر فى الكلام فىنبغى أن يحمل عليها فالمعنى عليها أنها خله تحيط بالإنسان حتى لا يكون له منها مخلص و أضيفت إلى السوء أو إلى السوء على الوجهين على وجه التأكيد و الزيادة فى التبيين و لو لم تضيف لعلم هذا المعنى منها كما أن نحو قوله شمس النهار كذلك و السوء الرداءه و الفساد و هو خلاف الصدق الذى فى قولك ثوب صدق و ليس الصدق من صدق اللسان كما أن السوء ليس من سؤته فى المعنى و إن كان اللفظ واحدا يدللك على ذلك أنك أضفته إلى ما لا- يجوز عليه الصدق و الكذب فى الأخبار و أما دائره السوء بالضمه فكقولك دائره الهزيمه و دائره البلاء فاجتمعا فى جواز إضافه الدائره إليهما من حيث أريد بكل واحد منهما الرداءه و الفساد فمن قال «دَائِرَةُ السَّوْءِ» فتقديره الإضافة إلى الرداءه و الفساد و من قال

دائرته السوء فتقديره دائره الضرر و المكروه من قولهم سؤته مساءه و مسائيه و المعنيان متقاربان قال أبو الحسن «دائره السوء» كما تقول رجل السوء و أنشد:

و كنت كذذب السوء لما رأى دما بصاحبه يوما أحال على الدم

و أما قوله «قُوبَهُ» فالأصل حركه الراء و الإسكان للتخفيف كما فى الرسل و الكتب و الأذن و الطنب و أما قربات فينبغى أن يتقل لأنه إذا ثقل ما أصله التخفيف نحو الظلمات و الغرفات فإن تقرر الحركه الثانيه فى الكلمه الواحده أجدر و مثل قولهم قربه و قربه يسره و يسره هذنه و هذنه حكاه محمد بن يزيد.

اللغه

رجل عربى إذا كان من العرب و إن سكن البلاد و رجل أعرابى إذا كان ساكنا فى الباديه و العرب صنفان عدنانيه و قحطانيه و الفضل للعدنانيه برسول الله ص و أجدر مأخوذ من جدر الحائط بسكون الدال و هو أصله و أساسه و المغرم و هو نزول نائبه بالمال من غير خيانه و أصله لزوم الأمر و منه قوله إِنَّ عَيْذَابَهَا كَانَ غَرَامًا أى لازما و حب غرام أى لازم و الغريم يقال لكل واحد من المتدائنين للزوم أحدهما الآخر و غرمته كذا أى ألزمته إياه فى ماله و التربص الانتظار و منه التربص بالطعام لزياده الأسعار و أصله التمسك بالشىء لعاقبه و الدوائر جمع دائره هى من حوادث الدهر و قيل الحال المنقلبه عن النعمه إلى البليه و الدائره الدوله و القربه هى طلب الثواب و الكرامه من الله تعالى بحسن الطاعه.

الإعراب

«أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا» أن فى موضع نصب لأن الباء محذوفه و المعنى أجدر بترك العلم تقول أنت جدير أن تفعل و جدير بأن تفعل أى هذا الفعل ميسر لك و إذا حذف الباء لم يصلح إلا بأن و إن أثبت الباء صلح بأن و غيرها تقول أنت جدير بأن تقوم و جدير بالقيام و إنما صلح مع أن الحذف لأن أن يدل على الاستقبال فكأنهما عوض من المحذوف و «صَلَوَاتِ الرَّسُولِ» عطف على قوله «ما يُنْفِقُ» و موضعه نصب و تقديره و يتخذ النفقه و صلوات الرسول و يتخذ قربات و قيل صلوات معطوف على قربات على معنى يطلبون بالإنفاق قربه الله و صلوات الرسول عن الجبائى.

المعنى

لما تقدم ذكر المنافقين بين سبحانه أن الأعراب منهم أشد فى ذلك و أكثر جهلا فقال «الأعرابُ أشدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا» يريد الأعراب الذين كانوا حول المدينه و إنما كان

كفرهم أشد لأنهم أقسى و أجفى من أهل المدن و هم أيضا أبعد من سماع التنزيل و إنذار الرسل عن الزجاج و معناه أن سكان البوادي إذا كانوا كفارا أو منافقين فهم أشد كفرا من أهل الحضر لبعدهم عن مواضع العلم و استماع الحجج و مشاهدته المعجزات و بركات الوحي «وَأَجِدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ» أى و هم أحرى و أولى بأن لا يعلموا حدود الله فى الفرائض و السنن و الحلال و الحرام «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بأحوالهم «حَكِيمٌ» فيما يحكم به عليهم «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا» أى و من منافقى الأعراب من يعد ما ينفق فى الجهاد و فى سبيل الخير مغرما لحقه لأنه لا يرجو به ثوابا «وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ» أى و ينتظر بكم الدوائر أى صروف الزمان و حوادث الأيام و العواقب المذمومه قال الزجاج و الفراء كانوا يتربصون بهم الموت أو القتل فكانوا ينتظرون موت النبى ص ليرجعوا إلى دين المشركين و أكثر ما يستعمل الدائرته فى زوال النعمة إلى الشده و العافيه إلى البلاء و يقولون كانت الدائرته عليهم و كانت الدائرته لهم ثم رد سبحانه ذلك عليهم فقال «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ» أى على هؤلاء المنافقين دائره البلاء يعنى أن ما ينتظرون بكم هؤلاء حق بهم و هم المغلبون أبدا «وَاللَّهُ سَمِيعٌ» لمقالاتهم «عَلِيمٌ» بنياتهم لا يخفى عليه شىء من حالاتهم بين سبحانه من الأعراب المؤمنين فقال «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» و منهم من يرجع إلى سلامه الاعتقاد فى التصديق بالله و بالقيامه و الجنة و النار «وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ» أى و يريد بنفقته فى الجهاد و غير ذلك من أعمال البر قربات جمع قربه و هى الطاعه أى طاعات عند الله و تعظيم أمره و رعايه حقه و قيل معناه يتقرب إلى الله بإنفاقه و يطلب بذلك ثوابه و رضاه «وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ» أى دعاؤه بالخير و البركه عن قتاده و قيل استغفاره عن ابن عباس و الحسن و معناه أنه يرغب فى دعاء النبى ص «أَلَا- إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ» معناه ألا أن صلوات الرسول قربه لهم تقربهم إلى ثواب الله و يجوز أن يكون المعنى إن نفقتهم قربه لهم إلى الله «سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» هذا وعد منه سبحانه بأن يرحمهم و يدخلهم الجنة و فيه مبالغه بأن الرحمه غمرتهم و وسعتهم «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» لذنوبهم «رَحِيمٌ» بأهل طاعته و هما من ألفاظ المبالغه فى الوصف بالمغفره و الرحمه.

اشاره

وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)

القراءة

قرأ يعقوب و الأنصار بالرفع و هي قراءة عمر بن الخطاب و الحسن و قتاده و القراء المشهوره «وَالْأَنْصَارِ» بالجر و قرأ ابن كثير وحده من تحتها بزياده من و كذلك هو في مصاحف مكه و قرأ الباقون «تَحْتَهَا» بغير من و عليه سائر المصاحف و المعنى واحد.

الحجه

من قرأ بالرفع عطفه على قوله «السَّابِقُونَ» و من قرأ بالجر عطفه على «الْمُهَاجِرِينَ» و أما قوله «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ» فيجوز أن يكون معطوفا على الأنصار في رفعه و جره و يجوز أن يكون معطوفا على السابقون و أن يكون معطوفا على الأنصار أولى لقربه منه.

الإعراب

السابقون مبتدأ و الأولون صفته من المهاجرين تبين لهم «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ» إن حملته على السابقون كان مرفوعا و إن حملته على الأنصار كان مجرورا و خبر الأسماء كلها «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» و «أَعَدَّ لَهُمْ» عطف على رضى فالوقف على قوله «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا».

النزول

قيل نزلت هذه الآيه فيمن صلى إلى القبليتين عن سعيد بن المسيب و الحسن و ابن سيرين و قتاده و قيل نزلت فيمن باع بيعه الرضوان و هي بيعه الحديبيه عن الشعبي قال و من أسلم بعد ذلك و هاجر فليس من المهاجرين الأولين و قيل هم أهل بدر عن عطاء بن رباح و قيل هم الذين أسلموا قبل الهجره عن الجبائي.

المعنى

لما تقدم ذكر المنافقين و الكفار عقبه سبحانه بذكر السابقين إلى الإيمان فقال «وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ» أي السابقون إلى الإيمان و إلى الطاعات و إنما مدحهم بالسبق لأن السابق إلى الشىء يتبعه غيره فيكون متبوعا و غيره تابع له فهو إمام فيه و داع له إلى الخير بسبقه إليه و كذلك من سبق إلى الشر يكون أسوأ حالا لهذه العله «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ» الذين هاجروا من مكه إلى المدينة و إلى الحبشه «وَالْأَنْصَارِ» أي و من الأنصار الذين سبقوا نظراءهم من أهل المدينة إلى الإسلام و من قرأ و الأنصار بالرفع لم يجعلهم من السابقين و جعل السبق للمهاجرين خاصة «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ» أي بأفعال الخير و الدخول في الإسلام بعدهم و

سلوك منہاجہم و یدخل فی ذلک من یجى ء بعدہم إلى یوم القیامہ «رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» أخبر سبحانہ أنه رضى عنهم أفعالہم و رضوا عن اللہ سبحانہ لما أجزل لهم من الثواب على طاعتہم و إيمانہم به و یقینہم «وَ أَعِدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» أى یبقون ببقاء اللہ منعمین «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» أى الفلاح

العظيم الذى يصغر فى جنبه كل نعيم و فى هذه الآيه دلالة على فضل السابقين و مزيتهم على غيرهم لما لحقهم من أنواع المشقه فى نصره الدين فمنها مفارقه العشائر و الأقربين و منها مباينه المؤلف من الدين و منها نصره الإسلام و قله العدد و كثره العدو و منها السبق إلى الإيمان و الدعاء إليه و اختلف فى أول من أسلم من المهاجرين

فقيل إن أول من آمن خديجه بنت خويلد ثم على بن أبى طالب (عليه السلام)

و هو قول ابن عباس و جابر بن عبد الله و أنس و زيد بن أرقم و مجاهد و قتاده و ابن إسحاق و غيرهم

قال أنس بعث النبى ص يوم الإثنين و صلى على (عليه السلام) و أسلم يوم الثلاثاء

و

قال مجاهد و ابن إسحاق إنه أسلم و هو ابن عشر سنين و كان مع رسول الله ص أخذه من أبى طالب و ضمه إلى نفسه يريه فى حجره و كان معه حتى بعث نبيا

و

قال الكلبي أنه أسلم و له تسع سنين

و

قيل اثنتا عشره سنه

عن أبى الأسود قال السيد أبو طالب الهروى و هو الصحيح و

فى تفسير الثعلبى روى إسماعيل بن أياس بن عفيف عن أبيه عن جده عفيف قال كنت امرءا تاجرا فقدمت مكة أيام الحج فنزلت على العباس بن عبد المطلب و كان العباس لى صديقا و كان يختلف إلى اليمن يشتري العطر فيبيعه أيام الموسم فبينما أنا و العباس بمنى إذ جاء رجل شاب حين حلقت الشمس فى السماء فرمى ببصره إلى السماء ثم استقبل الكعبه فقام مستقبلا فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه فلم يلبث أن جاءت امرأه فقامت خلفهما فركع الشاب فركع الغلام و المرأه فخر الشاب ساجدا فسجدا معه فرفع الشاب فرفع الغلام و المرأه فقلت يا عباس أمر عظيم فقال أمر عظيم فقلت ويحك ما هذا فقال هذا ابن أخى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يزعم أن الله بعثه رسولا و أن كنوز كسرى و قيصر ستفتح عليه و هذا الغلام على بن أبى طالب و هذه المرأه خديجه بنت خويلد و زوجه محمد تابعاه على دينه و أيم الله ما على ظهر الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء

فقال عفيف الكندى بعد ما أسلم و رسخ الإسلام فى قلبه يا ليتنى كنت رابعا و

روى أن أبا طالب قال لعلى (عليه السلام) أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه قال يا أبة آمنت بالله و رسوله و صدقته فيما جاء

به و صليت معه لله فقال له إن محمدا ص لا يدعو إلا إلى خير فالزمه

و

روى عبد الله بن موسى عن العلاء بن صالح عن المنهال بن عمرو عن عباده بن عبد الله قال سمعت عليا (عليه السلام) يقول أنا عبد الله و أخو رسوله و أنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدى إلا كذاب مفتر صليت قبل الناس بسبع سنين

و

فى مسند السيد أبى طالب الهروى مرفوعا إلى أبى أيوب عن النبى ص قال صلت الملائكه على و على على سبع سنين و ذلك أنه لم يصل فيها أحد غيرى و غيره

و قيل إن أول من أسلم بعد خديجه أبو بكر عن إبراهيم النخعى و قيل أول من أسلم بعدها زيد بن حارثه عن الزهرى و سليمان بن يسار و عروه بن الزبير و

روى

ص: ٩٩

الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده مرفوعا إلى عبد الرحمن بن عوف في قوله سبحانه «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ» قال هم عشرة من قريش أولهم إسلاما على بن أبي طالب (عليه السلام).

[سورة التوبة (٩): الآيات ١٠١ إلى ١٠٢]

إشارة

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَيُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)

اللغة

حول الشيء المحيط به من حال يحول إذا دار بالانقلاب و منه الحول للسنه و المحاله لأنها تدور في المحور و المرد أصله الملاسه و منه صِرْحٌ مُّمَرَّدٌ أى مملس و الأمر الذى لا شعر على وجهه و المرداء الرمله التى لا تنبت شيئا ذكره على بن عيسى و قيل أصله الظهور و المارد الذى ظهر شره و شجره مرداء إذا تساقط ورقها فظهرت عيدانها و رجل أمرد لظهور مكان الشعر منه عن ابن عرفة و مرد الرجل يمرد مرودا إذا عتا و خرج من الطاعة واعيا خبثا و منه شَيْطَانٌ مَارِدٌ و مَرِيدٌ و فى المثل تمرد مارد و عز الأبلق و هما حصنان.

الإعراب

«وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا» أى قوم مردوا فحذف الموصوف و يجوز أن يكون التقدير و من أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق ففصل بين الصفة و الموصوف بالظرف و «آخَرُونَ اعْتَرَفُوا» معطوف على قوله «مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ» و كذلك وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ و إن شئت قدرت و منهم آخرون.

المعنى

ثم عاد الكلام إلى ذكر المنافقين فقال سبحانه «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم» أى و من جملة من حولكم يعنى حول مدينتكم «مِنَ الْأَعْرَابِ» و هم الذين يسكنون البدو إذا كانوا مطبوعين على العربية «مُنَافِقُونَ» يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر و قيل إنهم جهينه و مزينه و أسلم و أشجع و غفار و كانت منازلهم حول المدينة «وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» أيضا منافقون و إنما حذف لدلاله الأول عليه «مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ» أى مرونا على النفاق و تجرءوا عليه عن الفراء و قيل معناه أقاموا عليه لم يتوبوا منه كما تاب غيرهم عن ابن زيد و أبان بن تغلب و قيل معناه

لجوا فيه و أبوا غيره عن ابن إسحاق و قيل فيه تقديم و تأخير و تقديره و ممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق و من أهل المدينة أيضا مثل ذلك عن الزجاج «لا تَعْلَمُهُمْ» يا محمد أى لا تعرفهم «نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» أى نعرفهم «سَيُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ» فيه أقوال (أحدها) أن معناه نعذبهم فى الدنيا بالفضيحة

فإن النبى ص ذكر رجالا منهم و أخرجهم من المسجد يوم الجمعة فى خطبته و قال أخرجوا فإنكم منافقون

و يعذبهم فى القبر عن ابن عباس و السدى و الكلبي و قيل مره فى الدنيا بالسبى و القتل و مره فى الآخرة بعذاب القبر عن مجاهد و روى حصيف عنه عذبوا بالجوع مرتين و قيل إحداهما أخذ الزكاه منهم و الأخرى عذاب القبر عن الحسن و قيل إحداهما غيظهم من أهل الإسلام و الأخرى عذاب القبر عن ابن إسحاق و قيل إن الأولى ضرب الملائكة وجوههم و أدبارهم عند قبض أرواحهم و الأخرى عذاب القبر و قيل إن الأولى إقامة الحدود عليهم و الأخرى عذاب القبر عن ابن عباس و كل ذلك محتمل غير أنا نعلم أن المرتين معا قبل أن يردوا إلى عذاب النار «ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ» أى يرجعون يوم القيامة إلى عذاب مؤبد فى النار «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» يعنى من أهل المدينة أو من الأعراب آخرون أقروا بذنوبهم و ليس تراجع إلى المنافقين و الاعتراف بالإقرار بالشىء عن معرفه «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا» يعنى أنهم يفعلون أفعالا جميلا و يفعلون أفعالا سيئه قبيحه و التقدير و عملا آخر سيئا «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» قال المفسرون عسى من الله واجبه و إنما قال عسى حتى يكونوا بين طمع و إشفاق فيكون ذلك أبعد من الاتكال على العفو و إهمال التوبه و فى هذا دلالة على بطلان القول بالإحباط لأنه لو صح الإحباط لكان أحد العاملين إذا طرأ على الآخر أحبطه و أبطله فلم يجتمعا فلا يكون لقوله «خَلَطُوا» معنى و قال بعض التابعين ما فى القرآن آيه أرجى لهذه الأمة من هذه الآية و قد يستعمل لفظ الخلط فى الجمع من غير امتزاج يقال خلط الدرهم و الدنانير و قيل أنه يجرى مجرى قولهم استوى الماء و الخشب أى مع الخشب و قيل إن خلط بالتخفيف فى الخير و خلط بالتشديد فى الشر «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» هذا تعليل لقبول التوبه من العصاه أى لأنه غفور رحيم.

النزول

قال أبو حمزه الثمالى بلغنا أنهم ثلاثة نفر من الأنصار أبو لبابه بن عبد المنذر و ثعلبه بن وديعه و أوس بن حذام تخلفوا عن رسول الله ص عند مخرجه إلى تبوك فلما بلغهم ما أنزل الله فىمن تخلف عن نبيه أيقنوا بالهلاك و أوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد فلم يزالوا كذلك حتى قدم رسول الله ص

ص: ١٠١

فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلون أنفسهم حتى يكون رسول الله ص يحلهم و قال رسول الله ص و أنا أقسم لا أكون أول من حلهم إلا- أن أوامر فيهم بأمر فلما نزل «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» عمد رسول الله ص إليهم فحلهم فانطلقوا فجاءوا بأموالهم إلى رسول الله فقالوا هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فخذها و تصدق بها عنا قال (عليه السلام) ما أمرت فيها فنزل «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً»

الآيات و قيل أنهم كانوا عشرة رهط منهم أبو لبابه عن علي بن أبي طلحه عن ابن عباس و قيل كانوا ثمانية منهم أبو لبابه و هلال و كردم و أبو قيس عن سعيد بن جبير و زيد بن أسلم و قيل كانوا سبعة عن قتاده و قيل كانوا خمسة و

روى عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنها نزلت في أبي لبابه و لم يذكر غيره معه و سبب نزولها فيه ما جرى منه في بنى قريظه حين قال إن نزلتم علي حكمه فهو الذبح

و به قال مجاهد و قيل نزلت فيه خاصة حين تأخر عن النبي ص في غزوه تبوك فربط نفسه بساريه علي ما تقدم ذكره عن الزهري

ثم قال أبو لبابه يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب و أنا أنخلع من مالي كله قال يجزيك يا أبا لبابه الثلث و في جميع الأقوال أخذ رسول الله ص ثلث أموالهم و ترك الثلثين

لأن الله تعالى قال «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ» و لم يقل خذ أموالهم.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٣ الى ١٠٥]

إشارة

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِلَاتَكَ سَيَكُنْ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

القرءاء

قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر «إِنَّ صَلَاتَكَ» و في هود أ صَلَاتُكَ على التوحيد و قرأ الباقر أن صلواتك أ صلواتك على الجمع.

قال أبو علي الصلاه فى اللغه الدعاء قال الأعشى فى الخمر:

و قابلها الريح فى دنها و صلى على دنها و ارتسم

فكان معنى «صَلِّ عَلَيْهِمْ» ادع لهم فإن دعاءك لهم تسكن إليه نفوسهم و تطيب به فأما قولهم صلى الله على رسوله و ملائكته فلا يقال فيه أنه دعاء لهم من الله تعالى كما لا يقال فى نحو وَيَلُّ لِلْمُطَفِّينَ و نحوه أنه دعاء عليهم و لكن المعنى فيه أن هؤلاء ممن يستحق عندكم أن يقال فيهم هذا النحو من الكلام و كذلك قوله بل عجبت و يسخرون فيمن ضم الياء و هذا مذهب سيوييه فإذا كانت الصلاه مصدرا وقع على الجمع و المفرد على لفظ واحد كصوت الحمير فإذا اختلف جاز أن يجمع لاختلاف ضروبه كما قال إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ فَأَمَا مِنْ زَعَمَ أَنَّ الصَّلَاةَ أَوْلَى لَأَنَّ الصَّلَاةَ لِلْكَثْرَةِ وَ الصَّلَوَاتُ لِلْقَلِيلِ فَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ مُتَّجِهَاً لِأَنَّ الْجَمْعَ بِالتَّاءِ قَدْ يَقَعُ عَلَى الْكَثِيرِ كَمَا يَقَعُ عَلَى الْقَلِيلِ كَقَوْلِهِ «وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمْنُونَ» وَ قَوْلِهِ «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ» وَ قَوْلِهِ «إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَ الْمُسَدِّقَاتِ» فَقَدْ يَقَعُ هَذَا الْجَمْعُ عَلَى الْكَثِيرِ كَمَا يَقَعُ عَلَى الْقَلِيلِ.

الإعراب

قوله «تُطَهَّرُهُمْ» إنما ارتفع لأحد أمرين إما أن يكون صفة لصدقه و يكون التاء للتأنيث و يكون قوله «بِهَا» للتبيين و يكون التقدير صدقه مطهره و إما أن يكون التاء خطابا للنبي ص و التقدير فإنك تطهرهم بها فتكون صفة لصدقه أيضا و يكون الضمير فى بها للصدقه الموصوفه و أما و تركيهم فلا يكون إلا للخطاب و قيل أن تطهرهم يجوز أن يكون على الاستئناف و حملة على الاتصال أولى.

المعنى

ثم خاطب سبحانه النبي ص و أمره بأخذ الصدقه من أموالهم تطهيرا لهم و تكفيرا لسيئاتهم فقال «خُذْ» يا محمد «مِنْ أَمْوَالِهِمْ» أدخل من للتبعيض لأنه لم يجب أن يصدق بالجميع و إنما قال «مِنْ أَمْوَالِهِمْ» و لم يقل من مالهم حتى يشتمل على أجناس المال كلها و هذا يدل على وجوب الأخذ من سائر أموال المسلمين لاستوائهم فى أحكام الدين إلا ما خصه الدليل «صَدَقَهُ» قيل أراد بها الأمر بأن يأخذ الصدقه من أموال هؤلاء التائبين تشديدا للتكليف و ليست بالصدقه المفروضه بل هى على سبيل الكفاره للذنوب التى أصابوها عن الحسن و غيره و قيل أراد بها الزكاه المفروضه عن الجبائى و أكثر أهل التفسير و هو الظاهر لأن حملة على الخصوص بغير دليل لا وجه له فيكون

أمرًا بأن يأخذ من المال كين للنصاب الزكاه من الورق إذا بلغ مائتي درهم و من الذهب إذا بلغ عشرين مثقالا و من الإبل إذا بلغت خمسا و من البقر إذا بلغت ثلاثين و من الغنم إذا بلغت أربعين و من الغلات و الثمار إذا بلغت خمسه أو سته «تَطَهَّرُهُمْ وَ تَزَكِّيَهُمْ بِهَا» معناه تطهرهم تلك الصدقه عن دنس الذنوب و تزكيتهم أنت بها أى تنسبهم إلى الزكاه و تدعو لهم بما يصيرون به أزكيا و قيل معناه تطهرهم أنت و تزكيتهم أنت بها فيكون كلاله الفعلين مضافا إلى النبي ص «وَ صَلَّى عَلَيْهِمْ» هذا أمر من الله تعالى للنبي ص أن يدعو لمن يأخذ منه الصدقه و معناه ادع لهم بقبول صدقاتهم كما يقول الداعي آجرك الله فيما أعطيت و بارك لك فيما أبقيت و

روى عن النبي ص أنه كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال اللهم صل عليهم و قال عبد الله بن أبي أوفى و كان من أصحاب الشجره فأتاه ابن أبي أوفى بصدقه فقال اللهم صل على آل أبي أوفى أورده البخارى و مسلم فى الصحيح

«إِنَّ صِدَائِكَ سَكَنٌ لَهُمْ» أى أن دعواتك مما تسكن نفوسهم إليه و قيل رحمه لهم عن ابن عباس و قيل وقار و طمأنينه لهم أن الله قد قبل منهم عن قتاده و الكلبي و قيل تثبت لهم عن أبي عبيده «وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» يسمع دعاءك لهم و يعلم ما يكون منهم فى الصدقات «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» استفهام يراد به التنبيه على ما يجب أن يعلم فالمخاطب إذا رجع إلى نفسه و فكر فيما نبه عليه علم وجوبه و إنما وجب أن يعلم أن الله يقبل التوبه لأنه إذا علم ذلك كان ذلك داعيا إلى فعل التوبه و التمسك بها و المسارعه إليها و ما هذه صورته يجب العلم به ليحصل به الفوز بالثواب و الخلاص من العقاب و السبب فيه

أنهم لما سألوا النبي ص أن يأخذ من أموالهم ما يكون كفاره لذنوبهم امتنع من ذلك انتظارا لإذن من الله سبحانه فيه

فبين الله أنه ليس قبول التوبه إلى النبي ص و إن ذلك إلى الله عز اسمه فإنه الذى يقبلها «وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ» أى يتقبلها و يضمن الجزاء عليها قال الجبائى جعل الله أخذ النبي و المؤمنين للصدقات أخذا من الله على وجه التشبيه و المجاز من حيث كان بأمره و قد ورد الخبر

عن النبي ص أنه قال أن الصدقه تقع فى يد الله قبل أن تصل إلى يد السائل

و المراد بذلك أنها تنزل هذا التنزيل ترغيبا للعباد فى فعلها و ذاك يرجع إلى تضمن الجزاء عليها «وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» عطف على ما قبله و لذلك فتح أن و قد مر تفسيره «وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ» هذا أمر من الله سبحانه لنبيه أن يقول للمكلفين اعملوا ما أمركم الله به عمل من يعلم أنه مجازا على فعله فإن الله سيرى عملكم و إنما أدخل سين الاستقبال لأن ما لم يحدث لا يتعلق به

الرؤية فكأنه قال كل ما تعملونه يراه الله تعالى و قيل أراد بالرؤية هاهنا العلم الذى هو المعرفة و لذلك عداه إلى مفعول واحد أى يعلم الله تعالى ذلك فيجازيكم عليه و يراه رسوله أى يعلمه فيشهد لكم بذلك عند الله تعالى و يراه المؤمنون قيل أراد بالمؤمنين الشهداء و قيل أراد بهم الملائكة الذين هم الحفظه الذين يكتبون الأعمال و روى أصحابنا أن أعمال الأئمة تعرض على النبي ص فى كل اثنين و خمسين فيعرفها و كذلك تعرض على أئمة الهدى (عليه السلام) فيعرفونها و هم المعنيون بقوله «وَ الْمُؤْمِنُونَ» و إنما قال «فَسَيَرَى اللَّهُ» مع أنه سبحانه عالم بالأشياء قبل وجودها لأن المراد بذلك أنه سيعلمها موجوده بعد أن علمها معدومه و كونه عالما بأنها ستوجد هو كونه عالما بوجودها إذا وجدت لا يتجدد حال له بذلك «وَ سَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ» أى سترجعون إلى الله الذى يعلم السر و العلانيه «فَيُنَبِّئُكُمْ» أى يخبركم «بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» و يجازيكم عليه.

[سوره التوبه (٩): آيه ١٠٦]

إشارة

وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

القرءاء

قرأ أهل المدينة و الكوفه غير أبى بكر (مُرْجُونَ) بغير همز و الباقرن مرجئون بالهمز.

الحججه

قال الأزهرى الإرجاء يهزم و لا يهزم أرجأت الأمر و أرجيته أخرته و أرجأت الحامل دنت لأن يخرج ولدها فهى مرجى و مرجئه و أرجت بغير همز أيضا.

النزول

قال مجاهد و قتاده نزلت الآية فى هلال بن أميه الواقفى و مراره بن الربيع و كعب بن مالك و هم من الأوس و الخزرج و كان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه و إنما تخلف توانيا عن الاستعداد حتى فاته المسير و انصرف رسول الله ص فقال و الله ما لى من عذر و لم يعتذر إليه بالكذب فقال (عليه السلام) صدقت فمر حتى يقضى الله فيك و جاء الآخرا فقلنا مثل ذلك و صدقا فهى رسول الله ص عن مكالمتهم و أمر نساءهم باعتزالهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأقاموا على ذلك خمسين ليلة و بنى كعب خيمه على سلع يكون فيها وحده و قال فى ذلك:

أبعد دور بنى القين الكرام و ما شادوا على بنيت البيت من سعف

ثم نزلت التوبه عليهم بعد الخمسين فى الليل و هو قوله تعالى «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» الآية فأصبح المسلمون يتدرونهم و يبشرونهم قال كعب فجئت إلى رسول الله فى المسجد و كان (عليه السلام) إذا سر يستبشر كان وجهه فلقه قمر فقال لى و وجهه يبرق من السرور أبشر بخير يوم طلع عليك شرقه منذ ولدتك أمك قال كعب فقلت أ من عند الله أم من عندك يا رسول الله فقال من عند الله و تصدق كعب بثلاث ماله شكرا لله على توبته.

المعنى

ثم عطف سبحانه على ما قبله من قوله «وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» فقال «وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ» أى مؤخرون موقوفون لما يرد من أمر الله تعالى فيهم «إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» لفظه إما وقوع أحد الشيين و الله سبحانه عالم بما يصير إليه أمرهم و لكنه سبحانه خاطب العباد بما عندهم و معناه و لكن كان أمرهم عندكم على هذا أى على الخوف و الرجاء و هذا يدل على صحه مذهبنا فى جواز العفو عن العصاه لأنه سبحانه بين أن قوما من العصاه يكون أمرهم إلى الله تعالى إن شاء عذبهم و إن شاء قبل توبتهم فعفا عنهم و يدل أيضا على أن قبول التوبه تفضل من الله سبحانه لأنه لو كان واجبا لما جاز تعليقه بالمشيئه «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بما يؤول إليه حالهم «حَكِيمٌ» فيما يفعل بهم.

ص: ١٠٦

إشارة

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا- تَقُمْ فِيهِ أَيْدَاءٌ لَمَسِيحٍ أَشْسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُجِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَمْ مَنْ أَشْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَشْسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شِفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا- يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا- أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

القراءة

قرأ أهل المدينة و ابن عامر الذين اتخذوا بغير واو و الباقون بالواو و قرأ نافع و ابن عامر أسس بضم الألف بنيانه بالرفع فى الموضوعين و قرأ الباقون «أَشْسَ بُنْيَانَهُ» فيهما و فى الشواذ قراءة نصر بن عاصم أسس بنيانه على وزن فعل و قراءه نصر بن على أساس بنيانه و قرأ ابن عامر و حمزه و حماد و يحيى عن أبى بكر و خلف جرف بالتخفيف و الباقون «جُرْفٍ» بالثقل و

قرأ يعقوب و سهل إلى أن على أنه حرف الجر و هو قراءه الحسن و قتاده و الجحدري و جماعه و رواه البرقى عن أبى عبد الله و قرأ الباقون «إِلَّا أَنْ» مشدده اللام و قرأ أبو جعفر و ابن عامر و حمزه و حفص و سهل و رويس عن يعقوب «تَقَطَّعَ» بفتح التاء و التشديد و قرأ روح تقطع بضم التاء مخففا و قرأ الباقون تقطع بضم التاء مشددا.

الحجج

من أثبت الواو فى «الَّذِينَ» عطفه على ما تقدم و التقدير و منهم الذين اتخذوا مسجدا و من حذف الواو ابتداء الكلام و أضمم الخبر بعده كما أضمم فى قوله «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» إلى قوله «وَالْبَادِ» و المعنى فيه ينتقم منهم أو يعذبهم و نحو ذلك و حسن الحذف فى الموضوعين لطول الكلام بالمبتدأ و صلته و يجوز أن يكون على أن تضمم و منهم فىكون تقديره و منهم الذين اتخذوا كما أضممت الحرف مع الفعل فى قوله «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» أى فىقال لهم أ كفرتم و لا يجوز أن يكون الذين بدلا من قوله «وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ» لأن المرجئين لأمر الله غير الذين اتخذوا مسجدا ضرارا فلا يجوز أن يبدلوا منهم و من قرأ «أَشْسَ بُنْيَانَهُ» بنى الفعل للفاعل كما أضاف البنيان إليه فى قوله «بُنْيَانَهُ» فالمصدر مضاف إلى الفاعل و البانى و المؤسس واحد و من بنى الفعل للمفعول به لم يبعد أن يكون فى المعنى كالأول لأنه إذا أسس بنيانه فىولى ذلك غيره بأمره كان كبنائه هو له فأما من قرأ أسس بنيانه فى الموضوعين و أساس بنيانه بالإضافه فإنهما بمعنى واحد و جمع الأس أساس كقفل و أقفال و جمع الأساس

آساس و أسس و أما «الجرف» فالأصل فيه ضم العين و الإسكان تخفيف و مثله الشغل و الشغل و الطنب و الطنب و من قرأ «إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» فمعناه تبلى و تتقطع بالبلى أى لا تتلج قلوبهم بالإيمان أبدا و من قرأ تقطع بضم التاء فهو فى المعنى مثل الأول إلا أن الفعل أضيف إلى القطع المبلى للقلوب بالموت و فى الأول أسند إلى القلوب لما كانت هى الباليه و هذا مثل مات زيد و سقط الحائط و نحو ذلك مما أسند فيه الفعل إلى من حدث فيه و إن لم يكن منه و تقطع يسند الفعل فيه إلى المقطع المبلى و إن لم يذكر فى اللفظ فأسند الفعل الذى هو لغير القلوب فى الحقيقه إلى القلوب و من قرأ إلى أن تقطع فإنه جعله على الغايه و زعموا أن فى حرف إلى حتى الممات و هذا يدل على أنهم يموتون على نفاقهم فإذا ماتوا عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الإيمان و أخذوا به من الكفر.

اللغه

الضرار هو طلب الضرر و محاولته كما أن الشقاق محاوله ما يشق يقال ضاره مضاره و ضرارا و الإرصاد الارتقاب تقول رصده يرصده رصدا و أرصد له إرصادا قال الكسائى رصده رقبته و أرصده أعدده و البنيان مصدر قال أبو على و هو جمع على حد شعيره و شعير لأنهم قالوا بنيانه فى الواحد قال أوس:

كبنياه القرى موضع رحلها و آثار نسعيها من الدف أبلق

و جاء بناء المصدر على هذا المثال فى غير هذا الحرف نحو الغفران و ليس ببيان جمع بناء لأن فعلانا إذا كان جمعا نحو كئبان و قضبان لم تلحقه تاء التانيث و قال أبو زيد يقال بنيت أبني بنيا و بنيانا و بناء و بنيه و جمعها البنى قال:

بنى السماء فسواها ببنيتها و لم تمد بأطناب و لا عمد

فالبناء و البنيه مصدران و من ثم قوبل به الفراش فى قوله «جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً» فالبناء لما كان رفعا للمبنى قوبل به الفراش الذى هو خلاف البناء و التقوى خصله من الطاعه يحترز بها من العقوبه و التقى صفه مدح لا تطلق إلا على مستحق الثواب و واو تقوى مبدله من الياء لأنها من وقيت و إنما أبدلت للفرق بين الاسم و الصفه فى الأبنيه مثل خزيا و شفا جرف الشىء و شفيره و جرفه نهايته فى المساحه و يشى شفوان و جرف الوادى جانبه الذى ينحفر بالماء أصله و هو من الجرف و الاجتراف هو اقتلاع الشىء من أصله و هار

الجرف يهور هورا فهو هائر و تهور و انهيار و يقال أيضا هار يهار و هار أصله هائر و هو من المقلوب كما يقال لاث الشىء به إذا دار فهو لاث و الأصل لاث و كما قالوا شاكى السلاح أى شائك قال:

فتعرفونى إننى أنا ذاكم شاك سلاحى فى الحوادث معلم

و كما قال العجاج:

(لاث به الأشاء و العبرى)

أى مطيف و قال أبو على و الهمز من عائر منقلبه عن الواو لأنهم قالوا تهور البناء إذا تساقط و تداعى و فى الحديث سار الليله حتى انهيار الليل ثم سار حتى تهور فهذا فى الليل كالمثل و التشبيه بالبناء و الانهيار و الانهيار يتقاربان فى المعنى كما يتقاربان فى اللفظ.

الإعراب

قد ذكرنا إعراب قوله «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا» فى الحججه و يجوز أن يكون مبتدأ و خبره «لَا تَقُمْ فِيهِ أَيِّدًا» كما تقول و الذى يدعوك إلى الغى فلا تسمع الدعاء و تقديره فلا تسمع دعاءه و كذلك التقدير فى الآيه لا تقم فى مسجدهم أبدا فحذف للاختصار و يجوز أن يكون خبر الذين قوله «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ» أى أ فمن أسس بنيانه من هؤلاء أم من أسس من الذين اتخذوا ضرارا منصوب على أنه مفعول له و كذلك ما بعده و المعنى اتخذوه للضرار و الكفر و التفريق و الإرصاء فلما حذف اللام أفضى الفعل فنصب و يجوز أن يكون مصدرا محمولا على المعنى لأن اتخذهم المسجد على غير التقوى معناه ضراروا به ضرارا من أول يوم دخلت من فى الزمان و الأصل منذ و مذ هذا الأكثر استعمالا فى الزمان و من جائز دخولها أيضا لأنها الأصل فى ابتداء الغايه و التبويض و منه قول زهير:

لمن الديار بقنه الحجر أقوين من حجج و من شهر

و يروى من دهر و قد قيل إن المعنى من مر حجج و من مر شهر و «أَنْ تَقُومَ» فى موضع نصب أى أحق بأن تقوم فيه و «فِيهِ» منصوب الموضع بقوله «تَقُومَ» و فيه من قوله «فِيهِ رِجَالٌ» فى موضع رفع لأنه خبر مبتدأ مقدم عليه و المبتدأ رجال و لا يجوز أن يكون مرفوع الموضع بكونه وصفا لمسجد بل هو على الاستئناف و الوقف التام على قوله «أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ»

فيه» ثم استؤنف الكلام فقيل «فيه رجال» و إنما قلنا ذلك لأنك لو جعلت الظرف الذى هو فيه وصفا لمسجد لكنت فصلت بين النكره و صفتها بالخبر الذى هو أحق و قوله «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مَنِ اللَّهِ» قال أبو على القول فيه أنه يجوز أن تكون المعادله وقعت بين البانيين و يجوز أن يكون بين البنائين فإذا عادت بين البانيين كان المعنى المؤسس بنيانه متقيا خيرا أم المؤسس بنيانه غير متق لأن قوله «عَلَى شَفَا جُرْفٍ» يدل على أن بانيه غير متق لله تعالى و لا خاش له و يجوز أن يقدر حذف المضاف كأنه أبناه من أسس بنيانه متقيا خيرا أم بناء من أسس بنيانه على شفا جرف و البنيان مصدر أوقع على المبنى مثل الخلق إذا عنيت به المخلوق و ضرب الأمير إذا عنيت به المضروب و كذلك نسج اليمن يدللك على ذلك أنه لا يخلو من أن يراد به اسم الحدث أو اسم العين فلا يجوز أن يكون الحدث لأنه إنما يؤسس المبنى الذى هو عين و يبين ذلك أيضا قوله «عَلَى شَفَا جُرْفٍ» و الحدث لا يعلو شفا جرف و الجار فى قوله «عَلَى تَقْوَى مَنِ اللَّهِ» و قوله «عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ» فى موضع نصب على الحال تقديره أفمن أسس بنيانه متقيا خيرا أم من أسس بنيانه غير متق أو معاقبا على بنائه و فاعل انهار البنيان أى انهار البنيان بالباني فى نار جهنم لأنه معصيه و فعل لما كرهه الله تعالى من الضرار و الكفر و التفريق بين المؤمنين و من أمال «هار» فقد أحسن لما فى الرء من التكرير فكأنك لفظت براءين مكسورتين و بحسب كثرة الكسرات تحسن الإماله و من لم يمل فلأذن ترك الإماله هو الأصل و قوله «إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» موضع «أَنْ تَقَطَّعَ» نصب تقديره إلا على تقطع قلوبهم غير أن حرف الإضافة يحذف مع أن و لا يحذف مع المصدر و معنى إلا هاهنا حتى لأنه استثناء من الزمان المستقبل و الاستثناء منه منته إليه فاجتمعت مع حتى فى هذا الموضع على هذا المعنى.

النزول

قال المفسرون أن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجدا قبا و بعثوا إلى رسول الله ص أن يأتيهم فأتاهم و صلى فيه فحسداهم جماعة من المنافقين من بنى غنم بن عوف فقالوا نبى مسجدا فنصلى فيه و لا نحضر جماعه محمد و كانوا اثنى عشر رجلا و قيل خمسه عشر رجلا منهم ثعلبه بن حاطب و معتب بن قشير و نبتل بن الحرث فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قبا

فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ص و هو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله أنا قد بنينا مسجدا لذى العله و الحاجه و الليله المطيره و الليله الشاتيه و أنا نحب أن تأتينا فتصلى فيه لنا و تدعو بالبركه فقال ص إنى على جناح سفر و لو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه فلما انصرف رسول الله من تبوك نزلت عليه الآية فى شأن المسجد

ثم ذكر سبحانه جماعه أخرى من المنافقين بنوا مسجدا للتفريق بين المسلمين و طلب الغوائل للمؤمنين فقال «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا و المسجد موضع السجود فى الأصل و صار بالعرف اسما لبقعه مخصوصه بنيت للصلاه فالاسم عرفى فيه معنى اللغه «ضِرَارًا» أى مضاره يعنى الضرر بأهل مسجد قبا أو مسجد الرسول ص ليقبل الجمع فيه «وَ كُفْرًا» أى و لإقامه الكفر فيه و قيل أراد أنه كان اتخاذهم ذلك كفرا بالله و قيل ليكفروا فيه بالطعن على رسول الله ص و الإسلام «وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى لاختلاف الكلمه و إبطال الألفه و تفريق الناس عن رسول الله ص «وَ إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ» أى أرصدوا ذلك المسجد و اتخذوه و أعدوا لأبى عامر الراهب و هو الذى حارب الله و رسوله من قبل و كان من قصته أنه كان قد ترهب فى الجاهليه و لبس المسوح فلما قدم النبى ص المدينه حسده و حزب عليه الأحزاب ثم هرب بعد فتح مكه إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام و خرج إلى الروم و تنصر و هو أبو حنظله غسيل الملائكه الذى قتل مع النبى ص يوم أحد و كان جنبا فغسلته الملائكه و

سمى رسول الله ص أبا عامر الفاسق

و كان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدوا و ابنوا مسجدا فإنى أذهب إلى قيصر و آتى من عنده بجنود و أخرج محمدا من المدينه فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم «وَ لِيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسَيْنِ» معناه أن هؤلاء يحلفون كاذبين ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الفعله الحسنى من التوسعه على أهل الضعف و العله من المسلمين فأطلع الله نبيه على فساد طويتهم و خبت سريرتهم فقال «وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» و كفى لمن يشهد الله سبحانه بكذبه خزيا

فوجه رسول الله ص عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلانى و مالك بن الدخشم و كان مالك من بنى عمرو بن عوف فقال لهما انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فأهدماه و حرقاه

و

روى أنه بعث عمار بن ياسر و وحشيا فحرقاه و أمر بأن يتخذ كناسه يلقي فيها الجيف

ثم نهى الله سبحانه أن يقوم فى هذا المسجد فقال «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» أى لا تصل فيه أبدا يقال فلان يقوم بالليل أى يصلى ثم أقسم فقال «لَمَسِيحِدٌ» أى و الله لمسجد «أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى» أى بنى أصله على تقوى الله و طاعته «مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ» أى منذ أول يوم وضع أساسه عن المبرد «أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» أى أولى بأن تصلى فيه و اختلف فى هذا

المسجد فقيل هو مسجد قبا عن ابن عباس و الحسن و عروه بن الزبير و قيل هو مسجد رسول الله ص عن زيد بن ثابت و ابن عمر و أبى سعيد الخدرى و

روى هو عن النبى ص قال هو مسجدى هذا

و قيل هو كل مسجد بنى للإسلام و أريد به وجه الله عن أبى مسلم ثم وصف المسجد و أهله فقال «فِيهِ» أى فى هذا المسجد الذى أسس على التقوى «رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا» أى يحبون أن يصلوا الله تعالى متطهرين بأبلغ الطهاره و قيل يحبون أن يتطهروا من الذنوب عن الحسن و قيل

يحبون أن يتطهروا بالماء عن الغائط و البول و هو المروى عن السيدين الباقر و الصادق (عليه السلام)

و

روى عن النبى ص أنه قال لأهل قبا ما ذا تفعلون فى طهركم فإن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء قالوا نغسل أثر الغائط فقال أنزل الله فيكم «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ»

أى المتطهرين ثم قرر سبحانه الفرق بين المسجدين فقال «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ» قد مضى بيانه و المراد أن الله تعالى شبه بنيانهم على نار جهنم بالبناء على جانب نهر هذا صفته فكما أن من بنى على جانب هذا النهر فإنه ينهار بناؤه فى الماء و لا يثبت فكذلك بناء هؤلاء ينهار و يسقط فى نار جهنم يعنى أنه لا يستوى عمل المتقى و عمل المنافق فإن عمل المؤمن المتقى ثابت مستقيم مبنى على أصل صحيح ثابت و عمل المنافق ليس بثابت و هو واه ساقط و الألف فى قوله «أَفَمَنْ» ألفت استفهام يراد به الإنكار هاهنا و ليس معنى خير فى الآيه أفضل بل هو كما يقال هذا خير و هذا شر و قال الشاعر:

و الخير و الشر مقرونان فى قرن فالخير متبع و الشر محذور

و أما قوله «وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ» فإن معناه و افعلوا الأفضل و قوله «فَأَنْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ» أى يوقعه ذلك البناء فى نار جهنم «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» مر بيانه و روى عن جابر بن عبد الله أنه قال رأيت المسجد الذى بنى ضرارا يخرج منه الدخان «لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَهُ فِى قُلُوبِهِمْ» أى لا- يزال بناء المبنى الذى بنوه شكاً فى قلوبهم فيما كان من إظهار إسلامهم و ثباتا على النفاق و قيل إن معناه حزازه فى قلوبهم و قيل حسره فى قلوبهم يترددون فيها «إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» معناه إلا أن يموتوا و المراد بالآيه أنهم لا- ينزعون عن الخطيئه و لا- يتوبون حتى يموتوا على نفاقهم و كفرهم فإذا ماتوا عرفوا بالموت ما كانوا تركوه من الإيمان و أخذوا به من الكفر و قيل معناه إلا أن يتوبوا توبه تتقطع بها قلوبهم ندما و أسفا على تفریطهم «وَاللَّهُ عَلِيمٌ» أى عالم بنيتهم فى بناء مسجد الضرار «حَكِيمٌ»

فى أمره بنقضه و المنع من الصلاة فيه.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١١٢]

اشاره

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِندَهُ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

القراءه

قرأ أهل الكوفه غير عاصم فيقتلون بضم الياء و يقتلون بفتح الياء و الباقر «فَيَقْتُلُونَ» بفتح الياء «وَيُقْتَلُونَ» بضمها و فى قراءه أبى و عبد الله بن مسعود و الأعمش التائبين العابدين بالياء إلى آخرها و روى ذلك عن أبى جعفر و أبى عبد الله (عليه السلام).

الحجه

قال أبو على من قرأ «فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ» فقدم الفعل المسند إلى الفاعل فلأنهم يقتلون أولا فى سبيل الله و يقتلون و لا يقتلون إذا قتلوا و من قدم الفعل المسند إلى المفعول به جاز أن يكون فى المعنى مثل الأول لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم فإن لم يقدر فيه التقديم كان المعنى فى قوله «فَيَقْتُلُونَ» بعد قوله «يُقْتَلُونَ» بقتل من بقى منهم بعد قتل من قتل و أما الرفع فى قوله «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ» فعلى القطع و الاستئناف أى هم التائبون و يكون على المدح و قيل أنه رفع على الابتداء و خبره محذوف بعد قوله «وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» أى لهم الجنه أيضا عن الزجاج و قيل أنه رفع على البدل من الضمير فى يقاتلون أى يقاتل التائبون و أما التائبين العابدين فيحتمل أن يكون جرا و أن يكون نصبا أما الجر فعلى أن يكون وصفا للمؤمنين أى من المؤمنين التائبين و أما النصب فعلى إضمار فعل بمعنى المدح كأنه قال أعنى و أمدح التائبين.

السائح من ساح في الأرض يسيح سايحا إذا استمر في الذهاب و منه السيح الماء الجارى و من ذلك يسمى الصائم سايحا لاستمراره على الطاعة في ترك المشتهى.

الإعراب

وعدا نصب على المصدر لأن قوله «اشترى» يدل على أنه وعد و مثله صُنِعَ اللّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ و فِطَرَتِ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا.

المعنى

لما تقدم ذكر المؤمنين و المنافقين عقب سبحانه بالترغيب فى الجهاد فقال «إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ» حقيقه الاشتراء لا تجوز على الله تعالى لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملكه و هو عز اسمه مالك الأشياء كلها لكنه مثل قوله مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا فى أنه ذكر لفظ الشراء و القرض تطفوا لتأكيد الجزاء و لما كان سبحانه ضمن الثواب على نفسه عبر عن ذلك بالاشتراء و جعل الثواب ثمنا و الطاعات ثمنا على ضرب من المجاز و أخبر أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم يبدلونها فى الجهاد فى سبيل الله و أموالهم أيضا ينفقونها ابتغاء مرضاه الله على أن يكون فى مقابله ذلك الجنة و روى عن الأعمش أنه قرأ بالجنة و هى قراءه عمر بن الخطاب و الجهاد قد يكون بالسيف و قد يكون باللسان و ربما كان جهاد اللسان أبلغ لأن سبيل الله دينه و الدعاء إلى الدين يكون أولا باللسان و السيف تابع له و لأن إقامة الدليل على صحه المدلول أولى و إيضاح الحق و بيانه أحرى و ذلك لا يكون إلا باللسان و قد

قال النبى ص يا على لأن يهدى الله على يديك نسمة خير مما طلعت عليه الشمس

و إنما ذكر سبحانه شراء النفس و المال لأن العبادات على ضربين بدنيه و ماليه و لا ثالث لهما و

يروى أن الله سبحانه تاجر المؤمنين فأغلى لهم الثمن فجعل ثمنهم الجنة

و

كان الصادق (عليه السلام) يقول أيا من ليست له همه أنه ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها

و أنشد الأصمعى للصادق (عليه السلام):

أثامن بالنفس النفيسه ربها فليس لها فى الخلق كلهم ثمن

بها نشترى الجنات إن أنا بعثتها بشىء سواها إن ذلكم غيب

إذا ذهب نفسى بدنيا أصبتها فقد ذهب الدنيا و قد ذهب الثمن

«يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» هذا بيان للغرض الذى لأجله اشتراهم «فَيَقْتُلُونَ» المشركين «وَيُقْتَلُونَ» أى و يقتلهم المشركون يعنى أن الجنه عوض عن جهادهم سواء قتلوا أو قتلوا و من قرأ فيقتلون و يقتلون فهو المختار عن الحسن لأنه يكون تسليم النفس إلى المشتري أقرب و البائع إنما يستحق الثمن بتسليم المبيع «وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا» معناه إن

إيجاب الجنة لهم وعد على الله حق لا شك فيه و تقديره وعدهم الله الجنة على نفسه وعدا حقا أى صدقا واجبا لا خلف فيه «فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» وهذا يدل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال وعدوا عليه الجنة عن الزجاج «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ» معناه لا أحد أوفى بعهده من الله لأنه يفى ولا يخلف بحال «فَاسْتَبَشِرُوا بَيْنَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ» فافرحوا بهذه المبايعه حتى ترى آثار السرور فى وجوهكم بسبب هذه المبايعه لأنكم بعتم الشىء من مالكمه و أخذتم ثمنه و لأنكم بعتم فانيا بياق و زائلا بدائم «وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» أى ذلك الشراء و البيع الظفر الكبير الذى لا يقاربه شىء ثم وصف الله سبحانه المؤمنين الذين اشترى منهم الأنفس و الأموال بأوصاف فقال «التَّائِبُونَ» أى الراجعون إلى طاعه الله و المنقطعون إليه النادمون على ما فعلوه من القبائح «العَابِدُونَ» أى الذين يعبدون الله وحده و يتذللون له بطاعته فى أوامره و نواهيه و قيل هم الذين أخذوا من أبدانهم فى ليلهم و نهارهم فعبدوا الله فى السراء و الضراء عن الحسن و قتاده «الْحَامِدُونَ» أى الذين يحمدون الله على كل حال عن الحسن و قيل هم الشاكرون لنعم الله على وجه الإخلاص له «السَّائِحُونَ» أى الصائمون عن ابن عباس و ابن مسعود و الحسن و سعيد بن جبیر و مجاهد و

روى مرفوعا عن النبي ص أنه قال سياحه أمتى الصيام

و قيل هم الذين يسيحون فى الأرض فيعتبرون بعجائب الله تعالى و قيل هم طلبه العلم يسيحون فى الأرض لطلبه عن عكرمه «الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ» أى المؤدودون للصلاه المفروضه التى فيها الركوع و السجود «الْمَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ» أدخل الواو هنا لأن الأمر بالمعروف يتضمن النهى عن المنكر فكأنهما شىء واحد و لأنه قرن النهى عن المنكر بالأمر بالمعروف فى أكثر المواضع فأدخل الواو ليدل على المقارنه «وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» أى و القائمون بطاعه الله عن ابن عباس يعنى الذين يؤدودون فرائض الله و أوامره و يجتنبون نواهيه لأن حدود الله أوامره و نواهيه و إنما أدخل الواو لأنه جاء و هو أقرب إلى المعطوف «وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» هذا أمر النبي ص أن يبشر المصدقين بالله المعترفين بنبوته بالثواب الجزيل و المنزل الرفيعه خاصه إذا جمعوا هذه الأوصاف و قد روى أصحابنا أن هذه صفات الأئمه المعصومين (عليه السلام) لأنه لا يكاد يجمع هذه الأوصاف على تمامها و كمالها غيرهم و

لقى الزهرى على بن الحسين (عليه السلام) فى طريق الحج فقال له تركت الجهاد و صعوبته و أقبلت إلى الحج و الله سبحانه يقول «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْآيَةَ فَقَالَ (عليه السلام) له أتم الآيه الأخرى «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ» إلى آخرها ثم قال إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج.

إشارة

ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدِهِ وَعَدَاهَا إِنِّي أَتَّبِعُ لِمَا يُبَيِّنُ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)

اللغة

أصل الأواه من التأوه وهو التوجع والتحزن يقال تأوه تأوها و أوه تأويها قال المثقب العبدى:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهه الرجل الحزين

و لو جاء منه فعل مصرفا لكان آه يئوه أوها مثل قال يقول قولاً و العرب تقول أوه من كذا بكسر الواو و تسكين الهاء قال:

فأوه بذكرها إذا ما ذكرتها و من بعد أرض دونها و سماء

و العامه تقول أوه و فيه خمس لغات أوه بسكون الواو و كسر الهاء و أو و آه بالتونين و أوه و أوه.

المعنى

«ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ» و معناه ليس للنبي و المؤمنين أن يطلبوا المغفرة للمشركين الذين يعبدون مع الله إلها آخر و الذين لا- يوحده و لا يقرون بالهيته «وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ» أى و لو كان الذين يطلبون لهم المغفرة أقرب الناس إليهم «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» أى من بعد أن يعلموا أنهم كفار مستحقون للخلود فى النار و فى تفسير الحسن أن المسلمين قالوا للنبي ص أ لا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا فى الجاهليه فأنزل الله سبحانه هذه الآية و بين أنه لا ينبغى لنبي و لا- مؤمن أن يدعو لكافر و يستغفر له و قوله «ما كَانَ لِلنَّبِيِّ» أبلغ من أن يقول لا ينبغى للنبي لأنه يدل على قبحه و أن الحكمة تمنع منه و لو قال لا ينبغى لم يدل على أن

الحكمه تمنع منه و إنما كان يدل على أنه لا- ينبغي أن يختاره و معناه لم يجعل الله في دينه و لا- في حكمه أن يستغفروا للمشركين و لو دعتهم رقه القرابه و شفقه الرحم إلى الاستغفار لهم بعد ما ظهر أن لهم عذابا عظيما ثم بين سبحانه الوجه في استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافرا سواء كان أباه الذي ولده أو جده لأمه أو عمه على ما رواه أصحابنا فقال «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاةٍ إِيَّاهُ» أى لم يكن استغفاره له إلا صادرا عن موعدة وعدها إياه و اختلف في صاحب هذه الموعدة هل هو إبراهيم و أبوه فقيل أن الموعدة كانت من الأب وعد بها إبراهيم أنه يؤمن أن استغفر له لذلك «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ» و لا- يفى بما وعد «تَبَيَّرَ مِنْهُ» و ترك الدعاء له و هو المروى عن ابن عباس و مجاهد و قتاده إلا أنهم قالوا إنما تبين عداوته لما مات على كفره و قيل أن الموعدة كانت من إبراهيم قال لأبيه إنى أستغفر لك ما دمت حيا و كان يستغفر له مقيدا بشرط الإيمان فلما آيس من إيمانه تبرأ منه و هذا يوافق قراءة الحسن إلا عن موعدة وعدها أباه و يقويه قوله «إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ»

«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ» أى دعاء كثير الدعاء و البكاء عن ابن عباس و هو المروى عن أبى عبد الله (عليه السلام)

و قيل الأواه الرحيم بعباد الله عن الحسن و قتاده و قيل هو الذى إذا ذكر النار قال أوه عن كعب و قيل الأواه المؤمن بلغه الحبشه عن ابن عباس و قيل الأواه الموقن المستيقن عن مجاهد و عكرمه و قيل الأواه العفيف عن النخعى و قيل هو الراجع عن كل ما يكره الله عز و جل عن عطا و

قيل هو الخاشع المتضرع رواه عبد الله بن شداد عن النبى ص

و قيل هو المسبح الكثير الذكر لله سبحانه عن عقبه بن عامر و قيل هو المتأوه شفقاً و فرقا المتضرع يقينا بالإيجابه و لزوما للطاعه عن أبى عبيده و قال الزجاج و قد انتظم قول أبى عبيده أكثر ما روى فى الأواه «حَلِيمٌ» يقال بلغ من حلم إبراهيم (عليه السلام) إن رجلا قد أذاه و شتمه فقال له هداك الله و قيل الحلیم السيد عن ابن عباس و أصله أنه الصبور على الأذى الصفوح عن الذنب.

النظم

لما تقدم ذكر الكفار و المنافقين و المنع من موالاتهم و الصلاة عليهم و القيام على قبرهم للدعاء لهم نهى عن دعائهم بعد موتهم و لما نهى الله النبى و المؤمنين عن الاستغفار للمشركين ذكر قصه إبراهيم و عذره فى الاستغفار لأبيه و أما قوله «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» فإنما اتصل بما قبله بأنه إذا كان له صفه الرأفه و الرحمه يكون فى دعائه أخلص و على خلاص أقربائه من العذاب أحرص و مع ذلك تبرأ منه لما يئس من فلاحه.

إشاره

وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعِيدًا إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (١١٦)

النزول

قيل مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض فقال المسلمون يا رسول الله إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم فنزل «وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا» الآية عن الحسن.

المعنى

«وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعِيدًا إِذْ هَدَاهُمْ» أى و ما كان الله ليحكم بضلاله قوم بعد ما حكم بهدايتهم «حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ» من الأمر بالطاعة و النهى عن المعصية فلا يتقون فعند ذلك يحكم بضلالتهم و قيل و ما كان الله ليعذب قوما فيضلهم عن الثواب و الكرامه و طريق الجنه بعد إذ هداهم و دعاهم إلى الإيمان حتى يبين لهم ما يستحقون به الثواب و العقاب من الطاعة و المعصية و قيل لما نسخ بعض الشرائع و قد غاب أناس و هم يعملون بالأمر الأول إذ لم يعلموا بالأمر الثانى مثل تحويل القبله و غير ذلك و قد مات الأولون على الحكم الأول سئل النبى ص عن ذلك فأنزل الله الآية و بين أنه لا يعذب هؤلاء على التوجه إلى القبله الأولى حتى يسمعوا بالنسخ و لا- يعملوا بالناسخ فحينئذ يعذبهم عن الكلبى «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» يعلم جميع المعلومات حتى لا يشذ شىء منها عنه لكونه عالما لنفسه «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» الملك اتساع المقدور لمن له السياسه و التدبير «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» أى يحيى الجماد و يميت الحيوان «وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ» أى ليس لكم سواه حافظ يحفظكم و ولى يتولى أمركم و لا ناصر ينصركم و يدفع العذاب عنكم.

النظم

وجه اتصال الآيه الأولى بما قبلها إن الله سبحانه لما حرم على المؤمنين أن يستغفروا للمشركين بين سبحانه أنه لا يأخذهم بذلك إلا- بعد أن يدلهم على تحريمه عن مجاهد و وجه اتصال الآيه الثانیه بما قبلها الحض على ما تقدم ذكره من جهاد المشركين ملوكهم و غير ملوكهم لأنهم عبيد من له ملك السماوات و الأرض يأمرهم بما يشاء و يدرهم على ما يشاء عن على بن عيسى.

اشاره

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

القراءه

قرأ حمزه و حفص عن عاصم «يَزِيغُ» بالياء و هى قراءه الأعمش و الباقون تزيغ بالتاء و القراءه المشهوره «الَّذِينَ خَلَفُوا» و

قرأ على بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) و أبو جعفر محمد بن على الباقر و جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) و أبو عبد الرحمن السلمى خالفوا

و قرأ عكرمه و زر بن حبيش و عمرو بن عبيد خلفوا بفتح الخاء و اللام خفيفه.

الحجه

قال أبو على يجوز أن يكون فاعل كاد أحد ثلاثه أشياء (الأول) أن تضمير فيها القصة و الحديث و يكون تزيغ الخبر و جاز ذلك فيها و إن كان الأصل فى إضمار القصة إنما هو فى الابتداء لأن الخبر لازم لكاد فأشبهه العوامل الداخلة على الابتداء للزوم الخبر له قال و لا يجوز ذلك فى عسى لأن عسى قد يكون فاعله المفرد فى كثير من الأمر فلا يلزمه الخبر كقوله عسى أن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عسى أن تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ فإذا كان كذلك لم يحتمل الضمير الذى يحتمله كاد كما لم يحتمله سائر الأفعال التى تسند إلى فاعليها مما لا يدخل على المبتدأ (و الثانى) أن يضمير فى كاد ذكر مما تقدم لما كان النبى ص و المهاجرون و الأنصار قبيلاً واحداً و فريقاً واحداً جاز أن يضمير فى كاد ما دل عليه ما تقدم ذكره من القبيل و الحزب و الفريق و نحو ذلك من الأسماء المفردة الداله على الجمع و قال منهم فحمله على المعنى مثل قوله آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ثم قال فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ فكذلك فاعل كاد على هذا الوجه (الثالث) أن يكون فاعل كاد القلوب و تقديره من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ و لكنه قدم تزيغ كما تقدم خبر كان و جاز تقديمه و أن كان فيه ذكر من القلوب و لم يمتنع من حيث يمتنع إضمار قبل الذكر

لما كان النيه به التأخير كما لم يمتنع ضرب غلامه زيد لما كان التقدير به التأخير فأما من قرأ «يَزِيغُ» بالياء فيجوز أن يكون قد ذهب إلى أن في كاد ضمير الحديث فيرتفع قلوب بيزيغ فذكر و أن كان فاعله مؤنثا لتقدم الفعل و من قرأ تزيغ بالتاء جاز أن يكون ذهب إلى أن القلوب مرتفعه بكاد و جاز أن يكون الفعل المسند إلى القصة أو الحديث يؤنث إذا كان في الجملة التي يفسرها مؤنث كقوله «فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا» و جاز تأنيث هي التي هي ضمير القصة لذكر الأبصار المؤنثه في الجملة التي هي التفسير فكذلك يؤنث الذي في كاد للذكر المؤنث في الجملة المفسره فتقول كادت و تدغم التاء التي هي علامه التأنيث في تاء تزيغ و تزيغ على هذا للقلوب و هي مرتفعه به و يجوز إلحاق التاء بكاد من وجه آخر و هي أن ترفع قلوب فريق بكاد فتلحقه علامه التأنيث من حيث كان مسندا إلى مؤنث و من قرأ «خُلِفُوا» فتأويله أقاموا و لم يبرحوا و من قرأ خالفوا فمعناه عائد إلى ذلك لأنهم إذا خالفوهم فأقاموا فقد خلفوا هناك.

اللغه

الزيغ ميل القلب عن الحق و منه قوله فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ و زاغت الشمس إذا مالت و زاغ عن الطريق جاز و عدل و التخليف تأخير الشىء عن مضى فأمأ تأخير الشىء عنك في المكان فليس بتخليف و هو من الخلف الذى هو مقابل لجهته الوجه يقال خلفه أى جعله خلفه فهو مخلف و رحبت البلاد إذا اتسعت و الرحب السعه و منه مرحبا أى رحبت بلادك و أهلت و الضيق ضد السعه و الظن هنا بمعنى اليقين كما في قول دريد بن الصمه:

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج سراتهم فى الفارسى المسرد

النزول

نزلت الآيه الأولى فى غزاه تبوك و ما لحق المسلمين فيها من العسر حتى هم قوم بالرجوع ثم تداركهم لطف الله سبحانه

قال الحسن كان العشره من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعه ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك و كان زادهم الشعير المسوس و التمر المدود و الإهاله السنخه و كان نفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمره فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها

صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعه من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم فلا يبقى من التمره إلا النواه قالوا و كان أبو خيثمه عبد الله بن خيثمه تخلف إلى أن مضى من مسير رسول الله ص عشره أيام ثم دخل يوما على امرأتين له في يوم حار في عريشين لهما قد رتبناهما و بردتا الماء و هيأتا له الطعام فقام على العريشين و قال سبحان الله رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر في الفتح و الريح و الحر و القر يحمل سلاحه على عاتقه و أبو خيثمه في ظلال بارده و طعام مهياً و امرأتين حسناوين ما هذا بالنصف ثم قال و الله لا أكلم واحده منكما كلمه و لا أدخل عريشا حتى ألحق بالنبى ص فأناخ ناضحه و اشتد عليه و تزود و ارتحل و امرأتاه تكلمانه و لا يكلمهما ثم سار حتى إذا دنا من تبوك قال الناس هذا راكب على الطريق فقال النبى ص كن أبا خيثمه أولى لك فلما دنا قال الناس هذا أبو خيثمه يا رسول الله فأناخ راحلته و سلم على رسول الله ص فقال (عليه السلام) أولى لك فحدثه الحديث فقال له خيرا و دعا له

و هو الذى زاغ قلبه للمقام ثم ثبته الله و أما الآيه الثانيه فإنها

نزلت فى شأن كعب بن مالك و مراره بن الربيع و هلال بن أميه و ذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله ص و لم يخرجوا معه لا عن نفاق و لكن عن توان ثم ندموا فلما قدم النبى ص المدينة جاءوا إليه و اعتذروا فلم يكلمهم النبى ص و تقدم إلى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتى الصبيان و جاءت نساؤهم إلى رسول الله ص فقلن له يا رسول الله نعتزلهم فقال لا و لكن لا يقربوكن

فضاقت عليهم المدينة فخرجوا إلى رءوس الجبال و كان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام و لا يكلمونهم فقال بعضهم لبعض قد هجرنا الناس و لا يكلمنا أحد منهم فهلا- نتهاجر نحن أيضا ففرقوا و لم يتجمع منهم اثنان و بقوا على ذلك خمسين يوما يتضرعون إلى الله تعالى و يتوبون إليه فقبل الله تعالى توبتهم و أنزل فيهم هذه الآيه.

المعنى

«لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ» أقسم الله تعالى فى هذه الآيه لأن لام لقد لام القسم بأنه سبحانه قبل توبتهم و طاعتهم و إنما ذكر اسم النبى ص مفتاحا للكلام و تحسينا له و لأنه سبب توبتهم و إلا فلم يكن منه ما يوجب التوبه و

قد روى عن الرضا على بن موسى (عليه السلام) أنه قرأ لقد تاب الله بالنبى على المهاجرين و الأنصار الذين اتبعوه

فى الخروج معه إلى تبوك «فى ساعه العُسْرَه» و هى صعوبه الأمر قال جابر يعنى عسره الزاد و عسره الظهر و عسره الماء و المراد بساعه العسره وقت العسره لأن الساعه تقع على كل زمان و قال عمر بن الخطاب أصابنا حر شديد و عطش فأمطر الله سبحانه السماء بدعاء النبى ص فعشنا بذلك «مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ» عن الجهاد فهموا

بالانصراف من غزاتهم من غير أمر فعصمهم الله تعالى من ذلك حتى مضوا مع النبي ص «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ» من بعد ذلك الزيف و لم يرد بالزيف هاهنا الزيف عن الإيمان «إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُفٌ رَحِيمٌ» تداركهم برحمته و الرأفة أعظم من الرحمة «وَعَلَى الثَّالِثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا» قال مجاهد معناه خلفوا عن قبول التوبة بعد قبول توبه من قبل توبتهم من المنافقين كما قال سبحانه فيما مضى «وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ» و قال الحسن و قتاده معناه خلفوا عن غزوه تبوك لما تخلفوا هم و أما

قراءه أهل البيت (عليه السلام) خالفوا فإنهم قالوا لو كانوا «خَلَفُوا» لما توجه عليهم العتب و لكنهم خالفوا «حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ» أى برحبها

و ما هاهنا مصدرية و معناه ضاقت عليهم الأرض مع اتساعها و هذه صفة من بلغ غايه الندم حتى كأنه لا يجد لنفسه مذهبا و ذلك بأن النبي أمر الناس بأن لا يجالسوهم و لا يكلموهم كما مر ذكره لأنه كان نزلت توبه الناس و لم تنزل توبتهم و لم يكن ذلك على معنى رد توبتهم لأنهم كانوا مأمورين بالتوبه و لا- يجوز في الحكمه رد توبه من يتوب في وقت التوبه و لكن الله سبحانه أراد بذلك تشديد المحنه عليهم في تأخير إنزال توبتهم و أراد بذلك استصلاحهم و استصلاح غيرهم لئلا يعودوا إلى مثله «وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ» هذه عباره عن المبالغه في الغم حتى كأنهم لم يجدوا لأنفسهم موضعا يخفونها فيه و قيل معنى ضيق أنفسهم ضيق صدورهم بالهم الذي حصل فيها «وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» أى و أيقنوا أنه لا يعصمهم من الله موضع يعتصمون به و يلجئون إليه غيره تعالى و معناه علموا أنه لا معتصم من الله إلا به و أن لا ينجيهم من عذاب الله إلا التوبه «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتُوبُوا» أى ثم سهل الله عليهم التوبه حتى تابوا و قيل ليتوبوا أى ليعودوا إلى حالتهم الأولى قبل المعصيه و قيل معناه ثم تاب على الثالثه و أنزل توبتهم على نبيه ص ليتوب المؤمنون من ذنوبهم لعلمهم بأن الله سبحانه قابل التوبه قال الحسن أما و الله ما سفكوا من دم و لا- أخذوا من مال و لا قطعوا من رحم و لكن المسلمين تسارعوا فى الشخصوص مع رسول الله ص و تخلف هؤلاء و كان أحدهم تخلف بسبب ضيعة له و الآخر لأهله و الآخر طلبا للراحه ثم ندموا و تابوا فقبل الله توبتهم «إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ» أى الكثير القبول للتوبه «الرَّحِيمُ» بعباده.

النظم

اتصلت الآيه الأولى بقوله «التَّائِبُونَ» الآيه أثنى الله سبحانه عليهم هناك و بين فى هذه الآيه قبول توبتهم و رضاه عنه باتباعهم للنبي ص فى ساعه العسره عن أبى مسلم و قيل إنه سبحانه لما ذكر أن له ملك السماوات و الأرض و لا ناصر لأحد دونه بين عقبيه رحمته بالمؤمنين و رأفته بهم فى قبول توبتهم.

ص: ١٢٢

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

القراءه

فى مصحف عبد الله و قراءه ابن عباس

من الصادقين و روى ذلك عن أبى عبد الله (عليه السلام).

اللغه

الصادق هو القائل بالحق العامل به لأنه صفة مدح و لا يطلق إلا على من يستحق المدح على صدقه.

المعنى

ثم خاطب الله سبحانه المؤمنين المصدقين بالله المقربين بنوه نبيه ص فقال «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ» أى اتقوا معاصى الله و اجتنبوا «وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» الذين يصدقون فى أخبارهم و لا يكذبون و معناه كونوا على مذهب من يستعمل الصدق فى أقواله و أفعاله و صاحبوهم و رافقوهم كقولك أنا مع فلان فى هذه المسأله أى اقتدى به فيها و قد وصف الله الصادقين فى سوره البقره بقوله «وَ لَكِنَّ الْإِبْرَءِمَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَى قَوْلِهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» فأمر سبحانه بالافتداء بهؤلاء الصادقين المتقين و قيل المراد بالصادقين هم الذين ذكرهم الله فى كتابه و هو قوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ يَعْنِي حَمَزَه بِن عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ يَعْنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام) و روى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» مع على و أصحابه و

روى جابر عن أبى جعفر (عليه السلام) فى قوله «وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» قال مع آل محمد ص

و قيل مع النبيين و الصديقين فى الجنه بالعمل الصالح فى الدنيا عن الضحاك و قيل مع محمد ص و أصحابه عن نافع و قيل مع الذين صدقت نياتهم و استقامت قلوبهم و أعمالهم و خرجوا مع رسول الله ص و لم يتخلفوا عنه عن ابن عباس و قيل إن معنى مع هنا معنى من فكأنه أمر بالكون من جملة الصادقين و يعضده قراءه من قرأ من الصادقين و المعنيان متقاربان هنا لأن مع للمصاحبه و من للتبعيض فإذا كان من جملتهم فهو معهم و بعضهم و قال ابن مسعود لا يصلح من الكذب جد و لا هزل و لا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجز له اقرءوا إن شئتم هذه الآيه هل ترون فى الكذب رخصه.

اشاره

ما كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

اللغة

الرجبه طلب المنفعة يقال رغب فيه إذا طلب المنفعة به و رغب عنه إذا طلب المنفعة بتركه و الظمأ شدة العطش و النصب التعب و مثله الوصب قال النابغة:

كلينى لهم يا أميمه ناصب و ليل أقاسيه بطى ء الكواكب

و المخمصة المجاعة و أصله ضمور البطن للمجاعة و رجل خميص البطن و امرأه خمصانه ضامره البطن و الموطأ الأرض و الغيظ انتقاض المطبع بما يرى مما يسوؤه يقال غاظه يغیظه.

المعنى

لما قص الله سبحانه قصه الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ص إلى غزوه تبوك ثم اعتذارهم عن ذلك و توبتهم منه و أنه قبل توبه من ندم على ما كان منه لرأفته بهم و رحمته عليهم ذكر عقيب ذلك على وجه التوبيخ لهم و الإيزاء على ما كانوا فعلوه فقال «ما كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ» ظاهره خبر و معناه نهى مثل قوله ما كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ أى ما كان يجوز و ما كان يحل لأهل مدينة الرسول و من حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عنه فى غزاه تبوك و غيرها بغير عذر و قيل إنه مزينه و جهينه و أشجع و غفار و أسلم «وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» أى ما كان يجوز لهم و لجميع المؤمنين أن يطلبوا نفع نفوسهم بتوقيتها دون نفسه و هذه فريضه ألزمهم الله إياها لحق رسول الله ص فيما دعاهم إليه من الهدى الذى اهدوا به و خرجوا من ظلمه الكفر

إلى نور الإيمان وقيل معناه ولا يرضوا لأنفسهم بالخفض والصدع ورسول الله في الحر والمشقه يقال رغبت بنفسى عن هذا الأمر أى ترفعت عنه بل عليهم أن يجعلوا أنفسهم وقايه للنبي ص «ذَلِكَ» أى ذلك النهى لهم والزجر عن التخلف «بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ» أى عطش «وَلَا نَصَبٌ» أى ولا تعب فى أبدانهم «وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أى ولا مجاعه وهى شدة الجوع فى طاعه الله «وَلَا يَطَّوَّنُ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ» أى لا يضعون أقدامهم موضعا يغضب الكفار وطؤهم إياه يعنى دار الحرب فإن الإنسان يغظه ويغضبه إن يظأ غيره موضعه «وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا» أى ولا يصيبون من المشركين أمرا من قتل أو جراحه أو مال أو أمر يغمهم ويغضبهم «إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ» و طاعه رفيهه «إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» أى الذين يفعلون الأفعال الحسنه التى يستحق بها المدح والثواب وفى هذا تحريض على الجهاد وأعمال الخير «وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً» أى ولا ينفقون فى الجهاد ولا فى غيره من سبل الخير والمعروف نفقه قليله ولا كثيره يريدون بذلك إعزاز دين الله ونفع المسلمين والتقرب بذلك إلى الله تعالى «وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا» أى ولا يجاوزون واديا «إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ» ثواب ذلك «لِيُجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى يكتب طاعاتهم ليجزيهم عليها بقدر استحقاقهم ويزيدهم من فضله حتى يصير الثواب أحسن وأكثر من عملهم وقيل إن الأحسن من صفه فعلهم لأن الأعمال على وجوه واجب و مندوب و مباح و إنما يجازى على الواجب و المندوب دون المباح فيقع الجزاء على أحسن الأعمال وقيل معناه ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون قال ابن عباس يرضيهم بالثواب و يدخلهم الجنة بغير حساب والآيتان تدلان على وجوب الجهاد مع رسول الله ص و حظر التخلف عنه و قد اختلف فى ذلك فقليل المراد بذلك جميع من دعاه النبي ص إلى الجهاد و هو الصحيح وقيل المراد به أهل المدينة و من حولها من الأعراب ثم اختلف فيه من وجه آخر فقليل إنه خاص فى النبي ص ليس لأحد أن يتخلف عنه فى الجهاد إلا لعذر فأما غيره من الأئمه فيجوز التخلف عنه عن قتاده وقيل إن ذلك لأول هذه الأمه و آخرها من المجاهدين فى سبيل الله عن الأوزاعى و ابن المبارك وقيل إن هذا كان فى ابتداء الإسلام و فى أهله قله فأما الآن و قد كثر الإسلام و أهله فإنه منسوخ بقوله «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً» الآيه عن ابن زيد و هذا هو الأقوى لأنه لا خلاف أن الجهاد من فروض الكفايات فلو لزم كل أحد لصار من فروض الأعيان.

أشاره

وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَ إِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)

اللغة

التفقه تعلم الفقه و الفقه العلم بالشىء و فى حديث سلمان أنه قال لامرأه فقته أى علمت و فهمت فأما فقته بضم القاف فمعناه صارت فقيهه و قد اختص فى العرف بعلم الأحكام الشرعيه فيقال لكل عالم بها فقيه و قيل الفقه فهم المعانى المستنبطه و لذلك لا يقال الله سبحانه فقيهه و الحذر تجنب الشىء بما فيه من المضره قال الزجاج يقال غلظه و غلظه ثلاث لغات قال أبو الحسن قراءه الناس بالكسر و هى العريبه و المراد بالمرض فى الآيه الشك فإنه فساد فى القلب يحتاج إلى العلاج كما أن الفساد فى البدن يحتاج إلى مداواه و مرض القلب أعرض و علاجه أعسر و دواؤه أعز و أطباؤه أقل.

الإعراب

«فَلَوْ لَا نَفَرَ» بمعنى هلا- نفر و هى للتحضيض إذا دخلت على الفعل فإذا دخلت على الاسم فمعناها امتناع الشىء لأجل وجود غيره، «لِيَتَفَقَّهُوا» أى ليتفقه باقوهم لأنه إذا نفر طائفه منهم تفقه من بقى منهم و إن شئت فمعناه ليتفقه كلهم لأنه من نفر منهم إذا رجع استعلم من بقى فصار كلهم فقهاء «وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» جملة فى موضع الحال و كذلك قوله «وَ هُمْ كَافِرُونَ».

النزول

قيل كان رسول الله ص إذا خرج غازيا لم يتخلف عنه إلا- المنافقون و المعذرون فلما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين و بين نفاقهم فى غزاه تبوك قال المؤمنون و الله لا نتخلف عن غزاه يغزوها رسول الله ص و لا سريه أبدا فلما أمر رسول الله ص بالسرايا

إلى الغزو نفر المسلمون جميعا و تركوا رسول الله ص وحده فأُنزل الله سبحانه «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا» الآية عن ابن عباس فى روايه الكلبى و قيل إنها نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله ص خرجوا فى البوادر فأصابوا من الناس معروفا و خصبا و دعوا من وجدوا من الناس على الهدى فقال الناس و ما نراكم إلا و قد تركتم صاحبكم و جئتمونا فوجدوا فى أنفسهم فى ذلك حرجا و أقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبى ص فأُنزل الله عز و جل هذه الآية عن مجاهد.

المعنى

لما تقدم الترغيب فى الجهاد بأبلغ أسباب الترغيب و تأنيب من تخلف عنه بأبلغ أسباب التأنيب بين فى هذه الآية موضع الرخصه فى تأخر من تأخر عنه فقال سبحانه «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً» و هذا نفى معناه النهى أى ليس للمؤمنين أن ينفروا و يخرجوا إلى الجهاد بأجمعهم و يتركوا النبى ص فريدا و حيدا و قيل معناه ليس عليهم أن ينفروا كلهم من بلادهم إلى النبى ص ليتعلموا الدين و يضيعوا ما وراءهم و يخلوا ديارهم عن الجبائى «فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ» اختلف فى معناه على وجوه (أحدها) أن معناه فهلا خرج إلى الغزو من كل قبيله جماعه و يبقى مع النبى ص جماعه ليتفقهوا فى الدين يعنى الفرقة القاعدية يتعلمون القرآن و السنن و الفرائض و الأحكام فإذا رجعت السرايا و قد نزل بعدهم قرآن و تعلمه القاعدون قالوا لهم إذا رجعوا إليهم أن الله قد أنزل بعدكم على نبيكم قرآنا و قد تعلمناه فتعلمه السرايا فذلك قوله «وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ» أى و ليعلموهم القرآن و يخوفوهم به إذا رجعوا إليهم «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» فلا يعلمون بخلافه عن ابن عباس فى روايه الوالى و قتاده و الضحاك و

قال الباقى (عليه السلام) كان هذا حين كثر الناس فأمرهم الله أن تنفر منهم طائفه و تقيم طائفه للتفقه و أن يكون الغزو نوبا

(و ثانيها) أن التفقه و الإنذار يرجعان إلى الفرقة النافره و حثها الله تعالى على التفقه لترجع إلى المتخلفه فتحذرهما و معنى «لَيَتَفَقَّهُوا فى الدِّينِ» ليتبصروا و يتيقنوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين و نصره الدين و لينذروا قومهم من الكفار إذا رجعوا إليهم من الجهاد فيخبروهم بنصر الله النبى و المؤمنين و يخبروهم أنهم لا يدان لهم بقتال النبى و المؤمنين لعلمهم يحذرون أن يقاتلوا النبى ص فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار عن الحسن و أبى مسلم قال أبو مسلم اجتمع للنافره ثواب الجهاد و التفقه فى الدين و إنذار قومهم (و ثالثها) أن التفقه راجع إلى النافره و التقدير ما كان لجميع المؤمنين أن ينفروا إلى النبى ص و يخلوا ديارهم و لكن لينفر إليه من كل ناحيه طائفه لتسمع كلامه و تتعلم الدين منه ثم ترجع إلى قومها فتبين لهم ذلك و تنذرهم عن الجبائى قال و المراد بالنفر هنا الخروج لطلب العلم و إنما سمي

ذلك نفرا لما فيه من مجاهدته أعداء الدين قال القاضي أبو عاصم و في هذا دليل على اختصاص الغربه بالتفقه و أن الإنسان يتفقه في الغربه ما لا- يمكنه ذلك في الوطن ثم بين سبحانه ما يجب تقديمه فقال «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» أي قاتلوا من قرب منكم من الكفار الأقرب منهم فالأقرب في النسب و الدار و قال الحسن كان هذا قبل الأمر بقتال المشركين كافة و قال غيره هذا الحكم قائم الآن لأنه لا ينبغي لأهل كل بلد أن يخرجوا إلى قتال الأبعد و يدعوا الأقرب و الأدنى لأن ذلك يؤدي إلى الضرر و ربما يمنعهم ذلك عن المضى في وجهتهم إلا- أن يكون بينهم و بين الأقرب مواعده فلا بأس حينئذ بمجاوزه الأقرب إلى الأبعد على ما يراه المتولى لأمر المسلمين و لو قال سبحانه قاتلوا الأبعد فالأبعد لكان لا يصح لأنه لا حد للأبعد يبتدئ منه كما للأقرب و في هذا دلالة على أنه يجب على أهل كل ثغر الدفاع عن أنفسهم إذا خافوا على بيضه الإسلام و إن لم يكن هناك إمام عادل و قال ابن عباس أمروا أن يقاتلوا الأدنى فالأدنى من عدوهم مثل قريظه و النضير و خيبر و فدك و قال ابن عمر أنهم الروم لأنهم سكان الشام و الشام أقرب إلى المدينه من العراق و كان الحسن إذا سئل عن قتال الروم و الترك و الديلم تلا هذه الآية «وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» أي شجاعه عن ابن عباس و قيل شده عن مجاهد و قيل صبورا على الجهاد عن الحسن و المعنى و ليحسوا منكم بضد اللين و خلاف الرقه و هو العنف و الشده ليكون زجرا لهم «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» عن الشرك أي معينهم و ناصرهم و من كان الله ناصرهم لم يغلبه أحد فأما إذا نصره سبحانه بالحجه فإنه يجوز أن يغلب بالحرب لضرب من المحنه و شده التكليف ثم عاد الكلام إلى ذكر المنافقين فقال سبحانه «وَأِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً» في القرآن «فَمِنْهُمْ» أي من المنافقين «مَنْ يَقُولُ» على وجه الإنكار أي يقول بعضهم لبعض «أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ» السوره «إِيمَانًا» و قيل معناه يقول المنافقون للمؤمنين الذين في إيمانهم ضعف أيكم زادته هذه السوره إيمانا أي يقينا و بصيره «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا» معناه فأما المؤمنون المخلصون فزادتهم تصديقا بالفرائض مع إيمانهم بالله عن ابن عباس و وجه زياده الإيمان أنهم كانوا مؤمنين بما قد نزل من قبل و آمنوا بما أنزل الآن «وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» أي يسرون و يبشر بعضهم بعضا قد تهللت وجوههم و فرحوا بنزولها «وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أي شك و نفاق «فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» أي نفاقا و كفرا إلى نفاقهم و كفرهم لأنهم يشكون في هذه السوره كما شكوا فيما تقدمها من السوره فذلك هو الزياده و سمي الكفر رجسا على وجه الظم له و أنه يجب تجنبه كما يجب تجنب الأرجاس و أضاف الزياده إلى السوره لأنهم يزدادون عندها رجسا و مثله كفى بالسلامه داء و قول الشاعر:

" و حسبك داء أن تصح و تسلم "

«وَمَا تَوْأَمَاتُوا»

ص: ١٢٨

وَهُمْ كَافِرُونَ» أى و أدهم شكهم فيما أنزل الله تعالى من السور إلى أن ماتوا على كفرهم و آبوا شر مآب.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٦ الى ١٢٩]

إشاره

أ و لا- يَرُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

القراءه

قرأ أ و لا- ترون بالتاء حمزه و يعقوب و هى قراءه أبى و القراءه المشهوره «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» بضم الفاء و قرأ ابن عباس و ابن عليه و ابن محيصن و الزهرى

من أنفسكم بفتح الفاء و قيل إنها قراءه فاطمه (عليه السلام).

الحجه

من قرأ بالتاء فهو خطاب للمؤمنين و من قرأ بالياء فهو تفریح للمنافقين بالإعراض عما يجب أن لا يعرضوا عنه من التوبه و الإقلاع عما هم عليه من النفاق و من قرأ من أنفسكم بفتح الفاء فمعناه من أشرفكم و من خياركم يقال هذا أنفوس المتاع أى أجوده و خياره و اشتقاقه من النفس و هى أشرف ما فى الإنسان.

اللغه

العزیز الشدید و العزیز فى صفات الله تعالى معناه المنیع القادر الذى لا يتعذر عليه فعل ما يريد و العزه امتناع الشىء بما يتعذر معه ما يحاول منه و هو على ثلاثه أوجه امتناع الشىء بالقدره أو بالقله أو بالصعوبه و العنت لقاء الشده و الأذى الذى يضيق به الصدر و عنت الدابه يعنت عنتا إذا حدث فى قوائمه كسر بعد جبر لا يمكنه معه الجرى فكأنه شق عليه الجرى و أكمه عنوت شاقه المصعد و حسبى الله أى كفى الله و هو من الحساب لأنه

تعالى يعطى بحسب الكفاية التى تغنى عن غيره و يزيد من نعمه ما لا يبلغ إلى حد و نهايه إذ نعمه دائمه و مننه متواتره متظاهره و التوكل تفويض الأمر إلى الله على الثقة بحسن تدبيره و كفايته.

الإعراب

«أَوْ لَا- يَرَوْنَ» الواو للعطف دخلت عليها همزه الاستفهام و يحتمل الرؤيه أن تكون المتعديه إلى مفعولين و أن تكون من رؤيه العين فإذا كانت المتعديه إلى المفعولين يسدان مسدهما و إن كانت من رؤيه العين يكون أبلغ «مَا عَتَيْتُمْ» ما مصدرية و تقديره عزيز عليه عنتكم فهو فى موضع رفع بعزیز و قوله «لَا- إِلَهَ إِلَّا هُوَ» جملة فى موضع الحال و تقديره حسبى الله مستحقاً لإخلاص العباده و الإقرار بالوحدانيه و جر القراء كلهم العظيم على أنه صفة العرش و لو قرئ بالرفع على أن يكون صفة لرب العرش لجاز.

المعنى

ثم نبه سبحانه على إعراض المنافقين عن النظر و التدبر لما ينبغى أن ينظروا و يتدبروا فيه فقال «أَوْ لَا يَرَوْنَ» أى أ و لا يعلم هؤلاء المنافقون و قيل معناه أ و لا- يبصرون «أَنَّهُمْ يُفْتِنُونَ» أى يمتحنون «فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ» أى دفعه أو دفعتين بالأمراض و الأوجاع و هو رائد الموت «ثُمَّ لَا- يَتُوبُونَ» أى لا- يرجعون عن كفرهم «وَلَا هُمْ يَدْرِكُونَ» أى لا يتذكرون نعم الله عليهم و قيل يمتحنون بالجهاد مع رسول الله ص و ما يرون من نصره الله رسوله و ما ينال أعداؤه من القتل و السبى عن ابن عباس و الحسن و قيل بالقحط و الجوع عن مجاهد و قيل بهتك أستارهم و ما يظهر من خبث سرائرهم عن مقاتل و قيل بالبلاء و الجلاء و منع القطر و ذهاب الثمار عن الضحاك «وَ إِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» معناه و إذا أنزلت سورة من القرآن و هم حضور عند النبى ص كرهوا ما يسمعون و نظر بعضهم إلى بعض نظراً يؤمنون به «هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ» و إنما يفعلون ذلك لأنهم منافقون يحذرون أن يعلم بهم فكأنهم يقول بعضهم لبعض «هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ» ثم يقومون فينصرفون و إنما يفعلون ذلك مخافة أن تنزل آية تفضحهم و كانوا لا يقولون ذلك بألستهم و لكن ينظرون نظر من يقول لغيره ذلك القول فكأنه يقول ذلك و قيل معناه أن المنافقين كان ينظر بعضهم إلى بعض نظر تعنت و طعن فى القرآن ثم يقولون هل يرانا أحد من المسلمين فإذا تحقق لهم أنه لا يراهم أحد من المسلمين بالغوا فيه و إن علموا أنهم يراهم واحد منهم كفوا عنه «ثُمَّ أَنْصِرَفُوا» أى انصرفوا عن المجلس و قيل انصرفوا عن الإيمان به «صَيَّرَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» عن الفوائد التى يستفيدها المؤمنون و السرور بها و حرموا الاستبشار بتلك الحال و قيل معناه صرف الله قلوبهم عن رحمته و ثوابه عقوبه لهم على انصرفهم عن الإيمان بالقرآن و عن مجلس

النبى ص و قيل إنه على وجه الدعاء عليهم أى خذلهم الله باستحقاقهم ذلك و دعاء الله على عباده وعيد لهم و إخبار بلحاق العذاب بهم عن أبى مسلم «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» أى ذلك بسبب أنهم لا يفقهون مراد الله بخطابه لأنهم لا ينظرون فيه ثم خاطب الله سبحانه جميع الخلق و أكد خطابه بالقسم فقال «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» عنى بالرسول محمدا ص أى جاءكم رسول من جنسكم من البشر ثم من العرب ثم من بنى إسماعيل عن السدى و قيل إن الخطاب للعرب و ليس فى العرب قبيله إلا و قد ولدت النبى ص و له فيهم نسب عن ابن عباس و قيل معناه

أنه من نكاح لم يصبه شىء من ولاده الجاهليه عن الصادق (عليه السلام)

و روى ابن عباس عن النبى ص أنه قال ما ولدنى من سفاح أهل الجاهليه شىء ما ولدنى إلا نكاح كنيكاح الإسلام

و إنما من الله عليهم بكونه منهم لأنهم عرفوا مولده و منشأه و شاهدوه صغيرا و كبيرا و عرفوا حاله فى صدقه و أمانته و لم يعثروا على شىء يوجب نقضا فيه فبالحرى أن يكونوا أقرب إلى القبول منه و الانقياد له «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ» معناه شديد عليه عنتكم أى ما يلحقكم من الضرر بترك الإيمان و قيل معناه شديد عليه ما أتمتم عن الكلبى و الضحاك و قيل ما أعتكم و ضرکم عن القتيبى و قيل ما هلكتم عليه عن ابن الأنبارى «حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» معناه حريص على من لم يؤمن أن يؤمن عن الحسن و قتاده «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» قيل هما واحد و الرأفة شدة الرحمه و قيل رءوف بالمطيعين منهم رحيم بالمذنبين و قيل رءوف بأقربائه رحيم بأوليائه رءوف لمن رآه رحيم بمن لم يره و قال بعض السلف لم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا- للنبى ص فإنه قال «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» و قال «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُفٌ رَحِيمٌ» «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أى ذهبوا عن الحق و اتباع الرسول و ما يأمرهم به و أعرضوا عن قبوله و قيل معناه فإن تولوا عنك و عن الإقرار بنبوته «فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» أى كفى الله فإنه القادر على كل شىء «إِلَّا إِلَهًا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» و به وثقت و عليه اعتمدت و أمورى إليه فوضت «وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» خص العرش بالذكر تفخيما لشأنه و لأنه إذا كان رب العرش مع عظمه كان رب ما دونه فى العظم و قيل إن العرش عباره عن الملك و السلطان فمعناه رب الملك العظيم فى السماوات و الأرض عن أبى مسلم و قيل إن هذه الآيه آخر آيه نزلت من السماء و آخر سورة كامله نزلت سورة براءه و قال قتاده آخر القرآن عهدا بالسماء هاتان الآيتان خاتمه براءه.

(١٠) سورة يونس مكيه و آياتها تسع و مائه (١٠٩)

إشاره

[توضيح]

هي مكيه في قول الأ-كثيرين و روى عن ابن عباس و قتاده إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينه «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» إلى آخرهن و قال ابن المبارك ألا «و مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ» الآية فإنها نزلت في اليهود بالمدينه.

عدد آياتها

مائه و تسع آيات عند الجميع غير الشامي فإنه يقول و عشر آيات

اختلافها

ثلاث آيات «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» و «شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ» شامي «مِنَ الشَّاكِرِينَ» غير الشامي

فضلها

أبي بن كعب عن النبي ص قال من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس و كذب به و بعدد من غرق مع فرعون و

روى عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال من قرأ سورة يونس في كل شهرين أو ثلاثه لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين كان يوم القيامة من المقربين

تفسيرها

لما ختم الله سورة البراءه بذكر الرسول افتتح هذه السوره بذكره و ما أنزل عليه من القرآن فقال

ص: ١٣٢

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَمْ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)

القراءة

قرأ الر بإمالة الراء أبو عمرو و أهل الكوفه غير عاصم إلا يحيى وقرأ الباقون بالتفخيم وقرأ لساحرٌ بالألف ابن كثير و أهل الكوفه وقرأ الباقون «لسحر» بكسر السين و بغير ألف.

الحجه

قال أبو على من أمال فقال رأيا فلأنها أسماء لما تلفظ بها من الأصوات المنقطعه فى مخارج الحروف كما أن غاق اسم للصوت الذى يصوته الغراب فجازت الإمالة فيها من حيث كانت اسما و لم تكن كالحروف التى يمتنع فيها الإمالة نحو ما و لا و ما أشبههما من الحروف فإن قلت إن الأسماء لا تكون على حرفين أحدهما حرف لين و إنما يكون على هذه الصفه الحروف نحو ما و لا فالقول إن هذه الأسماء لا يمتنع أن تكون على حرفين أحدهما حرف لين لأن التنوين لا يلحقها فيؤمن لامتناع التنوين من اللحاق لها أن تبقى على حرف واحد فإذا أمن ذلك لم يمتنع أن يكون الاسم على حرفين أحدهما حرف لين أ لا ترى أنهم قد قالوا هذا شاه فجاء على حرفين أحدهما حرف لين لما أمن لحاق التنوين له لاتصال علامه التانيث به و كذلك قولك رأيت رجلا ذا مال لاتصال المضاف إليه به و كذلك قولهم كسرت فأزيد قال و يدل على قول من قال «لسحر» قوله سبحانه قالوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كَافِرُونَ و يدل على ساحر قوله وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ و قد تقدم قوله «أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ» فمن قرأ ساحر أراد الرجل و من قرأ سحر أراد الذى أوحى سحر.

اللغه

الآيه العلامه التى تنبئ عن مقطع الكلام من جهه مخصوصه و القرآن مفصل بالآيات مضمن بالحكم النافيه للشبهات و الحكيم هاهنا بمعنى المحكم فعيل بمعنى مفعول قال الأعشى:

و غريبه تأتى الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها

و أنشد أبو عبيده لأبي ذؤيب:

يواعدنى عكاظ لنتزلنه و لم يشعر إذا أنى خليف

أى مخلف من أخلفته الوعد و قيل هو بمعنى الحاكم و دليله قوله لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ قال الأزهرى القدم الشىء الذى تقدمه قدامك ليكون عده لك حتى تقدم عليه و قيل القدم المقدم كالتنقض و القبض قال ابن الأعرابى القدم المتقدم فى الشرف و قال العجاج:

ذل بنو العوام عن آل الحكم و تركوا الملك لملك ذى قدم

و قال الأزهرى فلان يمشى اليقدميه و التقدميه إذا تقدم فى الشرف و قال أبو عبيده و الكسائى كل سابق فى خير أو شر فهو عند العرب قدم و يقال الفلان قدم فى الإسلام و هو مؤنث يقال قدم حسنه قال حسان:

لنا القدم العليا إليك و خلفنا لأولنا فى طاعه الله تابع

و قال ذو الرمه:

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العادى طمت على البحر

الإعراب

أضيفت آيات إلى الكتاب لأنها أبعاض الكتاب كما أن سوره أبعاضه و «أَنْ أَوْحَيْنَا» فى موضع رفع بأنه اسم كان و عجا خبره و اللام فى قوله «لِلنَّاسِ» يتعلق بمحذوف كان صفه لعجب فلما تقدم صار حالا كقوله:

" لعزه موحشا طلل قديم "

و إن شئت كان ظرفا لكان و «أَنْ أَنْذِرِ» فى موضع نصب تقديره أوحينا بأن أنذر فحذف الجار فوصل الفعل و «أَنْ لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ» كذلك موضعه نصب بقوله «وَوَبَّشِرِ» و لو قرئ إن لهم بالكسر لكان جائزا لأن البشاره فى معنى القول إلا أنه لم يقرأ به و أضيف قدم إلى صدق كما يقال مسجد الجامع.

المعنى

قد مضى الكلام فى معانى الحروف المعجمه المذكوره فى أوائل السور من قبل «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» معناه أن الآيات التى جرى ذكرها أو الآيات التى أنزلت على محمد ص هى آيات القرآن المحكم من الباطل الممنوع من الفساد لا كذب فيه

ولا اختلاف وقيل تلك أى هذه السور آيات الكتاب الحكيم أى اللوح المحفوظ و سماه محكما لأنه ناطق بالحكمه وقيل لأنه جمع العلوم والحكمه وقيل إنما وصف الكتاب بالحكيم لأنه دليل على الحق كالناطق بالحكمه ولأنه يؤدى إلى المعرفه التى تميز بها طريق الهلاك من طريق النجاه «أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ» هذه ألف استفهام المراد به الإنكار وقيل إن المراد بالناس هنا أهل مكه قالوا نعجب أن الله سبحانه لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتييم أبى طالب و التقدير أ كان إبحاؤنا إلى رجل من الناس بأن يندرهم عجبا و معناه لما ذا تعجبون أن أوحينا إلى رجل منهم و ليس هذا موضع التعجب بل هو الذى كان يجب فعله عند كل العقلاء فإن الله تعالى لما أكمل لعباده عقولهم و كلفهم معرفته و أداء شكره و علم أنهم لا يصلحون و لا يقومون بذلك الإبداع يدعوهم إليه و منبه ينيهم عليه و جب فى الحكمه أن يفعل ذلك ثم بين سبحانه الوجه الذى لأجله بعث و ما الذى أوحى إليه فقال «أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ» أى أخبرهم بالعذاب و خوفهم به «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أى عرفهم ما فيه الشرف و الخلود فى نعيم الجنة على وجه الإكرام و الإجلال لصالح الأعمال وقيل «أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ» أى أجرا حسنا و منزله رفيعه بما قدموا من أعمالهم عن ابن عباس و روى عنه أيضا أن المعنى سبقت لهم السعاده فى الذكر الأول و يؤيده قوله إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُونَ و قيل هو تقديم الله تعالى إياهم فى البعث يوم القيامه بيانه

قوله (عليه السلام) نحن الآخرون السابقون يوم القيامه

وقيل أن القدم اسم للحسنى من العبد و اليد اسم للحسنى من السيد للفرق بين السيد و العبد وقيل

إن معنى قدم صدق شفاعه محمد ص لهم يوم القيامه عن أبى سعيد الخدرى و هو المروى عن أبى عبد الله (عليه السلام)

«قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ» يعنون النبى أى قالوا هذا ساحر مظهر للسحر و ما أتى به سحر بين على اختلاف القراءتين و السحر فعل يخفى وجه الحيله فيه حتى يتوهم أنه معجز و هذا يدل على عجزهم عن معارضه القرآن و لذلك عدلوا إلى وصفه بالسحر.

اشاره

إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعِندَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)

القراءة

قرأ أبو جعفر المدني أنه يبدأ بفتح الهمزة و هو قراءه الأعمش و الباقون بكسرها.

الحججه

من قرأ أنه فتقديره وعد الله حقا لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده أى من قدر على هذا الأمر العظيم فإنه غنى عن إخلاف الوعد و إن شئت كان تقديره وعد الله وعدا حقا إنه يبدأ الخلق فيكون فى محل النصب بالفعل الناصب لقوله وعدا قال ابن جنى و لا يجوز أن يكون إن منصوبه الموضع بنفس وعدا لأنه قد وصف بقوله «حَقًّا» و الصفه إذا جرت على موصوفها أذنت بتمامه و انقضاء أجزائه و لا يكون تاما إذا كان ما بعد الصفه من صلته فأما قول الحطيئه:

أزمت ياسا مبينا من نوالكم و لن ترى طاردا للحر كاليأس

فإن قوله من نوالكم ليس من صله يأس بل يتعلق بفعل يدل عليه قوله ياسا مبينا فكأنه قال فيما بعد يئست من نوالكم و قال الفراء من فتح جعله مفعول حقا كما فى قول الشاعر:

أحقا عباد الله أن لست زائرا بثينه أو يلقى الثريا رقيبها

اللغه

القسط العدل و منه القسط النصيب و القسط بفتح القاف الجور و القسط بفتح القاف و السين اعوجاج فى الرجلين و الحميم الماء الذى أسخن بالنار أشد إسخان قال المرقش الأصغر:

فى كل يوم لها مقطره فيها كباء معد و حميم

جميعاً نصب على الحال «وَعَدَ اللَّهُ» منصوب على المصدر لأن قوله «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ» معناه الوعد بالرجوع وحقاً منصوب على أحق ذلك حقاً عن الزجاج وأضيف المصدر في قوله «وَعَدَ اللَّهُ» إلى الفاعل لما لم يذكر الفعل كما في قول كعب بن زهير:

تسعى الوشاه جنابها و قيلهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

أى و يقولون قيلهم.

المعنى

«إِنَّ رَبُّكُمْ» أى خالقكم و منشئكم و مالك تدبيركم و تصريفكم من أمره و نهيهِ و الذى يجب عليكم عبادته «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى اخترعهما و أنشأهما على ما فيهما من عجائب الصنعه و بدائع الحكمة «فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» بلا زياده و نقصان مع قدرته على إنشائهما دفعه واحده و الوجه فيه أن فى ذلك مصلحة للملائكة و عبره لهم و لغيرهم إذا أخبروا عن ذلك و كذلك تصريف الإنسان حالا بعد حال و إخراج الثمار و الأزهار شيئاً بعد شىء مع قدرته على ذلك فى أقل من لمح البصر لأن ذلك أبعد من توهم الاتفاق فيه «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» مر تفسيره فى سورة الأعراف و قيل إن العرش المذكور هنا هو السماوات و الأرض لأنهن من بنائه و العرش البناء و أما العرش المعظم الذى تعبد الله سبحانه الملائكة بالحفوف به و الإعظام له و عناء بقوله الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ فهو غير هذا و قيل إن ثم هنا بمعنى الواو و قيل إن ثم دخل على التدبير و تقديره أى ثم استوى عليه بإنشاء التدبير من جهته كما يستوى الملك على سرير ملكه بالاستيلاء على تدبيره فإن تدبير الأمور كلها ينزل من عند العرش و لهذا ترفع الأيدي فى دعاء الحوائج نحو العرش «يُذَبِّرُ الْأُمْرَ» أى يقدر و ينفذه على وجهه و يرتبه على مراتبه على أحكام عواقبه و هو مأخوذ من الدبور «مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» إنما قال هذا و إن لم يجر ذكر للشفعاء لأن الكفار كانوا يقولون الأصنام شفعاؤنا عند الله فبين سبحانه أن الشفيع إنما يشفع عنده إذا أذن له فى الشفاعة و إذا كانت الأصنام لا تعقل فكيف تكون شافعه مع أنه لا يشفع عنده أحد من الملائكة و النبيين إلا بإذنه و أمره «ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ» أى إن الموصوف بهذه الصفات هو إلهكم «فَاعْبُدُوهُ» وحده لأنه لا إله لكم سواه و لا يستحق هذه الصفات غيره و لا تعبدوا الأصنام «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» حثهم سبحانه على التذكر و التفكير فيما أخبرهم به و على تعرف صحته «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» المرجع يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكونا بمعنى المصدر الذى هو الرجوع

(و الآخر) أن يكون بمعنى موضع الرجوع أى إليه موضع رجوعكم يكون إذا شاء «وَعِيدَ اللَّهِ حَقًّا» أى وعد الله تعالى ذلك عباده وعدا حقا صدقا «إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» أى يبتدئ الخلق ابتداء ثم يعيدهم بعد موتهم «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى ليؤتيهم جزاء أعمالهم «بِالْقِسْطِ» أى بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئا «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ» أى ماء حار قد انتهى حره فى النار «وَعَذَابٌ أَلِيمٌ» و جميع «بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» أى جزاء على كفرهم.

النظم

وجه اتصال هذه الآيه بما قبلها أنه قال أ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا قَالُوا و كيف لا نعجب و لا علم لنا بالمرسل فقال «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ» و يجوز أن يكون على أنه لما قال أ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا و كان هذا حكما على الله سبحانه فكأنه قال أ فتحكمون عليه و هو ربكم قال الأ-صم و يحتمل أن يكون هذا ابتداء خطاب للخلق جميعا احتج الله بها على عباده بما بين من بدائع صنعه فى السماوات و الأرض و فى أنفسهم.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٥ الى ٦]

اشاره

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)

القراءه

قرأ أهل البصره و ابن كثير و حفص و العجلى «يُفَصِّلُ» بالياء و الباقون تفصل بالنون.

الحجه

من قرأ بالياء فلائه تقدم ذكر الله سبحانه فأضممه فى الفعل و من قرأ بالنون فمثل قوله تَلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا

اللغه

الجعل إيجاد ما به يكون الشىء على صفه لم يكن عليها و الضياء يجوز أن يكون جمع ضوء كسوط و سياط و حوض و حياض و يجوز أن يكون مصدر ضاء يضاء ضياء

ص: ١٣٨

و ضوءا مثل عاذ يعوذ عياذا و عودا و قام يقوم قياما و على أى الوجهين كان فالمضاف محذوف و تقديره جعل الشمس ذات ضياء و القمر ذا نور و يكون جعل النور و الضياء لكثرة ذلك فيهما و الاختلاف ذهاب كل واحد من الشئين في غير جهة الآخر فاختلف الليل و النهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء و الآخر في جهة الظلام و الليل عبارة عن وقت غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثانى و ليله مثل تمر و تمره و النهار عبارة عن اتساع الضياء من طلوع الفجر الثانى إلى غروب الشمس و النهار اليوم بمعنى واحد إلا أن فى النهار فائده اتساع الضياء.

المعنى

ثم زاد سبحانه فى الاحتجاج للتوحيد فقال «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً» بالنهار «وَ الْقَمَرَ نُورًا» بالليل و الضياء أبلغ فى كشف الظلمات من النور و فيه صفة زائده على النور «وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ» أى و قدر القمر منازل معلومه «لِتَعْلَمُوا» به و بمنازله «عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابِ» و أول الشهر و آخره و انقضاء كل سنه و كميتها و جعل الشمس و القمر آيتين من آيات الله تعالى و فيهما أعظم الدلالات على وحدانيته تعالى من وجوه كثيره منها خلقها و خلق الضياء و النور فيهما و دورانهما و قربهما و بعدهما و مشارقهما و مغاربهما و كسوفهما و فى بث الشمس الشعاع فى العالم و تأثيرها فى الحر و البرد و إخراج النبات و طبخ الثمار و فى تمام القمر وسط الشهر و نقصانه فى الطرفين لىتميز أول الشهر و آخره من الوسط كل واحد من ذلك نعمه عظيمه من الله سبحانه على خلقه و لذلك قال «مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ» لأن فى ذلك منافع للخلق فى دينهم و دنياهم و دلائل على وحدانيه الله و قدرته و كونه عالما لم يزل و لا- يزال «يُفَصِّلُ الْآيَاتِ» أى يشرحها و بينها آيه آيه «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» فيعطون كل آيه حظها من التأمل و التدبر و قيل إن المعنى فى قوله «وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ» الثنيه أى قدر الشمس و القمر منازل غير أنه وحده للإيجاز اكتفاء بالمعلوم كما مر ذكر أمثاله فيما تقدم و كما فى قول الشاعر:

رمانى بأمر كنت منه و والدى بريئا و من جول الطوى رمانى

فإن الشمس تقطع المنازل فى كل سنه و القمر يقطعها فى كل شهر فإنما يتم الحساب و تعلم الشهور و السنون و الشتاء و الصيف بمقاديرهما و مجاريهما فى تدويرهما «إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى فعله فيهما على ما يقتضيه الحكمة فى السماوات من الأفلاك و الكواكب السيارة و غير السيارة و فى الأرض من الحيوان و النبات و الجماد و أنواع الأرزاق و النعم «لآياتٍ» أى حججا و دلالات على وحدانيه الله

«لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ» معاصى الله و يخافون عقابه و خصهم بالذكر لاختصاصهم بالانتفاع بها.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧ الى ١٠]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)

القرءاء

فى الشواذ قرءاء ابن محيصن و يعقوب أن الحمد لله.

الحجه

و هذه القرءاء تدل على أن قرءاء الجماعة «أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ» إنما هو على أن أن مخففه من الثقيله كما فى قوله:

فى فتيه كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى و ينتعل

فيكون على تقدير أنه الحمد لله و لا يجوز أن تكون أن هنا زائده كما زيدت فى قوله:

و يوما توفينا بوجه مقسم كان ظيبه تعطو إلى وارق السلم

أى كظيبه.

اللغه

الغفله و السهو من النظائر و هو ذهاب المعنى عن النفس و نقيضه اليقظه

ص: ١٤٠

و الدعوى قول يدعى به إلى أمر و التحية التكرمه بالحال الجليله و لذلك يسمون الملك التحيه قال:

(من كل ما نال الفتى قد نلته إلا التحيه)

و هو مأخوذ من قولهم أحياك الله حياه طيبه.

المعنى

ثم إنه سبحانه أوعد الغافلين عن الأدله المتقدمه المكذبين بالمعاد فقال «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» أى لقاء جزائنا و معناه لا يطمعون فى ثوابنا و أضافه إلى نفسه تعظيما له و يحتمل أن يكون المعنى لا يخافون عقابنا كما يكون الرجاء بمعنى الخوف كما فى قول الهذلى:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها و خالفها فى بيت نوب عواسل

جعل سبحانه ملاقيه ما لا- يقدر عليه إلا- هو ملاقيه له كما جعل إتيان ملائكته إتيانا له فى قوله هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ تَفْخِيمًا لِلْأَمْرِ «وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى متعوا بها و اختاروها فلا يعملون إلا لها و لا يجتهدون إلا لأجلها مع سرعه فنائها و لا يرجون ما وراءها «وَأَطْمَأَنُّوا بِهَا» أى و سكنوا إلى الدنيا بأنفسهم و ركنوا إليها بقلوبهم «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» أى ذاهبون عن تأملها فلا يعتبرون بها «أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ» أى مستقرهم النار «بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» من المعاصى ثم وعد سبحانه المؤمنين بعد ما أوعد الكافرين فقال «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» أى صدقوا بالله و رسله «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى و أضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحه «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» إلى الجنه «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» أى تجرى بين أيديهم الأنهار و هم يرونها من علو كما قال سبحانه قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا و معلوم أنه لم يجعل السرى الذى هو الجدول تحتها و هى قاعده عليه و إنما أراد أنه جعله بين يديها و قيل معناه من تحت بساتينهم و أسرتهم و قصورهم عن الجبائى و قوله «بِإِيمَانِهِمْ» يعنى به جزاء على إيمانهم «دَعَاؤُهُمْ فِيهَا» أى دعاء المؤمنين فى الجنه و ذكرهم فيها أن يقولوا «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ» يقولون ذلك لا على وجه العباده لأنه ليس هناك تكليف بل يلتذون بالتسبيح و قيل إنهم إذا مر بهم الطير فى الهواء يشتهونه قالوا سبحانك اللهم فيأتيهم الطير فيقع مشويا بين أيديهم و إذا قضاوا منه الشهوه قالوا الحمد لله رب العالمين فيطير الطير حيا كما كان فيكون مفتوح كلامهم فى كل شىء التسبيح و مختتم كلامهم التحميد فيكون

التسييح فى الجنة بدل التسميه فى الدنيا عن ابن جريج «وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ» أى تحيتهم من الله سبحانه فى الجنة سلام و قيل معناه تحيه بعضهم لبعض فيها أو تحيه الملائكه لهم فيها سلام يقولون سلام عليك أى سلمتم من الآفات و المكاره التى ابتلى بها أهل النار و قد ذكرنا معنى قوله «وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» و ليس المراد أن ذلك يكون آخر كلامهم حتى لا يتكلموا بعده بشىء بل المراد أنهم يجعلون هذا آخر كلامهم فى كل ما ذكروه عن الحسن و الجبائى.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٢]

اشاره

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)

القراءه

قرأ ابن عامر و يعقوب لقضى بفتح القاف أجلهم منصوب و الباقون «لَقُضِيَ» على ما لم يسم فاعله «أَجْلُهُمْ» بالرفع.

الحجه

قال أبو على اللام فى قوله «لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ» جواب لو فى قوله «وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ» و المعنى و الله أعلم و لو يعجل الله للناس دعاء الشر أى ما يدعون به من الشر على أنفسهم فى حال ضجر أو بطر استعجاله إياهم بدعاء الخير فأضاف المصدر إلى المفعول فحذف الفاعل كقوله تعالى لا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ فى حذف ضمير الفاعل و التقدير و لو يعجل الله للناس الشر استعجالا مثل استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم قال أبو عبيده لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ معناه لفرغ من أجلهم و أنشد لأبى ذؤيب:

و عليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابع تبع

و مثل ما أنشده قول الآخر:

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها بواتق في أكمامها لم تفتق

و المعنى لفرغ من أجلهم و مدتهم المضروبه للحياه و إذا انتهت مدتهم المضروبه للحياه هلكوا و هذا قريب من قوله وَ يَدْعُ
الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا و قالوا للميت مقضى كأنه قضى إذا مات و قضى فعل. التقدير استوفى أجله و
فرغ منه قال ذو الرمة:

إذا الشخص فيها هزه الآل أغمضت عليه كإغماض المقضى هجولها

المعنى أغمضت هجول هذه البلاد على الشخص الذى فيها فلم ير لغرقه فى الآل كإغماض المقضى و هو الميت و أما ما يتعلق به
الجار من قوله «لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ» فكأنه لما كان معنى قضى فرغ و كان قولهم فرغ يتعدى بهذا الحرف فى قوله:

الآن فقد فرغت إلى نمير فهذا حين صرت لهم عذابا

و فى التنزيل سَيَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ أَمْكَنَ أَنْ يَكُونَ الْفَعْلُ يَعْدَى بِاللَّامِ كَمَا يَعْدَى بِالِى وَ بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا
فلما كان معنى قضى فرغ تعلق بها إلى كذلك تعلق بقضى و وجه قراءة ابن عامر لقضى إليهم أجلهم على إسناد الفعل إلى
الفاعل أن الذكر قد تقدم فى قوله «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ» فقال لقضى على هذا و من حجته فى ذلك قوله ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَ أَجَلٌ
مُسَيَّمٌ عِنْدَهُ فَهَذَا الْأَجْلُ الَّذِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْأَجْلُ الْمَضْرُوبُ لِلْمَحْيَا كَمَا أَنَّ الْأَجْلَ فِي قَوْلِهِ «لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ» كَذَلِكَ
فَكَمَا أَسْنَدَ الْفَعْلَ فِي الْأَجْلِ الْمَضْرُوبِ لِلْحَيَاةِ إِلَى الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا عِنْدَ الْجَمِيعِ كَذَلِكَ أَسْنَدَهُ ابْنُ عَامِرٍ فِي قَوْلِهِ
لِقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ إِلَى الْفَاعِلِ وَ لَمْ يَسْنَدَهُ إِلَى الْفَعْلِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ وَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَجْلَ فِي قَوْلِهِ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا أَجْلُ الْمَحْيَا
إِنْ قَوْلُهُ وَ أَجَلٌ مُسَيَّمٌ عِنْدَهُ أَجْلُ الْبَعْثِ يَبِينُ ذَلِكَ قَوْلُهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ أَي أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَشْرُوكُونَ تَشْكُونَ فِي الْبَعْثِ وَ مِنْ قَرَأَ
لقضى فبنى الفعل للمفعول به فلائنه فى المعنى مثل قول من بنى الفعل للفاعل.

قوله «لِجَنبِهِ» فى موضع نصب على الحال تقديره دعانا منبطحاً لجنبه أو دعانا قائماً و يجوز أن يكون تقديره إذا مس الإنسان الضر لجنبه أو مسه قاعداً أو مسه قائماً دعانا و موضع الكاف من كذلك نصب على مفعول ما لم يسم فاعله أى زين للمسرفين عملهم مثل ذلك.

المعنى

ثم عاد الكلام إلى ذكر المائلين إلى الدنيا المطمئنين إليها الغافلين عن الآخرة فقال «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ» أى إجابته دعوتهم فى الشر إذا دعوا به على أنفسهم و أهاليهم عند الغيظ و الضجر و استعجلوه مثل قول الإنسان رفعى الله من بينكم و قوله لولده اللهم ألعنه و لا تبارك فيه «اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ» أى كما يعجل لهم إجابته الدعوه بالخير إذا استعجلوها «لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ» أى لفرغ من إهلاهم و لكن الله تعالى لا يعجل لهم الهلاك بل يمهلهم حتى يتوبوا و قيل معناه و لو يعجل الله للناس العقاب الذى استحقوه بالمعاصى كما يستعجلونهم خير الدنيا و ربما أجيبوا إلى ما سأله إذا اقتضت المصلحه ذلك لفنوا لأن بنيه الإنسان فى الدنيا لا تحمل عقاب الآخرة بل لا تحمل ما دونه و الله سبحانه يوصله إليهم فى وقته و سمي العقاب شراً من جهه المشقه و الأذى الذى فيه و فائدته أنه لو تعجلت العقاب لزال التكليف و لا يزول التكليف إلا بالموت و إذا عوجلوا بالموت لم يبق أحد «فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» أى فندع الذين لا يخافون البعث و الحساب يتحiron فى كفرهم و عدولهم عن الحق إلى الباطل و تمردهم فى الظلم. و العمه شده الحيره ثم أخبر سبحانه عن قله صبر الإنسان على الضرر و الشدائد فقال «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ» أى المشقه و البلاء و المحنه من محن الدنيا «دَعَا لِحَبْلِهِ» أى دعانا لكشفه مضطجعا «أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا» أى على أى حال كان عليها و اجتهد فى الدعاء و سؤال العافيه و ليس غرضه بذلك نيل ثواب الآخرة و إنما غرضه زوال ما هو من الألم و الشده و قيل إن تقديره و إذا مس الإنسان الضر مضطجعا أو قاعداً أو قائماً دعانا لكشفه و فيه تقديم و تأخير «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ» أى فلما أزلنا عنه ذلك الضرر و وهبنا له العافيه «مَرَّ» أى استمر على طريقته الأولى معرضاً عن شكرنا «كَأَنَّ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ» أى كأن لم يدعنا قط لكشف ضره و لم يسألنا إزاله الألم عنه «كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى كما زين لهم الشيطان و أقرانهم الغواه ترك الدعاء عند الرخاء زينوا للمسرفين أى للمشركين عملهم عن الحسن و يحتمل أن يكون زين المسرفون بعضهم لبعض و إن لم يصف التريين إليهم فهو كقولهم فلان معجب بنفسه و قد حث الله سبحانه بهذه الآيه الذين منحوا الرخاء بعد الشده و العافيه بعد البليه على أن يتذكروا حسن صنع الله إليهم و جزيل نعمته عليهم و يشكروه على ذلك

و يسأله إدامه ذلك لديهم و نبه بذلك على وجوب الصبر عند المحنة احتساباً للأجر و ابتغاءاً للثواب و الذخر.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١٣ الى ١٤]

إشارة

و لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

اللغة

القرون جمع قرن و هو أهل عصر سموا بذلك لمقارنه بعضهم لبعض و منه قرن الشاه لمقارنته آخر بإزائه و القرن بكسر القاف هو المقاوم لقرينه فى الشده.

الإعراب

موضع كيف نصب بقوله «تَعْمَلُونَ» و تقديره لننظر أ خيرا تعملون أم شرا و لا يجوز أن يكون معمول ننظر لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فى ما بعده.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عما نزل بالأمم الماضيه من المثالات و حذر هذه الأمة عن مثل مصارعهم فقال «و لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ» بأنواع العذاب «لَمَّا ظَلَمُوا» أنفسهم بأن أشركوا و عصوا «و جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أى بالمعجزات الظاهره و الدلالات الواضحه «و ما كانوا ليؤمنوا» هذا إخبار بأن هذه الأمم إنما أهلكوا لما كانوا فى المعلوم أنهم لو بقوا لم يكونوا يؤمنون بالرسل الذين أتوهم و الكتب التى جاءوهم بها و استدل أبو على الجبائى بهذا على أن تبقية الكافر واجبه إذا كان المعلوم من حاله أنه يؤمن فيما بعد «كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» أى كذلك نعذب القوم المشركين فى المستقبل إذا لم يؤمنوا بعد قيام الحجة عليهم و علمنا أنهم لا- يؤمنون و لا- يصلحون «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ» يا أمه محمد «خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ» أى من بعد القرون التى أهلكناها و معناه أسكنناكم الأرض خلفهم «لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» أى لنرى عملكم أين يقع من عمل أولئك أ تقتدون بهم فتستحقون من العقاب مثل ما استحقوه أم تؤمنون فتستحقون الثواب و إنما قال لننظر ليدل على أنه سبحانه يعامل العبد معامله المختبر الذى لا- يعلم الشىء فيجازيه على ما يظهر منه دون ما قد علم أنه يفعله مظهره فى العدل و النظر فى الحقيقه لا يجوز على الله تعالى لأنه

إنما يكون بالقلب و هو التفكير و بالعين و هو قلب الحدقه نحو المرئى التماسا لرؤيته مع سلامه الحاسه و أحد هذين لا يجوز عليه سبحانه و إنما يستعمل ذلك فى صفاته على وجه المجاز و الاتساع فإن النظر إنما هو لطلب العلم و هو سبحانه يعامل عباده معامله من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ١٧]

إشاره

وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدَّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

القراءه

فى روايه أبى ربيعه عن البزى عن ابن كثير و لأدراكم» فجعلها لاما دخلت على أدراكم و أمال فى أدراكم و أدراك فى جميع القرآن أبو عمرو و حمزه و الكسائى و خلف و روى فى الشواذ عن ابن عباس و الحسن و لا أدريكم به.

الحجه

قال أبو على حكى سيبويه دريته و دريت به و الأ-كثرفى الاستعمال بالباء و يبين ذلك قوله «و لا أدراكم» و لو جاء على اللغه الأ-خرى لكان و لا- أدراكموه و قال الدريره كالفظنه و الشعره و هى مصادر يراد بها ضروب من العلم أما الدريره فكالهدايه و الدلاله فكان الدريره التانى و التعمل لعلم الشىء و على هذا المعنى ما تصرف من هذه الكلمه أنشد أبو زيد:

فإن غزالك الذى كنت تدرى إذا شئت ليث خادر بين أشبل

و تدرى أى تختل و منه الدريره فى قول أكثر الناس الخمل الذى يستتر به الصايد من الوحش كأنه يختل به و داريت الرجل لاينته و خاتلته و إذا كان الحرف على هذا فالدارى فى وصف القديم سبحانه لا يسوغ فأما قول الراجز:

(لا هم لا أدرى و أنت الدارى)

فلا- يكون حجه فى جواز ذلك لأنه استجار ذلك لما تقدم من قوله لا أدرى كما جاز فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ و إِنَّ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَّرُ مِنْكُمْ و أيضا فإن الأعراب يذكرون أشياء يمتنع جوازها كما قالوا:

لا هم أن كنت الذى بعهدى و لم تغيرك الأمور بعدى

و قال الآخر:

" لو خافك الله عليه حرمة "

فأما الهمزة على ما حكى عن الحسن و غيره فلا- وجه له لأن الدرء الدفع قال ابن جنى يجوز أن يكون لها وجه و إن كان فيه ضعف صنعه و هو أن يكون أراد و لا أدريتكم به ثم قلبت الياء ألفا لانفتاح ما قبلها و إن كانت ساكنة كقولهم فى ييأس ياس و فى ييبس يابس و قال قطرب أن لغه عقيل فى أعطيتك أن يقولوا أعطاتك ثم همز الألف على لغه من قال فى الباز الباز و فى العالم و الخاتم و النابل العالم و الخاتم و النابل و من قرأ و لا أدريكم به فمعناه و لا علمكم الله تعالى به فيكون نفيًا للتلاوه و إثباتًا للعلم و على قراءه الجماعه يكون نفيًا للأمرين جميعًا.

اللغه

التلقاء جبهه مقابله الشىء إلا- أنه قد يستعمل ظرفا فيقال هو تلقاءه كما يقال هو حذاءه و قبالتة و تجاهه و إزاءه و العمر بفتح العين و سكون الميم و العمر بضمهما البقاء و إذا استعمل فى القسم فالفتح لا غير

النزول

قيل نزلت فى خمسسه نفر عبد الله بن أميه المخزومى و الوليد بن مغيره و مكرز بن حفص و عمرو بن عبد الله بن أبى قيس العامرى و العاص بن عامر بن هاشم قالوا للنبي ص ائت بقرآن ليس فيه ترك عباده اللات و العزى و مناه و هبل و ليس فيه عيبها أو بدله تكلم به من تلقاء نفسك عن مقاتل و قيل نزلت فى المستهزئين قالوا يا محمد ائت بقرآن غير هذا فيه ما نسلكه عن الكلبى.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن مشركى قريش فقال «وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا»

المنزله فى القرآن «بَيِّنَاتٍ» أى واضحات فى الحلال و الحرام و سائر الشرائع و هى نصب على الحال «قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» أى لا يؤمنون بالبعث و النشور فلا يخشون عقابنا و لا يطمعون فى ثوابنا «أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا» الذى تتلوه علينا «أَوْ يَدَّبُّهُ» فاجعله على خلاف ما تقرؤه و الفرق بينهما أن الإتيان بغيره قد يكون معه و تبديله لا- يكون إلا- برفعه و قيل معنى قوله «يَدَّبُّهُ» غير أحكامه من الحلال أو الحرام أرادوا بذلك زوال الخطر عنهم و سقوط الأمر منهم و أن يخلى بينهم و بين ما يريدونه «قُلْ» يا محمد «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي» أى من جهة نفسى و ناحيه نفسى و لأنه معجز فلا أقدر على الإتيان بمثله «إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ» أى ما أتبع إلا الذى أوحى إلى «إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» فى اتباع غيره «عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ» أى يوم القيامة و من استدل بهذه الآيه على أن نسخ القرآن بالسنة لا يجوز فقد أبعد لأنه إذا نسخ القرآن بالسنة و ما يقوله النبى ص فإنه يقوله بالوحى من الله فلم ينسخ القرآن و لم يبدله من قبل نفسه بل يكون تبديله من قبل الله تعالى و لكن لا يكون قرآنا و يؤيد ذلك قوله «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» «قُلْ» يا محمد «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ» معناه لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم بأن كان لا ينزله على «وَلَا أَذْرَاكُمْ بِهِ» أى و لا أعلمكم الله به بأن لا ينزله على فلا أقرؤه عليكم فلا تعلمونه «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مَرْتَنَ قَبْلِهِ» أى فقد مكثت و أقمت بينكم دهرا طويلا- من قبل إنزال القرآن فلم أقرأه عليكم فلا- تعلمونه و لا ادعيت نبوه حتى أكرمنى الله تعالى به «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى أفلا- تتفكرون فيه بعقولكم فتعلموا أن المصلحه فيما أنزله الله تعالى دون ما تقرءونه قال على بن عيسى العقل هو العلم الذى يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب و الناس يتفاضلون فيه بالأمر المتفاوت فبعضهم أعقل من بعض إذا كان أقدر على الاستدلال من بعض «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ» أى لا أحد أظلم ممن اخترع على الله «كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ» أى المشركون عن الحسن فإن قيل أليس من ادعى الربوبيه أعظم ظلما من المدعى للنبوه قلنا إن المراد بقوله «مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» من كفر بالله تعالى فقد دخل فيه من ادعى الربوبيه و غيره من أنواع الكفار فكأنه قال لا أحد أظلم من الكافر.

اشاره

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَسْتَبْشِرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَ يَقُولُونَ لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)

القراءة

قرأ تشركون بالتاء أهل الكوفة غير عاصم و كذلك فى النحل فى موضعين و فى الروم و الباقون كل ذلك بالياء.

الحجة

من قرأ بالتاء فلقوله «أَسْتَبْشِرُونَ اللَّهَ» و من قرأ بالياء احتمل وجهين (أحدهما) على قل كأنه قيل له قل أنت سبحانه و تعالى عما يشركون و الوجه الآخر أن يكون هو سبحانه نزه نفسه عما أقروه فقال ذلك.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار فقال «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ» أى و يعبد هؤلاء المشركون الأصنام التى لا يضرهم إن تركوا عبادتها و لا ينفعهم إن عبدوها فإن قيل كيف ذمهم على عباده الصنم الذى لا ينفع و لا يضر مع أنه لو نفع و ضر لكان لا يجوز أيضا عبادته قلنا عباده من لا يقدر على أصول النعم و إن قدر على النفع و الضر إذا كان قبيحا فمن لا يقدر على النفع و الضر أصلا من الجماد تكون عبادته أقبح و أشنع فلذلك خصه بالذكر «وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ» أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا إنا نعبد هذه الأصنام لتشفع لنا عند الله و إن الله أذن لنا فى عبادتها و أنه سيسفحها فينا فى الآخرة و توهموا أن عبادتها أشد فى تعظيم الله سبحانه من قصده تعالى بالعباده فجمعوا بين قبيح القول و قبيح الفعل و قبيح التوهم و قيل معناه هؤلاء شفعاؤنا فى الدنيا لإصلاح معاشنا عن الحسن قال لأنهم كانوا يقرون بالبعث بدلاله قوله وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ «قُلْ أَسْتَبْشِرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ» أمر سبحانه نبيه ص أن يقول لهم على وجه الإلزام أ تخبرون الله بما لا يعلم من حسن عباده الأصنام و كونها شافعه لأن ذلك لو كان صحيحا لكان

تعالى به عالما ففى نفى علمه بذلك نفى المعلوم و معناه أنه ليس فى السماوات و لا الأرض إله غير الله و لا أحد يشفع لكم يوم القيامة و قيل معناه أ تخبرون الله بشريك أو شفيع لا- يعلم شيئا كما قال وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَكَذَلِكَ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فى السماوات و الأرض شيئا «سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» أى تنزه الله تعالى عن أن يكون له شريك فى استحقاق العبادة «وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا» فيه أقوال (أحدها) أن الناس كانوا جميعا على الحق و على دين واحد فاختلّفوا فى الدين الذى كانوا مجتمعين عليه ثم قيل أنهم اختلفوا على عهد آدم و ولده عن ابن عباس و السدى و مجاهد و الجبائى و أبى مسلم، و متى اختلفوا؟ قيل عند قتل أحد ابنه أخاه و قيل اختلفوا بعد موت آدم (عليه السلام) لأنهم كانوا على شرع واحد و دين واحد إلى زمن نوح و كانوا عشرة قرون ثم اختلفوا عن أبى روق و قيل كانوا على مله الإسلام من لدن إبراهيم (عليه السلام) إلى أن غيره عمرو بن لحي و هو أول من غير دين إبراهيم و عبد الصنم فى العرب عن عطاء و يدل على صحه هذه الأقوال قراءة عبد الله و ما كان الناس إلا أمة واحدة على هدى فاختلّفوا عنه (و ثانيها) أن الناس كانوا أمة واحدة مجتمعته على الشرك و الكفر عن ابن عباس و الحسن و الكلبي و جماعه ثم اختلف هؤلاء فقيل كانت أمة كافرته على عهد إبراهيم ثم اختلفوا فتنفروا فمنهم مؤمن و منهم كافر عن الكلبي و قيل كانت كذلك منذ وفاه آدم إلى زمن نوح عن الحسن و قيل أراد به العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ص فإنهم كانوا مشركين إلى أن بعث النبي ص فأمن به قوم و بقى آخرون على الشرك و

سئل على (عليه السلام) عن هذا فقيل كيف يجوز أن يطبق أهل عصر على الكفر حتى لا يوجد مؤمن يشهد عليهم و الله تعالى يقول فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ أُجِيبُوا عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ كُلِّ عَصْرٍ وَ إِنْ لَمْ يَخْلُ عَنْ مُؤْمِنِينَ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ فَرَبَّمَا يَقْلُونَ فى عصر و إنما يتبع الاسم الأعم و على هذا يقال دار الإسلام و دار الكفر

و فى تفسير الحسن و ما كان الناس إلى مبعث نوح إلا مله واحدة كافرته إلا الخاصه فإن الأرض لا تخلو من أن يكون لله تعالى فيها حجه (و ثالثها) إن الناس خلقوا على فطره الإسلام ثم اختلفوا فى الأديان «وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» من أنه لا يعاجل العصاه بالعقوبه إنعاما عليهم فى التانى بهم «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» أى فصل بينهم «فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» بأن يهلك العصاه و ينجى المؤمنين لكنه أخرهم إلى يوم القيامة تفضلا منه إليهم و زياده فى الإنعام عليهم ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار فقال «وَ يَقُولُونَ لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ» أى هلا- أنزل على محمد آيه من ربه تضطر الخلق إلى المعرفه بصدقه فلا- يحتاجون معها إلى النظر و الاستدلال

و لم يطلبوا معجزه تدل على صدقه لأنه ص قد أتاهم بالمعجزات الداله على نبوته و إنما لم يلجئهم الله إلى ما التمسوه لأن التكليف يمنع من الاضطرار إلى المعرفه فإن الغرض بالتكليف التعريض للثواب و لو كانت المعرفه ضروره لما استحقوا ثوابا فكيف و كان يكون ذلك ناقضا للغرض «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ» معناه فقل يا محمد إن الذى يعلم الغيب و يعلم مصالح الأمور قبل كونها هو الله العالم لنفسه يعلم الأشياء قبل كونها و بعد كونها لا تخفى عليه خافيه فيعلم ما فى إنزاله صلاح فينزله و يعلم ما ليس فى إنزاله صلاح فلا- ينزله و لذلك لا- يفعل الآيه التى اقترحوها فى هذا الوقت لما فى ذلك من حسن تدبير «فَأَنْتَظِرُوا» أى فانتظروا عقاب الله تعالى بالقهر و القتل فى الدنيا و العقاب فى الآخره «إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» لأن الله تعالى وعدنى النصره عليكم و قيل معناه فانتظروا إذلال الكافرين فإنى منتظر إعزاز المؤمنين.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٢١ الى ٢٣]

اشاره

وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

القراءه

قرأ روح و زيد عن يعقوب و سهل يمكرون بالياء و الباقون بالتاء و قرأ ينشركم

بالنون و الشين من النشر أبو جعفر و ابن عامر و الباقون «يُسَيِّرُكُمْ» بالسين و الياء من التسيير و قرأ حفص وحده «مَتَاع» بالنصب و الباقون بالرفع.

الحج

من قرأ يمكرون بالياء فلقوله «إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا» و من قرأ بالتاء فللخطاب أى قل لهم يا محمد إن رسل الله يكتبون ما تمكرون و من قرأ «يُسَيِّرُكُمْ» يقويه قوله فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَ كَلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ قوله قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ وَ يقال سار الدابه و سرته و سيرته قال:

(فلا تجز عن من سنه أنت سرتها)

و قال ليبد:

فبيان حرب أن تبوء بحربه و قد يقبل الضيم الدليل المسير

و من قرأ ينشركم فحجته قوله وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً وَ قوله وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَ البث التفريق و النشر فى المعنى و أما «مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فقد قال الزجاج من رفع فعلى و جهين (أحدهما) أن يكون «مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» خبرا لقوله «بَعِثُكُمْ» (و الآخر) أن يكون خبر المبتدأ «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» و «مَتَاعَ الْحَيَاةِ» على إضمار هو و من نصب فعلى المصدر أى تتمتعون متاع الحياه الدنيا قال أبو على قوله «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» يحتمل تأويلين (أحدهما) أن يكون متعلقا بالمصدر لأن فعله يتعدى بهذا الحرف ألا ترى إلى قوله بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ثم بغى عليه و إذا كان الجار من صلة المصدر كان الخبر «مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فيكون معناه بغى بعضكم على بعض متاع الحياه فى الدنيا و ليس ما يقرب إلى الله و يجوز أن يكون متعلقا بمحذوف فيكون خبرا للمصدر و فيه ذكر يعود إليه فيكون كقولك الصلاة فى المسجد فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل و مفعوله محذوف و المعنى إنما بغى بعضكم على بعض بما يدل على أنفسكم و يكون كقوله وَ لَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ وَ من نصب احتمال النصب و جهين (أحدهما) أن يكون على من صلة المصدر و يكون الناصب لمتاع هو المصدر الذى هو البغى و يكون خبر المبتدأ محذوف و حسن حذفه لطول الكلام و لأن بغىكم يدل على تبغون فيحسن الحذف لذلك و هذا الخبر لو أظهرته لكان يكون مكروه أو مذموم أو منهى عنه و نحو ذلك (و الآخر) أن يكون «عَلَى أَنْفُسِكُمْ» خبر المبتدأ فيكون متاع منصوبا على و جهين (أحدهما) تتمتعون متاعا فيدل انتصاب المصدر عليه (و الآخر) أن يضم تبغون لأن ما يجرى مجرى ذكره قد تقدم كأنه لو أظهره لكان تبغون متاع الحياه الدنيا فيكون مفعولا له

و لا يجوز أن يتعلق المصدر بالمصدر فى قوله «إِنَّمَا بَغْيُكُمْ» و قد جعلت " على " خبرا لقوله «إِنَّمَا بَغْيُكُمْ» لفصلك بين الصله و الموصول.

اللغه

التسيير التحريك فى جهه تمتد كالسير الممدود و البر الأرض الواسعه التى تقطع من بلد إلى بلد و منه البر لاتساع الخير به و البحر مستقر الماء الواسع حتى لا يرى من وسطه حافته و الفلك السفن و سميت فلكا لدورانها فى الماء و أصله الدور و منه فلكه المغزل و تفلك ثدى الجاربه إذا استدار و الفلك يكون جمعا و واحدا و هو هاهنا جمع و العاصف الريح الشديده و عصفت الريح فهى عاصف و عاصفه قال:

حتى إذا عصفت ريح مززعجه فيها قطار و رعد صوته زجل

الإعراب

جواب إذا الأولى فى إذا الثانيه و إنما جعل إذا جوابا لكونها بمعنى الجملة لما فيها من معنى المفاجاه و هى ظرف مكان و هو كقوله «وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ» و معناه إن تصيبهم سيئه قنطوا و إذا أذقنا الناس رحمه مكروا و جرين بهم ابتداء الكلام خطاب و بعد ذلك إخبار عن غائب لأن كل من أقام الغائب مقام من يخاطبه جاز له أن يرده إلى الغائب قال كثير:

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومه لدينا و لا مقلبه إن تقلت

و قال عنتره:

شطت مزار العاشقين فأصبحت عسرا على طلابك ابنه مخرم

و قوله «فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ» المعنى فلما أنجاهم بغوا

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن ذميم فعالهم فقال «وَإِذَا أذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً» يريد بالناس الكفار فهو عموم يراد به الخصوص «مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ» أى راحه و رخاء بعد شدة و بلاء و حقيقه الذوق فيما له طعم يوجد إنما يكون طعمه بالفم و إنما قال أذقناهم الرحمه

ص: ١٥٣

على طريق البلاغ لهشده إدراك الحاسه إياها «إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا» أى فهم يحتالون لدفع آياتنا بكل ما يجدون السبيل إليه من شبهه أو تخليط فى مناظره أو غير ذلك من الأمور الفاسده و قال مجاهد مكرهم استهزاؤهم و تكذيبهم «قُلْ» يا محمد لهم «اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا» أى أقدر جزاء على المكر و معناه أن ما يأتيهم من العقاب أسرع مما أتوه من المكر أى أوقع فى حقه و قيل أن مكره سبحانه إنزاله العقوبه بهم من حيث لا يشعرون «إِنَّ رُسُلَنَا» يعنى الملائكه الحفظه «يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ» أى ما تدبرون من سوء التدبير و فى هذا غايه الزجر و التهديد من وجهين (أحدهما) أنه يحفظ مكرهم (و الآخر) أنه أقدر على جزائهم و أسرع فيه ثم امتن الله سبحانه على خلقه بأن عدد نعمه التى يفعلها بهم فى كل حال فقال «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» أى يمكنكم من المسير فى البر و البحر بما هيا لكم من آيات السير و هى خلق الدواب و تسخيرها لكم لتركبوا فى البر و تحملوا عليها أثقالكم و هيا السفن فى البحر و إرسال الرياح المختلفه التى تجرى بالسفن فى الجهات المختلفه «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ» خص الخطاب براكب البحر أى إذا كنتم راكبي السفن فى البحر «وَ جَرَيْنَ بِهِمْ» أى و جرت السفن بالناس لما ركبوها عدل عن الخطاب إلى الإخبار عن الغائب تصرفا فى الكلام على أنه يجوز أن يكون خطابا لمن كان فى تلك الحال و إخبارا لغيرهم من الناس «بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ» أى بريح لينه يستطيبونها «وَ فَرِحُوا بِهَا» أى سروا بتلك الريح لأنها تبلغهم مقصودهم عن أبى مسلم و قيل فرحوا بالسفينه حيث حملتهم و أمتعهم «جاءتها رِيحٌ عاصِفٌ» أى جاءت للسفينه ريح عاصف شديد الهبوب الهائله «وَ جاءهمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» من البحر و الموج اضطراب البحر و معناه و جاء راكبي البحر الأمواج العظيمه من جميع الوجوه «وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ» أى أيقنوا أنهم دنوا من الهلاك و قيل غلب على ظنهم أنهم سيهلكون لما أحاط بهم من الأمواج «دَعَا اللَّهُ» عند هذه الشدائد و الأهوال و التجأوا إليه ليكشف ذلك عنهم «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» أى على وجه الإخلاص فى الاعتقاد و لم يذكروا الأوثان و الأصنام لعلمهم بأنها لا تنفعهم هاهنا شيئا و قالوا «لَيْسَ أَنْجِيَّتَنَا» يا رب «مِنْ هَذِهِ» الشده «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» أى من جمله من يشكرك على نعمك و قوله «جاءتها رِيحٌ عاصِفٌ» جواب قوله «إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ» و قوله «دَعَا اللَّهُ» جواب قوله «وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ» «فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ» أى خلصهم الله تعالى من تلك المحن «إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْمَأْرَضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» أى يعملون فيها بالمعاصى و الفساد و يشتغلون بالظلم على الأنبياء و على المسلمين «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى بغى بعضكم على بعض و ما ينالونه به متاع فى الدنيا و إنما تأتونه لحبكم

العاجله و إثارها على ما يقرب إلى الله تعالى من الطاعات و قد مر بيانه قبل «ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ» فى الآخرة «فَنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى نخبركم بأعمالكم لأننا أثبتناها عليكم و هى كلمه تهديد و وعيد.

النظم

قيل إنما اتصل قوله «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ» الآيه بما قبله لأنه تفسير لبعض ما أجمل فى الآيه المتقدمه التى هى قوله «وَ إِذَا أَدْفُنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ» عن أبى مسلم و قيل إنه يتصل بما تقدم فى السوره من دلائل التوحيد فكأنه قال إلهكم الذى جعل الشمس ضياء و القمر نورا و هو الذى يسيركم.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

اشاره

إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيَنَّتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

القراءه

فى الشواذ قراءه الأعرج و الشعبى و أبى العالىه و نصر بن عاصم و الحسن بخلاف و ازينت و قراءه أبى عثمان و ازيانت.

الحججه

أما «أَزْيَنَّتْ» فأصله تزينت فأدغمت التاء فى الزاى و سكنت الزاى فاجتلبت لها ألف الوصل و أما ازينت فإنه على أفعلت أى جاءت بالزينه و ازينت أجود فى العريبه لأن ازينت الأجود فيه أزانت مثل أقال و أباع و أما ازيانت فوزنه افعالت و أصله ازيانت مثل ادهامت و اسوادت إلا أنه كره التقاء الساكنين فحركت الألف فانقلبت همزه كقول كثير:

و للأرض أما سودها فتجلت بياضا و أما بيضا فادهامت

الزخرف كمال حسن الشىء و يقال زخرفته أى حسنته و منه زخرفت الجنة لأهلها أى زينت بأحسن الألوان و غنى بالمكان أقام به و المغانى المنازل قال النابغه:

غيت بذلك إذ هم لك جيره منها بعطف رساله و تودد

و الدعاء طلب الفعل بما يقع لأجله و الداعى إلى الفعل خلاف الصارف عنه و الفرق بين الدعاء و الأمر أن فى الأمر ترغيباً فى الفعل و زجراً عن تركه و له صيغه تنبئ عنه و الدعاء ليس كذلك و كلاهما طلب و أيضاً فإن الأمر يقتضى أن يكون المأمور دون الأمر فى الرتبة و الدعاء يقتضى أن يكون فوقه.

المعنى

لما تقدم ما يوجب الترغيب فى الآخرة و التزهيد فى الدنيا عقبه سبحانه بذكر صفه الدارين فقال «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أى صفه الحياه الدنيا أو شبه الحياه الدنيا فى سرعه فنائها و زوالها «كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ» و هو المطر «فَاخْتَلَطَ بِهِ» أى بذلك المطر «نَبَاتُ الْأَرْضِ» لأن المطر يدخل فى خلل النبات فيختلط به و قيل معناه فاختلط بسببه بعض النبات بالبعض فاختلط ما يأكل الناس بما يأكل الأنعام و ما يقتات بما يتفكه ثم فصل ذلك فقال «مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ» كالحبوب و الثمار و البقول «وَّ الْأَنْعَامُ» كالحشيش و سائر أنواع المراعى و قد قيل فى المشبه و المشبه به فى الآيه أقوال (أحدها) أنه تعالى شبه الحياه الدنيا بالماء فيما يكون به من الانتفاع ثم الانقطاع (و ثانيها) أنه شبهها بالنبات على ما وصفه من الاغترار به ثم المصير إلى الزوال عن الجبائى و أبى مسلم (و ثالثها) أنه تعالى شبه الحياه الدنيا بحياه مقدره على هذه الأوصاف «حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا» أى حسنها و بهجتها بأنواع الألوان و أجناس النبات و غير ذلك «وَّ أَزْيَّنَتْ» أى تزينت فى عين رائيها «وَّ ظَنَّ أَهْلُهَا» أى مالکها «أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا» أى على الانتفاع بها و معناه بلغت المبلغ الذى ظن أهلها أنهم يحصدونها و يقدرون على غلتها أو إدامتها «أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا» أى أتاه عذابنا من برد أو برد و قيل معناه أتاه حكمنا و قضاؤنا بإهلاكها و إتلافها «فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا» أى محصوده و معناها مقطوعه مقلوعه ذاهبه يابسه «كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ» أى كأن لم تقم على تلك الصفه بالأمس و معناه كأن لم تكن و لم توجد من قبل «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» أى مثل ذلك نميز الآيات لقوم يتفكرون فيها فيعتبرون بها و لما بين سبحانه أن الدنيا تنقطع و تفنى بالموت كما يفنى هذا النبات بفنون

الآفات و نبه على التوقع لزوالها و التحرز عن الاغترار بأحوالها رغب عقيبه فى الآخره فقال «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ» قيل إن السلام و هو الله تعالى فإن الله تعالى يدعو إلى داره و داره الجنة عن الحسن و قتاده و قيل دار السلام الدار التى يسلم فيها من الآفات عن الجبائى و السلام و السلامه واحد مثل الرضاع و الرضاعه قال:

تحيا بالسلامه أم بكر و هل لك بعد رهطك من سلام

و قيل سميت الجنة دار السلام لأن أهلها يسلم بعضهم على بعض و الملائكه تسلم عليهم و يسلم ربهم عليهم فلا يسمعون إلا سلاما و لا يرون إلا سلاما و يعضده قوله «تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ» و ما أشبهه «وَيَهْدَى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» قيل يهدى من يشاء إلى الإيمان و الدين الحق بالتوفيق و التيسير و الألفاف و قال الجبائى يريد به نصب الأدله لجميع المكلفين دون الأطفال و المجانين و قيل معناه يهدى من يشاء فى الآخره إلى طريق الجنة الذى يسلكه المؤمنون و يعدل عنه الكافرون إلى النار.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

اشاره

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)

القراءه

قرأ ابن كثير و الكسائى و يعقوب و سهل قطعا ساكنه الطاء و الباقون «قِطْعًا» بفتحها.

الحجه

القطع جمع قطعه من الليل و القطع الجزء من الليل الذى فيه ظلمه.

اللغه

الرهق لحاق الأمر و منه راهق الغلام إذا لحق بالرجال و رهقه فى الحرب أدركه قال الأزهري الرهق اسم من الإرهاق و هو أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه و منه سَأْرَهَقُهُ

صُعُوداً و الكسب اجتلاب النفع و الجزاء المكافاه و القتر الغبار و القتره الغبره و القطار الدخان و منه الإقتار فى المعيشه.

الإعراب

«جَزَاءٌ سَيِّئَةٍ» فى ارتفاعه وجهان (أحدهما) أن يكون مبتدأ و خبره بمثلها على زياده الباء فى قول أبى الحسن لأنه وجد فى مكان آخر وَ جَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا و يجوز أن يكون الباء متعلقه بخبر محذوف تقديره جزاء سيئه كائن بمثلها كما تقول إنما أنا بك و أمرى بيدك و ما أشبه ذلك (و الآخر) أن يكون فاعلا بإضمار فعل تقديره استقر لهم جزاء سيئه بمثلها ثم حذف استقر فبقى لهم جزاء سيئه بمثلها ثم حذف لهم لدلاله الكلام على أن هذا مستقر لهم و يجوز أن يكون «جَزَاءٌ سَيِّئَةٍ» مبتدأ و الخبر محذوف تقديره لهم جزاء سيئه بمثلها أو جزاء سيئه بمثلها كائن هذا قد أجازه أبو الفتح و قوله «وَ تَرَهَّقُهُمْ» عطف على كسبوا و جاز أن يفصل بينهما بقوله «جَزَاءٌ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا» لأنه من الاعتراض الذى يبين الأول و يسدده و يثبته مظلما قال أبو على إن أجرته على قطع ساكنه الطاء فيحتمل نصبه على وجهين (أحدهما) أن يكون صفة لقطع على قياس قوله «وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ» وصفت الكتاب بالمفرد بعد ما وصفته بالجملة و أجرته على النكرة (و الآخر) أن يكون حالا من الذكر الذى فى الظرف يعنى قوله «مِنَ اللَّيْلِ» و إن أجرته على قطع مفتوحه الطاء لم يكن صفة له و لا حالا من الذكر الذى فى قوله «مِنَ اللَّيْلِ» و لكن يكون حالا من الليل و العامل فى الحال ما يتعلق به من الليل و هو الفعل المختزل و مثل ذلك فى إرادته الوصف بالسواد قول الشاعر:

و دويه مثل السماء اعتسفتها و قد صبغ الليل الحصى بسواد

أى سودتها الظلمه و قال غيره يجوز أن يكون مظلما صفة لقطع على قول الشاعر:

لو أن مدحه حتى تنشرن أحدا أحيا أباكن يا ليلي الأماديح

المعنى

ثم بين سبحانه أهل دار السلام فقال «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى» و معناه للذين أحسنوا العمل و أطاعوا الله تعالى فى الدنيا جزاء لهم على ذلك الحاله الحسنى و المنزل الحسنى و هى الحاله الجامعه للذات و النعيم على أكمل ما يكون و أفضل ما يمكن و هو تأنيث الأحسن «وَ زِيَادَةٌ» ذكر فى ذلك وجوه (أحدها) أن الحسنى الثواب المستحق

و الزيادة التفضل على قدر المستحق على طاعتهم من الثواب و هى المضاعفه المذكوره فى قوله «فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» عن ابن عباس و الحسن و مجاهد و قتاده (و ثانيها)

الزيادة هى إن ما أعطاهم الله تعالى من النعم فى الدنيا لا يحاسبهم به فى الآخرة عن أبى جعفر الباقر (عليه السلام)

(و ثالثها)

أن الزيادة غرفه من لؤلؤه واحده لها أربعة أبواب عن على (عليه السلام)

وقيل الزيادة ما يأتيهم فى كل وقت من فضل الله مجددا (و رابعها) أن الزيادة هى النظر إلى وجه الله تعالى و روى ذلك عن أبى بكر و أبى موسى الأشعري و غيرهما و قد بين الله سبحانه الزيادة فى موضع آخر بقوله لِيُؤَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ «وَلَا يَزْهِقُ وُجُوهُهُمْ قَتْرًا وَلَا ذَلَّةً» أى لا يلحق وجوههم سواد عن ابن عباس و قتاده و قيل غبار و لا ذلة أى هوان و قيل كآبه و كسوف عن قتاده و

روى الفضيل بن يسار عن أبى جعفر الباقر (عليه السلام) قال قال رسول الله ص ما من عين تفرقت بمائها إلا حرم الله ذلك الجسد على النار فإن فاضت من خشية الله لم يرهق ذلك الوجه قتر و لا ذلة

«أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» مر معناه «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ» أى اكتسبوها و ارتكبوها «جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا» أى لهم جزاء كل سيئه بمثلها يعنى يجوزون بمثل أعمالهم أى قدر ما يستحق عليها من غير زياده لأن الزيادة على قدر المستحق من العقاب ظلم و ليس كذلك الزيادة على قدر المستحق من الثواب لأن ذلك تفضل يحسن فعله ابتداء فالمثل هنا مقدار المستحق من غير زياده و لا نقصان «وَتَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ» أى يلحقهم هوان و ذل لأن العقاب يقارنه الإهانة و الإذلال «مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ» أى ما لهم من حافظ و مانع يدفع عقاب الله عنهم «كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا» أى كأنما ألبست وجوههم ظلمة الليل و المراد وصف وجوههم بالسواد كقوله سبحانه وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ظاهر المراد.

ص: ١٥٩

إشارة

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَزَيْلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٨)
فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ
وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

القراءة

قرأ أتلاوا بالتاء أهل الكوفة غير عاصم و روح و زيد عن يعقوب و الباقون «تَبْلُوا» بالتاء.

الحجج

قال أبو علي من قرأ «تَبْلُوا» فمعناه تختبر من قولهم البلاء ثم الثناء أى الاختبار للمثنى عليه ينبغى أن يكون قبل الثناء ليكون الثناء
عن علم بقدر ما يوجبه و معنى اختبارها ما أسلفت أنه إن قدم خيرا أو شرا جوزى عليه كما قال فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ إِلَى آخِرِهِ
وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ غير ذلك من الآى و من قرأ أتلاوا فإنه من التلاوه التى هى القراءة دليله قوله «فَأُولَئِكَ يَفْرُغُونَ كِتَابَهُمْ»
و قوله «أَقْرَأُ كِتَابَكَ» و يكون تلو من قولهم تلا الفريضة النفل إذا أتبعها النفل قال:

على ظهر عادى كان أرومه رجال يتلون الصلاة قيام

فيكون المعنى تتبع كل نفس ما أسلفت من حسنه أو سيئه قال:

قد جعلت دلوى تستلبنى و لا أحب تبع القرين

أى تستبغى من ثقلها

اللغة

التزييل التفريق مأخوذه من قولهم زلت الشىء عن مكانه أزيله و زيلته للكثرة من هذا إذا نحته عن مكانه و زيلت فلانا إذا
فارقت هنالكَ أى فى ذلك المكان و هو ظرف فهنا للقرين و هنالكَ للبعيد و هناك لما بينهما قال زهير:

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا و أن يسألوا يعطوا و إن ييسروا يغلوا

و الإسلاف تقديم أمر لما بعده فمن أسلف الطاعة لله جوزى بالثواب و من أسلف المعصية جوزى بالعقاب.

جميعاً نصب على الحال "مكانكم" قال الزجاج هو منصوب على الأمر والمعنى انتظروا مكانكم حتى يفصل بينكم والعرب تتوعد فتقول مكانك وانتظرنى وهى كلمه جرت على الوعيد و أقول أن الصحيح عند المحققين أن مكانك و دونك من أسماء الأفعال فيكون مكانكم هاهنا اسماً لألزموا مبنيًا على الفتح و ليس بمنصوب نصب الظروف و كم لا محل له من الإعراب إذ هو حرف الخطاب و أنتم رفع تأكيد للضمير فى مكانكم و شركاؤكم عطف عليه و هذا كما تقول فى قولهم عليك زيدا أن الكاف حرف الخطاب لا محل له من الإعراب و على هاهنا اسم الفعل و ليس بحرف و «فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» قال الزجاج شهيدا منصوب على التمييز إن شئت و إن شئت على الحال. إن كنا إن بمنزله ما النفى أى ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين قاله الزجاج و أقول الصحيح أن إن هذه هى المخففة من الثقيله و إذا كانت مخففة من الثقيله يلزمها اللام ليفرق بينها و بين النافية و التقدير إنا كنا عن عبادتكم غافلين و هنالك منصوب بتبلو إلا أنه غير متمكن و اللام زائده كسرت لالتقاء الساكنين.

المعنى

و لما تقدم ذكر الجزاء بين سبحانه وقت الجزاء فقال «و يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا» أى نحشر الخلائق أجمعين أى نجمعهم من كل أوب إلى الموقف «ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا» فى عبادتهم مع الله غيره و فى أموالهم فقالوا هذا لله و هذا لشركائنا «مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاءُكُمْ» أى أثبتوا و الزموا مكانكم أنتم مع شركائكم يعنى الأوثان فقد صحبتموهم فى الدنيا فاصحبوهم فى المحشر و قيل معناه أثبتوا حتى تسألوا كقوله «و قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ» «فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ» أى فميزنا و فرقنا بينهم فى المسألة فسألنا المشركين على حده لما عبدتم الأصنام و سألنا الأصنام على حده لما عبدتم و بأى سبب عبدتم و هذا سؤال تقريع و تبكيت عن الحسن و مثله وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ و قيل معناه فزيلنا بينهم و بين الأوثان فتبرأ منهم الشركاء و انقطعت أسبابهم «وَ قَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ» أى يحييهم الله و ينطقهم فقالوا ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون عن مجاهد و قيل إن شركاءهم من كانوا يعبدونهم من الشياطين و قيل هم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله و فى كيفية جحدهم لعبادتهم إياه قولان (أحدهما) أنهم يقولون ذلك على وجه إهانتهم بالرد عليهم أى ما اعتذرنا بذلك لكم (و الآخر) إن المراد أنكم لم تعبدونا بأمرنا و دعائنا و لم يرد أنهم لم يعبدوهم أصلاً لأن ذلك كذب لا يجوز أن يقع فى الآخرة لكونهم ملجئين إلى ترك القبائح عن الجبائى و هذه الآية نظير قوله «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا» الآية «فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» أى فاصلاً للحكم «بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ» أيها المشركون «إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ» مر معناه و هذا إذا كان المراد به الملائكة فإنهم عما ادعوه غافلون لأنهم

لم يشعروا بذلك ولا أمروا به وإن كان المراد الأصنام فلم يكن لها حس ولا علم وهذا غاية في إلزام الحجة اختاروا للعبادة من لم يدعهم إليها ولم يشعر بها «هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسَلَفَتْ» أى فى ذلك المكان وفى تلك الحال وفى ذلك الوقت تجرب وتعلم كل نفس ما قدمت من خير أو شر وترى جزاءه على القراءه بالتاء معناه تقرأ كل نفس جزاء عملها و جزاء ما قدمته «وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ» أى و ردوا إلى جزاء الله و إلى الموضوع الذى لا- يملك أحد فيه الحكم إلا الله الذى هو مالكهم و سيدهم و خالقهم و الحق صفه لله تعالى و هو القديم الدائم الذى لا يفنى و ما سواه يبطل و قيل الحق هو الذى يكون معنى اللفظ حاصله له على الحقيقة فالله جل جلاله هو الحق لأن معنى الإلهيه حاصل له على الحقيقة «وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» أى بطل و هلك عنهم ما كانوا يدعون به بافتراءهم من الشركاء مع الله تعالى.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٣]

إشاره

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُضَيَّرُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

القراءه

قرأ أهل المدينة و ابن عامر كلمات هاهنا و فى آخرها على الجمع و كذلك فى سوره المؤمن و الباقون على التوحيد.

الحجه

قال أبو على من قرأ على التوحيد احتمل وجهين (أحدهما) أن يكون جعل ما أوعده به الفاسقون كلمه و إن كانت فى الحقيقة كلمات لأنهم قد يسمون القصيده كلمه و الخطبه كلمه (و الآخر) أن يكون «كَلِمَةُ رَبِّكَ» التى يراد بها الجنس قد أوقعت على بعض الجنس كما أوقع اسم الجنس على بعضه فى قوله «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ

" بطن شريان يعوى عنده الذيب "

فأما من جمع فإنه جعل الكلم التي توعدوا بها كل واحده منها كلمه ثم جمع فقال «كلمات» و كلاهما وجه.

الإعراب

«كَذَلِكَ حَقَّتْ» الكاف في موضع نصب أى مثل أفعالهم جازاهم ربك و قوله «أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» بدل من كلمه ربك أى حقيق عليهم أنهم لا يؤمنون و يجوز أن يكون على تقدير حقت عليهم الكلمه لأنهم لا يؤمنون و يكون الكلمه ما وعدوا به من العقاب.

المعنى

ثم قرر سبحانه أدله التوحيد و البعث عليهم فقال «قُلْ» يا محمد لهؤلاء الكفار «مَنْ يَرْزُقُكُمْ» أى من يخلق لكم الأرزاق «مِنْ السَّمَاءِ» بإنزال المطر و الغيث «وَ» من «الْأَرْضِ» بإخراج النبات و أنواع الثمار و الرزق فى اللغه هو العطاء الجارى يقال رزق السلطان الجند إلا أن كل رزق فإن الله هو الرزاق به لأنه لو لم يطلقه على يد ذلك الإنسان لم يجىء منه شىء فلا يطلق اسم الرزاق إلا- على الله تعالى و يقيد فى غيره كما لا- يطلق اسم الرب إلا عليه و يقيد فى غيره فيقال رب الدار و رب الضيعة و لا يجوز أن يخلق الله حيوانا يريد تبقيته إلا و يرزقه لأنه إذا أراد بقاءه فلا بد له من الغذاء «أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ» معناه أم من يملك أن يعطيكم الأسماع و الأبصار فيقويها و ينورها و لو شاء لسلب نورها و حسها «وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» قيل معناه و من يخرج الإنسان من النطفه و النطفه من الإنسان و قيل معناه و من يخرج الحيوان من بطن أمه إذا ماتت أمه و يخرج غير التام و لا- البالغ حد الكمال من الحى و قيل معناه و من يخرج المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن «وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ» أى و من الذى يدبر جميع الأمور فى السماء و الأرض على ما توجه الحكمة «فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ» أى فسيعرفون بأن الله تعالى يفعل هذه الأشياء و أن الأصنام لا تقدر عليها «فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ» أى فقل لهم عند اعترافهم بذلك أ فلا تتقون عقابه فى عباده الأصنام و فى الآيه دلالة على التوحيد و على حسن المحاجه فى الدين لأنه سبحانه حاج به المشركين و فيها دلالة على أنهم كانوا يقرون بالخالق و إن كانوا مشركين فإن جمهور العقلاء يقرون بالصانع سوى جماعه قليله من ملحد الفلاسفه و من أقر بالصانع على هذا صنفان موحد يعتقد أن الصانع واحد لا يستحق العباده غيره و مشرك و هم ضربان

فضرب جعلوا لله شريكا في ملكه يضاده و يناوئه و هم الثنويه و المجوس ثم اختلفوا فمنهم يثبت لله شريكا قديما كالمانويه و منهم من يثبت شريكا محدثا كالمجوس و ضرب آخر لا يجعل لله شريكا في حكمه و ملكه و لكن يجعل له شريكا في العباده يكون متوسطا بينه و بين الصانع و هم اصحاب المتوسطات ثم اختلفوا فمنهم من جعل الوسائط من الأجسام العلويه كالنجوم و الشمس و القمر و منهم من جعل المتوسط من الأجسام السفليه كالأصنام و نحوها تعالى الله عما يقول الزائغون عن سبيله علوا كبيرا «فَذَلِكُمُ اللَّهُ» ذلك إشاره إلى اسم الله تعالى الذى وصفه فى الآيه الأولى بأنه الذى يرزق الخلق و يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحى و الكاف و الميم للمخاطبين و هم جميع الخلق أخبر سبحانه أن الذى يفعل هذه الأشياء «رَبُّكُمْ الْحَقُّ» الذى خلقكم و معبودكم الذى له معنى الإلهيه و يحق له العباده دون غيره من الأصنام و الأوثان «فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ» استفهام يراد به التقرير على موضع الحجه إذا لا يجد المجيب محيدا عن الإقرار به إلا بذكر ما لا يلتفت إليه و المراد به ليس بعد الذهاب عن الحق إلا الوقوع فى الضلال لأنه ليس بينهما واسطه فإذا ثبت أن عباده ما سواه باطل و ضلال «فَأَنَّى تُصِرُّونَ» أى فكيف تعدلون عن عبادته مع وضوح الدلاله على أنه لا- معبود سواه «كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» معناه أن الوعيد من الله تعالى للكفار بالنار فى الصحه كالقول بأنه ليس بعد الحق إلا- الضلال و قيل إن معناه مثل انصرافهم عن الإيمان و جبت العقوبه لهم أى جازاهم ربهم بمثل ما فعلوا من الانصراف و هذا فى قوم علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون و معناه سبق علم ربك فى هؤلاء أنهم لا- يؤمنون و قيل معنى قوله «أَنَّهُمْ لَا- يُؤْمِنُونَ» أو لأنهم لا- يؤمنون أى و جبت العقوبه عليهم لذلك.

إشارة

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

القراءة

قرأ أهل الكوفة غير عاصم «أمن لا يهدى» ساكنه الهاء خفيفه الدال وقرأ أهل المدينة غير ورش يهدى ساكنه الهاء مشدده الدال وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وروح وزيد عن يعقوب يهدى بفتح الياء والهاء وتشديد الدال إلا أن أبا عمرو أشار إلى فتحه الهاء من غير إشباع وقرأ عاصم غير حماد ويحيى ورويس عن يعقوب «يَهْدِي» بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال وقرأ حماد ويحيى عن أبي بكر عن عاصم يهدى بكسر الياء والهاء والتشديد.

الحج

قوله «يَهْدِي» ويهدى ويهدى أصل جميعها يهتدى يفتعل وإن اختلفت ألفاظها أدغموا التاء في الدال لمقاربتها لها فإنهما من حيز واحد ثم اختلفوا في تحريك الهاء فمن قرأ يهدى ألقى حركة الحرف المدغم وهو التاء على الهاء ومن قرأ «يَهْدِي» بكسر الهاء فإنه حرك الهاء بالكسر لالتقاء الساكنين ومن سكن الهاء جمع بين الساكنين ومن أشم الهاء ولم يسكن فالإشمام في حكم التحريك ومن كسر الياء مع الهاء أتبع الياء ما بعدها من الكسره وهو ردى لثقل الكسر في الياء.

الإعراب

قوله «فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» ما مبتدأ و لكم خبره و كيف منصوب بقوله «تَحْكُمُونَ» «لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» يجوز أن يكون قوله «شَيْئًا» مفعول يغنى و يجوز أن يكون في موضع مصدر أى لا- يغنى من الحق غناء و كذا قيل في قوله «لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا» قالوا هو مفعول تجزى و قالوا هو مصدر أى جزاء و كذلك قوله «وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» قالوا هو مفعول تشركوا و قالوا هو مصدر أى لا تشركوا به إشراكا و كذلك قوله «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا».

المعنى

ثم احتج سبحانه عليهم في التوحيد باحتجاج آخر فقال «قُلْ» يا محمد لهؤلاء المشركين «هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» أى هل من هذه الأصنام التي جعلتموها شركاء لله في العبادة وقيل الذين جعلتموهم شركاء في أموالكم كما قال وهذا لشركائنا من يبدأ الخلق بالإنشاء بعد أن لم يكن وهو النشأ الأولى ثم يعيده في

النشأه الثانيه «قُلِ اللّٰهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» معناه فإن قالوا ليس من شركائنا من يقدر عليه أو سكتوا فقل أنت لهم الله هو الذى يبدأ الخلق بأن ينشئه على غير مثال ثم يفنيه ثم يعيده يوم القيامة «فَأَنزِلْنَا نُؤْفِكُونَ» أى كيف تصرفون عن الحق و تقلبون عن الإيمان ثم استأنف الحجاج فقال سبحانه «قُلْ» يا محمد «هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ» أى هل من هذه الأصنام من يهدى الناس إلى الرشد و ما فيه الصلاح و النجاه و الخير بدلاله ينصبها و حجه يظهرها فلا بد من أن يجيبوا بلا ف «قُلْ» أنت لهم «اللَّهُ» هو الذى «يَهْدِي لِلْحَقِّ» إلى طريق الرشاد يقال هديت إلى الحق و هديت للحق بمعنى واحد «أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ» معناه أفمن يهدى غيره إلى طريق التوحيد و الرشد «أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ» أمره و نهيه «أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي» أحدا «إِلَّا أَنْ يُهْدَى» أو لا يهتدى هو إلا أن يهدى و الأصنام لا تهتدى و لا تهدى أحدا و إن هديت لأنها موات من حجاره و نحوها و لكن الكلام نزل على أنها إن هديت اهتدت لأنهم لما اتخذوها آلهه عبر عنها كما يعبر عن من يعقل و وصفت بصفه من يعقل و إن لم يكن فى الحقيقه كذلك ألا ترى إلى قوله سبحانه «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» و قوله «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ» و إنما هن موات ألا ترى أنه قال «فَادْعُوهُمْ فَلْيَسِّرْ تَجِيبُوا لَكُمْ» «أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا» الآيه و كذلك قوله «إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ» فأجرى عليه اللفظ كما يجرى على من يعلم و على هذا فقوله «إِلَّا أَنْ يُهْدَى» إلا بمنزله حتى فكأنه قال أمن لا يهتدى حتى يهدى أم من لا يعلم حتى يعلم و من لا يستدل على شىء حتى يدل عليه و إن كان لو دل أو علم لم يستدل و لم يعلم و لو هدى لم يهتد بين الله سبحانه بذلك جهلهم و قله تمييزهم فى تسويتهم من لا يعلم و لا يقدر بالله القادر و العالم و قال البلخى لا يهدى و لا يهتدى بمعنى واحد يقال هديته فهدى أى اهتدى و قيل إن المراد بذلك الملائكه و الجن لأنهم يهتدون إذا هدوا و قيل المراد به الرؤساء و المضلون الذين يدعون إلى الكفر و قيل إن المعنى فى قوله «لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى» لا يتحرك إلا أن يحرك و لا ينتقل إلا أن ينقل كقول الشاعر:

" حيث تهدى ساقه قدمه "

أى يحمل و قيل معناه إلا أن يركب الله فيه آله التمييز و الهدايه و يرزقه فهما و عقلا فإن هدى حينئذ اهتدى «فَمَا لَكُمْ» قال الزجاج هذا كلام تام كأنه قال أى شىء لكم فى عبادته من لا يضر و لا ينفع «كَيْفَ تَحْكُمُونَ» هذا تعجيب من حالهم أى كيف تقضون بأن هذه الأصنام آلهه و أنها تستحق

العباده وقيل كيف تحكمون لأنفسكم بما لا توجه الحجه ولا تشهد بصحته الأدله «وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا» أى ليس يتبع أكثر هؤلاء الكفار إلا ظنا الظن الذى لا يجدى شيئا من تقليد آباءهم ورؤسائهم «إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» لأن الحق إنما ينتفع به من علمه حقا وعرفه معرفه صحيحه والظن يكون فيه تجويز أن يكون المظنون على خلاف ما ظن فلا يكون مثل العلم «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» من عباده غير الله تعالى فيجازيهم عليه وفيه ضرب من التهديد.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٣٧ الى ٤٠]

إشاره

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)

اللغه

القرآن عباره عن هذا الكلام الذى هو فى أعلى طبقات البلاغه مع حسن النظام والجزاله، والتفصيل والتقسيم والتميز نظائر و ضده التليس والتخليط والسوره جمله منزله محيطه بآيات الله كإحاطه سور البناء بالبناء والاستطاعه حاله للحي تنطاع بها الجوارح للفعال وهى مأخوذه من الطوع والقدرة مأخوذه من القدر فهى معنى يمكن أن يوجد بها الفعل وألا يوجد لتقصير قدره عن ذلك المعنى.

الإعراب

«وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ» أى لأن يفترى ويجوز أن يكون

المعنى ما كان هذا القرآن افتراء فيكون مصدرا فى موضع نصب بأنه خبر كان و تصديق عطف عليه أى و لكن كان تصديق الذى بين يديه «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» أم هذه هى المنقطعه و تقديره بل أ يقولون و كيف فى موضع نصب على أنه خبر كان.

المعنى

ثم رد الله سبحانه على الكفار قولهم أنت بقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ يَدَّبُّهُ و قولهم إن النبى ص افترى هذا القرآن فقال «وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى» أى افتراء «مِنْ دُونِ اللَّهِ» فأقام أن مع الفعل مقام المصدر بل هى وحى من الله و متلقى منه «وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» من الكتب كما قال فى موضع آخر مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ* و هذه شهاده من الله بأن القرآن صدق و شاهد لما تقدم من التوراه و الإنجيل و الزبور بأنها حق و من وجه آخر هو شاهد لها من حيث إنه مصداق لها على ما تقدمت البشاره به فيها و قيل معناه تصديق الذى بين يديه فى المستقبل من البعث و النشور و الحساب و الجزاء «وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ» أى تبين المعانى المجمله فى القرآن من الحلال و الحرام و الأحكام الشرعيه و قيل معناه و بيان الأدله التى تحتاجون إليها فى أمور دينكم «لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أى لا شك فيه أنه نازل من عند الله و أنه معجز لا يقدر أحد على مثله و هذا غايه فى التحدى «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» هذا تقرير على موضع الحججه بعد مضى حجه أخرى و تقديره بل أ يقولون افتراه هذا فألزمهم على الأصل الفاسد إمكان أن يأتوا بمثله و «قُلْ» لهم «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» أى مثله فى البلاغه لأنكم من أهل لسانه فلو قدر على ذلك لقدرتم أنتم أيضا عليه فإذا عجزتم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من كلام البشر و أنه منزل من عند الله عز اسمه و قيل «بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» أى بسوره مثل سوره منه و قال مثله لأنه إنما التمس من هذا شبه الجنس «وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أى و ادعوا من قدرتم عليه من دون الله و استعينوا به للمعاضده على المعارضه بسوره مثله «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فى أن هذا القرآن مفترى من دون الله و هذا أيضا غايه فى التحدى و التعجيز «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ» أى بما كذبوا و لم يعلموه من جميع وجوهه لأن فى القرآن ما يعلم المراد منه بدليل و يحتاج إلى الفكر فيه و الرجوع إلى الرسول فى معرفه مراده و ذلك مثل المتشابهة للكفار لما لم يعرفوا المراد بظاهره كذبوا به و قيل معناه بل كذبوا بما لم يحيطوا علما بكيفيه نظمه و ترتيبه و هذا كما أن الناس يعرفون ألفاظ الشعر و الخطب و معانيها و لا يمكنهم إبداعها لجهلهم بنظمها و ترتيبها و قال الحسن معناه بل كذبوا بالقرآن من غير علم ببطلانه و قيل معناه بل كذبوا بما فى القرآن من الجنه و النار و البعث و النشور و الثواب و العقاب «وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» أى لم يأتهم بعد حقيقه ما وعد فى الكتاب مما يؤول إليه أمرهم من العقوبه و قيل معناه إن فى القرآن أشياء لا يعلموه هم و لا- يمكنهم معرفته إلا بالرجوع إلى

النبي ص فلم يرجعوا إليه و كذبوا به فلم يأتهم تفسيره و تأويله فيكون معنى الآية بل كذبوا بما لم يدركوا علمه من القرآن و لم يأتهم تفسيره و لو راجعوا فيه رسول الله ص لعلموه و

روى عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال إن الله خص هذه الأمة بآيتين من كتابه أن لا يقولوا إلا ما يعلمون و أن لا يردوا ما لا يعلمون ثم قرأ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ الْآيَةَ و قرأ «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ» الْآيَةَ

و قيل أن من هنا أخذ

أمير المؤمنين على (عليه السلام) قوله الناس أعداء ما جهلوا

و أخذ

قوله قيمه كل امرئ ما يحسنه

من قوله عز و جل «فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» و أخذ

قوله تكلموا تعرفوا

من قوله وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ «كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أى مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم السالفه رسلها «فَانظُرْ» يا محمد «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ» أى كما كان عاقبه أولئك الهلاك كذلك يكون عاقبه هؤلاء ثم أخبر سبحانه أن من جمله هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن و نسبوه إلى الافتراء من سيؤمن به فى المستقبل و يصدق بأنه من عند الله و منهم من يموت على كفره فقال «وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ» و أراد سبحانه أنه إنما لا يهلكهم فى الحال لما يعلم فى تبقيتهم من الصلاح و قيل معناه و منهم من يؤمن بالقرآن فى نفسه و يعلم صحته إلا أنه يعاند و يظهر من نفسه خلاف ما يعلمه و منهم من هو شاك فيه فكأنه قال و منهم معاندون و منهم شاكون «وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ» أى بمن يدوم على الفساد و يعلم من يتوب.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٤١ الى ٤٤]

اشاره

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

المعنى

ثم خاطب سبحانه نبيه ص فقال «وَ إِنْ كَذَّبُوكَ» يا محمد و لم يصدقوك

و ردوا عليك قولك «فَقُلْ» لهم «إِلَى عَمَلِي» فَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَوْبَالَهُ عَلَيَّ «وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ» أَي و لَكُمْ جِزَاءُ عَمَلِكُمْ «أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ» نَظِيرُهُ قَوْلُهُ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ وَ هَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى كَقَوْلِهِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ وَ نَحْوَهُ وَ قِيلَ إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ وَ قِيلَ أَنَّهُ لَا تَنَافِي بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ آيَةِ الْقِتَالِ لِأَنَّهَا بَرَاءَةٌ وَ وَعِيدٌ وَ ذَلِكَ لَا يَنَافِي الْجِهَادَ «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» مَعْنَاهُ وَ مِنْ جَمَلِهِ هُوَ لِأَنَّ الْكُفْرَانَ مِنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ وَ الْاسْتِمَاعُ طَلَبُ السَّمْعِ فَهَمَّ كَانُوا يَطْلُبُونَ السَّمْعَ لِلرَّدِّ لِأَنَّ فَهْمَهُمْ فَلِذَلِكَ لَزِمَهُمُ الدَّمُ فَإِنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ كَانُوا صَمًّا لَمْ يَسْتَمِعُوهُ حَيْثُ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ «أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ» هَذَا خَطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِسْمَاعِ الصَّمِّ «وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ» قَالَ الزَّجَّاجُ مَعْنَاهُ وَ لَوْ كَانُوا جَهَالًا وَ هَذَا مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

" أَصَمُّ عَمَّا سَاءَ سَمِيعٌ "

«وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ» أَي وَ مِنْ جَمَلَتِهِمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ فَلَمْ يَخْبِرْ بِلَفْظِ الْجَمْعِ هُنَا لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى الْفِعْلِ وَ قَالَ «مَنْ يَسْتَمِعُونَ» فَأَخْبَرَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ حَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى أَي يَنْظُرُ إِلَى أَفْعَالِكَ وَ أَقْوَالِكَ لَا نَظَرَ الْحَقِيقَةَ وَ الْعِبْرَةَ بَلْ نَظَرَ الْعَادَةَ فَلَا يَنْتَفِعُ بِنَظَرِهِ «أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ» أَي فَكَمَا أَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَبْصُرَ الْعُمَى فَتَنْفَعَهُمْ بِهِ كَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَنْفَعَهُمْ بِمَا تَأْتِي بِهِ مِنَ الْأَدْلَةِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَ لَا يَطْلُبُ الْإِنْتِفَاعَ بِهَا وَ قَوْلُهُ «أَفَأَنْتَ» اسْتِفْهَامُ الْمُرَادِ بِهِ النَّفْيُ وَ قِيلَ إِنْ مَعْنَى الْآيَتَيْنِ وَ مِنْهُمُ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَى كَلَامِكَ اسْتِمَاعَ الطَّعْنِ وَ التَّعَنُّتِ وَ يَنْظُرُ إِلَى أَدْلَتِكَ نَظَرَ الطَّاعِنِ الْقَادِحِ فِيهَا الْمَكْذُوبَ بِهَا الرَّادِّ عَلَيْهَا فَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَنْفَعَهُمْ بِمِثْلِ هَذَا الْاسْتِمَاعِ وَ النَّظَرِ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» قَدْ تَمَدَّحَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ شَيْئًا بِأَنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَ جِزَاءَ طَاعَاتِهِ وَ لَكِنَّهُمْ يَنْقُصُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ يَظْلِمُونَهَا بِارْتِكَابِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْقَبَائِحِ وَ الْمَعْنَى هُنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَمْنَعُ أَحَدًا الْإِنْتِفَاعَ بِمَا كَلَّفَهُمُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَ الْأَدْلَةِ وَ لَكِنَّهُمْ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِتَرْكِ النَّظَرِ فِيهِ وَ الْاسْتِدْلَالِ بِهِ وَ تَقْوِيَتِهِمْ أَنْفُسَهُمُ الثَّوَابَ عَلَيْهَا وَ إِدْخَالَهَا عَلَيْهِمُ الْعِقَابَ فَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَفْعَلُ الظُّلْمَ فَبَطُلَ قَوْلُ الْمُجْبِرِ فِي إِضَافَةِ كُلِّ ظُلْمٍ إِلَى خَلْقِهِ وَ إِرَادَتِهِ.

النظم

قِيلَ فِي اتِّصَالِ الْآيَةِ الْأُولَى بِمَا قَبْلَهَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا بَيَّنَّ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ وَ النُّبُوتِ فَعَانَدُوا وَ كَذَّبُوا أَمْرًا فِيمَا بَعْدَ بَقْطَعِ الْعَصْمَةِ عَنْهُمْ وَ الْوَعِيدَ لَهُمْ وَ أَمَّا الْآيَةُ الْآخِرَةُ وَ هِيَ قَوْلُهُ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا» فَالْوَجْهُ فِي اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا أَنَّهَا تَتَّصِلُ بِقَوْلِهِ «فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ» يَعْنِي أَنَّهُمْ اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ الْهَلَاكَ وَ الْعَذَابَ بِأَفْعَالِهِمْ وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ

ص: ١٧٠

وقيل إنها اتصلت بقوله «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ» فكانه قال إن الله لا يمنعهم الانتفاع بما كلفهم بل مكنهم و بين لهم و هداهم و أزاح علتهم و لكن ظلموا هم أنفسهم بترك الانتفاع به عن الجبائي و أبي مسلم و قيل أنه لما تقدم ذكر الوعد و الوعيد بين سبحانه أنه لا يظلمهم أى لا ينقص من حسناتهم و لا يزيد فى سيئاتهم.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٤٥ الى ٤٧]

إشارة

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)

القرءاءة

قرأ حفص عن عاصم «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ» بالياء و الباقون بالنون.

الحجج، و الإعراب

قال أبو على يحتمل قوله «كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ» ثلاثه أوجه (أحدها) أن يكون صفة (و الآخر) أن يكون صفة للمصدر المحذوف (و الثالث) أن يكون حالا من الضمير فى نحشروهم فإذا جعلته صفة ليوم احتمال ضربين من التأويل (أحدهما) أن يكون التقدير كأن لم يلبثوا قبله إلا ساعه فحذفت الكلمه لدلاله المعنى عليها و مثل ذلك فى حذف هذا النحو منه قوله فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسَيْنَهُنَّ كَوَهْنًا بِمَعْرُوفٍ أَى أَمْسَكُوهُنَّ قَبْلَهُ وَ كَذَلِكَ قَوْلُهُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ* أَى يَتَرَبَّصْنَ بَعْدَهُمْ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا قَبْلَهُ فَحَذَفَ الْمُضَافَ وَ أَقِيمَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ مَقَامَهُ ثُمَّ حَذَفَ الْهَاءَ مِنَ الصِّفَةِ كَقَوْلِكَ النَّاسَ رِجَالًا رَجُلًا أَهْتَمَّ وَ رَجُلًا أَكْرَمْتَهُمْ وَ مِثْلَ هَذَا فِي حَذْفِ الْمُضَافِ وَ إِقَامَةِ الصِّفَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ قَوْلُهُ «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ وَقَعَ بِهِمْ» التَّقْدِيرُ وَ جَزَاؤُهُ وَقَعَ بِهِمْ فَحَذَفَ الْمُضَافَ وَ إِنْ جَعَلْتَهُ صِفَةً لِلْمَصْدَرِ كَانَ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الَّذِي وَصَفْنَاهُ وَ مِثْلُهُ وَ إِنْ جَعَلْتَهُ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى حَذْفِ شَيْءٍ مِنَ اللَّفْظِ لِأَنَّ الذِّكْرَ مِنَ الْحَالِ قَدْ عَادَ إِلَى ذِي الْحَالِ وَ الْمَعْنَى نَحْشَرُهُمْ مِثَابَهُهُ أَحْوَالُهُمْ أَحْوَالٍ مِنْ لَمْ

يلبث إلا ساعه و إما يوم نحشرمه فإنه يصلح أن يكون معمولاً لأحد شيئين (أحدهما) أن يكون معمول يتعارفون (و الآخر) أن يكون يوم نحشرمه لما دل عليه قوله «كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا» فإذا جعلته معمولاً لقوله «يَتَعَارَفُونَ» انتصب يوم على وجهين (أحدهما) أن يكون ظرفاً معناه يتعارفون في هذا اليوم (و الآخر) أن يكون مفعولاً- على السعه على قوله يا سارق الليله أهل الدار و معنى يتعارفون يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون المعنى مده إماتتهم التي وقع حشرهم بعدها و حذف المفعول للدلاله عليه كما حذف في مواضع كثيره و عدى تفاعل كما يعدى في قوله تخاطأت النبل أحشاه أو يكون أعمل الفعل الذي دل عليه يتعارفون ألا- ترى أنه قد دل على يستعملون و يتعرفون و تعرفوا مده اللبث هاهنا كما تعرفوها في قوله قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ و الآخر في التعارف ما جاء من قوله وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فتعارفهم يكون على أحد هذين الوجهين فعلى هذا يكون قوله و يوم نحشرمه معمول يتعارفون و الآخر أن يكون يوم نحشرمه معمول ما دل عليه قوله «كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا» ألا ترى أن المعنى تشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث فيعمل في الظرف هذا المعنى و لا يمتنع المعنى من أن يعمل في الظرف و أن تقدم الظرف عليه كقولهم أكل يوم لك ثوب و إذا حملته على هذا لم يجز أن يكون صفة للمصدر لأن الموصوف الذي هو المصدر موضعه بعد الفعل تقديره يوم نحشرمه حشراً كأن لم يلبثوه أو لم يلبثوا قبله و الصفة لا يتقدم عليها ما تعمل فيه و لا يجوز أيضاً أن تجعله صفة ليوم على هذا لأن الصفة لا تعمل في الموصوف ألا ترى أن الصفة شرح للموصوف كما أن الصلة لا تعمل في الموصول لذلك فإن قلت فإذا قدرت كأن لم يلبثوا على تقدير الحال من الضمير هل يجوز أن يكون يوم معمولاً له فإن ذلك لا يجوز لأن العامل في الحال يحشر أو نحشر و قد أضيف اليوم إليه و لا يجوز أن يعمل في المضاف المضاف إليه و لا ما يتعلق بالمضاف إليه لأن ذلك يوجب تقديمه على المضاف ألا ترى أنه لم يجز القتال زيدا حين يأتي و إذا جعلت يتعارفون العامل في يوم نحشرمه لم يجز أن يكون صفة ليوم على أنك كأنك و صفت اليوم بقوله «كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا» و يتعارفون فوصفت يوم نحشرمه بجملتين لم يجز أن يكون معمولاً لقوله «يَتَعَارَفُونَ» لأن الصفة لا تعمل في الموصوف و جاز وصف اليوم بالجمل و إن أضيف لأن الإضافة ليست بمحضه فلم تعرفه و يدل على النون في نحشرمه قوله سبحانه وَ حَشَرْنَاَهُمْ وَ قَوْلِهِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى و يدل على الياء قوله لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ كِلِ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَجْرِي مَجْرَى الْآخِرِ.

ثم بين سبحانه حالهم يوم الجمع فقال «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ» أى يجمعهم من كل مكان إلى الموقف «كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا» فى الدنيا «إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ» أى كأنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعه من النهار و معناه أنهم استقلوا أيام الدنيا فإن المكث فى الدنيا و إن طال كان بمنزله مكث ساعه فى جنب الآخرة عن الضحاك و جماعه و قيل استقلوا أيام مقامهم فى الدنيا لقله انتفاعهم بأعمارهم فيها فكأنهم لم يلبثوا إلا يوما فيها لقله فائدتها و قيل إنهم استقلوا مده لبثهم فى القبور عن ابن عباس و قد دل الله سبحانه بذلك على أنه لا- ينبغى لأحد أن يغتر بطول ما يأمله من البقاء فى الدنيا إذا كان عاقبته إلى الزوال «يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ» معناه أن الخلق يعرف بعضهم بعضا فى ذلك الوقت كما كانوا فى الدنيا كذلك و قيل معناه يعرف بعضهم بعضا ما كانوا عليه من الخطأ و الكفر قال الكلبي يتعارفون إذا خرجوا من قبورهم ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب و يتبرأ بعضهم من بعض «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ» أى بقاء جزاء الله «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» للحق قال الحسن معناه خسروا أنفسهم لأنهم لم يكونوا مهتدين فى الدنيا و لو كانوا مهتدين فى الدنيا لم يخسروا أنفسهم و معناه أنهم خسروا الدنيا حين صرفوها إلى المعاصى و خسروا نعيم الآخرة حين فوتوها على أنفسهم بمعاصيهم «وَأِمَّا نُرِيَنَّكَ» يا محمد فى حياتك «بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ» أى نعد هؤلاء الكفار من العقوبة فى الدنيا قالوا و منها وقعه بدر «أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» أى نميتك قبل أن ينزل ذلك بهم و ينزل ذلك بهم بعد موتك «فَالِئِنَّا مَرْجِعُهُمْ» أى إلى حكمنا مصيرهم فى الآخرة فلا يفوتونا و قيل إن الله سبحانه وعد نبيه ص أن ينتقم له منهم إما فى حياته أو بعد وفاته و لم يحده بوقت فقال إن ما وعدناه حقا لا محاله «ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ» أى عليم بأفعالهم حافظ لها فهو يوفيهم عقاب معاصيهم «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ» أى لكل جماعه على طريقه واحده و دين واحد كأمه محمد و أمه موسى و عيسى (عليه السلام) رسول بعثه الله إليهم و حملة الرسالة التى يؤديها إليهم «فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ» هاهنا حذف و إضمار و التقدير فإذا جاء رسولهم و بلغ الرسالة فكذبه قومه و صدقه آخرون «فَضِي بَيْنَهُمْ» فيهلك المكذبون و ينجو المؤمنون و قيل معناه فإذا جاء رسولهم يشهد عليهم يوم القيامة عن مجاهد و قيل فى الدنيا بما أذن الله له من الدعاء عليهم قضى بينهم أى فصل بينهم الأمر على الحتم «بِالْقِسْطِ» أى بالعدل «وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ» أى لا ينقصون عن ثواب طاعتهم و لا يزدادون فى عقاب سيئاتهم.

إشارة

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْجِدُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)

اللغة

الوعد خبر بما يعطى من الخير والوعيد خبر بما يعطى من الشر هذا إذا فصل فإن أجمل وقع الوعد على الجميع والنفع هو اللذة والسرور وما أدى إليهما أو إلى واحد منهما والضرر الألم والغم وما أدى إليهما أو إلى واحد منهما والأجل هو الوقت المضروب لوقوع أمر كأجل الدين وأجل الإنسان.

الإعراب

متى سؤال عن الزمان وأين سؤال عن المكان. بيانا منصوب على الظرف وقوله «ما ذا يَسْتَعْجِلُ» يجوز أن يكون ما في موضع رفع وذلك إذا كان ذا بمعنى الذى والمعنى ما الذى يستعجل منه المجرمون فيكون ما مبتدأ والذى خبره ويجوز أن يكون فى موضع نصب وذلك إذا جعلت ما وذا اسما واحدا والمعنى أى شىء يستعجل منه المجرمون من العذاب أو من الله فيكون مفعول يستعجل وجواب إن أتاكم محذوفا وتقدير الكلام أ رأيتم ما ذا يستعجل من العذاب المجرمون إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا أو وقع أن أتاكم فى وسط الكلام موقع الاعتراض ومعنى ما ذا يستعجل هاهنا الإنكار أى ليس فى العذاب شىء يستعجل به وجاء فى صيغته الاستفهام لأنه لا جواب لصاحبه يصح له وقوله «ثُمَّ» دخلت ألف الاستفهام على ثم التى للعطف لتدل على أن معنى الجملة الثانية بعد الأولى مع أن للألف صدر الكلام والعامل فى إذا قوله «آمَنْتُمْ بِهِ» وقوله «آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» تقديره آلَانَ به تؤمنون.

المعنى

لما وعد سبحانه المكذبين بين عقبيه أنهم إذا استعجلوا ذلك على سبيل التكذيب والرد فقال «وَيَقُولُونَ» أى ويقول هؤلاء المشركون «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ» الذى تعدنا به من البعث وقيام الساعة وقيل من العذاب «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فى ذلك «قُلْ» يا محمد

جوابا لهم «لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً» أى لا أقدر لنفسي على ضرر أو نفع «إلا ما شاء الله» أن يملكنى أو يقدرنى عليه فكيف أقدر لكم لأنى إذا لم أقدر على ذلك كنت عن إنزال العذاب و عن معرفه وقته أعجز أو يكون معناه إذا لم أملك لنفسي شيئا من ذلك إلا ما ملكنيه الله تعالى فكيف أملك تقديم القيامة و تعجيل العقوبه قبل الوقت المقدر له «لكل أمه أجل» أى لكل أمه فى عذابها على تكذيب الرسل وقت معلوم «إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعه ولا يستقدمون» فلا يتأخرون عن ذلك الوقت و لا يتقدمون عليه بل يهلكهم فى ذلك الوقت بعينه «قل» يا محمد لهؤلاء المكذبين المستعجلين بالعذاب «أرأيتم» أى أعلمتم «إن أتاكم عذاب الله «بياتاً» أى ليلاً «أو نهاراً» ما ذا يستعجل منه المجرمون» و هذا استفهام معناه التقطيع و التهويل كما يقول الإنسان لمن هو فى أمر يستوخم عاقبته ما ذا تجنى على نفسك و هذا جواب لقولهم متى هذا الوعد و

قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام) يريد بذلك عذاباً ينزل من السماء على فسقه أهل القبلة فى آخر الزمان و نعوذ بالله منه

«أثم إذا ما وقع آمنتم به» هذا استفهام معناه الإنكار و تقديره أ حين وقع بكم العذاب المقدر الموقت آمنتم به أى بالله فى وقت اليأس و قيل بالقرآن و قيل بالعذاب الذى كنتم تنكرونه فيقال لكم الآن تؤمنون و قد اضطررتم لحلوله «وقد كنتم به» أى بالعذاب «تستعجلون» من قبل مكذبين مستهزئين و قال الحسن معناه ثم إنكم ستؤمنون به عند وقوع العذاب فلا ينفعكم إيمانكم و نظيره آمان و قد عصيت قبيل «ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد» أى ثم يقال يوم القيامة للذين ظلموا أنفسهم ذوقوا عذاب الدوام فى الآخرة بعد عذاب الدنيا «هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون» معناه أنكم قد دعيتم و هديتم و بين لكم الأدله و أزيحت عنكم العله فأبيتم إلا التماذى فى الكفر و الانهماك فى الغى فذوقوا جزاء أعمالكم و إنما شبهوا بالذائق و هو الذى يطلب الطعم بالفم لأنه أشد إحساساً و قيل لأنهم يتجرعون العذاب بدخوله أجوافهم.

اشاره

وَيَسِّرْ لِنَبِيِّنَاكَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

اللغة

الاستنباء طلب النبا الذي هو الخبر و الافتداء إيقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه به يقال فداه يفديه فديه و فداء و افتداه افتداه و فاداه مفاداه.

الإعراب

إلا كلمه تستعمل فى التنبيه و أصلها لا دخل عليها حرف الاستفهام تقريراً و تذكيراً فصارت تنبيهاً و كسرت إن بعد ألا لأن ألا يستأنف ما بعدها لينبه بها على معنى الابتداء و لذلك وقع بعدها الأمر و الدعاء كقول امرئ القيس:

" ألا أنعم صباحاً أيها الظلل البالى "

المعنى

«وَيَسِّرْ لِنَبِيِّنَاكَ» يا محمد أى يطلبون منك أن تخبرهم «أَحَقُّ هُوَ» أى أحق ما جئت به من القرآن و النبوه و الشريعة و قيل أحق ما تعدنا من البعث و القيامة و العذاب عن الجبائى «قُلْ» يا محمد «إِي وَ رَبِّي» أى نعم و حق الله «إِنَّهُ لَحَقُّ» لا شك فيه «وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» أى بسابقين فائتين و هذا الاستخبار يحتمل أن يكون إنما وقع منهم على وجه التعريف و الاستفهام و يحتمل أن يكون وقع على وجه الاستهزاء «وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ» أى أشركت بالله عن ابن عباس و قيل ظلمت بكل ما يسمى ظلماً «مَا فِي الْأَرْضِ» من الأموال «لَافْتَدَتْ بِهِ» من هول ما يلحقها من العذاب «وَ أَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ» أى أخفوا الندامه أى أسرو الندامه رؤساء الضلاله من الأتباع و السفله و قيل أسروا الندامه أى أخلصوها و الندامه الحسره على ما كان يتمنى أنه لم يكن و قيل أسروا أى أظهروا عن أبى عبيده و الجبائى و قال الأزهري و هذا غلط لأن ما يكون بمعنى الإظهار يكون بالشين المنقطه من فوق «وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» أى فصل بينهم بالعدل «وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» فيما يفعل بهم من العقاب لأنهم جنوه على أنفسهم و

روى عن أبى عبد الله (عليه السلام) أنه قال إنما أسروا الندامه و هم فى النار كراهيه لشماته الأعداء على أنفسهم

«أَلَا- إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى له ملك السماوات و الأرض و ما فيهما فلا يقدر أحد على منعه من إحلال العقاب بمملوكه المستحق له «أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ» بإحلال العقاب بالمجرمين «حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» صحه ذلك لجهلهم به تعالى و بصحه ما أتى به النبى ص «هُوَ يُحْيِي» أى يحيى الخلق بعد كونهم أمواتاً «وَ يُمِيتُ» أى يميتهم بعد أن كانوا أحياء «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» يوم القيامة فيجازيهم على أعمالهم قال الجبائى و فى هذه

الآية دلالة على أنه لا يقدر على الحياة إلا الله تعالى لأنه تعالى تمدح بكونه قادرا على الإحياء والإماتة.

النظم

وجه اتصال الآية الأولى بما قبلها أن قوله «وَيَسْتَنْبِئُونَكَ» عطف على «يَسْتَعْجِلُونَكَ» يستعجلونك و يقولون متى تكون القيامة والعذاب أو يستخبرونك أ حق ما تقول من كونه و وجه اتصال قوله «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» بما قبله اتصال الإثبات بالنفي و تقديره ليس للظالم ما يفتدى به بل جميع الملك له تعالى و قيل أنه يتصل بما قبله بمعنى أن من يملك السموات والأرض يقدر على إيقاع ما توعد به و وجه اتصال قوله «أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» بما قبله أنه إذا خلق السموات والأرض لا للعبث بل لمنافع الخلق فلا يجوز عليه خلف الوعد و أيضا فإن من صفه الخالق أن يكون عالما لذاته غنيا غير محتاج والخلف كذب قبيح و لا بد للفعل من داع و الداعي إلى القبيح إما الجهل بقبحه أو الحاجة إليه فإذا لا يجوز الخلف عليه إذ لا داعي له إليه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

إشارة

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

القراءة

قرأ أبو جعفر و ابن عامر «فَلْيَفْرَحُوا» بالياء تجمعون بالتاء و

قرأ يعقوب بروايه رويس فلتفرحوا و تجمعون بالتاء فيهما جميعا و روى ذلك عن النبي ص

و أبي بن كعب و الحسن و في روايه زيد عن يعقوب فلتفرحوا بالتاء «يَجْمَعُونَ» بالياء و روى ذلك عن ابن عباس و قتاده و جماعه و الباقر بالياء فيهما جميعا.

الحجج

قال أبو على قوله «بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» الجار فيه يتعلق بمضمرة استغنى عن ذكره لدلاله ما تقدم عليه و هو قوله «قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» كما أن قوله «أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» قيل يتعلق الظرف فيه بمضمرة يدل عليه ما تقدم من الفعل و كذلك قوله «أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» به تَسْتَعْجِلُونَ» فأما قوله «فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» فإن الجار في قوله «فَبِذَلِكَ» يتعلق بفليفرحوا لأن هذا الفعل اتصل بالياء قال و فرحوا بها و قال و فرحت بما قد كان من سيديكما فأما الفاء في قوله «فَلْيَفْرَحُوا» فزياده يدل على ذلك أن المعنى فافرحوا بذلك و مثل هذه الآية

" و إذا هلكت فعند ذلك فاجزعى "

فالفاء فى قوله فاجزعى زياده كما كانت الفاء فى قوله «فَلْيَفْرَحُوا» زياده و لا تكون الزياده الأولى لأن الظرف إنما يتعلق باجزعى فأما من قرأ فلتفرحوا بالتاء فإنه اعتبر الخطاب الذى قبل و هو قوله «قَدْ جَاءَ تَكُمْ مَوْعِظَةٌ» و زعموا أنها فى حرف أبى فافرحوا قال أبو الحسن و زعموا أنها لغه و هى قليله نحو لنضرب و أنت تخاطب فأما من قرأ هو خير مما تجمعون بالتاء فعلى أنه عنى المخاطبين و الغيب جميعا إلا- أنك غلبت المخاطبه على الغيبه و من قرأ بالياء كان المعنى فافرحوا بذلك أيها المؤمنون أى أفرحوا بفضل الله و رحمته فإن ما آتاكموه من الموعظه شفاء لما فى الصدور تلج اليقين النفس بالإيمان و سكون النفس إليه خير مما يجمعه غيركم من أعراض الدنيا ممن فقد هذه الحال التى حزتموها.

المعنى

لما تقدم ذكر القرآن و ما فيه من الوعد و الوعيد عقبه سبحانه بذكر جلاله موقع القرآن و عظم محله فى باب الأدله فقال «يا أَيُّهَا النَّاسُ» خطاب لجميع الخلق و تنبيه لهم و يقال أنه خطاب لقريش «قَدْ جَاءَ تَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» يعنى القرآن و الموعظه بيان ما تجب أن يحذر عنه و يرغب فيه و قيل هى ما يدعو إلى الصلاح و يزجر عن الفساد «وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ» الشفاء معنى كالدواء لإزالة الداء فداء الجهل أضمر من داء البدن و علاجه أعسر و أطبأؤه أقل و الشفاء منه أجل و الصدر موضع القلب و هو أجل موضع فى البدن لشرف القلب «وَ هُدًى» أى و دلاله تؤدى إلى معرفه الحق «وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» أى و نعمه لمن تمسك به و عمل بما فيه و خص المؤمنين بالذكر و إن كان القرآن موعظه و رحمه لجميع الخلق لأنهم الذين انتفعوا به و وصف الله سبحانه القرآن فى هذه الآيه بأربع صفات بالموعظه و الشفاء لما فى الصدور و بالهدى و الرحمه «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» معناه قل يا محمد بإفضال الله و بنعمته فإنه يجوز إطلاق الفاضل على الله تعالى فوضع الفضل فى موضع الإفضال كما وضع النبات فى قوله «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا» فى موضع الإنبات و قيل أن الفضل إلى الله بمعنى الملك كما يضاف العبد إليه بأنه مالك له «فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» قال الزجاج قوله «فَبِذَلِكَ» بدل من قوله بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ و هو يدل على أنه يعنى به القرآن أى فبذلك فليفرح الناس لأنه خير لكم يا أصحاب محمد مما يجمعه هؤلاء الكفار من الأموال و معنى الآيه قل لهؤلاء الفرحين بالدنيا المعتدين بها الجامعين لها إذا فرحتم بشىء فافرحوا بفضل الله عليكم و رحمته لكم يا نزال هذا القرآن و إرسال محمد إليكم فإنكم تحصلون بهما نعيما دائما مقيما هو خير لكم من هذه الدنيا الفانيه و قيل فضل الله هو القرآن

و رحمته الإسلام عن أبي سعيد الخدرى و الحسن و

روى أنس عن النبي ص أنه قال من هداه الله للإسلام و علمه القرآن ثم شكى الفقيه كتب الله عز و جل الفقر بين عينيه إلى يوم القيامة ثم تلا «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ» الآية

و قيل فضل الله الإسلام و رحمته القرآن عن قتاده و مجاهد و غيرهما

قال أبو جعفر الباقر (عليه السلام) فضل الله رسول الله ص و رحمته على بن أبى طالب (عليه السلام)

و رواه الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٥٩ الى ٦١]

إشارة

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا- قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَ مَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا- تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)

القراءة

قرأ الكسائي و ما يعزب بكسر الزاي هنا و فى سيا و هو قراءه الأعمش و يحيى بن وثاب و قرأ الباقون بضم الزاي و قرأ حمزه و خلف و يعقوب و سهل و لا أصغر و لا أكبر بالرفع و الباقون بفتحها.

الحج

«يَعْزُبُ» و يعزب لغتان صحيحتان و من فتح الزاي من «أَصْغَرَ» و «أَكْبَرَ» فلأن أفعال فى الموضعين فى موضع جر على تقدير ما يعزب عن ربك من مثقال ذره و لا مثقال أصغر من ذلك و لا أكبر و إنما فتح لأنه غير منصرف و إنما منع الصرف لأن الفعل إذا اتصل به "من" كان صفة و إذا كان صفة لم ينصرف فى النكرة و من رفع حملة على موضع الجار و المجرور الذى هو مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فإنه فى موضع رفع كما كانا فى قوله وَ كَفَى بِاللَّهِ وَ يجوز رفعه من جهه

أخرى على الابتداء و يكون الخبر قوله «إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ».

اللغة

الشأن اسم يقع على الأمر و الحال تقول ما شأنك و ما بالك و ما حالك و الإفاضه الدخول فى العمل على جهه الانصباب إليه مأخوذ من فيض الإناء إذا انصب الماء من جوانبه و منه قوله أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ أى تفرقتم كتفرق الماء الذى ينصب من الإناء و العزوب الذهاب عن المعلوم و ضده حضور المعنى للنفس و تعزب إذا انفرد عن أهله.

الإعراب

ما فى قوله «ما أَنْزَلَ اللَّهُ» فى موضع نصب بأنزل و يكون بمعنى أى فى الاستفهام و يحتمل أن يكون ما بمعنى الذى فىكون نصبا برأيتم.

المعنى

ثم أمر سبحانه نبيه ص أن يخاطب كفار مكة فقال «قُلْ» يا محمد لهم «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ» فجعله حلالا «فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا» أى جعلتم بعضه حراما و بعضه حلالا يعنى ما حرّموا من السائبه و البحيره و الوصيله و نحوها مما حرّموا من زروعهم و إنما قال «أَنْزَلَ اللَّهُ» لأن أرزاق العباد من المطر الذى ينزله الله «قُلْ» يا محمد لهم «أَلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» و معناه أنه لم يأذن لكم فى شىء من ذلك بل أنتم تكذبون فى ذلك على الله سبحانه «وَ مَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» معناه أى شىء يظن الذين يكذبون على الله أنه يصيبهم يوم القيامة على افتراءهم على الله أى لا ينبغى أن يظنوا أن يصيبهم على ذلك إلا العذاب الشديد و العقاب الأليم «إِنَّ اللَّهَ لَعَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» بما فعل بهم من ضرور الإنعام «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ» نعمه و يجحدونها و هذا الكلام خرج مخرج التقرير على افتراء الكذب و إن كان فى صوره الاستفهام و تقديره أى يؤدبهم افتراءهم الكذب إلى خير أم شر و قيل أن معنى قوله «لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» أنه لم يضيق عليهم بالتحريم كما ادعيتم ذلك عليه و قيل معناه أنه لدو فضل على خلقه بترك معاجله من افترى عليه الكذب بالعقوبه فى الدنيا و إمهاله إياهم إلى يوم القيامة ثم بين سبحانه أن إمهاله إياهم ليس لجهل بحالهم فقال «وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ» أى ما تكون أنت يا محمد فى حال من الأحوال و فى أمر من أمور الدين من تبليغ الرساله و تعليم الشريعة و غير ذلك «وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ» أى و ما تقرأ من الله من قرآن و قيل من الكتاب من قرآن و القرآن يقع على القليل و الكثير منه و قيل أن الهاء تعود إلى الشأن أى و ما تلو من الشأن من قرآن «وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا» أى و لا تعمل أنت و أمتك من عمل إلا كنا عالمين به شاهدين عليكم به «إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ» أى تدخلون فيه و تخوضون فيه «وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ» أى و ما يبعد و ما

يغيب عن علم ربك و رؤيته و قدرته «مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ» أى وزن نمله صغيره «فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ» من وزن نمله «وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» أى فى كتاب بينه الله فيه قبل أن خلقه و هو اللوح المحفوظ و قيل أراد به كتاب الحفظه الذى كتبه الملائكه السفرة و حفظوه و

قال الصادق (عليه السلام) كان رسول الله ص إذا قرأ هذه الآيه بكى بكاء شديدا.

النظم

قيل فى اتصال الآيه الأولى بما قبلها أنها اتصلت بقوله «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» فإذا قرءوا أنه الرزاق قيل لهم أ جعلتم ما رزقكم بعضه حراما و بعضه حلالا عن أبى مسلم و قيل لما وصف القرآن بأنه هدى و رحمه و أمرهم بالتمسك بما فيه عقبه بذكر مخالفتهم لما جاء فى القرآن و تحريمهم ما أحل الله.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٦٢ الى ٦٥]

اشاره

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَ لَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)

اللغه

الخوف و الفرع و الجزع نظائر و هو إزعاج القلب لما يتوقع من المكروه و الأمن ضده و الحزن غلظ الهم مأخوذ من الحزن و هى الأرض الغليظه و السرور ضده و البشرى الخبر مما يظهر سروره فى بشره الوجه و البشاره مثلها و العزه شده الغلبه من عزه يعزه إذا غلبه و منه قولهم إذا عز أخوك فهن يعنى إذا غلبك و لم تقاومه فلن له و عز الشىء يعز بفتح العين إذا اشتد و يعز بكسرها إذا صار عزيزا لا يوجد فكأنه اشتد وجوده.

الإعراب

«الَّذِينَ آمَنُوا» يحتمل موضعه ثلاثه أوجه من الإعراب (الأول) النصب على أنه صفة أولياء الله (و الثانى) الرفع على المدح (و الثالث) الرفع على الابتداء و خبره «لَهُمُ الْبُشْرَى» فإن جعلت «الَّذِينَ آمَنُوا» صفة لم تقف على يحزنون بل تقف على يتقون و إن

جعلته مبتدأ وقفت على يحزنون دون يتقون لأن لهم البشرى خبر عنهم و البشرى يرتفع بالظرف على الأقوال الثلاثة «و لا يحزنوك قولهم إن العزة لله جميعاً» كسرت أن للاستئناف بالتذكير لما ينفي الحزن و لا يجوز أن يكون كسرت لأنها وقعت بعد القول لأنه يصير حكاية عنهم و أن النبي ص يحزن لذلك و هذا كفر و يجوز فتحها على تقدير اللام كأنه قال و لا يحزنك قولهم لأن العزة لله جميعاً و قد غلظ القتيبي في هذا فزعم أن فتحها يكون كفراً و ليس الأمر كما ظنه فإنها إذا كانت معموله للقول لم يجوز و إذا تعلق بغير القول جاز سواء فتحت أو كسرت و مثل الفتح قول ذى الرمة:

فما هجرتك النفس يا مى أنها قلتك و لكن قل منك نصيبها

و لكنهم يا أملح الناس أولعوا بقول إذا ما جئت هذا جنيبها

و قال القتيبي عند ذكر هذه المسألة إذا قلت هذا قاتل أخى بالتنوين دل على أنه لم يقتل و إذا قلت هذا قاتل أخى بحذف التنوين دل على أنه قتل و هذا غلط بإجماع من النحويين لأن التنوين قد تحذف و أنت تريد الحال و الاستقبال قال الله تعالى هُدًى بَالِغِ الْكُفْبِهِ يَرِيدُ بِالْغَا الْكُفْبِهِ وَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ أَى سْتَدْوِقُ.

المعنى

«أَلَا- إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا- خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» بين سبحانه أن المطيعين لله الذين تولوا القيام بأمره و تولاهم سبحانه بحفظه و حياطته لا خوف عليهم يوم القيامة من العقاب «و لا- هُمْ يَحْزَنُونَ» أى لا- يخافون و اختلف فى أولياء الله فقيل هم قوم ذكرهم الله بما هم عليه من سيماء الخير و الإحبات عن ابن عباس و سعيد بن جبير و

قيل هم المتحابون فى الله ذكر ذلك فى خبر مرفوع

و قيل هم الذين آمنوا و كانوا يتقون و قد بينهم فى الآية التى بعدها عن ابن زيد و

قيل أنهم الذين أدوا فرائض الله و أخذوا بسنن رسول الله و تورعوا عن محارم الله و زهدوا فى عاجل هذه الدنيا و رغبوا فيما عند الله و اكتسبوا الطيب من رزق الله لمعايشهم لا يريدون به التفاخر و التكاثر ثم أنفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبه فأولئك الذين يبارك الله لهم فيما اكتسبوا و يتابون على ما قدموا منه لآخرتهم و هو المروى عن على بن الحسين (عليه السلام)

و قيل هم الذين توالى أفعالهم على موافقه الحق «الَّذِينَ آمَنُوا» أى صدقوا بالله و اعترفوا بوحدانيته «وَ كَانُوا يَتَّقُونَ» مع ذلك معاصيه «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ» فيه أقوال (أحدها) أن البشرى فى الحياه الدنيا هى ما بشرهم الله تعالى به فى

القرآن على الأعمال الصالحة ونظيره قوله «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» وقوله «يُشْرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ» الآية عن الزجاج والفراء (و ثانيها) أن البشارة في الحياه الدنيا بشاره الملائكه (عليه السلام) للمؤمنين عند موتهم ب ألا تخافوا ولا تحزنوا و أبشروا بالجنه عن قتاده و الزهري و الضحاك و الجبائي (و ثالثها)

أنها في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له و في الآخره بالجنه و هي ما يبشرهم الملائكه عند خروجهم من القبور و في القيامة إلى أن يدخلوا الجنه يبشرونهم بها حالا بعد حال و هو المروى عن أبي جعفر (عليه السلام) و روى ذلك في حديث مرفوع عن النبي ص

و

روى عقبه بن خالد عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال يا عقبه لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلا هذا الدين الذى أنتم عليه و ما بين أحدكم و بين أن يرى ما تقر به عينه إلا أن يبلغ نفسه إلى هذه و أوماً بيده إلى الوريد الخبر بطوله ثم قال أن هذا فى كتاب الله و قرأ «الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ» الآية

و قيل أن المؤمن يفتح له باب إلى الجنه فى قبره فيشاهد ما أعد له فى الجنه قبل دخولها «لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ» أى لا خلف لما وعد الله تعالى به من الثواب و لا خلاف فى قوله بوضع كلمه أخرى مكانها بدلا منها لأنها حق و الحق لا خلف فيه بوجه «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» أى ذلك الذى سبق ذكره من البشارة فى الحياه الدنيا و فى الآخره هى النجاه العظيمه التى يصغر فى جنبها كل شىء «وَ لَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ» ظاهره النهى و المراد به التسليه للنبي ص عن أقوالهم المؤديه و هو مثل قولهم لا رأيتك هاهنا أى لا تكن هاهنا فمن كان هاهنا رأيتك و كذلك المراد بالآيه لا تعبا بأذاهم فمن عبا به آذاهم «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» فيمنعهم منك بعزته و يدفع أذاهم عنك بقدرته و قيل معناه لا يحزنك قولهم إنك ساحر أو مجنون فسينصرك الله عليهم و سيدلهم و ينتقم منهم لك فإنه عزيز قادر عليه «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» يسمع أقوالهم و يعلم ضمائرهم فيجازيهم عليها و يدفع عنك شرهم و يرد كيدهم و ضرهم.

النظم

وجه اتصال الآيه الأولى بما قبلها أنه لما تقدم ذكر المؤمن و الكافر بين عقبيه أن أولياءه لا خوف عليهم و قيل لما ذكر أنه يحصى أعمال خلقه بشر من تولاها و ذكر ما أعد لهم و وجه اتصال قوله «وَ لَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ» بما تقدم أنه يتصل بقوله «وَ إِنَّ كَذَّبُوكَ» فلا يحزنك قولهم» و قل لى عملى و لكم عملكم و قيل أنه يتصل بما قبله فكأنه قال إذا كنت من أولياء الله و من أهل البشارة فلا ينبغى أن تحزن بطعن من يطعن عليك و وجه اتصال قوله «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» بما قبله أنه يسمع قولهم و يجازيهم فلا يحزنك ذلك.

ص: ١٨٣

اشاره

أَلَا- إِنَّ لِلَّهِ مَرْنٌ فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَرْنٌ فِى الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)

اللغة

الفرق بين الجعل و الفعل إن جعل الشىء يكون بإحداث غيره كجعل الطين خزفا و لا- يكون فعله إلا بإحداثه و الفرق بين الجعل و التغيير إن تغيير الشىء لا يكون إلا بتصويره على خلاف ما كان و جعله يكون بتصويره على مثل ما كان كجعل الإنسان نفسه ساكنا على استدامه الحال و إنما قال «وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا» و إنما يبصر فيه تشبيها و مجازا و استعاره فى صفة الشىء بسببه على وجه المبالغة كما يقال سر كاتم و ليل نائم و مثله قول جرير:

لقد لمتنا أم غيلان فى السرى و نمت و ما ليل المطى بنائم

و قال رؤبه:

"قد نام ليلى و تجلى همى".

المعنى

لما سلى الله سبحانه نبيه ص بقوله «وَ لَا يَخْرُصُكَ قَوْلُهُمْ» فإنهم لا يفوتوننى بين بعد ذلك ما يدل على صحته فقال «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَرْنٌ فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَرْنٌ فِى الْأَرْضِ» يعنى العقلاء و إذا كان له ملك العقلاء فما عداهم تابع لهم و إنما خص العقلاء تفخيما «وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ» يحتمل ما هاهنا وجهين (أحدهما) أن يكون بمعنى أى شىء فكأنه قال و أى شىء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء تقييحا لفعالهم (و الآخر) أن يكون نافية أى و ما يتبعون شركاء فى الحقيقة و يحتمل وجهها ثالثا و هو أن يكون ما بمعنى الذى و يكون منصوبا بالعطف على من و يكون التقدير و الذى يتبع الأصنام الذين يدعونهم من دون الله شركاء فحذف العائد من الصلة و شركاء حال من ذلك المحذوف و إن جعلت ما نфия فقوله «شُرَكَاءَ» ينتصب يدعونه و العائد إلى الذين الواو فى يدعون و يكون قوله «إِنَّ يَتَّبِعُونَ» مكررا لطول الكلام و تقف فى هذا القول على قوله «وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ» و فى ذلك القول على قوله «شُرَكَاءَ» «إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ» أى ليس يتبعون فى اتخاذهم مع الله شركاء إلا الظن لتقليدهم أسلافهم فى ذلك أو لشبهه دخلت عليهم بأنهم

يتقربون بذلك إلى الله تعالى «وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» أى و ليسوا إلا- كاذبين بهذا الاعتقاد و القول «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ» معناه أن الذى يملك من فى السموات و من فى الأرض هو الذى خلق لكم الليل لسكونكم و لأن يزول التعب و الكلال عنكم بالسكون فيه «وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا» أى و جعل النهار مبصرًا مضيئًا تبصرون فيه و تهتدون به فى حوائجكم بالأبصار «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ» أى لحججا و دلالات على توحيد الله سبحانه من حيث لا يقدر على ذلك غيره «لِقَوْمٍ يَشِيعُونَ» الحجج سماع تدبر و تفهم و تعقل.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٦٨ الى ٧٠]

إشاره

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

الإعراب

متاع خبر مبتدأ محذوف و تقديره ذاك أو هو متاع و قوله «لَا يُفْلِحُونَ» وقف تام و يجوز أن يكون متاع مبتدأ محذوف الخبر و تقديره لهم متاع.

المعنى

ثم حكى الله سبحانه عن صنف من الكفار أنهم أضافوا إليه اتخاذ الولد و هم طائفتان (إحداهما) كفار قريش و العرب فإنهم قالوا الملائكه بنات الله (و الأخرى) النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله فقال سبحانه «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» و إنما قال «قَالُوا» و إن لم يكن سبق ذكرهم لأنهم كانوا بحضره النبى ص و كان يعرفهم و تصح الكنايه عن المعلوم كما تصح عن المذكور «سُبْحَانَهُ» أى تنزيها له عما قالوا «هُوَ الْغَنِيُّ» عن اتخاذ الولد ثم بين سبحانه الوجه فيه فقال «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» و معناه إذا كان له ما فى السموات و ما فى الأرض ملكا و ملكا و خلقا فهو الغنى عن اتخاذ الولد لأن الإنسان إنما

يتخذ الولد ليتقوى به من ضعف أو ليستغنى به من فقر و الله سبحانه منزه عن ذلك و إذا استحال اتخاذ الولد حقيقه عليه سبحانه استحال عليه اتخاذ الولد على وجه التبنى «إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا» أى ما عندكم من حجه و برهان بهذا «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» هذا توبيخ من الله سبحانه لهم على قولهم ذلك ثم بين سبحانه الوعيد لهم على ذلك فقال «قُلْ» يا محمد «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ» أى يكذبون «عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ» باتخاذ الولد و غير ذلك «لَا يُفْلِحُونَ» أى لا يفوزون بشىء من الثواب و أصل الافتراء من القطع من فريت الأديم أى قطعته فمعناه يقطعون الكذب الذى يكذبون به على الله تعالى و قوله «مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا» معناه لهم متاع فى الدنيا يتمتعون به أياما قلائل ثم تنقضى و قوله «ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ» أى ثم إلى حكمنا مصيرهم «ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ» و هو عذاب النار «بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» أى بكفرهم.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٣]

إشارة

وَ أَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَ تَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّمَاءِ فَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَ أَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ (٧٣)

القراءة

قرأ يعقوب وحده و شركاؤكم بالرفع و هو قراءة الحسن و ابن أبى إسحاق و أبى عبد الرحمن السلمى و عيسى الثقفى و قرأ الباقون «وَ شُرَكَاءَكُمْ» بالنصب و فى الشواذ قراءة

الأعرج و عاصم و الجحدري و الزهري فاجمعوا أمركم مفتوحه الميم موصوله الهمزه من جمع.

الحج

من قرأ «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ» بالرفع رفعه على العطف على الضمير فى أجمعوا و ساغ عطفه على الضمير من غير توكيد من أجل طول الكلام بقوله «أَمْرَكُمْ» و إذا جاز فى قوله سبحانه «مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا» إن نكتفى من طول الكلام بلا و إن كانت بعد حرف العطف كان الاكتفاء من التوكيد بما هو أطول من لا و هو أيضا قبل الواو كما أن التوكيد لو ظهر لكان قبلها أخرى فلو قال قائل قم و زيد كان أقبح من أن يقول قمت و زيد و ذلك لأن المعطوف عليه فى قم و زيد ضمير مستكن لا لفظ له فهو أضعف من ضمير المخاطب أو المتكلم فى قمت لأن له لفظا و هو التاء و قمت و زيد أضعف من قمنا و زيد لأن "نا" من قمنا أتم لفظا من التاء فى قمت و أما «شُرَكَاءَكُمْ» بالنصب فقد قيل فيه أنه منصوب على إضمار فعل كأنه قيل و ادعوا شركاءكم قالوا و كذا هو فى مصحف أبى و قيل تقديره فاجمعوا أمركم و أجمعوا شركاءكم لأن أجمعوا يدل عليه و ذهب المحققون إلى أنه مفعول معه و تقديره مع شركاءكم كما أنشد سيبويه:

فكونوا أنتم و بنى أبيكم مكان الكليتين من الطحال

و يقال أجمعت الأمر و جمعت الأمر و أجمعت على الأمر أى عزمت عليه قال المؤرج أجمعت الأمر أفصح من أجمعت عليه قال أبو الهيثم أجمع أمره إذا جعله جمعا بعد ما كان متفرقا قال:

"هل أغدون يوما و أمرى مجمع"

اللغة

الغمة ضيق الأمر الذى يوجب الحزن و الغمه و الكربة و الضغطه و الشده نظائر و نقيضه الفرجه و قيل غمه مغطى تغطيه خبره مأخوذ من غم الهلال إذا حال دون رؤيته غيم.

المعنى

ثم أمر الله سبحانه نبيه ص أن يقرأ عليهم أخبار نوح فقال «وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ» أى خبره «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ» الذين بعث إليهم «يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي» أى شق و عظم عليكم إقامتى بين أظهركم «وَ تَذَكِّرِي» أى وعظى و تنبيهى إياكم «بِآيَاتِ اللَّهِ» أى بحججه و بيناته على صحه التوحيد و العدل و النبوه و المعاد و بطلان ما تدينون به و فى الكلام حذف هو قوله و عزمتم على قتلى و طردى من بين أظهركم «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ» جعله

جواب الشرط مع أنه متوكل عليه في جميع أحواله ليبين لهم أنه متوكل في هذا التفصيل لما في إعلانه ذلك من زجرهم عنه لأن الله تعالى يكفيه أمرهم ومعناه فيإلى الله فوضت أمرى و به وثقت إن يكفينى أمركم «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ» معناه فاعزموا على أمركم مع شركائكم و اتفقوا على أمر واحد من قتلى و طردى و لا تضطربوا فيه فتختلف أحوالكم فيما تلقونى به و هذا تهديد فى صورته الأمر و قيل معناه اعزموا على أمركم و ادعوا شركاءكم فبين (عليه السلام) إنه لا يرتدع عن دعائهم و عيب آلهتهم مستعينا بالله عليهم واثقا بأنه سبحانه يعصمه منهم و قيل أراد بالشركاء الأوثان التى كانوا يعبدونها من دون الله و قيل أراد من شاركهم فى دينهم «ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً» أى لا- يكن أمركم عليكم غما و حزنا بأن ترددوا فيه و قيل معناه ليكن أمركم ظاهرا مكشوفاً و لا يكونن مغطى مبهما مستورا من غممت الشىء إذا سترته و قيل معناه لا تأتوه من غير أن تتشاوروا و من غير أن يجتمع رأيكم عليه لأن من حاول أمرا من غير أن يعلم كيف يتأتى ذلك كان أمره غمه عليه «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنظِرُونِ» أى انهضوا إلى فاقتلونى إن وجدتم إليه سيلا- و لا تؤخرونى و لا تمهلونى عن ابن عباس و قيل معنى اقضوا إلى افعلوا ما تريدون و ادخلوا إلى لأنه بمعنى أفرغوا من جميع حيلكم كما يقال خرجت إليك من العهده و قيل معناه توجهوا إلى و روى عن بعضهم أنه قرأ ثم أفضوا إلى أى أسرعوا إلى من الفضاء لأنه إذا صار إلى الفضاء تمكن من الإسراع و هذا كان من معجزات نوح (عليه السلام) لأنه كان وحيدا مع نفر يسير و قد أخبر بأنهم لا يقدرون على قتله و على أن ينزلوا به سواء لأن الله تعالى ناصره و حافظه عنهم «فَإِذَا تَوَلَّيْتُمْ» أى ذهبتم عن الحق و اتباعه و لم تقبلوه و لم تنظروا فيه «فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ» أى لا أطلب منكم أجرا على ما أؤديه إليكم من الله فيثقل ذلك عليكم و قيل معناه إن أعرضتم عن قبول قولى لم يضرنى لأنى لم أطلع فيما لكم فيفوتنى ذلك بتوليكم عنى و إنما يعود الضرر عليكم «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» أى ما أجرى إلا- على الله فى القيام بأداء الرساله «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» أى أمرنى الله بأن أكون من المستسلمين لأمر الله بطاعته ثقة بأنها خير ما يكتسبه العباد «فَكَذَّبُوهُ» يعنى أنهم كذبوا نوحا أى نسبوه إلى الكذب فيما يذكره من أنه نبي الله و إن الله بعثه إليهم ليدعوهم إلى طاعته «فَنَجَّيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ» أى فى السفينه «وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ» أى جعلنا الذين نجوا مع نوح خلفاء لمن هلك بالغرق و قيل أنهم كانوا ثمانين نفسا و قال البلخى يجوز أن يكون أراد جعلناهم رؤساء فى الأرض «وَ أَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» أى أهلكتنا باقى أهل الأرض أجمع لتكذيبهم لنوح (عليه السلام) «فَانظُرْ» أيها السامع «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ» أى المخوفين بالله و عذابه أى كيف أهلكتهم الله

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَعِدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَ جِئْنَا لَتُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَ تَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَ مَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

القراءه

روى حماد و يحيى عن أبى بكر و زيد عن يعقوب و يكون لكما الكبرياء بالياء و الباقون بالتاء.

الحجه

الوجه فى الياء أن تأنيث الكبرياء غير حقيقى و قد فصل أيضا بينه و بين الفعل و من قرأ بالتاء فلأن لفظه لفظ التأنيث.

اللغه

الإجرام اكتساب السيئه و أصله القطع و اللفت الصرف عن الأمر يقال لفته يلفته لفتا و امرأه لفوت ذات زوج لها ولد من غيره لأنها تلفت إلى ولدها عنقها.

المعنى

ثم بين سبحانه قصه من بعثه بعد نوح فقال «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ» أى من بعد نوح و إهلاك قومه «رُسُلًا» يريد إبراهيم و هودا و صالحا و لوطا و شعيبا «إِلَىٰ قَوْمِهِمْ» الذين كانوا فيهم بعد أن تناسلوا و كثروا «فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أى فأتوهم بالبراهين و المعجزات الداله على صدقهم الشاهده بنبوتهم «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ» أى لم يكونوا ليصدقوا يعنى أولئك الأقوام الذين بعث إليهم الرسل بما كذبت به أوائلهم الذين هم قوم نوح أى كانوا مثلهم فى الكفر و العتو و قيل معناه لم يكن منهم من يؤمن من بعد هذه الآيات بما كذبوا به من قبلها بل كانت الحالتان سواء عندهم قبل البيئات و بعدها عن

أبى مسلم و البلخي «كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ» أى نجعل على قلوب الظالمين لنفوسهم الذين تعدوا حدود الله سمه و علامه على كفرهم يلزمهم الذم بها و يعرفهم بها الملائكه كما فعلنا ذلك بقلوب هؤلاء الكفار و قد مر معانى الطبع و الختم فيما تقدم «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ» أى من بعد الرسل أو من بعد الأمم «مُوسَى وَ هَارُونَ» (عليه السلام) نبين مرسلين «إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ» أى و رؤساء قومه «بِآيَاتِنَا» أى بأدلتنا و معجزاتنا «فَأَسْتَكْبِرُوا» عن الانقياد لها و الإيمان بها «وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ» عاصين لربهم مستحقين للعقاب الدائم «فَلَمَّا جَاءَهُمْ» أى جاء قوم فرعون «الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا» يعنى ما أتى به موسى من المعجزات و البراهين «قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ» أى ظاهر «قَالَ مُوسَى» لهم «أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا» أى أ تقولون لمعجزاته سحر و السحر باطل و المعجز حق و هما متضادان «وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ» أى لا يظفرون بحجه و لا يأتون على ما يدعونه بينه و إنما هو تمويه على الضعفه «قَالُوا» يعنى قال فرعون و قومه لموسى «أَجِئْنَا لِتُلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» أى لتصرفنا عن ذلك «وَ تَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ» أى الملك عن مجاهد و قيل العظمه و السلطان و الأصل إن الكبرياء استحقاق صفه الكبر فى أعلى المراتب «فِي الْأَرْضِ» أى فى أرض مصر و قيل أراد اسم الجنس و المراد به الإنكار و إن كان اللفظ لفظ الاستفهام تعلقوا بالشبهه فى أنهم على رأى آبائهم و إن من دعاهم إلى خلافه فظاهر أمره أنه يريد التأمير عليهم فلم يطيعوه «وَ مَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ» أى بمصدقين فيما تدعيانه من النبوه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٧٩ الى ٨٢]

إشارة

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَهُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

القراءة

قرأ أهل الكوفه غير عاصم بكل سحار بالتشديد و الباقون «ساحر» على وزن فاعل و قرأ أبو جعفر و أبو عمرو السحر بقطع الألف و مدها على الاستفهام و الباقون «السَّحْرُ» موصوله على الخبر.

قد بينا الوجه فى سحار و ساحر فى سورة الأعراف و أما قوله «السَّحْرُ» فإن ما فى قوله «ما جِئْتُمْ بِهِ» فى موضع رفع بالابتداء و جِئْتُمْ فى موضع رفع بأنه خبر المبتدأ و الكلام استفهام و السحر بدل من ما المبتدأ و لزم أن يلحق السحر الاستفهام لساوى المبدل منه فى أنه استفهام ألا ترى أنه ليس فى قولك السحر استفهام و على هذا قالوا كم مالك أ عشرون أم ثلاثون فجعلت العشرون و الثلاثون بدلا من كم و ألحقت أم لأنك فى قولك كما درهما ما لك مدع أن له مالا كما أنك فى قولك أ عشرون أم ثلاثون ما لك مدع أحد الشئيين و لا يلزم أن تضمم للسحر خبرا على هذا لأنك إذا أبدلت من المبتدأ صار فى موضعه و صار ما كان خبرا لما أبدلت منه فى موضع خبر البدل و من قرأ «ما جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ» كان ما فى قوله موصولا و جِئْتُمْ به الصلة و الهاء المجرورة عائده على الموصول و خبر المبتدأ الذى هو الموصول السحر و مما يقوى هذا الوجه ما زعموا أنه فى حرف عبد الله ما جِئْتُمْ به سحر فعلى هذا يكون تقديره الذى جِئْتُمْ به السحر و على الوجه الأول و هو أن يكون ما استفهاما فتقديره أى شىء جِئْتُمْ به السحر و أما وجه الاستفهام مع علم موسى أنه سحر فإنه مثل قوله «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» فى أنه للتقرير.

المعنى

«وَقَالَ فِرْعَوْنُ» حكى الله سبحانه عن فرعون أنه حين أعجزه المعجزات التى ظهرت لموسى (عليه السلام) و لم يكن له فى دفعها حيله قال لقومه «أَتَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ» بالسحر بليغ فى عمله و إنما طلب فرعون كل ساحر ليتعاونوا على دفع ما أتى به موسى و حتى لا يفوته شىء من السحر بتأخر بعضهم و إنما فعل ذلك للجهل بأن ما أتى به موسى من عند الله و ليس بسحر و بعد ذلك علم أنه ليس بسحر فعائد كما قال سبحانه «لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ» و قيل أنه علم أنه ليس بسحر و لكنه ظن أن السحر يقاربه مقاربه تشبيه «فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرُ» الذين طلبهم فرعون و أمر بإحضارهم و موسى حاضر «قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ» و فى الكلام حذف يدل عليه الظاهر و تقديره فلما أتوه بالسحره و بالحبال و العصى قال لهم موسى «أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ» أى اطرخوا ما جِئْتُمْ به و قيل معناه افعلوا ما أنتم فاعلون و هذا ليس بأمر بالسحر و لكنه قال ذلك على وجه التحدى و الإلزام أى من كان عنده ما يقاوم المعجزات فليلقه و قيل أنه أمر على الحقيقة بالإلقاء ليظهر بطلانه و إنما لم يقتصر على قوله «أَلْقُوا» لأنه أراد ألقوا جميع ما أنتم ملقون فى المستأنف فلو اقتصر على ألقوا ما أفاد هذا المعنى و الإلقاء إخراج الشىء عن اليد إلى جهة الأرض و يشبه بذلك قولهم ألقى عليه مسأله و ألقى عليه رداه «فَلَمَّا أَلْقُوا» أى

فلما أَلْقَتِ السَّحْرَهُ سَحَرَهُمْ «قَالَ مُوسَى» لَهُمْ «مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ» أَى الذى جِئْتُمْ بِهِ مِنَ الحِبالِ وَ العِصَى السَّحْرَ أَدْخَلَ عَلَيْهِ الأَلْفَ وَ اللامَ للعهدِ لأنهم لما قالوا لما أتى به موسى أَنه سحر قال (عليه السلام) ما جِئْتُمْ بِهِ هُوَ السَّحْرَ عَنِ الفِراءِ «إِنَّ اللّهَ سَيَبْطِلُهُ» أَى سَيَبْطِلُ هَذَا السَّحْرَ الذى فَعَلْتُمُوهُ «إِنَّ اللّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ» معناه إِنْ اللّهُ لا يَهَيئُ عَمَلَ مَنْ قَصَدَ إِفْسادَ الدِّينِ وَ لا يَمْضِيهِ وَ يَبْطِلُهُ حَتَّى يَظْهَرَ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ وَ المَحْضُ مِنَ المَبْطُلِ «وَ يُحَقِّقُ اللّهُ الحَقَّ» أَى يَظْهَرُ اللّهُ الحَقَّ وَ يَحْقِقه وَ يَثْبِتُهُ وَ يَنْصُرُ أَهْلَهُ «بِكَلِمَاتِهِ» قِيلَ فى معناه أَقْوالَ (أَحَدُها) أَنَّ معناه بوعدِ موسى (عليه السلام) وَ كان وَعْدُهُ النِّصْرَ فَأَنْجَزَ وَعْدَهُ عَنِ الحَسَنِ (وَ ثانِيها) أَنَّ معناه بِكَلِماتِهِ الذى يَتَبَيَّنُ بِهِ مَعانِي الآياتِ التى أَتاهَا نَبِيُّهُ عَنِ الجَبائِي (وَ ثالِثها) بِما سَبَقَ مِنْ حِكمِهِ فى اللُّوحِ المَحْفوظِ بِأَنَّ ذلِكَ سَيَكُونُ «وَ لَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ» ظَهَرَ الحَقُّ وَ إِبطالِ الباطِلِ وَ فى هَذِهِ الآيَةِ دلالَةٌ عَلى أَنَّهُ تَعالى يَنْصُرُ المَحْضِينَ كَلَهُمْ فى حَقِّهِمْ وَ ذلِكَ عَلى وَجْهِينِ (أَحَدُهُما) بِالْحِجَّةِ فَهَذِهِ النِّصْرَهُ مَسْتَمِرَّهُ عَلى كَلِّ حَالٍ (وَ الثَّانِي) بِالغَلْبَةِ وَ القَهْرِ وَ هَذَا يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ المَصْلَحَةِ لِأَنَّ المَصْلَحَةَ قَدْ تَكُونُ بِالتَّخْلِيعِ تارَةً وَ بِالحِيلُولِ أُخْرى.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٨٣ الى ٨٦]

إشارة

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِمْ أَنْ يُفْتَنَهُمْ وَ إِنْ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فى الأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ (٨٣) وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّهِ فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقالُوا عَلى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القَوْمِ الكافِرِينَ (٨٦)

اللغة

الذرية الجماعة من نسل القبيلة و قد تقدم القول فى أصلها و وزنها و الفتنه أصلها البلية و هى معامله تظهر الأمور الباطنه يقال فتنت الذهب إذا أحرقتة بالنار ليظهر الخلاص و قوله «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ» أى يحرقون لما فيه من إظهار حالهم فى

الضلال و قوله «وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» معناه التعذيب للرد عن الدين لما فيه من إظهار النصره أشد.

الإعراب

«يا قَوْمَ» حذفته منه ياء الإضافة اجتزاء بالكسره منها و هو فى النداء أحسن من إثباتها لقوه النداء على التغيير و الفاء فى قوله «فَقَالُوا» فاء العطف و جواب الأمر كما تقول قال السائل كذا فقال المجيب كذا و إنما جازت الفاء فى الجواب و لم تجز الواو لأن الفاء تترتب من غير مهله فهى موافقه لمعنى وجوب الثانى بالأول و ليس كذلك الواو.

المعنى

ثم بين سبحانه من آمن من قوم موسى (عليه السلام) فقال «فَمَا آمَنَ لِمُوسَى» أى لم يصدق موسى فى ما ادعى من النبوه مع ما أظهره من المعجزات الظاهره «إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ» أى أولاد من قوم فرعون و قيل أراد من قوم موسى (عليه السلام) و هم بنو إسرائيل الذين كانوا بمصر و اختلف من قال بالأول فقول أنهم قوم كانت أمهاتهم من بنى إسرائيل و آباؤهم من القبط فاتبعوا أمهاتهم و أخوالهم عن ابن عباس و قيل أنهم أناس يسير من قوم فرعون منهم امرأه فرعون و مؤمن آل فرعون و جاريه و امرأه هى مشاطه امرأه فرعون عن عطيه عن ابن عباس و قيل أنهم بعض أولاد القبط لم يستجب آباؤهم موسى و اختلف من قال بالثانى فقول هم جماعه من بنى إسرائيل أخذهم فرعون لتعلم السحر و جعلهم من أصحابه فآمنوا بموسى عن الجبائى و قيل أراد مؤمنى بنى إسرائيل و كانوا ستمائه ألف و كان يعقوب دخل مصر منهم باثنين و سبعين إنسانا فتوالدوا حتى بلغوا ستمائه ألف و إنما سماهم ذريه على وجه التصغير لضعفهم عن ابن عباس فى روايه أخرى و قال مجاهد أراد بهم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بنى إسرائيل لطول الزمان هلك الآباء و بقى الأبناء «عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ» يعنى آمنوا و هم خائفون من معره فرعون «وَ مَلَأْنَاهُمْ» و من أشرفهم و رؤسائهم قال الزجاج و إنما جاز أن يقال «وَ مَلَأْنَاهُمْ» لأن فرعون ذو أصحاب يأتمرون له و قيل أن الضمير فى «مَلَأْنَاهُمْ» راجع إلى الذريه لأن آباءهم كانوا من القبط و كانوا يخافون قومهم من القبط أن يصرفوهم عن دينهم و يعذبوهم «أَنْ يَفْتِنَهُمْ» أى يصرفهم عن الدين يعنى أن يمتحنهم لمحنه لا يمكنهم الصبر عليها فيصرفون عن الدين و كان جنود فرعون يعذبون بنى إسرائيل فكان خوفهم منه و منهم «وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ» أى مستكبر باغ طاغ فى أرض مصر و نواحيها «وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ» أى من المجاوزين الحد فى العصيان لأنه ادعى الربوبيه و أسرف فى القتل و الظلم و الإسراف التجاوز عن الحد فى كل شىء «وَ قَالَ مُوسَى» لقومه الذين آمنوا به «يَا قَوْمِ إِنَّ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ» كما تظهرون «فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» أى فأسندوا

أموركم إليه إن كنتم مسلمين على الحقيقة و إنما أعاد قوله «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» بعد قوله «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ» ليتبين المعنى باجتماع الصفتين التصديق و الانقياد أى إن كنتم آمنتم بالله فاستسلموا لأمره و فائده الآية بيان وجوب التوكل على الله عند نزول الشده و التسليم لأمره ثقة بحسن تدبيره و انقطاعا إليه «فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» أخبر سبحانه عن حسن طاعتهم له و أنهم قالوا أسندنا أمورنا إلى الله واثقين «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» أى لا تمكن الظالمين من ظلمنا بما يحملنا على إظهار الانصراف عن ديننا عن مجاهد و قيل معناه ربنا لا تظهر علينا فرعون و قومه فيفتن بنا الكفار و يقولوا لو كانوا على الحق لما ظفروا عليهم عن الحسن و أبى مجاز و

روى زراره و محمد بن مسلم عن أبى جعفر و أبى عبد الله (عليه السلام) أن معناه لا تسلطهم علينا فتفتنهم بنا

«وَنَجِّنَا» و خلصنا «بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» أى من قوم فرعون و استعبادهم إيانا و أخذهم جماعتنا بالأعمال الشاقة و المهن الخسيسه.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٨٧ الى ٨٩]

إشارة

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ مِثْرًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّنَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)

القراءة

قرأ ابن عامر و لا تتبعان خفيفه النون و الباقون بالتشديد.

الحج

من قرأ بالنون الشديده كسرهما لوقوعها بعد ألف التثنيه فأشبهت نون الاثنتين فى رجلا ن و لم يعتد بالنون الساكنه قبلها لسكونها و خفتها فصارت المكسوره كأنها وليت الألف و من قرأ بالتخفيف فإنه يمكن أن يكون خفف الثقيله للتضعيف كما خففوا رب و إن

و نحوهما إلا أنه حذف الأولى من المثلين كما أبدلوا الأولى من المثلين فى نحو قيراط و دينار و لزم ذلك فى هذا الموضع لأن الحذف لو لحق الثانى للزم التقاء الساكنين على هذا الحد غير مأخوذ به عند العامه و إن شئت كان على لفظ الخبر و المعنى الأمر كقوله «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ» و «لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا» أى لا ينبغى ذلك و إن شئت جعلته حالا من استقيما و التقدير استقيما غير متبعين و يدل على ذلك قول الشاعر:

فلا أسقى و لا يسقى شريبى و يرويه إذا أوردت مائى

و كقول الفرزدق:

بأيدى رجال لم يشيموا سيوفهم و لم تكثر القتلى بها حين سلت

اللغة

«تَبَوَّأَ» أى اتخذها يقال تبوأ لنفسه بيتا أى اتخذها و بوات له بيتا أى اتخذته له و يقال أن تبوء و بوء بمعنى أى اتخذ بيتا مثل بدل و تبدل و خلص و تخلص قال أبو على تبوء فعل يتعدى إلى مفعولين و اللام فى قوله «لِقَوْمِكُمْ» كالتى فى قوله «رَدِفَ لَكُمْ» و يقوى ذلك قوله «وَ إِذِ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ» فدخلت اللام على غير المطاوع كما دخلت على المطاوع فى قوله «تَبَوَّأَ لِقَوْمِكُمْ» و الطمس محو الأثر يقال طمس عينه أطمسها طمسا و طموسا و طمست الريح آثار الديار و الطمس تغير إلى الدثور و الدروس قال كعب بن زهير:

من كل نضاخه الذفرى إذا عرقت عرضتها طامس الأعلام مجهول

الإعراب

مصر غير منصرف لأنه مؤنث معرفه و لو صرفت لخفتها كما تصرف هند لكان جائزا و ترك الصرف أقيس و قوله «بُيُوتًا» مفعول به و ليس بظرف مكان لاختصاصه و البيوت هنا كالغرف فى قوله تعالى لَتَبُؤُنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا «فَلا يُؤْمِنُوا» يحتمل وجهين من الإعراب نصب و الجزم فأما نصب ففيه وجهان (أحدهما) أن يكون على جواب صيغه الأمر بالفاء (و الآخر) أن يكون عطفًا على ليضلوا أى ليضلوا فلا يؤمنوا و هذا قول المبرد

ص: ١٩٥

و على هذا فيكون قوله «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ» اعتراضاً و أما الجزم فيكون على وجه الدعاء عليهم و تقديره فلا آمنوا و مثله قول الأعشى:

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى و لا تلقنى إلا و أنفك راغم

المعنى

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ» أى أمرناهما «أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا» أى اتخذنا لمن آمن بكما بمصر يعنى البلده المعروفه بيوتا تسكنونها و تأوون إليها «وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَهُ» اختلف فى ذلك فقيل لما دخل موسى مصر بعد ما أهلك الله فرعون أمروا باتخاذ مساجد يذكر فيها اسم الله تعالى و أن يجعلوا مساجدهم نحو القبله أى الكعبه و كانت قبلتهم إلى الكعبه عن الحسن و نظيره فى بُيُوتِ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ الآيه و قيل أن فرعون أمر بتخريب مساجد بنى إسرائيل و منعهم من الصلاه فأمرؤا أن يتخذوا مساجد فى بيوتهم يصلون فيها خوفاً من فرعون و ذلك قوله «وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَهُ» أى صلوا فى بيوتكم لتأمنوا من الخوف عن ابن عباس و مجاهد و السدى و غيرهم و قيل معناه اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً عن سعيد بن جبیر «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» أى أديموها و واطبوا على فعلها «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» بالجنه و ما وعد الله تعالى من الثواب و أنواع النعيم و الخطاب لموسى (عليه السلام) عن أبى مسلم و قيل الخطاب لمحمد ص «وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ» أى أعطيت فرعون و قومه «زِينَةً» يتزينون بها من الحلى و الثياب و قيل الزينه الجمال و صحه البدن و طول القامه و حسن الصورة «وَأَمْوَالًا» يتعظمون بها «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» و إنما أعطاهم الله تعالى ذلك للإيناع عليهم مع تعريه من وجود الاستفساد «رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ» اللام للعاقبه و المعنى و عاقبه أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك و لا يجوز أن يكون لام الغرض لأننا قد علمنا بالأدله الواضحه أن الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال و لا يريد أيضاً منهم الضلال و كذلك لا يؤتيهم المال ليضلوا و قيل معناه لئلا يضلوا عن سبيلك فحذفت لا كقوله شَهَدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أى لئلا تقولوا و حذف ذلك لدلاله العقل عليه و قيل أنه لام الدعاء و المعنى ابتلهم بالبقاء على ما هم عليه من الضلال و إنما قال ذلك لعلمه بأنهم لا يؤمنون من طريق الوحي و فائدته إظهار التبرؤ منهم كما يلعن إبليس و يدل عليه أنه أعاد قوله «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» فدل ذلك على أنه أراد به الدعاء عليهم و المراد بالطمس على الأموال تغييرها عن جهتها إلى جهه لا- ينتفع بها قال مجاهد و قتاده و عامه أهل التفسير صارت جميع أموالهم حجاره حتى السكر و الفانيد

«وَ أَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ» معناه ثبتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشد عليهم وقيل معناه أمتهم بعد سلب أموالهم وأهلكهم وقيل أنه عباره عن الخذلان والطبع «فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» قد ذكرنا وجوهه وقيل معناه أنهم لا يؤمنون إيمان إلجاء حتى يروا العذاب وهم مع ذلك لا يؤمنون إيمان اختيار أصلاً ثم أخبر سبحانه أنه أجاب لهما الدعوه فقال «قَالَ» أى قال الله تعالى لموسى و هارون «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا» و الداعى كان موسى (عليه السلام) لأنه كان يدعو و كان هارون يؤمن على دعائه فسماهما داعيين عن عكرمه و الربيع و أبى العالیه و أكثر المفسرين و لأن معنى التأمين اللهم استجب هذا الدعاء «فَأَسْتَقِيمَا» أى فاثبتنا على ما أمرتما من دعاء الناس إلى الإيمان بالله تعالى و الإنذار و الوعظ قال ابن جريج

مكث فرعون بعد هذا الدعاء أربعين سنه و روى ذلك عن أبى عبد الله (عليه السلام)

«وَلَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» نهاهما سبحانه عن أن يتبعوا طريقه من لا يؤمن بالله و لا يعرفه و لا يعرف أنبياءه (عليه السلام).

[سوره يونس (١٠): الآيات ٩٠ الى ٩٢]

إشاره

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عِدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) أَلَمْ آتِ وَأَقْدَمْتُ قَبْلُ وَ كُنْتُ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)

القرءاء

قرأ أهل الكوفه غير عاصم آمنت إنه بكسر الألف و الباقون أنه بالفتح و روى عن أبى جعفر و نافع الآن بإلقاء حركه الهمزه على اللام و حذف الهمزه و قرأ ننجيك خفيفه قتيبه و يعقوب و سهل و الباقون «نُنَجِّيكَ» بالتشديد و فى الشواذ قرءاه أبى بن كعب و محمد بن السميّفع ننجيك بالحاء.

الحجه

قال أبو على من قرأ «آمَنْتُ أَنَّهُ» بالفتح فلأن هذا الفعل يصل بحرف الجر فى

نحو يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ فلما حذف حرف الجر وصل الفعل إلى أن فصار في موضع نصب أو جر على الخلاف في ذلك و من قرأ آمنت إنه بالكسر حملة على القول المضممر كأنه قال آمنت و قلت إنه و إضمار القول في هذا النحو كثير و قال علي بن عيسى من كسر إنه جعله بدلا من آمنت و من فتح جعله معمول آمنت و أما الآن فإن لام المعرفة إذا دخلت على كلمه أولها الهمزه فخففت الهمزه كان في تخفيفها وجهان (أحدهما) أن يلقي حركتها على اللام و تقر همزه الوصل فيقال الحمر و قد حكى ذلك سيويه و حكى أبو الحسن أن أناسا يقولون لحمر فيحذفون الهمزه التي للوصل قال:

فقد كنت تخفى حب سمراء حقه فبح لأن منها بالذى أنت بائح

فأسكن الحاء لما كانت اللام متحركه و لو لم يعتد بالحركه كما لم يعتد بها في الوجه الأول لحرك الحاء بالكسر كما يحرك في بح اليوم و «نَجِيكَ» و ننجيك في معنى واحد أى نلقيك على نجوه من الأرض قال أوس بن حجر:

فمن بنجوته كمن بعقوته و المستكن كمن يمشى بقرواح

و القرواح حيث لا- ماء و لا- شجر و من قرأ ننجيك بالحاء فإنه نفعلك من الناحيه أى نجعلك في ناحيه و منه نحيت الشىء فتحنى أى باعدته فتباعه فصار في ناحيه قال الحطيئه:

تنحى فاجلسى منى بعيدا أراح الله منك العالمينا

اللغه

المجاوزه الخروج عن الحد من إحدى الجهات الأربع و الاتباع طلب اللحاق بالأول اتبعه اتباعا و تبعه بمعنى و حكى أبو عبيده عن الكسائي أنه قال إذا أريد أنه أتبعهم خيرا أو شرا قالوا بقطع الهمزه و إذا أريد به أنه اقتدى بهم و اتبع أثرهم قالوا بتشديد التاء و وصل الهمزه و البغى طلب الاستعلاء بغير حق و العدو و العدوان الظلم و النجوه الأرض التي لا يعلوها السيل و أصلها من الارتفاع.

الإعراب

مفعول له و قيل إنهما مصدران في موضع الحال أى في حال البغى و العدوان الآن فصل بين الزمان الماضى و المستقبل مع أنه إشاره إلى الحاضر و لهذا

بنى كما بنى ذا و عرف الآن بالألف و اللام و أمس يتضمن حرف التعريف لأن ما مضى بمنزله المضمرة فى المعنى فى أنه ليس له صورة و الحاضر فى معنى المصرح فى صحه الصورة و العامل فى قوله «آلآن» محذوف و تقديره الآن آمنت.

المعنى

ثم بين سبحانه مآل آل فرعون و قومه فقال «وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ» أى عبرنا بهم البحر حتى جاوزوه سالمين بأن يبسنا لهم البحر و فرقنا لهم الماء اثنى عشر فرقا «فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْيًا وَ عِدْوًا» أى ليبغوا عليهم و يظلموهم و ذلك أن الله سبحانه لما أجاب دعاء موسى أمره بإخراج بنى إسرائيل من مصر ليلا فخرج و تبعهم فرعون و جنوده مشرقين حتى انتهوا إلى البحر و أمر الله سبحانه موسى (عليه السلام) فضرب البحر بعصاه فانفلق اثنى عشر فرقا و صار لكل سبط طريق يابس فارتفع بين كل طريقين الماء كالجبل و صار فى الماء شبه الخروق فجعل بعضهم ينظر إلى بعض فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر رأوا البحر بتلك الهياه فهابوا دخول البحر و كان فرعون على حصان أدهم فجاء جبرائيل (عليه السلام) على فرس و ديق و خاض البحر و ميكائيل يسوقهم فلما شم أدهم فرعون ريح فرس جبريل (عليه السلام) انسل خلفه فى الماء و اقتحمت الخيول خلفه فلما دخل آخرهم البحر و هم أولهم أن يخرج انطبق الماء عليهم «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ» أى وصل إليه الغرق و أيقن بالهلاك «قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» و كان ذلك إيمان إلهى لا يستحق به الثواب فلم ينفعه إيمانه «آلآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ» قيل فيه إضمار أى قيل له الآن آمنت حين لا ينفع الإيمان و لا يقبل لأنه حال الإلجاء «وَ قَدْ عَصَيْتَ» بترك الإيمان فى حال ما ينفعك الإيمان فهلا آمنت «قَبْلُ» و ذلك «وَ كُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» فى الأرض بقتل المؤمنين و ادعاء الإلهيه و أنواع الكفر و اختلف فى قائل هذا القول فقيل قاله جبريل (عليه السلام) و قيل ذلك كلام الله تعالى قاله له على وجه الإهانه و التوبيخ و كان ذلك معجزه لموسى (عليه السلام) و

روى على بن إبراهيم بن هاشم بإسناده عن الصادق (عليه السلام) قال ما أتى جبريل رسول الله ص إلا- كئيها حزينا و لم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون فلما أمر الله سبحانه بنزول هذه الآيه نزل و هو ضاحك مستبشر فقال له حبيبي جبريل ما أتيتنى إلا و بينت الحزن فى وجهك حتى الساعة قال نعم يا محمد لما غرق الله فرعون «قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ» فأخذت حمأه فرضعتها فى فيه ثم قلت له «آلآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» ثم خفت أن تلحقه الرحمه من عند الله فيعذبني على ما فعلت فلما كان الآن و أمرنى أن أؤدى إليك ما قلته أنا لفرعون آمنت و علمت أن ذلك

«فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِدِينِكَ» اختلف في معناه فقال أكثر المفسرين معناه لما أغرق الله فرعون و قومه أنكر بعض بنى إسرائيل غرق فرعون و قالوا هو أعظم شأننا من أن يغرق فأخرجه الله حتى رأوه فذلك قوله «فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ» أى نلقيك على نجوه من الأرض و هى المكان المرتفع بيدنك أى بجسدك من غير روح و ذلك أنه طفا عريانا و قيل معناه نخلصك من البحر و أنت ميت و البدن الدرع قال ابن عباس كانت عليه درع من ذهب يعرف بها فالمعنى نرفعك فوق الماء بدرعك المشهوره ليعرفوك بها «لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً» أى لتكون نكالا لمن خلفك فلا يقولوا مثل مقاتلك عن الكلبى و قيل أنه كان يدعى أنه رب فيبين الله أمره و أنه عبد و فيه من الآيه أنه غرق مع القوم و أخرج هو من بينهم و كان ذلك آيه عن الزجاج «وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ» يعنى أن كثيرا من الناس عن التفكير فى دلالاتنا و التدبر لحججنا و بيناتنا غافلون أى ذاهبون.

[سوره يونس (١٠): آيه ٩٣]

اشاره

وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

الإعراب

المبوء يجوز أن يكون مصدرا و يجوز أن يكون مكانا و يكون المفعول الثانى من بوأت على هذا محذوفا كما حذف من قوله «وَ بَوَّأَكُمُ فِي الْأَرْضِ» و يجوز أن ينتصب المبوء نصب المفعول به على الاتساع و إن كان مصدرا فقد أجاز ذلك سيبويه فى قوله أما الضرب فأنت ضارب.

المعنى

ثم بين سبحانه حال بنى إسرائيل بعد إهلاك فرعون فقال «وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ» أخبر سبحانه عن نعمه عليهم بعد أن أنجاهم و أهلك عدوهم يقول مكناهم مكانا محمودا و هو بيت المقدس و الشام و إنما قال «مُبَوَّأً صِدْقٍ» لأن فضل ذلك المنزل على غيره من المنازل كفضل الصدق على الكذب و قيل معناه أنزلناهم فى موضع خصب و أمن يصدق فيما يدل عليه من جلاله النعمه و قال الحسن يريد به مصر و ذلك أن موسى عبر بينى إسرائيل البحر ثانيا و رجع إلى مصر و تبوأ مساكن آل فرعون و قال الضحاك هو الشام و مصر «وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» أى مكناهم الأشياء اللذيذه و هذا يدل على سعه أرزاق

بنى إسرائيل «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ» معناه فما اختلفوا فى تصديق محمد ص يعنى اليهود كانوا مقرين به قبل مبعثه حتى جاءهم العلم و هو القرآن الذى جاء به محمد ص عن ابن عباس و قال الفراء العلم محمد ص لأنه كان معلوما عندهم بنعته فلما جاءهم اختلفوا فى تصديقه فكفر به أكثرهم و قيل أن معناه فما اختلف بنو إسرائيل إلا من بعد ما جاءهم العلم بالحق على يد موسى و هارون فإنهم كانوا مطبقين على الكفر قبل مجىء موسى فلما جاءهم آمن به بعضهم و ثبت على الكفر بعضهم فصاروا مختلفين «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» هذا إخبار منه تعالى بأنه الذى يتولى الحكم بينهم يوم القيامة فى الأمور التى يختلفون فيها فإن مع بقاء التكليف لا يرتفع الخلاف.

[سوره يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ٩٧]

إشارة

فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَيَمَلِ الَّذِينَ يَقرُؤُنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَمَّا جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمتَرِينَ (٩٤) وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا- يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

القراءه

قد تقدم اختلاف القراء فى كلمه و كلمات و الوجه فى ذلك.

اللغه

الامتراء طلب الشك مع ظهور الدليل و هو من مرى الضرع و هو مسح ليدر فلا معنى لمسحه بعد دروره بالحليب.

الإعراب

النون فى قوله «فَلَا تَكُونَنَّ» نون التأكيد و هى لا تدخل فى غير الواجب لأنك لا تقول أنت تكونن و دخلت فى القسم على هذا الوجه لأنه يطلب بالقسم التصديق و إنما بنى الفعل مع نون التأكيد لأنها ركبت مع الفعل على تقدير كلمتين كل واحده مركبه مع الأخرى مع أن الأولى ساكنه و اقتضت حركه بناء لالتقاء الساكنين، «وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ» قال الأخفش أنت كل لأنها مضافه إلى مؤنث و لفظه كل للمذكر و المؤنث سواء و الرؤيه فى الآيه رؤيه العين

لأنها تعدت إلى مفعول واحد و العذاب و إن كان أليما و هو لا يصح أن يرى فإنه ترى أسبابه فهو بمنزله ما يرى.

المعنى

ثم بين سبحانه صحه نبوه محمد ص فقال «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» اختلف المفسرون فى معناه على أقوال أولها قال الزجاج إن هذه الآية قد كثر سؤال الناس عنها و خوضهم فيها و فى السوره ما يدل على بيانها فإن الله سبحانه يخاطب النبى ص و ذلك الخطاب شامل للخلق فالمعنى فإن كنتم فى شك فاسألوا و الدليل عليه قوله فى آخر السوره يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ الْآيَةَ فَأَعْلَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ نَبِيَهُ (عليه السلام) ليس فى شك و مثل هذا قوله «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ» فقال طَلَّقْتُمْ و الخطاب للنبى ص وحده و هذا مذهب الحسن و ابن عباس و أكثر أهل التأويل و

روى عن الحسن و قتاده و سعيد بن جبير أنهم قالوا إن النبى ص لم يشك و لم يسأل و هو المروى أيضا عن أبى عبد الله (عليه السلام)

(و ثانيها) أن الخطاب لرسول الله ص و إن لم يشك و علم الله سبحانه أنه غير شاك و لكن الكلام خرج مخرج التقرير و الأفهام كما يقول القائل لعبده إن كنت عبدى فأطعنى و لأبيه إن كنت والدى فتعطف على و لولده إن كنت ابنى فبرنى يريد بذلك المبالغه و ربما خرجوا فى المبالغه ما يستحيل كقولهم بكت السماء لموت فلان أى لو كان تبكى سماء على ميت لبكت عليه و كذلك هاهنا يكون المعنى لو كنت ممن يشك فشككت «فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» عن الفراء و غيره (و ثالثها) أن المعنى فإن كنت أيها المخاطب أو أيها السامع فى شك مما أنزلنا إليك على لسان نبينا محمد ص فيكون الخطاب لغيره (و رابعها) ما ذكره الزجاج أنه يجوز أن يكون فى معنى ما فيكون المعنى ما كنت فى شك مما أنزلنا إليك «فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ» أى لسنا نريد بأمرك أن تسأل لأنك شاك و لكن لتزداد إيمانا كما قال إبراهيم (عليه السلام) حين قال له أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَ لَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي فالزيادة فى التعريف ليست مما يبطل صحه العقيدة و إنما أمر سبحانه بسؤال أهل الكتاب مع جحد أكثرهم لنبوته فيه قولان (أحدهما) أنه أمره بأن يسأل مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام و كعب الأحبار و تميم الدارى و أشباههم عن ابن عباس و مجاهد و الضحاك (و الآخر) أن المراد سلهم عن صفه النبى ص المبشر به فى كتبهم ثم أنظر فيما وافق تلك الصفه و هذا القول أقوى لأن هذه السوره مكيه و ابن سلام و غيره إنما أسلموا بالمدينه و

قال الزهرى إن هذه الآية نزلت فى السماء فإن صح ذلك فقد كفى المثنونه و رواه أصحابنا أيضا عن أبى عبد الله (عليه السلام)

وقيل أيضا أن المراد بالشك الضيق و الشده بما يعانیه من نعتهم و أذاهم أى إن ضقت ذرعا بما تلقى من أذى قومك «فَسِئَلِ الَّذِينَ يَقرُؤُونَ الْكِتَابَ مِنْ قِبَلِكَ» كيف صبر الأنبياء على أذى قومهم فاصبر كذلك «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» يعنى بالحق القرآن و الإسلام «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ» أى الشاكين «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» أى من جمله من يجحد آيات الله و لا يصدق بها «فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أى فإنك إن فعلت ذلك كنت من الخاسرين و لم يقل من الكافرين لأن الإنسان قد علم شده تحسره و تأسفه على خسران ماله فكيف إذا خسر دينه و نفسه «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ» معناه أن الذين أخبر الله عنهم بغير شرط أنهم لا- يؤمنون فنفى الإيمان عنهم و لم ينف عنهم القدره عليه فإن نفى الفعل لا- يكون نفيا للقدره عليه كما أن الله سبحانه نفى عن نفسه مغفره المشركين و لم يكن ذلك نفيا لقدرته على مغفرتهم و قيل معناه إن الذين وجب عليهم سخط ربك عن قتاده و قيل معناه وجب عليهم وعيد ربك «وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ» أى كل معجزه و دلاله مما يقترحونها «حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» الموجه فيصيروا ملجئين إلى الإيمان و فى هذا إعلام بأن هؤلاء الكفار لا لطف لهم فى المعلوم يؤمنون عنده إيمان اختيار.

[سوره يونس (١٠): آيه ٩٨]

إشارة

فَلَوْ لَا- كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)

الإعراب

لو لا- بمعنى هلا- و هى تستعمل على وجهين (أحدهما) التحضيض (و الآخر) التأنيب كقولك فى التحضيض هلا تأتى زيدا لحاجتك و فى التأنيب هلا امتنعت من الفساد الذى دعيت إليه قال الشاعر:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بنى ضوطرى لو لا الكمى المقنعا

أى هلا- تعقرون الكمى و «كَانَتْ قَرْيَةٌ» كان هذه هى التامه لا تحتاج إلى خبر و آمنت فنفعها إيمانها صفة لقرية فإن الجمل قد تقوم مقام الصفة للنكرة و إلا- قوم يونس استثناء متصل واقع على المعنى لا- على ظاهر اللفظ فكأنه قال هلا آمن أهل قرية و الجميع مشتركون فى هذا العتاب و قوم يونس مستثنى من الجميع و مثل هذا الاستثناء فى قوله تعالى فَلَوْ لَا كَانَ مِنْ

الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّتِهِ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ و قال الزجاج «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ» استثناء منقطع و تقديره لكن قوم يونس لما آمنوا و مثله قول النابغه:

وقفت فيها أصيلا لا أسألها عيت جوابا و ما بالربع من أحد

إلا أوارى لأيا ما أبينها و النوى كالحوض بالمظلومه الجلد

و حكى الفراء فى البيت لا أن ما أبينها و قال جمع الشاعر بين ثلاثه أحرف فى النفى لا و إن و ما و قرأ بعضهم يونس و يوسف بكسر النون و السين أراد أن يجعل الاسمين عربيين مشتقين من آسف و آنس و هو شاذ.

المعنى

لما ذكر سبحانه أن إيمان فرعون لم يقبل عند معانيه العذاب وصل ذلك بذكر إيمان قوم يونس قبل نزول العذاب فقال «فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ» قيل إن معناه فهلا كان أهل قريه آمنوا فى وقت ينفعهم إيمانهم أعلم الله سبحانه أن الإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب و لا عند حضور الموت الذى لا يشك فيه و لكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم العذاب عن الزجاج قال و قوم يونس لم يقع بهم العذاب إنما رأوا الآيه التى تدل على العذاب فمثلهم مثل العليل الذى يتوب فى مرضه و هو يرجو العافيه و يخاف الموت و قيل إن معناه لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قريه بأجمعهم حتى لا يشذ منهم أحد إلا قوم يونس فهلا كانت القرى كلها هكذا عن الحسن و قيل معناه فما كانت قريه آمنت فنفعها إيمانها يريد بذلك لم يكن هذا معروفا لأمه من الأمم كفرت ثم آمنت عند نزول العذاب و كشف عنهم أى لم أفعل هذا بأمه قط إلا قوم يونس «لَمَّا آمَنُوا» عند نزول العذاب كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم و هو قوله «كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» عن قتاده و ابن عباس و فى روايه عطاء و قيل إنه أراد بقوله «فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ» قوم ثمود فإنه قد جاءهم العذاب يوما فيوما كما جاء قوم يونس إلا أن قوم يونس استدرکوا ذلك بالتوبه و أولئك لم يستدرکوا فوصف أهل القريه بأنهم سوى قوم يونس ليعرفهم به بعض التعريف إذ

كان أخبر عنهم على سبيل الإخبار عن النكره عن الجبائي و هذا الذي ذكره إنما كان يصح لو كان «إِلَّا قَوْمٌ يُؤْنَسُ» مرفوعا فكان يكون صفه لقريه أو بدلا منه على معنى هلا- كان قوم قريه آمنوا إلا قوم يونس و لم يقرأ أحد من القراء بالرفع «وَمَنْغَنَاهُمْ إِلَى حِينٍ» و هو وقت انقضاء آجالهم.

[القصة]

و كان من قصه يونس على ما ذكره سعيد بن جبير و السدى و وهب و غيرهم أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل و كان يدعوهم إلى الإسلام فأبوا فأخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث إن لم يتوبوا فقالوا إنا لم نجرب عليه كذبا فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء و إن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان في جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا يغشاهم العذاب قال وهب أغامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشى مدينتهم و اسودت سطوحهم و قال ابن عباس كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ثلثي ميل فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم فلم يجدوه فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم و نسائهم و صبيانهم و دوابهم و لبسوا المسوح و أظهروا الإيمان و التوبه و أخلصوا النيه و فرقوا بين كل والده و ولدها من الناس و الأنعام فحن بعضها إلى بعض و علت أصواتها و اختلطت أصواتها بأصواتهم و تضرعوا إلى الله عز و جل و قالوا آمنا بما جاء به يونس فرحمهم ربهم و استجاب دعاءهم و كشف عنهم العذاب بعد ما أظلمهم قال عبد الله بن مسعود بلغ من توبه أهل نينوى أن يرادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليأتي الحجر و قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه و يرده و روى عن أبي مخلد أنه قال لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقيه علمائهم فقالوا له لقد نزل بنا العذاب فما ترى قال قولوا يا حي حين لا حي و يا حي محي الموتى و يا حي لا إله إلا أنت فقالوها فانكشف عنهم العذاب و

روى عن علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن جميل قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) كان فيهم رجل اسمه مليخا عابد و آخر اسمه روبيل عالم و كان العابد يشير على يونس بالدعاء عليهم و كان العالم ينهاه و يقول له لا تدع عليهم فإن الله يستجيب لك و لا يحب هلاك عباده فقبل يونس قول العابد فدعا عليهم فأوحى الله تعالى إليه أنه يأتيهم العذاب في شهر كذا في يوم كذا فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد و بقى العالم فيهم فلما كان اليوم الذي نزل بهم العذاب قال لهم العالم أفرعوا إلى الله فلعله يرحمكم و يرد العذاب عنكم فاخرجوا إلى المفازه و فرقوا بين النساء و الأولاد و بين سائر الحيوان و أولادها ثم ابكوا و ادعوا ففعلوا فصرف عنهم العذاب و كان قد نزل بهم و قرب منهم و مر يونس على

ص: ٢٠٥

وجهه مغاضبا كما حكى الله تعالى عنه حتى انتهى إلى ساحل البحر فإذا سفينه قد شحت و أرادوا أن يدفعوها فسألهم يونس أن يحملوه فحملوه فلما توسطوا البحر بعث الله عليهم حوتا عظيما فحبس عليهم السفينه فتساهموا فوقع من بينهم السهم على يونس فأخرجوه فألقوه في البحر فالتقمه الحوت و مر به في الماء

وقيل إن الملاحين قالوا نقترع فمن أصابته القرعه ألقيناه في الماء فإن هاهنا عبدا عاصيا أبقا فوقعته القرعه سبع مرات على يونس فقام و قال أنا العبد الآبق و ألقى نفسه في الماء فابتلعه الحوت فأوحى الله إلى ذلك الحوت لا تؤذ شعره منه فإنى جعلت بطنك سجنه و لم أجعله طعامك فلبث في بطنه ثلاثه أيام و قيل سبعة أيام و قيل أربعين يوما

و قد سأل بعض اليهود أمير المؤمنين عليا (عليه السلام) عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه فقال له يا يهودى هو الحوت الذى حبس يونس فى بطنه فدخل فى بحر قلزم حتى خرج إلى بحر مصر ثم سار منها إلى بحر طبرستان ثم خرج من الدجله

قال عبد الله بن مسعود ابتلع الحوت حوت آخر فأهوى به إلى قرار الأرض و كان فى بطنه أربعين ليله فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجاب الله له فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر و هو كالفرخ المتمتع فأنبت الله عليه شجره من يقطين فجعل يستظل تحتها و وكل الله به و علا يشرب من لبنها فيست الشجره فبكى عليها فأوحى الله تعالى إليه تبكى على شجره يبست و لا تبكى على مائه ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى فقال من أنت قال من قوم يونس قال إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنك لقيت يونس فأخبرهم الغلام و رد الله عليه بدنه و رجع إلى قومه و آمنوا به و قيل إنه (عليه السلام) أرسل إلى قوم غير قومه الأولين

[سوره يونس (١٠): الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

أشاره

وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

القراءه

قرأ و نجعل بالنون حماد و يحيى عن أبى بكر و الباقون بالياء.

من قرأ بالنون فإنه ابتداء بالإخبار عن الله و من قرأ بالياء فلأنه تقدم ذكر الله تعالى فكفى عنه.

اللغة

المشيئة و الإرادة و الإيثار و الاختيار نظائر و إنما يختلف عليها الاسم بحسب مواقعها على ما بين فى موضعه قال على بن عيسى النفس خاصة الشىء التى لو بطل ما سواها لم يبطل ذلك الشىء و نفسه و ذاته واحد إلا أنه قد يؤكد بالذات و النفس مأخوذه من النفاسه.

الإعراب

كلهم تأكيد لمن و جميعا نصب على الحال.

المعنى

لما تقدم أن إيمان الملجأ غير نافع بين سبحانه أن ذلك لو كان ينفع لأكره أهل الأرض عليه فقال «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ» يا محمد «لَمَأْمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» أى لآمن أهل الأرض «كُلُّهُمْ جَمِيعاً» و معناه الإخبار عن قدره الله تعالى و أنه يقدر على أن يكره الخلق على الإيمان كما قال «إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ» و لذلك قال بعد ذلك «أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» و معناه أن لا- ينبغى أن تريد إكراههم على الإيمان مع أنك لا- تقدر عليه لأن الله تعالى يقدر عليه و لا يريد له لأنه ينافى التكليف و أراد بذلك تسليه النبي ص و تخفيف ما يلحقه من التحسر و الحرص على إيمانهم عنه و فى هذا أيضاً دلالة على بطلان قول المجبره أنه تعالى لم يزل كان شائياً و لأنه لا يوصف بالقدرة على أن يشاء لأنه تعالى أخبر أنه لو شاء لقدر لكنه لم يشأ فلذلك لم يوجد و لو كانت مشيئته أزيله لم يصح تعليقها بالشرط فصح أن مشيئته فعلية ألا ترى أنه لا يصح أن يقال لو علم سبحانه و لو قدر كما صح أن يقال لو شاء و لو أراد «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» معناه أنه لا يمكن أحد أن يؤمن إلا بإطلاق الله تعالى له فى الإيمان و تمكينه منه و دعائه إليه بما خلق فيه من العقل الموجب لذلك و قيل إن إذنه هاهنا أمره كما قال يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ عن الحسن و الجبائى و حقيقه الإذن إطلاقه فى الفعل بالأمر و قد يكون الأذن بالإطلاق فى الفعل برفع التبعه و قيل إن إذنه هنا علمه أى لا تؤمن نفس إلا بعلم الله من قولهم أذنت لكذا إذا سمعته و علمته و أذنته أعلمته فيكون خيراً من علمه سبحانه لجميع الكائنات و يجوز أن يكون بمعنى إعلام الله المكلفين بفضل الإيمان و ما يدعوهم إلى فعله و يبعثهم عليه «وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» معناه و يجعل العذاب على الذين لا يتفكرون حتى يعقلوا فكأنهم لا عقول لهم عن قتاده و ابن زيد و قيل معناه و يجعل الكفر عليهم أى يحكم عليهم بالكفر و يذمهم عليه عن الحسن و قيل الرجس الغضب

و السخط عن ابن عباس و قال الكسائي الرجس التنن و الرجز و الرجس واحد قال أبو علي و كان الرجس على ضربين (أحدهما) أن يكون في معنى العذاب (و الآخر) أن يكون بمعنى القدر و النجس أى يحكم بأنهم رجس كما قال سبحانه إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

اشاره

قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

القراءه

قرأ الكسائي بروايه نصير و يعقوب بروايه روح و زيد ثم نجى رسلنا خفيفه و روى عن روح التشديد أيضا فيه و الباقر «نَجَّى» بالتشديد وقرأ الكسائي و حفص عن عاصم و يعقوب و سهل «نَجِّ الْمُؤْمِنِينَ» خفيفه و الباقر نجى بالتشديد.

الحجه

حجه من قال نجى قوله فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ و حجه من قال «نَجَّى» قوله وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا و كلاهما حسن قال الشاعر:
و نجنى ابن هند سابح ذو غلاله أجش هزيم و الرماح دوان

اللغه

النظر طلب الشىء من جهه الفكر كما يطلب إدراكه بالعين و النذر جمع نذير و هو صاحب النذاره و الانتظار هو الثبات لتوقع ما يكون من الحال تقول انتظرني حتى ألحقك و لو قلت توقعنى لم تكن قد أمرته بالثبات و المثل فى الجنس ما سد أحدهما مسد صاحبه فيما يرجع إلى ذاته و المثل فى غير الجنس ما كان على معنى يقربه من غيره كقربه من جنسه كتشبيه أعمال الكفار بالسراب و النجاه مأخوذه من النجوه و هى الارتفاع عن الهلاك و كذلك السلامه مأخوذه من إعطاء الشىء من غير نقيصه أسلمته إليه إذا أعطيته سالما من غير آفه.

وجه التشبيه فى كذلك أن نجاه من بقى من المؤمنين كنجاه من مضى فى أنه حق على الله واجب لهم و يحتمل أن يكون العامل فى كذلك ننجى الأول و تقديره ننجى رسلنا و الذين آمنوا كذلك الإنجاء و يحتمل أن يكون العامل فيه ننجى الثانى و حقا نصب على المصدر أى يحق حقا و قيل إنه نصب على الحال و إن كان لفظه لفظ المصدر عن أبى مسلم قال جامع العلوم النحوى الضرير و يجوز أن ينصب حقا بدلا من كذلك أو وصفا و لا يجوز أن ينصب كذلك و حقا جميعا بقوله «نُنَجِّى رُسُلَنَا» لأن الفعل الواحد لا يعمل فى مصدرين و لا فى حالين و لا فى استثناءين و لا فى مفعولى معهما و قد بين ذلك فى موضعه فإن جعلت كذلك من صله ننجى و جعلت حقا من صله قوله «نُنَجِّى الْمُؤْمِنِينَ» أى ننجى المؤمنين حقا كان الوقف على كذلك.

المعنى

ثم بين سبحانه ما يزيد فى تنبيه القوم و إرشادهم فقال «قُلْ» يا محمد لمن يسألك الآيات «انظُرُوا مَا ذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» من الدلائل و العبر من اختلاف الليل و النهار و مجارى النجوم و الأفلاك و ما خلق من الجبال و البحار و أنبت من الأشجار و الثمار و أخرج من أنواع الحيوانات فإن النظر فى أفرادها و جملةتها يدعوا إلى الإيمان و إلى معرفه الصانع و وحدانيته و علمه و قدرته و حكمته «وَ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النَّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» معناه و ما تغنى هذه الدلالات و البراهين الواضحه مع كثرتها و ظهورها و لا الرسل المخوفه عن قوم لا ينظرون فى الأدله تفكرا و تدبرا و لا يريدون الإيمان و قيل ما تغنى معناه أى شىء تغنى عنهم من اجتلاب نفع أو دفع ضرر إذا لم يستدلوا بها فيكون ما للاستفهام و كان الحسن إذا قرأ هذه الآيه هتف بها و قال و ما تغنى الحجج عن قوم لا يقبلونها و

قال أبو عبد الله (عليه السلام) لما أسرى برسول الله ص جبريل بالبراق فركبها فأتى بيت المقدس فلقى من لقي من الأنبياء ثم رجع فأصبح يحدث أصحابه إني أتيت بيت المقدس و لقيت إخوانى من الأنبياء فقالوا يا رسول الله كيف أتيت بيت المقدس الليله قال جاءنى جبرائيل بالبراق فركبتها و آيه ذلك أنى مررت بعير لأبى سفيان على ماء لبني فلان و قد أضلوا جملا لهم أحمر و هم فى طلبه فقال القوم بعضهم لبعض إنما جاءه راكب سريع و لكنكم قد أتيتم الشام و عرفتموها فاسألوه عن أسواقها و أبوابها و تجارها فاسألوه عن ذلك و كان ص إذا سئل عن الشىء لا يعرفه شق ذلك عليه حتى يرى ذلك فى وجهه قال فيينا هو كذلك إذا أتاه جبرائيل (عليه السلام) فقال يا رسول الله هذه الشام قد رفعت لك فالتفت رسول الله ص فإذا هو بالشام فقالوا له أين بيت فلان و مكان كذا فأجابهم فى كل ما سألوه عنه فلم يؤمن منهم إلا قليل و هو قول الله تعالى «وَ مَا تُغْنِي

الآيَاتُ وَ النَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام) فعوذ بالله أن لا تؤمن بالله آمنا بالله و رسوله

«فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ» معناه فهل ينتظر هؤلاء الذين أمروا بالإيمان فلم يؤمنوا و بالنظر فى الأدله فلم ينظروا إلا-العذاب و الهلاك فى مثل الأيام التى هلك من قبلهم من الكفار فيها قال قتاده أراد به وقائع الله فى عاد و ثمود و قوم نوح و عبر عن الهلاك بالأيام كما يقال أيام فلان يراد به أيام دولته و أيام محنته و اللفظ لفظ الاستفهام و المراد به النفى و تقديره ليس ينتظرون إلا ذاك «قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» أى قل يا محمد لهم فانظروا ما وعدنا الله من العذاب فإنى منتظر معكم من جميع المنتظرين لما وعد الله به «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا» من بينهم و نخلصهم من العذاب وقت نزوله و قيل من شرور أعدائهم و مكرهم «كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ» قال الحسن معناه كنا إذا أهلكنا أمه من الأمم الماضيه نجينا نبهم و نجينا الذين آمنوا به أيضا كذلك إذا أهلكنا هؤلاء المشركين نجيناك يا محمد و الذين آمنوا بك و قيل معناه «كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا» أى واجبا علينا من طريق الحكمة «نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ» من عذاب الآخره كما ننجيهم من عذاب الدنيا و

قال أبو عبد الله (عليه السلام) لأصحابه ما يمنعكم من أن تشهدوا على من مات منكم على هذا الأمر أنه من أهل الجنة أن الله تعالى يقول «كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ».

[سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٤ الى ١٠٧]

اشاره

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَ أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَ لَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَ إِنْ يَمَسَّ شَكَّ اللَّهِ بِضُرٍّ فَلَا- كَاشِفَ لَهُ إِلَّا- هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)

اللغه

الشك و قوف فى المعنى و نقيضه كمن يشك فى كون زيد فى الدار فإنه لا

ص: ٢١٠

يكون لإحدى الصفتين عنده مزيه على الأخرى فيقف و هو معنى غير الاعتقاد عند أبي على الجبائي و أبي هاشم ثم رجع عنه أبو هاشم و قال ليس بمعنى و هو اختيار القاضى و التوفى قبض الشىء على التمام و الإقامه نصب الشىء و نقيضه الإضجاج و أقام بالمكان استمر فيه كاستمرار القيام فى جهة الانتصاب و المماسه و المطابقه و المجامعه نظائر و ضدها المباينه و الكشف رفع الساتر المانع من الإدراك فكان الضر هاهنا ساتر يمنع من إدراك الإنسان.

الإعراب

«إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ» شرط و جوابه فى قوله «فَلَا أَعْبُدُ» و إنما صح ذلك لأن معناه إن كنتم فى شك فلا تطمعوا فى تشكيكى حتى أعبد غير الله كعبادتكم.

المعنى

ثم أمر سبحانه نبيه ص بالبراءه عن كل معبود سواه فقال «قُلْ» يا محمد لهؤلاء الكفار «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي» أ حق هو أم لا «فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» لشككم فى دىنى «وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ» أى يقدر على إمامتكم و هذا يتضمن تهديدا لهم لأن وفاه المشركين ميعاد عذابهم التى قيل كيف قال إن كنتم فى شك من دىنى مع اعتقادهم بطلان دىنه فجوابه من وجوه (أحدها) أن يكون التقدير من كان شاكا فى أمرى فهذا حكمه (و الثانى) أنهم فى حكم الشاك للاضطراب الذى يجدونه فى أنفسهم عند ورود الآيات (و الثالث) أن فيهم من كان شاكا فغلب ذكرهم «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى و أمرنى ربه أن أكون من المصدقين بالتوحيد و إخلاص العباده له «وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ» هذا عطف على ما قبله فكأنه قال و قيل لى و أقم وجهك «لِلدِّينِ» أى استقم فى الدين بإقبالك على ما أمرت به من القيام بأعباء الرساله و تحمل أمر الشريعة بوجهك و قيل معناه و أقم وجهك فى الصلاه بالتوجه نحو الكعبه «حَنِيفًا» أى مستقيما فى الدين «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» هذا نهى عن الإشراك مع الله سبحانه غيره فى العباده «وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ» إن أطمعته «وَلَا يَضُرُّكَ» إن عصيته و تركته أى لا تدعه إلها كما يدعوا المشركون الأوثان آلهه و إنما قال «مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ» مع أنه لو نفع و ضر لم تحسن عبادته أيضا لأمرين (أحدهما) أن معناه ما لا ينفعك نفع الإله و لا يضررك ضرره (و الثانى) أنه إذا كان عبادته غير الله ممن يضر و ينفع قبيحه فعباده من لا يضر و لا ينفع أقبح «فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ» معناه فإن خالفت ما أمرت به من عبادته غير الله كنت ظالما لنفسك بإدخالك الضرر الذى هو العقاب عليها و هذا الخطاب و إن كان متوجها إلى النبى ص فى الظاهر فالمراد به أمته «وَأِنْ يَمَسَّ شَكَّ اللَّهِ بِضُرٍّ» معناه و إن أحل الله بك ضرا من بلاء أو شدة أو مرض «فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ» أى لا يقدر أحد على كشفه غيره كأنه سبحانه

لما بين أن غيره لا ينفع ولا يضر عقبه بيان كونه قادرا على النفع والضرر «وَإِنْ يُرْذَكِمْ بِخَيْرٍ» من صحه جسم و نعمه و خصب و نحوها «فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ» أى لا يقدر على منعه أحد و تقديره و إن يردك خيرا و يجوز فيه التقديم و التأخير يقال فلان يردك بالخير و يريد بك الخير «يُصِيبُ بِهِ» أى بالخير «مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» فيعطيه على ما تقتضيه الحكمة و يعلمه من المصلحه «وَهُوَ الْغَفُورُ» لذنوب عباده «الرَّحِيمُ» بهم.

[سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

اشاره

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

المعنى

ثم ختم الله سبحانه السوره بالموعظه الحسنه تسليه للنبي ص و الوعد للمؤمنين و الوعيد للكافرين فقال عز اسمه «قُلْ» يا محمد مخاطبا للمكلفين «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ» و هو القرآن و دين الإسلام و الأدله الداله على صحته و قيل يريد بالحق النبي ص و معجزاته الظاهره «فَمَنْ اهْتَدَى» بذلك بأن نظر فيه و عرفه حقا و صوابا «فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ» معناه فإن منافع ذلك من الثواب و غيره يعود عليه «وَمَنْ ضَلَّ» عنه و عدل عن تأمله و الاستدلال به «فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا» أى على نفسه لأنه يجنى عليها «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» أى و ما أنا بحفيظ لكم عن الهلاك إذا لم تنظروا أنتم لأنفسكم و لم تعلموا بما يخلصها كما يحفظ الوكيل مال غيره و المعنى أنه ليس على إلا البلاغ و لا يلزمنى أن أجعلكم مهتدين و إن أنجيكم من النار كما يجب على من وكل على متاع أن يحفظه من الضرر «وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ» على أذى الكافرين و تكذيبهم «حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ» بينك و بينهم بإظهار دينه و إعلاء أمره «وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» لأنه لا يحكم إلا بالعدل و الصواب.

(١١) سورة هود مكيه و آياتها ثلاث و عشرون و مائه (١٢٣)

اشاره

[توضيح]

هي مكيه كلها في قول الأكثرين و قال قتاده إلا آيه و هو قوله «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ» فإنها نزلت بالمدينه.

عدد آياتها

هي مائه و ثلاث و عشرون آيه كوفي و آيتان شامى و المدنى الأول و آيه فى الباقيين

اختلافها

سبع آيات «بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ» كوفي «فِي قَوْمٍ لُّوطٍ» غير البصرى «مِنْ سَجَّيْلِ» مكى شامى و المدنى الأخير «كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» حجازى «مَنْضُودٍ» و «إِنَّا عَامِلُونَ» عراقى شامى و المدنى الأول مختلفين عراقى شامى

فضلها

أبى بن كعب عن النبى ص قال من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح و كذب به و هود و صالح و شعيب و لوط و إبراهيم و موسى و كان يوم القيامة من السعداء

و

روى الثعلبى بإسناده عن أبى إسحاق عن أبى جحيفه قال قيل يا رسول الله قد أسرع إليك الشيب قال شيبتنى هود و أخواتها

و

فى روايه أخرى عن أنس بن مالك عن أبى بكر قال قلت يا رسول الله عجل إليك الشيب قال شيبتنى هود و أخواتها الحاقه و الواقعه و عم يتساءلون و هل أتاك حديث الغاشيه

و

روى العياشى عن الحسن بن على الوشاء عن ابن سنان عن أبى جعفر (عليه السلام) قال من قرأ سورة هود فى كل جمعه بعثه الله يوم القيامة فى زمرة النبيين و حوسب حسابا يسيرا أو لم تعرف له خطيئه عملها يوم القيامة

تفسيرها

لما ختم الله سبحانه سورة يونس بذكر الوحى فى قوله وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ افْتَحْ هَذِهِ السُّورَةَ بَيَانِ ذَلِكَ الْوَحَىٰ فَقَالَ

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (۱) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (۲) وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (۳) إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴)

اللغه

الإحكام منع الفعل من الفساد و الحكمه المعرفه بما يمنع الفعل من الفساد و النقص و بما يميز القبيح من الحسن و الفاسد من الصحيح و الحكيم فى صفات الله سبحانه يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بمعنى محكم فهو فعيل بمعنى مفعول أى محكم أفعاله فيكون على هذا من صفات فعله فلا- يوصف به فيما لم يزل (و الثانى) أن يكون بمعنى عليم فيكون من صفات ذاته فيوصف بأنه حكيم لم يزل.

الإعراب

قال الزجاج كتاب مرفوع بإضمار هذا كتاب و قال بعضهم كتاب خبر الر و هذا غلط لأن «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» ليس هو الر وحدها و «أَلَّا تَعْبُدُوا» فى موضع نصب تقديره فصلت آياته لأن لا تعبدوا و يحتمل أن يكون على تقدير أمركم بأن لا تعبدوا فلما حذف الباء وصل الفعل فنصبه «وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا» معطوف عليه و معنى إلا فى قوله «إِلَّا اللَّهَ» إيجاب للمذكور بعدها ما نفى عن كل ما سواه من العباده و هى التى تفرغ عامل الإعراب لما بعدها يمتنعكم جزم جواب لقوله «وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» «وَ إِنْ تَوَلَّوْا» يريد تتولوا فحذف إحدى التاءين تخفيفا و ابن كثير يدغم التاء الأولى فى الثانية و يشدد.

المعنى

قد بينا تفسير «الر» و الأفاويل التى فيها فى أول البقره فلا- معنى لإعادته «كِتَابٌ» يعنى القرآن أى هو كتاب «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ» ذكر فيه وجوه (أحدها) أن

معناه «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» فلم ينسخ منها شىء كما نسخت الكتب و الشرائع «ثُمَّ فَصَّلَتْ» ببيان الحلال و الحرام و سائر الأحكام عن ابن عباس (و ثانيها) أن معناه «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» بالأمر و النهى «ثُمَّ فَصَّلَتْ» بالوعد و الوعيد و الثواب و العقاب عن الحسن و أبى العاليه (و ثالثها) «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» جمله ثم فرقت فى الإنزال آيه بعد آيه ليكون المكلف أمكن من النظر و التدبير عن مجاهد (و رابعها) أحكمت فى نظمها بأن جعلت على أبلغ و جوه الفصاحه حتى صار معجزا ثم فصلت بالشرع و البيان المفروض فكأنه قيل محكم النظم مفصل الآيات عن أبى مسلم (و خامسها) أتقت آياته فليس فيها خلل و لا باطل لأن الفعل المحكم ما قد أتقنه فاعله حتى لا يكون فيه خلل ثم فصلت بأن جعلت متتابعه بعضها إثر بعض «مِنْ لَمَدُنْ حَكِيمٍ» أى إن هذا الكتاب أتاكم من عند حكيم فى أحواله و تدابيرهِ «خَبِيرٍ» أى عليم بأحوال خلقه و مصالحهم و فى هذه الآيه دلالة على أن كلام الله سبحانه محدث لأنه وصفه بأنه أحكمت آياته ثم فصلت و الإحكام من صفات الأفعال و كذلك التفصيل ثم قال «مِنْ لَمَدُنْ حَكِيمٍ» و هذه الإضافة لا تصح إلا فى المحدث لأن القديم يستحيل أن يكون صادرا من غيره و قوله «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» معناه أنزل هذا الكتاب ليأمركم «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» و لكى لا- تعبدوا إلا- الله كما يقال كتبت إليك أن لا تخرج من الدار و أن لا تخرج بالنصب و الجزم «إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ» هذا إخبار من النبى ص أنه مخوف من مخالفه الله و عصيانه باليم العقاب مبشر على طاعه الله بجزيلى الثواب «وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» و معناه اطلبوا المغفره و اجعلوها غرضكم ثم توصلوا إليها بالتوبه و قيل معناه استغفروا ربكم من ذنوبكم ثم توبوا إليه فى المستأنف متى وقعت منكم المعصيه عن الجبائى و قيل إن ثم هاهنا بمعنى الواو عن الفراء و هذا لأن الاستغفار و التوبه واحد فتكون التوبه تأكيدا للاستغفار «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا إِلَىٰ أَحْسَلِ مُسِيئَتِي» يعنى أنكم متى استغفرتموه و تبتم إليه يمتعكم فى الدنيا بالنعم السابغه فى الخفض و الدعه و الأمن و السعه إلى الوقت الذى قدر لكم أجل الموت فيه و قال الزجاج يريد بيقينكم و لا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل أهل القرى الذين كفروا «وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ» قيل إن الفضل بمعنى التفضيل و الإفضال أى و يعطى كل ذى إفضال على غيره بمال أو كلام أو عمل بيد أو رجل جزاء إفضاله فيكون الهاء فى فضله عائدا إلى ذى الفضل و قيل إن معناه يعطى كل ذى عمل صالح فضله أى ثوابه على قدر عمله فإن من كثرت طاعاته فى الدنيا زادت درجاته فى الجنه و على هذا فالأولى أن تكون الهاء فى فضله عائدا إلى اسم الله تعالى «وَ إِنْ تَوَلَّوْا» أى أعرضوا عما أمروا به و قيل معناه و إن تتولوا أنتم أى تعرضوا فحذف إحدى التاءين و لذلك شدد ابن كثير فى روايه البزى عنه «فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمَ كَبِيرٍ» أى كبير شأنه و هو يوم القيامة و هذا الخوف ليس فى معنى الشك بل هو فى معنى اليقين أى فقل لهم يا محمد إنى أعلم أن لكم عذابا عظيما و إنما وصف اليوم بالكبير لعظم ما فيه من الأهوال «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ» أى فى ذلك اليوم إلى حكم الله مصيركم لأن حكم غيره يزول فيه و قيل معناه إليه مصيركم بأن يعيدكم للجزاء «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» يقدر على الإعادة و البعث و الجزاء فاحذروا مخالفته.

[سوره هود (١١): آيه ٥]

إشاره

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

القراءه

روى عن ابن عباس بخلاف و مجاهد و يحيى بن يعمر و عن على بن الحسين و أبى جعفر محمد بن على و زيد بن على و جعفر بن محمد (عليه السلام) يثنونى صدورهم على مثال يفوعل و عن ابن عباس أيضا يثنون و عن مجاهد يثتن و روى ذلك أيضا عن عروه الأعشى.

الحجه

أما يثنونى على مثال يفوعل فهو من أمثله المبالغه تقول أعشب البلد فإذا كثر ذلك قلت اعشوشب و كذلك احلولى و اخشوشب و اخشوشن و أما يثنون و يثتن فقد قال ابن جنى إنهما من لفظ الثن و هو ما هس و ضعف من الكلاء و أنشد أبو زيد:

تكفى اللقوح أكله من ثن

يثتن بالهمزه أصله يثنان فحركت الألف لسكونها و سكون النون الأولى فانقلبت همزه و أما «يُثْنُونَ» فأصله يثنونن فلزم الإدغام لتكرير العين إذا كان غير ملحق فأسكنت النون الأولى و نقلت كسرتها إلى الواو و أدغمت النون فى النون فصار يثنون.

اللغه

أصل الثنى العطف تقول ثنيته عن كذا أى عطفته و منه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر فى المعنى و منه الثناء لعطف المناقب فى المدح و منه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه و الاستخفاء طلب خفاء الشىء يقال استخفى و تخفى بمعنى و كذلك استغشى

أرعى النجوم و ما كلفت رعيتهما و تاره أتغشى فضل أطمارى

الإعراب

ألا معناها التنبيه و لا حظ لها فى الإعراب و ما بعدها مبتدأ.

النزول

قيل نزلت فى الأحنس بن شريق و كان حلو الكلام يلقي رسول الله ص بما يحب و ينطوى بقلبه على ما يكره عن ابن عباس و روى العياشى بإسناده عن أبى جعفر (عليه السلام) قال أخبرنى جابر بن عبد الله أن المشركين إذا مروا برسول الله ص طأطأ أحدهم رأسه و ظهره هكذا و غطى رأسه بثوبه حتى لا يراه رسول الله ص فأنزل الله هذه الآية.

المعنى

لما تقدم ذكر القرآن بين سبحانه فعلهم عند سماعه فقال «أَلَا إِنَّهُمْ» يعنى الكفار و المنافقين «يَتَّوْنُ صُدُورَهُمْ» أى يطوونها على ما هم عليه من الكفر عن الحسن و قيل معناه يحنون صدورهم لكيلا يسمعا كلام الله سبحانه و ذكره عن قتاده و قيل يتنونها على عداوة النبى ص عن الفراء و الزجاج و قيل إنهم إذا عقدوا مجلسا على معاداة النبى ص و السعى فى أمره بالفساد انضم بعضهم إلى بعض و ثنى بعضهم صدره إلى صدر بعض يتناجون «لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ» أى ليخفوا ذلك من الله تعالى على القول الأخير فإنهم كانوا قد بلغ من شدة جهلهم بالله أن ظنوا أنهم إذا ثنوا صدورهم على سبيل الإخفاء لم يعلم الله تعالى أسرارهم و على الأقوال الأخر معناه ليستروا ذلك عن النبى ص «أَلَا حِينَ يَسْتَتَعِشُونَ ثِيَابَهُمْ» معناه أنهم يتغطون بثيابهم ثم يتفاوضون فيما كانوا يدبرونه على النبى ص و على المؤمنين فيكتمونه عن ابن عباس فبين الله سبحانه أنه «يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ» وقت ما يتغطون بثيابهم و يجعلونها غشاء فوقهم لا بمعنى أنه يتجدد له العلم فى حال استغشائهم بالثوب بل هو عالم بذلك فى الأزل «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» يريد بما فى النفوس عن ابن عباس و بحقيقه ما فى القلوب من المضمرات و قيل إنه كنى باستغشاء ثيابهم عن الليل لأنهم يتغطون بظلمته كما يتغطون بثيابهم.

إشارة

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ سَمَوَاتِهِ مَاءً غَدِيدًا وَكَانَ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧) وَلَقَدْ أَخْرَجْنَا عَنْهَا الْعَادِيَةَ إِلَىٰ أُمَمٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولَنَّ مَا يَجْحِسُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)

اللغة

الدابة الحي الذي من شأنه أن يدب وقد صار في العرف مختصاً بنوع من الحيوان وقد ورد القرآن بها على الأصل في قوله «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ»، وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ.

الإعراب

اللام في قوله لئن لام القسم ولا يجوز أن يكون لام الابتداء لأنها دخلت على أن التي للجزاء ولام الابتداء إنما هي للاسم أو ما ما ضارع الاسم في باب إن و جواب الجزاء مستغنى عنه بجواب القسم لأنه إذا جاء في صدر الكلام غلب عليه كما أنه إذا تأخر و توسط الغي و «يَوْمَ يَأْتِيهِمْ» نصب على الظرف من مصروف أي ليس يصرف العذاب عنهم يوم يأتيهم العذاب.

المعنى

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ» أي ليس من دابة تدب على وجه الأرض و يدخل فيه جميع ما خلقه الله تعالى على وجه الأرض من الجن و الإنس و الطير و الأنعام و الوحوش و الهوام «إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» أي إلا و الله سبحانه يتكفل برزقها و يوصله إليها على تقتضيه المصلحة و توجه الحكمة «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا» أي يعلم موضع قرارها و الموضع الذي أودعها فيها و هو أصلاب الآباء و أرحام الأمهات عن مجاهد و قيل مستقرها حيث تأوى إليه من الأرض و مستودعها حيث تموت و تبعث منه عن ابن عباس و الربيع و قيل مستقرها ما يستقر عليه عملها و مستودعها ما يصير إليه «كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» هنا إخبار منه سبحانه أن جميع ذلك مكتوب في كتاب ظاهر و هو اللوح المحفوظ و إنما أثبت سبحانه ذلك مع أنه عالم لذاته لا يعزب عن علمه شيء من مخلوقاته لما فيه من اللطف للملائكة أو لمن يخبر بذلك «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» هذا إخبار منه سبحانه عن

نفسه بأنه أنشأهما في هذا المقدار من الزمان مع قدرته على أن يخلقهما في مقدار لمح البصر و الوجه في ذلك أنه سبحانه أراد أن يبين بذلك أن الأمور جاريه في التدبير على منهاج الحكمة منشأه على ترتيب لما في ذلك من المصلحه و المراد بقوله «سِتِّهِ أَيَّامٍ» ما مقداره مقدار سته أيام لأنه لم يكن هناك أيام بعد فإن اليوم عباره عما بين طلوع الشمس و غروبها «وَ كَانَ عَزْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» في هذا دلالة على أن العرش و الماء كانا موجودين قبل خلق السموات و الأرض و كان الماء قائما بقدره الله تعالى على غير موضع قرار بل كان الله يمسكه بكمال قدرته و في ذلك أعظم الاعتبار لأهل الإنكار و قيل إن المراد بقوله «عَزْشُهُ» بناؤه يدل عليه قوله وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ أى يبنون و المعنى و كان بناؤه على الماء فإن البناء على الماء أبدع و أعجب عن أبى مسلم «لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» معناه أنه خلق الخلق و دبر الأمور ليظهر إحسان المحسن فإنه الغرض في ذلك أى ليعاملكم معامله المبتلى المختبر لثلا- يتوهم أنه سبحانه يجازى العباد على حسب ما في معلومه أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه و في قوله «أَحْسَيْنُ عَمَلًا» دلالة على أنه قد يكون فعل حسن أحسن من حسن آخر لأن حقيقه لفظه أفعل يقتضى ذلك «وَ لَئِنْ قُلْتَ» يا محمد لهم «إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ» للحساب و الجزاء «لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» أى ليس هذا القول إلا- تمويه ظاهر لا حقيقه له و من قرأ سحر فالمراد ليس هذا يعنون النبى ص إلا ساحر قال الجبائى و فى الآيه دلالة على أنه كان قبل خلق السموات و الأرض الملائكه لأن خلق العرش على الماء لا وجه لحسنه إلا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد إذا من حى مكلف و قال على بن عيسى لا يمتنع أن يكون فى الأخبار بذلك مصلحه للمكلفين فلا يجب ما قاله الجبائى و هو الذى اختاره المرتضى قدس الله روحه «وَ لَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّه مَعْدُودَةٍ» معناه و لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار عذاب الاستئصال إلى أجل مسمى و وقت معلوم و الأمه الحين كما قال سبحانه وَ اذْكَرْ بَعْدَ أُمَّه و هو قول ابن عباس و مجاهد و قيل «إِلَى أُمَّه» أى إلى جماعه يتعاقبون فيصرون على الكفر و لا يكون فيهم من يؤمن كما فعلنا بقوم نوح عن على بن عيسى و قيل معناه إلى أمه بعد هؤلاء نكلفهم فيعضون فتقتضى الحكمة إهلاكهم و إقامة القيامة عن الجبائى و

قيل إن الأمه المعدوده هم أصحاب المهدي (عليه السلام) فى آخر الزمان ثلاثائه و بضعه عشر رجلا كعده أهل بدر يجتمعون فى ساعه واحده كما يجتمع قزح الخريف و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (عليه السلام)

«لَيَقُولَنَّ» على وجه الاستهزاء «ما يَحْبِسُهُ» أى أى شىء يؤخر هذا العذاب عنا إن كان حقا «أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ» أى إن هذا العذاب الذى يستبطنونه إذا

نزل بهم فى الوقت المقدور لا يقدر أحد على صرفه عنهم إذا أراد الله أن يأتيهم به ولا يتمكن من إذهابه عنهم إذا أراد الله أن يأتيهم به «و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤون» أى و نزل بهم الذى كانوا يسخرون به من نزول العذاب و يحققونه.

النظم

وجه اتصال الآيه الأولى بما قبلها أنه لما قال سبحانه «يَعْلَمُ مَا يُسْتَهْرُؤُونَ وَ مَا يُغْلَبُونَ» قال عقبيه و كيف يخفى على الله سر هؤلاء و هو يرزقهم و إذا وصل إلى كل واحد رزقه و لم ينسه فليعلم أنه يعلم سره و قوله «وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا» يدل على ما ذكرنا ثم زاده بيانا بقوله «وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ» الآيه فإن أصل الخلق التقدير الذى لا يختل بالنقصان و الزيادة و ذلك لا يتم إلا من العالم لذاته.

[سوره هود (١١): الآيات ٩ الى ١١]

اشاره

وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسُ كَفُورٌ (٩) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّئُهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

اللغه

الذوق تناول الشىء بالفم لإدراك الطعم و سمي الله سبحانه إحلال اللذات بالإنسان إذاقه لسرعه زوالها تشبيها بما يذاق ثم يزول كما قيل:

" أحلام نوم أو كظل زائل "

و النزع قلع الشىء عن مكانه و اليؤس فعول من يئس و اليأس القطع بأن الشىء المتوقع لا يكون و نقيضه الرجاء و النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه و الضراء مضره تظهر الحال بها لأنهما أخرجتا مخرج الأحوال الظاهره مثل حمراء و عيناء مع ما فيهما من المبالغه و الفرح و السرور من النظائر و هو انفتاح القلب بما يلتذ به و ضده الغم و الصحيح أن الغم السرور من جنس الاعتقادات و ليسا بجنسين من الأعراض و من الناس من قال إنهما جنسان و الفخور الذى يكثر فخره و هو التناول بتعديد المناقب و هى صفه ذم إذا أطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه.

الإعراب

اللام فى «لئن» لتوطيه القسم و ليست للقسم و التقدير و الله لئن أذقنا الإنسان منا رحمه إنه ليؤس فإنه جواب القسم الذى هيأته اللام إلا أنه مغن عن جواب الشرط و واقع موقعه و مثله قول الشاعر:

لئن عاد لى عبد العزيز بمثلها و أمكننى منها إذا لا أقبلها

أى و الله لا- أقبلها و لو كانت جواب أن لكان لا أقبلها الذين صبروا فى موضع نصب على الاستثناء من الإنسان لأنه اسم الجنس فهو كقوله «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا» و قال الزجاج و الأخفش أنه استثناء ليس من الأول و المعنى لكن الذين صبروا و الأول قول الفراء.

المعنى

ثم بين سبحانه حال الإنسان فيما قابل به نعمه من الكفر فقال «وَلَيْئِنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً» أى أحللنا به نعمه من الصحة و الكفايه و السعه من المال و الولد و غير ذلك من نعم الدنيا «ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ» أى سبلنا تلك النعمه عنه إذا رأينا المصلحه فيه «إِنَّهُ لَيُؤْسٌ» أى قنوط و هو الذى سنته و عادته اليأس «كُفُورٌ» و هو الذى عادته كفران النعمه و معنى الآيه مصروف إلى الكفار الذين هذه صفتهم لجهلهم بالصانع الحكيم الذى لا يعطى و لا يمنع إلا لما تقتضيه الحكمة من وجوه المصالح «وَلَيْئِنِ أَدَقْنَا» أى أحللنا به و أعطينا «نِعْمَاءَ بَعِيدَ ضَرَاءَ مَسْتَه» أى بعد بلاء أصابته «لَيَقُولَنَّ» عند نزول النعماء به «ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي» أى ذهب الخصال التى تسوء صاحبها من جهه نفور طبعه عنه و هو هاهنا بمعنى الشدائد و الآلام و الأمراض عنى فلا تعود إلى و لا يؤدى شكر الله عليها «إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ» يفرح به و يفخر به على الناس فلا- يصبر فى المحنة و لا- يشكر عند النعمه «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا» معناه إلا الذين قابلوا الشده بالصبر و النعمه بالشكر «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أى واطبوا على الأعمال الصالحه «أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ» و هو الجنة.

[سوره هود (١١): الآيات ١٢ الى ١٤]

اشاره

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلْمٌ يَشْتَجِبُونَ لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

ص: ٢٢١

ضائق و ضيق بمعنى واحد إلا أن ضائق هاهنا أحسن لوجهين (أحدهما) أنه عارض (و الآخر) أنه أشكل بقوله «تارك» و الكثر المال المدفون سمي بذلك لاجتماعه و كل مجتمع من لحم و غيره مكتنز و صار في الشرع اسم ذم لكل مال لا يخرج منه حق الله تعالى من الزكاه و غيره و إن لم يكن مدفونا و افتري و اختلق و اخترق و خلق و خرص و خرق إذا كذب و الاستجابة في الآيه طلب الإجابة بالقصد إلى فعلها و يقال استجاب و أجاب بمعنى واحد و الفرق بين الإجابة و الطاعة إن الطاعة موافقه الإراده الجاذبه إلى الفعل برغبه أو رهبه و الإجابة موافقه الداعى إلى الفعل من أجل أنه دعا به.

الإعراب

«أَنْ يَقُولُوا» في موضع نصب بأنه مفعول له و تقديره كراهه أن يقولوا فحذف المضاف و قيل «أَنْ يَقُولُوا» في موضع جر بدلا من الهاء في قوله «ضائقٌ بِهِ صِدْرُكَ» «أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاءً» أم هذه منقطعه ليست بالمعادله و تقديره بل أ يقولون افتراء و هو تقرير بصوره الاستفهام.

النزول

روى عن ابن عباس أن رؤساء مكة من قريش أتوا رسول الله ص فقالوا يا محمد إن كنت رسولا فحول لنا جبال مكة ذهبا أو اثنا بملائكة يشهدون لك بالنبوه فأنزل الله تعالى «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ» الآيه

و

روى العياشى بإسناده عن أبى عبد الله (عليه السلام) أن رسول الله ص قال لعلى (عليه السلام) إنى سألت ربي أن يؤاخى بينى و بينك ففعل و سألت ربي أن يجعلك وصيى ففعل فقال بعض القوم و الله لصاع من تمر فى شن بال أحب إلينا مما سأل محمد ربه فهلا سأله ملكا يعضده على عدوه أو كنزا يستعين به على فاقته فنزلت الآيه.

المعنى

ثم أمر سبحانه رسوله بالثبات على الأمر و حثه على حجاج القوم بما يقطع العذر فقال «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ» أى و لعلك تارك بعض القرآن و هو ما فيه سب آلهتهم و لا- تبلغهم إياه دفعا لشرهم و خوفا منهم «وَ ضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ» أى و لعلك يضيق صدرك مما يقولونه و بما يلحقك من أذاهم و تكذيبهم و قيل باقتراحاتهم «أَنْ يَقُولُوا» أى كراهه أن يقولوا أو مخافه أن يقولوا «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ» من المال «أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ» يشهد له فليس قوله «فَلَعَلَّكَ» على وجه الشك بل المراد به النهى عن ترك أداء الرساله و الحث على أدائها كما يقول أحدنا لغيره و قد علم من حاله أنه يطيعه و لا يعصيه و يدعوه غيره إلى عصيانه لعلك تترك ما أمرك به لقول فلان و إنما يقول ذلك ليؤيس من يدعوه إلى ترك أمره فمعناه لا تترك بعض ما يوحى إليك و لا يضيق صدرك بسبب مقاتلتهم هذه «إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ» أى منذر «وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» أى حفيظ يجلب النفع إليه و يدفع الضرر عنه «أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاءً» معناه بل أ يقولون اختلق القرآن و اخترعه و أتى به من عند نفسه و قيل إن

هاهنا محذوفاً و تقديره أ يكذبونك فيما أتيتهم به من القرآن أم يقولون افتريته على ربك و حذف لدلاله ما أبقى على ما ألقى و على هذا فيكون أم هذه هي متصله «قُلْ» يا محمد لهم «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» أى إن كان هذا مفترى على الله كما زعمتم فأتوا أنتم بعشر سور مثله فى النظم و الفصاحة مفتريات على زعمكم فإن القرآن نزل بلغتكم و قد نشأت أنا بين أظهركم فإن لم يمكنكم ذلك فاعلموا أنه من عند الله تعالى و هذا صريح فى التحدى و فيه دلالة على جهه إعجاز القرآن و أنها هي البلاغه و الفصاحة فى هذا النظم المخصوص لأنه لو كان جهه الإعجاز غير ذلك لما قنع فى المعارضه بالافتراء و الاختلاق لأن البلاغه ثلاث طبقات فأعلى طبقاتها معجز و أدناها و أوسطها ممكن فالتحدى فى الآيه إنما وقع فى الطبقة العليا منها و لو كان وجه الإعجاز الصرفه لكان الركيك من الكلام أبلغ فى باب الإعجاز و المثل المذكور فى الآيه لا يجوز أن يكون المراد به مثله فى الجنس لأن مثله فى الجنس يكون حكايته فلا يقع بها التحدى و إنما يرجع ذلك إلى ما هو متعارف بين العرب فى تحدى بعضهم بعضاً كما اشتهر من مناقصات امرئ القيس و علقمه و عمرو بن كلثوم و الحرث بن حلزة و جرير و الفرزدق و غيرهم و قوله «وَ ادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» معناه ادعوهم ليعينوكم على معارضه القرآن إن كنتم صادقين فى قولكم إنى افتريته و يريد بقوله «مَنِ اسْتِطَعْتُمْ» من خالف نبينا محمداً من جميع الأمم و هذا غاية ما يمكن فى التحدى و المحاجه و فيه الدلاله الواضحه على إعجاز القرآن لأنه إذا ثبت أن النبى ص تحداهم به و أوعدهم بالقتل و الأسر بعد أن عاب دينهم و آلهتهم و ثبت أنهم كانوا أحرص الناس على إبطال أمره حتى بذلوا مهجهم و أموالهم فى ذلك فإذا قيل لهم افتروا أنتم مثل هذا القرآن و أدحضوا حجته و ذلك أيسر و أهون عليكم من كل ما تكلفتموه فعدلوا عن ذلك و صاروا إلى الحرب و القتل و تكلف الأمور الشاقه فذلك من أدل الدلائل على عجزهم إذ لو قدروا على معارضته مع سهوله ذلك عليهم لفعلوه لأن العاقل لا يعدل عن الأمر السهل إلى الصعب الشاق مع حصول الغرض بكل واحد منهما فكيف و لو بلغوا غايه أمانيتهم فى الأمر الشاق و هو قتله ص لكان لا يحصل غرضهم من إبطال أمره فإن المحقق قد يقتل فإن قيل لم ذكر التحدى مره بعشر سور و مره بحديث مثله فالجواب أن التحدى إنما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام فيجوز أن يتحدى مره بالأقل و مره بالأكثر «فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ» قيل أنه خطاب للمسلمين و المراد فإن لم يجبكم هؤلاء الكفار إلى الإتيان بعشر سور مثله معارضه لهذا القرآن «فَاعْلَمُوا» أيها المسلمون «أَنَّمَا أُنزِلَ الْقُرْآنُ بِعِلْمِ اللَّهِ» عن مجاهد و اختاره الجبائى و قيل هو خطاب للكفار و تقديره فإن لم يستجب لكم من تدعونهم

إلى المعاونه و لم يتهياً لكم المعارضه فقد قامت عليكم الحججه و قيل إن الخطاب للرسول ص أى فإن لم يجيبوك و ذكره بلفظ الجمع تفخيماً و الغرض التنبيه على إعجاز القرآن و أنه المنزل من عند الله سبحانه على نبيه ص و ذكر فى قوله «يَعْلَمُ اللَّهُ» وجوه (أحدها) أن معناه إن الله عالم به و بأنه حق منزل من عنده (و ثانيها) أن معناه بعلم الله مواقع تأليفه فى علو طبقته و أنه لا يقدر أحد على معارضته (و ثالثها) أنه أنزله الله على علم بترتيبه و نظمه و لا يعلم غيره ذلك «وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أى و اعلموا أنه لا إله إلا هو لأن مثل هذا المعجز لا يقدر عليه إلا الله الواحد الذى لا إله إلا هو «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» أى هل أنتم بعد قيام الحججه عليكم بما ذكرناه من كلام الله مستسلمون منقادون لتوحيده و هذا استفهام فى معنى الأمر مثل قوله فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ.

[سوره هود (١١): الآيات ١٥ الى ١٦]

إشارة

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

القراءة

روى فى الشواذ قراءة أبى و ابن مسعود و باطلا ما كانوا يعملون.

الحججه

الوجه فيه أن يكون باطلا- منصوبا يعملون و ما زيده للتوكيد فكأنه قال و باطلا كانوا يعملون و مثله قوله أ هُوَ لِإِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ.

اللغه

الزينة تحسين الشىء بغيره من لبسه أو حليه أو هيئه يقال زانه يزينه زينه و زينه يزينه تزينا و التوفيه تأديه الحق على تمام و البخس نقصان الحق و كل ظالم باخس لأنه يظلم غيره بنقصان حقه و فى المثل " تحسبها حمقاء و هى باخس ". الإعراب

قال الفراء كان هذه هنا زائده و تقديره من يرد الحياه الدنيا و قال غيره معناه إن يصح أنه كان كقوله سبحانه إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ وَلَا- يجوز مثل ذلك فى غير كان لأنها أم الأفعال قال أبو على الشرط و الجزاء لا يقعان إلا فيما يستقبل فحرف الجزاء يحيل معنى الماضى إلى الاستقبال لا محاله و لو جاز وقوع الماضى بعدها على معناها لما جازمت ألا ترى أن لو لم تجزم و إن كان فيها معنى الشرط و الجزاء لوقوع الماضى بعدها على بابه نحو لو جئتنى أمس لأكرمتهك.

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا» أى زهرتها و حسن بهجتها و لا يريد الآخرة «تُوفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا» أى نوفر عليهم جزاء أعمالهم فى الدنيا تاما «وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ» أى لا ينقصون شيئا منه و اختلف فى معناه فقيل إن المراد به المشركون الذين لا يصدقون بالبعث يعملون أعمال البر كصلة الرحم و إعطاء السائل و الكف عن الظلم و إغاثة المظلوم و الأعمال التى يحسنها العقل كبناء القناطير و نحوه فإن الله يعجل لهم جزاء أعمالهم فى الدنيا بتوسيع الرزق و صحة البدن و الإمتاع بما حولهم و صرف المكاره عنهم عن الضحاك و قتاده و ابن عباس و يقال إن من مات منهم على كفره قبل استيفاء العوض وضع الله عنه فى الآخرة من العذاب بقدره فأما ثواب الآخرة فلا حظ لهم فيه و قيل المراد به المنافقون الذين كانوا يغزون مع النبى ص للغنيمه دون نصره الدين و ثواب الآخرة جازاهم الله تعالى على ذلك بأن جعل لهم نصيبا فى الغنيمه عن الجبائى و قيل إن المراد به أهل الرياء فإن من عمل عملا من أعمال الخير يريد به الرياء لم يكن لعمله ثواب فى الآخرة و مثله قوله تعالى «وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ» و

فى الحديث أن النبى ص قال بشروا أمتى بالنساء و التمكين فى الأرض و من عمل منهم عملا للدنيا لم يكن له نصيب فى الآخرة «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» ظاهر المراد «وَ حَبِطَ مَا صَبَّغُوا فِيهَا» فلا- يستحقون عليه ثوابا لأنهم أوقعوه على خلاف الوجه المأمور بإيقاعه عليه «وَ باطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى بطل أعمالهم التى عملوها لغير الله تعالى و هذا يحقق ما ذهبنا إليه من أن الإحباط عباره عن إبطال نفس العمل بأن يقع على غير الوجه الذى يستحق به الثواب و

ذكر الحسن فى تفسيره أن رجلا من أصحاب النبى ص خرج من عند أهله فإذا جاريه عليها ثياب و هيئه فجلس عندها فقامت فأهوى بيده إلى عارضها فمضت فأتبعها بصره و مضى خلفها فلقى حائط فخمس وجهه فعلم أنه أصيب بذنبه فأتى رسول الله ص فذكر له ذلك فقال أنت رجل عجل الله عقوبه ذنبك فى الدنيا أن الله تعالى إذا أراد بعبد شرا أمسك عنه عقوبه ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة و إذا أراد به خيرا عجل له عقوبه ذنبه فى الدنيا.

النظم

وجه اتصال الآيه بما قبلها أنه سبحانه لما قال «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» فكان قائلا إن أظهرنا الإسلام لسلامه المال و النفس يكون ما ذا فقال من أراد الدنيا دون الآخرة سواء أرادها بإظهار الإسلام أو أرادها بسائر المساعى فسيبيله هذا.

إشارة

أَقَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١)

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ (٢٢)

اللغة

البينه الحجة الفاصله بين الحق و الباطل و العرض إظهار الشىء بحيث يرى للتوقيف على حاله يقال عرضت الكتاب على فلان و عرضت الجنند و معنى العرض على الله أنهم يقفون فى المقام الذى يريه العباد للمطالبه بالأعمال فهو كالعرض عليه سبحانه و الأشهاد جمع شاهد فهو كصاحب و أصحاب و قيل جمع شهيد كشرىف و أشراف و العوج العدول عن طريق الصواب يقال فى الدين عوج بالكسر و فى العصا عوج بالفتح فرقا بين ما يرى و لا يرى فجعلوا السهل للسهل و الصعب للصعب أعنى الفتح و الكسر و الإعجاز الامتناع عن المراد بما لا يمكن معه إيقاعه و حقيقه الاستطاعه القوه التى تنطاع بها الجارحه

للفعل و لذلك لا يقال في الله تعالى إنه مستطيع و أصل الجرم القطع و لا جرم تقديره لا قطع قاطع عن ذا إلا أنه أكثر حتى صار كالمثل و هو قول الشاعر:

و لقد طعنت أبا عينه طعنه جرمت فزاره بعدها أن يغضبوا

أى قطعتهم إلى الغضب فروايه الفراء في فزاره النصب و المعنى كسبتهم أن يغضبوا و روى غيره يرفعها بمعنى أن الفعل لها.

الإعراب

«فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ» خبره محذوف و تقديره أفمن كان على بينه من ربه و على الأوصاف التي ذكرتها كمن لا بينه له و مثله حذف جواب لو في قوله:

و أقسم لو شىء أتانا رسوله سواك و لكن لم نجد لك مدفعا

و «كِتَابُ مُوسَى» عطف على قوله «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أى و كان يتلوه كتاب موسى من قبله و نصب «إِمَامًا وَ رَحْمَةً» على الحال لأن كتاب موسى معرفه و قوله «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» كرر قوله «هُمْ» مرتين كما قال «أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنْتُمْ مُحْرَجُونَ» كرر أنهم مرتين و وجهه أنه لما طال الكلام كرر مره أخرى للتوكيد، «لَا جَزَمَ» قال سيبويه جرم فعل ماض و لا- رد لقولهم كقوله «وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَزَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ» قال لا أى ليس لهم الجنة ثم قال جرم أى كسبهم قولهم أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى أَنَّ لَهُمُ النَّارَ، و قيل جرم بمعنى وجب أى وجب أن لهم النار.

المعنى

«أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ» استفهام يراد به التقرير و تقديره هل الذى كان على برهان و حجه من الله و المراد بالبينه هنا القرآن و المعنى بقوله «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ» النبى ص و قيل المعنى به كل محق يدين بحجه و بينه لأن من يتناول العقلاء و قيل هم المؤمنون من أصحاب محمد ص عن الجبائى «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أى و يتبعه من يشهد بصحته منه و اختلف في معناه فقيل الشاهد جبرائيل (عليه السلام) يتلو القرآن على النبى ص من الله تعالى عن ابن عباس و مجاهد و الزجاج و قيل

شاهد من الله تعالى محمد ص و روى ذلك عن الحسين بن على (عليه السلام)

و ابن زيد و اختاره الجبائى و قيل شاهد منه لسانه أى يتلو القرآن بلسانه عن محمد بن على ابن الحنفية و الحسن و قتاده و قيل

الشاهد منه على بن أبى طالب (عليه السلام) يشهد للنبى ص و هو منه و هو المروى عن أبى جعفر و على بن موسى

الرضا (عليه السلام) و رواه الطبري بإسناده عن جابر بن عبد الله عن علي (عليه السلام)

وقيل الشاهد ملك يحفظه ويسدده عن مجاهد وقيل بينه من ربه حجه من عقله وأضاف البينه إليه تعالى لأنه ينصب الأدله العقلية والشرعية ويتلوه شاهد منه يشهد بصحته وهو القرآن عن أبي مسلم «وَمِنْ قَوْلِهِ» أي ومن قبل القرآن لأنه مدلول عليه فيما تقدم من الكلام وقيل معناه ومن قبل محمد ص «كِتَابُ مُوسَى» يتلوه أيضا في التصديق لأن النبي ص بشر به موسى في التوراه «إماماً» يؤتم به في أمور الدين «وَرَحْمَةً» أي ونعمه من الله تعالى على عباده وقيل معناه ذا رحمه أي سبب الرحمه لمن آمن به «أَوْلِيَّكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» معناه أولئك الذين هم على بينه من ربهم يؤمنون بالقرآن وقيل بمحمد ص وتقدير الآيه أ فمن كان على بينه من ربه وبصيره كمن ليس على بينه ولا بصيره إلا أنه اختصر وقيل تقديره أ فمن كان على بينه من ربه ويتلوه شاهد منه على صدقه ويتقدمه شاهد فآمن بهذا كله كمن أراد الحياه الدنيا وزينتها ولم يؤمن ثم أخبر عنه فقال «أَوْلِيَّكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» وقوله «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْنَارُ مَوْعِدُهُ» معناه ومن يكفر بالقرآن أو بمحمد ص من مشركى العرب و فرق الكفار كاليهود والنصارى وغيرهم فالنار موعده ومصيره ومستقره و

في الحديث أن النبي ص قال لا يسمع بي أحد من الأمة لا يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار

«فَلَا تَكُ فِي مَرْبِيهِ» أي فى شك «مِنْهُ» الخطاب للنبي ص والمراد جميع المكلفين وقيل إن تقديره لا تك أيها الإنسان أو أيها السامع فى مريه من ربك أي من أمره وإنزاله «إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» الهاء راجع إلى القرآن وقيل إلى محمد ص وقيل معناه أن الخير الذى أخبرتك به حق من عند الله تعالى «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» بصحته و صدقه لجهلهم بالله تعالى و جحدهم لنبوه نبيه ص «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» أي لا أحد أظلم منه إلا أنه خرج مخرج الاستفهام ليكون أبلغ «أَوْلِيَّكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ» يوم القيامة أى يوقفون موقفا يراهم الخلائق للمطالبه بما عملوا و يسألون عن أعمالهم و يجازون عليها «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ» يعنى الملائكه يشهدون على العباد و هم الحفظه عن مجاهد وقيل هم الأنبياء عن الضحاك وقيل هم شهداء كل عصر من أئمة المؤمنين «هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ» أى كذبوا على رسل ربهم وأضافوا إلى الله ما لم ينزله «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» هذا ابتداء خطاب من الله تعالى وقيل هو من كلام الأشهاد ومعناه ألا لعنه الله على الذين ظلموا أنفسهم بإدخال الضرر عليها وغيرهم بإحلال الآلام عليهم و لعنه الله إبعاده من رحمته ثم وصف سبحانه الظالمين الذين لعنهم فقال «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» أى يغوون الخلق و يصرفونهم عن دين الله و قد يكون ذلك بإلقاء الشبهه إليهم و قد يكون أيضا بالترغيب و التهيب و الإطماع

والتهديد و غير ذلك و إنما جاز تمكين الصاد عن سبيل الله من هذا الفساد لأنه مكلف بالامتناع منه و ليس فى منعه لطف بأن ينصرف عن الفساد إلى الصلاح فهو كشهوه القيسح الذى به يصح التكليف «وَيُغْوِنَهَا عِوَجًا» أى و يطلبون لسبيل الله زيغا عن الاستقامه و عدولا عن الصواب و قيل إن بغيرهم العوج هى زيادتهم و نقصانهم فى الكتاب ليتغير الأدله و لا يستقيم صفه النبى ص كما كان يفعلها اليهود و قيل هى إيرادهم الشبهه و كتمانهم المراد و تحريفهم التأويل «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ» أى بالقيامه و البعث و النشور و الثواب و العقاب «هُمْ كَافِرُونَ» أى جاحدون غير مقرين «أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأن عليهم لعنه الله و أنهم الذين يصدون عن سبيل الله بأنهم لم يكونوا فائتين فى الأرض هربا فيها من الله تعالى إذا أراد إهلاكهم كما يهرب الهارب من عدو قد جد فى طلبه و إنما خص الأرض بالذكر و إن كانوا لا يفوتون الله و لا يخرجون عن قبضته على كل حال لأن معاقل الأرض هى التى يهرب إليها البشر و يعتصمون بها عند المخاوف فكأنه سبحانه نفى أن يكون لهؤلاء الكفار عاصم منه و مانع من عذابه «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» معناه أنه ليس لهم من ولى و لا ناصر ينصرونهم و يحمونهم من الله سبحانه مما يريد إيقاعه بهم فى الدنيا من المكاره و فى الآخرة من أنواع العذاب «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ» قيل فى معناه وجوه (أحدها) أنه لا يقتصر بهم على عذاب الكفر بل يعاقبون عليه و على سائر المعاصى كما قال فى موضع آخر زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (و ثانيها) أن معناه أنه كلما مضى ضرب من العذاب يعقبه ضرب آخر من العذاب مثله أو فوجه كذلك دائما مؤبدا و كل ذلك على قدر الاستحقاق (و ثالثها) أنه يضاعف العذاب على رؤسائهم لكفرهم و ظلمهم أنفسهم و لدعائهم الاتباع إليه و هو عذاب الضلال و عذاب الصد عن الدين «مَا كَانُوا يَسْتِطِيعُونَ السَّمْعَ وَ مَا كَانُوا يُبْصِرُونَ» فيه وجوه (أحدها) يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون و بما كانوا يستطيعون الأبصار فلا يبصرون عنادا و ذهابا عن الحق فأسقطت الباء عن الكلام كما فى قول الشاعر:

نغالى اللحم للأضياف نيا و نبذله إذا نضج القدور

أراد نغالى باللحم عن الفراء و البلخى و هذا وجه رابع من معنى قوله «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ» (و ثانيها) أنه لاستثقالهم استماع آيات الله و كراحتهم تذكرها و تفهمها جروا مجرى

من لا يستطيع السمع و إن أبصارهم لم تنفعهم مع إعراضهم عن تدبر الآيات فكأنهم لم يبصروا و مما يجرى هذا المجرى قول الأعشى:

ودع هريره إن الركب مرتحل و هل تطيق وداعا أيها الرجل

و قد علمنا أن الأعشى كان يقدر على الوداع و إنما نفى الطاعة عن نفسه من حيث الكراهيه و الاستثقال (و ثالثها) أنه إنما عنى بذلك آلهتهم و أوثانهم و تقدير الكلام أولئك الكفار و آلهتهم لم يكونوا معجزين فى الأرض يضاعف لهم العذاب و قال مخبرا عن الآلهه «ما كانوا يَشْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانوا يُبْصِرُونَ» و روى ذلك عن ابن عباس و فيه أدنى بعد (و رابعها) أن ما هنا ليست للنفى بل تجرى مجرى قولهم لأواصلنك ما لا يح نجم و المعنى أنهم معذبون ما داموا أحياء «أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» من حيث فعلوا ما استحقوا به العقاب فهلكوا فذلك خسران أنفسهم و خسران النفس أعظم الخسران لأنه ليس عنها عوض «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرُونَ» مضى بيانه مرارا «لا جرم» قال الزجاج لا نفى لما ظنوا أنه ينفعهم كان المعنى لا ينفعهم ذلك جرم «أَنَّهُمْ فى الْمآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسِرُونَ» أى كسب ذلك الفعل لهم الخسران و قال غيره معناه لا بد و لا محاله أنهم و قيل معناه حقا و يستعمل فى أمر يقطع عليه و لا يرتاب فيه أى لا شك أن هؤلاء الكفار هم أخسر الناس فى الآخرة.

النظم

اتصلت الآيه الأولى بقوله قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ و المراد أنهم إذا لم يأتوا بذلك فقل لهم أ فمن كان على بينه كمن لا يكون معه بينه و قيل اتصلت بقوله مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أى من كان مجتهدا فى الدين كمن كان همه الحياه الدنيا و زينتها و وجه اتصال الآيه الثانيه و هى قوله «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» أنه سبحانه أراد أن يبين حال العاقل و الغافل فكأنهم قالوا و ما يضرنا أن لا نعرف ذلك فأجيبوا بأن من لا يعرف الله لا يأمن أن يكذب على الله و من أظلم ممن كذب على الله.

[سوره هود (١١): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أُخْتَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَ الْأَصْمَى وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَشْتَوِيَانِ مَثَلًا أَ فَلَآ تَذَكَّرُونَ (٢٤)

ص: ٢٣٠

الإخبات للطمأنينه و أصله الاستواء من الخبت و هو الأرض المستويه الواسعه فكان الإخبات خشوع مستمر على استواء فيه و المثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بحال الأول و العمى عباره عن فساد آله الرؤيه و ليس بمعنى يضاد الأبصار و كذلك الصمم عباره عن فساد آله السمع لأن الصحيح إن الإدراك أيضا ليس بمعنى.

المعنى

لما تقدم ذكر الكفار و ما أعد الله لهم من العذاب عقبه سبحانه بذكر المؤمنين فقال «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» أى صدقوا الله و رسوله و اعتقدوا وحدانيته «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» التى أمرهم الله تعالى بها و رغبهم فيها «وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ» أى أنابوا و تضرعوا إليه عن ابن عباس و قيل معناه اطمأنوا إلى ذكره عن مجاهد و قيل خضعوا له و خشعوا إليه عن قتاده و الكل متقارب و قيل إن معناه أختبوا لربهم فوضع إلى موضع اللام كما قال سبحانه أوحى لها بمعنى أوحى إليها و قال يُنَادِي لِلْإِيمَانِ «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ظاهر المعنى ثم ضرب سبحانه مثلا للمؤمنين و الكافرين فقال «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَ الْأَصْمَىٰ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ» أى مثل فريق المسلمين كالبصير و السميع و مثل فريق الكافرين كالأعمى و الأصم لأن المؤمن ينتفع بحواسه لاستعماله إياها فى الدين و الكافر لا ينتفع بها فصارت حواسه بمنزله المعدوم و إنما دخل الواو لبيان أن حال الكافر كحال الأعمى على حده و كحال الأصم على حده و حال من يكون قد جمع بين الصفتين جميعا «هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا» أى هل يستوى حال الأعمى الأصم و حال البصير السميع عند عاقل فكما لا تستوى هاتان الحالتان عند العقلاء كذلك لا تستوى حال الكافر و المؤمن «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أى أفلا تتفكرون فى ذلك فتسلموا صحه ما ذكرناه.

إشارة

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨)

القراءة

قرأ نافع و ابن عامر و عاصم و حمزه «إِنِّي لَكُمْ» بكسر الهمزة و الباقون أنى بفتحها و قرأ أبو عمرو و نصر عن الكسائي بادئ الرأى بالهمزة و قرأ الباقون «بَادِي الرَّأْيِ» بالياء غير مهموز و قرأ أهل الكوفة غير أبى بكر «فَعُمِّيَتْ» بضم العين و تشديد الميم و الباقون فعميت بفتح العين مخففا.

الحج

قال أبو على من فتح أنى فإنه يحملها على أرسلنا أى أرسلناه بأنى لكم نذير مبين فإن قيل لو كان محمولا عليه لكان أنه لأن نوحا اسم للغيبه قيل هذا لا يمتنع لأن الخطاب بعد الغيبه فى نحو هذا سائغ أ لا ترى قوله «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ» ثم قال «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ» و من كسر فالوجه فيه أنه حملة على القول المضمر لأنه مما قد أضمر كثيرا فى القرآن قال سبحانه «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ» أى يقولون سلام و قال «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ» أى قالوا ما نعبدهم فإن قلت فهلا رجحت قراءه من قرأ إن على قراءه من كسر لأن قوله «أَنْ لَا تَعْبُدُوا» محمول على الإرسال و إذا فتحت إن كان أشكل بما بعدها لحملها جميعا على الإرسال يقال لك إن من كسر قال يجوز أن يكون قوله «إِنِّي لَكُمْ» و ما بعده محمولا على الاعتراض بين المفعول و ما يتصل به مما بعده كما كان فى قوله «قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ» اعتراضا بينهما فى قوله «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» فكذلك قوله «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» لأن التقدير و لقد أرسلنا نوحا إلى قومه أن لا تعبدوا إلا الله و أما قوله «بَادِي الرَّأْيِ» فقد حكى أبو على عن الجبائى أنه قال يقال أنت بادية الرأى يريد ظاهر الرأى لا يهمز بادية و بادئ الرأى مهموز فمن لم يهمز أراد أنت فيما بدا من الرأى أى أنت ظاهر الرأى و من همز أراد أنت أول الرأى و مبتدؤه قال أبو على المعنى فيمن قال بادية الرأى بلا- همز فجعله من بدا الشىء إذا ظهر أى ما اتبعك إلا- الأراذل فيما ظهر لهم من الرأى إن لم يتعقبوه ينظر فيه و لا- يبين لهم و من همز أراد اتبعوك فى أول الأمر من غير أن يتبعوا الرأى بفكر و رويه فيه و هاتان الكلمتان يتقاربان فى المعنى لأن الهمزة فى اللام معناه ابتداء الشىء و أوله و اللام إذا كانت واوا كان المعنى الظهور و ابتداء الشىء يكون ظهورا و إن كان الظهور قد يكون ابتداء و غير ابتداء فلذلك

يستعمل كل واحد مكان الآخر و جاز في اسم الفاعل أن يكون ظرفا كما جاز في فعيل نحو قريب و ملئ ء لأن فاعلا و فعلا يتعاقبان على المعنى نحو عالم و عليم و شاهد و شهيد و حسن ذلك إضافته إلى الرأى و قد أجزوا المصدر أيضا في إضافته إليه في قولهم أما جهد رأى فإنى منطلق فهذا لا يكون إلا ظرفا و فعل إذا كان مصدرا و فاعل قد يتفقان في أشياء و قد يجوز في قول من همز فقال بآدى الرأى إذا خفف الهمز أن يقول بآدى الرأى فيقلب الهمزة ياء لانكسار ما قبلها فيكون كقولهم مير في جمع ميره و ذيب في جمع ذيبه و العامل في هذا الظرف هو قولك اتبعك التقدير ما اتبعك في أول رأيهم أو فيما ظهر من رأيهم إلا أرادنا فأخر الظرف و أوقع بعد إلا الظرف و لو كان بدل الظرف غيره لم يجز ألا ترى أنك لو قلت ما أعطيت أحدا إلا زيدا درهما فأوقعت بعد إلا اسمين لم يجز لأن الفعل أو معنى الفعل في الاستثناء يصل إلى ما انتصب به بتوسط الحرف و لا يصل الفعل بتوسط الحرف إلى أكثر من مفعول ألا ترى أنك إذا قلت استوى الماء و الخشبه فنصبت الخشبه لم يجز أن تتبعه اسما آخر تنصبه فكذلك المستثنى إذا ألحقته إلا و أوقعت بعدها اسما مفردا لم يجز أن تتبعه آخر و لو قلت ما ضرب القوم إلا بعضهم بعضا لم يجز و تصحيحها ما ضرب القوم أحدا إلا بعضهم بعضا تبدل الاسمين بعد إلا من الاسمين قبلها قال جامع العلوم البصير النحوى إن أبا على حمل «بَادِي الرَّأْيِ» هنا على أنه ظرف لما قبله ثم رجع عن مثله في قوله «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» فحمله على فعل آخر دل عليه يكلمه على تقدير أو يكلمه الله من وراء حجاب قال و الظرف في الآيتين عندنا محمول على الفعل قبل إلا لأن الظرف قد يكتفى فيه برائحه الفعل انتهى كلامه و أقول إن ما قاله فيه نظر لأن أبا على قال في تلك الآية لا يعمل ما قبل الاستثناء إذا كان كلاما تاما فيما بعده و ليس ما قبل إلا في هذه الآية كلاما تاما فإن قوله «الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا» فاعل لقوله «اتَّبَعَكَ» فلذلك فرق بين الموضوعين رجع كلام أبى على و أما تحقيق الهمزة و تخفيفها في الرأى فأهل تحقيق الهمزة يخففونها و أهل التخفيف يبذلون منها الألف و كذلك ما أشبهه من نحو البأس و الرأس و الفأس و من قرأ فعميت بالتخفيف يقوى قوله اجتماعهم على التخفيف في قوله سبحانه «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ» و هذه مثلها و يجوز في قوله «فَعَمِيَتْ» أمران أحدهما أن يكون عموهم عنها الآن و الرحمه لا- تعمى و إنما يعنى عنها فيكون كقولهم أدخلت القلنسوه في رأسى و نحو ذلك مما يقلب إذا لم يكن فيه إشكال و فى التنزيل فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعَدِيهِ رُسُلُهُ و قال الشاعر:

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه و سائرته باد إلى الشمس أجمع

و الآخر أن يكون بمعنى خفيت كقول الشاعر:

و مهمه أطرافه فى مهمه أعمى الهدى بالحائرين العمه

أى خفى الهدى لأن الهدى ليس بذى جارحه تلحقها هذه الآفه و من هذا يقال للسحاب العماء لإخفائه ما يخفيه كما قيل له الغمام و من هذا قول الشاعر:

" و لكننى عن علم ما فى غد عم "

قال و قولهم أتانى صكه عمى إذا أتى فى الهاجره و شده الحر يحتمل عندنا تأويلين (أحدهما) أن يكون المصدر أضيف إلى العمى كما قالوا ضرب التلف أى الضرب الذى يحدث عنه التلف (و الآخر) أن يكون عمى تصغير أعمى على وجه الترخيم و أضيف المصدر إلى المفعول به كقولك من دعاء الخير و التقدير صكه الحر الأعمى و المعنى أن الحر من شدته كأنه يعمى من أصابه و المصدر فى الوجهين ظرف نحو مقدم الحاج و خفوق النجم و من قرأ «فَعَمَّيْتُ» اعتبر قراءه أبى و الأعمش فعماهما عليكم و إسناد الفعل إلى المفعول به فى عميت قريب من عمى هنا فى المعنى.

اللغة

الردل الخسيس الحقيق من كل شىء و الجمع أرذل ثم يجمع على أرذل كقولك كلب و أكلب و أكالب و يجوز أن يكون جمع الأردل فيكون مثل أكابر جمع الأ-كبر و رأى الرؤيه من قوله «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ» أى رؤيه العين و رأى أيضا ما يراه الإنسان فى الأمر و جمعه آراء.

الإعراب

«أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» يحتمل أن يكون موضع تعبدوا من الإعراب نصبا بأن و يحتمل أن يكون جزما بالنهى و قوله «عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» يجوز أن يكون تقديره يوم أليم عذابه فحذف المضاف الذى هو عذاب و أقيم المضاف إليه الذى هو الضمير مقامه فاستكن فى أليم و يجوز أن يكون وصف اليوم بالألم لأن الألم فيه يقع و يجوز فى غير القراءه أليما فيكون صفه لعذاب و قوله «اتَّبَعَكَ» و فاعله الذى هو «الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا» فى موضع نصب بأنه مفعول ثان لنريك إن كان بمعنى نعلمك و فى موضع الحال إن كان من رؤيه العين و قوله «أَنْ نُنزِّلُكُمْوهَا» فيه ثلاث ضمائر ضمير المتكلم و ضمير المخاطب و ضمير الغائب فجاءت على أحسن ترتيب بدأ بالمتكلم لأنه أخص بالفعل ثم بالمخاطب ثم بالغائب و لو أتى بالمنفصل لجاز لتباعده من العامل بما فرق بينه و بينه فأشبه ما ضربت إلا إياك و ما ضربنى إلا

أنت و أجاز الفراء أن نلزمكموها بتسكين الميم جعله بمنزله عضد و عضد و كبد و كبد و لا يجوز ذلك عند البصريين و إنما يجيزون ذلك في ضروره الشعر كقول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمًا من الله و لا واغل

و كقول الآخر:

و ناع يخبرنا بمهلك سيد تقطع من وجد عليه الأنامل

و قول الآخر:

" إذا عوججن قلت صاحب قوم "

يريد صاحب قوم.

المعنى

لما تقدم ذكر الوعد و الوعيد و الترغيب و التهيب عقب ذلك سبحانه بذكر أخبار الأنبياء تأكيداً لذلك و تخويفاً للقوم و تسليه للنبي ص و بدأ بقصه نوح (عليه السلام) فقال «و لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» و قد مر بيانه «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» أى أنذرهم أن لا- تعبدوا إلا- الله عن الزجاج يريد لأن توحيدوا الله و تتركوا عباده غيره و بدأ بالدعاء إلى الإخلاص فى العباده و قيل أنه دعاهم إلى التوحيد لأنه من أهم الأمور إذ لا يصح شىء من العبادات إلا بعد التوحيد «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» إنما قال أخاف مع أن عقاب الكفار مقطوع عليه لأنه لم يعلم ما يؤول إليه عاقبه أمرهم من إيمان أو كفر و هذا لطف فى الاستدعاء و أقرب إلى الإجابة فى الغالب «فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» أى من قوم نوح لنوح (عليه السلام) «ما نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا» ظنا منهم أن الرسول إنما يكون من غير جنس المرسل إليه و لم يعلموا أن البعثه من الجنس قد تكون أصلح و من الشبهه أبعده «وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكْفِرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفِرُونَ» أى لم يتبعك الملائه و الأشراف و الرؤساء منا و إنما اتبعك أخسأؤنا الذين لا- مال لهم و لا- جاه «بَادِيَ الرَّأْيِ» أى فى ظاهر الأمر و الرأى لم يتدبروا ما قلت و لم يتفكروا فيه و قال الزجاج معناه اتبعوك فى الظاهر و باطنهم على خلاف ذلك و من قرأ بالهمز فالمعنى أنهم اتبعوك ابتداء الرأى أى حين ابتدأوا ينظرون و لو فكروا لم يتبعوك و قيل معناه إن فى مبتدأ وقوع الرؤيه عليهم يعلم أنهم أرادنا و أسافلنا «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» أى و ما نرى لك و لقومك علينا من فضل فإن الفضل إنما يكون فى كثره المال و المنزله فى الدنيا و الشرف فى النسب و إنما قالوا ذلك لأنهم جهلوا طريقه الاستدلال و لو استدلووا بالمعجزات الداله على نبوته لعلموا أنه نبي و إن من آمن به مؤمن و من خالفه كافر

و عرفوا حقيقه الفضل و هكذا عاده أرباب الدنيا يستحقرون أرباب الدين إذا كانوا فقراء و يستردلونهم و إن كانوا هم الأكرمين الأفضلين عند الله سبحانه «بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَاذِبِينَ» هذا تمام الحكايه عن كفار قوم نوح قالوه لنوح و من آمن به «قَالَ» نوح لقومه «يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي» أى على برهان و حجه يشهد بصحه النبوه و هى المعجزه و قال ابن عباس على بينه أى على يقين و بصيره و معرفه من ربوبيه ربي و عظمته و اختلف فى قول نوح (عليه السلام) هذا أنه جواب عما ذا فليل أنه جواب عن قولهم «بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَاذِبِينَ» فكأنه قال إن تظنوني كاذبا فما تقولون لو كنت على خلافه و على حجه من ربي و اوضحه ألا تصدقوننى و قيل بل هو جواب عن قولهم «ما نراك إلا بشرا مثلنا» أى و إن كنت بشرا فما ذا تقولون إذا أتيتكم بحجه داله على صدقى ألا تصدقوننى و فيه بيان أن الرساله إنما تظهر بالمعجزه فلا معنى لاعتبار البشريه و قيل هو جواب عن قولهم «ما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا» فكأنه قال إنهم اعتصموا بالله و بما آتاهم من البينه و الرحمه فنالوا بذلك الرفعه و الفضل و أنتم قنعتم بالدنيا الدنيه الفانيه فأنتم فى الحقيقه الأراذل لا هم و قيل هو جواب عن قولهم «و ما نرى لكم علينا من فضل» فكأنه قال لا تتبعوا المال و الجاه فإن الواجب اتباع الحجه و الدلاله و يجوز أن يكون جوابا عن جميع ذلك «وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ» رد عليهم بهذا جميع ما ادعوه و الرحمه و النعمه هى هاهنا النبوه أى و أعطانى نبوه من عنده «فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ» أى خفيت عليكم لقله تدبركم فيها «أَنْزَلْنَاهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ» أى أ تريدون منى أن أكرهكم على المعرفه و ألجئكم إليها على كره منكم هذا غير مقدور لى و الهاء كناية عن الرحمه فيدخل فيها النبوه و الدين و سائر النعم و قيل معناه أن نلزمكم قبولها فحذف المضاف و يجوز أن يكون الهاء كناية عن البينه و يكون المراد أن على أن أدلكم بالبينه و ليس على أن اضطرركم إلى معرفتها.

اشاره

وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا - إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)

اللغة

الطرد الإبعاد على جهه الهوان و تطارد الأقوال حمل بعضها على بعض و الازدراء الاحتقار افتعال من الزرايه يقال زريت عليه إذا عبته و أزرت به إذا قصرت به قال الشاعر:

رأوه فازدروه و هو خرق و ينفع أهله الرجل القبيح

و لم يخشوا مقاتله عليهم و تحت الرغوه اللبن الصريح

المعنى

ثم أنكر نوح استئصالهم التكليف و العاقل إنما يستثقل الأمر إذا ألزمته مئونه ثقله فقطع هذا العذر بقوله «وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا» أى لا أطلب منكم على دعائكم إلى الله أجرا فتمتنعون من إجابتي خوفا من أخذ المال «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» أى ما ثوابي و ما أجرى فى ذلك إلا على الله «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» أى لست أطرده المؤمنين من عندى و لا أبعدهم على وجه الإهانه و قيل أنهم كانوا سألوه طردهم ليؤمنوا له أنه من أن يكونوا معهم على سواء عن ابن جريج و الزجاج «إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» و هذا يدل على أنهم سألوه طردهم فأعلمهم أنه لا يطردهم لأنهم ملأقوا ربهم فيجازى من ظلمهم و طردهم بجزائه من العذاب عن الزجاج و قيل معناه أنهم ملأقوا ثواب ربهم فكيف يكونون أراذل و كيف يجوز طردهم و هم لا يستحقون ذلك عن الجبائى «وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ» الحق و أهله و قيل معناه تجهلون أن الناس إنما يتفاضلون بالدين لا بالدنيا و قيل تجهلون فيما تسألون من طرد المؤمنين «وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ» معناه من يمنعنى من عذاب الله إن أنا طردت المؤمنين فكانوا خصمائي عند الله فى الآخرة «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أى أفلا تتفكرون فتعلمون أن الأمر على ما قلته و فرق على بن عيسى بين التفكير و التذكر بأن التذكر طلب معنى قد كان حاضرا للنفس و التفكير طلب معرفه الشىء بالقلب و إن لم يكن حاضرا للنفس و ليست النصره المذكوره فى الآيه من الشفاعه فى شىء لأن النصره هى المنع على وجه المغالبه و القهر و الشفاعه هى المسأله على وجه الخضوع فلا دلالة فى الآيه على نفى الشفاعه

للمذنبين على ما قاله بعضهم «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ» هذا تمام الحكاياه عما قاله نوح لقومه ومعناه إني لا أرفع نفسي فوق قدرها فأدعى أن عندي مقدرات الله تعالى فأفعل ما أشاء وأعطى ما أشاء وأمنع من أشياء عن الجبائي وأبى مسلم وقيل خزائن الله مفاتيح الله في الرزق وهذا جواب لقولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا أو قولهم وما نرى لكم علينا من فضل «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ» أي ولا أدعى علم الغيب حتى أدلكم على منافعكم ومضاركم وقيل لا أعلم الغيب فأعلم ما تسرونه في نفوسكم فيكون جواباً لقولهم إن هؤلاء الذين آمنوا بك اتبعوك في ظاهر ما ترى منهم أي فسيلى قبول إيمانهم الذى ظهر لى ولا يعلم ما يضمرونه إلا الله تعالى «وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ» فأخبركم بخبر السماء من قبل نفسى وإنما أنا بشر لا أعلم الأشياء من غير تعليم الله تعالى وقيل معناه لا أقول إني روحانى غير مخلوق من ذكر وأنثى بل أنا بشر مثلكم خصنى الله بالرسالة «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ» أي لا أقول لهؤلاء المؤمنين الذين تستقلونهم وتستخفونهم وتحقرهم أعينكم لما ترون عليهم من زى الفقراء «لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا» أي لا يعطيهم الله فى المستقبل خيراً على أعمالهم ولا يثيبهم عليها بل أعطاهم الله كل خير فى الدنيا من التوفيق ويعطيهم كل خير فى الآخرة من الثواب «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ» أي بما فى قلوبهم من الإخلاص وغيره «إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ» إن طردتهم، تكذبا لظاهر إيمانهم أو قلت فيهم غير ما أعلم.

[سوره هود (١١): الآيات ٣٢ الى ٣٥]

إشارة

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُزْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)

اللغة

الجدال والمجادلة المقابلة بما يفتل الخصم من مذهبه بحجه أو شبهه وهو من الجدال شدة الفتل ويقال للصدق أجدل لأنه من أشد الجوارح والجدال والمرء بمعنى غير

ص: ٢٣٨

أن المرء مذموم لأنه مخاصمه في الحق بعد ظهوره كمرى الضرع بعد دروره و ليس كذلك الجدال و الفرق بين الحجاج و الجدال أن المطلوب بالحجاج ظهور الحجه و المطلوب بالجدال الرجوع عن المذهب و الإعجاز هو الفوت بالهرب و الفرق بين افتراء الكذب و قول الكذب أن قول الكذب قد يكون على وجه تقليد الإنسان فيه لغيره و أما افتراء الكذب فهو افتعاله من قبل نفسه و أجرم و جرم بمعنى قال:

طريد عشيره و رهين ذنب بما جرمت يدي و جنى لساني

المعنى

ثم حكى الله سبحانه جواب قوم نوح عما قاله لهم فقال «قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا أَيَّ خَاصِمْتَنَا وَ حَاجَجْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا» أى زدت في مجادلتنا على مقدار الكفاهيه و فى بعض الروايات عن ابن عباس فأكثرت جدلنا و المعنى واحد «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» من العذاب «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» فى أن الله تعالى يعذبنا على الكفر أى فلسنا نؤمن بك و لا نقبل منك «قال» نوح «إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ» أى لا يأتى بالعذاب إلا الله سبحانه متى شاء لا يقدر عليه غيره فإن شاء عجل و إن شاء أخر «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» أى لا تفوتونه بالهرب «وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِيحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» ذكر فى تأويله وجوه (أحدها) إن كان الله يريد أن يخيبكم من رحمته بأن يحرمكم ثوابه و يعاقبكم لكفركم به فلا- ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم و قد سمي الله سبحانه العقاب غيا بقوله فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا و يشهد بصحة ما قلناه قول الشاعر:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره و من يغو لا يعدم على الغي لائما

و لما خيب الله سبحانه قوم نوح من رحمته و ثوابه و أعلم الله نوحا (عليه السلام) بذلك فى قوله «لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ» قال لهم لا ينفعكم نصحي مع إثاركم ما يوجب خيبتكم و العذاب الذى جره إليكم قبيح أفعالكم و إذا طرأ شرط على شرط كان الثانى مقديما على الأول فى المعنى و إن كان مؤخرا فى اللفظ و التقدير و لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم إن أردت أن أنصح لكم (و ثانيها) أن المعنى إن كان الله يريد عقوبه إغوائكم الخلق و إضلالكم إياهم أى يريد عقوبتكم على ذلك و من عادة العرب أن تسمى العقوبه باسم الشىء المعاقب عليه كما فى قوله سبحانه «وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا وَ مَكْرُوهًا وَ مَكْرُوهًا وَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» و قد مر فيما مضى أمثال ذلك (و ثالثها) أن معناه إن كان الله يريد أن يهلككم فلا ينفعكم نصحي عند نزول العذاب بكم و إن قبلتم قولى و آمنتتم لأن الله تعالى

حكم بأن لا- يقبل الإيمان عند نزول العذاب عن الحسن و قد حكى عن العرب أنهم قالوا أغويت فلانا بمعنى أهلكته و يقال غوى الفصيل إذا فسد من كثره شرب اللبن (و رابعها) أن قوم نوح كانوا يعتقدون أن الله تعالى يضل عباده عن الدين و أن ما هم عليه بإرادة الله و لو لا ذلك لغيره و أجبرهم على خلافه فقال لهم نوح على وجه التعجب من قولهم و الإنكار لذلك أن نصحي لا ينفعكم إن كان القول كما تقولون و هذا هو المحكى عن جعفر بن حرب و إنما شرط النصح بالإرادة في قوله «إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِيحَ لَكُمْ» مع وقوع هذا النصح استظهارا في الحجة عليهم لأنهم ذهبوا إلى أنه ليس بنصح فقال لو كان نصحا ما نفع من لا يقبله و لا- يجوز أن يكون المراد بالإغواء في الآيه فعل الكفر أو الدعاء إلى الكفر و الحمل عليه على ما يعتقده المجبره لقيام الأدله على أن خلق الكفر و إرادته من أقبح القبائح كالأمر به و كما لم يجر أن يأمر به فكذلك لا يجوز أن يفعله و يريده و لأنه لو جاز منه الإضلال لجاز منه أن يبعث من يدعو إلى الضلال و يظهر المعجزات على يده و في هذا ما فيه «هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أى هو خالقكم و رازقكم و إلى حكمه و تدبيره تصيرون فيجازيكم على أعمالكم «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» قيل إنه يعنى بذلك محمدا ص و المراد أ يؤمن كفار محمد ص بما أخبرهم به محمد ص من نبأ قوم نوح (عليه السلام) أم يقولون افتراه محمد ص من تلقاء نفسه ف «قُلْ» لهم يا محمد «إِنْ افْتَرَيْتُهُ» و اختلقته كما تزعمون «فَعَلَىٰ إِجْرَامِي» أى عقوبه جرمى لا تؤخذون به «وَ أَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ» أى لا أؤخذ بجرمكم عن مقاتل و قيل يعنى به نوحا (عليه السلام) و أنه يقول على الله الكذب عن ابن عباس.

النظم

و وجه اتصال هذه الآيه بما قبلها على القول الأول أنها تتصل بقوله «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَآتُوا بَعْشَرَ سُورِ مِثْلِهِ».

ص: ٢٤٠

اشاره

وَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا وَ لَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعِ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (۳۹)

اللغة

الابتئاس حزن في استكانه و أنشد أبو عبيده:

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس منه و أقعد كريما ناعم البال

و هو افتعال من البؤس و قد يكون البؤس بمعنى الفقر أيضا و الصنع جعل الشيء موجودا بعد أن كان معدوما و مثله الفعل و ينفصلان من الحدوث من حيث إن الصنعه يقتضى صنعا و الفعل يقتضى فاعلا من حيث اللفظ و ليس كذلك الحدوث لأنه يفيد تجدد الوجود لا غير و الصنعه الحرفه التي يكتسب بها و الفلك السفينه و يكون واحدا و جمعا و السخريه إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل و منه التسخير التذليل يكون استضعافا بالقهر و الفرق بين السخريه و اللعب أن في السخريه خديعه و استنقاصا و لا- يكون إلا- بحيوان و قد يكون اللعب بجماد و الحلول النزول للمقام و هو من الحل خلاف الارتحال و حلول العرض وجوده في الجوهر من غير شغل حيز و المصحح للحلول التحيز.

الإعراب

سوف ينقل الفعل من الحال إلى الاستقبال مثل السين سواء إلا أن فيه معنى التسوية و هو تعليق النفس بما يكون من الأمور من يأتيه قيل في من هذه قولان (أحدهما) أن يكون بمعنى أى فكأنه قال أينا يأتيه عذاب يخزيه (و الآخر) أن يكون بمعنى الذى و المعنى واحد و من إذا كانت للاستفهام استغنت عن الصلّه كما استغنت كيف و كم عن الصلّه و إذا كانت بمعنى الذى فلا بد لها من الصلّه لأن البيان مطلوب من المسئول دون السائل.

المعنى

«وَ أَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ» أعلم الله سبحانه نوحا أنه لن يؤمن به أحد من قومه فى المستقبل «فَلَا تَبْتَئِسْ» أى لا تغتم و لا تحزن «بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» و العقل لا يدل على أن قوما لا يؤمنون فى المستقبل و إنما طريق ذلك السمع فلما علم أن أحدا منهم لا يؤمن فى ما بعد و لا من نسلهم دعا عليهم فقال رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلْدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا فلما أراد الله سبحانه إهلاكهم أمر نبيه باتخاذ السفينه له و لقومه فقال «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ» أى أعمل السفينه لتركبها أنت و من آمن بك «بِأَعْيُنِنَا» أى بمرأى منا عن ابن عباس و التأويل بحفظنا

إياك حفظ الرائي لغيره إذا كان يدفع الضرر عنه و ذكر الأعين لتأكيد الحفظ و قيل أراد بالأعين الملائكة الموكلين بك و بحضرتهم و هم ينظرون بأعينهم إليك و إنما أضاف ذلك إلى نفسه إكراما و تعظيما لهم و قوله «وَ وَحِينَا» معناه و على ما أوحينا إليك من صفتها و حالها عن أبي مسلم و قيل المراد بوحينا إليك أن اصنعها و ذلك أنه (عليه السلام) لم يعلم صنعه الفلك فعلمه الله تعالى عن ابن عباس أى فإننا نوحى إليك بما تحتاج إليه من طوله و عرضه و هيأته «وَ لَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ» أى لا- تسألنى العفو عن هؤلاء الذين كفروا من قومك و لا تشفع لهم فإنهم مغرَقون عن قريب و هذا غايه فى الوعيد كما يقول الملك لوزيره لا تذكر حديث فلان بين يدي و قيل إنه عنى به امرأته و ابنه و إنما نهاه عن ذلك ليصونه عن سؤال ما لا يجاب إليه و ليصرف عنه مآثم الممالأه للطغاه «وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ» أى و جعل نوح (عليه السلام) يصنع الفلك كما أمره الله تعالى و قيل و أخذ نوح فى صنعه السفينه بيده فجعل ينحتها و يسويها و أعرض عن قوله «وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ» أى كلما اجتاز به جماعه من أشراف قومه و رؤسائهم و هو يعمل السفينه هزوا من فعله و قيل إنهم كانوا يقولون له يا نوح صرت نجارا بعد النبوه على طريق الاستهزاء و قيل إنما كانوا يسخرون من عمل السفينه لأنه كان يعملها فى البر على صفه من الطول و العرض و لا ماء هناك يحمل مثلها فكانوا يتضحكون و يتعجبون من عمله «قَالَ» أى كان يقول لهم «إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ» و المراد أن تستجهلونا فى هذا الفعل فإننا نستجهلكم عند نزول العذاب بكم كما تستجهلونا عن الزجاج و قيل معناه فإننا نجازيكم على سخريتكم عند الغرق و الهلاك و أراد به تعذيب الله إياهم فسمى الجزاء باسم المجزى به و يحتمل أن يريد فإننا نسخر منكم بعد الغرق على وجه الشماته لا- على وجه السفه «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» أيأنا أحق بالسخرية أو تعلمون عاقبه سخريتكم «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» هذا ابتداء كلام من نوح و الأظهر أن يكون متصلا بما قبله أى فسوف تعلمون أيأنا يأتيه عذاب يهينه و يفضحه فى الدنيا و يكون يخزيه صفه العذاب «وَ يَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ» أى و ينزل عليه عذاب دائم فى الآخرة.

[القصة]

قال الحسن كان طول السفينه ألف ذراع و مائتى ذراع و عرضها ستمائة ذراع و قال قتاده كان طولها ثلاثمائة ذراع و عرضها خمسين ذراعا و ارتفاعها ثلاثين ذراعا و بابها فى عرضها و قال ابن عباس كانت ثلاث طبقات طبقه للناس و طبقه للأنعام و الدواب و طبقه للهوام و الوحش و جعل أسفلها للوحوش و السباع و الهوام و أوسطها للدواب و الأنعام و ركب هو و من معه فى الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد و كانت من خشب الساج و

روت عائشه عن

ص: ٢٤٢

النبى ص أنه قال مكث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى حتى إذا كان آخر زمانهم غرس شجره فعظمت و ذهبت كل مذهب فقطعها و جعل يعمل على سفينته و قومه يمرون عليه فيسألونه فيقول أعمل سفينه فيسخرن منه و يقولون تعمل سفينه على البر فكيف تجرى فيقول سوف تعلمون فلما فرغ منها و فار التنور و كثر الماء فى السكك خشيت أم صبي عليه و كانت تحبه جدا شديدا فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها حتى ذهب بها الماء فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي

و

روى على بن إبراهيم عن أبيه عن صفوان عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال لما أراد الله إهلاك قوم نوح عقم أرحام النساء أربعين سنة فلم يلد لهم مولود و لما فرغ نوح من اتخاذ السفينه أمره الله تعالى أن ينادى بالسريانيه أن يجمع إليه جميع الحيوانات فلم يبق حيوان إلا و قد حضر فأدخل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين ما خلا الفأر و السنور و إنهم لما شكوا إليه سرقين الدواب و القدر دعا بالخنزير فمسح جبينه فعطس فسقط من أنفه زوج سنور و كان الذين آمنوا به من جميع الدنيا ثمانين رجلا

و

فى حديث آخر إنهم شكوا إليه العذره فأمر الله الفيل فعطس فسقط الخنزير

و

روى الشيخ أبو جعفر فى كتاب النبوه بإسناده عن حنان بن سدير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال آمن مع نوح من قومه ثمانيه نفر.

اشاره

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (۴۰) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (۴۲) قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ (۴۳)

القراءة

قرأ حفص عن عاصم «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ» منونا وفي المؤمنين كذلك وقرأ الباقون من كل زوجين مضافا وقرأ أهل الكوفه غير أبي بكر «مَجْرَاهَا» بفتح الميم و الباقون بضم الميم و اتفقوا على ضم الميم في «مُرْسَاهَا» إلا ما يرى في الشواذ عن ابن محيصر أنه فتح الميم فيهما وقرأ عاصم «يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا» بفتح الياء و الباقون بالكسر و

روى عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) و أبي جعفر محمد بن علي و جعفر بن محمد (عليه السلام) و عروه بن الزبير و نادى نوح ابنه

و روى عن عكرمه ابنها و عن السدي ابنه و عن ابن عباس ابنه على الوقف.

الحجج

الوجه في قراءه حفص ما قاله أبو الحسن إن الاثنين زوجان قال الله تعالى «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ» و المرأه زوج الرجل و الرجل زوجها قال و قد يقال للاثنين هما زوج قال لييد:

من كل محفوف يظل عصيه زوج عليه كله و قرامها

قال أبو علي من قرأ «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ» كان قوله «اثنَيْنِ» مفعول الحمل و المعنى احمل من الأزواج إذا كانت اثنين زوجين فالزوجان في قوله من كل زوجين يراد بهما الشيع و ليس يراد بهما الناقص عن الثلاثه و مثل ذلك قول الشاعر:

فاعمد لما يعلو فما لك بالذي لا تستطيع من الأمور يدان

إنما يريد تشديد انتفاء قوته عنه و تكثيره و يبين هذا المعنى قول الفرزدق:

و كل رفيقى كل رحل و إن هما تعاطى القنا قوما هما أخوان

فرفيقان اثنان لا يكونان رفيقى كل رحل و إنما يريد الرفقاء إذا كانوا رفيقين و من نون فقال «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ» فحذف المضاف إليه من كل و نون فالمعنى من كل شىء و من كل زوج

زوجين اثنين فيكون انتصاب اثنين على أنه صفة لزوجين فإن قلت فالزوجان قد فهم أنهما اثنان فكيف جاز وصفهما بقوله «اثنين» وإنما جاز ذلك للتأكيد والتشديد كما قال لا تَتَّحِدُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ وقد جاء في غير هذا من الصفات ما مصرفه إلى التأكيد كقولهم أمس الدابر و نَفَخَهُ وَاِحِدَهُ و نَعَجَهُ وَاِحِدَهُ قَالَ وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى قَالَ أَبُو عَلِيٍّ وَ يَجُوزُ فِي قَوْلِهِ «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا» أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ شَيْئَيْنِ مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ «ارْكَبُوا» وَ مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِيهَا فَإِنْ جَعَلْتَ قَوْلَهُ «بِسْمِ اللَّهِ» خَبْرَ مُبْتَدَأٍ مُقَدَّمًا فِي قَوْلٍ مِنْ لَمْ يَرْفَعْ بِالظَّرْفِ أَوْ جَعَلْتَ قَوْلَهُ «مَجْرَاهَا» مَرْتَفَعًا بِالظَّرْفِ لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ «بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا» إِلَّا جَمَلُهُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِيهَا وَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ «ارْكَبُوا» لِأَنَّهُ لَا ذِكْرَ فِيهَا يَرْجِعُ إِلَى الضَّمِيرِ أَلَّا تَرَى أَنَّ الظَّرْفَ فِي قَوْلٍ مِنْ رَفَعَ بِالظَّرْفِ قَدْ ارْتَفَعَ بِهِ الظَّاهِرُ وَ فِي قَوْلٍ مِنْ رَفَعَ فِي هَذَا النِّحْوِ بِالابْتِدَاءِ قَدْ جَعَلَ فِي الظَّرْفِ ضَمِيرَ الْمُبْتَدَأِ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ خَلَّتِ الْجَمَلَةُ مِنْ ذِكْرِ يَعُودُ إِلَى ذِي الْحَالِ مِنَ الْحَالِ وَ إِذَا خَلَا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِيهَا وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِسْمِ اللَّهِ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ «ارْكَبُوا» عَلَى أَنْ لَا يَكُونَ الظَّرْفُ خَبْرًا عَنِ الْأَسْمِ الَّذِي هُوَ مَجْرِيهَا عَلَى مَا كَانَ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ وَ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ عَلَى حَدِّ قَوْلِكَ خَرَجَ بِثِيَابِهِ وَ رَكِبَ فِي سِلَاحِهِ وَ الْمَعْنَى رَكِبَ مُسْتَعِدًّا بِسِلَاحِهِ وَ مَتَلْبَسًا بِثِيَابِهِ وَ فِي التَّنْزِيلِ وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ فَكَانَ الْمَعْنَى ارْكَبُوا مَتَبَرِّكِينَ بِاسْمِ اللَّهِ وَ مَتَمَسِّكِينَ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ وَ يَكُونَ فِي بِاسْمِ اللَّهِ ذِكْرٌ يَعُودُ إِلَى الْمَأْمُورِينَ فَإِنْ قُلْتَ فَكَيْفَ يَكُونُ اتِّصَالُ الْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ مَجْرِيهَا بِالْكَلَامِ عَلَى هَذَا فَإِنَّهُ يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِمَا فِي بِاسْمِ اللَّهِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ وَ جَازَ تَعَلُّقُهُ بِهِ لِأَنَّهُ يَكُونُ ظَرْفًا عَلَى نَحْوِ مُقَدِّمِ الْحَاجِّ وَ خَفُوقِ النِّجْمِ كَأَنَّهُمْ مَتَبَرِّكِينَ بِهَذَا الْأَسْمِ أَوْ مَتَمَسِّكِينَ بِهِ فِي وَقْتِ الْجَرِيِّ أَوْ الْإِجْرَاءِ وَ الرَّسْوِ أَوْ الْإِرْسَاءِ عَلَى حَسَبِ الْخِلَافِ بَيْنَ الْقِرَاءِ فِيهِ وَ لَا يَكُونُ الظَّرْفُ مُتَعَلِّقًا بِارْكَبُوا لِأَنَّ الْمَعْنَى لَيْسَ عَلَيْهِ أَلَّا تَرَى أَنَّ الْمَعْنَى لَا يَرَادُ ارْكَبُوا فِيهَا فِي وَقْتِ الْجَرِيِّ وَ الثَّبَاتِ إِنَّمَا الْمَعْنَى ارْكَبُوا الْآنَ مَتَبَرِّكِينَ بِاسْمِ اللَّهِ فِي الْوَقْتَيْنِ اللَّذَيْنِ لَا يَنْفَكُ الرَّاكِبُونَ فِيهَا مِنَ الْإِجْرَاءِ وَ الْإِرْسَاءِ لَيْسَ يَرَادُ ارْكَبُوا وَقْتِ الْجَرِيِّ وَ الرَّسْوِ فَمَوْضِعُ مَجْرِيهَا نَصَبٌ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ بِأَنَّهُ ظَرْفٌ عَمَلٌ فِيهِ الْمَعْنَى وَ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ رَفَعَ بِالابْتِدَاءِ أَوْ بِالظَّرْفِ وَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ رَفَعَ وَ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الْفِعْلُ الَّذِي كَانَ يَتَعَلَّقُ بِهِ لَا يُعْتَبَرُ بِهِ الْآنَ قَوْلُ الشَّاعِرِ أَنْشَدَهُ الْأَصْمَعِيُّ:

وَأَبَى أَنْتَ وَ فُوكَ الْأَشْنَبُ كَأَنَّمَا ذَرَّ عَلَيْهِ الزَّرْنَبُ

و حجه من فتح مجريها قوله «و هي تجرى بهم» و لو كان مجريها لكان و هي تجريهم و حجه من ضم إن جرت بهم و أجرتهم يتقاربان في المعنى يقال جرى الشيء و أجرته و جريت به و أما قوله «يا بُنَيَّ» فقد قال أبو علي الكسر في الياء الوجه في يا بني وذلك أن اللام من ابن ياء أو واو حذفت في ابن كما حذفت في اسم و اثنين فإذا حقرت ألحقت ياء التحقير فلزم أن ترد اللام الذي حذفت لأنك لو لم تردها لوجب أن تحرك بالتحقير بحركات الإعراب و تعاقبها عليها و هي لا تحرك أبدا بحركة الإعراب و لا- غيرها أ لا- ترى أن من حذف الهمزة الساكن ما قبلها في نحو الخبء لم يفعل ذلك في الهمز نحو أفياس إنما يبدل من الهمزة ياء و يدغم فيها ياء التحقير كما يفعل ذلك مع ياء خطيه و واو مقروه و نحو ذلك من حروف المد التي لا تتحرك فإذا تبين أن ياء التحقير أجريت هذا المجري علمت أنها لا تتحرك كما لا تتحرك حروف المد التي أجريت بالتحقير مجراها فلو لم ترد اللام مع ياء التحقير و جعلتها محذوفه في التحقير كما حذفتها في التكبير للزم الياء التي للتحقير الانقلاب كما لزم سائر حروف الإعراب فيبطل دلالتها على التحقير كما أن الألف في التكسير لو حركتها لبطلت دلالتها على التكسير و لذلك رددت اللام فإذا رددت اللام و أضفتها إلى نفسك اجتمعت ثلاث ياءات الأولى منها التي للتحقير و الثانية لام الفعل و الثالثة التي للإضافة تقول هذا بني فإذا ناديت جاز فيها وجهان إثبات الياء و حذفها فمن قال يا عبادي فأثبت فقياس قوله أن يقول بنبي و من قال يا عباد قال يا بني فحذف الياء التي للإضافة و أبقى الكسره داله عليها و هذا الوجه هو الجيد عندهم و من قرأ «يا بُنَيَّ» بالفتح فالقول فيه أنه أراد به الإضافة كما أرادها في قوله يا بني إذا كسر الياء التي هي لام الفعل كأنه قال يا بنبي يا إثبات ياء الإضافة ثم أبدل من الكسره الفتحة و من الياء الألف فصار يا بنيا كما قال الشاعر:

" يا بنت عما لا تلومي و اهجمي "

ثم حذف الألف كما كان حذف الياء في يا بني و قد حذفت الياء التي للإضافة إذا أبدلت الألف منها أنشد أبو الحسن:

فلست بمدرك ما فأت مني بلهف و لا بليت و لا لو أني

إنما هو بلهفا قال أبو عثمان و وضع الألف مكان الياء في الإضافة مطرد و أجاز يا زيدا أقبل إذا أردت الإضافة فقال و على هذا قراءه من قرأ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ و يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ و أنشد:

" و هل جزع أن قلت و ابتهما "

و أما من قرأ و نادى نوح ابنه فإنه أراد ابنها كما روى عن

عكرمه و المعنى ابن امرأته لأنه قد جرى ذكرها فى قوله سبحانه «وَأَهْلَكَ» فحذف الألف تخفيفا كما قلنا فى بنى بالفتح و يا أبت و أما قراءه السدى ابناه فإنه يريد به الندبه و هو على الحكايه أى قال له يا ابناه و وا ابناه فأما ابنه بالسكون فعلى ما جاء فى نحو قوله:

" و مطواى مشتاقان له أرقان "

اللغة

الفور الغليان و أصله الارتفاع فار القدر يفور فورا و فورا و فورانا ارتفع ما فيه بالغليان و منه قولهم فعل ذلك من فوره أى من قبل أن يسكن و الإرساء إمساك السفينه بما تقف عليه يقال أرساها الله فرست قال عنتره:

فصبرت نفسا عند ذلك حره ترسو إذا نفس الجبان تطلع

و الموج جمع موجه و هى قطعه عظيمه ترتفع عن جملة الماء الكثير و العصمه المنع.

الإعراب

حتى متعلقه بقوله وَ اضْيَعِ الْفُلُوكَ بِأَعْيُنِنَا لا- عاصم ركب عاصم مع لا- فبنى لأنهما بالتركيب صارا كاسم واحد و قيل إنه بنى لتضمنه معنى من لأن هذا جواب هل من عاصم و حق الجواب أن يكون وفق السؤال فكان يجب أن يقول لا من عاصم إلا أن من حذف و تضمن الكلام معناه فبنى الاسم لذلك و هذا وجه حسن و اليوم خير و العامل فيه المحذوف لا قوله عاصم لأنه لو عمل فيه عاصم لصار من صلته فكان يجب تنوينه لأنه يشبه المضاف كما تقول لا ضاربا زيدا فى دارك و لم يقرأ أحد لا عاصما اليوم و قيل أن خبره قوله «مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» و التقدير لا ذا عصمه كائن من أمر الله فى اليوم و اليوم معمول الظرف و إن تقدم عليه كما جاز كل يوم لك ثوب و لا يجوز أن يتعلق اليوم بنفس أمر لأن أمرا مصدر فلا يتقدم عليه ما فى صلته و من رحم فيه ثلاثه أقوال (أحدها) أن يكون استثناء منقطعا لأن التقدير إلا من رحمه الله فيكون من مفعولا و استثناء من عاصم و عاصم فاعل فكأنه قال لكن من رحمه الله معصوم (و ثانيها) أن يكون المعنى لا عاصم إلا من رحمتنا فكأنه قال لا عاصم إلا الله (و الثالث) أن عاصم هاهنا بمعنى معصوم و تقديره لا- معصوم من أمر الله إلا- من رحمه الله و قد يأتى فاعل بمعنى مفعول كقوله فى عَيْشِهِ رَاضِيَهُ أى مرضيه و ماءٍ دَافِقٍ أى مدفوق و قال الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيها و اقعدي فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى المكسو و على القولين الأخيرين يكون الاستثناء متصلا و قال ابن كيسان لما قال «لا عاصِم» كان معناه لا معصوم لأن فى نفى العاصم نفى المعصوم ثم قال «إِلَّا مَنْ رَحِمَ» فاستثناه على المعنى فيكون متصلا.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن إهلاك قوم نوح فقال «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا» و المعنى فذلك حاله و حالهم حتى إذا جاء قضاؤنا بنزول العذاب «وَفَارَ التَّنُورُ» بالماء أى ارتفع الماء بشده اندفاع و فى التنور أقال (أولها) أنه تنور الخابزه و أنه تنور كان لآدم فار الماء منه علامه لنوح (عليه السلام) إذ نبع الماء من موضع غير معهود خروجه منه عن ابن عباس و الحسن و مجاهد ثم اختلف فى ذلك فقال قوم أن التنور كان فى دار نوح (عليه السلام) بعين ورده من أرض الشام و قال قوم بل

كان فى ناحيه الكوفه و هو المروى عن أئمتنا (عليه السلام)

و

روى المفضل بن عمر عن أبى عبد الله (عليه السلام) فى حديث طويل قال كان التنور فى بيت عجوز مؤمنه فى دير قبله ميمنه مسجد الكوفه قال قلت فكيف كان بدء خروج الماء من ذلك التنور قال نعم إن الله أحب أن يرى قوم نوح آيه ثم أن الله سبحانه أرسل عليهم المطر يفيض فيضا و فاض الفرات فيضا و فاضت العيون كلها فيضا فغرقهم الله و أنجى نوحا و من معه فى السفينه فقلت فكم لبث نوح فى السفينه حتى نضب الماء فخرجوا منها فقال لبث فيها سبعة أيام بلياليها فقلت له إن مسجد الكوفه لقديم فقال نعم و هو مصلى الأنبياء و لقد صلى فيه رسول الله ص حين أسرى به إلى السماء قال له جبرائيل (عليه السلام) يا محمد هذا مسجد أبيك آدم و مصلى الأنبياء فانزل فصل فيه فتزل فصلى فيه ثم أن جبرائيل (عليه السلام) عرج به إلى السماء

و

فى روايه أخرى أن السفينه استقلت بما فيها فجرت على ظهر الماء مائه و خمسين يوما بلياليها

و

روى أبو عبيده الحذاء عن أبى جعفر (عليه السلام) قال مسجد كوفان وسطه روضه من رياض الجنه الصلاه فيه بسبعين صلاه صلى فيه ألف نبى و سبعون نبيا فيه فار التنور و جرت السفينه و هو سره بابل و مجمع الأنبياء (عليه السلام)

(و ثانيها) أن التنور وجه الأرض عن ابن عباس و الزهرى و عكرمه و اختاره الزجاج و يؤيده قوله «وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا» (و ثالثها)

أن معنى قوله «وَفَارَ التَّنُورُ» طلع الفجر و ظهرت أمارات دخول النهار و تقضى الليل من قولهم نور الصبح تنويرا و روى ذلك عن على (عليه السلام)

(و رابعها) أن التنور أعلى الأرض و أشرفها و المعنى نبع الماء من الأمكنه المرتفعه فشبهت بالتناير لعلوها عن قتاده (و خامسها)

أن فار التنور معناه اشتد غضب الله عليهم و وقعت نقمته بهم كما تقول العرب حمى الوطيس إذا اشتد الحرب و فار قدر القوم إذا
اشتد حربهم قال الشاعر:

ص: ٢٤٨

تفور علينا قدرهم فنذيمها و نفاها عنا إذا حميها غلا

يريد بالقدر الحرب و نذيمها نسكنها و هذا أبعد الأقوال من الأثر و حمل الكلام على الحقيقه التي تشهد بها الروايه أولى «قُلْنَا
أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» أى قلنا لنوح (عليه السلام) لما فار الماء من التنور احمل فى السفينه من كل جنس من الحيوان
زوجين أى ذكر و أنثى و قد ذكرنا المعنى فى حجه القراءتين «وَأَهْلَكَ» أى و احمل أهلك و ولدك «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ»
أى من سبق الوعد بإهلاكه و الإخبار بأنه لا يؤمن و هى امرأته الخائنه و اسمها واغله و ابنها كنعان «وَمَنْ آمَنَ» أى و احمل فيها
من آمن بك من غير أهلك ثم أخبر سبحانه فقال «وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» أى إلا نفر قليل و هم ثمانون إنسانا فى قول الأكثرين
و قيل اثنان و سبعون رجلا و امرأه و بنوه الثلاثه و نساؤهم فهم ثمانيه و سبعون نفسا و حمل معه جسد آدم (عليه السلام) عن
مقاتل و قيل عشره أنفس عن ابن إسحاق و

قيل ثمانيه أنفس عن ابن جريج و قتاده و روى ذلك عن أبى عبد الله (عليه السلام)

و قيل سبعة أنفس عن الأعمش و كان فيهم بنوه الثلاثه سام و حام و يافث و ثلاث كنانن لهم فالعرب و الروم و فارس و أصناف
العجم ولد سام و السودان من الحبش و الزنج و غيرهم ولد حام و الترك و الصين و الصقالبه و يأجوج و مأجوج ولد يافث «و
قَالَ ارْكَبُوا فِيهَا» أى و قال نوح لمن آمن معه اركبوا فى السفينه و فى الكلام حذف تقديره فلما فار التنور و وقف نوح على ما
دله الله عليه من هلاك الكفار قال لأهله و قومه «ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مَرْسَاهَا» أى متبركين باسم الله أو قائلين بسم الله
وقت إجرائها و وقت إرسائها أى إثباتها و حبسها و قيل معناه بسم الله إجراؤها و إرسائها و قد ذكرنا تفسيره فى الحجه و قال
الضحاك كانوا إذا أرادوا أن تجرى السفينه قالوا بسم الله مجريها فجرت و إذا أرادوا أن تقف السفينه قالوا بسم الله مرسيتها
فوقفت «إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» هذا حكايه عما قاله نوح لقومه و وجه اتصاله بما قبله أنه لما ذكرت النجاه بالركوب فى السفينه
ذكرت النعمه بالمغفره و الرحمه لتجتلبا بالطاعه كما اجتلبت النجاه بركوب السفينه «وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ» معناه أن
السفينه كانت تجرى بنوح و من معه على الماء فى أمواج كالجبال فى عظمها و ارتفاعها و دل بتشبيها بالجبال على أن ذلك لم
يكن موجا واحدا بل كان كثيرا و روى عن الحسن إن الماء ارتفع فوق كل شىء و فوق كل جبل ثلاثين ذراعا و قال غيره
خمسه عشر ذراعا و قيل أن سفينه نوح سارت لعشر مضيمن من رجب فسارت سته أشهر حتى

طافت الأرض كلها لا تستقر فى موضع حتى أتت الحرم فطافت بموضع الكعبة أسبوعا و كان الله سبحانه رفع البيت إلى السماء ثم سارت بهم حتى انتهت إلى الجودى و هو جبل بأرض الموصل فاستقرت عليه اليوم العاشر من المحرم و

روى أصحابنا عن أبى عبد الله (عليه السلام) أن نوحا ركب السفينه فى أول يوم من رجب فصام و أمر من معه أن يصوموا ذلك اليوم و قال من صام ذلك اليوم تباعدت عنه النار مسيره سنه

«و نادى نُوحٌ ابْنَهُ» كنعان و قيل أن اسمه يأم «و كَانَ فِي مَعْرَلٍ» أى فى قطعه من الأرض غير القطعه التى كان نوح فيها حين ناداه و قيل معناه كان فى ناحيه من دين أبيه أى قد اعتزل دينه و كان نوح يظن أنه مسلم فلذلك دعاه و قيل كان فى معزل من السفينه «يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ» دعا ابنه إلى أن يركب معه فى السفينه ليسلم من الغرق قال الحسن كان ينافق أباه فلذلك دعاه و قال أبو مسلم دعاه بشرط الإيمان و معناه يا بنى آمن بالله ثم اركب معنا و لا تكن على دين الكافرين و على القول الأول يكون معناه لا تتخلف مع الكافرين فتغرق معهم فأجابه ابنه «قَالَ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ» أى سأرجع إلى مأوى من جبل «يَعْصِي مَنِي مِنَ الْمَاءِ» أى يمنعنى من آفات الماء «قَالَ» نوح «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ» أى لا مانع و لا دافع اليوم من عذاب الله إلا من رحمه الله بإيمانه فآمن بالله يرحمك الله «وَ حَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ» أى فصار «مِنَ الْمُغْرَقِينَ».

[سوره هود (١١): آيه ٤٤]

اشاره

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْمَاءِ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)

اللغه

البلع إجراء الشىء فى الحلق إلى الجوف و الإقلاع إذهاب الشىء من أصله حتى لا يرى له أثر يقال أقلعت السماء إذا ذهب مطرها حتى لا يبقى شىء منه و أقلع عن الأمر إذا تركه رأسا.

المعنى

ثم بين سبحانه الحال بعد انتهاء الطوفان فقال «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ» أى قال الله سبحانه للأرض انشفى ماءك الذى نبتت به العيون و اشربى ماءك حتى لا يبقى على وجهك شىء منه و هذا إخبار عن ذهاب الماء عن وجه الأرض بأوجز مداه فجرى مجرى أن قيل لها ابلعى فبلعت «وَايَا سَمَاءُ أَقْلِعِي» أى و قال تعالى للسماء يا سماء أمسكى

ص: ٢٥٠

عن المطر و هذا إخبار عن إقشاع السحاب و انقطاع المطر فى أسرع زمان فكأنه قال لها ألقى فأقلت «و غِيضَ المَاءِ» أى ذهب به عن وجه الأرض إلى باطنه و المعنى و نشفت الأرض ماءها و يقال أن الأرض ابتلعت جميع مائها و ماء السماء لقوله «و غِيضَ المَاءِ» و يقال لم تبتلع ماء السماء لقوله «ألقى ماءك» و

إن ماء السماء صار بحارا و أنهارا و هو المروى عن أئمتنا (عليه السلام)

«و قُضِيَ المَأْمُرُ» أى وقع إهلاك الكفار على التمام و فرغ من الأمر و قيل و قضى الأمر بنجاه نوح و من معه «و اشْتَبَتْ عَلَى الجُودَى» أى استقرت السفينه على الجبل المعروف قال الزجاج هو بناحية آمد و قال غيره بقرب جزيره الموصل قال زيد بن عمرو بن نفيل:

سبحانه ثم سبحانا يعود له و قبله سبح الجودى و الجمد

و قال أبو مسلم الجودى اسم لكل جبل و أرض صلبه و

فى كتاب النبوه مسندا إلى أبى بصير عن أبى الحسن على بن موسى بن جعفر (عليه السلام) قال كان نوح لبث فى السفينه ما شاء الله و كانت مأموره فخلقى سبيلها فأوحى الله إلى الجبال إنى واضع سفينه نوح على جبل منكن فتناولت الجبال و شمخت و تواضع الجودى و هو جبل بالموصل فضرب جؤجؤ السفينه الجبل فقال نوح عند ذلك يا ماريأ اتقن و هو بالعرييه يا رب أصلح

و

فى روايه أخرى يا رهمان اتقن

و تأويله يا رب أحسن و قيل أرسى السفينه على الجودى شهرا «و قِيلَ بُعْداً لِلظَّالِمِينَ» أى قال الله تعالى ذلك و معناه أبعده الله الظالمين من رحمته لإيرادهم أنفسهم مورد الهلاك و إنما انتصب على المصدر و فيه معنى الدعاء و يجوز أن يكون هذا من قول الملائكه أو من قول نوح و المؤمنين و فى هذه الآيه من بدائع الفصاحه و عجائب البلاغه ما لا يقارب كلام البشر و لا يدانيه منها أنه خرج مخرج الأمر و إن كانت الأرض و السماء من الجماد ليكون أدل على الاقتدار و منها حسن تقابل المعنى و ائتلاف الألفاظ و منها حسن البيان فى تصوير الحال و منها الإيجاز من غير إخلال إلى غير ذلك مما يعلمه من تدبره و له معرفه بكلام العرب و محاوراتهم و يروى أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضه القرآن فعكفوا على لباب البر و لحوم الضأن و سلاف الخمر أربعين يوما لتصفوا أذهانهم فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآيه فقال بعضهم لبعض هذا كلام لا يشبهه شىء من الكلام و لا يشبه كلام المخلوقين و تركوا ما أخذوا فيه و افترقوا.

إشارة

وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْئَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَّةٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَّةٍ سَنُنَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

القراءة

قرأ الكسائي و يعقوب و سهل إنه عمل غير صالح على الفعل و نصب غير و الباقيون «عَمَلٌ» اسم مرفوع منون غير بالرفع و قرأ ابن كثير فلا تسئلن مشددة النون مفتوحة و قرأ أبو عمرو و يعقوب و سهل فلا تسئلني خفيفه النون مثبتة الياء و قرأ أهل الكوفه خفيفه النون بغير ياء و قرأ أهل المدينة غير قالون فلا تسئلني مشددة النون مثبتة الياء و قرأ ابن عامر و قالون فلا تسئلن مشددة النون مكسورة بغير ياء.

الحجة

قال أبو علي من قرأ «إِنَّهُ عَمَلٌ» فنون فالمراد أن سؤالك ما ليس لك به علم عمل غير صالح و يحتمل أن يكون الضمير في أنه لما دل عليه قوله اَرْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ فيكون تقديره إن كونك مع الكافرين و انحيازك إليهم و تركك الركوب معنا و الدخول في جملتنا عمل غير صالح و يجوز أن يكون الضمير لابن نوح كأنه جعل عملا غير صالح كما يجعل الشيء الشيء لكثرة ذلك منه كقولهم الشعر زهير أو يكون المراد إنه ذو عمل غير

صالح فحذف المضاف و من قرأ إنه عمل غير صالح فيكون في المعنى كقراءه من قرأ «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» و هو يجعل الضمير لابن نوح و تكون القراءتان متفتحتين في المعنى و إن اختلفتا في اللفظ و من ضعف هذه القراءه بأن العرب لا تقول هو يعمل غير حسن حتى يقولوا عمل غير حسن فالقول فيه أنهم يقيمون الصفه مقام الموصوف عند ظهور المعنى فيقول القائل قد فعلت صوابا و قلت حسنا بمعنى فعلت فعلا صوابا و قلت قولاً حسناً قال عمر بن أبي ربيعة:

أيها القائل غير الصواب آخر النصح و أقلل عتابي

و قال أيضا:

و كم من قتيل ما يباء به دم و من غلق رهن إذا لفه مني

و من مالى عينيه من شىء غيره إذا راح نحو الجمره البيض كالدمى

أراد و كم من إنسان قتيل و نظائره كثيره و من قرأ فلا تسئلن بفتح اللام و لم يكسر النون عدى السؤال إلى مفعول واحد في اللفظ و المعنى على التعدى إلى مفعول ثان و من كسر النون هاهنا فإنه يدل على تعديه السؤال إلى مفعولين (أحدهما) اسم المتكلم و الآخر اسم الموصول و حذف النون المتصله بياء المتكلم لاجتماع النونات كما حذف النون من قولهم إني كذلك و كما حذف النون من قوله:

"يسوء الفاليات إذا فليني"

و أما إثبات الياء في الوصل فهو الأصل و حذفها أخف و الكسره تدل عليها.

الإعراب

قوله «ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» يحتمل قوله به في الآيه وجهين (أحدهما) أن يكون كقوله:

"كان جزائي بالعصا أن أجلدا"

إذا قدمت بالعصا و كقوله «وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» و «إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ» «وَ أَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» و زعم أبو الحسن أن ذلك إنما يجوز في حروف الجر و التقدير فيه التعليق بمضمرة يفسره هذا الذى ظهر بعد و إن كان لا يجوز تسلطه عليه و مثل ذلك قوله يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ فانتصب يَوْمَ يَرَوْنَ بما دل عليه لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ و لا يجوز لما بعد لا هذه أن يتسلط على يَوْمَ

يَرُونَ وَ كَذَلِكَ إِنِّي لَكَمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ متعلق بما دل عليه النصح المظهر و التقدير إني ناصح لكما لمن الناصحين و كذلك به في قوله «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» يتعلق بما يدل عليه قوله علم الظاهر و إن لم يجز أن يعمل فيه و الوجه الآخر أن يكون متعلقا بالمستقر و هو العامل فيه كتعلق الظرف بالمعاني كما تقول ليس لك فيه رضا فيكون به في الآيه بمنزله فيه و العلم يراد به العلم المتيقن الذي يعلم به الشئ ع على الحقيقة ليس العلم الذي يعلم به الشئ ع على ظاهره كالذي في قوله «فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ» و نحو ما يعلمه الحاكم بشهادة الشاهدين و إقرار المقر بما يدعى و نحو ذلك مما يعلم به العلم الظاهر الذي يسع الحاكم الحكم بالشئ ع معه «تَلَمَّكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ» تلك مبتدأ و من أنباء الغيب الخبر و «نُوحِيهَا إِلَيْكَ» خبر ثان و إن شئت كان في موضع الحال أى تلك كائنه من أنباء الغيب موحاه إليك و إن شئت كان تلك مبتدأ و نوحيتها الخبر و الجار من صله نوحيتها أى تلك نوحيتها إليك من أنباء الغيب و لا يجوز أن يكون من زياده على تقدير تلك أنباء الغيب لأنها لا تزداد في الموجب و يجوز على قول الأخصش.

المعنى

ثم حكى سبحانه تمام قصه نوح (عليه السلام) فقال «وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ» نداء تعظيم و دعاء «فَقَالَ رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ» معناه يا مالكي و خالقي و رازقي وعدتني بتنجيح أهلي و إن ابني من أهلي و إن وعدك الحق لا خلف فيه فنجح إن كان ممن وعدتني بنجاته «وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ» في قولك و فعلك «قَالَ» الله سبحانه «يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» و قد قيل في معناه أقوال (أحدها) أنه كان ابنه لصلبه و المعنى أنه ليس من أهلِكَ الذين وعدتكَ بنجاتهم معك لأن الله سبحانه قد استثنى من أهله الذين وعده أن ينجيحهم من أراد إهلاكهم بالغرق فقال «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» عن ابن عباس و سعيد بن جبير و الضحاك و عكرمه و اختاره الجبائي (و ثانيها) أن المراد بقوله «لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» أنه ليس على دينك فكأن كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام أهله عن جماعه من المفسرين و هذا كما

قال النبي (عليه السلام) سلمان منا أهل البيت

و إنما أراد على ديننا و

روى على بن مهزيار عن الحسن بن علي الوشاء عن الرضا (عليه السلام) قال قال أبو عبد الله (عليه السلام) أن الله تعالى قال لنوح «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» لأنه كان مخالفا له و جعل من اتبعه من أهله

و يؤيد هذا التأويل أن الله سبحانه قال على طريق التعليل «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» فبين أنه إنما خرج عن أحكام أهله لكفره و سوء عمله و روى عن عكرمه أنه قال كان ابنه و لكنه كان مخالفا له في العمل و النية فمن ثم قيل «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» (و ثالثها) أنه لم يكن ابنه على الحقيقة و إنما ولد على فراشه فقال

(عليه السلام) إنه ابني علي ظاهر الأمر فأعلمه الله تعالى أن الأمر بخلاف الظاهر ونبهه على خيانه امرأته عن الحسن و مجاهد و هذا الوجه بعيد من حيث أن فيه منافاه القرآن لأنه تعالى قال وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ لَأَن الْأَنْبِيَاءَ يَجِبَ أَنْ يَنْزَهُوا عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لِأَنَّهَا تَعِيرُ وَ تَشِينُ وَ قَدْ نَزَّ اللَّهُ أَنْبِيَاءَهُ عَمَّا دُونَ ذَلِكَ تَوْقِيرًا لَهُمْ وَ تَعْظِيمًا عَمَّا يَنْفِرُ مِنَ الْقَبُولِ مِنْهُمْ وَ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ مَا زَنْتُ امْرَأَةً نَبِيٍّ قَطُّ وَ كَانَتْ الْخِيَانَةَ مِنْ امْرَأَةٍ نُوْحٍ أَنَّهَا كَانَتْ تَدُلُّ عَلَيَّ عَلَى أَضْيَافِهِ (وَ رَابِعُهَا) أَنَّهُ كَانَ ابْنُ امْرَأَتِهِ وَ كَانَ رَبِيْبِهِ وَ يَعْضُدُهُ قِرَاءَهُ مِنْ قِرَاءِ ابْنِهِ بِفَتْحِ الْهَاءِ وَ ابْنِهَا وَ الْمَعْتَمِدُ الْمَعْمُولُ عَلَيْهِ فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ الْقَوْلَانِ الْأَوْلَانِ «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» قَدْ ذَكَرْنَا الْوَجْهَ فِي الْقِرَاءَتَيْنِ وَ اخْتَارَ الْمُرْتَضَى (رَض) فِي تَأْوِيلِهِ أَنَّ التَّقْدِيرَ أَنَّ ابْنَكَ ذُو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ وَ اسْتَشْهَدَ عَلَيَّ ذَلِكَ بِقَوْلِ الْخَنَسَاءِ:

ما أم سقب علي بو تطيف به قد ساعدتها علي التحنان أظنار

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال و إدبار

أرادت فإنما هي ذات إقبال و إدبار قال و من قال أن المعنى إن سؤالك إياي ما ليس لك به علم عمل غير صالح فإن من امتنع من أن يقع علي الأنبياء شىء من القبائح يدفع ذلك فإذا قيل له فلم قال «فَلَا تَسْتَسْئَلُنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» وَ كَيْفَ قَالَ نُوحٌ «رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ» قَالَ لَا يَمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ نَهَى عَنْ سَوْأَلِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ وَ إِنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ وَ إِنْ يَكُونُ تَعَوُّذٌ مِنْ ذَلِكَ وَ إِنْ لَمْ يَوْقَعْ كَمَا نَهَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ نَبِيَّهُ عَنِ الشَّرْكِ فِي قَوْلِهِ لَيْسَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ إِنْ لَمْ يَجْزِ وَقُوعُ ذَلِكَ مِنْهُ وَ إِنَّمَا سَأَلَ نُوحٌ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) نَجَاهُ ابْنَهُ بِشَرَطِ الْمَصْلَحَةِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْقَطْعِ فَلَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي غَيْرِ نَجَاتِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ خَارِجًا عَمَّا تَضَمَّنَهُ السُّؤَالُ وَ قَوْلُهُ «إِنِّي أَعْظُكَ» أَيْ أَحْذَرُكَ وَ الْوَعْظُ الدَّعَاءُ إِلَى الْحَسَنِ وَ الزُّجْرُ عَنِ الْقَبِيحِ عَلَى وَجْهِ التَّرْغِيبِ وَ التَّرْهِيْبِ «أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» مَعْنَاهُ لَا تَكُنْ مِنْهُمْ قَالَ الْجَبَائِيُّ يَعْنِي إِنِّي أَعْظُكَ لِثَلَا تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ وَ لَا شَكَّ أَنَّ وَعْظَهُ سَبْحَانَهُ يَصْرَفُ عَنِ الْجَهْلِ وَ يَنْزَهُ عَنِ الْقَبِيحِ «قَالَ» نُوحٌ عِنْدَ ذَلِكَ «رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ» أَيْ أَعْتَصِمُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَا أَعْلَمُ أَنَّهُ صَوَابٌ وَ أَنَّكَ تَفْعَلُهُ وَ مَعْنَى

العباد بالله الاعتصام به طلبا للنجاه و معناه هاهنا الخضوع و التذلل لله سبحانه ليوافقه و لا يكله إلى نفسه و إنما حذف يا من قوله «رَبِّ» و أثبتته في قوله «يا نُوحُ» لأن ذلك نداء تعظيم و هذا نداء تنبيه فوجب أن يأتي بحرف التنبيه «وَاللَّا تَغْفِرُ لِي وَ تَزْحَمْنِي أَكُنُّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» إنما قال ذلك على سبيل التخشع و الاستكانة لله تعالى و إن لم يسبق منه ذنب ثم حكى الله سبحانه ما أمر به نوحا حين استقرت السفينه على الجبل بعد خراب الدنيا بالطوفان فقال «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ» أى أنزل من الجبل أو من السفينه «بِسَلَامٍ مِنَّا» أى بسلامه منا و نجاه و قيل بتحيه و تسليم منا عليك «وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ» أى و نعم دائمه و خيرات ناميه ثابتة حالا بعد حال عليك «وَعَلَى أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ» يعنى الأمم الذين كانوا معه فى السفينه من المؤمنين و الأمة الجماعه الكثيره المتفقه على مله واحده و قيل معناه و على أُمم من ذريه من معك و قيل يعنى بالأمم سائر الحيوان الذين كانوا معه لأن الله تعالى جعل فيها البركه «وَأُمَّمٌ سَيَنْتُمُّهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ» معناه أنه يكون من نسلهم أُمم ستمتعهم فى الدنيا بضروب من النعم فيكفرون و نهلكهم ثم يمسه بعد الهلاك عذاب مؤلم و إنما ارتفع أُمم لأنه استأنف الإخبار عنهم و روى عن الحسن أنه قال هللك المتمتعون فى الدنيا لأن الجهل يغلب عليهم و الغفله فلا يتفكرون إلا فى الدنيا و عمارتها و ملاذها ثم أشار سبحانه إلى ما تقدم ذكره من أخبار قوم نوح فقال «تِلْمَكُ» أى تلك الأنباء «مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ» أى من أخبار ما غاب عنك معرفته و لو قال ذلك كان جائزا لأن المصادر قد يبنى عنها بالتذكير كما يبنى بالتأنيث يقولون قدم فلان ففرحت بها أى بقدمته و فرحت به أى بقدمه «نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا» أى أن هذه الأخبار التى أعلمناكها لم تكن تعلمها أنت و لا قومك من العرب يعرفونها من قبل إيحائنا إليك لأنهم لم يكونوا أهل كتاب و سير و قيل من قبل هذا القرآن و بيان القصص فيه «فَاصْبِرْ» أى فاصبر على القيام بأمر الله و على أذى قومك يا محمد كما صبر نوح على أذى قومه و هذا أحد الوجوه التى لأجلها كرر الله قصص الأنبياء (عليه السلام) ليصبر النبي ص على ما كان يقاسيه من أمور الكفار الجهال حالا بعد حال «إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» أى إن العاقبه المحموده و خاتمه الخير و النصره للمتقين كما كانت لنوح (عليه السلام).

اشاره

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَا مُفْتَرُونَ (۵۰) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَجْرِي إِلَّا- عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا- تَعْقِلُونَ (۵۱) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا- تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (۵۲) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۵۳) إِن نَقُولُ إِلَّا إِعْتِرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (۵۴)

مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (۵۵) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا- هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنِّي رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۶) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَعْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنِّي رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۵۷) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عِيَادٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۵۹)

وَ اتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

اللغه

الفطر الشق عن أمر الله كما ينفطر الورق عن الشجر و منه فطر الله الخلق لأنه بمنزله ما شق عنه فظهر. المدرار الدار الكثير المتتابع على قدر الحاجة إليه دون الزائد

المفسد المضمر و مفعال للمبالغه كقولهم معطار و مقدم و اعتراك من قولهم عراه يعروه إذا أصابه قال الشاعر:

(من القوم يعروه اجترأ و مأثم)

و الفرق بين الإنظار و التأخير إن الإنظار إمهال لينظر صاحبه فى أمره و التأخير خلاف التقديم و الناصيه قصاص الشعر و أصله الاتصال من قولهم مفازه تناصى مفازه إذا كانت الأخيره متصله بالأولى قال " فى ء تناصيها بلا دفى ء " و قال أبو النجم:

إن يمس رأسى أشمط العناصى كأنما فرقه المناصى

أى يجاذب ليتصل به فى مره العنيد العاتى الطاغى عند يعند عنودا إذا تجبر و عند عن الأمر إذا حاد عنه فهو عاند و عنود.

الإعراب

أخاهم نصب بتقدير أرسلنا كأنه قال و أرسلنا إلى عاد أخاهم و هوذا عطف بيان و عاد مصروف لأن المراد به الحى و قد يقصد به القبيله فلا يصرف قال:

لو شهد عاد فى زمان عاد لا بترها مبارك الجلال

" غيره " من ضم الرء حمل الصفه على الموضع و من جره حمله على اللفظ قوله «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» قال صاحب كتاب كشف الجامع النحوى إن حرف نفى لحقت " نقول " فنفت جميع القول إلا- قولاً- واحداً و هو قولهم «اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» و التقدير ما نقول قولاً- إلا هذه مقاله و الفعل يدل على المصدر و على الظرف و على الحال و يجوز أن يذكر الفعل ثم يستثنى من مدلوله ما دل عليه من المصادر و الظروف و الأحوال فنقول اعتراك مستثنى من المصدر الذى دل عليه نقول كقوله تعالى «أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى» فنصب موتتنا على الاستثناء لأنه مستثنى من ضروب الموت الذى دل عليه قوله بِمَبِيتِينَ و مما جاء من ذلك فى الظروف قوله «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ» فساعه استثناء مما دل عليه يلبثوا من الأوقات و مما جاء من ذلك فى الحال قوله «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُفُفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ» التقدير ضربت عليهم الذله فى جميع الأحوال أينما ثقفوا إلا متمسكين بحبل أى بعهد من الله انتهى كلامه و قوله «فَإِنْ تَوَلَّوْا»

تقديره فإن تتولوا فحذف إحدى التاءين لدلاله الكلام عليه و قوله «بُعْدًا لِعَادٍ» منصوب على المصدر أى أبعدهم الله بعدا فوقع بعدا موقع إبعاد كما وقع نبات موقع إنبات فى قوله «وَ اللَّهُ أَنْبَتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا».

المعنى

ثم عطف سبحانه قصه هود على قصه نوح فقال «وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» أراد أخاهم فى النسب دون الدين «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ حده و أطيعوه دون الأصنام «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» دخول من يفيد التعميم نفى أن يكون لهم معبود يستحق العباده غير الله عز اسمه «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ» أى ما أنتم إلا كاذبون فى قولكم إن الأصنام آلهه «يَا قَوْمِ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» أى لست أطلب منكم على دعائى لكم إلى عباده الله جزاء «إِنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي» أى ليس جزائى إلا- على الله الذى خلقنى «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» عنى ما أقول لكم فتعلمون أن الأمر على ما أقوله «وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» قد بينا وجه تقديم الاستغفار على التوبه فى أول هذه السوره «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» أى يرسل المطر عليكم متابعا متواترا دارا و قيل أنهم كانوا قد أجدبوا فوعدهم هود أنهم إن تابوا أخصبت بلادهم و أمرعت و هادهم و أثمرت أشجارهم و زكت ثمارهم بنزول الغيث الذى يعيشون به و هذا مثل قوله وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ «وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ» فسرت القوه هنا بالمال و الولد و الشده و كل ذلك مما يتقوى به الإنسان قال على بن عيسى يريد عزا إلى عزتكم بكثرة عددكم و أموالكم و قيل قوه فى إيمانكم إلى قوه أبدانكم «وَ لَا تَتَوَلَّوْا» عما أدعوكم إليه «مُجْرِمِينَ» أى مشركين كافرين «قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ» أى بحجه و معجزه تبين صدقك «وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ» أى لسنا بتاركى عباده الأصنام لأجل قولك و قيل إن عن جعلت مكان الباء فمعناه بقولك «وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» أى مصدقين و إنما حملهم على دفع البينه مع ظهورها أشياء منها تقليد الآباء و الرؤساء و منها إتمامهم لمن جاء بها حيث لم ينظروا فيها و منها أنه دخلت عليهم الشبهه فى صحتها و منها اعتقادهم لأصول فاسده دعتهم إلى جحدها و إنما حملهم على عباده الأوثان أشياء منها اعتقادهم إن عبادتها تقربهم إلى الله زلفى و منها أن الشيطان ربما ألقى إليهم أن عبادتها تحظيهم فى الدنيا و منها أنهم ربما اعتقدوا مذهب المشبهه فاتخذوا الأوثان على صورته عندهم فعبدوها «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» هذا تمام الحكايه عن قوم هود جوابا لهود و المعنى لسنا نقول

فيك إلا أنه أصابك بعض آلهتنا بسوء فخبيل عقلك لشمكك لها و سبك إياها ذهب إليه ابن عباس و مجاهد «قال» أي قال هود لقومه «إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا» أي و أشهدكم أيضا بعد إشهاد الله «أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ» أي إن كنتم تزعمون أن آلهتكم عاقبتني لطعني عليها فإني على بصيره في البراءة مما تشركونه مع الله من آلهتكم التي تزعمون أنها أصابتنى بسوء و إنما أشهدهم على ذلك و إن لم يكونوا أهل شهادة من حيث كانوا كفارا فساقا إقامه للحجة عليهم لا لتقوم الحجة بهم فقال هذا القول إعدارا و إنذارا و قيل إنه أراد بقوله «أَشْهَدُوا» و اعلموا كما قال شَهِدَ اللَّهُ أَي عَلَّمَ اللَّهُ «فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ» أي فاحتالوا و اجتهدوا أنتم و آلهتكم في إنزال مكروه بي ثم لا تمهلوني قال الزجاج و هذا من أعظم آيات الأنبياء أن يكون الرسول وحده و أمته متعاونه عليه فيقول لهم كيدوني فلا يستطيع واحد منهم ضره و كذلك قال نوح لقومه فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ الْآيَةَ و قال نبينا ص فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا و مثل هذا القول لا يصدر إلا عمن هو واثق بنصر الله و بأنه يحفظه عنهم و يعصمه منهم ثم ذكر هود (عليه السلام) هذا المعنى فقال «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ» أي فوضت أمري إلى الله سبحانه متمسكا بطاعته تاركا لمعصيته و هذا هو حقيقه التوكل على الله سبحانه «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا» أي ما من حيوان يدب على وجه الأرض إلا و هو مالك لها يصرفها كيف يشاء و يقهرها و جعل الآخذ بالناصية كناية عن القهر و القدره لأن من أخذ بناصية غيره فقد قهره و أذله «إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أي أنه سبحانه مع كونه قاهرا على عدل فيما يعامل به عباده و المعنى أنه يعدل و لا يجوز و قيل معناه إن ربي في تدبير عباده على طريق مستقيم لا- عوج فيه و لا اضطراب فهو يجري على سبيل الصواب و يفعل ما يقتضيه الحكمة «فَإِنْ تَوَلَّوْا» هذا حكاية عما قاله هود (عليه السلام) لقومه و المعنى فإن تولوا و يجوز أن يكون حكاية عما قاله سبحانه لهود و المعنى فإن تولوهم «ف» قل لهم «قَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ» أي ليس ذلك لتقصير مني في إبلاغكم و إنما هو لسوء اختياركم في إعراضكم عن نصحي فقد أبلغتكم جميع ما أوحى إلي «وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ» أي و يهلككم ربي بكفركم و يستبدل بكم قوما غيركم يوحدونه و يعبدونه «وَ لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا» يعني إذا استخلف غيركم فجعلهم بدلا منكم لا تقدرتون له على ضرر و قيل معناه لا تضرونه بتوليكم و إعراضكم شيئا و لا ضرر عليه في إهلاككم لأنه لم يخلقكم لحاجه منه إليكم «إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ» يحفظه من الهلاك إن شاء و يهلكه إذا شاء و قيل معناه إن ربي يحفظني عنكم و عن أذاكم و قيل معناه إن ربي على كل شىء من أعمال عباده حفيظ حتى يجازيهم عليها «وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا» بهلاك عاد «نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ»

من الهلاك وقيل أنهم كانوا أربعة آلاف «بِرَحْمَةٍ مِنَّا» أى بما أريناهم من الهدى والبيان عن ابن عباس وقيل «بِرَحْمَةٍ مِنَّا» أى بنعمه منا وهى النجاه أى أنجيناهم برحمه ليعلم أنه عذاب أريد به الكفار لا اتفاق وقع «وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ» أى كما نجيناهم من عذاب الدنيا نجيناهم من عذاب الآخرة والغليظ الثقيل العظيم و يحتمل أن يكون هذا صفه للعذاب الذى عذب به قوم هود ثم ذكر سبحانه كفر عاد فقال «وَتَلَمَّكَ» أى وتلك القبيله «عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» يعنى معجزات هود الداله على صحه نبوته «وَعَصَوْا رُسُلَهُ» إنما جمع الرسل و كان قد بعث إليهم هود لأن من كذب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل ولأن هودا كان يدعوهم إلى الإيمان به و بمن تقدمه من الرسل و بما أنزل عليهم من الكتب فكذبوا بهم جميعا فلذلك عصوهم «وَأَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» أى و اتبع السفله و السقاط الرؤساء وقيل إن الجبار من يقتل و يضرب على غضبه و العنيد الكثير العناد الذى لا يقبل الحق «وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً» أى و أتبع عادا بعد إهلاكهم فى الدنيا بالإبعاد عن الرحمه فإن الله تعالى أبعدهم من رحمته و تبعه المؤمنین بالدعاء عليهم باللعن «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ» أى و فى يوم القيامة يبعدون من رحمه الله كما بعدوا فى الدنيا منها و يلعنون بأن يدخلوا النار فإن اللعنه الدعاء بالإبعاد من قولك لعنه إذا قال عليه لعنه الله و أصله الإبعاد من الخير «ألا» ابتداء و تنبيه «إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ» أراد بربهم فحذف الباء كما قالوا أمرتك الخير أى بالخير «ألا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ» أى أبعدهم الله من رحمته فبعدوا بعدا.

اشاره

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (۶۱) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ (۶۲) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (۶۳) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَهَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (۶۴) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ (۶۵)

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۶۶) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۶۷) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (۶۸)

القراءه

قرأ أهل المدينة غير إسماعيل و الكسائي و البرجمي و الشموني عن أبي بكر عن عاصم و من خزي يومئذ بفتح الميم هاهنا و عذاب يومئذ في المعارج و الباقون بكسر الميم على الإضافة و قرأ حمزه و حفص عن عاصم و يعقوب «أَلَا إِنَّ ثَمُودَ» غير منون في جميع القرآن و قرأ الباقون ثمودا بالتثنية هاهنا و في الفرقان و العنكبوت و النجم لأنه مكتوب بالألف في هذه المواضع و أبو بكر عن عاصم يقرأ وَ ثَمُودَ فِي و النجم بغير تنوين و ينون الباقي و روى عنه البرجمي و محمد بن غالب عن الأعشى في و النجم بالتثنية أيضا و قرأ الكسائي وحده أَلَا بَعْدَ ثَمُودَ بِالْجَرِّ وَ التَّنْوِينِ وَ الْبَاقُونَ «لِثَمُودَ» بفتح الدال.

الحجه

قال أبو علي قوله و من خزي يومئذ يوم في قوله يومئذ ظرف فتحت أو كسرت في المعنى إلا أنه اتسع فيه فجعل اسما كما اتسع في قوله «بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ» فأضيف المكر إليهما و إنما هو فيهما فكذلك العذاب و الخزي و الفزع في قوله مِنْ فَزَعٍ يَوْمِئِذٍ أضفن إلى اليوم و المعنى على أن ذلك كله في اليوم كما أن المكر في الليل و النهار يدل على ذلك قوله «وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى» و قوله «لَا يَخْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ» و قوله «فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» و قوله «رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ» و أما من

كسر الميم من يومئذ فلأن يوما اسم معرب فأضيف إليه ما أضيف من العذاب و الخزي و الفرع فانجر بالإضافه و لم يفتح اليوم فتبنيه لإضافته إلى المبني لأن المضاف منفصل من المضاف إليه و لا- يلزمه الإضافه فلما لم يلزم الإضافه المضاف لم يلزم فيه البناء يدللك على ذلك أنك تقول ثوب خز و دار زيد فلا يجوز فيه إلا الإعراب و إن كان الاسمان جعللا بمعنى الحرف فلم يلزمها البناء كما يلزم ما لا- ينفك منه معنى الحرف نحو أين و كيف و متى فلما لم يبين المضاف للإضافه و إن كان قد عمل عمل الحرف من حيث كان غير لازم كذلك لم يبين يوم للإضافه إلى إذ لأن إضافته لم تلزم كما لم يبين المضاف و إن كان قد عمل فى المضاف إليه بمعنى اللام أو بمعنى من لما لم تلزم الإضافه و أما من فتح فقال من عذاب يومئذ و من خزي يومئذ ففتح مع أنه فى موضع جر فلأن المضاف يكتسى من المضاف إليه التعريف و التنكير و معنى الاستفهام و الجزاء فى نحو غلام من تضرب و غلام من تضرب أضربه و النفى فى نحو قولهم ما أخذت باب دار أحد فلما كان يكتسى من المضاف إليه هذه الأشياء اكتسى منه الإعراب و البناء أيضا إذا كان المضاف من الأسماء الشائعه نحو يوم و حين و مثل و يشبه بهذا الشياح الأسماء الشائعه المبنيه نحو أين و كيف و لو كان المضاف مخصوصا نحو رجل و غلام لم يكتس منه البناء كما اكتسى منه الأسماء الشائعه فمما جاء من ذلك قوله:

على حين عاتبت المشيب على الصبا و قلت أ لما أصح و الشيب وازع

و من ذلك قوله «إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ» فمثل فى موضع رفع فى قول سيبويه و قد جرى وصفا على النكره إلا أنه فتح للإضافه إلى ما و من ذلك قول الشاعر:

و تداعى مدخره بدم مثل ما أثمر حماض الجبل

لما أضاف مثل إلى المبني و كان اسما شائعا بناه و لم يعربه و ذهب أبو عثمان إلى أنه جعل مثلا مع ما بمنزله اسم واحد فبنى مثلا- على الفتح و لا- دلالة قاطعه على هذا القول فى هذا البيت و إن كان ما ذهب إليه مستقيما فأما الكسره فى إذ فلالتقاء الساكنين و ذلك إن إذ من حكمها أن تضاف إلى الجملة من الابتداء و الخبر فلما اقتطعت عنها الإضافه نونت ليدل التنوين على أن المضاف إليه قد حذف فكسرت الذال لسكونها و سكون التنوين و قال فى صرف ثمود و ترك صرفه أن هذه الأسماء التى تجرى على القبائل و الأحياء على ضروب (أحدها) أن يكون اسما للحى و الأب (و الآخر) أن يكون اسما للقبيله (و الثالث) أن يكون الغالب عليه الأب و الحى و القبيله (و الرابع) أن يستوى ذلك فى الاسم فيجرى على الوجهين و لا

يكون لأحد الوجهين مزيه على الآخر في الكثرة فمما جاء على أنه اسم الحى قولهم ثقيف و قريش و كل ما لا يقال فيه بنو فلان و أما ما جاء اسما للقبيله فنحو تميم قالوا تميم بنت مر قال سيبويه سمعناهم يقولون قيس ابنه غيلان و تميم صاحبه ذلك و قالوا تغلب ابنه وائل قال:

لولا فوارس تغلب ابنه وائل نزل العدو عليك كل مكان

و أما ما غلب عليه اسم الحى أو القبيله فقد قالوا بأهله بن أعصر و قالوا يعصر و بأهله اسم امرأه قال سيبويه و لكنه جعل اسم الحى و مجوس لم يجعل إلا- اسم القبيله و تميم أكثرهم يجعله اسم القبيله و منهم من يجعله اسم الأب فأما ما استوى فيه أن يكون اسما للقبيله و أن يكون اسما للحى فقال سيبويه هو ثمود و سبأ فهما مره للقبيلتين و مره للحيين و كثرتهما سواء قال و عاداً وَ ثَمُودَ و قال «ألا- إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ» و قال «وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ» فإذا استوى فى ثمود أن يكون مره للقبيله و مره للحى فلم يكن لحمله على أحد الوجهين مزيه فى الكثرة فمن صرف فى جميع المواضع كان حسنا و من لم يصرف فى جميع المواضع كان حسنا و كذلك أن صرف فى موضع و لم يصرف فى موضع آخر إلا أنه لا ينبغي أن يخرج عما قرأت به القراء فإن القراءه سنه متبعه و من ذلك قول الشاعر:

كسا الله حى تغلب ابنه وائل من اللؤم أظفارا بطى ء نصولها

فقال حى ثم قال ابنه وائل فجمع بين الحى و القبيله و أما قوله:

أولئك أولى من يهود لمدحه إذا أنت يوما قلتها لم تؤنب

فقد قامت الدلاله على أن يهود استعملت على أنها للقبيله و ليس للحى فى قوله أولئك أولى من يهود لأن يهود لو كان للحى لصرف و أنشد أبو الحسن:

فرت يهود و أسلمت جيرانها صمى لما فعلت يهود صمام

و كذلك جاء فى الحديث تقسم يهود و مثل يهود فى هذا مجوس فى قول الشاعر:

"كنار مجوس تستعر استعاراً"

ألا ترى أنه لو كان للحى دون القبيله لأنصرف.

الإنشاء إيجاد ابتداء من غير استعانه بشىء من الأسباب و أنشأ فلان حديثاً أو شعراً و الاستعمار جعل القادر يعمر الأرض كعمارته الدار و منه العمرى فى الفقه و هو أن يقول أعطيتك هذه الدار عمرى أو عمرك و المس و اللمس بمعنى و فرق على بن عيسى بينهما بأن المس قد يكون بين جمادين و اللمس لا يكون إلا بين حيين لما فيه من الإدراك و الجثوم السقوط على الوجه و قيل هو القعود على الركبه و غنى بالمكان إذا أقام به و المغنى المنزل قال النابغه:

غنت بذلك إذ هم لك جيره منها بعطف رساله و تودد

و أصل الغنى الاكتفاء و منه الغنى بالمال و الغناء بالمد الصوت الذى يكتفى به و الغناء الاكتفاء بحال الشىء و منه غنى بالمكان لاكتفائه بالإقامه فيه.

الإعراب

أ رأيتم لا مفعول له هاهنا لأنه معلق كما يعلق إذا دخل الجمله لام الابتداء فى مثل قوله قد رأيت لزيد خير منك فكذلك الجزاء و جواب أن الأولى الفاء و جواب أن الثانيه محذوف و تقديره إن عصيته فمن ينصرنى إلا أنه استغنى بالأول فلم يظهر و من ينصرنى صورته صورته الاستفهام و معناه النفى فكأنه قال فلا ناصر لى من الله إن عصيته و إنما جاز إلغاء رأيت هنا لأنها دخلت على جملة قائمه بنفسها من جهة أنها تفيد لو انفردت عن غيرها و هو يتعلق بمعناها دون تفصيل لفظها و قوله «فَيَأْخُذُكُمْ» جواب النهى بالفاء و لذلك نصبه و تقديره لا يقع منكم مسها بسوء فأن يأخذكم عذاب قريب أى فأخذ عذاب عاجل إياكم و أيام أصله أيوم قلبت الواو ياء و أدغمت الياء الأولى فيها.

المعنى

ثم عطف سبحانه على ذلك قصه صالح فقال «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا» و كان ثمود بوادى القرى بين المدينه و الشام و كان عاد باليمن عن الجبائى ف «قال» لهم صالح «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» مضى تفسيره «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» أى ابتداء خلقكم من الأرض لأنه خلق آدم من الأرض و مرجع نسبكم إليه «وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» أى جعلكم عمار الأرض بأن مكنكم من عمارتها و أحوجكم إلى السكنى فيها و قيل معناه و أعمارها لكم مدته أعماركم من العمرى عن مجاهد و قيل معناه و أطال فيها أعماركم عن الضحاك قال و كانت أعمارهم من ألف سنه إلى ثلاثمائه سنه و قيل معناه أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه من المساكن و الزراعات و غرس الأشجار و فى هذا دلالة على فساد قول من حرم المكاسب لأنه سبحانه امتن على عباده بأن مكنهم من عماره الأرض

و لو كان ذلك محرماً لم يكن لذلك وجه «فَاسْتَتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ» أى فاستغفروه من الشرك و الذنوب ثم دوموا على التوبه «إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ» برحمته لمن وحده «مُجِيبٌ» لمن دعاه «قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا» أى كنا نرجو منك الخير لما كنت عليه من الأحوال الجميله قبل هذا القول فالآن يئسنا منك و من خيرك بإبداعك ما أبدعت و قيل معناه كنا نرجو ك و نظنك عوناً لنا على ديننا «أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» استفهام معناه الإنكار كأنهم أنكروا أن ينهى الإنسان عن عباده ما عبده آبؤه «وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» من الدين «مُرِيبٌ» موجب للريبه و التهمه إذ لم يكن آبؤنا فى جهاله و ضلاله «قَالَ» صالح لهم «يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» مر بيانه فيما قبل «وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً» أى و أعطانى الله منه نعمه و هى النبوه «فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ» أى فمن يمنع عذاب الله عنى إن عصيته مع نعمته على «فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ» أى ما تزيدوننى بقولكم «أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» غير نسبتي إياكم إلى الخساره و التخسير مثل التفسيق و التفجير قال ابن الأعرابي يريد غير تخسير لكم لا لى و قال ابن عباس ما تزيدوننى إلا بصيره فى خسارتكم و قيل معناه إن أحببتكم إلى ما تدعوننى إليه كنت بمنزله من يزداد الخسران «وَ يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ» أشار إلى ناقته التى جعلها الله معجزته لأنه سبحانه أخرجها لهم من جوف صخره يشاهدونها على تلك الصفه و خرجت كما طلبوه و هى حامل و كانت تشرب يوماً جميع الماء فتفرد به و لا ترد الماء معها دابه فإذا كان يوم لا ترد فيه وردت الوارده كلها الماء و هذا أعظم آيه و معجزه و انتصب آيه على الحال من ناقه الله فكانه قال انتبهوا إليها فى هذه الحال و المعنى إن شككتم فى نبوتى فهذه الناقه معجزه لى و أضافها إلى الله تشريفاً لها كما يقال بيت الله «فَدَرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ» أى فاتركوها فى حال أكلها فتكون «تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ» جمله منصوبه الموضع على الحال و يجوز أن يكون مرفوعاً على الاستئناف و المعنى فإنها تأكل فى أرض الله من العشب و النبات «وَ لَا تَمْسُوْهَا» أى لا تصيبوها «بِسُوءٍ» قتل أو جرح أو غيره «فَيَأْخُذْكُمْ» إن فعلتم ذلك «عَذَابٌ قَرِيبٌ» أى عاجل فيهلككم «فَعَقَرُوْهَا» أى عقرها بعضهم و رضى به البعض و إنما عقرها أحمر ثمود و ضربت به العرب المثل فى الشؤم «فَقَالَ» صالح «تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» أى تلذذوا بما تريدون من المدركات الحسنه من المناظر و الأصوات و غيرها مما يدرك بالحواس فى بلادكم ثلاثه أيام ثم يحل بكم العذاب بعد ذلك و يقال للبلاد دار لأنها تجمع أهلها كما تجمع الدار أهلها و منه قولهم ديار ربيعه و ديار مضر و قيل «فِي دَارِكُمْ» يعنى دار الدنيا و قيل معنى قوله «تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ» عيشوا فى بلدكم و عبر عن الحياه بالتمتع لأن الحى يكون متمتعاً

بالحواس قالوا لما عقرت الناقة سعد فصليها الجبل و رغا ثلاث مرات فقال صالح لكل رغوهُ أجل يوم فاصفرت ألوانهم أول يوم ثم احمرت فى الغد ثم اسودت اليوم الثالث فهو قوله «ذَلِكَ وَعِيدٌ غَيْرٌ مَّكَذُوبٍ» أى إن ما وعدتكم به من العذاب و نزوله بعد ثلاثه أيام وعد صدق لا كذب فيه و

روى جابر بن عبد الله الأنصارى أن رسول الله ص لما نزل الحجر فى غزوه تبوك قام فخطب الناس و قال يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم الآيات فهؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث لهم الناقة و كانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ورودها و يحلبون من لبنها مثل الذى كانوا يشربون من مائها يوم غبها فعتوا عن أمر ربهم «فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» و كان وعدا من الله غير مكذوب ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان فى مشارق الأرض و مغاربها منهم إلا رجلا كان فى حرم الله فممنعه حرم الله من عذاب الله تعالى يقال له أبو رغال قيل له يا رسول الله من أبو رغال قال أبو ثقيف

«فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا» مر تفسيره فى قصه عاد «وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» قال ابن الأنبارى هذا معطوف على محذوف تقديره نجيناهم من العذاب و «مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» أى من الخزى الذى لزمهم ذلك اليوم و الخزى العيب الذى تظهر فضيحتة و يستحى من مثله «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ» أى القادر على ما يشاء «الْعَزِيزُ» الذى لا يمتنع عليه شىء و لا يمنع عما أَرَادَهُ «وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ» قيل إن الله سبحانه أمر جبرائيل فصاح بهم صيحه ماتوا عندها و يجوز أن يكون الله تعالى خلق تلك الصيحة التى ماتوا عندها «فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ» أى منازلهم «جَائِمِينَ» أى ميتين واقعين على وجوههم و يقال جائمين أى قاعدين على ركبهم و إنما قال «فَأَصْبَحُوا» لأن العذاب أخذهم عند الصباح و قيل أتتهم الصيحة ليلا فأصبحوا على هذه الصفة و العرب تقول عند الأمر العظيم و سوء صباحاه «كَأَنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا» أى كأن لم يكونوا فى منازلهم قط لانقطاع آثارهم بالهلاك إلا ما بقى من أجسادهم الداله على الخزى الذى نزل بهم «أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ» قد سبق تفسيره.

نفس الكلام الذى هو جملة تحكى فكذلك نصب سلاما فى قوله «قَالُوا سَلَامًا» لما كان معنى ما قيل و لم يكن نفس المقول بعينه فأما قوله وَ إِذَا خَاطَبْتَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا قال سيويه زعم أبو الخطاب أن مثله يريد قولك سبحان الله الذى تفسيره براءه الله من السوء و قولك للرجل سلاما تريد مسلما منك لا أبتلى بشىء من أمرك فعلى هذا المعنى وجه ما فى الآية قال و زعم أن قول أمية:

سلامك ربنا فى كل فجر بريئا ما يعيبك الذموم

على قوله براءتك ربنا من كل سوء و أما قوله «قَالَ سَلَامٌ» فسلام مرفوع لأنه من جملة الجملة المحكية و التقدير فيه سلام عليكم فحذف الخبر كما حذف من قوله فَصَبَّرَ جَمِيلٌ أى صبر جميل أمثل أو يكون المعنى أمرى سلام و شأنى سلام كما أن قوله فَصَبَّرَ جَمِيلٌ يصلح أن يكون المحذوف منه المبتدأ و مثل ذلك قوله فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ على حذف المبتدأ الذى سلام خبره و أكثر ما يستعمل سلام بغير ألف و لام و ذلك لأنه فى معنى الدعاء فهو مثل قولهم خير بين يديك و لما كان فى معنى المنصوب أستجير فيه الابتداء بالنكرة فمن ذلك قوله قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَعْفِرُ لَكَ رَبِّي وَقَالَ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَقَالَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَ سَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى وَقَدْ جَاءَ بِالْأَلْفِ وَ اللَّامِ قَالَ سُبْحَانَهُ وَ السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَ السَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَ زَعَمَ أَبُو الْحَسَنِ أَنَّ فِي الْعَرَبِ مِنْ يَقُولُ سَلَامَ عَلَيْكُمْ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ السَّلَامَ عَلَيْكُمْ فَالَّذِينَ أَحَقُّوا الْأَلْفَ وَ اللَّامَ حَمَلُوهُ عَلَى الْمَعْهُودِ وَ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوهُ حَمَلُوهُ عَلَى غَيْرِ الْمَعْهُودِ وَ زَعَمَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ سَلَامَ عَلَيْكُمْ فَلَا يَنُونَ وَ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهَيْنِ (أحدهما) أَنَّهُ حَذَفَ الزِّيَادَةَ مِنَ الْكَلِمَةِ كَمَا يَحْذِفُ الْأَصْلُ مِنْ نَحْوِ قَوْلِكَ لَمْ يَكْ وَ لَا أَدْرُ وَ يَوْمٌ يَأْتِ (و الآخر) أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَ اسْتِعْمَالُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَ فِيهِ الْأَلْفُ وَ اللَّامُ حَذَفَا مِنْهُ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ كَمَا حَذَفَا مِنَ اللَّهِمْ فَقَالُوا:

لا هم إن عامر الفجور قد حبس الخيل على يعمور

و أما من قال سلم فإن سلما يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون بمعنى سلام فيكون المعنى أمرنا سلم أو سلم عليكم و يكون سلم فى الآية بمعنى سلام كقولهم حل و حلال و حرم و حرام فيكون على هذا قراءة من قرأ «سَلَامٌ» و سلم بمعنى واحد و إن اختلف اللفظان (و الآخر) أن يكون سلم خلاف العدو و الحرب لأنهم لما كفوا عن تناول ما قدمه إليهم فنكرهم و أوجس الخيفة منهم قال أنا سلم و لست بحرب و لا

عدو فلا تمتنعوا من تناول طعامي كما يمتنع من تناول طعام العدو و من قرأ و من وراء إسحاق يعقوب بالرفع كان رفعه بالابتداء أو بالظرف في قول من رفع به و من فتح فقال يعقوب احتمل ثلاثه أضرب (أحدها) أن يكون يعقوب في موضع جر أي فبشرناها بإسحاق و يعقوب قال أبو الحسن و هذا أقوى لأنها بشرت بهما قال و في أعمالها ضعف لأنك فصلت بين الجار و المجرور بالظرف (و الآخر) أن تحمله على موضع الجار و المجرور كقوله:

إذا ما تلاقينا من اليوم أو غدا

و كقراءه من قرأ و حورا عينا بعد يطاق عليهم بكذا و مثله:

(و لسنا بالجبال و لا الحديد)

(و الثالث) أن يحمل على فعل مضمرة كأنه قال فبشرناها بإسحاق و وهبنا له يعقوب فأما الأول فقد نص على سبويه على فتح مثله نحو مررت بزيد أول من أمس و أمس عمرو و كذلك قال أبو الحسن لو قلت مررت بزيد اليوم و أمس عمرو لم يحسن و أما الحمل على الموضع على حد مررت بزيد و عمرو فالفعل فيه أيضا قبيح كما قبح الحمل على الجر و ذلك أن الفعل يصل بحرف العطف و حرف العطف هو الذي يشرك في الفعل و به يصل الفعل إلى المفعول به كما يصل بحرف الجر و لو قال مررت بزيد قائما بجعل الحال من المجرور لم يجز التقديم عند سبويه لأن الجار هو الموصول للفعل فكما قبح التقديم عنده لضعف الجار العامل كذلك الحرف العاطف مثل الجار في أنه يشرك في الفعل كما يوصل الجار الفعل و ليس نفس الفعل العامل في الموضعين جميعا و إذا كان كذلك قبح الفصل بالظرف في العطف على الموضع و قبح أيضا الفصل في الرفع و النصب كما قبح في الجر لأن العاطف فيهما مثله في الجار و ليس العامل في نفس الرفع و النصب كما أن العامل فيما بعد حرف العطف ليس الجار إنما يشركه فيه العاطف و قد جاء ذلك في الشعر قال الأعشى:

يوما تراها كشه أرديه الخمس و يوما أديمها نفلا

ففصل بالظرف بين المشترك في النصب و ما أشركه فيه فإذا قبح الفصل في الحمل على الموضع كما قبح الفصل في الحمل على الجار فينبغي أن يحمل قراءه من قرأ «يَعْقُوبَ» بالنصب على فعل آخر مضمرة يدل عليه بشرنا كما تقدم و لا يحمل على الوجهين الآخرين و أما الرفع في قوله شيخ ففيه وجوه (أحدها) أن يكون بعلى خبر المبتدأ و شيخ بدل من بعلى فيكون كأنه قال هذا شيخ (و الآخر) أن يكون شيخ خبر مبتدأ محذوف و يكون هذا بعلى كلاما تاما يحسن الوقف عليه (و الثالث) أن يكون بعلى بدلا من هذا و هذا و شيخ هو الخبر فيكون تقديره

بعلى شيخ (و الرابع) أن يكون بعلى و شيخ جميعا خبرا عن هذا كقولك هذا حلو حامض أى قد جمع الحلاوه و الحموضه فكذلك هاهنا تقديره هذا جمع البعوله و الشيخوخه قال ابن جنى و هنا وجه خامس لكنه على قياس مذهب الكسائى و ذلك أنه يعتقد فى خبر المبتدأ أبدا أن فيه ضميرا و إن لم يكن مشتقا من الفعل نحو زيد أخوك و هو يريد النسب فإذا كان كذلك فقياس مذهبه أن يكون شيخ بدلا من الضمير فى بعلى لأنه خبر عن هذا

اللغه

العجل ولد البقره و العجول لغه فيه و جمعه العجاجيل و سمي بذلك لتعجيل أمره بقرب ميلاده و الحنيذ المشوى و هو المحنون فعيل بمعنى مفعول يقال حنذه يحنذه حنذا قال العجاج:

" و رهبا من حنذه أن تهرجا "

يعنى الحمر الوحشيه قال الزجاج الحنيذ المشوى بالحجاره و قيل الحنيذ المشوى حتى يقطر و العرب تقول احنذ هذه الفرس أى اجعل عليه الجبل حتى يقطر عرقا و قيل الحنيذ المشوى فقط و قيل هو السميظ و يقال نكرته و أنكرته بمعنى واحد و نكرته أشد مبالغه و هى لغه هذيل و الحجاز و أنكرته لغه تميم قال الأعشى و جمع بين اللغتين:

و أنكرتنى و ما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب و الصلعا

و قال أبو ذؤيب:

فنكرنه فنفرن فامترست به هو جاء هاديه و هاد جرشع

و الإيجاس الإحساس و أوجس و توجس أى أحس قال ذو الرمه:

و قد توجس ركزا مغفر ندس بنبأه الصوت ما فى سمعه كذب

و يقال أوجس خوفا أى أضمر و البعل الزوج و أصله القائم بالأمر يقولون للنخل الذى يستغنى بماء السماء عن سقى الأنهار و العيون بعل لأنه قائم بالأمر فى استغنائه عن تكلف السقى له و منه قيل للرب و الصاحب بعل و العجب يجرى على المصدر و على المتعجب منه تقول هذا أمر عجب و لا يجوز العجب من أمر الله تعالى لأنه يجب أن يعلم أنه قادر على كل

شىء من الأجناس لا يعجزه شىء و ما عرف سببه لا يتعجب منه و المجيد الكريم يقال مجد الرجل يمجد مجاده إذا كرم قال الشاعر:

رفعت مجد تميم يا هلال لها رفع الطرف على العليا بالعمد

و الروع الإفراع يقال راعه يروعه إذا أفزعه قال عنتره:

ما راعنى إلا حموله أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم

و ارتاع ارتياعا إذا خاف و الروع بضم الراء النفس يقال ألقى فى روعى أى فى نفسى و سميت بذلك لأنها موضع الروع و الرد و الدفع واحد و نقيضه الأخذ و الفرق بين الرد و الدفع إن الدفع قد يكون إلى جهة القدم و الخلف و الرد لا يكون إلا إلى جهة الخلف

الإعراب

«فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ» أى ما أقام حتى جاء بعجل و «أَنْ جَاءَ» فى موضع نصب بوقوع لبث عليه كأنه قال فما أبطأ عن مجيئه بعجل فلما حذف حرف الجر وصل الفعل و قال الفراء و يحتمل أن يكون موضعه رفعا بأن نجعل أن جاء فاعل لبث فكأنك قلت فما لبث مجيئه بعجل و ألف يا ويلتى يحتمل أن يكون ألف ندبه و يحتمل أن يكون ياء الإضافه فانقلبت ألفا و معناه الإيذان بورود الأمر العظيم كما تقول العرب يا للدواهى أى تعالى فإنه من أحيانك لحضور ما حضر من إشكالك و يجوز الوقف عليه بغير هاء و الاختيار فى الكلام أن يوقف عليه بالهاء يا ويلتاه قال الزجاج أما المصحف فلا يخالف و لا يوقف عليه فإن اضطر واقف إلى أن يقف وقف عليه بغير هاء بالاختيار و أما الهمزتان فى قوله «أَ أَلَيْدٌ» ففيه ثلاثه أوجه إن شئت خففت الأولى و حققت الثانية فقلت يا ويلتى ألد و إن شئت حققت الأولى و خففت الثانية و هو الاختيار فقلت يا ويلتى أ ألد و إن شئت حققتهما جميعا فقلت أ ألد و شيخا منصوب على الحال قال الزجاج الحال هاهنا نصبها من لطيف النحو و ذلك أنك إذا قلت هذا زيد قائما فإن كنت تقصد أن تخبر من لا يعرف زيدا أنه زيد لم يجز أن تقول هذا زيد قائما لأنه يكون زيدا ما دام قائما فإذا زال عن القيام فليس بزيد و إنما تقول للذى يعرف زيدا هذا زيد قائما فيعمل فى الحال التنبيه و المعنى انتبه لزيد فى حال قيامه أو أشير لك إلى زيد فى حال قيامه لأن هذا إشاره إلى ما حضر و قال غيره إن شئت جعلت العامل فيه معنى التنبيه و إن شئت جعلت العامل فيه معنى الإشاره و إن شئت عملت فيه مجموعهما و كذا ما جرى مجراه

تقول هذا زيد مقبلا- ولا- يجوز مقبلا- هذا زيد لأن العامل ليس بفعل محض فإن قلت ها مقبلا ذا زيد و جعلت العامل معنى الإشارة لم يجز و إن جعلت العامل معنى التنبية جاز. يجادلنا فى موضع نصب لأنه حكاية حال قد مضت و إلا فالجيد أن تقول لما قام قمت و يضعف أن تقول لما قام أقوم و على هذا فيكون جواب لما محذوفا لدلاله الكلام عليه و يكون تقديره قلنا إن إبراهيم لحليم أو نادينه يا إبراهيم أعرض عن هذا و يجوز أن يكون تقديره أخذ يجادلنا و أقبل يجادلنا و يجوز أن يكون لما كان شرطا للماضى وقع المستقبل فيه فى معنى الماضى كما إن أن لما كان شرطا للمستقبل وقع الماضى فيه فى معنى المستقبل

المعنى

ثم ذكر سبحانه قصه إبراهيم و لوط فقال سبحانه «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا» يعنى الملائكة و إنما دخلت اللام لتأكيد الخبر و معنى قد هاهنا أن السامع لقصاص الأنبياء يتوقع قصه بعد قصه و قد للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع فى حال توقع و اختلف فى عدد الرسل فقيل كانوا ثلاثة جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل عن ابن عباس و قيل كانوا أربعة

عن أبى عبد الله (عليه السلام) قال و الرابع اسمه كرويل

و قيل كانوا تسعة عن الضحاک و قيل أحد عشر عن السدى و كانوا على صور الغلمان أتوا «إِبْرَاهِيمَ» الخليل (عليه السلام) «بِالْبَشْرَى» أى بالبشارة بإسحاق و نبوته و أنه يولد له يعقوب عن الحسن و السدى و الجبائى و

روى عن أبى جعفر (عليه السلام) أن هذه البشارة كانت بإسماعيل (عليه السلام) من هاجر

و قيل البشارة بهلاك قوم لوط «قَالُوا سَلَامًا» هذه حكاية ما قال رسل الله تعالى لإبراهيم (عليه السلام) أى سلمنا سلاما بمعنى الدعاء له و قيل معناه أصبت سلاما إذا أعطاك الله سلاما أى سلامه كما يقال أهلا و مرحبا و كان تحية من الملائكة لإبراهيم (عليه السلام) ف «قَالَ» إبراهيم مجيبا لهم «سَلَامٌ» و قد مر تفسيره «فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ» أى لم يتوقف حتى جاءهم على عادته فى إكرام الأضياف و تقديم الطعام إليهم بعجل مشوى لأنه توهم أنهم أضياف لكونهم على صوره البشر و كان إبراهيم يحب الضيفان فجاءوه على أحسن الوجوه إليه و صار لذلك من السنه أن يعجل للضيف الطعام و قيل إن معنى حنيذ نضيج بالحجاره المحماه فى خد من الأرض عن ابن عباس و مجاهد و قتاده و قيل إن الحنيذ ما حفرت له فى الأرض ثم غمته و هو فعل أهل البادية عن الفراء و قيل حنيذ مشوى يقطر ماؤه عن ابن عطية «فَلَمَّا رَأَى» إبراهيم «أَيْدِيَهُمْ» يعنى أيدي الملائكة «لَا تَصِلُ إِلَيْهِ» أى إلى العجل «نَكَرَهُمْ» أى أنكرهم «وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» أى أضمر منهم خوفا و اختلف فى سبب الخوف فقيل إنه لما رأهم شبانا أقوياء و كان ينزل طرفا من البلد و كانوا يمتنعون من تناول طعامه لم يأمن أن يكون ذلك لبلاء و ذلك أن أهل ذلك الزمان إذا أكل بعضهم طعام بعض

أمنه صاحب الطعام على نفسه و ماله و لهذا يقال تحرم فلان بطعامنا أى أثبت الحرمة بيننا بأكله الطعام و قيل إنه ظنهم لصوصا يريدون به سوء أو قيل إنه ظن أنهم ليسوا من البشر و أنهم جاءوا لأمر عظيم و قيل علم أنهم ملائكة فخاف أن يكون قومه المقصودين بالعذاب حتى «قالوا» له «لا- تخف» يا إبراهيم «إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ» بالعذاب و الإهلا-ك لا إلى قومك و قيل إنهم دعوا الله فأحيا العجل الذى كان ذبحه إبراهيم و شواه فظفر و رعى فعلم حينئذ أنهم رسل الله «وَ امْرَأَتُهُ» ساره بنت هاران بن ياحور بن ساروع بن أرعوى بن فالغ و هى ابنه عم إبراهيم «قَائِمَةٌ» من وراء الستر تسمع كلام الرسل و كلام إبراهيم عن وهب و قيل إنها كانت بنت خالته و قيل كانت قائمه تخدم الرسل و إبراهيم جالس معهم عن مجاهد و قيل كانت قائمه تصلى و كان إبراهيم جالسا و فى قراءه ابن مسعود و امرأته قائمه و هو جالس «فَصَحَّكَتْ» قيل هو الضحك المعروف الذى يعترى الإنسان للفرح و قد يكون للتعجب فضحكت تعجبا من غفله قوم لوط مع قرب نزول العذاب بهم عن قتاده و قيل تعجبا من امتناعهم عن الأكل و خدمتها إياهم بنفسها و لهذا يقال (و شر الشدائد ما يضحك) و قالت عجبا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمه لهم و هم لا يتناولون من طعامنا و قيل ضحكت لأنها قالت لإبراهيم اضمم لوطا ابن أختك إليك فإنى أعلم أنه سينزل بهؤلاء القوم عذاب فضحكت سرورا لما أتى الأمر على ما توهمت عن الزجاج و

قيل تعجبا و سرورا من البشاره بإسحاق لأنها كانت قد هرمت و هى ابنه ثمان و تسعين سنه أو تسع و تسعين سنه و كان قد شاخ زوجها و كان ابن تسع و تسعين أو مائه سنه و قيل مائه و عشرين سنه و لم يرزق لهما ولد فى حال شبابهما و على هذا فيكون فى الكلام تقديم و تأخير و تقديره فبشرناها بإسحاق و يعقوب فضحكت بعد البشاره و روى ذلك عن أبى جعفر (عليه السلام)

«فَبَشَّرْنَا بِإِسْحَاقَ» أى بابتن يسمى إسحاق نبيا «وَ مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» يعنى و من بعد إسحاق يعقوب و قيل الورا و ولد الولد عن ابن عباس أى فبشرناها بنبى بين نبين و هو إسحاق أبوه نبى و ابنه نبى و قيل إن

ضحكت بمعنى حاضت عن مجاهد و روى عن الصادق (عليه السلام) أيضا

يقال ضحكت الأرنب أى حاضت و الضحك بفتح الضاد الحيض و فى لغة أبى الحرث بن كعب ضحكت النخلة إذا أخرجت الطلع أو البسر و الضحك الطلع و أنشد بعضهم فى الضحك بمعنى الحيض قول الشاعر:

و ضحك الأرنب فوق الصفا كمثل دم الجوف يوم اللقا

قال الفراء و لم أسمعه من ثقه و الوجه فيه أن يكون على طريق الكناية قال الكمي:

«قالت» ساره «يا وَيْلَتِي أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ» أى هذا شىء عجيب أن ألد و قد شخت من زوج شيخ و لم تشك فى قدره الله تعالى و لكن إنما قالت ذلك لكونه خارجا عن العاده كما ولى موسى مدبرا حين انقلبت عصاه حيه حتى قيل له أقبل و لا تخف و إلا فهى كانت عارفه بأن الله تعالى يقدر على ذلك و لم ترد بقولها يا ويلتى الدعاء على نفسها بالويل و لكنها كلمه تجرى على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يتعجبن منه و قيل إنها لم تتعجب من قدره الله و لكنها أرادت أن تعرف هل تتحول شابه أم تلد على تلك الحال و كل ذلك عجب «و هذا بَعْلِي شَيْخًا» أى هذا الذى تعرفونه بعلى و هو شيخ «إِنَّ هَذَا» الذى بشرت به «لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا» أى قالت الملائكه لها حين تعجبت من أن تلد بعد الكبر «أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» و معنى الاستفهام هاهنا التنبيه و التوقيف أى أتعجبين من أن يفعل الله تعالى ذلك بك و لزوجك «رَحِمْتُ اللَّهَ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ» أى ليس هذا موضع تعجب لأن التعجب إنما يكون من الأمر الذى لا يعرف سببه و نعمه الله تعالى و كثره خيراته الناميه الباقيه عليكم و هذا يحتمل أن يكون إخبارا عن ثبوت ذلك لهم و تذكيرا بنعمه الله و بركاته عليهم و يحتمل أن يكون دعاء لهم بالرحمه و البركه من الملائكه فقالوا رحمه الله و بركاته عليكم يا أهل البيت كما يقال أتعجب من كذا بارك الله فيك و يرحمك الله و يعنى بأهل البيت أهل بيت إبراهيم (عليه السلام) و إنما جعلت ساره من أهل بيته لأنها كانت ابنه عمه و لا دلالة فى الآية على أن زوجة الرجل من أهل بيته على ما قاله الجبائى و

روى أن أمير المؤمنين (عليه السلام) مر بقوم فسلم عليهم فقالوا و عليك السلام و رحمه الله و بركاته عليكم أهل البيت و مغفرته و رضوانه فقال (عليه السلام) لهم لا تجاوزوا بنا ما قالت الملائكه لأئينا إبراهيم (عليه السلام) «رَحِمْتُ اللَّهَ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ»

«إِنَّهُ حَمِيدٌ» أى محمود على أفعاله و قيل الحميد الذى يحمده عباده على الطاعات «مَجِيدٌ» أى كريم و هو المبتدئ بالعطيه قبل الاستحقاق و قيل معناه واسع القدره و النعمه عن أبى مسلم و روى أن ساره قالت لجبرائيل (عليه السلام) ما آيه ذلك فأخذه بيده عودا يابسافلواه بين أصابعه فاهتز أخضر عن السدى «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ» أى الخوف و الفرع الذى دخله من الرسل «وَ جَاءَتْهُ الْبَشْرَى» بالولد «يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» أى يجادل رسلنا و يسائلهم فى قوم

لوط و تلك المجادله أنه قال لهم إن كان فيها خمسون من المؤمنين أ تهلكونهم قالوا لا قال فأربعون قالوا لا فما زال ينقص و يقولون لا حتى قال فواحد قالوا لا فاحتج عليهم بلوط و قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله عن قتاده و قيل إنه جادلهم و قال بأى شىء استحقوا عذاب الاستئصال و هل ذلك واقع لا محاله أم هو تخويف ليرجعوا إلى الطاعه بأى شىء يهلكون و كيف يجىء الله المؤمنين عن الجبائى و لما سألهم مستقص سمي ذلك السؤال جدالا لأنه خرج الكشف عن شىء غامض «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ» مر معناه فى سورة براءه «مُنِيبٌ» راجع إلى الله تعالى فى جميع أموره متوكل عليه و فى هذا إشاره إلى أن تلك المجادله من إبراهيم (عليه السلام) لم تكن من باب ما يكره لأنه مدحه بالحلم و بأن ذلك كان فى أمر يتعلق بالرحمه و رقه القلب و الرفاهه و ذلك لأنه رأى الخلق الكثير فى النار فتأوه لهم «يا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا» هو حكايه ما قالت الملائكه لإبراهيم (عليه السلام) فإنها نادته بأن قالت يا إبراهيم أعرض عن هذا القول و هذا الجدل فى قوم لوط و انصرف عنه بالذكر و الفكر «إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ» بالعذاب فهو نازل لا محاله «وَإِنَّهُمْ لَأَبْغَاءٌ بِآيَاتِ اللَّهِ الْكُبْرَى وَالَّذِينَ لَأُولَئِكَ لَئِيمٌ فِرْعَوْنِيَّةٍ وَآيَاتِ اللَّهِ الْعُظْمَى الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ بِالسَّيِّئَاتِ الْمَكْرَمَى وَالَّذِينَ لَأُولَئِكَ لَئِيمٌ فِرْعَوْنِيَّةٍ وَآيَاتِ اللَّهِ الْعُظْمَى الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ بِالسَّيِّئَاتِ الْمَكْرَمَى» يعنى غير مدفوع عنهم أى لا يقدر أحد على رده عنهم.

إشارة

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصَيْبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَعْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِيبَكَ لِئَٰلِيكَ فَاسِيرٌ بَأْهْلِكَ بِقَطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

القراءة

في الشواذ قراءة سعيد بن جبیر والحسن بخلاف وعيسى الثقفي ومحمد بن مروان هن أطهر لكم بالنصب والقراءة المشهورة «أَطْهَرٌ» بالرفع وقراءة شيبه أو أوى بالنصب والقراءة العامه بالرفع وقرأ أهل الحجاز فأسر بأهلك و أن أسر موصوله الهمزه و الباقون فأسر و أن أسر بقطع الهمزه العامه حيث كان وقرأ ابن كثير و أبو عمرو إلا امرأتك بالرفع والباقون بالنصب.

الحججه

أما قوله هن أطهر لكم فإن سيبويه ضعف هذه القراءة و قال فيها اجتبى ابن مروان في لحنه قال ابن جنى و إنما صح ذلك عنده لأنه ذهب إلى أنه جعل هن فصلا و ليست بين أحد الجزئين اللذين هما مبتدأ و خبر و نحو ذلك نحو ظننت زيدا هو خيرا منك و كان زيد هو العالم و يجوز أن يكون بناتى هن جمله من مبتدأ و خبر فى موضع الخبر لهؤلاء كقولك زيد أخوك هو و أن يكون أطهر حالا- من هن أو من بناتى و العامل فيه معنى الإشاره كقولك هذا زيد هو قائما و من قرأ أو أوى بالنصب فيكون تقديره لو أن لى بكم قوه أو أويا إلى ركن شديد و يكون منتصبا بإضمار أن و عليه بيت الكتاب:

فلو لا رجال من كرام أعزه و آل سبيع أو أسواك علقما

و التقدير أو أن أسؤك فكأنه قال أو إياك مسألتي و من قرأ فأسر بأهلك بإثبات الهمزه فى اللفظ أو بغير الهمزه فإن سرى و أسرى معناهما سار ليلا قال النابغه:

أسرت عليه من الجوزاء ساريه تزجى الشمال عليه جامد البرد

و يروى سرت و قال امرؤ القيس:

سريت بهم حتى تكل مطيهم و حتى الجياد ما يقدن بأرسان

و قال سبحانه «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» و من قرأ إلا امرأتك نصبا فإنه جعل الكلام قبله مستقلا بنفسه فنصب مع النفي كما ينصب مع الإيجاب و الوجه الأقيس الرفع على البدل من أحد لأن معنى ما أتاني أحد إلا زيد ما أتاني إلا زيد فكما اتفقوا فيما أتاني إلا- زيد على الرفع و كان ما أتاني أحد إلا زيد بمنزلته و بمعناه اختاروا الرفع مع ذكر أحد و مما يقوى ذلك أنهم فى الكلام و أكثر الاستعمال يقولون ما جاءنى إلا امرأه فيذكرون حملا على المعنى و لا يكادون يؤثنون ذلك إلا فى الشعر كما فى قول الشاعر:

(فما بقيت إلا الضلوع الجراشع)

و قول ذى الرمة:

(و ما بقيت إلا النحيه و الألواح و العصب)

و زعموا أن فى حرف عبد الله أو أبى فأسير بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك و ليس فيه و لا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ و هذا يقوى قول من نصب.

اللغة

أصل سىء بهم سوىء بهم من سوء فأسكنت الواو و نقلت كسرتها إلى السين و يقال سؤته فسىء كما يقال شغلته فشغل و سررته فسر و الفرق بين سوء و القبيح أن سوء ما يظهر مكروهه لصاحبه و القبيح ما ليس للقادر عليه أن يفعله و يقال ضاق فلان بأمره ذرعا إذا لم يجد من المكروه فى ذلك الأمر مخلصا و العصيب الشديد فى الشر خاصة و أصله من الشد يقال عصبت الشىء أى شددته و عصبت فخذ الناقه لتدر و ناقه عصب و يوم عصيب و عصببب كأنه التف على الناس بالشر أو يكون التف شره بعضه ببعض قال الشاعر:

فإنك إن لم ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصب

و قال عدى بن زيد:

و كنت لزاز خصمك لم أعرد و قد سلكوك فى يوم عصب

و قال الراجز:

يوم عصب يعصب الأبطالا عصب القوى السلم الطوالا

و الإهراع الإسراع فى المشى قال مهلهل:

فجاءوا يهرعون و هم أسارى تقودهم على رغم الأنوف

و قال صاحب العين الإهراع السوق الحثيث قال أبو مسلم و القرآن بالسوق أشبه و الركن معتمد البناء بعد الأساس و ركنا الجبل جانباه قال الراجز:

يأوى إلى ركن من الأركان فى عدد طيس و مجديان

و الشده تجمع يصعب معه التفكك و قد تكون الشده تقبضا يعسر معه التحلل و القطع القطعه العظيمه تمضى من الليل و قيل نصف الليل كأنه قطع نصفين و الالتفات افتعال من اللفت و هو اللى يقال لفت فلانا عن رأيه أى صرفته و امرأه لفوت لها ولد من غير زوجها و كأنها تلفت إلى ولدها و

منه الحديث فى صفة النبى ص أنه كان إذا التفت التفت معا

أى كان لا يلوى عنقه يمنه و يسره و السجيل فارسى معرب أى سنك و كل حجاره و طين و قال أبو عبيده هو الحجاره الشديده و أنشد لابن مقبل:

و رجله يضربون البيض ضاحيه ضربا توأسى به الأبطال سجيناً

و سجين و سجيل بمعنى واحد و العرب تعاقب بين النون و اللام فقلبت النون هاهنا لاما و قيل إنه مشتق من أسجلته أى أعطيته فتقديره أنها من مثل العطيه فى الإدرار و قيل إنه من السجل و هو الدلو العظيمه فتقديره أنها من مثل السجل فى الإرسال و قيل إنه من أسجلته إذا أرسلته و كأنها مرسله عليهم و قيل إنه من السجل و هو الكتاب فكأنها سجلت لهم و المراد كتب الله عليهم إن عليهم أن يعذبهم بها و المنضود من نضدت الشىء بعضه على بعض و المسومه من السيماء و هى العلامه و منه السائمه و هى المرسله فى المرعى و ذلك أن الإبل السائمه تختلط فى المرعى فيجعل عليها السيماء لتمييزها.

الإعراب

«يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» فى موضع نصب على الحال من قبل و من بعد مبنيان على الضم فإذا أضيفا أعربا «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» جواب لو محذوف بدل الكلام عليه و تقديره لحلت بينهم و بينكم «إِنَّهُ مُصِّبُهَا مَا أَصَابَهُمْ» الهاء فى أنه ضمير الشأن و الحديث و مصيبيها مبتدأ و ما أصابهم موصول و صله فى موضع الرفع بكونه فاعل مصيبيها و قد سد مسد خبر المبتدأ «مِنْ سَجِيلٍ» فى موضع نصب بكونه صفة لحجاره أى كائنه من سجيل مسومه صفة أخرى لحجاره و يجوز أن يكون نصبا على الحال من الضمير المستكن فى منضود.

ثم أخبر سبحانه عن إتيان الملائكة لوطا بعد خروجهم من عند إبراهيم (عليه السلام) و ما جرى بينهم و بين قوم لوط فقال «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا أَي لَمَّا جَاءَ وَهُوَ فِي صَفِهِ الْآدَمِيِّينَ «سَيِّءٌ بِهِمْ» أَي سَاءَ مَجِيئُهُمْ لِأَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ «وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا» أَي ضَاقَ بِمَجِيئِهِمْ ذُرْعَهُ أَي قَلْبَهُ لَمَّا رَأَى لَهُمْ مِنْ جَمَالِ الصُّورَةِ وَ حَسَنِ الشَّارِهِ وَ قَدْ دَعَا إِلَى الضِّيَافَةِ وَ قَوْمَهُ كَانُوا يَسَارِعُونَ إِلَى أَمْثَالِهِمْ بِالْفَاحِشَةِ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ ضَاقَ بِحِفْظِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ ذُرْعَهُ حَيْثُ لَمْ يَجِدْ سَبِيلًا إِلَى حِفْظِهِمْ وَ كَانَ قَدْ عَلِمَ عَادَةَ قَوْمِهِ مِنَ الْمِيلِ إِلَى الذُّكُورِ وَ قَدْ أَتَوْهُ فِي صُورَةِ الْغُلَمَانِ الْمُرْدِ وَ أَصْلُهُ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا ضَاقَ ذُرْعَهُ لَمْ يَتَسَّعْ لَهُ مَا اتَّسَعَ فَاسْتَعَارَ ضَيْقَ الذَّرْعِ عِنْدَ تَعَذُّرِ الْإِمْكَانِ كَمَا اسْتَعَارَ الْإِتْسَاعَ «وَ قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيْبٌ» أَي هَائِلٌ شَدِيدٌ كَثِيرُ الشَّرِّ التَّفِ الشَّرِّ فِيهِ بِالشَّرِّ وَ إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ وَ خَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَفْضَحُوهُمْ وَ

قال الصادق (عليه السلام) جاءت الملائكة لوطا و هي في زراعه قرب القرية فسلموا عليه و رأى هيئه حسنه عليهم ثياب بيض و عمائم بيض فقال لهم المنزل فتقدمهم و مشوا خلفه فقال في نفسه أى شىء صنعت آتى بهم قومي و أنا أعرفهم فالتفت إليهم فقال إنكم لتأتون شرارا من خلق الله و كان قد قال الله لجبرائيل لا تهلكهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات فقال جبرائيل (عليه السلام) هذه اثنتان ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال إنكم لتأتون شرارا من خلق الله فقال جبرائيل هذه الثالثة ثم دخل و دخلوا معه حتى منزله فلما رأتهم امرأته رأت هيئه حسنه فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون

فذلك قوله «وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» أَي يَسْرِعُونَ فِي الْمَشْيِ لَطَلَبِ الْفَاحِشَةِ عَنِ قِتَادِهِ وَ مَجَاهِدِ وَ السَّدَى وَ قِيلَ مَعْنَاهُ يَسَاقُونَ وَ لَيْسَ هُنَاكَ سَائِقٌ غَيْرُهُمْ فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسُوقُ بَعْضًا عَنِ أَبِي مُسْلِمٍ وَ الْهَاءُ فِي إِلَيْهِ كُنَايَةٌ عَنِ لُوطٍ «وَ مِنْ قَبْلُ» أَي وَ مِنْ قَبْلِ إِيْتِيَانِ الْمَلَائِكَةِ وَ قِيلَ وَ مِنْ قَبْلِ مَجِيئِهِمْ إِلَى ضِيْفَانِهِ وَ قِيلَ مِنْ قَبْلِ مَجِيئِهِمْ إِلَى دَارِهِ عَنِ الْجَبَائِئِ وَ قِيلَ إِنَّهُ مِنْ قَبْلِ بَعْثِهِ لُوطَ إِلَيْهِمْ «كَأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» أَي يَعْمَلُونَ الْفَوَاحِشَ مَعَ الذُّكُورِ «قَالَ» لُوطٌ «يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ» مَعْنَاهُ أَنَّ لُوطَ لَمَّا هَمَّ بِأَضْيَافِهِ وَ جَاهَرُوا بِذَلِكَ فَأَلْقُوا جِلْبَابَ الْحِيَاءِ فِيهِ عَرَضَ عَلَيْهِمْ نِكَاحَ بَنَاتِهِ وَ قَالَ هُنَّ أَحْلَى لَكُمْ مِنَ الرِّجَالِ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْحِلَالِ وَ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ فَقِيلَ أَرَادَ بَنَاتَهُ لِصَلْبِهِ عَنِ قِتَادِهِ وَ قِيلَ أَرَادَ النِّسَاءَ مِنْ أُمَّتِهِ لِأَنَّهُنَّ كَالْبَنَاتِ لَهُ فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أَبُو أُمَّتِهِ وَ أَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ عَنِ مَجَاهِدٍ وَ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَ اخْتَلَفَ أَيْضًا فِي

كيفية عرضهن فقيل بالتزويج و كان يجوز في شرعه تزويج المؤمنه من الكافر و كذا كان يجوز أيضا في مبتدأ الإسلام و قد زوج النبي ص بنته من أبي العاص بن الربيع قبل أن يسلم ثم نسخ ذلك و قيل أراد التزويج بشرط الإيمان عن الزجاج و كانوا يخطبون بناته فلا يزوجهن منهم لكفرهم و قيل إنهم كان لهم سيدان مطاعان فيهم فأراد أن يزوجهما بنتيه زعوراء و رتياء «فَاتَّقُوا اللَّهَ» أي فاتقوا عقاب الله في مواقعه المذكور «وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَعْفِي» أي لا تلزموني عارا و لا تلحقوا بي فضيحه و لا تخجلوني بالهجوم على أضيافي فإن الضيف إذا نزل به معره لحق عارها للمضيف «أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» أي أليس في جملتكم رجل قد أصاب الرشد فيعمل بالمعروف و ينهى عن المنكر و يزجر هؤلاء عن قبيح فعلهم و يجوز أن يكون رشيد بمعنى مرشد أي يرشدكم إلى الحق «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ» هذا جواب قوم لوط حين عرض عليهم بناته و دعاهم إلى النكاح المباح أي ما لنا في بناتك من حجه لأن ما لا يكون للإنسان فيه حجه فإنه يرغب عنه كما يرغب عما لا حق له فيه فلذلك قالوا من حق و قيل معناه ما لنا فيهن من حق لأننا لا نتزوجهن و كانوا يقرون بأن من لم يتزوج بامرأه فإنه لا حق له فيها عن الجبائي و ابن إسحاق فالقول الأول محمول على المعنى و القول الثاني على ظاهر اللفظ «وَأَنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ» أي تعلم ميلنا إلى الغلمان دون النساء فلما لم يقبلوا الموعظه تأسف لوط على فقد تمكنه من دفاعهم بأن «قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ» أي منعه و قدره و جماعه أتقوى بها عليكم فأدفعكم عن أضيافي «أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» أو أنضم إلى عشيره منيعه تنصرتني و شيعة تمنعني لدفعكم و لكن لا يمكنني أن أفعل ذلك

قال الصادق (عليه السلام) فقال جبرائيل لو يعلم أي قوه له قال فكابروه حتى دخلوا البيت فصاح به جبرائيل أن يا لوط دعهم يدخلوا فلما دخلوا أهوى جبرائيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم و هو قوله فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ

قال قتاده ذكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبيا بعد لوط إلا في عز من عشيرته و منعه من قومه و

روى عن النبي ص أنه قال رحم الله أخى لوطا كان يأوى إلى ركن شديد و هو معونه الله تعالى

و لما رأت الملائكة ما لقيه لوط من قومه «قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ» أرسلنا لهلا- كههم فلا- تغتم «لَنْ يَصِيحُوا إِلَيْكَ» أي لا ينالونك بسوء أبدا «فَأَشِيرِ بِأَهْلِكَ» أي سر بأهلك ليلا و قال السدى لم يؤمن بلوط إلا ابتاه «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» أي في ظلمه الليل عن ابن عباس و قيل بعد طائفه من الليل عن قتاده و قيل في نصف من الليل عن الجبائي «وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ» قيل في معناه وجوه (أحدها) لا ينظر أحد منكم وراءه عن مجاهد كأنهم تعبدوا بذلك للنجاه بالطاعة في هذه العبادة (و الثاني) لا يلتفت أحد منكم إلى ماله و لا متاعه بالمدينه و ليس معنى يلتفت من الرؤيه عن الجبائي كأنه أراد في أن النظر إليهم عبره

فلم ينهوا عنها (و الثالث) أن معناه و لا يتخلف منكم أحد عن ابن عباس (و الرابع) أنه أمرهم أن لا يلتفتوا إذا سمعوا الوجهه و الهده «إِلَّا أَمْرًا تَكَّ» و قيل إنها التفتت حين سمعت الوجهه فقالت يا قوماه فأصابها حجر فقتلها و قيل إلا امرأتك معناه لا تسر بها «إِنَّهُ مُصَدِّبٌ مَا أَصَابَهُمْ» أى يصيبها من العذاب ما أصابهم أمره أن يخلفها فى المدينه «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» لما أخبر الملائكه لوطا بأنهم يهلكون قوم لوط قال لهم أهلكوهم الساعه لضيق صدورهم بهم و شده غيظه عليهم فقالوا إن موعد إهلاكهم الصبح لم يجعل الصبح ظرفا و جعله خبر إن لأن الموعد هو الصبح و إنما قالوا له «أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» تسليه له و قيل إنه إنما قال لهم أهلكوهم. ذلك و فى هذا دلالة على أن الله سبحانه إنما يهلك من يهلكه عند انقضاء مدته و إن ضاق صدر الغير به و يجوز أن يكون قد جعل الصبح ميقات إهلاكهم لأن النفوس فيه أودع و الناس فيه أجمع «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا» فيه أقوال (أحدها) جاء أمرنا الملائكه بإهلاك قوم لوط (و الثانى) جاء العذاب كأنه قيل كن على التعظيم على طريق المجاز كما قال الشاعر:

فقلت له العينان سمعا و طاعه و حدرنا كالدر لما يثقب

و على هذا فالأمر هو نفس العذاب (و الثالث) جاء أمرنا بالعذاب «جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا» أى قلبنا القرية أسفلها أعلاها فإن الله تعالى أمر جبرائيل (عليه السلام) فأدخل جناحه تحت الأرض فرفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكه و نباح الكلاب ثم قلبها ثم خسف بهم الأرض فهم يتجلبلون فيها إلى يوم القيامة فعلى هذا يكون معنى جعلنا جعل بأمرنا و إنما أضافه إلى نفسه لأنه أمره به «وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً» أى و أمطرنا على القرية أى على الغائبين منها حجاره عن الجبائى و قيل أمطرت الحجاره على تلك القرية حين رفعها جبرائيل و قيل إنما أمطرت عليهم الحجاره بعد أن قلبت قريتهم تغليظا للعقوبه و قيل كانت أربع مدائن و هى المؤتفكات سدوم و عاموراء و دوما و صبوايم و أعظمها سدوم و كان لوط يسكنها قال أبو عبيده يقال مطر فى الرحمه و أمطر فى العذاب «مِنْ سَجِيلٍ» أى سنك كل عن ابن عباس و سعيد بن جبير بين بذلك صلابتها و مباينتها للبرد و أنها ليست من جنس ما جرت به عادتهم فى سقوط البرد من الغيوم و قيل إن السجيل الطين عن قتاده و عكرمه و يؤيده قوله لِنُزِّلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ و روى عن عكرمه أيضا أنه بحر معلق فى الهواء بين الأرض و السماء

منه أنزلت الحجارة و قال الضحاك هو الآجر و قال الفراء هو طين قد طبخ حتى صار بمنزله الأرحاء و قال كان أصل الحجارة طينا فشدت عن الحسن و قيل إن السجيل سماء الدنيا عن ابن زيد فكانت تلك الحجارة منزله من السماء الدنيا «مَنْضُودٍ» هو من صفه سجيل أى نضد بعضها على بعض حتى حجرا عن الربيع و قيل مصفوف فى تتابع أى كان بعضها فى جنب بعض عن قتاده و قيل يتبع بعضها بعضا عن ابن عباس «مُسَوَّمَةٌ» هى من صفه الحجارة أى معلمه جعل فيها علامات تدل على أنها معده للعذاب و قيل مطوقه بها نضخ من حمرة عن قتاده و عكرمه و قيل كان مكتوبا على كل حجره منها اسم صاحبها عن الربيع و قيل عليها سيماء لا تشاكل حجاره الأرض عن ابن جريج و قيل مختومه عن الحسن و السدى و قيل مشهوره «عِنْدَ رَبِّكَ» أى فى علم ربك و قيل فى خزائن ربك التى لا يملكها غيره و لا يتصرف فيها أحد إلا بأمره «وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» أى و ما تلك الحجارة من الظالمين من أمتك يا محمد ببعيد أراد بذلك إرهاب قريش و قال قتاده ما أجاز الله منها ظالما بعد قوم لوط فاتقوا الله و كونوا منه على حذر و قيل يعنى بذلك قوم لوط يريد أنها لم تكن تخطئهم و ذكر أن حجرا بقى معلقا بين السماء و الأرض أربعين يوما يتوقع به رجلا من قوم لوط كان فى الحرم حتى خرج منه فأصابه قال قتاده و كانوا أربعة آلاف ألف.

اشاره

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (۸۴) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۸۵) بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۸۶) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (۸۷) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسِينًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (۸۸)

وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (۸۹) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (۹۰) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَا رَهْطًاكَ لَرَجْمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (۹۱) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُّحِيطٌ (۹۲) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (۹۳)

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصَابَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ (۹۴) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (۹۵)

القراءه

قرأ أهل الكوفه غير أبي بكر «أَصَلَاتُكَ» بغير واو على التوحيد و الباقون

أصلواتك بالواو على الجمع و في الشواذ قراءه السلمى بعدت ثمود بضم العين.

الحجه

أما بعد فيكون في الخير و الشر و مصدره البعد و بعد في الشر خاصه و مصدره البعد و منه أبعده الله فإنه منقول من بعد لأنه دعاء عليه و قراءه السلمى متفقه الفعل مع مصدره و إنما السؤال عن قراءه الجماعه ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود و طريق ذلك أن يكون البعد بمعنى اللعنه فيكون أبعده الله بمعنى لعنه الله و منه قوله:

ذعرت به القطا و نفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

أى المبعد فالإبعاد للشئ ء نقص له فقد التقى معنى بعد معنى بعد من هنا.

اللغه

الوزن تعديل الشئ ء بغيره في الخفه و الثقل بآله التعديل و إذا قيل شعر موزون فمعناه معدل بالعروض و التوفيق من الصواب إلا أنه اختص بهذا الاسم ما اتفق وقوع الصواب عنده و ليس ذلك جنسا بعينه و إنما هو بحسب ما يعلم الله تعالى و إنما لم يكن الموفق للطاعه إلا- الله تعالى لأن أحدا لا- يعلم ما يتفق عنده الطاعه من غير تعليم سواه سبحانه و الشقاق و المشاقه المباعده بالعداوه إلى جانب المباينه و شقها و الفقه فهم الكلام على ما تضمنه من المعنى و قد صار علما لضرب من علوم الدين و هو علم بمدلول الدلائل السمعيه و أصول الدين علم بمدلول الدلائل العقليه و الرهط عشيره الرجل و قومه و أصله الشد و الترهيط شده الأكل و منه الرهطاء جحر اليربوع لشده و توسيعه لينجى فيه ولده و الرجم الرمي بالحجاره و الأعز الأتوى الأمتع و الأعز نقيض الأذل و الظهري جعل الشئ ء وراء الظهر حتى ينسأه و يقال لكل من لا يعبأ بأمر قد جعل فلان هذا الأمر بظهر قال:

تميم بن قيس لا تكونن حاجتى بظهر فلا يعيا على جوابها

. الإعراب

«أَوْ أَنْ نَفْعِلَ» موضع أن نصب على معنى أو تأمرك أن نترك أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء فهو معطوف على ما يعبد آباؤنا و التقدير أ صلواتك تأمرك أن نترك عباده آباؤنا أو نفعل ما نشاء في أموالنا و لا يجوز أن يكون قوله «أَنْ نَفْعِلَ» معطوفا على قوله «أَنْ نَتْرُكَ» لأن المعنى يصير فاسدا و أو هنا بمنزلتها في قولك جالس الحسن أو ابن سيرين و قوله «إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا» و لم يقل به و موضع من في قوله «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ» له

ص: ٢٨٥

وجهان من الإعراب (أحدهما) أن يكون معلقا بقوله تَعْلَمُونَ فيكون استفهاما و تقديره فسوف تعلمون من المخزى و من الكاذب و يجوز أن يكون من هو كاذب على هذا بمعنى الذى هو كاذب و يكون معطوفا على الهاء من يخزيه أى و يخزى الذى هو كاذب (و الثانى) أن يكون من فى قوله «مَنْ يَأْتِيهِ» بمعنى الذى و يكون من هو كاذب عطفا عليه و ادخلوا هو فى قوله «مَنْ هُوَ كاذِبٌ» لأنهم لا- يقولون من قائم و لا من قاعد و إنما يقولون من قام و من يقوم و من القائم و من القاعد و قد ورد ذلك فى الشعر قال الشاعر:

من شارب مريح بالكأس نادمنى لا بالحصور و لا فيها بسوار

«كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا» يحتمل أن يكون كان مخففة من الثقيله أن يضمم فيها كما يضمم فى أن من قوله وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ و يجوز أن يكون أن التى تنصب الفعل و يكون مع الفعل بمعنى المصدر.

المعنى

ثم عطف سبحانه قصه شعيب على ما تقدمها من قصص الأنبياء (عليه السلام) فقال «وَ إِلَى مَدْيَنَ» أى و أرسلنا إلى أهل مدين «أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» فحذف أهل و أقام مدين مقامه و مدين اسم القبيله أو المدينه التى كانوا فيها فلذلك لم ينصرف عن الزجاج و قيل مدين بن إبراهيم نسبوا إليه «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» قد سبق تفسيره «وَ لَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ» أى و لا- تنقصوا حقوق الناس بالتطيف عند الكيل و الوزن «إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ» أى برخص السعر و الخصب عن ابن عباس و الحسن و المعنى أنه حذرهم الغلاء و هو زياده السعر و زوال النعمه و حلول النقمه إن لم يتوبوا و قيل أراد بالخير المال و زينه الدنيا عن قتاده و ابن زيد و الضحاك و المعنى إني أراكم فى كثره الأموال و سعه الأرزاق فلا حاجه بكم إلى نقصان الكيل و الوزن «وَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» وصف اليوم بالإحاطه بمعنى أنه يحيط عذابه بجميع الكفار و لا يفلت منه أحد منهم و أراد يوم القيامه عن الجبائى و هو من صفه العذاب على الحقيقه لأن اليوم محيط بعذابه بدلا من إحاطته بنعمته و ذلك أظهر فى الوصف و أهول فى النفس «وَ يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ» أى أوفوا حقوق الناس فى المكيلايت و الموزونات بالمكيال و الميزان بالعدل «وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ» أى و لا تنقصوا الناس «أَشْيَاءَهُمْ» أى أموالهم فى معاملاتهم «وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ» أى و لا تسعوا بالفساد و لا تضربوا فى الأرض «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ» البقيه بمعنى الباقي أى ما أبقي الله تعالى لكم من الحلال بعد إتمام الكيل و الوزن خير من البخس و التطفيف و شرط الإيمان فى كونه خيرا لهم لأنهم إن كانوا مؤمنين بالله عرفوا صحه هذا القول عن ابن عباس و قيل معناه إبقاء الله النعيم عليكم خيرا لكم مما يحصل من النفع بالتطفيف عن ابن جبير و قيل معناه طاعه الله خير لكم من جميع الدنيا لأنها يبقى ثوابها أبدا و الدنيا تفنى عن الحسن و مجاهد و يؤيده قوله وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا الْآيَهُ و قيل بقيه الله رزق الله عن الثورى «وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» أى و ما أنا بحافظ نعم الله تعالى عليكم أن يزيلها عنكم و إنما يحفظها الله عليكم فاطلبوا بقاء نعمه بطاعته و قيل معناه و ما أنا بحافظ لأعمالكم و إنما يحفظها الله فيجازيكم عليها و قيل معناه و ما أنا بحافظ عليكم كيحكم و وزنكم حتى توفوا الناس حقوقهم و لا تظلموهم و إنما على أن أنهاكم عنه «قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصِلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» إنما قالوا ذلك لأن شعيبا (عليه السلام) كان كثير الصلاة و كان يقول إذا صلى إن الصلاة رادعه عن الشر ناهيه عن الفحشاء و المنكر فقالوا أ صلاتك التى تزعم أنها تأمر بالخير و تنهى عن الشر أمرتك بهذا عن ابن عباس و قيل معناه أ دينك يأمرك بترك دين السلف عن الحسن و عطا و أبى مسلم قالوا كنى عن الدين بالصلاه لأنها من أجل أمور الدين و إنما قالوا ذلك على وجه الاستهزاء «أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فى أَمْوَالِنَا ما نَشْؤُا» معناه أ صلاتك تأمرك بترك عبادته ما يعبد آباؤنا أو بترك فعل ما نشاء فى أموالنا من البخس و التطفيف «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» قيل إنهم قالوا ذلك على وجه الهزاء و التهكم و أرادوا به ضد ذلك أى السفیه الغاوى عن ابن عباس و قيل إنهم قالوا ذلك على التحقيق أى إنك أنت الحليم فى قومك فلا يليق بك أن تخالفهم و الحليم الذى لا يعاجل بالعقوبه مستحقها و الرشيد المرشد «قال» شعيب «يا قوم أ رأيتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي» مر تفسيره «وَ رَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسِيناً» قيل إن الرزق الحسن هاهنا النبوه و قيل معناه هدانى لدينه و وسع على رزقه و كان كثير المال عن الحسن و قيل كل نعمه من الله سبحانه فهو رزق حسن و فى الكلام حذف أى أفاعدل مع ذلك عما أنا عليه من عبادته و إنما حذف لدلاله ما أبقاه على ما ألقاه «وَ ما أريدُ أَنْ أُخالفَكُمْ إلی ما أَنهاكُمْ عَنْهُ» أى لست أنهاكم عن شىء و أدخل فيه و إنما أختار لكم ما أختاره لنفسى و معنى ما أخالفكم إليه أى ما أقصده بخلافكم إلى ارتكابه عن الزجاج و هذا فى معنى قول الشاعر:

لا تنه عن خلق و تأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم.

و قيل معناه و ما أريد اجترار منفعه إلى نفسى بما أنهاكم عنه أى لا آمركم بترك التطفيف فى الكيل و الوزن لتكون منفعه ما يحصل بالتطفيف لى «إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ» أى لست

أريد بما أمركم به و أنهاكم عنه إلا إصلاح أموركم في دينكم و دنياكم «مَا اسْتِطَعْتُ» أي ما قدرت عليه و تمكنت منه «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ» معناه و ليس توفيقى فى امتثال ما أمركم به و الانتهاء عما أنهاكم عنه إلا بالله فلا يوفق غيره أى و ليس ما أفعله بحولى و قوتى بل بمعونه الله و لطفه و تيسيره «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» و التوكل على الله الرضا بتسديره مع تفويض الأمور إليه و التمسك بطاعته «وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» أى و إليه أرجع فى المعاد عن مجاهد و قيل إليه أرجع بعملى و نيتى عن الحسن و معناه إني أعمل أعمالى كلها لوجه الله «وَ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي» أى لا يكسبنكم خلافى و معاداتى «أَنْ يُصِيبَكُمْ» عذاب العاجله عن الزجاج و قيل معناه لا تحملنكم عداوتى على مخالفه ربكم فيصيبكم من العذاب مثل ما أصاب من قبلكم عن الحسن و كان سبب هذه العداوه دعاؤه لكم إلى مخالفه الآباء و الأجداد فى عباده الأوثان و ما يثقل عليهم من الإيفاء فى الكيل و الميزان «مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ» من الهلاك بالغرق «أَوْ قَوْمَ هُودٍ» بالريح العقيم «أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ» بالرجفه «وَ مَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ» أى هم قريب منكم فى الزمان الذى بينه و بينكم عن قتاده و قيل معناه أن دارهم قريبه من داركم فيجب أن تتعظوا بهم «وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» أى اطلبوا المغفره من الله ثم توصلوا إليها بالتوبه و قيل معناه استغفروا للماضى و اعزموا فى المستقبل و قيل استغفروا ثم دوموا على التوبه قيل استغفروا فى العلانيه ثم أضمروا الندامه فى القلب عن الماضى «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ» بعباده فيقبل توبتهم و يعفو عن معاصيهم «وَدُودٌ» أى محب لهم و معناه يريد لمنافعهم و قيل معناه متودد إلى عباده بكثره إنعامه عليهم و قيل ودود بمعنى الواد أى يودهم إذا أطاعوه و

روى عن النبى ص أنه قال كان شعيب خطيب الأنبياء

«قَالُوا» أى قال قوم شعيب له حين سمعوا منه الوعظ و التخويف «يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ» أى ما نفهم عنك معنى كثير من كلامك و قيل معناه لا نقبل كثيرا منه و لا نعمل به و هذا كقولك إذا أمرك إنسان بشىء لا تريد أن تفعله لا أعلم ما تقول و أنت تعلم ذلك أى لا أفعله و إنما قالوا ذلك بعد ما ألزمهم الحجه «وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا» أى ضعيف البدن عن الجبائى و قيل ضعيف البصر عن سفيان و قيل أعمى و كان شعيب أعمى عن قتاده و سعيد بن جبير قال الزجاج و حمير تسمى المكفوف ضعيفا و هذا كما قيل ضرير أى قد ضر بذهاب بصره و كذلك قد ضعف بذهاب بصره و كف عن التصرف و هذا القول ليس بسديد لأن قوله «فينا» يردده ألا ترى أنه لو قيل إنا لنراك فينا أعمى لم يكن كلاما لأن الأعمى قد يكون أعمى فيهم و فى غيرهم و قيل ضعيفا أى مهينا عن الحسن و اختلف فى أن النبى ص هل يجوز أن يكون أعمى فقيل لا يجوز لأن ذلك ينفر و قيل يجوز أن لا يكون فيه تنفير و يكون بمنزله سائر العلل و الأمراض «وَ لَوْ لَا

رَهْطُكَ لَرَجْمَاكَ» أى لو لا- رحمه عشيرتك و قومك لقتلناك بالحجاره و قيل معناه لشتمناك و سبيناك «وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ» أى لم ندع قتلك لعزتك علينا و لكن لأجل قومك قال الحسن و كان شعيب فى عز من قومه و كان من أشرفهم و ما بعث نبي بعد لوط إلا- فى عز من قومه «قَالَ» شعيب «يَا قَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ» أى أ عشيرتى و قومى أعظم حرمه عندكم من الله فتركون أذى لأجل عشيرتى و لا تتركونه لله الذى بعثنى إليكم «وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا» أى اتخذتم الله وراء ظهوركم يعنى نسيتموه فالهاء عائده إلى الله عن ابن عباس و الحسن و قيل الهاء عائده إلى ما جاء به شعيب عن مجاهد و المعنى و نبذتم ما أرسلت به إليكم وراء ظهوركم و قيل الهاء عائده إلى أمر الله عن الزجاج أى نبذتم أمر الله وراء ظهوركم و تركتموه «إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» أى محص لأعمالكم لا يفوته شىء منها و قيل معناه خبير بأعمالكم فيجازيكم بها عن الحسن «وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ» أى اعملوا على حالتكم هذه و المكانه الحال التى يتمكن بها صاحبها من عمل و هذا تهديد فى صوره الأمر و تقديره كأنكم إنما أمرتم بأن تكونوا على هذه الحال من الكفر و الطغيان و فى هذا نهايه الخزى و الهوان و قيل معناه اعملوا على ما يمكنكم أى اعملوا أنتم على ما تقولون و أعمل أنا على ما أقول و قيل معناه اعملوا على ما أنتم عليه من دينكم و نحوه و قوله لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينٌ وَ فى هذا دلالة على أنه آيس من قومه «إِنِّي عَامِلٌ» على ما أمرنى ربي و قيل إننى عامل على ما أنا عليه من الإنذار «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» أينا المخطئ الجانى على نفسه و قيل معناه سوف يتبين لكم و تعلمون فى عاقبه الأمر «مَنْ يَرَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ» أى يهينه و يفضحه و يظهر الكاذب من الصادق و تقديره «وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ» يخزى بعذاب الله فحذف «وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» أى انتظروا ما وعدكم ربكم من العذاب إنى معكم منتظر حلول العذاب بكم و قيل معناه انتظروا العذاب و اللعنه و أنا أنتظر الرحمة و الثواب و النصره عن ابن عباس و قيل معناه انتظروا مواعيد الشيطان و أنا أنتظر مواعيد الرحمن و

روى عن على بن موسى الرضا (عليه السلام) أنه قال ما أحسن الصبر و انتظار الفرج أ ما سمعت قول العبد الصالح «وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ»

«وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا» مضى تفسيره «وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ» صاح بهم جبرئيل صيحه فماتوا «فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا» مضى تفسيره قبل «أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ» ألا بعدوا من رحمة الله بعدا كما بعدت ثمود و قيل ألا هلاكا لهم كما هلكت ثمود و تقديره ألا أهلكهم الله فبعدوا بعدا قال البلخي يجوز أن تكون الصيحه صيحه على الحقيقه كما روى و يجوز أن تكون ضربا من العذاب أهلكهم الله به و اصطلمهم تقول العرب صاح الزمان بهم

إذا هلكوا و قال امرؤ القيس:

فدع عنك نهبا صيح في حجراته و لكن حديث ما حديث الرواحل

و معنى صيح في حجراته أذهب و أهلك قالوا و إنما شبه حالهم بحال ثمود خاصة لأنهم أهلكوا بالصيحة كما أهلكت ثمود بمثل ذلك مع الرجفه.

[سوره هود (١١): الآيات ٩٦ الى ١٠٣]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بئسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَ اتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ (١٠٠)

وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَ كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣)

اللغة

يقال قدمت القوم أقدمهم قدما إذا مشيت أمامهم و اتبعوك الأزهرى قدم يقدم و تقدم و أقدم و استقدم بمعنى و الورد ورود الماء الذى يورد و الإبل الواردة و الجمع أوراد

ص: ٢٩٠

الإيراد إيجاب الورود في الماء أو ما يقوم مقامه قال الشاعر:

يرد المياه حضيره و نفيضه ورد القطاه إذا أسمال التبع

و قال لبيد:

فوردنا قبل فراط القطا إن من وردى تغليس النهل

و أصل الورود الإشراف على الدخول و ليس بالدخول قال عنتره:

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضمن عصى الحاضر المتخيم

و الرشد العون على الأمر يقال رفته يرفده رفدا و رفدا بفتح الراء و كسرهما قال الزجاج كل شىء جعلته عوناً لشيء أو أسندت به شيئاً فقد رفته به يقال عمدت الحائط و أسندته و أرفدته و رفته بمعنى واحد و يقال رفته و أرفده إذا أعطاه و الاسم الرشد لأن العطاء عون المعطى و الحصيد بمعنى المحصود و الحصد قطع الزرع من الأصل و هذا زمن الحصاد بفتح الحاء و كسرهما و يقال حصدهم بالسيف إذا قتلهم و تيبب من تبت يده أى خسرت قال جرير:

عرا به من بقيه قوم لوط ألا تبا لما فعلوا تبابا

و الفرق بين العذاب و الألم أن العذاب استمرار الألم و قال عبيد:

و المرء ما عاش فى تكذيب طول الحياه له تعذيب

. المعنى

ثم عطف سبحانه قصه موسى (عليه السلام) على ما تقدم من قصص الأنبياء فقال «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا» أى بحججنا و معجزاتنا الداله على نبوته «وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» أى و حجه ظاهره مخلصه من تلبيس و تمويه على أتم ما يمكن فيه و السلطان و إن كان فى معنى الآيات فإنما عطفه عليها لأن الآيات حجج من وجه الاعتبار العظيم بها و السلطان حجه من جهه القوه العظيمه على المبطل و كل عالم له حجه يقهر بها شبهه من نازعه من أهل الباطل فله سلطان و قد قيل إن سلطان الحجه أنفذ من سلطان المملكه و السلطان متى كان محققا

ص: ٢٩١

حجه وجب اتباعه و إذا كان بخلافه لا يجب اتباعه قال الزجاج السلطان إنما سمي سلطاناً لأنه حجه الله في أرضه و اشتقاقه من السليط الذى يستضاء به «إلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَأْتَهُ» أى قومه و قيل أشرف قومه الذين تملأ الصدور هيبتهم «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» و تركوا أمر الله تعالى «وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» أى مرشد و معناه ما هو بهاد لهم إلى رشد و لا قائد إلى خير فأمر فرعون كان على ضد هذه الحال لأنه داع إلى الشر و صاد عن الخير و فى هذا دلالة على أن لفظه الأمر مشترك بين القول و الفعل و المراد هاهنا و ما فعل فرعون برشيد «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعنى أن فرعون يمشى بين يدى قومه يوم القيامة على قدميه حتى يهجم بهم على النار كما كان يقدمهم فى الدنيا يدعوهم إلى طريق النار و إنما قال «فَأُورِدَهُمْ» على لفظ الماضى و المراد به المستقبل لأن ما عطفه عليه من قوله «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يدل عليه عن الجبائى و قيل إنه معطوف على قوله «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» «وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» أى بئس الماء الذى يردونه عطاشاً لإحياء نفوسهم النار إنما أطلق سبحانه على الناس اسم الورد المورود ليطابق ما يرد عليه أهل الجنة من الأنهار و العيون و قيل معناه بئس المدخل المدخول فيه النار و قيل بئس الشىء الذى يرده النار و قيل بئس النصيب المقسوم لهم لنار و إنما أطلق بلفظ بئس و إن كان عدلاً حسناً لما فيه من البؤس و الشدة «وَ أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ» يعنى ألحقوا فى الدنيا «لَعْنَةً» و هى الغرق «وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعنى و لعنه يوم القيامة و هى عذاب الآخرة و قيل معناه أتبعهم الله فى الدنيا لعنه بإبعادهم من الرحمة و أتبعهم الأنبياء و المؤمنون بالدعاء عليهم باللعنة و يتبعهم الله اللعنة فى القيامة حتى لا تفارقهم اللعنة حيث كانوا قال ابن عباس من ذكرهم لعنهم «بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ» أى بئس العطاء المعطى النار و اللعنة و إنما سماه رفداً لأنه فى مقابله ما يعطى أهل الجنة من أنواع النعيم و قال قتاده ترافدت عليهم لعنتان من الله لعنه فى الدنيا و لعنه فى الآخرة و سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله «بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ» قال هو اللعنة بعد اللعنة و قال الضحاك اللعنتان اللتان أصابتهما رفدت إحداهما الأخرى «ذَلِكَ» أى ذلك النبأ «مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى» أى من أخبار البلاد «نُقِضَ عَلَيْكَ» أن نذكره لك و نخبرك به تذكره و تسليه لك يا محمد «مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ» أى من تلك الديار معمور و خراب قد أتى عليه الإهلاك و لم يعمر فيما بعد و قيل معناه منها قائم على بنائه لم يذهب أصلاً و إن كان خالياً من أهله و حصيد قد خرب و ذهب و اندرس أثره كالشئء المحصود عن قتاده و أبى مسلم و قيل منها قائم ينظرون إليها و حصيد قد هلك و باد أهله عن ابن عباس «وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ» بإهلاكهم «وَ لَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» بأن كفروا و ارتكبوا ما استحقوا به الهلاك فكان ذلك ظلمهم لأنفسهم «فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ» أى أوثانهم «الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ

اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ» أى عذاب ربك وقيل أمر ربك بإهلاكمهم «وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبَابٍ» أى غير تخسير عن مجاهد و قتاده والمعنى لم يزيدوهم شيئاً غير الهلاك والخسار وإنما أضاف الإهلاك إلى الأصنام لأنها السبب فى ذلك ولو لم يعبدوها لم يهلكوا وإنما قال «يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» لأنهم كانوا يسمونها آلهة و يطلبون الحوائج منها كما يطلبها الموحدون من الله «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ» أى و كما ذكر من إهلاك الأمم و أخذهم بالعذاب أخذ ربك «إِذَا أَخَذَ الْقُرَى» أى أخذ أهلها و هو أن ينقلهم إلى العقوبة و الهلاك «وَهِيَ ظَالِمَةٌ» من صفة القرى و هو فى الحقيقة لأهلها و سكانها و نحوه وَ كَمْ قَصِيدًا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً

و فى الصحيحين عن النبى ص أنه قال إن الله تعالى يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ هذه الآية «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»

معناه إن أخذ الله سبحانه الظالم مؤلماً شديداً الألم «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» أى إن فيما قصصنا عليك من إهلاك من ذكرناه على وجه العقوبة لهم على كفرهم لعبه و تبصره و علامه عظيمه «لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ» أى لمن خشى عقوبه الله يوم القيامة و خص الخائف بذلك لأنه هو الذى ينتفع به بالتدبر و التفكير فيه «ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ» أى يجمع فيه الناس كلهم الأولون و الآخرون منهم للجزاء و الحساب و الهاء فى له راجعه إلى اليوم «وَ ذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ» أى يشهده الخلائق كلهم من الجن و الإنس و أهل السماء و أهل الأرض أى يحضره و لا يوصف بهذه الصفة يوم سواه و فى هذا دلالة على إثبات المعاد و حشر الخلق.

[سوره هود (١١): الآيات ١٠٤ الى ١٠٨]

إشاره

وَ مَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُعْتَىٰ وَ سَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَ أَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ (١٠٨)

ص: ٢٩٣

قرأ يعقوب و ما يؤخره بالياء و الباقون بالنون و قرأ «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياء ابن عامر و أهل الكوفه غير الكسائي و الباقون يأتي بإثبات الياء و قرأ أهل الكوفه غير أبي بكر «سُعِدُوا» بضم السين و الباقون سعدوا بالفتح.

الحجه

من قرأ يؤخره بالياء فإنه رده إلى قوله أَخَذُ رَبُّكَ و من قرأ بالنون فإنه ابتداء و الياء فى المعنى كالنون و قوله «يَوْمَ يَأْتِ» قال الزجاج الذى يختاره النحويون يوم يأتي و هذيل يحذف هذه الياءات كثيرا و قد حكى سيبويه و الخليل إن العرب تقول لا أدر فتحذف الياء و تجتزئ بالكسره إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال قال أبو على من أثبت الياء فى الوصل و الوقف فهو القياس البين و أما من حذفها فى الوقف إذا قال «يَوْمَ يَأْتِ» فلأنها و إن لم تكن فى فاصله أمكن أن نشبهها بالفاصله لأن هذه الياء تشبه الحركات المحذوفه فى الوصل بدلاله أنهم حذفوها حذفوا الحركه فكما أن الحركه تحذف فى الوقف فكذلك ما أشبهها من هذه الحروف كان فى حكمها فأما من حذفها فى الوصل و الوقف فلأنه جعلها فى الوصل و الوقف بمنزله ما استعمل محذوفا مما لم يكن ينبغى فى القياس أن يحذف نحو لم يكن و لا أدر و مثله قول الشاعر:

كفالك كف لا تبقى درهما جودا و أخرى تعطى بالسيف الدما

حذف الياء من تعطى و ليس هنا ما يوجب حذفها و أما قوله «سُعِدُوا» فقد قال أبو على حكى سيبويه سعد يسعد سعادته فهو سعيد و ينبغى أن يكون غير متعد كما أن خلافه الذى هو شقى كذلك و إذا كان كذلك كان ضم السين مشكلا إلا أن يكون سمع فيه لغه خارجه عن القياس أو يكون من باب فعل و فعلته نحو غاص الماء و غصته و حزن و حزنه و لعلمهم استشهدوا على ذلك بقولهم مسعود و أنه يدل على سعد و لا دلالة قاطعه فى ذلك لأنه يجوز أن يكون مثل أجنه الله فهو مجنون و أحبه فهو محبوب فالمفعول جاء فى هذا على أنه حذف الزيادة عنه كما حذف من اسم الفاعل فى نحو قوله وَ أَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ يعنى ملايح فجاء على حذف الزيادة فعلى هذا يكون أصله أسعد فحذف الزائد و من الحذف قول الشاعر:

" يخرجن من أجواز ليل غاض "

يريد مغض.

الشقاء و الشقاوه و الشقوه بمعنى و الياء فى شقى منقلبه عن واو و السعاده ضد الشقاوه و الزفير أول نهاق الحمار و الشهيق آخر نهاقه قال رؤبه:

حشرج فى الجوف سهيلا أو شهق حتى يقال ناهق و ما نهق

و الزفير ترديد النفس مع الصوت من الحزن حتى تنتفخ الضلوع و أصل الزفير الشده من قولهم للشديد الخلق مزفور و الزفر الحمل على الظهر خاصه لشدته و الزفر السيد لأنه يطبق حمل الشدائد و زفرت النار إذا سمع لها صوت من شده توقدها و الشهيق صوت فطيع يخرج من الجوف بمد النفس و أصله الطول المفرط من قولهم جبل شاهق و الخلود الكون فى الأمر أبدا و الدوام البقاء أبدا و لهذا يوصف سبحانه بأنه دائم و لا يوصف بأنه خالد و الجذ القطع يقال جذه يجذوه و جذ الله دابرههم قال النابغه:

تجذ السلوقي المضاعف نسجه و توقد بالصفاح نار الحباب

و يقال جذها جذ البعير الصليانه و هى نبت.

الإعراب

«يَوْمَ يَأْتِ» لا- يخلو أن يكون فاعل يأتى ضمير اليوم المضاف إلى يأتى و اليوم المتقدم ذكره فلا يجوز أن يكون فاعله ضمير اليوم الذى أضيف إلى يأتى لأنك لا تقول جئتكم يوم يسيرك سروره إياك و يكون الهاء عائده إلى يوم فيصير اليوم مضافا إلى الفعل المسند إلى ضميره و إنما تعرف الفعل فيه بالفاعل فيكون كأنك إنما عرفت اليوم بنفسه و نظير ذلك قولك هذا يوم حره و يوم برده و الهاء لليوم و هذا غير جائز و كذلك لا يجوز أن تضيف الظرف إلى جملة معرفه بضميره و إن كانت من مبتدأ و خبر مثل أن تقول آتيك يوم ضحوته بارده و ليله أولها مطير فإن نونت فقلت آتيك يوما ضحوته بارده أو ليله أولها مطير جاز لأنه خرج بالتنوين عن حد الإضافة و هذا قول أبى عثمان المازنى و إذ قد ثبت ذلك فقد ثبت أن فى يأتى ضمير اليوم المتقدم ذكره فى قوله ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ أى يوم يأتى هذا اليوم الذى تقدم ذكره لا تكلم نفس فالיום فى قوله «يَوْمَ يَأْتِ» يراد به الحين و البرهه و ليس على وضح النهار و قوله «لَا تَكَلَّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِأَذْنِهِ» يجوز أن يكون هذه

الجملة حالا- من الضمير فى يأتى و يجوز أن يكون صفه ليوم المضاف إلى يأتى لأن يوم مضاف إلى يأتى و الفعل نكره فلا تتعرف يوم بالإضافه إليه فجاز أن يوصف بالجملة كما توصف النكرات بالجملة و المعنى لا- تكلم فيه نفس فحذف فيه أو حذف الحرف و أوصل الفعل إلى المفعول ثم حذف الضمير من الفعل الذى هو صفه كما يحذف من الصلة و مثل ذلك قولهم الناس رجلا ن رجل أكرمت و رجل أهنت و إذا جعلته حالا من الضمير فى يأت و جب أن تقدر فيه أيضا ضميرا يعود إلى ذى الحال و تقديره غير متكلم فيه هذا كله قول أبى على و أقول أن الأظهر أن قوله «يَوْمَ يَأْتِ» ظرف لقوله «لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» و معمول له و هذا الوجه لا يحتاج فيه إلى تقدير محذوف كما فى الوجهين اللذين ذكرناهما فيكون أولى و إنما يضاف يوم إلى الفعل لأنه اسم زمان و الفعل يناسب الزمان من حيث أنه لا يخلو منه و إنما يتصرف بتصرفه و أنه لا يكون حادثا إلا وقتا كما أن الزمان لا يبقى و قوله «لَا تَكَلَّمُ» أى لا تتكلم فحذف إحدى التاءين كما فى قول الشاعر:

و العين ساكنه على أطلانها عودا تأجل بالفضاء بهامها

أى تتأجل و عطاء منصوب بما دل الكلام عليه فكأنه قال أعطاهم النعيم عطاء.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن اليوم المشهود و هو يوم القيامة فقال «وَمَا نُؤَخِّرُهُ» أى و ما تؤخر هذا اليوم «إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ» و هو أجل قد عده الله تعالى لعلمه أن صلاح الخلق فى إدامه التكليف عليهم إلى ذلك الوقت و فيه إشاره إلى قربه لأن ما يدخل تحت العد فكان قد نفذ و إنما قال لأجل و لم يقل إلى أجل لأن اللام يدل على الغرض و أن الحكمة اقتضت تأخيره و إلى لا يدل على ذلك «يَوْمَ يَأْتِ» أى حين يأتى القيامة و الجزاء «لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» أى لا يتكلم أحد فيه إلا بإذن الله تعالى و أمره و معناه أنه لا يتكلم فيه إلا بالكلام الحسن المأذون فيه لأن الخلق ملجئون هناك إلى ترك القبائح فلا يقع منهم فعل القبيح و أما ما هو غير قبيح فإنه مأذون فيه عن الجبائى و الأظهر أن يقال معناه أنه لا يتكلم أحد فى الآخرة بكلام نافع من شفاعه و وسيله إلا بإذنه فإن قيل كيف يجمع بين هذه الآيه و بين قوله «هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَ لَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فَيْعَتِيذِرُونَ» و قوله «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ

وَلَا- جِائًا» على أنه سبحانه قال في موضع آخر وَ قِفْوَهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ و هل هذا إلا- ظاهر التناقض فالجواب أن يوم القيامة يشتمل على مواقف قد أذن لهم في الكلام في بعض تلك المواقف و لم يؤذن لهم في الكلام في بعضها عن الحسن و قيل أن معنى قوله لَا- يَنْطِقُونَ أنهم لَا- ينطقون لحجه و إنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم و لوم بعضهم بعضا و طرح بعضهم الذنوب على بعض و هذا كما يقول القائل لمن تكلم بكلام كثير فارغ عن الحجة ما تكلمت بشىء و لا نطقت بشىء فسمى من يتكلم بما لا حجة فيه غير متكلم كما قال سبحانه صُمْ بُكُمْ عُمَى و هم كانوا يسمعون و يتكلمون و يبصرون إلا أنهم لا يقبلون الحق و لَا- يتأملون بمنزلة الصم البكم العمى و كلاً- الوجهين حسن و أما قوله فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ فمعناه أنهم لا يسألون عن ذنوبهم للتعرف من حيث أن الله سبحانه علم أعمالهم و إنما يسألون سؤال توبيخ و تقرير و تقرير لإيجاب الحجة عليهم كما في قوله وَ قِفْوَهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ فأثبت سبحانه سؤال التقرير فى آيه و نفى سؤال التعرف و الاستعلام فى أخرى فلا تناقض و قوله «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» إخبار منه سبحانه بأنهم قسمان أشقياء و هم المستحقون للعقاب و سعداء و هم المستحقون للثواب و الشقاء قوه أسباب البلاء و السعادة قوه أسباب النعمه و الشقى من شقى بسوء عمله فى معصية الله و السعيد من سعد بحسن عمله فى طاعة الله و الضمير فى قوله «فَمِنْهُمْ» يعود إلى الناس فى قوله ذَلِكْ يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ و قيل إنه يعود إلى نفس فى قوله «لَا- تَكَلَّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» لأن النفس اسم الجنس «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ» يعنى أن الذين شقوا باستحقاقهم العذاب جزاء على أعمالهم القبيحة داخلون فى النار و إنما وصفوا بالشقاوة قبل دخولهم النار لأنهم على حال تؤديهم إلى دخولها و أما ما

روى عن النبي ص أنه قال الشقى من شقى فى بطن أمه

فإن المراد بذلك أن المعلوم من حاله أنه سيشقى بارتكاب القبائح التى تؤديه إلى عذاب النار كما يقال لابن الشيخ الهرم أنه يتيم بمعنى أنه سيئتم «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيْقٌ» قال الزجاج الزفیر و الشهيق من أصوات المكرويين المحزونين و الزفير من شديد الأنين و قبيحه بمنزله ابتداء صوت الحمار و الشهيق الأنين الشديد المرتفع جدا بمنزله آخر صوت الحمار و عن ابن عباس قال يريد ندامه و نفسا عاليا و بكاء لا ينقطع «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» اختلف العلماء فى تأويل هذا فى الآيتين و هما من المواضع المشكله فى القرآن و الإشكال فيه من وجهين (أحدهما) تحديد الخلود بمداه دوام السماوات و الأرض (و الآخر) معنى الاستثناء بقوله «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» فالأول فيه أقوال (أحدها) أن المراد ما دامت السماوات و الأرض مبدلتين أى ما دامت سماء الآخرة و أرضها

و هما لا يفنيان إذا أعيدا بعد الإفناء عن الضحاك و الجبائي (و ثانيها) أن المراد ما دامت سماوات الجنه و النار و أرضهما و كل ما علاك فأظلك فهو سماء و كل ما استقر عليه قدمك فهو أرض و هذا مثل الأول أو قريب منه (و ثالثها) أن المراد ما دامت الآخرة و هي دائمه أبدا كما أن دوام السماء و الأرض في الدنيا قدر مدته بنائها عن الحسن (و رابعها) أنه لا يراد به السماء و الأرض بعينها بل المراد التباعد فإن للعرب ألفاظا للتباعد في معنى التأييد يقولون لا أفعل ذلك ما اختلف الليل و النهار و ما دامت السماء و الأرض و ما نبت النبت و ما أظت الإبل و ما اختلف الجره و الدره و ما ذر شارق و في أشباه ذلك كثره ظنا منهم أن هذه الأشياء لا- تتغير و يريدون بذلك التأييد لا- التوقيت فخطبهم سبحانه بالمتعارف من كلامهم على قدر عقولهم و ما يعرفون قال عمرو بن معديكرب:

و كل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

و قال زهير:

ألا لا أرى على الحوادث باقيا و لا خالدا إلا الجبال الرواسيا

و إلا السماء و النجوم و ربنا و أيامنا معدوده و اللياليا

لأنه توهم أن هذه الأشياء لا تفنى و تخلد و أما الكلام في الاستثناء فقد اختلف فيه أقوال العلماء على وجوه (أحدها) أنه استثناء في الزيادة من العذاب لأهل النار و الزيادة من النعيم لأهل الجنه و التقدير إلا ما شاء ربك من الزيادة على هذا المقدار كما يقول الرجل لغيره لى عليك ألف دينار إلا الألفين اللذين أقرضتكهما وقت كذا فالألفان زياده على الألف بغير شك لأن الكثير لا- يستثنى من القليل عن الزجاج و الفراء و على بن عيسى و جماعه و على هذا فيكون إلا بمعنى سوى أى سوى ما شاء ربك كما يقال ما كان معنا رجل إلا زيد أى سوى زيد (و ثانيها) أن الاستثناء واقع على مقامهم في المحشر و الحساب لأنهم حينئذ ليسوا في جنه و لا نار و مدته كونهم في البرزخ الذى هو ما بين الموت و الحياه لأنه تعالى لو قال خالد بن خالد فيها أبدا و لم يستثن لظن الظان أنهم يكونون في النار و الجنه من لدن نزول الآيه أو

من بعد انقطاع التكليف فحصل للاستثناء فائده عن المازنى وغيره واختاره البلخى فإن قيل كيف يستثنى من الخلود فى النار ما قبل الدخول فيها فالجواب أن ذلك جائز إذا كان الإخبار به قبل دخولهم فيها (و ثالثها) أن الاستثناء الأول يتصل بقوله «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيْقٌ» و تقديره إلا ما شاء ربك من أجناس العذاب الخارجة عن هذين الضريين و لا يتعلق الاستثناء بالخلود و فى أهل الجنة يتصل بما دل عليه الكلام فكأنه قال لهم فيها نعيم إلا ما شاء ربك من أنواع النعيم و إنما دل عليه قوله «عَطَاءٌ غَيْرَ مَحْدُوذٍ» عن الزجاج (و رابعها) أن يكون إلا بمعنى الواو أى و ما شاء ربك من الزيادة عن الفراء و استشهد على ذلك بقول الشاعر:

و أرى لها دارا بأغدره السيدان لم يدرس لها رسم

إلا رمادا هامدا دفعت عنه الرياح خوالد سحم

قال و المراد بإلا الواو هاهنا و إلا كان الكلام متناقضا و هذا القول قد ضعفه محققو النحويين (و خامسها) أن المراد ب «الَّذِينَ شَقُّوا» من أدخل النار من أهل التوحيد الذين ضموا إلى إيمانهم و طاعتهم ارتكاب المعاصى فقال سبحانه أنهم معاقبون فى النار إلا- ما شاء ربك من إخراجهم إلى الجنة و إيصال ثواب طاعتهم إليهم و يجوز أن يريد ب «الَّذِينَ شَقُّوا» جميع الداخلين إلى جهنم ثم استثنى بقوله «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» أهل الطاعات منهم ممن استحق الثواب و لا بد أن يوصل إليه و تقديره إلا ما شاء ربك أن يخرج به بتوحيده من النار و يدخله الجنة و قد يكون ما بمعنى من قال سبحانه سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ* و قالت العرب عند سماع الرعد سبحان ما سبحت له و أما فى أهل الجنة فهو استثناء من خلودهم أيضا لما ذكرناه لأن من ينقل إلى الجنة من النار و خلد فيها لا بد فى الإخبار عنه بتأييد خلوده أيضا من استثناء ما تقدم فكأنه قال خالد بن خالد فى قوله «ما شاء ربك» هاهنا على بابه و الاستثناء من الزمان و الاستثناء فى الأول من الأعيان و «الَّذِينَ شَقُّوا» على هذا القول هم الذين سعدوا بأعيانهم و إنما أجرى عليهم كل لفظ فى الحال الذى تليق به فإذا أدخلوا النار و عوقبوا فيها فهم من أهل الشقاء و إذا نقلوا منها إلى الجنة فهم من أهل السعادة و هذا قول ابن عباس و جابر بن عبد الله و أبى سعيد الخدرى و قتاده و السدى و الضحاك و جماعه من المفسرين و روى أبو روق عن الضحاك عن

ابن عباس قال «الَّذِينَ شَقُّوا» ليس فيهم كافر وإنما هم قوم من أهل التوحيد يدخلون النار بذنوبهم ثم يتفضل الله عليهم فيخرجهم من النار إلى الجنة فيكونون أشقياء في حال سعادة في حال أخرى وقال قتاده الله أعلم بمشيئته ذكر لنا أن ناسا يصيبهم سفع من النار بذنوبهم ثم يدخلهم الله الجنة برحمته يسمون الجهنميين وهم الذين أنفذ فيهم الوعيد ثم أخرجوا بالشفاعة قال و

حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله ص قال يخرج قوم من النار قال و لا تقول ما يقوله أهل حروراء

و هذا القول هو المختار المعول عليه (و سادسها) أن تعليق ذلك بالمشيئة على سبيل التأكيد للخلود و التباعد للخروج لأن الله تعالى لا يشاء إلا تخليدهم على ما حكم به فكأنه تعليق لما لا يكون بما لا يكون لأنه لا يشاء أن يخرجهم منها (و سابعها) ما قاله الحسن أن الله سبحانه استثنى ثم عزم بقوله «إِنَّ رَبُّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ» أنه أراد أن يخلدهم و قريب منه ما قاله الزجاج و غيره أنه استثناء تستثنيه العرب و تفعله كما تقول و الله لأضربن زيدا إلا أن أرى غير ذلك و أنت عازم على ضربه و المعنى فى الاستثناء على هذا إنى لو شئت أن لا أضربه لفعلت (و ثامنها) قال يحيى بن سلام البصرى أنه يعنى بقوله «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» ما سبقهم به الذين دخلوا قبلهم من الفريقين و احتج بقوله تعالى وَ سَيَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا و سَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا قال إن الزمره تدخل بعد الزمره فلا بد أن يقع بينهما تفاوت فى الدخول و الاستثناء أن على هذا من الزمان (و تاسعها) أن المعنى خالدون فى النار دائمون فيها مده كونهم فى القبور ما دامت السماوات و الأرض فى الدنيا و إذا فنيتا و عدمتا انقطع عقابهم إلى أن يبعثهم الله للحساب و قوله «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» استثناء وقع على ما يكون فى الآخرة أورده الشيخ أبو جعفر قدس الله روحه و قال ذكره قوم من أصحابنا فى التفسير (و عاشرها) أن المراد إلا ما شاء ربك أن يتجاوز عنهم فلا يدخلهم النار و الاستثناء لأهل التوحيد عن أبى مجلز قال هى جزاؤهم و إن شاء سبحانه تجاوز عنهم و الاستثناء يكون على هذا من الأعيان «وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا» أى سعدوا بطاعه الله و انتهائهم عن المعاصى «فَفِي الْجَنَّةِ» يكونون فى الجنة «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ» أى مده دوام السماوات و الأرض «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ» يتأتى فيه جميع ما ذكرناه فى الاستثناء من الخلود فى النار إلا ما مضى ذكره من جواز إخراج بعض الأشقياء من تناول الوعيد لهم و إخراجهم من النار بعد دخولهم فيها فإن ذلك لا يتأتى هاهنا لإجماع الأمة على أن من استحق الثواب فلا بد أن يدخل الجنة و أنه لا يخرج منها بعد دخوله فيها «عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُودٍ» أى غير مقطوع.

إشارة

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْزِمُ عُقْبَانُ مَا يَعْزِمُونَ إِلَّا كَمَا يُعْزِمُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيحَتَهُمْ غَيْرِ مَنْقُوصٍ (۱۰۹) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۱۰) وَ إِن كُلاًّ لَمَّا لِيُوفِّيَهُمْ رَبُّكَ أَغْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۱۱) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱۲)

القراءة

قرأ أبو جعفر و ابن عامر و حمزه و حفص «وَ إِن كُلاًّ لَمَّا» بتشديد النون و الميم وقرأ أهل البصرة و الكسائي و خلف «وَ إِن كُلاًّ» بتشديد النون لما بتخفيف الميم وقرأ نافع و ابن كثير و إن كلا خفيفه النون لما خفيفه الميم وقرأ أبو بكر عن عاصم و إن كلا خفيفه النون «لَمَّا» مشدده الميم و في الشواذ قراءة الزهري و سليمان بن أرقم لما بالتثنية و قراءة ابن مسعود و إن كل بالرفع إلا ليوفينهم.

الحج

قال أبو علي من قرأ و إن كلا- لما بتشديد إن و تخفيف لما فوجه بين و هو أنه نصب كلا- بأن و أن يقتضى أن يدخل على خبرها أو اسمها لام فدخلت هذه اللام و هي لام الابتداء على الخبر في قوله «لَمَّا» و قد دخلت في الخبر لام الأخرى و هي التي تلقى بها القسم و يختص بالدخول على الفعل و يلزمها في أكثر الأمر إحدى النونين فلما اجتمعت اللامان و اتفقتا في تلقى القسم و افقتا في اللفظ فصل بينهما بما كما فصلوا بين إن و اللام فدخلت ما لهذا المعنى و إن كانت زائده لتفصل كما جلبت النون و إن كانت زائده في نحو فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا و كما صارت عوضاً من الفعل في قولهم إما لا بالإماله و في قوله:

أبا خراشه أما أنت ذا نفر فإن قومي لم يأكلهم الضبع

و يلي هذا الوجه في البيان قول من خفف إن و نصب كلا و خفف لما قال سيبويه حدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول أن عمرا لمنطلق قال و أهل المدينة يقرءون و إن كلا لما جميع لدينا محضرون يخففون و ينصبون كما قالوا:

" كأن ثدييه حقان "

و وجه النصب بها مع التخفيف من القياس أن إن مشبهه في نصبها بالفعل و الفعل يعمل محذوفا كما يعلم غير محذوف و ذلك في نحو لم يك زيد منطلقا «فلا- تكُ في مزيه» و كذلك لا- أدر فأما من خفف أن و نصب كلا و ثقل لما فقراءته مشكله و ذلك أن إن إذا نصب بها و إن كانت مخففه كانت بمنزلتها مثقله و لما إذا شددت كانت بمنزله إلا و كذلك قراءه من شدد لما و ثقل أن مشكله و ذلك أن إن إذا ثقلت و إذا خففت و نصب بها فهي في معنى الثقيله فكما لا يحسن تثقيب إن زيدا إلا منطلق كذلك لا- يحسن تثقيب إن و تثقيب لما فأما مجىء لما في قولهم نشدتك الله لما فعلت و إلا فعلت فقال الخليل الوجه لتفعلن كما تقول أقسمت عليك لتفعلن و أما دخول إلا و لما فلأن المعنى الطلب فكأنه أراد ما أسألك إلا فعل كذا و لم يذكر حرف النفي في اللفظ و إن كان مرادا كما جاء في قولهم شر أهر ذا ناب أى ما أهره إلا شر و ليس فى الآيه معنى نفي و لا طلب فإن قال قائل لمن ما فإدغم النون فى الميم بعد ما قبلها ميمًا فإن ذلك لا يسوغ ألا ترى أن الحرف المدغم إذا كان قبله ساكن نحو قوم مالك لم يقو الإدغام فيه على أن يحرك الساكن الذى قبل الحرف المدغم فإذا لم يجز ذلك فيه و كان التغيير أسهل من الحذف فإن لا يجوز الحذف الذى هو أذهب فى باب التغيير من تحرك الساكن أجدد على أن فى هذه السوره ميمات اجتمعت فى الإدغام أكثر مما كان يجتمع فى لمن ما و لم يحذف منها شىء و ذلك قوله على أمم مَمَّنْ مَعَكَ فإذا لم يحذف شىء من هذا فإن لا يحذف ثم أجدد و قد روى أنه قد قرأ و إن كلا لما منونا كما قال وَ تَأْكُلُونَ الثُّرَاثَ أَكْلًا لَمَّا فوصف بالمصدر فإن قال أن لما فيمن ثقل إنما هو لما هذه وقف عليها بالألف ثم أجرى فى الوصل مجرى الوقف فذلك مما يجوز فى الشعر و وجه الإشكال فيه أبين من هذا الوجه و قد حكى عن الكسائى أنه قال لا أعرف وجه التثقيب فى لما و لم يبعد فيما قال و لو خفف مخفف أن و رفع كلا- بعدها لجاز تثقيب لما مع ذلك على أن يكون المعنى ما كل إلا ليوفينهم فيكون ذلك كقوله وَ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا و لكان ذلك أبين من النصب فى كل و التثقيب للما و ينبغى أن يقدر المضاف إليه كل نكره ليحسن وصفه بالنكره و لا يقدر إضافته إلى معرفه فيمتنع أن يكون لما و صفاله و لا يجوز أن يكون حالا لأنه لا شىء فى الكلام عاملا فى الحال هذا كله كلام

أبى على و قال غيره فى معنى لما بالتشديد أربعة أوجه (أحدها) قول الفراء أنها بمعنى لمن ما فحذفت إحدى الميمات الثلاث على ما تقدم ذكره و أنشد الفراء:

و إنى لما أصدر الأمر وجهه إذا هو أعيأ بالسبيل مصادره.

(و الثانى) أنها بمعنى إلا كقولهم سألتك لما فعلت بمعنى إلا فعلت عن الزجاج و قال الفراء هذا لا يجوز إلا فى اليمين كما قاله أبو على (و الثالث) أنها مخففه شددت للتأكيد عن المازنى قال الزجاج هذا لا- يجوز لأنه إنما يجوز تخفيف المشدد عند الضروره فأما تشديد المخفف فلا يجوز بحال (و الرابع) أنها من لمت الشىء إذا جمعته إلا أنها بنيت على فعلى فلم تصرف مثل ترى فكأنه قال و إن كلا- جميعا ليوفينهم و يدل عليه قراءة الزهرى لما بالتنوين و قال ابن جنى تقديره هذا و إن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم لما أى توفيه جامعه لأعمالهم جميعا و محصلا لأعمالهم تحصيلا فهو كقولك قياما لأقومن و ذكر الشيخ على ابن أبى الطيب رحمه الله عليه فيه وجهها آخر فقال هاهنا محذوف و تقديره و إن كلا لما عملوا ليوفينهم ربك أعمالهم و الحذف فى الكلام كثير قال الشاعر:

إذا قلت سيروا إن ليلي لعلها جرى دون ليلي مائل القرن أعضب

و المراد لعلها تلقانى أو تصلنى أو نحو هذا فهذا وجه خامس فأما إذا خفت إن فانتصاب كلا مع حمل أن على النفى مشكل و قد ذكر فيه أن يكون التقدير و إن هم إلا ليوفينهم كلا أو و إن هم أعنى كلا إلا ليوفينهم و هذان الوجهان مرغوب عنهما و على الجملة فإن تشديد الميم من لما مع تشديد إن و تخفيفه مشكل عند المحققين إذ لا يتأتى فى لما هذه معنى لم و لا معنى الحين و لا معنى إلا و لا يعرف لها معنى سوى هذه و من قرأ و إن كل إلا ليوفينهم فمعناه ما كل إلا و الله ليوفينهم كقولك ما زيد إلا لأضربنه أى ما زيد إلا مستحق لأن يقال فيه هذا و يجوز أن يكون مخففه من الثقيله و إلا زائده كما فى قول الشاعر:

أرى الدهر إلا منجنونا بأهله و ما طالب الحاجات إلا معللا

أى أرى الدهر منجنونا بأهله و على ذلك تأولوا بيت ذى الرمه:

حراجيج ما تنفك إلا مناخه على الخسف أو يرمى بها بلدا قفرا

اللغة

المريه بكسر الميم و ضمها الشك مع ظهور الدلالة للتهمه و هى مأخوذه من مرى ضرع الناقه ليدر بعد دروره و النصيب الحظ و هو القسم المجمعول له و منه أنصاء الورثه و الاختلاف ذهاب كل واحد إلى جهه غير جهه الآخر و هو على وجهين اختلاف النقيضين و هذا لا يجوز أن يصحبا معا فإن أحدهما مبطل لصاحبه و الآخر اختلاف الجنسين كاختلاف المجتهدين فى جهه القبله فهذا يجوز أن يصحبا معا و الاستقامه الاستمرار فى جهه واحده و أن لا يعدل يمينا و شمالا و الطغيان تجاوز المقدار فى الفساد.

الإعراب

«وَمَنْ تَابَ» موصول و وصله فى موضع رفع بالعطف على الضمير المستكن فى استقم و يجوز أن يكون معطوفا على التاء من أمرت و يكون التقدير فى الأول استقم أنت و من تاب معك و فى الثانى كما أمرت أنت و من تاب معك و يجوز أن يكون من تاب منصوب الموضع بكونه مفعولا معه.

المعنى

«فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ» أى فى شك «مِمَّا يَعْبُدُ هُوَ لَا» من دون الله تعالى أنه باطل و أنهم يصيرون بعبادتهم إلى عذاب النار «مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ» يعنى ما يعبدون غير الله تعالى إلا على جهه التقليد كما كان آباؤهم كذلك «وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصَبِيهِمْ» أى إنا لمعطوهم جزاء أعمالهم و عقاب أعمالهم و افياء «عَتِيرَ مَنْقُوصٍ» عن مقدار ما استحقوه آيسهم سبحانه بهذا القول عن العفو و قيل معناه أنا نعطيهم ما يستحقونه من العقاب بعد أن نوفيهم ما حكمنا لهم به من الخير فى الدنيا عن ابن زيد «وَلَقَدْ آتَيْنَا» أى أعطينا «مُوسَى الْكِتَابَ» يعنى التوراه «فَاخْتَلَفَ فِيهِ» يريد أن قومه اختلفوا فيه أى فى صحه الكتاب الذى أنزل عليه و أراد بذلك تسليه النبى ص عن تكذيب قومه إياه و جردهم للقرآن المنزل عليه فبين أن قوم موسى كذلك فعلوا بموسى فلا تحزن لذلك و لا تغتم له «وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» أى لو لا خبر الله السابق بأنه يؤخر الجزاء إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من المصلحه «لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ» أى لعجل الثواب و العقاب لأهله و قيل معناه لفصل الأمر على التمام بين المؤمنين و الكافرين بنجاه هؤلاء و هلاك أولئك «وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ» يعنى إن الكافرين لفى شك من وعده الله و وعيده مرير و الريب أقوى الشك و قيل معناه إن قوم موسى لفى شك من نبوته «وَإِنَّ كُلاًّ» من الجاحدين و المخالفين و قيل إن كلا من الفريقين المصدق و المكذب جميعا «لَمَّا لَيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ» أى يعطيهم ربك جزاء أعمالهم و افياء تاما إن خيرا فخير و إن شرا فشر «إِنَّهُ بِمَا

يَعْمَلُونَ خَيْرًا» يعنى إنه عليم بأعمالكم و بما استحققتم من الجزاء عليها لا يخفى عليه شىء من ذلك «فَأَسَدِ تَقِيمَ» يا محمد «كَمَا أُمِرْتُ» أى استقم على الوعد و الإنذار و التمسك بالطاعة و الأمر بها و الدعاء عليها و الاستقامه هو أداء الأمور به و الانتهاء عن المنهى عنه كما أمرت فى القرآن «وَمَنْ تَابَ مَعِيَ كُفِّرْتُ» أى و ليستقم من تاب معك من الشرك كما أمروا عن ابن عباس و قيل معناه و من رجع إلى الله و إلى نبيه فليستقم أيضا أى، فليستقم المؤمنون و قيل استقم أنت على الأداء و ليستقيموا على القبول «وَلَا تَطْغَوْا» أى لا تجاوزوا أمر الله بالزيادة و النقصان فخرجوا عن حد الاستقامه و قيل معناه و لا تطغينكم النعمه فخرجوا عن حد الاستقامه عن الجبائى و قيل معناه لا تعصوا الله و لا تخالفوه «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أى عليم بأعمالكم لا تخفى عليه منها خافيه و

روى الواحدى بإسناده عن إبراهيم بن أدهم عن مالك بن دينار عن أبى مسلم الخولانى عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ص لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا و صتمتم حتى تكونوا كالأوتاد ثم كان الاثنان أحب إليكم من الواحد لم تبلغوا حد الاستقامه

و قال ابن عباس ما نزل على رسول الله ص آيه كانت أشد عليه و لا أشق من هذه الآيه و لذلك

قال لأصحابه حين قالوا له أسرع إليك الشيب يا رسول الله شيبتنى هود و الواقعه.

النظم

وجه اتصال الآيه الأولى بما قبلها أنه لما قص نبأ الأمم و إهلاكهم بكفرهم أخبر عقيب ذلك عن بطلان ما كانوا عليه و أنه يوفيههم جزاء أعمالهم و قيل أنه سبحانه بين فيما قبل اختلاف الأمم على أنبيائهم تكذبا لهم ثم بين فى هذه الآيه أن خلاف هؤلاء كخلاف أولئك خلاف كفر لا خلاف اجتهاد عن أبى مسلم و كذلك اتصال الآيه الثانية فإنه بين فيها أن تكذيب هؤلاء الكفار بالذى آتيناك كتكذيب أولئك بالكتاب الذى آتيناه موسى.

ص: ٣٠٥

اشاره

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (١١٣) وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّتِهِ يَسْتَهْزِئُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)

القراءة

قرأ أبو جعفر «وَزُلْفًا» بضم اللام و الباقون بفتح اللام.

الحج

من قرأ زلفا بفتح اللام فإنه جمع زلفه و هي المنزلة قال العجاج:

ناج طواه الأين مما وجفا طى الليالى زلفا فزلفا

و من قرأ بضم اللام فإنه واحد مثل الحلم و جائز أن يكون جمعا على زليف من الليل فيكون مثل قريب و قرب قال الزجاج و الزلف بالفتح أجود فى الجمع و ما علمت أن زليفا يستعمل فى الليل و هو منصوب على الظرف.

اللغة

الركون إلى الشىء هو السكون إليه بالمحبه له و الإنصات إليه و نقيضه النفور عنه و الصبر حبس النفس عن الخروج إلى ما لا يجوز من ترك الحق و ضده العجز قال:

فإن تصبرا خيرا مغبه و إن تجزعا فالأمر ما تريان

و هو مأخوذ من الصبر المر لأنه يجرع مراره الحق بحبس النفس عن الخروج إلى المشتهى و مما يعين على الصبر شيان (أحدهما) العلم بما يعقب من الخير فى كل وجه و عاده النفس له (و الثانى) استشعار ما فى لزوم الحق من العز و الأجر بطاعه الله و البقيه ما بقى من الشىء بعد ذهابه و هو الاسم من الإبقاء و يقال فى فلان بقية أى فضل مما يمدح به و خير كأنه قيل بقية خير من الخير الماضى و أترفوا أى عودوا الترفه بالنعيم و اللذه و ذلك إن الترفه عاده النعمه قال:

تهدى رءوس المترفين الضداد إلى أمير المؤمنين الممتاد

أى المسئول و إنما قيل للمتعمم مترف لأنه مطلق له لا يمنع من تنعمه.

الإعراب

«فَتَمَسَّكُمْ» منصوب لأنه جواب النهى بالفاء و تقديره لا يكن منكم ركون إلى الظالمين فمس النار إياكم «ثُمَّ لَا تُنْصِرُونَ» ارتفع تنصرون على الاستئناف. «طَرَفِي النَّهَارِ» منصوب على الظرف و زلفا معطوف عليه. «إِلَّا قَلِيلًا» استثناء منقطع بمعنى لكن عن الزجاج تقديره لكن قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد.

المعنى

ثم نهى الله سبحانه عن المداهنة فى الدين و الميل إلى الظالمين فقال «وَلَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» أى و لا تميلوا إلى مشركين فى شىء من دينكم عن ابن عباس و قيل لا تداهنا الظلمة عن السدى و ابن زيد و قيل إن الركون إلى الظالمين المنهى عنه هو الدخول معهم فى ظلمهم و إظهار الرضا بفعالهم أو إظهار موالاتهم فأما الدخول عليهم أو مخالطتهم و معاشرتهم دفعا لشرهم فجائز عن القاضى و قريب منه ما

روى عنهم (عليه السلام) إن الركون الموده و النصيحة و الطاعة

«فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ» أى فيصيبكم عذاب النار «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» أى ما لكم سواه من أنصار يدفعون عنكم عذاب الله و فى هذا بيان أنهم متى خالفوا هذا النهى و سكنوا إلى الظالمين نالهم النار و لم يكن لهم ناصر يدفع عنهم عقوبه لهم على ذلك «ثُمَّ لَا تُنْصِرُونَ» أى لا تنصرون فى الدنيا على أعدائكم لأن نصر الله نوع من الثواب فيكون للمطيعين «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ» أى أدها و ائت بأعمالها على وجه التمام فى ركوعها و سجودها و سائر فروضها و قيل معناها أعملها على استواء و قيل آدم على فعلها «طَرَفِي النَّهَارِ وَ زُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ» قيل أراد بطرفى النهار صلاه الفجر و المغرب و بزلف من الليل صلاه العشاء الآخرة و الزلف أول ساعات الليل عن ابن عباس و ابن زيد قالوا و ترك ذكر الظهر و العصر لأحد أمرين إما لظهورهما فى أنهما صلاتا النهار فكأنه قال و أقم الصلاه طرفى النهار مع المعروفه من صلاه النهار و

إما لأنهما مذكورتان على التبع للطرف الأخير لأنهما بعد الزوال فهما أقرب إليه و قد قال سبحانه أقم الصَّلَاةَ لِتُدْلُواكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ دُلُوكِ الشَّمْسِ زَوَالِهَا وَ هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)

و قيل صلاه طرفى النهار الغداه و الظهر و العصر و صلاه زلف الليل المغرب و العشاء الآخرة عن الزجاج و به قال مجاهد و الضحاك و محمد بن كعب القرظى و الحسن قالوا لأن طرف الشىء من الشىء و صلاه المغرب ليست من النهار

قال الحسن قال رسول الله ص المغرب

و قيل أراد بطرفى النهار صلاه الفجر و صلاه العصر «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» قيل فى معناه إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب لأنه عرف الحسنات بالألف و اللام و قد تقدم ذكر الصلاه عن ابن عباس و أكثر المفسرين و

ذكر الواحدى بإسناده عن حماد بن سلمه عن على بن زيد عن أبى عثمان قال كنت مع سلمان تحت شجره فأخذ غصنا يابساً منها فهزه حتى تحات ورقه ثم قال يا أبا عثمان ألا تسألنى لم أفعل هذا قلت و لم تفعله قال هكذا فعله رسول الله ص و أنا معه تحت شجره فأخذ منها غصنا يابساً فهزه حتى تحات ورقه ثم قال ألا- تسألنى يا سلمان لم أفعل هذا قلت و لم فعلته قال إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحات خطاياهم كما يتحات هذا الورق ثم قرأ هذه الآية «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ» إلى آخرها

و بإسناده

عن أبى أمامه قال بينما رسول الله ص فى المسجد و نحن قعود معه إذ جاءه رجل فقال يا رسول الله إنى أصبت حدا فأقمه على فقال هل شهدت الصلاه معنا قال نعم يا رسول الله قال فإن الله قد غفر لك حدك أو قال ذنبك

و بإسناده

عن الحرث عن على بن أبى طالب (عليه السلام) قال كنا مع رسول الله ص فى المسجد ننتظر الصلاه فقام رجل فقال يا رسول الله إنى أصبت ذنبا فأعرض عنه فلما قضى النبى ص الصلاه قام الرجل فأعاد القول فقال النبى ص أ ليس قد صليت معنا هذه الصلاه و أحسنت لها الطهور قال بلى قال فإنها كفاره ذنبك

و

روى أصحابنا عن ابن محبوب عن إبراهيم الكرخى قال كنت عند أبى عبد الله (عليه السلام) إذ دخل عليه رجل من أهل المدينه فقال له من أين جئت ثم قال له تقول جئتك من هاهنا و هاهنا لغير معاش تطلبه و لا بعمل آخر تكسبه أنظر بما ذا تقطع يومك و ليلتك و اعلم أن معك ملكا كريما موكلا بك يحفظ عليك ما تصنع و يطلع على سررك الذى تخفيه من الناس فاستحيا لا تستحقرن سيئه فإنها ستسوؤك يوما و لا تحقرن حسنه و إن صغرت عندك و قلت فى عينك فإنها ستسرك يوما و اعلم أنه ليس شىء أضر عاقبه و لا أسرع ندامه من الخطيئه و أنه ليس شىء أشد طلبا و لا أسرع دركا للخطيئه من الحسنه أما إنها لتدرك الذنب العظيم القديم المنسى عند عامله فتجتذبه و تسقطه و تذهب به بعد إثباته و ذلك قول الله سبحانه «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ»

و

رووا عن أبى حمزه الثمالى قال سمعت أحدهما يقول إن عليا ع أقبل على الناس فقال آيه آيه فى كتاب الله أرجى عندكم

فقال بعضهم «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» الآية فقال حسنه و ليست إياها و قال بعضهم وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ قَالَ حسنه و ليست إياها و قال بعضهم «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» قال حسنه و ليست إياها و قال بعضهم «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً» الآية قال حسنه و ليست إياها قال ثم أحجم الناس فقال ما لكم يا معشر المسلمين فقالوا لا و الله ما عندنا شىء قال سمعت حبيبي رسول الله ص يقول أرجى آية في كتاب الله «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ» و قرأ الآية كلها قال يا على و الذى بعثنى بالحق بشيرا و نذيرا إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب فإذا استقبل الله بوجهه و قلبه لم يفتل و عليه من ذنوبه شىء كما ولدته أمه فإن أصاب شيئا بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتى عد الصلوات الخمس ثم قال يا على إنما منزله الصلوات الخمس لأمتي كنهر جار على باب أحدكم فما يظن أحدكم لو كان فى جسده درن ثم اغتسل فى ذلك النهر خمس مرات أ كان يبقى فى جسده درن فكذلك و الله الصلوات الخمس لأمتي

و قيل «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» معناه إن الدوام على فعل الحسنات يدعو إلى ترك السيئات فكأنها يذهبن بها و قيل إن المراد بالحسنات التوبة فإنها تذهب السيئات بأن تسقط عقابها لأنه لا خلاف فى أن العقاب يسقط عند التوبة «ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ» يعنى إن ما ذكره من إن الحسنات تذهب السيئات فيه تذكروا و موعظه لمن تذكروا به و فكر فيه «وَ اصْبِرْ» قيل معناه اصبر على الصلاة كما قال وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اصْبِرْ عَلَيْهَا «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» أى المصلين عن ابن عباس و قيل معناه اصبر يا محمد على أذى قومك و تكذيبهم إياك و على القيام بما افترضته عليك و على أداء الواجبات و الامتناع عن المقبحات فإن الله لا يهمل جزاء المحسنين على إحسانهم و لا يبطله بل يكافئهم عليه أكمل الثواب «فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ» أى هلا- كان و إلا كان و معناه النفى و تقديره لم يكن من القرون من قبلكم قوم باقون «يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ» أى كان يجب أن يكون منهم قوم بهذه الصفة مع إنعام الله تعالى عليهم بكمال العقل و بعثه الرسل إليهم و إقامة الحجج لهم و هذا تعجب و توبيخ لهؤلاء الذين سلكوا سبيل من قبلهم فى الفساد نحو عاد و ثمود و القرون التى عدها القرآن و أخبر بهلاكها أى إن العجب منهم كيف لم تكن من جملتهم بقيه فى الأرض يأمرون فيها بالمعروف و ينهون عن المنكر و كيف اجتمعوا على الكفر حتى استأصلهم الله بالعذاب و أنواع العقوبات لكفرهم بالله و معاصيهم له و قيل «أُولُوا بَقِيَّةٍ» معناه ذوو دين و خير و قيل معناه ذوو بركة و قيل ذوو تمييز و طاعة «إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ» المعنى إن قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد و هم الأنبياء و الصالحون الذين آمنوا مع الرسل فأنجيناهم من العذاب

الذى نزل بقومهم و إنما جعلوا هذا الاستثناء منقطعاً لأنه إيجاب لم يتقدم فيه صيغته النفي و إنما تقدم تهجين خرج مخرج السؤال و لو رفع لجاز فى الكلام «وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ» أى و اتبع المشركون ما عودوا من النعم و التمتع و إثارة اللذات على أمور الآخرة و اشتغلوا بذلك عن الطاعات «وَ كَانُوا» أى و كان هؤلاء المتعمون البطرون «مُجْرِمِينَ» مصرين على الجرم و فى الآيه دلالة على وجوب النهى عن المنكر لأنه سبحانه ذمهم بترك النهى عن الفساد و أخبر بأنه أنجى القليل منهم لنهيهم عن ذلك و نبه على أنه لو نهى الكثير كما نهى القليل لما هلكوا ثم أخبر سبحانه أنه لم يهلك إلا بالكفر و الفساد فقال «وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلِهَا مُصِيبِحُونَ» و ذكر فى تأويله و جوه (أحدها) إن المعنى و ما كان ربك ليهلك القرى بظلم منه لهم و لكن إنما يهلكهم بظلمهم لأنفسهم كما قال إنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً الْآيَةَ (و ثانيها) إن معناه لا يؤاخذهم بظلم واحد منهم مع أن أكثرهم مصلحون و لكن إذا عم الفساد و ظلم الأكترون عذبهم (و ثالثها) أنه لا يهلكهم بشركهم و ظلمهم لأنفسهم و هم يتعاطون الحق بينهم أى ليس من سبيل الكفار إذا قصدوا الحق فى المعاملة أن يهلكهم الله بالعذاب عن ابن عباس فى روايه عطا و الواو فى قوله «وَ أَهْلِهَا» واو الحال و

روى عن النبى ص أنه قال «وَ أَهْلِهَا مُصِيبِحُونَ» ينصف بعضها بعضهم.

النظم

وجه اتصال قوله تعالى «فَلَوْ لَا - كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ» الآيه بما قبلها أنه تعالى لما ذكر إهلاك الأمم الماضيه و القرون الخاليه عقب ذلك بأنهم أتوا فى إهلاكهم من قبل نفوسهم و لو كان فيهم مؤمنون يأمرن بالصلاح و ينهون عن الفساد لما استأصلناهم رحمه منا و لكنهم لما عمهم الكفر استحقوا عذاب الاستئصال.

إشارة

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَ لِيَذَلِّكَ خَلْقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَ كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مَن أَنبَأَ الرُّسُلَ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَ انْتِظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢)

وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

القراءة

قرأ «يُرْجَعُ الْأُمُورُ» بضم الياء وفتح الجيم و كسرهما نافع و حفص و الباقون يرجع بفتح الياء وقرأ عما تعملون بالتاء هنا و في آخر النمل أهل المدينة و الشام و يعقوب و حفص و الباقون بالياء.

الحج

من ضم الياء من «يُرْجَعُ» فلقوله «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ» و المعنى رد أمرهم إلى الله و من فتح الياء فلقوله «وَ الْأُمُورُ يُؤْمِنُونَ» و المعنيان متقاربان و من قرأ بالتاء في «تَعْمَلُونَ» جعل الخطاب للنبي ص و أمته و هو أعم فائده و من قرأ بالياء وجهه إلى من تقدم ذكره من الكفار و فيه ضرب من التهديد.

اللغة

القصص الخبر عن الأمور بما يتلو بعضه بعضا لأنه من قصه يقصه إذا اتبع أثره لأنه يتبع أثر من يخبر عنه و النبأ الخبر بما فيه عظيم الشأن يقولون لهذا الأمر نبأ و التثيت تمكين إقامة الشيء من الثبوت يقال ثبته بتسكينه و ثبته بتمكينه و ثبته بالدلالة على ثبوته و ثبته بالخبر عن وجوده و الفؤاد القلب مأخوذ من المفتاد و هو المشوى قال:

كأنه خارجا من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتاد

و المكانة الطريقة التي يتمكن من العمل عليها و له مكانه عند السلطان أى جاه و قدر و الانتظار طلب الإدراك لما يأتى من الأمر لأنه من النظر و الفرق بين الانتظار و الترجى أن الترجى للخير خاصة و الانتظار فى الخير و الشر.

الإعراب

«إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ» قال الزجاج هو استثناء على معنى لكن و تقديره لكن من رحم ربك فإنه غير مختلف و قوله «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» جواب القسم و تقديره يمينا لأملأن كما تقول حلفى لأضربنك و بدالى لأضربك و كل فعل كان تأويله كتأويل بلغنى أو قيل لى أو انتهى إلى فإن اللام و إن يصلحان فيه فتقول بدالى لأضربنك و بدالى أن أضربك و لو قيل

و تمت كلمه ربك أن يملأ جهنم كان صوابا و «كَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ» نصب على المصدر و تقديره و كل القصص نقص عليك و قيل أنه نصب على الحال فقدم الحال قبل العامل كما تقول كلا ضربت القوم و يجوز أن يكون نصبا على أنه مفعول به و تقديره و كل الذى يحتاج إليه نقص عليك و يكون «مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ» بدلا منه قاله الزجاج و قوله «إِنَّا عَامِلُونَ» «إِنَّا مُتَتَبِرُونَ» لو دخلت الفاء فقال فإننا لأفاد أن الثانى لأجل الأول و حيث لم يدخل لم يفد ذلك.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن كمال قدرته فقال «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً» أى على مله واحده و دين واحد فيكونون مسلمين صالحين عن قتاده و ذلك بأن يلجئهم إلى الإسلام بأن يخلق فى قلوبهم العلم بأنهم لو راموا غير ذلك لمنعوا منه لكن ذلك ينافى التكليف و يبطل الغرض بالتكليف لأن الغرض به استحقاق الثواب و الإلجاء يمنع من استحقاق الثواب فلذلك لم يشأ الله ذلك و لكنه شاء أن يؤمنوا باختيارهم ليستحقوا الثواب و قيل معناه لو شاء ربك لجعلهم أمه واحده فى الجنة على سبيل التفضل لكنه اختار لهم أعلى الدرجتين فكلفهم ليستحقوا الثواب عن أبى مسلم و قيل معناه لو شاء لرفع الخلاف فيما بينهم «وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ» فى الأديان بين يهودى و نصرانى و مجوسى و غير ذلك عن مجاهد و قتاده و عطا و الأعمش و الحسن فى إحدى الروايتين عنه و فى الروايه الأخرى عنه أنهم مختلفون فى الأرزاق و الأحوال و لتسخير بعضهم لبعض و قيل معناه يخلف بعضهم بعضا فى الكفر تقليدا من غير نظر فإن قولك خلف بعضهم بعضا و قولك اختلفوا سواء كما أن قولك قتل بعضهم بعضا و قولك اقتتلوا سواء عن أبى مسلم «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» من المؤمنين فإنهم لا- يختلفون و يجتمعون على الحق عن ابن عباس و المعنى لا- يزالون مختلفين بالباطل إلا من رحمهم الله بفعل اللطف لهم الذى يؤمنون عنده و يستحقون به الثواب فإن من هذه صورته ناج من الاختلاف بالباطل «وَلِإِذْ لَكَ خَلْقُهُمْ» اختلف فى معناه فقيل يريد و للرحمه خلقهم عن ابن عباس و مجاهد و قتاده و الضحاك و هذا هو الصحيح و اعترض على ذلك بأن قيل لو أراد الله ذلك لقال و لتلك خلقهم لأن الرحمه مؤنثه و هذا باطل لأن تأنيث الرحمه غير حقيقى فإذا ذكر فعلى معنى التفضل و الإنعام و قد قال سبحانه هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي وَإِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ و مثله قول امرئ القيس:

برهره روده رخصه كخز عوبه البانه المنفطر

و لم يقل المنفطره لأنه ذهب إلى الغصن و قال:

قامت تبكيه على قبره من لى من بعدك يا عامر

تركتنى فى الدار غربه قد ذل من ليس له ناصر

و لم يقل ذات غربه لأنه أراد شخصا ذا غربه.

و قالت الخنساء:

فذلك يا هند الرزیه فاعلمى و نيران حرب حين شب وقودها

أراد الرزء و فى أمثال ذلك كثره على أن قوله «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» كما يدل على الرحمه يدل أيضا على أن يرحم فلا يمتنع أن يكون المراد لأن يرحموا خلقهم و قيل إن المعنى و لاختلاف خلقهم و اللام للعاقبه يريد أن الله خلقهم و علم أن عاقبتهم تؤل إلى الاختلاف المذموم كما قال وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ عَنِ الْحَسَنِ وَ عَطَا وَ مَالِكٌ وَ لَا يَجُوزُ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ اللَّامُ لِلْغَرَضِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ مِنْهُمْ الْإِخْتِلَافَ الْمَذْمُومَ إِذْ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهُمْ لَكَانُوا مُطِيعِينَ لَهُ فِي ذَلِكَ الْإِخْتِلَافِ لِأَنَّ الطَّاعَةَ حَقِيقَتُهَا مُوَافَقَةُ الْإِرَادَةِ وَ الْأَمْرُ وَ لَوْ كَانُوا كَذَلِكَ لَمَا اسْتَحَقُّوا عِقَابًا وَ أَمَا إِذَا حَمَلَ مَعْنَى الْإِخْتِلَافِ عَلَى مَا قَالَهُ أَبُو مُسْلِمٍ فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اللَّامُ لِلْغَرَضِ وَ قِيلَ إِنَّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى اجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَ كَوْنِهِمْ فِيهِ أُمَّهُ وَاحِدَةٌ وَ لَا مَحَالَةَ أَنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ لِهَذَا خَلَقَهُمْ وَ يُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ وَ قَالَ الْمُرْتَضَى قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ قَدْ قَالَ قَوْمٌ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ أَنْ يَدْخُلَ النَّاسُ بِأَجْمَعِهِمُ الْجَنَّةَ فَيَكُونُوا فِي وَصُولِ جَمِيعِهِمْ إِلَى النِّعَمِ أُمَّهُ وَاحِدَةٌ لِفِعْلٍ وَ أَجْرُوا هَذِهِ الْآيَةَ مَجْرَى قَوْلِهِ وَ لَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى فِي أَنَّهُ أَرَادَ هُدًى إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ فَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَفْظُهُ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى إِدْخَالِهِمْ أَجْمَعِينَ الْجَنَّةَ لِأَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِلْمَصِيرِ إِلَيْهَا وَ الْوَصُولِ إِلَى نِعْمَتِهَا «وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ» أَيْ وَصَلَ وَحْيُهُ وَ وَعِيدُهُ الَّذِي لَا خَلْفَ فِيهِ بِتَمَامِهِ إِلَى عِبَادِهِ وَ قِيلَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صَدَقًا بِأَنَّ وَقَعَ مَخْبَرُهَا عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْجَبَائِثِ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ وَجِبَ قَوْلِ رَبِّكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ قِيلَ مَضَى حُكْمُ رَبِّكَ عَنِ الْحَسَنِ «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ» بِكُفْرِهِمْ «وَ كَلًّا» أَيْ وَ كَلَّ الْقَصَصِ «نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ» (أَيْ مِنْ أَخْبَارِهِمْ) «مَا نُبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ» أَيْ مَا نَقَوَى بِهِ قَلْبَكَ وَ نَطِيبُ بِهِ نَفْسَكَ وَ نَزِيدُكَ بِهِ ثَبَاتًا عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِنذَارِ وَ الصَّبْرِ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ الْكُفَّارِ «وَ جَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ» أَيْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ الْحَسَنِ وَ مُجَاهِدٍ وَ قِيلَ فِي هَذِهِ

الدنيا عن قتاده وقيل في هذا الأنباء عن الجبائي و الحق الصدق من الأنباء و الوعد و الوعيد و قيل معناه و جاءك في ذكر هذه الآيات التي ذكرت قبل هذا الموضع الحق في أن الخلق يجازون بانصباهم في قوله و إِنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيْبُهُمْ وَ إِنَّا كَلَّا لَمَّا لِيُؤْفِيْنَهُمْ و قد جاء في القرآن كله الحق و لكنه ذكرها هنا توكيدا و ليس إذا قيل قد جاءك في هذا الحق و جب أن يكون لم يأتك الحق إلا- فيه و لكن بعض الحق أو كسد من بعض عن الزجاج «وَ مَوْعِظَةٌ» أى و جاءك موعظه تعظ الجاهلين بالله و تزجر الناس عن المعاصى «وَ ذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» تذكرهم الآخرة «وَ قُلْ» يا محمد «لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ» هذا مثل قوله اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ «إِنَّا عَامِلُونَ» على ما أمرنا الله تعالى به و قد مر تفسير هذه الآية فيما مضى «وَ انْتِظِرُوا» أى توقعوا ما يعدكم ربكم على الكفر من العقاب «إِنَّا مُنْتَظِرُونَ» ما يعدنا على الإيمان من الثواب و قيل انتظروا ما يعدكم الشيطان من الغرور إنا منتظرون ما يعدنا ربنا من النصر و العلو عن ابن جريج «وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» معناه و لله علم ما غاب فى السماوات و الأرض لا يخفى عليه شىء منه عن الضحاك و قيل معناه و الله مالك ما غاب فى السماوات و الأرض و قيل معناه و لله خزائن السماوات و الأرض عن ابن عباس و وجدت بعض المشايخ ممن يتسم بالعدوان و التشنيع قد ظلم الشيعة الإمامية فى هذا الموضع من تفسيره فقال هذا يدل على أن الله سبحانه يختص بعلم الغيب خلافا لما تقول الرافضة أن الأئمة يعلمون الغيب و لا شك أنه عنى بذلك من يقول بإمامه الاثنى عشر و يدين بأنهم أفضل الأنام بعد النبى ص فإن هذا دأبه و ديدنه فيهم يشنع فى مواضع كثيرة من كتابه عليهم و ينسب الفضائح و القبائح إليهم و لا نعلم أحدا منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق فإنما يستحق الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا بعلم مستفاد و هذه صفة القديم سبحانه العالم لذاته لا يشركه فيها أحد من المخلوقين و من اعتقد أن غير الله سبحانه يشركه فى هذه الصفة فهو خارج عن مله الإسلام فأما ما نقل عن أمير المؤمنين ع و رواه عنه الخاص و العام من الإخبار بالغايات فى خطب الملاحم و غيرها مثل

قوله يومئذ به إلى صاحب الزنج كأنى به يا أحنف و قد سار بالجيش الذى ليس له غبار و لا لجب و لا قعقه لجم و لا سهيل خيل يثرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام و قوله يشير إلى مروان أما إن له إمره كلعقه الكلب أنفه و هو أبو الأ-كبش الأربعة و ستلقى الأمة منه و من ولده موتا أحمر

و ما نقل من هذا الفن عن أئمة الهدى ع من أولاده مثل

ما قاله أبو عبد الله (عليه السلام) لعبد الله بن الحسن و قد اجتمع هو و جماعه من العلوية و العباسية ليبايعوا ابنه محمدا و الله ما هى إليك و لا إلى ابنيك و لكنها لهم و أشار إلى العباسية و إن ابنيك

لمقتولان ثم نهض و توكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال له أ رأيت صاحب الرداء الأصفر يعنى أبا جعفر المنصور قال نعم فقال إنا والله نجده يقتله

فكان كما قال و مثل

قول الرضا (عليه السلام) بورك قبر بطوس و قبران ببغداد ف قيل له قد عرفنا واحدا فما الآخر فقال ستعرفونه ثم قال قبرى و قبر هارون هكذا و ضم إصبعيه

و

قوله فى القصة المشهوره لأبى حبيب النبأحى و قد ناوله قبضه من التمر لو زادك رسول الله ص لزدناك

و

قوله فى حديث على بن أحمد الوشاء حين قدم مرو من الكوفة معك حله فى السفط الفلانى دفعتهإ إليك ابنتك و قالت اشتر لى بثمانها فيروزجا

و الحديث مشهور إلى غير ذلك مما روى عنهم ع فإن جميع ذلك متلقى عن النبى ص مما أطلع الله عليه فلا معنى لنسبه من روى عنهم هذه الأخبار المشهوره إلى أنه يعتقد كونهم عالمين للغيب و هل هذا إلا سبب قبيح و تضليل لهم بل تكفير لا يرتضيه من هو بالمذاهب خبير و الله يحكم بينه و بينهم و إليه المصير «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ» أى إلى حكمه يرجع فى المعاد كل الأمور لأن فى الدنيا قد يملك غيره بعض الأمر و النهى و النفع و الضر «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» يريد أن من له ملك السماوات و الأرض و إليه يرجع جميع الأمور فحقيق أن يعبد و يتدلل له و يتوكل عليه و يوثق به «وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ» أى بساه «عَمَّا تَعْمَلُونَ» أى عن أعمال عباده بل هو عالم بها و مجاز كلا منهم عليها ما يستحقه من ثواب و عقاب فلا يحزنك يا محمد إعراضهم عنك و تركهم القبول منك و روى عن كعب الأخبار أنه قال خاتمه التوراه خاتمه هود.

ص: ٣١٥

(١٢) سورة يوسف مكيه و آياتها إحدى عشره و مائه (١١١)

إشارة

[توضيح]

مكيه و قال المعدل عن ابن عباس غير أربع آيات نزلن بالمدينه ثلاث من أولها و الرابعه «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ».

عدد آياتها

مائه و إحدى عشره آيه بالإجماع.

فضلها

أبى بن كعب عن النبى ص قال علموا أرقاء كم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها و علمها أهله و ما ملكت يمينه هون الله تعالى عليه سكرات الموت و أعطاه القوه أن لا يحسد مسلما

و

روى أبو بصير عن أبى عبد الله ع قال من قرأ سورة يوسف فى كل يوم أو فى كل ليله بعثه الله يوم القيامة و جماله مثل جمال يوسف و لا يصيبه فزع يوم القيامة و كان من خيار عباد الله الصالحين و قال فيها إنها كانت فى التوراه مكتوبه

و

روى إسماعيل بن أبى زياد عن أبى عبد الله عن أبيه عن آبائه ع قال قال رسول الله ص لا تنزلوا نساءكم فى الغرف و لا تعلموهن الكتابه و لا تعلموهن سورة يوسف و علموهن الغزل و سورة النور.

تفسيرها

لما ختم الله سبحانه سورة هود بذكر قصص أنباء الرسل افتتح هذه السوره بأن من تلك القصص قصه يوسف (عليه السلام) و إخوته و أنها من أحسن القصص فقال

ص: ٣١٦

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)

الإعراب

«قُرْآنًا عَرَبِيًّا» فيه وجهان (أحدهما) قرآنا انتصب بأنه بدل من الهاء في أنزلناه فكأنه قال إنا أنزلنا قرآنا (و الثاني) أنه توطئه للحال لأن عربيا حال و هذا كما تقول مررت بزيد رجلا- صالحا فتصب صالحا على الحال و تجعل رجلا توطئه للحال و قوله «بما أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ» القرآن نصب و إنه وصف لمعمول أوحينا و هو هذا أو بدل أو عطف بيان قال الزجاج و يجوز الجر و الرفع جميعا في الكلام و إن لم يقرأ بهما أما الجر فعلى البدل مما أوحينا إليك أي بهذا القرآن و أما الرفع فعلى ترجمه أوحينا إليك كان قائلا قال ما هو فقيل هذا القرآن.

المعنى

«الر» قد سبق الكلام فيه في أول البقره و إنما لم يعد آيه لأنه على حرفين و لا يشاكل رءوس الآي و عد طه آيه لأنه يشبه رءوس الآي «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ» قيل في معنى الإشاره بتلك وجوه (أحدها) أنه إشاره إلى ما سيأتي من ذكرها على وجه التوقع لها (و الثاني) أنه إشاره إلى السوره أي سوره يوسف آيات الكتاب المبين (و الثالث) أن معناه هذه الآيات تلك الآيات التي وعدتم بها في التوراه كما قال «الم ذَلِكَ الْكِتَابُ» عن الزجاج و «الْمُبِينِ» المظهر لحلال الله و حرامه و المعانى المراده فيه عن مجاهد و قتاده و المبين و المبين واحد و البيان هو الدلاله «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» يعنى القرآن أي أنزلنا هذا الكتاب و قيل أنزلنا خبر يوسف و قصته عن الزجاج قال لأن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر و عن قصه يوسف (عليه السلام) فقال «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» على مجارى كلام العرب في محاوراتهم و

روى ابن عباس عن النبي ص قال أحب العرب لثلاث لأنى عربى و القرآن عربى و كلام أهل الجنه عربى

«لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى لتعلموا جميع معانيه و تفهموا ما فيه و قيل معناه لتعلموا أنه من عند الله إذ كان عربيا و عجزتم عن الإتيان بمثله و فى هذه الآيه دلالة على أن كلام الله سبحانه محدث و أنه غير الله لأنه وصفه بالإنزال و بأنه عربى و لا يوصف بذلك القديم سبحانه «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» أى نبين لك أحسن البيان عن الزجاج و هذا كقولهم صمت أحسن الصيام و قمت أحسن القيام

مما يكون انتصابه على أنه قائم مقام المصدر فالمعنى نبين لك أحسن تبيين و أحسن إيضاح «بما أوحينا إليك» أى بوحينا إليك «هذا القرآن» و دخلت الباء لتبيين القصص إذ القصص تكون قرآنا و غير القرآن و القصص هاهنا بوحى القرآن و قيل إنما سمي القرآن أحسن القصص لأنه بلغ النهايه فى الفصاحه و حسن المعانى و عدوبه الألفاظ مع التلاؤم المنافى للتنافر و التشاكل بين المقاطع و الفواصل و قيل لأنه ذكر فيه أخبار الأمم الماضيه و أخبار الكائنات الآتية و جميع ما يحتاج إليه العباد إلى يوم القيامه بأعذب لفظ و تهذيب فى أحسن نظم و ترتيب و قيل أراد بأحسن القصص قصه يوسف وحدها لأنها تتضمن من الفوائد و النكت و الغرائب ما لا يتضمنه غيرها و لأنها تمتد امتداد لا يمتد غيرها مثله و قوله «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» يدل على أن الحسن يتفاضل و يتعاضم لأن لفظه أفعل حقيقتها ذلك و إنما يتعاضم بكثرة استحقاق المدح عليه و يسأل عن هذا فيقال هل يجوز أن يسمى الله سبحانه قاصا فيقال لا لأنه فى العرف إنما يستعمل فيمن تمسك بطريقه مخصوصه و هذا كما أنه سبحانه لا يسمى معلما و لا مفتيا و إن وصف نفسه بأنه علم القرآن و بأنه يفتيكم فى النساء و قوله «وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَلِيلٍ لِمَنْ الْغَافِلِينَ» معناه و ما كنت من قبل أن أوحينا إليك هذا القرآن أو من قبل نزول القرآن عليك إلا من الغافلين عن الحكم التى فى القرآن لا تعلم شيئا منها و قيل من الغافلين عن قصه يوسف و عن الحكم التى فيها.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٤ الى ٦]

إشارة

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

ص: ٣١٨

قرأ أبو جعفر و ابن عامر يا أبت بفتح التاء و الباقون بكسرهما و ابن كثير وقف على الهاء يا أبه و الباقون بالتاء و روى فى الشواذ عن أبى جعفر و نافع و طلحه بن سليمان أحد عشر بسكون العين و القراءه بفتحها و قرأ الكسائى إلا أبا الحرث و قتيبه بإماله رؤياك و الرؤيا فى جميع القرآن و روى أبو الحرث عنه فتح «رُؤْيَاكَ» و إماله الباقى و قتيبه أمال للرؤيا تعبرون فقط و قرأ خلف فى اختياره بإماله ما فيه ألف و لام و الباقون بالتفخيم و خفف الهمزه فى جميع ذلك أبو جعفر و ورش و شجاع و الترمذى إلا أن أبا جعفر يدغم الواو فى الياء فيجعلها ياء مشدده.

الحجه

قال الزجاج من قرأ «يا أبت» بكسر التاء فعلى الإضافه إلى نفسه و حذف الياء لأن ياء الإضافه تحذف فى النداء و أما إدخال تاء التأنيث فى الأب فإنما دخلت فى النداء خاصه و المذكر قد يسمى باسم فيه علامه التأنيث و يوصف بما فيه تاء التأنيث فالاسم نحو نفس و عين و الصفه نحو غلام يفعه و رجل ربه فلزمت التاء فى الأب عوضا من ياء الإضافه و الوقف عليها يا أبه بالهاء و إن كانت فى المصحف بالتاء و زعم الفراء أنك إذا كسرت و قفت بالتاء لا غير و إذا فتحت و قفت بالتاء و الهاء و لا فرق بين الكسر و الفتح و أما يا أبت بالفتح فعلى أنه أبدل من ياء الإضافه ألفا ثم حذفت الألف كما يحذف ياء الإضافه و بقيت الفتحه قال أبو على من فتح فله وجهان (أحدهما) أن يكون مثل يا طلحه أقبل و وجه قول من قال يا طلحه إن هذا النحو من الأسماء التى فيها تاء التأنيث أكثر ما يدعى مرخما فلما كان كذلك رد التاء المحذوفه فى الترخيم إليه و ترك الآخر يجرى على ما كان يجرى عليه فى الترخيم من الفتح فلم يعتد بالهاء و أقحمها و الوجه الآخر أن يكون أراد يا أبتا فحذف الألف كما يحذف التاء فتبقى الفتحه داله على الألف كما أن الكسره تبقى داله على الياء و الدليل على قوه هذا الوجه كثره ما جاءت هذه الكلمه على هذا الوجه كقول الشاعر:

" و هل جزع أن قلت و ابتاهما "

و قول الأعشى:

و يا أبتا لا تزل عندنا فإننا نخاف بأن تخترم

و قول رؤبه:

" يا أبتا عليك أو عساكا "

فلما كثرت هذه الكلمه فى كلامهم ألزموها القلب و الحذف على أن أبا عثمان قد رأى ذلك مطردا فى جميع هذا الباب و أما وقف ابن كثير على الهاء فلاذن التاء التى للتأنيث يبدل منها الهاء فى الوقف فيغير الحرف بذلك فى الوقف كما غير التنوين إذا انفتح ما قبله بأن أبدل منه الألف و من قرأ أحد عشر بسكون العين قال ابن جنى سبب ذلك عندى أن الاسمين لما جعلوا كالاسم الواحد و بنى الأول منهما لأنه كصدر

الاسم من عجزه جعل تسكين أول الثاني دليلاً على أنهما قد صارا كالاسم الواحد و كذلك بقيه العدد إلى تسعة عشر إلا اثني عشر و اثنتي عشر فإنه لا يسكن العين لسكون الألف و الياء قبلها قال الزجاج الرؤيا فيها أربع لغات رؤيا بالهمزة و روي بالواو من غير همز و ريا على الإدغام و ريا بكسر الراء قال أبو على الرؤيا مصدر كالشورى و السقيا و البقيا و الشورى إلا أنه لما صار اسماً لهذا التخيل فى المنام جرى مجرى الأسماء كما أن درا لما كثر فى كلامهم فى قولهم لله درك جرى مجرى الأسماء و خرج من حكم الأعمال فلا- يعمل واحد منهما أعمال المصادر و مما يقوى خروجه عن أحكام المصادر تكسيرهم لها رؤى فصار بمنزله ظلم و المصادر فى الأ- كثر لا- تكسر و الرؤيا على تحقيق الهمز فإن خفت قلبتها فى اللفظ واوا و لم تدغم الواو فى الياء و إن كانت قد تقدمتها ساكنه كما تقلب فى نحو طى ء و لى لأن الواو فى تقدير الهمزة فهى لذلك غير لازمه، فلا يقع الاعتداد بها و قد كسروا و لها قوم فقالوا ريا فهؤلاء قلبوا الواو قلباً على غير وجه التخفيف و من ثم كسروا الفاء كما كسروا من قولهم قرن ألى و قرون لى.

اللغة

الرؤيا تصور المعنى فى المنام على توهم الإبصار و ذلك أن العقل مغمور بالنوم فإذا تصور الإنسان المعنى توهم أنه يراه و الكيد طلب الحيلة و اللام فى «فَيَكِيدُوا لَكَ» لام التعديه كما تقول قدمت لك طعاماً و قدمت إليك طعاماً و شكرت لك و شكرتك يقال كاده يكيد كيدا و كاد له و الاجتباء اختيار معالى الأمور للمجتبى و أصله من جبيت الماء فى الحوض إذا جمعته.

الإعراب

تقدير العامل فى إذ يجوز أن يكون اذكر كأنه قال اذكر إذ قال يوسف قال الزجاج و يجوز أن يكون على نقص عليك إذ قال و قد غلط فى هذا لأن الله تعالى لم يقص على نبيه ص هذا القصص فى وقت قول يوسف (عليه السلام) و كوكبا منصوب على التمييز و قوله «رَأَيْتُهُمْ» كرر الرؤيه توكيدا و لأن الكلام قد طال و المعنى رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر لى ساجدين و لم يقل ساجدات لأنه لما وصف هذه الأشياء بالسجود كما يوصف الآدميون بذلك أجرى فعلها مجرى فعل العقلاء و كما قال «يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ» و موضع الكاف من قوله «وَ كَذَلِكَ» نصب و المعنى و مثل ما رأيت يجتبيك ربك و يعلمك.

المعنى

ثم ابتدأ سبحانه بقصه يوسف (عليه السلام) فقال «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ» يعقوب (عليه السلام) و هو إسرائيل الله و معناه عبد الله الخالص ابن إسحاق نبي الله بن إبراهيم خليل الله و

فى الحديث أن النبى ص قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن

«يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَ الشَّمْسَ وَ القَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» أى رأيت فى منامى قال ابن عباس إن يوسف (عليه السلام) رأى فى المنام ليله الجمعة ليله القدر أحد عشر كوكبا نزلن من السماء فسجدن له و رأى الشمس و القمر نزلا من السماء فسجدا له قال فالشمس و القمر أبواه و الكواكب إخوته الأحد عشر و قال السدى الشمس أبوه و القمر خالته و ذلك أن أمه راحيل قد ماتت و قال ابن عباس الشمس أمه و القمر أبوه و قال وهب كان يوسف رأى و هو ابن سبع سنين أن أحد عشر عصا طوالا- كانت مركوزه فى الأرض كهيئه الدائره و إذا عصا صغيره تثب عليها حتى اقتلعتها و غلبتها فوصف ذلك لأبيه فقال له إياك أن تذكر هذا لإخوتك ثم رأى و هو ابن اثنتى عشره سنه أن أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر سجدت لها فقصها على أبيه فقال له «لا تَقْضُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ» الآية و قيل أنه كان بين رؤياه و بين مصير أبيه و إخوته إلى مصر أربعون سنه عن ابن عباس و أكثر المفسرين و قيل ثمانون سنه عن الحسن و لما طال الكلام كرر رؤيتهم و أعاده للتأكيد و قيل أراد بالرؤيا الأولى رؤيه الأعيان و الأشخاص و بالرؤيه الثانيه رؤيه سجودهم و اختلف فى معنى هذا السجود فقيل إنه السجود المعروف على الحقيقه لتكرمه لا لعبادته و قيل معناه الخضوع له عن الجبائى كما قال الشاعر:

" ترى الأكم فيه سجدا للحوافر "

و هذا ترك الظاهر و يقال إن إخوته لما بلغهم رؤياه قالوا ما رضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه «قال» يعقوب «يا بُنَيَّ لا- تَقْضِصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ» أى لا تخبرهم بذلك «فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» أى فيحسدوك أو يقابلوك بما فيه هلاكك و ذلك أن رؤيا الأنبياء وحى و علم يعقوب أن إخوه يوسف يعرفون تأويلها و يخافون علو يوسف عليهم فيحسدونه و يبغونه الغوائل «إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» أى ظاهر العداوه فيلقى بينهم العداوه و يحملهم على إنزال المكروه بك «وَ كَذَلِكَ» أى كما أراك هذه الرؤيا تكرمه لك و بين أن إخوتك يخضعون لك أو يسجدون لك «يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ» أى يصطفيك ربك و يختارك للنبوه عن الحسن و قيل الحسن الخلق و الخلق «وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» قيل معناه و يعلمك من تعبير الرؤيا لأن فيه أحاديث الناس عن رؤياهم و سماه تأويلا- لأنه يؤول أمره إلى ما رأى فى المنام عن قتاده و قال ابن زيد كان أعب الناس للرؤيا و قيل معناه و يعلمك عواقب الأمور بالنبوه و الوحى إليك فتعلم الأشياء قبل كونها معجزه لك لأنه أضاف التعليم إلى الله و ذلك لا يكون إلا بالوحى عن أبى مسلم و قيل تأويل أحاديث الأنبياء و الأمم يعنى كتب الله و دلائله على توحيده و المشروع من شرائعه و أمور

دينه عن الحسن و الجبائي و التأويل في الأصل هو المنتهى الذى يؤول إليه المعنى و تأويل الحديث فقهه الذى هو حكمه لأنه إظهار ما يؤول إليه أمره مما يعتمد عليه و فائدته «وَأَيُّكُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ» بالنبوه لأنها منتهى نعيم الدنيا و قيل إتمام النعمة هو أن يحكم بدوامها على تخليصها من شائب بها فهذه النعمة التامة و خلوصها مما ينقصها و لا يطلب ذلك إلا من الله تعالى لأنه لا يقدر عليها سواه و قيل معناه و يتم نعمته عليك بأن يحوج إخوتك إليك حتى تنعم عليهم بعد إساءتهم إليك «وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ» أى و على إخوتك بأن يشبههم على الإسلام و يشرفهم بمكانك و يجعل فيهم النبوه و قيل يتم نعمته عليهم بإنقاذهم من المحن على يديك «كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبِيكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ» أى كما أتم النعمة على إبراهيم بالخلة و النبوه و النجاه من النار و على إسحاق بأن فداه عن الذبح بذبح عظيم عن عكرمه و قال إنه الذبيح و قيل بإخراج يعقوب و أولاده من صلبه عن أكثر المفسرين قالوا و ليس هو الذبيح و إنما الذبيح إسماعيل «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ» بمن يصلح للرساله «حَكِيمٌ» فى اختيار الرسل و قيل عليم بأحوال خلقه حكيم فى قضاياه.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٧ الى ١٠]

إشارة

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَتُهُ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعِيدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)

القراءة

قرأ ابن كثير آيه للسائلين و الباقون «آيات» و قرأ أهل المدينة غيابات الجب و الباقون «غِيَابَتِ الْجُبِّ» و فى الشواذ قراءة الأعرج غيابات مشدده و قراءة الحسن غيبه الجب و قرأ أهل المدينة و الكسائي مبين اقتلوا بضم التنوين و الباقون بالكسر.

الحج

قال أبو على من قرأ آيه على الأفراد جعل شأنه كله آيه و يقويه قوله وَ جَعَلْنَا

ابن مزيّم و أمّه آيّه فكل واحد منهما على انفراده يجوز أن يقال فيه آيه فأفرد مع ذلك و من جمع جعل كل حال من أحواله آيه على أن المفرد المنكر في الإيجاب يقع دالا على الكثرة كما يقع كذلك في غير الإيجاب قال الشاعر:

فقتلا بتقتيل و ضربا بضر بكم جزاء العطاش لا ينام من الثأر

و أما الغيايه فكل شىء غيب شيئا عن أبى عبيده و أنشد:

فإن أنا يوما غيبتنى غيايه فسيروا بسيرى فى العشيره و الأهل

و الجب الركيه التى لم تطو فمن أفرد فالوجه فيه أن الجب لا يخلو من أن يكون له غيايه واحده أو غيايات و غيايه المفرد يجوز أن يعنى به الجمع كما يعنى به الواحد و من جمع فإنه يجوز أن يكون له غيايه واحده فجعل كل جزء منها غيايه كقولهم شابت مفارقه و بئر ذو غيايتين و يجوز أن يكون للبئر عمده غيايات فجمع لذلك و أما غيايات بالتشديد فيكون اسما جاء على فعاله كما جاء التيار للموج و الفياد لليوم الذكر و الفخار للخزف و غير ذلك و أما غيايه فيجوز أن يكون حدثا على فعله من غاب فيكون بمعنى الظلمه و يجوز أن يكون موضعا على فعله و أما من ضم التنوين فلأنه التقى الساكنان التنوين و القاف فى اقتلوا و لزم تحريك الأول منهما فحركه بالضم ليتبع الضمه الضم كما قيل سر و مد و من كسر التنوين فإنه لم يتبع الضم كما أن من قال مد لم يتبع و كسر الساكن على ما يجرى عليه أمر تحريك الساكن فى الأمر الشائع.

اللغه

الآيه و العلامه و العبره نظائر و العصبه الجماعه التى يتعصب بعضها لبعض و يقع على جماعه من عشره إلى خمس عشر و قيل ما بين العشره إلى الأربعين و لا واحد له من لفظه كالقوم و الرهط و النفر و الفرق بين المحبه و الشهوه إن الإنسان يحب ولده و لا يشتهيه بأن يميل طبعه إليه و يرق عليه و يريد له الخير و الشهوه منازعه النفس إلى ما فيه اللذه و إنما سمي البئر جبا لأنه قطع عنها ترابها حتى بلغ الماء من غير طى و منه الم محبوب قال الأعشى:

و إن كنت فى جب ثمانين قامه و رقيت أسباب السماء بسلم

و كل ما غيب شيئا عن الحس بكونه فيه فهو غيايه فغيايه البئر شبه لحف أو طاق فوق ما

البئر و السياره الجماعه المسافرون لأنهم يسرون فى البلاد و قيل هم ماره الطريق و الالتقاط تناول الشىء من الطريق و منه اللقطه و اللقيط و معناه أن يجده من غير أن يحسبه يقال وردت الماء التقاطا إذا وردته من غير أن تحسبه.

الإعراب

العامل فى قوله «إِذْ قَالُوا» اذكر و تقديره اذكر إذ قالوا ليوسف و يحتمل أن يكون العامل فيه ما فى الآية التى قبله من قوله «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ» إذ قالوا و اللام فى قوله «لِيُؤَسِّفُ» جواب القسم تقديره و الله ليوسف و أخوه أحب إلى أبينا منا، «يَخْلُ لَكُمْ» جواب الأمر و «تَكُونُوا» جزم لأنه معطوف عليه و روى عن الحسن تلتقطه بعض السياره بالتاء و هذا كما يقال أذهبت بعض أصابعه و قال الشاعر:

طول الليالى أسرع فى نقضى طوين طولى و طوين عرضى

فقال أسرع و طوين لتأنيث الليالى و لم يحمله على طول و هو مذكر.

المعنى

ثم أنشأ سبحانه فى ذكر قصه يوسف فقال «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ» و معناه لقد كان فى حديث يوسف و إخوته عبر للسائلين عنهم و أعاجيب فمنها أنهم نالوه بالأذى و دبروا فى قتله و اجتمعوا على إلقاءه فى البئر للحسد مع أنهم أولاد الأنبياء فصفح عنهم ع لما مكنه الله منهم و أحسن إليهم و لم يعيرهم بما كان منهم و هذا خارج عن العاده و فيه عبره لمن اعتبر فيها فى منافع الدين و منها الفرج بعد الشده و المنحه بعد المحنه و منها الدلاله على صحه نبوه نبينا محمد ص لأنه (عليه السلام) لم يقرأ كتابا فعلم أنه لم يأت ذلك إلا من جهة الوحي فهو بصيره للذين سألوه أن يخبرهم بذلك و معجزه داله على صدقه و إخوته هم أولاد يعقوب و كان يعقوب اثنا عشر ولدا لصلبه و كانوا أولاد عله عن الجبائى و قيل أسماؤهم روبيل و هو أكبرهم و شمعون و لاوى و يهودا و ريالون و يشجر و أمهم ليا بنت ليان و هى ابنه خاله يعقوب ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف و بنيامين و قيل ابن يامين و ولد له من سريتين له اسم إحداهما زلفه و الأخرى بلهه أربعة بنين دان و نفتالى و حاد و آشر و كانوا اثني عشر ثم أخبر سبحانه عما قالت إخوه يوسف حين سمعوا منام يوسف و تأويل يعقوب إياه فقال «إِذْ قَالُوا» أى قال بعضهم لبعض «لِيُؤَسِّفَ وَأَخُوهُ» لأبيه و أمه بنيامين «أَحَبُّ إِلَيْنَا» يعقوب «مِنَّا» و ذلك أن يعقوب (عليه السلام) كان شديد الحب ليوسف و كان يوسف من أحسن الناس وجها و كان

يعقوب يؤثره على أولاده فحسدوه ثم رأى الرؤيا فصار حسدهم له أشد وقيل إنه (عليه السلام) كان يرحمه و آخاه و يقربهما لصغرهما فاستثقلوا ذلك و

روى أبو حمزه الثمالي عن زين العابدين (عليه السلام) أن يعقوب كان يذبح كل يوم كبشا فيتصدق به و يأكل هو و عياله منه و أن سائلا مؤمنا صواما اعتر باباه عشيه جمعه عند أوان إفطاره و كان مجتازا غربيا فهتف على بابه و استطعمهم و هم يسمعون فلم يصدقوا قوله فلما يئس أن يطعموه و غشيه الليل استرجع و استعبر و شكوا جوعه إلى الله تعالى و بات طاويا و أصبح صائما صابرا حامدا لله و بات يعقوب و آل يعقوب بطانا و أصبحوا و عندهم فضله من طعامهم فابتلاه الله سبحانه بيوسف (عليه السلام) و أوحى إليه أن استعد لبلاني و ارض بقضائي و اصبر للمصائب فرأى يوسف الرؤيا فى تلك الليلة

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة و روى ذلك عن ابن عباس أو قريب منه «و نَحْنُ عُصِيْبُهُ» معناه و نحن جماعه يتعصب بعضنا لبعض و يعين بعضنا بعضا أى فنحن أنفع لأبينا و قيل يعنى و نحن عصبه لا يعجزنا الاحتيال عليه «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أى فى ذهاب عن طريق الصواب الذى هو التعديل بيننا فى المحبه و قيل معناه أنه فى خطأ من الرأى فى أمور الأولاد و التدبير الدنيوى و نحن أقوم بأمور مواشيه و أمواله و سائر أعماله و لم يريدوا به الضلال عن الدين لأنهم لو أرادوا ذلك لكانوا كفارا و ذلك خلاف الإجماع و لأنهم بالاتفاق كانوا على دينه و كانوا يعظمونه غايه التعظيم و لذلك طلبوا محبته و أصل الضلال العدول و كل من ذهب عن شىء و عدل عنه فقد ضل و أكثر المفسرين على أن إخوه يوسف كانوا أنبياء و قال بعضهم لم يكونوا أنبياء لأن الأنبياء لا يقع منهم القبائح و قال المرتضى قدس الله روحه لم يقم لنا الحجه بأن إخوه يوسف الذين فعلوا ما فعلوه كانوا أنبياء و لا يمتنع أن يكون الأسباب الذين كانوا أنبياء غير هؤلاء الإخوه الذين فعلوا بيوسف ما قصه الله تعالى عنهم و ليس فى ظاهر الكتاب أن جميع إخوه يوسف و سائر الأسباب فعلوا بيوسف ما حكاه الله من الكيد و قيل يجوز أن يكون هؤلاء الإخوه فى تلك الحال لم يكونوا بلغوا الحلم و لا توجه إليهم التكليف و قد يقع ممن قارب البلوغ من الغلمان مثل هذه الأفعال و يعاتب على ذلك و يلام و يضرب و هذا الوجه قول البلخي و الجبائى و يدل عليه قوله نرتع و نلعب و

روى أبو جعفر بن بابويه رحمه الله فى كتاب النبوه بإسناده عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن حنان بن سدير قال قلت لأبى جعفر أ كان أولاد يعقوب أنبياء فقال لا و لكنهم كانوا أسباطا أولادا لأنبياء و لم يفارقوا الدنيا إلا سعداء تابوا و تذكروا ما صنعوا

و قال الحسن كانوا رجالا- بالغين و وقعت ذلك منهم صغيره ثم أخبر سبحانه عنهم أنهم قال بعضهم لبعض «اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا» أى اطرحوه فى أرض بعيده عن أبيه فلا يهتدى إليه و قيل معناه فى أرض تأكله السباع أو يهلكك بغير ذلك

«يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ» عن يوسف و تخلص لكم محبته و المعنى أنكم متى قتلتموه أو طرحتموه فى أرض أخرى خلا- لكم أبوكم و حن عليكم «و تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ» أى و تكونوا من بعد قتل يوسف أو غيبته قوما تائبين و المعنى أنكم إذا فعلتم ذلك و بلغتم أغراضكم تبتم مما فعلتموه و كنتم من جملة الصالحين الذين يعملون الصالحات و هذا يدل على أنهم رأوا ذلك ذنبا يصح التوبه منه عن جماعه من المفسرين و قيل معناه و تكونوا قوما صالحين فى أمر دنياكم أى يعود حالكم مع أبيكم إلى الصلاح عن الحسن و متى يسأل هاهنا على قول من جعلهم غير بالغين فقال أ ليس يدل هذا القول منهم على بلوغهم لعلمهم بالوعيد فالجواب أن المراهق قد يجوز أن يعلم ذلك خاصة إذا كان مر بى فى حجر الأنبياء.

و من أولادهم و اختلف فيمن قال ذلك من إخوته فقال وهب قاله شمعون و قال مقاتل قاله روبين ثم أخبر سبحانه عن واحد من جملة القوم بقوله «قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ» أى من إخوه يوسف «لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ» أى القوه فى قعر البئر يتناوله بعض ماره الطرق و المسافرين فيذهب به إلى ناحيه أخرى و القائل لذلك روبين و هو ابن خاله يوسف عن قتاده و ابن إسحاق و كان أحسنهم رأيا فيه فنهاهم عن قتله و قيل هو يهوذا و كان أقدمهم فى الرأى و الفضل و أسنهم عن الأصم و الزجاج و

قيل هو لاوى رواه على بن إبراهيم فى تفسيره

و اختلفوا فى ذلك الجب فقيل هو بئر بيت المقدس عن قتاده و قيل بأرض الأردن عن وهب و قيل بين مدين و مصر عن كعب و قيل على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب عن مقاتل «إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» معناه إن كنتم فاعلين شيئا مما تقولون فى يوسف فليكن هذا فعلكم فإنه دون القتل الصريح و قال ابن عباس يريد أن أضمرتم ما تريدون و قيل للحسن أ يحسد المؤمن فقال ما أنساك حديث بنى يعقوب.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ١١ الى ١٢]

إشاره

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَ يَلْعَبُ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢)

القراءه

قرأ أبو جعفر و الحلوانى عن قالون لا تأمنا مشدده النون بلا شمه و قرأ الباقون بالإشمام و هو الإشاره إلى النون المدغمه بالضمه و هو اختيار أبى عبيده و قرأ أبو جعفر و نافع يرتع و يلعب بالياء فيهما و كسر العين من يرتع و قرأ ابن كثير نرتع و نلعب بالنون فيهما و كسر العين و قرأ أبو عمرو و ابن عامر نرتع و نلعب بالنون فيهما و جزم العين و قرأ أهل الكوفه و رويس عن يعقوب «يَزْتَعِ وَ يَلْعَبُ» بالياء فيهما و جزم العين و قرأ روح و زيد عن يعقوب نرتع

بالنون و جزم العين «وَيَلْعَبُ» بالياء و قد روى ذلك عن أبي عمرو و هو قراءه الأعرج و إبراهيم النخعي و فى الشواذ قراءه العلاء بن سيبه يرتع بالياء و كسر العين رفعا و قراءه أبى رجا يرتع و يلعب.

الحج

قال الزجاج يجوز فى «تَأْمَنَّا» أربعة أوجه إشمام النون مع الإدغام. الضم و هو الذى حكاه ابن مجاهد عن الفراء و الإشعار بالضمه و الإدغام من غير إشمام لأن الحرفين من جنس واحد و «تَأْمَنَّا» بالإظهار و رفع النون الأولى لأن النونين من كلمتين و «تَمْنَا» بكسر التاء لأن ماضيه على فعل كما قالوا تعلم و نعلم و هى قراءه يحيى بن وثاب و هذه القراءه مخالفه للمصحف و إن كانت فى العريبه جائزه و أما قوله نرتع و يلعب فقد قال أبو على قراءه من قرأ نرتع بالنون و كسر العين و «يَلْعَبُ» بالياء حسن لأنه جعل الارتعاء و القيام على المال لمن بلغ و جاوز الصغر و أسند اللعب إلى يوسف لصغره و لا لوم على الصغير فى اللعب و الدليل على صغر يوسف قول إخوته «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» و لو كان كبيرا لم يحتج إلى حفظهم و يدل على ذلك قول يعقوب و أخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ و إنما يخاف الذئب على من لا دفاع به من شيخ كبير أو من صبي صغير قال:

أصبحت لا أحمل السلاح و لا أملك رأس البعير إن نفرا

و الذئب أخشاه إن مررت به وحدى و أخشى الرياح و المطرا

و أما الارتعاء فهو افتعال من رعيت مثل شويت و اشتويت و كل واحد منهما متعد إلى مفعول به قال الأعشى:

ترتعى السطح فالكثيب فذا قار فروض القطا فذات الرمال

و قال آخر:

رعت بأرض البهمى جميما و بسره و صمعاء حتى آنفتها نصالها

و قد يستقيم أن يقال نرتع و إنما ترتع إبلهم فيما قال أبو عبيده و وجه ذلك أنه كان الأصل يرتع إبلنا ثم حذف المضاف و أسند الفعل إلى المتكلمين فصار نرتع و كذلك نرتعى على يرتعى إبلنا ثم حذف المضاف فيكون نرتع و قال أبو عبيده نرتع نلهو و قد تكون هذه

الكلمه على غير معنى اللهو و لكن على معنى النيل من الشىء كقولهم فى المثل الصيد و الرتع و كان على هذا النيل و التناول مما يحتاج إليه الحيوان و قد قال الأعشى:

(صدر النهار يراعى ثيره رتعا)

و على هذا القول قالوا رأيت مرتع إبلك لمرادها الذى فيه فهذا لا يكون على اللهو لأنه جمع ثور راتع أو رتوع فأما من قرأ نرتع و نلعب بالنون فيكون نرتع على يرتع إبلنا أو على أننا ننال مما يحتاج إليه و ينال معنا و أما نلعب فحكى أن أبا عمرو قيل له كيف يقولون نلعب و هم أنبياء فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء فلو صحت هذه الحكايه عنه و صح عنده هذا التاريخ و إلا فقد قال الشاعر:

جدت جداد بلاعب و تقشعت غمرات قالت ليته حيران

فكان اللاعب هاهنا الذى لم يتشمر فى أهله فدخله بعض الهوينا فهذا أسهل من الوجه الذى قوبل به الحق و

قد روى عن النبى ص أنه قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها و تلاعبك

فهذا كأنه يتشاغل بمباح و تنفس و جمام من الجد و قد روى عن بعض السلف أنه كان إذا أكثر النظر فى مسائل الفقه قال احمضوا فليس هذا اللعب كاللعب فى قوله «وَلَيْتُنَّ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» و أما من قرأ بالياء فيهما فإن كان يرتع من اللهو كما فسره أبو عبيده فلا يمتنع أن يخبر به عن يوسف لصغره كما لا يمتنع أن ينسب إليه اللعب لذلك و إن كان يرتع من النيل من الشىء فذلك لا يمتنع عليه أيضا فوجههما بين و هذا أبين من قول من قال و نلعب بالنون لأنهم سألوا إرساله ليتنفس بلعبه و لم يسألوا إرساله ليلعبوا هم و أما من قرأ «و يلعب» بالرفع فإنه جعله استثناء أى هو ممن يلعب كقولك زرنى أحسن إليك أى أنا ممن يحسن إليك و أما من قرأ «يرتع» فمعناه يرتع إبله فحذف المفعول كما قال الحطيئه:

منعمه تصون إليك منها كصونك من رداء شرعى

أى تصون الحديد و قال الشنفرى:

كان لها فى الأرض نسيا تقصه على أمها و إن تكلمك تبت

أى تقطع حديثها خفرا و حياء.

المعنى

ثم بين سبحانه أنهم عند اتفاق آرائهم فيما تأمروا فيه من أمر يوسف كيف

لوا أباهم ف «قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف» أى ما لك لا تثق بنا و لا تعمدنا فى أمر يوسف «وَإِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ» أى مخلصون فى إرادته الخير به و فى هذا دلاله على أنه ع كان يأبى عليهم أن يرسله معهم «أَرْسَلُهُ مَعَنَا غَدًا» أى إلى الصحراء نرتع و نلعب الجزم على جواب الأمر و المعنى أن ترسله معنا نرتع و نلعب أى نذهب و نجى ء و ننشط و نلهو عن الكلبى و الضحاك و قيل نتحافظ فيحفظ بعضنا بعضنا و نلهو عن مجاهد و قيل نرعى و نتصرف و الرتع هو التردد يمينا و شمالا عن ابن زيد و أرادوا به اللعب المباح مثل الرمى و الاستباق بالأقدام و

قد روى أن كل لعب حرام إلا ثلاثة لعب الرجل بقوسه و فرسه و أهله

«وَإِنَّا لَهُ» أى ليوسف «لَحَافِظُونَ» أى نحفظه لنرده إليك و قيل نحفظه فى حال لعبه و قال مقاتل هاهنا تقديم و تأخير و ذلك إن إخوه يوسف قالوا له أرسله فقال أبوهم «إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» الآية فحينئذ قالوا «يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف و إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ» و إذا صح الكلام من غير تقديم و تأخير فلا معنى لحمله عليه قال الحسن جعل يوسف فى الجب و هو ابن سبع عشرة سنه و كان فى البلاد إلى أن وصل إليه أبوه ثمانين سنه و لبث بعد الاجتماع ثلاثا و عشرين سنه و مات و هو ابن مائه و عشرين سنه و قيل أنه كان ليوسف يوم ألقى فى الجب عشر سنين و قيل كان له اثنتا عشرة سنه و قيل كان ابن سبع سنين أو تسع و جمع بينه و بين أبيه و هو ابن أربعين سنه عن ابن عباس و غيره و فى الآيات دلاله على ظهور حسدهم ليوسف لأنه كان يحرسه منهم و يمنعه عن الخروج معهم و لا يأمنهم عليه.

إشارة

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧)

وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)

اللغة

الذئب أصله الهمز و إن خفت جاز و قراءه الكسائي و خلف و أبو جعفر و ورش و الأعشى و اليزيدى بتخفيف الهمزة فى المواضع الثلاث و الباقيون بالهمز و جمع الذئب أذؤب و ذئاب و ذؤبان و تذائب الريح أتت من كل جهة و حزنت و أحزنت لغتان و الحزن ألم القلب بفراق المحبوب و الشعور إدراك الشئ ء بمثل الشعره فى الدقه و منه المشاعر فى البدن و المجرى ء و المصير إلى الشئ ء واحد و قد يكون المصير بالانقلاب كمصير الطين خزفا و قد يكون بمعنى الانتقال و العشاء آخر النهار و منه اشتق الأعشى لأنه يستضى ء ببصر ضعيف و يقال العشاء أول ظلام الليل و يقال العشى من زوال الشمس إلى الصباح و العشاء من صلاه المغرب إلى العتمه و الاستباق افتعال من سبق و استبقا تبادلرا حتى يظهر الأقوى و منه المسابقه و هو على ثلاثه أوجه سباق بالرمى و ذلك جائز بالاتفاق و سباق على الخيل و الإبل و ذلك جائز عندنا و سباق على الأقدام و ذلك غير جائز بعوض و به قال الشافعى و عند أبى حنيفة يجوز بعوض و بلا عوض و به قال قوم من أصحابنا و كذلك القول فى الصراع و دم كذب أى مكذوب فيه و هو مصدر وصف به و قيل إن تقديره بدم ذى كذب قال الفراء يجوز أن يقع المصدر موقع المفعول كما يقع المفعول موقع المصدر فى مثل قول الشاعر:

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما و لا لفؤاده معقولا

و لم يجزه سيبويه و قال المفعول لا يكون مصدرا و يتأول قولهم خذ ميسوره و دع معسوره و قال يعنى به خذ ما يسر له و دع ما عسر عليه و كذلك ليس لفؤاده معقول أى ما يعقل به و روى عن عائشه أنها قرأت بدم كذب بالبدال أى دم طرى و التسويل تزيين النفس ما ليس بحسن و قيل هو تقدير معنى فى النفس على الطمع فى تمامه.

الإعراب

اللام فى قوله «لئن» هى اللام التى يتلقى بها القسم و «إنا إذا لخاسرون» جواب القسم «فلما ذهبوا به» جواب لما محذوف و تقديره عظمت فنتتهم أو كبر ما قصدوا له و الكوفيون يقولون الواو فى «و أجمعوا» مقحمه و تقديره أجمعوا و لا يجيز البصريون إقحام الواو و قالوا لم يثبت ذلك بحجه و لا قياس و مما أنشده الكوفيون فى ذلك قول الشاعر:

حتى إذا قملت بطونكم و رأيتم أبناءكم شيوا

ص: ٣٣٠

و قلبتم ظهر المجن لنا إن اللئيم العاجز الخب

و قول امرئ القيس:

فلما أجزنا ساحه الحى و انتحى بنا بطن خبت ذى حفاف عقنقل

قالوا أراد انتحى و البصريون يحملون الجميع على حذف الجواب و قوله «يَبْكُون» فى موضع نصب على الحال و «عِشَاءً» منصوب على الظرف و جائز أن يكون «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» من صله قوله «لَتَنْبِئَنَّهُمْ» و جائز أن يكون من صله «وَأَوْحَيْنَا» أى نبأناه بالوحي و هم لا- يشعرون أنه نبي قد أوحى إليه و «نَسِيَتِبُّ» فى موضع نصب على الحال و «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» مرفوع على أحد وجهين على أنه خبر مبتدأ محذوف و تقديره فشأنى صبر جميل أو فصبرى صبر جميل و هو قول قطرب أو على أنه مبتدأ محذوف الخبر و التقدير فصبر جميل أمثل و أنشد:

شكا إلى جملى طول السرى يا جملى ليس إلى المشتكى

صبر جميل فكلانا مبتلى

و يجوز فى غير القرآن فصبرا جميلا و روى ذلك عن أبى و يكون معناه فاصبرى يا نفس صبرا جميلا قال ذو الرمة:

ألا إنما مى فصبرا بليه و قد يبتلى الحر الكريم فيصبر

و قال الآخر:

أبى الله أن يبقى لحي بشاشه فصبرا على ما شاءه الله لى صبرا.

المعنى

ثم أخبر سبحانه أنهم لما أظهروا النصيح و الشفقة على يوسف هم يعقوب أن يبعثه معهم و حثهم على حفظه ف «قال إنى لِيَحْزُنُنِي» أى يغمنى «أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ» و تغييوه عنى و قيل معناه يحزننى مفارقتة إياى «وَأَخَافُ» عليه إذا ذهبتم به إلى الصحراء

ص: ٣٣١

«أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ» فهذه جمله فى موضع الحال و تقديره أخاف أن يأكله الذئب فى حال كونكم ساهين عنه مشغولين ببعض أشغالكم قالوا و كانت أرضهم مذأبه و كانت الذئاب ضاربه فى ذلك الوقت و قيل أن يعقوب رأى فى منامه كان يوسف قد شد عليه عشره أذؤب ليقتلوه و إذا ذئب منها يحمى عنه فكأن الأرض انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام فمن ثم قال فلقتهم العله و كانوا لا يدرون و

روى عن النبى ص أنه قال لا تلقنوا الكذب فيكذبوا فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان حتى لقتهم أبوهم

و هذا يدل على أن الخصم لا ينبغي أن يلحقن حجه و قيل أنه خاف عليه أن يقتلوه فكفى عنهم بالذئب مسايه لهم قال ابن عباس سماهم ذئابا «قالوا لئن أكله الذئب و نخن عضيبه» أى جماعه متعاضدون متناصرون نرى الذئب قد قصده و لا نمنعه منه «إننا إذا لخاسرؤن» أى نكون كالذين تذهب عنه رءوس أموالهم على رغم منهم و قيل معناه إنا إذا عجزه ضعفه قال الحسن و الله لقد كانوا أخوف عليه من الذئب و قيل معناه إنا إذا لمضيعون بلغه قيس عيلان عن المؤرج و هاهنا حذف و التقدير أنه أرسله معهم إجابته لما سألوه ليؤدى ذلك إلى الألفه و المحبه «فلما ذهبوا به و أجمعوا» أى عزموا جميعا «أن يجعلوه فى غيابة الجب» أى قعر البئر و اتفقت دواعيهم عليه فإن من دعاه داع واحد إلى الشىء لا يقال فيه أنه أجمع عليه فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعى و يدل الألف و اللام على أنه كان بئرا معروفه معهوده عندهم تجميعها السياره و قيل أنهم طلبوا بئرا قليله الماء تغيبه و لا تغرقه فجعلوه فيها و قيل بل جعلوه فى جانب منها و قيل أن يعقوب أرسله معهم فأخرجوه مكرما فلما وصلوا إلى الصحراء أظهروا له العداوه و جعلوا يضربونه و هو يستغيث بواحد واحد منهم فلا يغيثه و كان يقول يا أبتاه فهموا بقتله فمنعهم يهودا منه و

قيل منعهم لاوى رواه بعض أصحابنا عنهم ع

فانطلقوا به إلى الجب فجعلوا يدلونه فى البئر و هو يتعلق بشفير البئر ثم نزعوا قميصه عنه و هو يقول لا تفعلوا ردوا على القميص أتوارى به فيقولون ادع الشمس و القمر و الأحد عشر كوكبا يؤنسك فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادته أن يموت و كان فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخره فقام عليها و كان يهودا يأتيه بالطعام عن السدى و قيل إن الجب أضاء له و عذب ماؤه حتى أغناه عن الطعام و الشراب و قيل كان الماء كدرا فصفا و عذب و وكل الله به ملكا يحرسه و يطعمه عن مقاتل و قيل إن جبرائيل كان يؤنسه و قيل إن الله تعالى أمر بصخره حتى ارتفعت من أسفل البئر فوقف يوسف عليها و هو عريان و

كان إبراهيم الخليل (عليه السلام) حين ألقى فى النار جرد من ثيابه و قذف فى النار عريانا فأتاه جبرائيل (عليه السلام) بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه و كان ذلك عند إبراهيم (عليه السلام) فلما مات ورثه إسحاق فلما

مات إسحاق ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى تعويد و علقه فى عنقه فكان لا يفارقه فلما ألقى فى البئر عريانا جاءه جبرائيل و كان عليه ذلك التعويد فأخرج منه القميص فألبسه إياه و روى ذلك مفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) قال و هو القميص الذى وجد يعقوب ريحه و لما فصلت العير من مصر و كان يعقوب بفلسطين فقال إنى لأجد ريح يوسف

و

فى كتاب النبوه عن الحسن بن محبوب عن الحسن بن عماره عن مسمع أبى سيار عن الصادق (عليه السلام) قال لما ألقى إخوه يوسف يوسف فى الجب نزل عليه جبرائيل فقال له يا غلام من طرحك هنا فقال إخوتى لمنزلتى من أبى حسدونى و لذلك فى الجب طرحونى فقال أ تحب أن تخرج من هذا الجب قال ذلك إلى إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب فقال له جبرائيل فإن إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب يقول لك قل اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا- إله إلا أنت بديع السماوات و الأرض يا ذا الجلال و الإكرام أن تصلى على محمد و آل محمد و أن تجعل لى فى أمرى فرجا و مخرجا و ترزقنى من حيث أحتسب و من حيث لا أحتسب فجعل الله له من الجب يومئذ فرجا و مخرجا و من كيد المرأه مخرجا و آتاه ملك مصر من حيث لم يحتسب

و روى على بن إبراهيم أن يوسف (عليه السلام) قال فى الجب يا إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب ارحم ضعفى و قلله حيلتى و صغرى و قوله «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ» يعنى إلى يوسف (عليه السلام) قال الحسن أعطاه الله النبوه و هو فى الجب و البشاره بالنجاه و الملك «لَتَبْنِيَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا» أى لتخبرنهم بقبيح فعلهم بعد هذا الوقت يريد ما ذكره سبحانه فى آخر السوره من قوله «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ» «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» أنك يوسف و كان الوحي إليه كالوحي إلى سائر الأنبياء و قال مجاهد و قتاده أوحى الله إليه و نبأه و هو فى الجب و كان فيما أوحى إليه أن اكنم حالك و اصبر على ما أصابك فإنك ستخبر إخوتك بما فعلوا بك فى وقت لا يعرفونك و قيل يريدوهم لا يشعرون بأنه أوحى إليه و قيل إن معنى قوله «لَتَبْنِيَهُمْ» لتجازينهم على فعلهم تقول العرب للرجل يتوعده بمجازاه سوء فعله لأنبئتك و لأعرفنك أى لأجازينك و قيل أراد بذلك أنهم لما دخلوا مصر عرفهم يوسف و هم له منكرون فأخذ الصاع و نقره فطن فقال إن هذا الجام ليخبرنى أنه كان لكم أخ من أبيكم ألقيتموه فى الجب و بعتموه بثمن بخس فهذا معنى قوله «لَتَبْنِيَهُمْ بِأَمْرِهِمْ» هذا عن ابن عباس ثم بين سبحانه حالهم حين رجعوا إلى أبيهم فقال «وَجَاؤُا أَبَاهُمْ» يعنى و انقلب إخوه يوسف إلى أبيهم «عِشَاءً» أى ليلا أو فى آخر النهار ليلسوا على أبيهم و ليكونوا أجراً على الاعتذار

«يَكُونُ» و إنما أظهروا البكاء ليوهموا أنهم صادقون و فى هذا دلالة على أن البكاء لا يوجب صدق دعوى الباكي فى دعواه قال السدى لما سمع بكاءهم فزع فقال ما بالكم «قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» أى نشئت و نعدو على الإقدام لننظر أينأ أعدى و أسبق لصاحبه عن الجبائى و السدى و قيل معناه نتصل و نترامى فننظر أى السهام أسبق إلى الغرض عن الزجاج و فى قراءة عبد الله نتصل «و تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا» أى تركناه عند الرحل ليحفظه «فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا» أى ما أنت بمصدق لنا «و لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» جواب لو محذوف أى و لو كنا صادقين ما صدقتنا لاتهامك لنا فى أمر يوسف و دل الكلام عليه و لم يصفوه بأنه لا- يصدق الصادق لأن المعنى لا يصدقهم لاتهامه لهم و سوء ظنه بهم لما ظهر له من أمارات حسدهم ليوسف و شدة محبته ليوسف «و جَاؤُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ» معناه أن إخوه يوسف جاءوا أباهم و معهم قميص يوسف ملطخا بدم فقالوا له هذا دم يوسف حين أكله الذئب و قيل أنهم ذبحوا سخله و جعلوا دمها على قميصه عن ابن عباس و مجاهد و قيل ظيبا و لم يمزقوا ثوبه و لم يخطر ببالهم أن الذئب إذا أكل إنسانا فإنه يمزق ثوبه و قيل إن يعقوب قال لهم أرونى القميص فأروه إياه فقال لهم لما رأى القميص صحيحا يا بنى و الله ما عهدت كاليوم ذنبا أحلم من هذا أكل ابنى و لم يمزق قميصه عن الحسن و روى أنه ألقى ثوبه على وجهه و قال يا يوسف لقد أكلك ذئب رحيم أكل لحمك و لم يشق قميصك و معنى قوله «بِدَمٍ كَذِبٍ» مكذوب عليه أو فيه كما يقال ماء سكب أى مسكوب و شراب صب أى مصبوب قال الشاعر:

تظل جيادهم نوحا عليهم مقلده أعتتها صفونا

أراد نائحه عليهم و قيل أنه كان فى قميص يوسف ثلاث آيات حين قد من دبر و حين ألقى على وجه أبيه فارتد بصيرا و حين جاءوا عليه بدم كذب فتنبه يعقوب على أن الذئب لو أكله لمزق قميصه عن الشعبى و قيل أنه لما قال لهم يعقوب ذلك قالوا بل قتله اللصوص فقال (عليه السلام) فكيف قتلوه و تركوا قميصه و هم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله «قَالَ يَلِ سَيَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسِكُمْ أَمْراً» أى قال يعقوب لهم إذا اتهمهم فى يوسف لم يأكله الذئب و لم يقتله اللصوص و لكن زينت لكم أنفسكم أمرا علمتموه عن قتاده و قيل سهل بعضكم لبعض أمرا فى يوسف غير الذى فعلتموه حتى سهل عليكم فقتلتموه عن أبى مسلم و الجبائى و إنما رد يعقوب

عليهم بوحى من الله عز اسمه وقيل كان ذلك حدسا بصائب رأيه و صادق ذهنه «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» أى فصبرى صبر جميل لا جزع فيه ولا شكوى إلى الناس وقيل فصبر جميل أحسن وأولى من الجزع الذى لا يغنى شيئا وقيل إنما يكون الصبر جميلا إذا قصد به وجه الله تعالى وفعل للوجه الذى وجب فلما كان الصبر فى هذا الموضع واقعا على الوجه المحمود صح وصفه بذلك ذكره المرتضى قدس الله روحه وقيل إن البلاء نزل يعقوب على كبره و بيوسف على صغره بلا ذنب كان منهما فأكب يعقوب على حزنه و انطلق يوسف فى رقه و كل ذلك بعين الله يرى و يسمع حتى أتى بالمخرج و كل ذلك امتحان «وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» أى بالله أستعين على دفع ما تصفون أو به أستعين على تحمل مراره الصبر عليه و مكث يوسف فى العجب ثلاثة أيام.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ١٩ الى ٢٠]

إشاره

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ شَرَّوهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

القراءه

قرأ أهل الكوفه «يا بُشْرَى» بألف بغير ياء إلا أن حمزه و الكسائى و خلف يميلون الرء و عاصم لا يميل و الباقون يا بشرى بإثبات الياء و إثبات الألف و فى الشواذ قراءه الجحدري و ابن أبى إسحاق و الحسن يا بشرى.

الحجه

قال أبو على من قرأ يا بشرى فأضاف إلى الياء التى للمتكلم كان للألف التى هى حرف الإعراب عنده موضعان من وجهين (أحدهما) أن الألف فى موضع نصب من حيث كان نداء مضافا (و الآخر) أن يكون فى موضع كسر من حيث كان بمنزله حرف الإعراب الذى فى غلامى و الدليل على استحقاقها لهذا الموضع قولهم كسرت فى فلو لا- أن حرف الإعراب الذى ولى ياء الإضافة فى موضع كسر ما كسرت الفاء من فى فلما كسرت كما كسرت من قولهم بفيك و كما فتحت من قولهم رأيت فاك لما كانت فى موضع الفتحة التى فى قولك رأيت غلامك و انضمت فى قولك هذا فوك لا تبعه الضمه المقدره فيها كالتى فى قولك هذا غلامك كذلك كسرت فى قولهم كسرت فى و هذا يدللك على أنه ليس يعرب من مكانين ألا ترى أنها تبتعت حركه غير الإعراب فى قولك كسرت فى يا هذا كما تبتعت

حركة الإعراب في رأيت فاك و من قال «يا بُشْرى» احتمل وجهين (أحدهما) أن يكون في موضع ضم مثل يا رجل لاختصاصه بالنداء (و الآخر) أن يكون في موضع نصب و ذلك لأنك أشعت النداء و لم تختص به كما فعلت في الوجه الأول فصار كقوله يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ إِلَّا أن التثنية لم يلحق «بُشْرى» لأنها لا تنصرف فأما من قرأ يا بشرى فإن تلك لغه هذيل قال أبو ذؤيب:

سبقوا هوى و أعنفوا لسيلهم فتخرموا و لكل جنب مهجع

و قال آخر:

يطوف بى عكب فى معد و يطعن بالصمله فى قفيا

فإن لم تتأرا لى من عكب فلا رويما أبدا صديا

و أمثاله كثيره.

اللغة

الوارد الذى يتقدم الرفقه إلى الماء ليسقى و تقول أدليت الدلو إذا أرسلتها فى البئر لتملأها و دلوتها إذا أخرجتها ملاءى و البضاعة قطعه من المال تجعل للتجاره من بضعت الشىء إذا قطعتة و منه المبضع لأنه يبضع به العرق و الشرى البيع قال الشاعر:

" و شريت بردا ليتنى من بعد برد كنت هامه "

و الثمن بدل الشىء من العين أو الورق و يقال فى غيرهما أيضا مجازا و البخس النقص من الحق يقال بخسه فى الكيل أو الوزن إذا نقصه من حقه فيهما.

الإعراب

قال الزجاج معنى النداء فى «يا بُشْرى» و ما فى معناها مما لا يجب و لا يعقل فإنه على تنبيه المخاطبين و توكيد القصه إذا قلت يا عجباه فكأنك قلت أعجبوا يا أيها العجب هذا من حينك و كذلك إذا قلت يا بشرى فكأنك قلت أبشروا يا أيتها البشرى هذا من إبانك و بضاعه منصوب على الحال و تقديره و أسروه جاعليه بضاعه و دراهم فى موضع جر بأنه بدل

ص: ٣٣٦

من ثمن و معدوده صفه الدراهم و «كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» فيه ليست من صله الزاهدين و المعنى و كانوا من الزاهدين ثم بين فى أى شىء زهدوا فقال فيه فكأنه قال زهدوا فيه و هذا فى الظروف جائز و لا يجوز ذلك فى المفعولات لو قلت كنت زيدا من الضاربين لم يجز لأن زيدا من صله الضاربين و لا تتقدم الصله على الموصول.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف بعد إلقائه فى الجب فقال «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ» أى جماعه ماره قالوا و إنما جاءت من قبل مدين يريدون مصر فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير الطريق حتى نزلوا قريبا من الجب و كان الجب فى قفره بعيده عن العمران و إنما هو للرعاه و المجتازه و كان مأوه ملحا فعذب و قيل كان الجب بظهر الطريق «فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ» أى فبعثوا من يطلب لهم الماء يقال بعثوا رجلا- يقال له مالِك بن زعر لىطلب لهم الماء «فَأَذَلَّى دَلْوُهُ» أى أرسل دلوه فى البئر ليستقى فتعلق يوسف (عليه السلام) بالحبل فلما خرج إذا هو بسلام أحسن ما يكون من الغلمان

قال النبى ص أعطى يوسف شطر الحسن و النصف الآخر لسائر الناس

و قال كعب الأخبار و كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساقين و العضدين خميص البطن صغير السره و كان إذا تبسم رأيت النور فى ضواحه و إذا تكلم رأيت فى كلامه شعاع النور يلتهب عن ثناياه و لا يستطيع أحد وصفه و كان حسنه كضوء النهار عند الليل و كان يشبه آدم (عليه السلام) يوم خلقه الله عز و جل و صوره و نفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصيه و يقال أنه ورث ذلك الجمال من جدته ساره و كانت قد أعطيت سدس الحسن فلما رآه المدلى «قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ» عن قتاده و السدى و قيل أنه نظر فى البئر لما ثقل عليه الدلو فرأى يوسف (عليه السلام) فقال هذا غلام فأخرجوه عن الجبائى و قيل أن بشرى رجل من أصحابه ناداه عن السدى «وَأَسِيرُوهُ بِضَاعَةً» أى و أسر يوسف الذين وجدوه من رفقاتهم من التجار مخافه أن يطلبوا منهم الشركه معهم فى يوسف فقالوا هذا بضاعه لأهل الماء دفعوه إلينا لنبيعه لهم عن مجاهد و السدى و قيل معناه و أسر إخوته يكتمون أنه أخوهم فقالوا هو عبد لنا قد أبق و اختفى منا فى هذا الموضع و قالوا له بالعبرانيه لئن قلت أنا أخوهم قتلناك فتابعهم على ذلك لئلا يقتلوه عن ابن عباس «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» أى بما يعمل إخوه يوسف «وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ» أى باعوه بثمن ناقص قليل عن عكرمه و الشعبى و قيل حرام لأن ثمن الحر حرام عن الضحاك و مقاتل و السدى و سمي الحرام بخسا لأنه لا بركه فيه فهو منقوص البركه «دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ» أى قليله و ذكر العدد عباره عن القله و

قيل أنهم كانوا لا يزنون من الدراهم ما دون الأوقيه و كانوا يزنون الأوقيه و هى

الأربعون فما زاد عليها و كانت الدراهم عشرين درهما عن ابن عباس و ابن مسعود و السدى و هو المروى عن على بن الحسين (عليه السلام) قال و كانوا عشره فاقسموها درهمين درهمين

و قيل كانت اثنين و عشرين درهما عن مجاهد و قيل كانت أربعين درهما عن عكرمه و قيل

ثمانيه عشر درهما عن أبى عبد الله (عليه السلام)

و اختلف فيمن باعه فقيل أن إخوه يوسف باعوه و كان يهوذا منتبذا ينظر إلى يوسف فلما أخرجوه من البئر أخبر إخوته فأتوا مالكا و باعوه منه عن ابن عباس و مجاهد و أكثر المفسرين و قيل باعه الواجدون بمصر عن قتاده و قيل أن الذين أخرجوه من الجب باعوه من السياره عن الأصم و الأصح الأول و ذكر أبو حمزه الثمالى فى تفسيره قال فلم يزل مالك بن زغر و أصحابه يتعرفون من الله الخير فى سفرهم ذلك حتى فارقوا يوسف ففقدوا ذلك قال و تحرك قلب مالك ليوسف فأتاه فقال أخبرنى من أنت فانتبه له يوسف و لم يكن مالك يعرفه فقال أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم فألزمه مالك و بكى و كان مالك رجلا عاقرا لا يولد له فقال ليوسف لو دعوت ربك أن يهب لى ولدا فدعا يوسف ربه أن يجعل له ولدا و يجعلهم ذكورا فولد له اثنا عشر بطنا فى كل بطن غلامان «وَ كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» قيل يعنى به أن الذين اشتروه كانوا من الزاهدين فى شرائه لأنهم وجدوا علامه الأحرار و أخلاق أهل البر و النبيل فلم يرغبوا فيه مخافه أن يلحقهم تبعه فى استعباده و قيل معناه و كانوا من الزاهدين فى نفس يوسف لم يشروه للفجور و إنما اشتروه للربح و قيل المراد به الذين باعوه من إخوته كانوا غير راغبين فى يوسف و لا فى ثمنه و لكنهم باعوه حتى لا يظهر ما فعلوا به و كان قصدهم تبيعه و قيل كانوا من الزاهدين فى يوسف لأنهم لم يعرفوا موضعه من الله سبحانه و كرامته عليه و لا- تنافى بين هذه الأقوال فيجوز حمل الآية على جميعها و قيل إن الذين باعوه بمصر كانوا من الزاهدين فى ثمنه لأنهم علموا أنه لقطه و ليست ببضاعه.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٢١ الى ٢٢]

اشاره

وَ قَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)

ص: ٣٣٨

الثواء الإقامه و المثوى موضع الإقامه و الإكرام إعطاء المراد على جهه الإعظام و هو يتعاضم فأعلاه منزله ما يستحق بالنبوه و أدناه ما يستحق بخصله من الطاعات و أشد جمع لا- واحد له و قيل هو واحد و إن كان على وزن الجمع فهو مثل الآنك و هو الرصاص و قيل أنه جمع واحده شد كما أن واحد الأشر شر قال الشاعر:

هل غير أن كثر الأشر و أهلكت حرب الملوك أكثر الأموال

. الإعراب

مصر لا ينصرف لأنه مؤنث معرفه و «أَنْ يَنْفَعَنَا» فى موضع رفع لكونه فاعل عسى و عسى هذه تامه لأنها تمت بفاعلها و اللام فى قوله «وَلِنُعَلِّمَهُ» محموله على تقدير دبرنا ذلك لنمكنه و لنعلمه.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف بعد أن بيع فقال «وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ» أى اشترى يوسف «مِنْ مِصْرَ» أى من أهل مصر «لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ» أى مقام يوسف و موضع نزوله أى هيئى له موضعا كريما شريفا و تقدير الآيه فحملوه إلى مصر و باعوه و حذف ذلك للدلاله عليه و كان المشتري خازن فرعون مصر و خليفته و صاحب جنوده و اسمه قطفير و كان لا يأتى النساء و قيل أن اسمه أظفير و كان يلقب بالعزير و من كان بمكانه يسمى بالعزير و من يسمى بالعزير ممن لم يكن بمكانه نزع لسانه فلما عبر يوسف رؤيا الملك سمي العزير و جعل مكان العزير و كان باعه مالك بن زعر منه بأربعين دينارا و زوج نعل و ثوبين أبيضين عن ابن عباس و قيل أنه عرضه على البيع فى سوق مصر فترايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه ورقا و مسكا و حريرا عن وهب فاشتراه العزير بهذا الثمن و قال لامرأته راعيل و لقبها زليخا «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا» أى عسى أن نبيعه فنربح على ثمنه «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكَلَدًا» فإنه لا ولد لنا و إنما قال ذلك لما رأى على يوسف من الجمال و العقل و الهدايه فى الأمور و على هذا فالعزير هو خازن الملك و خليفته و الملك هو الريان بن الوليد رجل من العماليق و قيل أن هذا الملك لم يمت حتى آمن و اتبع يوسف على دينه ثم مات و يوسف بعده حى فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يقبل و قال ابن عباس

العزير ملك مصر و كذلك هو فى حديث على بن الحسين ع

«وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ» أى كما أنعمنا على يوسف بالسلامه و الخروج من الجب مكناه فى الأرض بأن عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه حتى صار بذلك متمكنا من الأمر و النهى فى الأرض التى كان يستولى عليها الملك و هى أرض مصر «وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» و قد مضى معناه فى أول السوره «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» أى على أمر يوسف يحفظه و يرزقه حتى يبلغه ما قدر له من الملك و النبوه

و لا يكله إلى غيره و قيل معناه و الله غالب على أمر نفسه لا يعجزه شىء من تدبيره و أفعاله فهو الفاعل لما يشاء كيف يشاء «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» إن الله غالب على أمر نفسه أو أمر يوسف و قيل معناه لا يعلمون ما يصنع الله يوسف و ما يؤول إليه حاله «وَ لَمَّا بَلَغَ» يوسف «أَشُدَّهُ» أى منتهى شبابه و قوته و كمال عقله و قيل الأشد من ثمانى عشره سنه إلى ثلاثين سنه عن ابن عباس و قيل أن أقصى الأشد أربعون سنه و قيل ستون سنه و هو قول الأكثرين و يؤيده

الحديث من عمره الله ستين سنه فقد أعذر إليه

و قيل أن ابتداء الأشد من ثلاث و ثلاثين سنه عن مجاهد و كثير من المفسرين و قيل من عشرين سنه عن الضحاك «آتَيْنَاهُ حُكْمًا» أى أعطيناه القول الفصل الذى يدعو إلى الحكمه «وَ عِلْمًا» و هو تبين الشىء على ما هو به بما يحل فى القلب عن على بن عيسى و قيل الحكم النبوه و العلم الشريعة عن ابن عباس و قيل الحكم الدعاء إلى دين الله و العلم علم الشرع و قيل أراد الحكم بين الناس و العلم بوجوه المصالح فإن الناس كانوا إذا تحاكموا على العزيز أمره بأن يحكم بينهم لما رأى من عقله و أصابته فى الرأى و قيل هو العلم و العمل به و هو الحكم «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» أى مثل ما جزينا يوسف بصبره نجزي كل من أحسن أى فعل الأفعال الحسنه من الطاعات و قيل أن المحسنين الصابرون على النوائب عن الضحاك و قيل هم المؤمنون عن ابن عباس و قيل أراد محمدا ص أى كما فعلنا بيوسف و أعطيناه الملك بعد مقاساته البلاء و الشده كذلك نفعل بك يا محمد عن ابن جريج.

[سوره يوسف (١٢): آيه ٢٣]

إشاره

وَ رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)

القراءه

قرأ أهل المدينه و الشام هيت لك بكسر الهاء و فتح التاء و قرأ ابن كثير هيت لك بفتح الهاء و ضم التاء و قرأ الباقون «هَيْتَ لَكَ» بفتح الهاء و التاء و

روى عن على (عليه السلام) و أبى رجاء و أبى وائل و يحيى بن وثاب هت لك بالهمزه و ضم التاء

و روى ذلك على خلاف فيه عن ابن عباس و عن عكرمه و مجاهد و قتاده و روى عن ابن عباس أيضا هيت لك بفتح الهاء و كسر التاء و روى ذلك عن أبى الأسود و ابن أبى إسحاق و ابن محيصن و عيسى الثقفى و روى أيضا عن ابن عباس هيت لك أيضا.

قال الزجاج فى هيت لك لغات أوجودها هيت لك بفتح الهاء و التاء قال الشاعر:

أبلغ أمير المؤمنين أخوا العراق إذا أتينا

إن العراق و أهله عنق إليك فهيت هيتا

أى فأقبل و تعال و حكى قطرب أنه أنشده بعض أهل الحجاز لطرفه:

ليس قومى بالأبعدين إذا ما قال داع من العشيره هيت

هم يجيبون ذا هلم سراعاً كالأباييل لا تغادر بيتا

فهذا شاهد لابن كثير و كلها أسماء سُمى بها الفعل بمنزله صه و مه و أيه و الحركات فى أواخرها لالتقاء الساكنين و أما الفتح فلائن قبل التاء ياء فهو كما قيل أين و كيف و الكسر لأن الأصل فى التقاء الساكنين حركة الكسر و أما الضم فلائها فى معنى الغايات كأنها قالت دعائى لك فلما حذفت الإضافة و تضمنت هيت معناها بنيت على الضم كما بنيت حيث و منذ و أما هئت بالهمزة و ضم التاء ففعل تقول هئت أهىء هيته أى تهيأت و قالوا أيضاً هئت أهاء كخفت أخاف و أما هيت لك ففعل صريح كقولك أصلحت لك و اللام تتعلق بنفس هيت و هيت و هيت و هئت كما يتعلق بنفس هلم فى قولك هلم لك.

اللغه

المراوده المطالبه بأمر بالرفق و اللين ليعمل به و منه المرود لأنه يعمل به و لا يقال فى المطالبه بدين راوده و أصله من راد يرود إذا طلب المرعى و فى المثل الرائد لا- يكذب أهله و هو فى الآيه كناية عما تريده النساء من الرجال و التعليق إطباق الباب بما يعسر فتحه و إنما شدد ذلك لتكثير الأغلاق أو للمبالغه فى الإيثاق.

الإعراب

«مَعَاذَ اللَّهِ» نصب على المصدر على تقدير أعوذ بالله معاذاً تقول عذت بالله عوذاً و معاذاً و عياداً و معاذه.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن امرأه العزيز و ما همت به فقال «وَ رَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ» أى و طالبت يوسف المرأه التى كان يوسف فى بيتها عن نفسه و هى زليخا و المعنى طلبت منه أن يواقعها «وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ» على نفسها و عليه بابا بعد باب قالوا

و كانت سبعة أبواب و قيل أراد باب الدار و باب البيت «وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» أى هلم لك عن ابن عباس و الحسن و معناه أقبل و بادر إلى ما هو مهيا لك «قَالَ» يوسف «مَعَاذَ اللَّهِ» أى أعتصم بالله و أستجير به مما دعوتنى إليه و تقديره عيادا بالله أن أجيب إلى هذا فكان (عليه السلام) أظهر الآباء و سأل الله سبحانه أن يعيده و يعصمه من فعل ما دعته إليه «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» الهاء عائده إلى زوجها عند أكثر المفسرين و معناه أن العزيز زوجك مالكي أحسن تربيتي و إكرامى و بسط يدي و رفع منزلتي فلا أخونه و إنما سماه ربا لما كان ثبت له عليه من الرق فى الظاهر و قيل أن الهاء عائد إلى الله سبحانه و المعنى أن الله ربي رفع من محلى و أحسن إلى و جعلنى نبيا فلا أعصيه أبدا «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» دل بهذا على أنه لو فعل ما دعته إليه لكان ظلما و فى هذه الآيه دلالة على أن يوسف لم يهجم بالفاحشه و لم يردھا بقبیح لأن من هم بالقبیح لا يقول مثل ذلك.

[سوره يوسف (۱۲): آیه ۲۴]

اشاره

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (۲۴)

القراءه

قرأ أهل المدينة و الكوفه المخلصين بفتح اللام و الباقون بكسر اللام فى جميع القرآن.

الحجه

قال أبو على حجه من كسر اللام قوله أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ و من فتح اللام فيكون بنى الفعل للمفعول به و يكون معناه و معنى من كسر اللام واحد فإذا أخلصوا دينهم فهم مخلصون و إذا أخلصوا فهم مخلصون.

اللغه

الهم فى اللغه على وجوه منها العزم على الفعل كقوله تعالى «إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَنْسِفُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ» أى أرادوا ذلك و عزموا عليه و منه قول ضابئ البرجمي:

هممت و لم أفعل و كدت و ليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله

و قول حاتم طي ء:

و لله صعلوك يشاور همه و يمضى على الأيام و الدهر مقدا

و قول الخنساء:

و فضل مرداسا على الناس جملة و إن كل هم همه فهو فاعله

و منها خطور الشىء بالبال و إن لم يقع العزم عليه كقوله «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَ اللَّهُ وَثِيْقُهُمَا» يعنى أن الفشل خطر
ببالهم و لو كان الهم هاهنا عزمًا لما كان الله وليهما لأن العزم على المعصية معصيه و لا يجوز أن يكون الله ولى من عزم على
الفرار عن نصره نبيه (عليه السلام) و يقوى ذلك قول كعب بن زهير:

فكم فيهم من فارس متوسع و من فاعل للخير إن هم أو عزم

ففرق بين الهم و العزم و منها أن يكون بمعنى المقاربه قالوا هم فلان أن يفعل كذا أى كاد يفعله قال ذو الرمه:

أقول لمسعود بجرعاء مالك و قد هم دمعى أن تلج أوائله

و الدمع لا يجوز عليه العزم و معناه كاد و قارب و قال أبو الأسود الدئلى:

و كنت متى تهمم يمينك مره لتفعل خيرا تفتفيها شمالكا

و على هذا جاء قوله جداراً يُريدُ أن ينقضَّ أى يكاد و قال الحارثى:

يريد الرمح صدر أبى براء و يرغب عن دماء بنى عقيل

و منها الشهوه و نيل الطباع يقول القائل فيما يشتهيهِ و يميل طبعه إليه هذا أهم الأشياء إلى و فى ضده ليس هذا من همى و إذا
كانت معانى الهم فى اللغه مختلفه يجب أن ينفى عن نبى الله يوسف (عليه السلام) ما لا- يليق به و هو العزم على القبيح لأن
الدليل قد دل على أن الأنبياء لا يجوز المعاصى و القبائح عليهم و أجزنا عليهم ما سواه من معانى الهم لأن كل واحد من ذلك
يليق بحاله.

المعنى

«وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» اختلف العلماء فيه على قولين (أحدهما) أنه لم يوجد من يوسف ذنب كبير و
لا صغير (و الآخر) أنه وجد منه العزم على القبيح ثم انصرف عنه فأما الأولون فإنهم اختلفوا فى تأويل الآية على وجوه (أحدها)
أن الهم فى ظاهر الآية قد تعلق بما لا- يصح تعلق العزم به على الحقيقه لأنه قال «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا» فعلق الهم بهما و
ذاتهما لا- يجوز أن يرادا و يعزم عليهما لأن الموجود الباقي لا يصح أن يراد و يعزم عليه فإذا حملنا الهم فى الآية على العزم فلا
بد من تقدير أمر

محذوف يتعلق العزم به و قد أمكن أن نعلق عزمه (عليه السلام) بغير القبيح و نجعله متناولا لضربها أو دفعها عن نفسه فكأنه قال و لقد همت بالفاحشه منه و أرادت ذلك و هم يوسف (عليه السلام) بضربها و دفعها عن نفسه كما يقال هممت بفلان أى بضربه و إيقاع مكروه به و على هذا فيكون معنى رؤيه البرهان أن الله سبحانه أراه برهانا على أنه إن أقدم على ما هم به أهلكه أهلها أو قتلوه أو ادعت عليه المرأوده على القبيح و قدفته بأنه دعاها إليه و ضربها لامتناعها منه فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء و الفحشاء اللذين هما القتل و ظن اقتراف الفاحشه به و يكون التقدير لو لا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك و يكون جواب لو لا محذوف كما حذف فيه قوله تعالى «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» و قوله «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ» أى لو لا فضل الله لهلكتم و لو تعلمون علم اليقين لم يلهكم التكاثر و مثله قول امرئ القيس:

و لو أنها نفس تموت سويه و لكنها نفس تساقط أنفسا

يريد فلو أنها نفس تموت سويه لنقضت و فنيت فحذف الجواب تعويلا على أن الكلام يقتضيه و على هذا يكون جواب لو لا محذوف يدل عليه قوله «وَهَمَّ بِهَا» و لا يجوز أن يكون قوله «وَهَمَّ بِهَا» جوابا للو لا لأن جواب لو لا لا يتقدم عليه (و ثانيها) أن يحمل الكلام على التقديم و التأخير و يكون التقدير و لقد همت به و لو لا أن رأى برهان ربه لهم بها و لما رأى برهان ربه لم يهم بها و يجرى ذلك مجرى قولهم قد كنت هلكت لو لا أنى تداركتك و قد كنت قلت لو لا أنى خلصتك و المعنى لو لا تداركى لهلكت و لو لا تخليصى إياك لقتلت و إن كان لم يقع هلاكك و قتل و مثله قول الشاعر:

فلا يدعنى قومی لیوم کریهه لئن لم أعجل ضربه أو أعجل

و قال آخر:

فلا يدعنى قومی صریحا لحره لئن كنت مقتولا و یسلم عامر

و فى القرآن إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا وَ هَذَا الْوَجْهَ اخْتَارَهُ أَبُو مُسْلِمٍ وَ هُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ وَ (ثالثها) أن معنى قوله «هَمَّ بِهَا» اشتهاها و مال طبعه إلى ما دعته إليه و قد يجوز أن تسمى الشهوه هما على سبيل التوسع و المجاز و لا قبح فى الشهوه لأنها من فعل الله

تعالى وإنما يتعلق القبح بالمشتهى وقد روى هذا التأويل عن الحسن قال أما همها فكان أخبث الهم وأما همه فما طبع عليه الرجال من شهوه النساء وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال همها القصد وهمه أنه تمنّاها أن تكون زوجته له وعلى هذا الوجه فيجب أن يكون قوله «لولا» أن رأى بزهاً ربّه» متعلقاً بمحذوف أيضاً كأنه قال لولا- أن رأى برهان ربه لعزم أو فعل (سؤال) قالوا إن قوله «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» خرجاً مخرجاً واحداً فلم جعلتهم همها به متعلقاً بالقيح وهمه بها متعلقاً بغير القبيح وجوابه أن الظاهر لا يدل على ما تعلق به الهم ففيهما جميعاً وإنما أثبتنا همها به متعلقاً بالقيح لشهادته القرآن والآثار به ولأنها ممن يجوز عليه فعل القبيح والشاهد لذلك من الكتاب قوله «وَأَوَدَّتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْلُهُ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَيْدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» وقوله حكاية عنها الآن حَصِي حَصَى الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» والشاهد من الآثار إجماع المفسرين على أنها همت بالمعصية والفاحشه وأما يوسف فقد دلت الأدلة العقلية التي لا يتطرق إليها الاحتمال والمجاز على أنه لا يجوز أن يفعل القبيح ولا يعزم عليه فأما الشاهد من القرآن على أنه ما هم بالفاحشه فقوله سبحانه «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ» وقوله ذَلِكَ لِيُعَلِّمَ أَنَّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وغير ذلك من قوله قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ والعزم على الفاحشه من أكبر السوء وأما الفرقه الأخرى فإنهم قالوا فيه ما لا يجوز نسبه إلى الأنبياء فقال بعضهم إنه قعد بين رجلها وحل تكه سراويله وقال بعضهم حل السراويل حتى بلغ الثن وجلس منها مجلس الرجل من امرأته وقد نزهه الله سبحانه عن ذلك كله بقوله «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ» وأمثلة ذلك مما عددناه فأما البرهان الذي رآه فقد اختلف فيه على وجوه (أحدها) أنه حجه الله سبحانه في تحريم الزنا والعلم بالعذاب الذي يستحقه الزاني عن محمد بن كعب والجبائي (و ثانيها) أنه ما آتاه الله سبحانه من آداب الأنبياء وأخلاق الأصفياء في العفاف وصيانته النفس عن الأذناس عن أبي مسلم (و ثالثها)

أنه النبوه المانعه من ارتكاب الفواحش والحكمه الصارفه عن القبائح روى ذلك عن الصادق (عليه السلام)

(و رابعها)

أنه كان في البيت صنم فألقت المرأه عليه ثوبا فقال (عليه السلام) أن كنت تستحين من الصنم فأنا أحق أن أستحي من الواحد القهار عن علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام)

(و خامسها) أنه اللطف الذي لطف الله تعالى به في تلك الحال أو قبلها فاختر عنده الامتناع عن المعاصي وهو ما يقتضى كونه معصوماً لأن العصمه هي اللطف الذي يختار عنده التنزه عن القبائح والامتناع من فعلها ويجوز أن يكون الرؤيه هاهنا بمعنى العلم كما يجوز أن يكون بمعنى الإدراك فأما ما ذكر في البرهان من الأشياء

البعيده بأن قيل إنه سمع قائلا- يقول يا ابن يعقوب لا تكونن كالطير له ريش فإذا زنا ذهب ريشه وقيل أنه رأى صورته يعقوب
 عاضا على أنامله وقيل أنه رأى كفا بدت فيما بينهما مكتوبا عليها النهى عن ذلك فلم ينته فأرسل الله سبحانه جبرئيل (عليه
 السلام) وقال أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئه فرآه عاضا على إصبعه فكل هذا سوء ثناء على الأنبياء مع أن ذلك ينافى
 التكليف و يقتضى أن لا يستحق على الامتناع من القبيح مدحا ولا ثوابا وهذا من أقبح القول فيه (عليه السلام) «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ
 عَنْهُ السُّوءَ» أى كذلك أريناه البرهان لنصرف عنه السوء أى الخيانه «وَ الْفَحْشَاءَ» أى ركوب الفاحشه وقيل السوء الإثم و
 الفحشاء الزنا «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» أى المصطفين المختارين للنبوه و بكسر اللام المخلصين فى العباده و التوحيد أى من
 عبادنا الذين أخلصوا الطاعه لله و أخلصوا أنفسهم له و هذا يدل على تنزيه يوسف و جلاله قدره عن ركوب القبيح و العزم عليه.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٢٥ الى ٢٩]

إشاره

وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَ إِنْ كَانَ
 قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)
 يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)

القراءه

فى الشواذ قراءه ابن يعمر و ابن أبى إسحاق و نوح القارئ من قبل و من دبر بثلاث ضمات من غير تنوين.

قال ابن جنى ينبغي أن يكونا غايتين كقوله تعالى لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ كأنه يريد و قدت قميصه من دبره و إن كان قميصه قد من قبله فلما حذف المضاف إليه أعنى الهاء و هى مراده صار المضاف غايه بعد ما كان المضاف إليه غايه له.

القد شق الشىء طولاً مثل قد الأديم يقال قدّه يقده قداه فهو مقدود إذا كان ذاهباً فى الطول على استواء و

فى الحديث كانت ضربات على بن أبى طالب ع أبكاراً كان إذا اعتلى قد و إذا اعترض قط

و القد بكسر القاف السير المقطوع طولاً و الإلقاء المصادفه قال ذو الرمه:

و مطعم الصيد هبال لبغيته ألقى أباه بذاك الكسب يكتسب

أى وجد أباه و الكيد طلب الشىء بما يكرهه كما طلبت المرأه يوسف بما يكرهه و ياباه و الخطيئه العدول عما تدعو إليه الحكمة إلى ما تزجر عنه و يقال لصاحبه خطأ يخطأ خطأ فهو خاطئ إذا وقع ذلك منه عن قصد فإن وقع من غير قصد قيل أخطأ المقصد فهو مخطئ فأصل الخطأ العدول عن الغرض الحكيمى بقصد أو غير قصد قال أميه:

عبادك يخطئون و أنت رب بكفيك المنايا و الحثوم

. الإعراب .

إنما عطف قوله «عَذَابٌ أَلِيمٌ» على الفعل لأن تقديره إلا السجن أو عذاب و من فى قوله «قُعدٌ مِنْ دُبُرٍ» و «مِنْ قُبُلٍ» لا ابتداء الغايه لأن ابتداء القد كان منها و من فى قوله «مِنَ الْكَاذِبِينَ» للتبعيض لأنه بعض الكاذبين و لم يقل و شهد شاهد أنه إن كان لأنه ذهب مذهب القول فى الحكايه كما أن قوله يُوصِيكُمْ اللَّهُ فى أَوْلَادِكُمْ كذلك و التقدير يوصيكم الله أن المال لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ و قوله «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ» قال أبو العباس المبرد معناه إن يكن و جاز ذلك فى كان لأنها أم الباب كما جاز فى التعجب ما كان أحسن زيدا و لم يجز ما أصبح أحسنه و قال أبو بكر السراج أن يكن بمعنى أن يصبح قد قميصه من دبر و قوله «فَلَمَّا رَأَى» الرؤيه هاهنا تحتل أمرين (أحدهما) أن تكون بمعنى رؤيه العين فلا تكون رؤيه العين رؤيه للقد و يكون قوله «قَدْ مِنْ دُبُرٍ» فى موضع الحال و إنما يكون رؤيه للقميص (و الآخر) أن يكون بمعنى العلم و تكون رؤيه للقد و إنما قال من الخاطئين و لم يقل من الخاطئات لتغليب المذكر على المؤنث.

«وَاسْتَبَقَا الْبَابَ» يعنى تبادرا الباب أى طلب كل واحد من يوسف و امرأه العزيز السبق إلى الباب أما يوسف فإنه كان يقصد أن يهرب منها و من ركوب الفاحشه و أما هى فإنما كانت تطلب يوسف لتقضى حاجتها منه و تقصد أن تغلق الباب و تمنعه من الخروج و تراوده ثانيا عن نفسه «وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ» أى لحقت يوسف فجذبت قميصه و شقته طولا من خلفه لأن يوسف كان هاربا و هى تعدو من خلفه و قيل إن يوسف رأى الأبواب قد انفتحت فعلم أن الصواب هو الخروج فخرج هاربا و قيل بل أخذ بفتح الأبواب و أدركته فتعلقت بقميصه من خلفه فشقته «وَ أَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» أى فلما خرجا وجدا زوجها عند الباب و سماه سيدها لأنه مالكة أمرها «قَالَتْ مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُشِجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» يعنى أن المرأه سبقت بالكلام لتورك الذنب على يوسف فقالت لزوجها ليس جزاء من أراد بأهلك خيانه إلا أن يسجن أو أن يضرب بالسياط ضربا وجيعا عن ابن عباس قالوا و لو صدق حبها لم تقل ذلك و لآثرته على نفسها و لكن حبها إياه كان شهوه «قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي» لما ذكرت المرأه ذلك لم يجد يوسف بدا من تنزيه نفسه بالصدق و لو كفت عن الكذب عليه لكف ع عن الصدق عليها فقال هى التى طالبتنى بالسوء الذى نسبتنى إليه «وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا» قال ابن عباس و سعيد بن جبير أنه صبى فى المهد و قيل كان الصبى ابن أخت زليخا و هو ابن ثلاثه أشهر و روى عن ابن عباس أيضا فى روايه أخرى و عن الحسن و قتاده و عكرمه أنه شهد رجل حكيم من أهلها بتبرئه يوسف و اختاره الجبائى قال لو كان طفلا- لكان قوله معجزا لا يحتاج معه إلى البيان و قيل كان الرجل ابن عم زليخا و كان جالسا مع زوجها عند الباب عن السدى «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا» أى شق «مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ» المرأه «وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» فيما قال يعنى يوسف لأنه كان هو القاصد و هى الدافعه «وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ» أى من خلف «فَكَذَبَتْ» المرأه «وَ هُوَ» أى يوسف «مِنَ الصَّادِقِينَ» لأنه الهارب و هى الطالبه و هذا أمر ظاهر و استدلال صحيح «فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ» أى فلما رأى زوجها قميص شق من خلف عرف خيانه المرأه ف «قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» و قيل هو من قول الشاهد و إنما وصف كيدهن بالعظم لأنها حين فاجأت زوجها عند الباب لم يدخلها دهش و لم تتحير فى أمرها و وركت الذنب على يوسف (عليه السلام) و لأن قليل حيل النساء أسبق إلى قلوب الرجال من كثير حيل الرجال «يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا» يعنى أن الشاهد قال ليوسف يا يوسف أمسك عن هذا الحديث أى عن ذكرها حتى لا يفشو فى البلد عن ابن عباس و قيل إنما قاله زوجها و قيل معناه لا تلتفت يا يوسف إلى هذا الحديث و لا تذكره على سبيل طلب البراءه فقد ظهرت براءتك عن أبى مسلم

و الجبائى ثم أقبل على زليخا فقال «وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ» أى سلى زوجك أن لا يعاقبك على ذنبك «إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» أى من المذنبين و قيل إنه لم يكن غيورا سلبه الله الغيره لطفًا منه بيوسف حتى كفى شره و لذلك قال ليوسف أعرض عن هذا و اقتصر على هذا القدر و قيل معناه استغفري الله من ذنبك و توبى إليه فإن الذنب كان منك لا من يوسف فإنهم كانوا يعبدون الله تعالى مع عبادتهم الأصنام.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٣٠ الى ٣٥]

إشاره

وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَ قَالَتِ أَخْرِجِي عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَ لَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصِيبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيُسْجَنَّنَّهُ حَتَّىٰ جِئَ (٣٥)

القراءه

روى عن على (عليه السلام) و عن على بن الحسين و محمد بن على و جعفر بن

محمد (عليه السلام) و عن الحسن بخلاف و يحيى بن يعمر و قتاده بخلاف و مجاهد بخلاف و ابن محيصن قد شعفها بالعين

و روى عن أبى جعفر متكأ بغير همز مشدد التاء و الباقون متكأ بالهمزة و التشديد و روى فى الشواذ قراءة مجاهد متكأ خفيفه ساكنه التاء و روى ذلك عن ابن عباس و قرأ أبو عمر و حاشى الله و الباقون «حاشَ لِلَّهِ» و روى عن ابن مسعود و أبى بن كعب حاشى الله و عن الحسن حاشى الإله و فى روايه أخرى عنه حاشى لله بسكون الشين و قرأ يعقوب وحده السجىن أحب إلى بفتح السين و الباقون بكسرهما.

الحجج

قال الزجاج معنى شعفها بالعين ذهب بها كل مذهب مشتق من شعفات الجبال أى رءوس الجبال يقال فلان مشعوف بكذا أى قد ذهب به الحب أقصى المذاهب و قال ابن جنى معناه وصل حبه إلى قلبها فكاد يحرقه لحدته و أصله من البعير يهناً بالقطران فتصل حراره ذلك إلى قلبه قال امرؤ القيس:

لتقتلنى و قد شعفت فؤادها كما شعف المهنوء الرجل الطالى

و أما القراء المشهوره «شَعَفَهَا» بالعين فمعناه أنه خرق شغاف قلبها و هو غلافه فوصل إلى قلبها و أما المتكأ فهو ما يتكأ عليه الطعام أو شراب أو حديث و أصله موتكأ مفتعل من وكات مثل مؤترن من الوزن و أما من قرأ متكأ فيجوز أن يكون مفتعلا من قوله:

إذ شرب المرضه قال أوكى على ما فى سقائك قد روينا

يقال أوكى السقا إذا شددته و أما متكأ فإنهم قالوا المتك الأترج واحده متكه و قيل هو الزماورد و أما حجه أبى عمرو فى قوله حاشى لله فقول الشاعر:

حاشى أبى ثوبان إن به ضنا عن الملحاه و الشتم

و قال أبو على لا يخلو قولهم «حاشَ لِلَّهِ» من أن يكون الحرف الجار فى الاستثناء كما ذكرناه فى البيت أو فاعلا من قولهم حاشى يحاشى و لا- يجوز أن يكون حرف الجر لأن حروف الجر لا يدخل على مثله و لأن الحرف لا يحذف إذا لم يكن فيها تضعيف فإذا بطل ذلك ثبت

أنها فاعل مأخوذ من الحشاء الذى هو الناحيه و المعنى أنه صار فى حشاء أى فى ناحيه مما قذف به و فاعله يوسف و المعنى بعد عن هذا الذى رمى به لله أى لخوفه من الله و مراقبته أمره و من حذف الألف فكما حذف من لم يك و لا أدر و إذا أريد به حرف الجر يقال حاشا و حاش و حشا ثلاث لغات قال الشاعر:

حشا رهط النبى فإن فيهم بحورا لا تقطعها الدلاء

و أما من قرأ حاش الله فعلى أصل اللغه يكون حرف جر كما جاء فى البيت:

" حاشى أبى ثوبان "

و أما حاش الإله فمحذوف من حاشا تخفيفا و هو كقولك حاش المعبود و منه قول الشاعر:

لعن الإله و زوجها معها هند الهنود طويله الثعل

و أما حاش الله فضعيف لالتقاء الساكنين فيه و لإسكان الشين بعد حذف الألف و لا موجب لذلك و أما من فتح السين من السجن فجعله مصدرا و معناه أن أسجن أحب إلى و من كسر فعلى اسم المكان و المعنى نزول السجن أحب إلى.

اللغه

العزير المنيع بقدرته عن أن يضام فى أمره و سمي بذلك لأنه كان ملكا ممتعا بملكه و اتساع مقدرته و قال أبو داود:

دره غاص عليها تاجر جلبت عند عزيز يوم طل

و الفتى الغلام الشاب و المرأه فتاه قال أبو مسلم و الزجاج و تسمى العرب العبد فتى و المكر الفتل بالحيله إلى ما يراد من الطلبه و جاريه ممكوره الساقين أى مفتوله الساقين و اعتدت مأخوذه من العتاد و مثله أعدت و المتكأ الوساده و هو النمرق الذى يتكأ عليه و قيل هو الأترج و أنكر ذلك أبو عبيده قال و لا يمتنع أن يقال قد كان فى ذلك المجلس فواكه و أترج فأما أن يعرف ذلك من هذا القول فلا و الإكبار الإعظام و الإجلال و قال قوم معنى أكبرنه أنهم حضن حين رأينه و أنشدوا قول الشاعر:

يأتى النساء على أطهارهن و لا تأتى النساء إذا أكبرن إكبارا

و أنكر ذلك أبو عبيده و قال لا نعرف ذلك فى اللغه و لكنه يجوز أن يكن قد حضن من

شده إعظامهن إياه و البيت مصنوع لا يعرفه العلماء بالشعر و السجن المنع عن التصرف بالسجن سجن يسجن سجننا و الاعتصام الامتناع عن طلب المعصية و الاستعصام طلب العصمه من الله تعالى و الصاغرين من الصغار صغر يصغر صغارا و هو الذل و الهوان و الصبارة القلب يقال صبا يصبو صبا فهو صاب قال:

إلى هند صبا قلبى و هند مثلها يصبى

و قال:

صبا صبوه بل لج و هو لجوج و زالت له بالأنعمين حدوج

. الإعراب

«وَقَالَ نِسْوَةٌ» إنما حذف فيه حرف التأنيث لأنه تأنيث جمع و تأنيث الجمع تأنيث لفظ يبطل تأنيث المعنى لأنه لا يجتمع فى اسم واحد تأنيثان و كذلك يبطل تذكير المعنى فى رجال و إذا صار كذلك جاز فيه الحمل على اللفظ و الحمل على المعنى فيؤنث و يذكر و قوله «ما هذا بَشَرًا» نصب بشرا على مذهب أهل الحجاز فى إعمال ما عمل ليس فى رفع الاسم و نصب الخبر فأما بنو تميم فلا يعملونها قال:

لستان ما أنوى و ينوى بنو أبى جميعا فما هذان مستويان

تمنوا لى الموت الذى يشعب الفتى و كل فتى و الموت يلتقيان

و روى عن الحسن أنه قرأ ما هذا بشر أى ليس هو بمملوك و هو شاذ و ذلكن كن للخطاب لا للضمير فلا موضع له من الإعراب و الاسم ذا و هو فى موضع رفع على الابتداء و «الَّذِي لُؤْمِنْتَنِي فِيهِ» موصول و صله فى موضع خبره و «لَيْكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ» هذه النون الخفيفة التى يتلقى بها القسم و إذا وقفت عليها وقفت بالألف تقول و ليكونا و هى بمنزلة التنوين الذى يوقف عليه بالألف فى نحو قولك رأيت رجلا قال الأعشى:

و صل على حين العشيات و الضحى و لا تعبد الشيطان و الله فاعبدا

أى فاعبدن فأبدل فى الوقف من النون ألفا ثم بدا لهم فاعله مصدر مضمرة على تقدير بدا لهم بداء و قد أظهره الشاعر فى قوله:

لعلك و الموعود حق لقاءه بدا لك من تلك القلوص بداء

ص: ٣٥٢

و لا يجوز أن يكون ليسجنه في موضع الفاعل لأن الجملة لا تكون فاعلا.

المعنى

ثم ذكر سبحانه شياع هذه القصة فقال «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ» أى جماعه من النساء فى المصر الذى كان فيه الملك و زوجته و يوسف «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ» أى امرأه العزيز تدعو مملوكها إلى نفسها ليفجر بها «قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا» أى أحبته حبا دخل شغاف قلبها «إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أى فى خطأ بين و ذهاب عن طريق الرشد بدعائها مملوكها إلى الفجور بها قال الكلبى هن أربع نسوه امرأه ساقى الملك و امرأه الخباز و امرأه صاحب الدواب و امرأه صاحب السجن و قال مقاتل كن خمسا و زاد امرأه الحاجب «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ» أى لما سمعت المرأه بتعيرهن إياها و قصدهن إشاعه أمرها و سماه مكرأ لأن قصدهن من هذا القول كان أن تريهن يوسف لما وصف لهن من حسنه فخالف ظاهر الكلام باطنه فسمى ذلك مكرأ و قيل لأنها أظهرت لهن حبهما إياه و استكتمتهن ذلك فأظهرنه فسمى ذلك مكرأ «أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ» فاستضافتهن قال وهب اتخذت مأدبه و دعت أربعين امرأه منهن «وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكًا» أى و أعدت لهن وسائد يتكين عليها عن ابن عباس و الاتكاء الميل إلى أحد الشقين و قيل أراد بقوله «مَتَكًا» الطعام من قول العرب اتكأنا عند فلان أى أطمعنا عنده و أصله أن من دعى إلى طعام يعد له المتكأ فيسمى الطعام متكأ على الاستعاره و قال الضحاك كان ذلك الطعام الزماورد و قال عكرمه هو كل ما يجز بالسكين لأنه يؤكل فى الغالب على متكأ و قال سعيد بن جبير أنه كل طعام و شراب على عمومه و به قال الحسن و أما المتك فقد قيل فيه أنه الأترج على ما تقدم بيانه و قال السدى بل هو المجلس و كل شىء يجز بالسكين يقال له متك «وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا» أى و أعطت كل واحده من تلك النسوه سكيناً لتقطع به الفواكه و الأترج على ما هو العاده بين الناس «وَقَالَتِ الْخُرُوجِ عَلَيْهِنَّ» أى و قالت امرأه الملك ليوسف (عليه السلام) و كانت قد أجلسته غير مجلسهن فأمرته بالخروج عليهن فى هياته إما للخدمه و إما للسلام أو ليرينه و لم يكن يتهيأ له أن لا يخرج لأنه بمنزله العبد لها عن الزجاج «فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أُكْبِرْتَهُ» أى أعظمته و تحيرن فى جماله إذ كان كالقمر ليله البدر «وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» بتلك السكاكين على جهه الخطأ بدل قطع الفواكه فما أحسن إلا بالدم و لم يجدن ألم القطع لإشغال قلوبهن بيوسف (عليه السلام) عن مجاهد و المعنى جرحن أيديهن و هذا مستعمل فى الكلام تقول للرجل قد قطعت يدي تريد قد خدشتها و قيل إنهن ابن أيديهن حتى ألقينها عن قتاده «وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ» و حاشى لله أى صار يوسف فى حشا أى ناحيه مما قذف به أى لم يلابسه و المعنى بعد يوسف عن هذا الذى رمى به الله أى لخوفه و مراقبته أمر الله هذا قول أكثر المفسرين قالوا هذا تنزيه ليوسف عما رمت به امرأه العزيز و قال آخرون هذا تنزيه له

من شبه البشر لفرط جماله و يدل على هذا سياق الآية «ما هذا بشراً إن هذا إلاً مَلَكٌ كَرِيمٌ» أى رفع الله منزلته عن منزله البشر فنعوذ بالله أن نقول إنه بشر و معناه أنه منزّه أن يكون بشراً و ليس صورته صورة البشر و لا خلقتة خلقه البشر و لكنه ملك كريم لحسنه و لطافته و

روى عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله ص و هو يصف يوسف حين رآه فى السماء الثانية رأيت رجلاً صورته صورة القمر ليله البدر قلت يا جبريل من هذا قال هذا أخوك يوسف

و قيل معناه ليس هذا إلا ملك كريم فى عفته قال الجبائى و هذا يدل على أن الملك أفضل من بنى آدم لأنهن ذكرن من هو فى نهايه الفضل و لم ينكر الله تعالى ذلك عليهن و هذا من ركيك الاستدلال لأنه سبحانه إنما حكى عن النساء إعظامهن ليوسف حين رأين جماله و بعده عن السوء فشبهه بالملك و لم يقصدن كثره الثواب الذى هو حقيقه الفضل و إنما لم ينكره سبحانه عليهن لأنه علم أنهن لم يقصدن فى كلامهن ما حملة عليه الجبائى على أن الظاهر يقتضى أنهن نفين أن يكون يوسف من البشر و قطعن على أنه ملك و هذا كذب و لم ينكره الله سبحانه عليهن لما علم من أنهن يقصدن بذلك تشبيه حاله بحال الملائكه «قالت» امرأه العزيز للنسوة التى عدلنها على محبتها ليوسف «فَدَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ» أى هذا هو ذلك الذى لمتننى فى أمره و فى حبه و شعفى به جعلت إعظامهن إياه عذراً لها و المعنى هذا الذى أصابكن فى رؤيته مره واحده ما أصابكن من ذهاب العقل فكيف عدلتننى فى حبي إياه و أنا أنظر إليه آناء ليلى و نهارى ثم اعترفت ببراءه يوسف و أقرت على نفسها فقالت «وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» أى امتنع عنه و قيل معناه امتنع بالله و سأله العصمه من فعل القبيح و فى هذا دلالة على أن يوسف لم يقع منه قبح ثم توعدهت بإيقاع المكروه به إن لم يطعها فيما تدعوه إليه فقالت «وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ» أى و إن لم يجبنى إلى ما أدعوه إليه ليحبس فى السجن و ليكون من الأذلاء فلما رأى يوسف إصرارها على ذلك و تهديدها له اختار السجن على المعصيه ف «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» معناه يا رب إن السجن أحب إلى و أسهل على مما يدعوننى إليه من الفاحشه و فى هذا دلالة على أن النسوة دعونه إلى مثل ما دعته إليه امرأه العزيز و

فى حديث أبى حمزه الثمالى عن على بن الحسين (عليه السلام) أن النسوة لما خرجن من عندها أرسلت كل واحده منهن إلى يوسف سرا من صاحبتة تسأله الزياره

و قيل إنهن قلن له أطع مولاتك و اقض حاجتها فإنها المظلومه و أنت ظالم و قيل إنهن لما رأين يوسف استأذن امرأه العزيز بأن تخلو كل واحده منهن به و تدعوه إلى ما أرادته منه إلى طاعتها فلما خلون به دعته كل واحده منهن إلى نفسها فلذلك قال مما يدعوننى إليه و يسأل فيقال كيف قال يوسف السجن أحب إلى مما يدعوننى

إليه ولا يجوز أن يراد السجن الذى هو المكان وإن عني به السجن الذى هو المصدر فإن السجن معصيه كما أن ما دعونه إليه معصيه فلا يجوز أن يريده فالجواب أنه لم يرد المحبه التى هى الإراده وإنما أراد أن ذلك أخف على و أسهل و وجه آخر أن المعنى لو كان مما أريده لكان إرادتى له أشد و قيل إن معناه توطيئى النفس على السجن أحب إلى من توطيئى النفس على الزنا عن أبى على الجبائى «وَاللَّاءُ تَصْرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ» بِالطَّفْكَ لَأَنَّ كَيْدَهُنَّ قَدْ وَقَعَ وَحَصَلَ «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» أَمَلُ إِلَيْهِنَّ أَوْ إِلَى قَوْلِهِنَّ بِهِوَى وَ الصَّبُوهُ لَطْفَهُ الْهُوَى «وَأَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ» أَى الْمَسْتَحْقِينَ لَصَفِهِ الذَّمُّ بِالْجَهْلِ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ أَكُنُّ بِمَنْزِلَةِ الْجَاهِلِينَ فِى فَعْلَى «فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ» أَى فَأَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فِيمَا دَعَاهُ فَعَصَمَهُ مِنْ مَكْرَهُنَّ فَإِنَّ قِيلَ مَا مَعْنَى سُؤَالِ يَوْسُفَ اللَّطْفِ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ عَالِمٌ أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُهُ لَا مَحَالَهُ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تَتَعَلَّقَ الْمَصْلُحَةُ بِاللَّطْفِ عِنْدَ الدَّعَاءِ الْمَجْدُدِ وَ مَتَى قِيلَ كَيْفَ عِلْمُ أَنَّهُ لَوْ لَا اللَّطْفَ لَرَكِبَ الْفَاحِشَةَ وَ إِذَا وَجَدَ اللَّطْفَ امْتَنَعَ قَلْنَا لِمَا وَجَدَ فِى نَفْسِهِ مِنَ الشَّهْوَةِ وَ عِلْمُ أَنَّهُ لَوْ لَا لَطْفَ اللَّهِ لَارْتَكَبَ الْقَبِيحَ وَ عِلْمُ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَعْصَمُ أَنْبِيََاءَهُ بِاللَّطْفِ وَ أَنَّ مِنْ لَوْ لَا يَكُونُ لَهُ لَطْفٌ لَا يَبْعَثُهُ اللَّهُ نَبِيًّا قَالَ الْجَبَائِيُّ فِى الْآيَةِ دَلَالَهُ عَلَى جَوَازِ الدَّعَاءِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَكُونُ لِأَنَّ يَوْسُفَ كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ لَهُ لَطْفٌ فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِ وَ مَعَ هَذَا سَأَلَهُ ذَلِكَ وَ لَا تَدُلُّ الْآيَةَ عَلَى مَا قَالَهُ لِمَا قَلْنَا مِنْ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ سَأَلَهُ لِتَجْوِيزِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ لَطْفٌ عِنْدَ الدَّعَاءِ وَ لَوْ لَمْ يَدْعُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَطْفًا فَمَا سَأَلَ إِلَّا- مَا جُوزَ أَنْ لَا يَكُونَ لَوْ لَمْ يَدْعُ «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أَى السَّمِيعُ لِدَعَاءِ الدَّاعِى الْعَلِيمِ بِإِخْلَاصِهِ فِى دَعَائِهِ وَ بِمَا يَصْلُحُهُ مِنَ الْإِجَابَةِ أَوْ يَفْسُدُهُ «ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ» أَى ظَهَرَ لَهُمْ «مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ» وَ إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ لَهُمْ مَعَ تَقْدِيمِ ذِكْرِ النَّسْوَةِ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْمَلِكُ وَ قِيلَ أَرَادَ بِهِ زَلِيخًا وَ أَعْوَانَهَا فَغَلَبَ الْمَذْكَرُ وَ أَرَادَ بِالْآيَاتِ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى بَرَاءَةِ يَوْسُفَ وَ هِىَ قَدْ الْقَمِيصُ مِنْ دُبُرِهِ وَ جِزَ الْأَيْدِىَ عَنِ قَتَادِهِ وَ غَيْرِهِ وَ قِيلَ يَرِيدُ بِالْآيَاتِ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى الْإِيَّاسِ مِنْهُ وَ قَوْلُهُ «بَدَأَ» فَاعْلَهُ مَضْمُرٌ وَ تَقْدِيرُهُ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ بَدَاءً «لَيْسَ جُنَّةٌ حَتَّى جِينِ» وَ دَلَّ لَيْسَ جُنَّةً عَلَيْهِ فَإِنَّ السَّجْنَ هُوَ الَّذِى بَدَأَ لَهُمْ قَالَ السَّدَى وَ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ قَالَتْ لَزَوْجِهَا إِنْ هَذَا الْعَبْدُ قَدْ فَضَحَنِي فِى النَّاسِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَخْبِرُهُمْ أَنِّى رَاوَدْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَ لَسْتُ أَطِيقُ أَنْ أَعْتَذِرَ بَعْدَرِي فَأَمَّا أَنْ تَأْذُنْ لِي فَأُخْرِجَ وَ أَعْتَذِرَ وَ إِمَّا أَنْ تَحْبِسَهُ كَمَا حَبَسْتَنِي فَحْبِسَهُ بَعْدَ عِلْمِهِ بِبَرَاءَتِهِ وَ قِيلَ إِنْ الْغُرْضُ مِنَ الْحَبْسِ أَنْ يَظْهَرَ لِلنَّاسِ أَنَّ الذَّنْبَ كَانَ لَهُ لِأَنَّهُ إِذَا حَبَسَ الْمَجْرِمَ وَ قِيلَ كَانَ الْحَبْسُ قَرِيبًا مِنْهَا فَأَرَادَتْ أَنْ يَكُونَ بِقَرْبِهَا حَتَّى إِذَا أَشْرَفَتْ عَلَيْهِ رَأَتْهُ وَ قَوْلُهُ «حَتَّى جِينِ» قِيلَ إِلَى سَبْعِ سَنِينَ عَنِ عِكْرَمَةَ وَ قِيلَ إِلَى خَمْسِ سَنِينَ عَنِ الْكَلْبِيِّ وَ قِيلَ إِلَى وَقْتِ يَنْسَى حَدِيثَ الْمَرْأَةِ مَعَهُ وَ يَنْقَطِعُ فِيهِ عَنِ النَّاسِ خَبْرَهُ عَنِ الْجَبَائِيِّ.

إشارة

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبُنَّا بِنْتًا وَيَلَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا- يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِنْتًا وَيَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا- يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكُمْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

اللغة

قال الزجاج كانوا يسمون المملوك فتى فجائز أن يكون الفتيان حديثين أو شيخين و قال غيره يقال لعبد فتى و للأمه فتاه و

في الحديث لا يقولن أحدكم عبدى و أمتى و لكن فتاى و فتاتى

و التأويل الخبر عما حضر بما يؤول إليه أمره فيما غاب و لذلك قال قبل أن يأتیکما تأويل القرآن ما يؤول إليه من المعنى أى يرجع إليه و التعليم تفهيم الدلالة المؤديه إلى العلم بالمعنى و قد يكون الإعلام بالمعنى فى القلب و الاتباع اقتفاء الأثر و هو طلب اللحاق بالأول.

الإعراب

هم الثانيه دخلت للتوكيد لأنه لما دخل بينهما قوله «بِالْآخِرَةِ» صارت الأولى كالملغاه و صار الاعتماد على الثانيه كما قال وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ و كما قال أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف (عليه السلام) فى الحبس فقال «وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ» و التقدير فسجن يوسف و دخل معه السجن فتیان أى شابان حدثان و قيل إنهما مملوكان لملك مصر الأكبر و اسمه وليد بن ريان و كان أحدهما صاحب شرابه و الآخر

صاحب طعامه فمضى إليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمه و ظن أن الآخر ساعده على ذلك و ماله عليه عن قتاده و السدى «قالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا» هو من رؤيا المنام كان يوسف (عليه السلام) لما دخل السجن قال لأهله إنى أعبى الرؤيا فقال أحد العبدین لصاحبه هلم فلنجره فسأله من غير أن يكونا رأيا شيئا عن ابن مسعود و قيل بل رؤياهما على صحه و حقيقه و لكنهما كذبا فى الإنكار عن مجاهد و الجبائى و

قيل إن المصلوب منهما كان كاذبا و الآخر صادقا عن أبى مجلز و رواه على بن إبراهيم أيضا فى تفسيره عنهم (عليه السلام)

و المعنى قال أحدهما و هو الساقى رأيت أصل حبله عليها ثلاثه عناقيد من عنب فجنيتها و عصرتها فى كأس الملك و سقيته إياها و تقديره أعصر عنب خمر أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف قال الزجاج و ابن الأنبارى العرب تسمى الشىء باسم ما يؤول إليه إذا وضح المعنى و لم يلتبس يقولون فلان يطبخ الآجر و يطبخ الدبس و إنما يطبخ اللبن و العصير و قال قوم إن بعض العرب يسمون العنب خمرا حكى الأصمعى عن المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيا معه عنب فقال له ما معك قال خمر و هو قول الضحاك فيكون معناه أنى أعصر عنبا و روى فى قراءة عبد الله و أبى جميعا إنى رأيتنى أعصر عنبا «و قالَ الْأَخْرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ» معناه و قال صاحب الطعام إنى رأيت كان فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز و ألوان الأطمعه و سباع الطير تنهش منه «بِئْسَ بَتَأْوِيلِهِ» أى أخبرنا بتعبيره و ما يؤول إليه أمره «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أى تؤثر الإحسان و الأفعال الجميله قال الضحاك

كان إذا ضاق على رجل مكانه وسع له و إن احتاج جمع له و إن مرض قام عليه و هو المروى عن أبى عبد الله (عليه السلام)

و قال الزجاج جاء فى التفسير أنه كان يعين المظلوم و ينصر الضعيف و يعود العليل قال و قيل «مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أى ممن يحسن تأويل الرؤيا قال و هذا دليل على أن أمر الرؤيا صحيح و أنها لم تزل فى الأمم السالفه و

فى الحديث أن الرؤيا جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوه

و تأويله أن الأنبياء يخبرون بما سيكون و الرؤيا تدل على ما سيكون فيكون المعنى فى الآيه إنا نعلمك أو نظنك ممن يعرف تعبير الرؤيا و من ذلك

قول أمير المؤمنين (عليه السلام) قيمه كل امرئ ما يحسنه

و قال أبو مسلم نراك من المحسنين إلينا إن فسرت لنا الرؤيا و هو قول ابن أبى إسحاق ثم ذكر لهما يوسف (عليه السلام) ما يدل على أنه عالم بتفسير الرؤيا «قالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ» فى منامكما «إِلَّا تَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ» فى اليقظه «قِيلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا» التأويل و ذلك أنه كره أن يخبرهما بالتأويل لما على أحدهما فيه من البلاء فأعرض عن سؤالهما و أخذ فى غيره عن السدى و ابن إسحاق و قيل إنه إنما قدم هذا ليعلم ما خصه الله تعالى به من النبوه و ليقبلا عنه فقال لا يأتیکما طعام من منزلكما إلا أخبرتكما بصفه ذلك الطعام و كيفيته قبل أن يأتیکما كما

قال عيسى بن مريم (عليه السلام) وَ أَتَّبِعُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ عن الحسن و الجبائي «ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي» كأنهما قالوا له كيف عرفت تأويل الرؤيا و لست بكاهن و لا عراف فأخبرهما أنه رسول الله و أنه تعالى علمه ذلك و تعليمه تعالى قد يكون بأن يفعل العلم في قلبه و قد يكون بالوحي و قد يكون بنصب الأدله التي يدرك بها العلم «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» معناه أنه لا يستحق هذه الرتبة الخطيره إلا المؤمنون المخلصون و إنى تركت طريقه قوم لا- يؤمنون فلذلك خصنى الله بهذه الكرامه «وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي» أى شريعته آبائى «إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» أى لا- ينبغى لنا و نحن معدن النبوه و أهل بيت الرساله أن ندين بغير التوحيد «ذَلِكَ» أى التمسك بالتوحيد و البراءه من الشرك و قيل النبوه و العلم «مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا» بأن خصنا بها «وَ عَلَى النَّاسِ» أيضا بإرسالنا إليهم و اتباعهم إيانا و اهتدائهم بنا «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» نعم الله تعالى و قد كان يوسف (عليه السلام) فيما بينهم زمانا و لم يحك الله سبحانه أنه دعا إلى الدين و كانوا يعبدون الأصنام لأنه لم يطمع منهم فى الاستماع و القبول فلما رأهم عارفين بإحسانه مقبلين عليه رجا منهم القبول منه فدعاهم إلى التوحيد على ما أمر الله سبحانه له فى قوله اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ قد روى أن صاحبه السجن قال له لقد أحببناك حين رأيناك فقال لا تحببنا فو الله ما أحببنا أحد إلا دخل على من حبه بلاء أحببنا عمى فنسبت إلى السرقة و أحببنا أبى فألقيت فى الحب و أحببنا امرأه العزيز فألقيت فى السجن.

إشارة

يا صاحِبِي السُّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمْراً أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) يا صاحِبِي السُّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسِئَ قِي رَبُّهُ خَمَراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيسِئَ لِبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (٤١) وَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنساهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السُّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

اللغة

الصاحب الملازم لغيره على وجه الاختصاص و هو خلاف ملازمه الاتصال و منه أصحاب الشافعي و أصحاب أبي حنيفة و أصحاب النبي ص لملازمتهم له و كونهم معه في حروبه و صاحب السجن هما الملازمان له بالكون فيه و القيم المستقيم و أصله من قام يقوم و الاستفتاء طلب الفتيا و البضع القطعة من الدهر و أصله من القطع و البضعة القطعة من اللحم و منه

الحديث فاطمه بضعه مني يؤذيني من آذاها

. المعنى

«يا صاحِبِي السُّجْنِ» هذا حكاية نداء يوسف للمستفتين له عن تأويل رؤياهما أى يا ملازمى السجن «أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» أى أأملاك متباينون من حجر و خشب لا تضر و لا تنفع خير لمن عبدها أم الله الواحد القهار الذى إليه الخير و الشر و النفع و الضر و هذا ظاهره الاستفهام و المراد به التقرير و إلزام الحجج و القاهر هو القادر الذى لا يمتنع عليه شىء ما «ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» ابتداء بخطاب اثنين ثم خاطب بلفظ الجمع لأنه قصد جميع من هو فى مثل حالهما و قيل إنه خطاب لجميع من فى الحبس و معناه أن هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله و سميتوها بأسماء يعنى الأرباب و الآلهة هى أسماء فارغة عن المعانى لا حقيقه لها ما أنزل الله من حجه بعبادتها «إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» أى ما الحكم و الأمر إلا لله فلا يجوز العبادة و الخضوع و التذلل إلا لله «أَمْراً أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» أى و قد أمركم أن لا تعبدوا غيره «ذَلِكَ» أى ذلك الذى بينت لكم من توحيده و عبادته و ترك عباده غيره «الدِّينُ الْقَيِّمُ» أى الدين المستقيم الذى لا عوج فيه «وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» قال ابن عباس ما للمطيعين من الثواب و للعاصين من العقاب و قيل لا يعلمون صحه ما أقوله لعدولهم عن النظر و الاستدلال ثم عبر (عليه السلام) رؤياهما فقال «يا صاحِبِي السُّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسِئَ قِي رَبُّهُ خَمَراً» بدأ بما هو الأهم و هو الدعاء إلى توحيد الله و عبادته و إظهار معجزته ثم بتعبير رؤيا الساقى فروى أنه قال أما العناقيد الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تبقى فى السجن ثم يخرجك الملك اليوم الرابع و تعود إلى ما كنت عليه و أجرى على مالكة صفه الرب لأنه عبده فأضافه إليه كما

يقال رب الدار و رب الضيعة «وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُضَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ» يريد بالآخر صاحب الطعام روى أنه قال بئس ما رأيت أما السلال الثلاث فإنها ثلاثه أيام تبقى فى السجن ثم يخرجك الملك فيصلبك فتأكل الطير من رأسك فقال عند ذلك ما رأيت شيئا و كنت ألعب فقال يوسف «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ» أى فرغ من الأمر الذى تسألان و تطلبان معرفته و ما قلته لكما فإنه نازل بكما و هو كائن لا محاله و فى هذا دلالة على أنه كان يقول ذلك على جهة الإخبار عن الغيب بما يوحى إليه لا كما يعبر أحدنا الرؤيا على جهة التأويل «وَقَالَ» يوسف «لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا» معناه للذى علم من طريق الوحي أنه ناج أى متخلص كما فى قوله تعالى إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهٗ هذا قول الأكثرين و اختيار الجبائى و قال قتاده للذى ظنه ناجيا لأنه لا يحكم بصدقه فيما قصه من الرؤيا و الأول أصح «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» أى اذكرنى عند سيدك بأنى محبوس ظلما «فَأَنْسَاءُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ» يعنى أنسى الشيطان يوسف ذكر الله تعالى فى تلك الحال حتى استغاث بمخلوق فالتمس من الناجى منهما أن يذكره عند سيده و كان من حقه أن يتوكل فى ذلك على الله سبحانه

«فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» أى سبع سنين عن ابن عباس و روى ذلك عن على بن الحسن (عليه السلام) و أبى عبد الله (عليه السلام)

و قيل معناه فأنسى الشيطان الساقى ذكر يوسف عند الملك فلم يذكره حتى لبث فى السجن عن الحسن و محمد بن إسحاق و الجبائى و أبى مسلم و على هذا فتقديره فأنساه الشيطان ذكر يوسف عند ربه و قد

روى عن النبى ص أنه قال عجبت من أخى يوسف (عليه السلام) كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق

و

روى أنه (عليه السلام) قال لو لا كلمته ما لبث فى السجن طول ما لبث

يعنى قوله «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» ثم بكى الحسن و قال إنا إذا أنزل بنا أمر فزعنا إلى الناس و

روى عن أبى عبد الله (عليه السلام) قال جاء جبرائيل (عليه السلام) فقال يا يوسف من جعلك أحسن الناس قال ربي قال فمن حبيك إلى أبيك دون إخوانك قال ربي قال فمن ساق إليك السياره قال ربي قال فمن صرف عنك الحجاره قال ربي قال فمن أنقذك من الجب قال ربي قال فمن صرف عنك كيد النسوة قال ربي قال فإن ربك يقول ما دعاك إلى أن تنزل حاجتك بمخلوق دونى البث فى السجن بما قلت بضع سنين

و عنه فى روايه أخرى قال فبكى يوسف عند ذلك حتى بكى لبيكائه الحيطان فتأذى ببيكائه أهل السجن فصالحهم على أن يبكى يوما و يسكت يوما فكان فى اليوم الذى يسكت أسوأ حالا

و القول فى ذلك أن الاستعانه بالعباد فى دفع المضار و التخلص من المكاره جائز غير منكر و لا قبيح بل ربما يجب ذلك و كان نبينا ص يستعين فيما ينوبه بالمهاجرين و الأنصار و غيرهم و لو كان قبيحا لم يفعله فلو صحت هذه الروايات فإنما عوتب يوسف ع فى ترك عادته الجميله فى الصبر و التوكل على الله سبحانه

فى كل أموره دون غيره وقتا ما ابتلاء و تشديدا و إنما كان يكون قبيحا لو ترك التوكل على الله سبحانه و اقتصر على غيره و فى هذا ترغيب فى الاعتصام بالله تعالى و الاستعانه به دون غيره عند نزول الشدائد و إن جاز أيضا أن يستعان بغيره و اختلف فى البضع فقال بعضهم البضع ما بين الثلاث إلى الخمس عن أبى عبيده و قيل إلى السبع عن قطرب و قيل إلى التسع عن الأصمعى ذكره الزجاج و قول قطرب مروى عن مجاهد و قول الأصمعى مروى عن قتاده و قال ابن عباس و هو ما دون العشره و أكثر المفسرين على أن البضع فى الآيه سبع سنين قال الكلبي و هذه السبع سوى الخمسه التى كانت قبل ذلك و

روى عن أبى عبد الله (عليه السلام) قال علم جبرائيل (عليه السلام) يوسف فى حبسه فقال قل فى دبر كل صلاه فريضه اللهم اجعل لى فرجا و مخرجا و ارزقنى من حيث أحتسب و من حيث لا أحتسب

و

روى شعيب العفرقوفى عنه (عليه السلام) قال لما انقضت المده و أذن له فى دعاء الفرج وضع خده على الأرض ثم قال اللهم إن كانت ذنوبى قد أخلقت وجهى عندك فإنى أتوجه إليك بوجه آبائى الصالحين إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب ففرج الله عنه قال فقلت له جعلت فداك أ ندعو نحن بهذا الدعاء فقال ادعوا بمثله اللهم إن كانت ذنوبى قد أخلقت عندك وجهى فإنى أتوجه إليك بوجه نبيك نبى الرحمه و على و فاطمه و الحسن و الحسين و الأئمه (عليه السلام).

ص: ٣٦١

إشارة

وَ قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَ سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخْرَى يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ (٤٤) وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ اذْكَرَ بَعْدَ أُمَّهُ أَنَا أَتْبَكُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَ سَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخْرَى يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْرِضُونَ (٤٩)

القراءة

قرأ حفص دأبا بفتح الهمزة و الباقون بسكونها و قرأ تعصرون بالتاء أهل الكوفة غير عاصم و الباقون بالياء و في الشواذ قراءة ابن عباس و ابن عمر بخلاف و الضحاك و قتاده و زيد بن علي (عليه السلام) و اذكر بعد أمه بالهاء و قراءة الأشهب العقيلي بعد إمه بكسر الهمزة و

قرأ جعفر بن محمد (عليه السلام) و سبع سنابل و قرأ أيضا ما قربتم و قرأ هو و الأ-عرج و عيسى بن عمر و فيه يعصرون بياء مضمومه و صاد مفتوحه.

الحج

قال أبو علي انتصب «دأباً» بما دل عليه تزرعون و فيه علاج و دؤوب فكأنه قال تدأبون فانتصب دأبا به لا بالمضمم و لعل الفتح لغه فيه فيكون كشمع و شمع و نهر و نهر و «يَعْرِضُونَ» يحتمل أمرين أحدهما أن يكون من العصر الذي يراد به الضغط الذي يلحق ما فيه دهن أو ماء نحو الزيتون و السمسم و العنب ليخرج ذلك منه و هذا يمكن أن يكون تأويل الآيه عليه لأن من المتأولين من يحكى أنهم لم يعصروا أربع عشر سنة زيتا و لا- عنباً فيكون المعنى تعصرون للخصب الذي أتاكم كما كنتم تعصرون أيام الخصب من قبل الجذب الذي دفعتم إليه و يكون يعصرون من العصر الذي هو الالتجاء إلى ما يقدر به من النجاة قال ابن مقبل:

و صاحبي صهوه مستوهل زعل يحول بين حمار الوحش و العصر

أى يحول بينه و بين الملجأ الذي يقدر به النجاة و قال أبو زيد الطائي:

صاديا يستغيث غير مغاث و لقد كان عصره المنجود

قال أبو عبيده يعصرون ينجون و أنشد للبيد:

ص: ٣٦٢

فبات و أسرى القوم آخر ليلهم و ما كان وقافا بدار معصر

فأما من قال «يَعَصِرُونَ» بالياء فإنه جعل الفاعلين الناس لأن ذكرهم قد تقدم و من قرأ بالتاء وجه الخطاب إلى المستفتين الذين قالوا أفتنا و يجوز أن يريدهم و غيرهم إلا أنه غلب الخطاب على الغيبة كما يغلب التذكير على التأنيث و أما الأمه فهو النسيان يقال أمه يأمه إذا نسي أنشد أبو عبيده:

أمهت و كنت لا أنسى حديثا كذاك الدهر يؤذى بالعقول

و الأمه النعمه فيكون المراد بعد أن أنعم عليه بالنجاه و أما يعصرون بضم الياء فيجوز أن يكون من العصره و العصر للنجاه و يجوز أن يكون من عصرت السحابه ماءها عليهم و

في كتاب على بن إبراهيم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قرأ رجل على أمير المؤمنين على (عليه السلام) هذه الآيه فقال يعصرون بالياء و كسر الصاد فقال ويحك و أى شىء يعصرون أ يعصرون الخمر فقال الرجل يا أمير المؤمنين فكيف أقرأها قال عام فيه يغاث الناس و فيه يعصرون مضمومه الياء مفتوحه الصاد أى يمطرون بعد سنى المجاعه

و يدل عليه قوله وَ أَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا.

اللغه

الملك القادر الواسع المقدر الذى إليه السياسه و التدبير و الرؤيا ما يراه النائم و يرجع إلى الاعتقاد ثم يكون على وجوه منها ما يكون من الله تعالى و ملائكته و هو الذى له تعبير و تأويل و منها ما يكون من الشيطان و لا تأويل له و منها ما يكون من جهه النائم و اعتقاداته أو يكون بقيه اعتقاد كان اعتقده و العجف ذهاب السمن و الذكر أعجف و الأثنى عجفاء و جمعها عجاف و لا يجمع أفعل على فعال إلا هذا و العبر و التعبير تفسير الرؤيا و هو من عبور النهر و نحوه و الأضغاث الأحلام الملتبسه و الضغث الحزمه من كل شىء و قال الترمذى الضغث ملء اليد من الحشيش و منه وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا أَى قبضه و الفعل منه أضغث و قيل الضغث خلط قش المد و هو غير متشاكل و لا متلائم فشبهوا به تخليط المنام و الأحلام جمع حلم و هو الرؤيا فى النوم و يقال حلم يحلم حلما و احتلم فهو حالم و الحلم بكسر الحاء ضد الطيش و هو الأناة و كان أصل حلم النوم من هذا لأنه حال أناة و سكون و تأويل الرؤيا تفسير ما يؤول إليه معناه و تأويل كل شىء تفسير ما يؤول إليه معنى الكلام و الادكار افتعال من الذكر و أصله اذتكار لكن التاء أبدل منها الدال و أدغمت الدال فى الدال و يجوز اذكر بالذال أيضا إلا أن

الأجود الدال و هو طلب الذكر و نظيره الاستذكار و التذكر و الأمة الجماعه تؤم أمرا و الأمة المده و هى الجمله من الحين و الصديق الكثير التصديق للحق و قيل هو الكثير الصدق و فعيل بناء المبالغه و الكثره و الفتيا الجواب عن حكم المعنى و قد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا- يكون فتيا و الزرع إلقاء البذر فى الأرض للنبات و منه المزارعه بالثلاث أو الربيع و تسمى المخابره أيضا و هى مأخوذه من فعل أهل خيبر و الدأب العاده يقال دأب يدأب دأبا و يقال دأب فى عمله يدأب دعوبا اجتهد و أدأبته أنا إدأبا و ذر و دع بمعنى، لم يجىء منهنما لفظه الماضى استغنى عن ذلك بترك و الشده و الصلابه و الصعوبه نظائر و قيل الشده تكون فى سبعة أصناف فى العقد و المد و الزمان و الغضب و الألم و الشراب و البدن و الإحصان مثل الإحراز أحصنه إحصانا جعله فى حرز و الغوث هو نفع يأتى على شده حاجه ينقى المضره و منه الغيث المطر الذى يأتى فى وقت الحاجه قال الأزهرى غاث الله البلاد يغيثها و قد غيشت الأرض فهى مغيثه و مغيوثه و الغيث الكلاء ينبت من ماء السماء و جمعه غيوث و الغياث أصله الواو و منه الغوث و غوث تغويثا إذا قال وا غوثاه من يغيثنى و يغات يحتمل أن يكون من الواو و يحتمل أن يكون من الياء.

الإعراب

«إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ» هذه اللام دخلت للتبيين المعنى إن كنتم تعبرون ثم بين باللام فقال للرؤيا عن الزجاج و هذه اللام تزداد فى المفعول به إذا تقدم على الفعل تقول عبرت الرؤيا و للرؤيا عبرت و قد جاء مثله فى قوله لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ و قد جاء فيما ليس بمقدم من المفعول نحو قوله رَدِفَ لَكُمْ و آخر لا ينصرف لأنه صرف عن جهه صواحبه التى جاءت بالألف و اللام و هذه جاءت خاصه بغير ألف و لام فكأنها عدلت عن وجهها تقول هذه النسوه الوسط و الكبر و لا تقول وسط و كبر و تقول نسوه آخر فلما خالفت أخواتها ترك صرفها و موضعها فى الآيه الرابعه جر تقديره و فى آخر أضغاث أحلام تقديره هى أضغاث أحلام " يوسف " و المراد به يا يوسف و يجوز حذف حرف النداء فى المنادى المفرد العلم تقول يا زيد أقبل و زيد أقبل قال:

محمد تفد نفسك كل نفس إذا ما خفت من أمر وبال

و يروى تبالا أراد يا محمد.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن سبب نجاه يوسف من السجن و هو أنه لما قرب الفرج رأى الملك رؤيا هالته و أشكل تعبيرها على قومه حتى عبرها يوسف فقال سبحانه «وَقَالَ

الْمَلِكِ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ» يعنى وقال ملك مصر و هو الوليد بن ريان و العزيز وزيره و فيما رواه الأكثرون إنى أرى فى منامى سبع بقرات سمان «يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ» أى سبع بقرات آخر «عِجَافٌ» أى مهازِيل فدخلت السمان فى بطون المهازِيل حتى لم أر منهم شيئاً «وَسَبْعٌ سُبُلَاتٍ خُضِرٍ» أى و أرى فى منامى سبع سنبلات قد انعقد حبها «وَأُخْرٌ» أى و سبعا آخر «يَابِسَاتٍ» قد احتصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ» أى جمع الأشراف و قيل جمع السحرة و الكهنة و قص رؤياه عليهم و قال يا أيها الأشراف أو الجماعة «أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ» أى عبروا ما رأيت فى منامى و بينوا لى الفتوى فيه و هو حكم الحادثه «إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ» معناه إن كنتم عابرين للرؤيا و قيل إن اللام تفيد معنى إلى أى إن كنتم توجهون العبارة إلى الرؤيا «قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» أى هذه أباطيل أحلام عن الكلبي و قيل تخاليط أحلام عن قتاده و المعنى هذا منامات كاذبه لا يصح تأويلها «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ» التى هذه صفتها «بِعَالَمِينَ» و إنا نعلم تأويل ما يصح و كان جهل الملأ بتأويل رؤيا الملك سبب نجاه يوسف لأن الساقى تذكر حديث يوسف فجثا بين يديه و قال يا أيها الملك إنى قصصت أنا و صاحب الطعام على رجل فى السجن منامين فخبير بتأويلهما و صدق فى جميع ما وصف فإن أذنت مضيت إليه و أتيتك من قبله بتفسير هذه الرؤيا فذلك قوله «وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّهَ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ» عن الكلبي و قوله «وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّهَ» معناه تذكر شأن يوسف و ما وصاه به بعد حين من الدهر و زمان طويل عن ابن عباس و الحسن و مجاهد و قتاده و هاهنا حذف يدل الكلام عليه و هو فأرسلون إلى يوسف فأرسل فأتى يوسف فى السجن و قال له «يُوسُفُ» أى يا يوسف «أَيُّهَا الصِّدِّيقُ» أى الكثير الصدق فيما تخبر به «أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ» إلى قوله «يَابِسَاتٍ» فإن الملك رأى هذه الرؤيا و اشتبه تأويلها «لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ» يعنى الملك و أصحابه و العلماء الذين جمعهم لتعبير رؤياه «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» فضلك و علمك فيخرجوك من السجن و قيل لعلهم يعرفون تأويل رؤيا الملك «قَالَ» يوسف فى جوابه معبرا و معلما أما البقرات السبع العجاف و السنابل السبع اليابسات فالسنون الجذبه و أما السبع السمان و السنابل السبع الخضر فإنهن سبع سنين مخصبات ذوات نعمه و أنتم تزرعون فيها فذلك قوله «تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا» أى فازرعوا سبع سنين متواليه عن ابن عباس أى زراعته متواليه فى هذه السنين على عادتك فى الزراعة سائر السنين و قبل دأبا أى بجد و اجتهاد فى الزراعة و يجوز أن يكون حالا فيكون معناه تزرعون دائبين «فَمَا حَصَدْتُمْ» من الزرع «فَعَدُّوهُ» اتركوه «فِي سُبُلِهِ» لا تذروه و لا تدوسوه «إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ» و إنما أمرهم بذلك ليكون أبقى و أبعد من الفساد يعنى أن ما

أردتم أكله فدوسوه و اتركوا الباقي فى السنبل و قيل إنما أمرهم بذلك لأن السنبل لا يقع فيه سوس و لا يهلك و إن بقى مده من الزمان و إذا صفى أسرع إليه الهلاك «ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ» أى سبع سنين مجدبات صعاب تشد على الناس «يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ» معناه تأكلن فيها ما قدمتم فى السنين المخصبه لتلك السنين و إنما أضاف الأكل إلى السنين لأنه يقع فيها كما قال الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو و غفله و ليلك نوم و الردى لك لازم

و سعيك فيما سوف تكره غبه كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

و قيل أراد بالأكل الإفناء و الإهلاك كما يقال أكل السير لحم الناقه أى ذهب به قال زيد بن أسلم كان يوسف يصنع طعام اثنين فيقربه إلى رجل فيأكل نصفه حتى كان ذات يوم قربه إليه فأكله كله فقال هذا أول يوم من السبع الشداد «إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ» معناه إلا- شيئًا قليلًا- مما تحرزون و تدخرون «ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ» معناه ثم يأتى من بعد هذه السنين الشداد عام فيه يمطر الناس من الغيث و قيل يغاثون من الغوث و الغياث أى ينقذون و ينجون من القحط «و فِيهِ يَعْصِرُونَ» الثمار التى تعصر فى الخصب كالعنب و الزيت و السمسم عن ابن عباس و مجاهد و قتاده ينجون من الجذب من العصر و العصر و الاعتصار الالتجاء قال عدى بن زيد:

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

و هذا القول من يوسف إخبار بما لم يسألوه منه و لم يكن فى رؤيا الملك بل هو مما أطلعه الله تعالى عليه من علم الغيب ليكون من آيات نبوته (عليه السلام) قال البلخى و هذا التأويل من يوسف يدل على بطلان قول من يقول إن الرؤيا على ما عبرت أولاً لأنهم كانوا قالوا هى أضغاث أحلام فلو كان ما قالوه صحيحا لكان يوسف لا يتأولها.

إشارة

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسِئْلُهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَا حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصِيْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

القراءة

قرأ ما بال النسوه بضم النون الأعشى و البرجمي عن أبي بكر عن عاصم و الباقون بكسر النون و هما لغتان و قد تقدم ذكر قراءه أبي عمرو حاشا لله بالألف و مر بيانه.

اللغة

الخطب الأمر الذي يعظم شأنه فيخطب الإنسان فيه صاحبه يقال هذا خطب جليل قال الزجاج حصحص الحق اشتقاقه من الحصه أى بانت حصه الحق و جهته من حصه الباطل و قال غيره هو مكرر من قولهم حص شعره إذا استأصل قطعه و أزاله عن الرأس فيكون معناه انقطع الحق عن الباطل بظهوره و بيانه و مثله كبوا و كبكبوا و كف الدمع و كفكفه فهو زياده تضعيف دل عليه الاشتقاق قال:

قد حصت البيضة رأسى فما أطعم يوما غير تهجاع

و حصحص البعير بثفناته فى الأرض إذا حرك حتى تستبين آثارها فيه قال حميد:

و حصحص فى صم الحصى ثفناته و رام القيامه ساعه ثم صمما

و الكيد الاحتيال سرا لإيصال الضرر إلى الغير.

الإعراب

ذلك مرفوع بالابتداء و إن شئت على خبر الابتداء كأنه قال أمرى ذلك و موضع «ما رحم ربى» نصب على الاستثناء.

ثم أخبر سبحانه عن إخراج يوسف من السجن فقال «وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ» و في الكلام حذف يدل ظاهره عليه و هو فلما رجع صاحب الشراب و هو رسول الملك إلى الملك بجواب يوسف و تعبيره رؤياه «قَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ» أى بيوسف الذى عبر رؤياى «فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ» أى لما جاء يوسف رسول الملك فقال له أجب الملك أبى يوسف أن يخرج مع الرسول حتى تبين براءته مما قذف به و «قَالَ» للرسول «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ» أى سيدك و هو الملك «فَسَيِّئُهُ مَا بِالِالنِّسْوَةِ» أى ما حالهن و ما شأنهن و المعنى فاسأل الملك أن يتعرف حال النسوة «اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» ليعلم صحه براءتى و لم يفرد امرأه العزيز بالذكر حسن عشره منه و رعايه أدب لكونها زوجه الملك أو زوجه خليفه الملك فخلطها بالنسوة و قيل أنه أرادهن دونها لأنهن الشاهدات له عليها ألا ترى أنها قالت الآن حصحص الحق و هذا يدل على أن النسوة كن ادعين عليه نحو ما ادعته امرأه العزيز قال ابن عباس لو خرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه ما زالت فى نفس العزيز منه حاله يقول هذا الذى راود امرأتى و قيل أشفق يوسف من أن يراه الملك بعين مشكوك فى أمره متهم بفاحشه فأحب أن يراه بعد أن يزول عن قلبه ما كان فيه و

روى عن النبى ص أنه قال لقد عجبت من يوسف و كرمه و صبره و الله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف و السمان و لو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجونى من السجن و لقد عجبت من يوسف و صبره و كرمه و الله يغفر له حين أتاه الرسول فقال ارجع إلى ربك و لو كنت مكانه و لبثت فى السجن ما لبثت لأسرع الإجابة و بادرتهم الباب و ما ابتغيت العذر إنه كان لحليما ذا أناه

«إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِيهِمْ عَلِيمٌ» أى إن الله عالم بكيدهن قادر على إظهار براءتى و قال إن سيدى الذى هو العزيز عليم بكيدهن استشهده فيما علم من حاله عن أبى مسلم و الأول هو الوجه «قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ» معناه أن الرسول رجع إلى الملك و أخبره بما قاله يوسف (عليه السلام) فأرسل إلى النسوة و دعاهن و قال لهن ما شأنكن و ما أمركن إذا طلبتن يوسف عن نفسه و دعوته إلى أنفسكن «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» هذه كلمه تنزيه أى نزهن يوسف مما اتهم به فقلن معاذ الله و عياذا بالله من هذا الأمر و ما علمنا عليه من سوء و خيانه و ما فعل شيئا مما نسب إليه و اعترفن ببراءته و بأنه حبس مظلوما «قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصِيَ حَصَّ الْحَقُّ» أى ظهر و تبين و حصل على أمكن وجوهه عن ابن عباس و مجاهد و قتاده و كان معناه انقطع الحق عن الباطل بظهوره و بيانه «أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» فى قوله هى راوَدْتِنِي عَنْ نَفْسِي اعترفت بالكذب على نفسها فيما اتهم يوسف به و إنما حملها على الصدق انقطاع طمعها منه فجمع الله ليوسف فى إظهار براءته و نزاهته عما قذف به بين الشهاده و الإقرار حتى لا يبقى موضع شك

«ذَلِكَ لِيَعْلَمَ» هذا من كلام يوسف أى ذلك الذى فعلت من ردى رسول الملك إليه فى شأن النسوة ليعلم الملك أو العزيز «أنى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» فى زوجته أى فى حال غيبته عنى عن الحسن و مجاهد و قتاده و الضحاك و أبى مسلم و اتصل كلام يوسف بكلام امرأه العزيز لظهور الدلاله على المعنى و نظيره قوله تعالى وَ جَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذْلَهُ وَ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ و قوله يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ و هو من كلام الملائم- ثم قال فما ذا تَأْمُرُونَ و هو حكاية عن قول فرعون قال الفراء و هذا من أغمض ما يأتى فى الكلام أن يحكى عن واحد ثم يعدل إلى شىء آخر من قول آخر لم يجر له ذكر و قيل بل هو من كلام امرأه العزيز أى ذلك الإقرار ليعلم يوسف أنى لم أخنه فى غيبته بتوريك الذنب عليه و إن خنته بحضرتة و عند مشاهدته عن الجبائى «وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» أى لا يهديهم فى كيدهم و مكرهم «وَ مَا أُبْرِي نَفْسِي» هذا من كلام يوسف عند أكثر المفسرين و قيل بل هو من كلام امرأه العزيز عن الجبائى أى ما أبرئ نفسى عن السوء و الخيانة فى أمر يوسف «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» أى كثيره الأمر بالسوء و الشهوه قد تدعو الإنسان إلى المعصية و الألف و اللام للجنس فيكون المعنى أن كل النفوس كذلك و يجوز أن يكون للعهد فيكون المعنى أن نفسى بهذه الصفة «إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي» أى إلا من رحمه الله تعالى فعصمه بأن لطف له فيكون ما بمعنى من كقوله ما طاب لَكُمْ و يجوز أن يكون معناه إلا مده ما عصم ربي و من قال إنه من كلام يوسف قال إنه أراد الدعاء و المنازعه و الشهوه و لم يرد العزم على المعصية أى لا أبرئ نفسى مما لا تعرى منه طباع البشر و إنما امتنعت عن الفاحشه بحول الله و لطفه و هدايته لا بنفسى قال الحسن إنما قال و ما أبرئ نفسى لأنه كره أن يكون قد زكى نفسه «إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ» بعباده «رَحِيمٌ» بهم.

إشارة

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَمَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

القراءة

قرأ ابن كثير حيث نشاء بالنون و الباقون بالياء.

الحجج

قال أبو علي من قرأ بالياء فيشاء مسند إلى الغائب كما أن يتبوا كذلك و يقوى ذلك قوله وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فكما أن قوله نَشَاءُ وفق لفعل المتبوعين كذلك قوله «حَيْثُ يَشَاءُ» وفق لقوله «يَتَّبِعُونَ» و من قرأ بالنون فإنه على أحد وجهين إما أن يكون أسند المشيئة إليه و هو ليوسف في المعنى لأن مشيئته لما كانت بقوته و إقداره عليه جاز أن ينسب إلى الله و إن كانت ليوسف في المعنى كما قال سبحانه وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى فَأُضِيفَ الرَّمَى إِلَى اللَّهِ لِمَا كَانَ بِقُوَّتِهِ وَ إِنْ كَانَ الرَّمَى لِلنَّبِيِّ ص وَ الْآخِرُ أَنْ يَكُونَ الْمَوْضِعُ الْمَتَّبِعُ مَوْضِعَ نَسْكَ وَ قَرَبَ فَالْمَكْتُوبِ فِيهِ قَرَبَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ يَشَاءُ وَ يَرِيدُهُ فَأَمَّا اللام في قوله «مَكَّنَّا لِيُوسُفَ» و قوله إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ فيجوز أن يكون على حد التي في قوله رَدِفَ لَكُمْ وَ لِلرُّءْيَا تَعْبِيرُونَ يدل على ذلك قوله وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ و قوله «يَتَّبِعُونَ» في موضع نصب على الحال تقديره مكانه متبوعاً حيث يشاء و أما قوله «حَيْثُ يَشَاءُ» فيحتمل موضعه أمرين أحدهما أن يكون في موضع نصب بأنه ظرف و الآخر أن يكون في موضع نصب بأنه مفعول به و يدل على جواز هذا الوجه قول الشماخ:

و حلاءها عن ذى الأراكة عامر أخو الحضرمي يرضى حيث تكبو النواحر.

اللغة

الاستخلاص طلب خلوص الشيء من شائب الاشتراك كأنه يريد أن يكون خالصاً له و في حديث سلمان الفارسي (رض) أنه كاتبه أهله على أربعين أوقيه خلاص أي ما أخلصته النار من الذهب و كذلك الخلاصه، و المكين من المكانه و أصله التمكن في الأمر يقال مكن مكانه فهو مكين إذا كان له قدر و جاه يتمكن بهما مما يروم و التبوء اتخاذ منزل يرجع إليه و أصله من باء يبيء إذا رجع.

المعنى

«وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ» معناه أن الملك لما تبين له أمانه يوسف و براءته من سوء و علمه أمر بإحضاره فقال ائتنوني به «أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي» أي أجعله خالصاً لنفسى أرجع إليه في تدبير مملكتي و أعمل على إشارته في مهمات أموري «فَلَمَّا كَلَّمَهُ»

هاهنا حذف معناه فلما جاء الرسول يوسف و دعاه خرج من السجن و دخل على الملك و كلمه

ص: ٣٧٠

و عرف فضله و أمانته و عقله لأنه استدل بكلامه على عقله و بعفته على أمانته «قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» أى إنك عندنا ذو مكانه متمكن فى المنزل و القدر نافذ القول و الأمر ظاهر الأمانه مأمون ثقه قال ابن عباس يريد مكنتك من ملكى و جعلت سلطانك فيه كسلطانى و ائتمتلك فيه قال الكلبي أن رسول الملك جاءه فقال له قم فإن الملك يدعوك و ألق ثياب السجن عنك و البس ثيابا جددا فأقبل يوسف و تنظف من درن السجن و لبس ثيابه و أتى الملك و هو يومئذ ابن ثلاثين سنه فلما رآه الملك شابا حدث السن قال يا غلام هذا تأويل رؤياى و لم يعلمه السحره و لا الكهنه قال نعم فأقعه قدامه و قص عليه رؤياه و روى أن يوسف لما خرج من السجن دعا لأهله و قال اللهم اعطف عليهم بقلوب الأخيار و لا تعم عليهم الأخبار فلذلك يكون أصحاب السجن أعرف الناس بالأخبار فى كل بلده و كتب على باب السجن هذا قبور الأحياء و بيت الأحران و تجربه الأصدقاء و شماته الأعداء قال وهب و لما وقف بباب الملك قال حسبى ربي من دنياى و حسبى ربي من خلقه عز جاره و جل ثناؤه و لا إله غيره و لما دخل على الملك قال اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره و أعود بك من شره و شر غيره و لما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعريه فقال له الملك ما هذا اللسان قال لسان عمى إسماعيل ثم دعا له بالعبرانيه فقال له الملك ما هذا اللسان قال لسان آبائى قال وهب و كان الملك يتكلم بسبعين لسانا فكلما كلم يوسف بلسان أجابه بذلك اللسان فأعجب الملك ما رأى منه فقال له إنى أحب أن أسمع رؤياى منك شفاهها فقال يوسف نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب غر حسان كشف لك عنهن النيل فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبنا فبيننا تنظر إليهن و يعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه و بدأ يبسه فخرج من حمته و وحله سبع بقرات عجاف شعث غير مقلصات البطون ليس لهن ضرور و لا أخلاف و لهن أنياب و أضراس و أكف كأكف الكلام و خراطيم كخراطيم السباع فاختلفن بالسمان فافتستهن افتراس السبع فأكلن لحومهن و مزقن جلودهن و حطمن عظامهن و تمششن مخهن فبيننا أنت تنظر و تتعجب إذا سبع سنابل خضر و آخر سود فى منبت واحد عروقه فى الثرى و الماء فبيننا أنت تقول فى نفسك أنى هذا و هؤلاء خضر ثمرة و هؤلاء سود يابسات و المنبت واحد و أصولهن فى الماء إذ هبت ريح فذرت الأرفات من اليابسات السود على الثمرات الخضر فاشتعلت فيهن النار و أحرقتهن و صرن سودا متغيرات فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا ثم انتبهت من نومك مذعورا فقال الملك و الله ما شأن هذه الرؤيا و إن كانت عجا بأعجب مما سمعته منك فما ترى فى رؤياى أيها الصديق فقال يوسف أرى أن تجمع الطعام و تزرع زرا كثيرا

فى هذه السنين المخصبه و بنى الأهراء و الخزائن فتجمع الطعام فيها بقصبه و سنبله ليكون قصبه و سنبله علفا للدواب و تأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس فيكفيك من الطعام الذى جمعته لأهل مصر و من حولها و يأتيك الخلق من النواحي فيمتارون منك بحكمك و يجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد ذلك فقال الملك و من لى بهذا و من يجمعه و يبيعه و يكفى الشغل فيه فعند ذلك «قال» يوسف «اجعلنى على خزائن الأرض» الألف و اللام فى الأرض للعهد دون الجنس يعنى اجعلنى على خزائن أرضك حافظا و واليا و اجعل تدبيرها إلى ف «إِنِّي حَفِيزٌ» أى حافظ لما استودعتنى لحفظه عن أن تجرى فيه خيانه «عَلِيمٌ» بمن يستحق منها شيئا و من لا يستحق فأضعها مواضعها عن قتاده و ابن إسحاق و الجبائى و قيل حفيظ عليم أى كاتب حاسب عن وهب و قيل حفيظ للتقدير فى هذه السنين الجدبه عليم بوقت الجوع حين يقع عن الكلبى و قيل حفيظ للحساب عالم بالألسن و ذلك أن الناس يقدون من كل ناحيه و يتكلمون بلغات مختلفه عن السدى و فى هذا دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه فإنه عرف الملك حاله ليقيمه فى الأمور التى فى إيالتها صلاح العباد و البلاد و لم يدخل بذلك تحت قوله سبحانه فلا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ قالوا فقال الملك و من أحق به منك فولاه ذلك و قيل أن الملك الأ-كبر فوض إليه أمر مصر و دخل بيته و عزل قطفير و جعل يوسف مكانه و قيل إن قطفير هلك فى تلك الليالى فزوج الملك يوسف راعيل امرأه قطفير العزيز فدخل بها يوسف فوجدها عذراء و لما دخل عليها قال أ ليس هذا خيرا مما كنت تريدين و ولدت له أفرائيم و ميشا و استوثق ليوسف ملك مصر و قيل أنه لم يتزوجها يوسف و أنها لما رأته فى موكبه بكت و قالت الحمد لله الذى جعل الملوك بالمعصيه عبيدا و العبيد بالطاعة ملوكا فضمها إليه و كانت من عياله حتى ماتت عنده و لم يتزوجها و فى تفسير على بن إبراهيم بن هاشم قال لما مات العزيز و ذلك فى السنين الجدبه افتقرت امرأه العزيز و احتاجت حتى سألت الناس فقالوا لها ما يضررك لو قعدت للعزيز و كان يوسف يسمى العزيز و كل ملك كان لهم سموه بهذا الاسم فقالت أستحى منه فلم يزالوا بها حتى قعدت له فأقبل يوسف فى موكبه فقامت إليه زليخا و قالت سبحان من جعل الملوك بالمعصيه عبيدا و العبيد بالطاعة ملوكا فقال لها يوسف أنت تيكى قالت نعم و كان اسمها زليخا فقال لها هل لك فى قالت دعنى بعد ما يئست أ تهزأ بى قال لا قالت نعم قال فأمر بها فحولت إلى منزله و كانت هرمة فقال لها يوسف أ لست فعلت بى كذا و كذا قالت يا نبى الله لا تلمنى

فإني بليت في بلاء لم يبيل به أحد قال و ما هو قالت بليت بحبك و لم يخلق الله لك نظيرا في الدنيا و بليت بأنه لم تكن بمصر
امرأه أجمل منى و لا أكثر مالا منى و بليت بزوج عنين فقال لها يوسف فما حاجتك قالت تسأل الله أن يرد على شبابى فسأل الله
فرد عليها فتزوجها و هى بكر و

روى عن ابن عباس عن رسول الله ص أنه قال رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لولاه من ساعته و
لكنه آخر ذلك سنه

قال ابن عباس فأقام فى بيت الملك سنه فلما انصرفت السنه من يوم سأل الإمارة دعاه الأمير فتوجه و رداه بسيفه و أمر بأن يوضع
له سرير من ذهب مكمل بالدر و الياقوت و يضرب عليه كله من إستبرق ثم أمره أن يخرج متوجا لونه كالثلج و وجهه كالقمر
يرى الناظر وجهه فى صفاء لون و وجهه فانطلق حتى جلس على السرير و دانت له الملوكة فعدل بين الناس فأحبه الرجال و النساء
و ذلك قوله عز اسمه «وَ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ» أى و مثل ذلك الإنعام الذى أنعمنا عليه أقدرا يوسف على ما يريد
فى الأرض يعنى أرض مصر «يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» أى يتصرف فيها حيث يشاء و ينزل منها حيث يشاء «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ»
أى نخص بنعم الدين و الدنيا من نشاء «وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» أى المطيعين و قيل الصابرين عن ابن عباس و قيل أنه دعا
الملك إلى الإسلام فأسلم عن مجاهد و غيره قالوا و أسلم أيضا كثير من الناس فهذا فى الدنيا «وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ» أى ثواب الآخرة
«خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ» لخلوصه عن الشوائب و الأقدار و فى هذه إشاره إلى أنه سبحانه يؤتى يوسف فى الآخرة من
الثواب و الدرجات ما هو خير مما آتاه الله فى الدنيا من الملك و النعمه (سؤال) قالوا كيف جاز ليوسف أن يطلب الولايه من
قبل الكفره الظلمه و جوابه لأنه علم أنه يتمكن بذلك من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و وضع الحقوق مواضعها و قد
جعل الله سبحانه جميع ذلك له من جهه كونه نبيا إماما و كان يفعل ذلك من قبل الله تعالى و إنما سأل الولايه ليتمكن من
الأمر التى له أن يفعلها و أيضا فإنه علم أنه سبب يتوصل به إلى الدعاء إلى الخير و إلى رؤيه والديه و إخوته و فى الآيه دلالة
على أن ذلك التمكين و الملك و التدبير كان بلطف الله سبحانه و فضله و فيها دلالة أيضا على جواز تولى القضاء من جهه
الباغى و الظالم إذا يتمكن بذلك من إقامة أحكام الدين و فى قوله «يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» دلالة على أن تصرفه كان باختياره
من غير رجوع إلى الملك و أنه صار بحيث لا أمر عليه و

فى كتاب النبوه بالإسناد عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن على بن بنت إلياس قال سمعت الرضا (عليه السلام) يقول
و أقبل يوسف على جمع الطعام فجمع فى السبع السنين المخصبه فكبسه فى الخزائن فلما مضت تلك السنون و أقبلت المجده
أقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم فى السنه الأولى بالدرهم

و الدنانير حتى لم يبق بمصر و ما حولها دينار و لا درهم إلا صار فى مملكه يوسف و باعهم فى السنه الثانيه بالحلى و الجواهر حتى لم يبق بمصر و ما حولها حلى و لا - جوهر إلا صار فى مملكته و باعهم فى السنه الثالثه بالدواب و المواشى حتى لم يبق بمصر و ما حولها دابه و لا ماشيه إلا صارت فى مملكته و باعهم فى السنه الرابعه بالعييد و الإماء حتى لم يبق بمصر عبد و لا أمه إلا صار فى مملكته و باعهم فى السنه الخامسه بالدور و العقار حتى لم يبق بمصر و ما حولها دار و لا عقار إلا صار فى مملكته و باعهم فى السنه السادسه بالمزارع و الأنهار حتى لم يبق بمصر و ما حولها نهر و لا مزرعه إلا صار فى مملكته و باعهم فى السنه السابعه بربابهم حتى لم يبق بمصر و ما حولها عبد و لا حر إلا صار عبد يوسف فملك أحرارهم و عبيدهم و أموالهم و قال الناس ما رأينا و لا سمعنا بملك أعطاه الله من الملك ما أعطى هذا الملك حكما و علما و تدبيرا ثم قال يوسف للملك أيها الملك ما ترى فيما خولنى ربي من ملك مصر و أهلها أشر علينا برأيك فإنى لم أصلحهم لأفسدهم و لم أنجهم من البلاء لأكون بلاء عليهم و لكن الله تعالى أنجاهم على يدي قال له الملك الرأى رأيك قال يوسف إنى أشهد الله و أشهدك أيها الملك إنى قد أعتقت أهل مصر كلهم و رددت عليهم أموالهم و عبيدهم و رددت عليك أيها الملك خاتمك و سريرك و تاجك على أن لا تسير إلا بسيرتى و لا تحكم إلا بحكمى قال له الملك إن ذلك لزينى و فخرى أن لا أسير إلا بسيرتك و لا أحكم إلا بحكمك و لولاك ما قويت عليه و لا اهتديت له و لقد جعلت سلطانا عزيزا لا يرام و أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أنك رسوله فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين

و قيل إن يوسف (عليه السلام) كان لا- يمتلئ شبعاً من الطعام فى تلك الأيام المجده فليل له تجوع و بيدك خزائن الأرض فقال (عليه السلام) أخاف أن أشبع فأنسى الجياع.

إشارة

وَ جَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفَى الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَ قَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

القراءة

قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر «لِفَتْيَانِهِ» و الباقر لفتيته.

الحجج

قال أبو على الفتيه جمع فتى فى العدد القليل و الفتيان فى الكثير و مثل فتية إخوه و ولده فى جمع أخ و ولد و نيره و قيعه فى جمع نار و قاع و مثل فتيان برقان و خربان فى جمع برق و خرب و جيران و تيجان فى جمع جار و تاج و قد يقوم البناء الذى للقليل مقام الذى للكثير و كذلك يقوم الكثير مقام القليل حيث لا قلب و لا إعلال و ذلك نحو أرجل و أقدام و أرسان و فى الكثير قولهم ثلاثه شسوع فإذا فعل ذلك فيما لا إعلال فيه فأن يرفض فيما يؤدى إلى الإعلال و القلب أولى.

اللغة

جهاز البيت متاعه و جهزت فلانا هيأت جهاز سفره و منه جهاز المرأه و الرحال أراد به الأوعيه واحدها رحل و جمعها القليل أرحل قال ابن الأنبارى يقال للوعاء رحل و للمسكن رحل و أصله الشىء المعد للرحيل من وعاء المتاع و مركب البعير و حلس و رسن.

المعنى

ثم أخير سبحانه أنه لما تمكن يوسف بمصر و أصاب الناس ما أصابهم من القحط و قصدوا مصر نزل بآل يعقوب ما نزل بالناس فجمع يعقوب بنيه و قال لهم بلغنى أنه يباع الطعام بمصر و أن صاحبه رجل صالح فاذهبوا إليه فإنه سيحسن إليكم إن شاء الله فتجهزوا و ساروا حتى وردوا مصر فدخلوا على يوسف فذلك قوله «وَ جَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ» أى جاءوا ليمتاروا من مصر كما أمتار غيرهم و دخلوا عليه و هم عشره و أمسك ابن يامين أخا يوسف لأمه فعرفهم يوسف و أنكره قال ابن عباس و كان بين أن قذفوه فى الجب و بين أن دخلوا عليه أربعين سنه فلذلك أنكره و لأنهم رأوه ملكا جالسا على السرير عليه ثياب الملوك و لم يكن يخطر ببالهم أنه يصير إلى تلك الحاله و كان يوسف ينتظر قدومهم عليه فكان أثبت لهم فلما نظر إليهم يوسف و كلموه بالعبرانيه قال لهم من أنتم و ما أمركم فإنى أنكر شأنكم و فى تفسير على بن إبراهيم فلما جهزهم و أعطاهم و أحسن إليهم فى الكيل قال لهم من أنتم قالوا نحن قوم من أرض الشام رعاه أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم عيون جئتم تنظرون عوره بلادى فقالوا لا و الله ما نحن بجواسيس و إنما نحن إخوه بنو أب واحد و هو يعقوب بن إسحاق

بن إبراهيم خليل الرحمن و لو تعلم

ص: ٣٧٥

بأبينا لكرمنا عليك فإنه نبي الله و ابن أنبيائه و إنه لمحزون قال و ما الذى أحزنه فلعل حزنه إنما كان من قبل سفهكم و جهلكم قالوا يا أيها الملك لسنا بسفهاء و لا جهال و لا أتاه الحزن من قبلنا و لكنه كان له ابن كان أصغرنا سنا و أنه خرج يوما معنا إلى الصيد فأكله الذئب فلم يزل بعده حزينا كثيرا باكيا فقال لهم يوسف كلكم من أب و أم قالوا أبونا واحد و أمهاتنا شتى قال فما حمل أباكم على أن سرحكم كلكم ألا حبس واحدا منكم يستأنس به قالوا قد فعل حبس منا واحدا و هو أصغرنا سنا لأنه أخو الذى هلك من أمه فأبونا يتسلى به قال فمن يعلم أن الذى تقولونه حق قالوا يا أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا أحد فقال يوسف فأتوني بأخيكم الذى من أبيكم إن كنتم صادقين و أنا أَرْضَى بِذَلِكَ قالوا إن أبانا يحزن على فراقه و سنراوده عنه قال فدعوا عندي رهينه حتى أتوني بأخيكم فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون و قيل أن يوسف اختار شمعون لأنه كان أحسنهم رأيا فيه فخلفوه عنده فذلك قوله «وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ» يعنى حمل لكل رجل منهم بعيرا بعدتهم «قَالَ اتُّونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ» يعنى ابن يامين «أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ» أى لا أبخس الناس شيئا و أتم لهم كيلهم «وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» أى المضيفين مأخوذ من النزول و هو الطعام و قيل خير المنزلين للأمر منزلها فتدخل فيه الضيافة و غيرها مأخوذ من المنزل و هو الدار «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي» أى ليس لكم عندي طعام أكيله عليكم و المراد بالكيل المكيل «وَلَا تَقْرُبُونِ» أى و لا تقربوا دارى و بلادى خلط ع الوعد بالوعيد «قَالُوا سَيَرَاوُدُ عَنْهُ أَبَاهُ» أى نطلبه و نسأله أن يرسله معنا قال ابن عباس معناه نستخذه عنه حتى يخرج معناه «وَأَنَا لَفَاعِلُونَ» ما أمرتنا به قال و كان يوسف أمر ترجمانا يعرف العبرانية أن يكلمهم و كان لا يكلمهم بنفسه ليشبه عليه فيانهم لو عرفوه ربما كانوا يهيمون فى الأرض حياء من أبيهم فيتركون خدمته و كان فى معرفتهم إياه مفسده «وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ» أى قال يوسف لعبيده و غلمانة الذين يكيلون الطعام عن قتاده و غيره و قيل لأعوانه اجعلوا ثمن طعامهم و ما كانوا جاءوا به فى أوعيتهم و قيل كانت بضاعتهم النعال و الأدم و قيل كانت الورق عن قتاده «لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ» أى لعلمهم يعرفون متاعهم إذا رجعوا إلى أهلهم «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» بعد ذلك لطلب الميره مره أخرى و إنما فعل ذلك ليعرفوا أن يوسف إنما فعل ذلك إكراما لهم ليرجعوا إليه و قيل أنه خاف أن لا يكون عندهم من الورق ما يرجعون به مره أخرى عن الكلبي و قيل أنه رأى لؤما أخذ ثمن الطعام من أبيه و إخوته مع حاجتهم إليه فرده عليهم من حيث لا يعلمون تفضلا و كرما و قيل فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم و أمانتهم تحملهم على رد بضاعتهم إذا وجدوها فى رحالهم و لا يعرفون أن الملك أمر

بذلك فيرجعون ليردوا ذلك عليه و متى قيل كيف لم يعرفهم يوسف نفسه مع علمه بشده حزن أبيه و قلقه و احتراقه على ألم فراقه فالجواب أنه لم يؤذن له فى التعريف استتماما للمحنه عليه و على يعقوب و لما علم الله تعالى من الحكمه و الصلاح فى تشديد البليه تعريضا للمنزله السنيه و قيل إنما لم يعرفهم بنفسه لأنهم لو عرفوه ربما لم يرجعوا إليه و لم يحملوا أخاه إليه و الأول هو الوجه الصحيح.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٣ الى ٦٦]

إشاره

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلْنَا مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَيْلًا آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمُنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَحَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

القراءه

قرأ يكتل بالياء أهل الكوفه غير عاصم و الباقون بالنون و قرأ «خَيْرٌ حَافِظًا» بالألف أهل الكوفه غير أبى بكر و الباقون حفظا بغير ألف و فى الشواذ قراءه علقمه و يحيى ردت إلينا بكسر الراء.

الحجه

قال أبو على يدل على النون فى نكتل قوله «و نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَخَانَا وَ نَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» ألا ترى أنهم إنما يميرون أهلهم بما يكتالون فيكون نكتل مثل نمير و أيضا فإذا قالوا نكتل جاز أن يكون أخوهم داخلا معهم و إذا كان بالياء لم يدخلوهم فيه و زعموا أن

فى قراءه عبد الله نكتل بالنون و كان النون لقولهم منع منا الكيل لغييه أخينا فأرسله نكتل ما منعناه لغييته و وجه الياء أنه يكتل حملة كما نكتال نحن أحمالنا و وجه من قرأ خير حفظا أنه قد ثبت من قوله وَ نَحْفَظُ أَخَانَا و قوله «وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» أنهم قد أضافوا إلى أنفسهم حفظا فالمعنى على الحفظ الذى نسبوه إلى أنفسهم و إن كان منهم تفريط فى حفظهم ليوسف كما أن قوله أَيِّنَ شُرَكَائِي لم يثبت لله شريكا و إنما المعنى على الشركاء الذين نسبتموهم إلى فكذلك المعنى على الحفظ الذى نسبوه إلى أنفسهم و إن كان منهم تفريط فيه فإذا كان كذلك كان المعنى فالله خير حفظا من حفظكم الذى نسبتموه إلى أنفسكم و إن كان منكم فيه تفريط و إضافه خير إلى حفظ محال و لكن تقول حفظ الله خير من حفظكم و من قرأ «حافظاً» فيكون حافظا منتصبا على التمييز دون الحال كما كان حفظا كذلك و لا يستحيل الإضافة فى فالله خير حافظ و خير الحافظين كما يستحيل فى خير حفظا فإن قلت فهل كان ثم حافظ كما ثبت أنه كان حفظ لما قدمته فالقول أنه قد ثبت أنه كان ثم حافظ لقوله «وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» و لقوله يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فتقول حافظ الله خير من حافظكم كما كان حفظ الله خير من حفظكم لأن الله سبحانه حافظه كما أن له حفظا فحافظه خير من حافظكم كما كان حفظه خيرا من حفظكم و تقول هو أحفظ حافظ كما تقول هو أرحم راحم لأنه سبحانه من الحافظين كما كان من الراحمين و أما قوله «رُدَّتْ» فإن فعل من المضاعف و المعتل العين يجرى ء على ثلاثه أوجه عندهم لغة فاشيه و أخرى تليها و ثالثها قليله فأقوى اللغات فى المضاعف ضم أوله كشد و عد و رد ثم يليه الإشمام و هو بين ضم الأول و كسره ثم قوله شد و رد بإخلاص الكسره و هو الأقل و أقوى اللغات فى المعتل العين كسر أوله نحو قيل و بيع ثم يليه الإشمام بين الضمه و الكسره و الثالثه إخلاص الضمه نحو قول و بوع و أنشد لذى الرمه:

دنا البين من مى فردت جمالها و هاج الهوى تقويضها و احتمالها.

اللغة

يقال كلت فلانا أى أعطيته الشىء كىلا و اكتلت عليه أخذت منه و الأمن اطمئنان القلب إلى سلامه الأمر يقال أمنه يأمنه أمنا و الميره الأطمعه التى تحمل من بلد إلى بلد و يقال مرتهم أميرهم ميرا إذا أتيتهم بالميره و مثله امترتهم امتيارا قال:

بعثتك مائرا فمكثت حولا متى يأتى غياثك من يغيث

. الإعراب

قال الزجاج حفظا منصوب على التمييز و «حافظاً» على الحال و يجوز أن

ص: ٣٧٨

يكون «حافظاً» على التمييز و ما فى قوله «ما نَبِغِي» استفهام موضعه نصب و المعنى أى شىء تريد و يكون المراد به الجحد و يجوز أن يكون ما أيضا نفيا كأنهم قالوا ما نبع شيئا و موضع أن يحاط بكم نصب و المعنى إلا الإحاطه بكم أى تمتنوا من الإتيان به إلا- لهذا و هذا يسمى مفعولا له قال الزجاج و إلا هذه بمعنى تحقيق الجزاء تقول ما تأتينا إلا لأخذ الدراهم و إلا أن تأخذ الدراهم.

المعنى

«فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» قيل أنهم لما دخلوا على يعقوب و سلموا عليه سلاما ضعيفا فقال لهم يا بنى ما لكم تسلمون سلاما ضعيفا و ما لى لا- أسمع فيكم صوت شمعون فقالوا يا أبانا إنا جئناك من عند أعظم الناس ملكا و لم ير الناس مثله حكما و علما و خشوعا و سكينه و وقارا و لئن كان لك شبيه فإنه يشبهك و لكننا أهل بيت خلقنا للبلاء إنه اتهمنا و زعم أنه لا يصدقنا حتى ترسل معنا بابتين يامين برسالة منك إليه ليخبره من حزنتك و ما الذى أحزنتك و عن سرعه الشيب إليك و ذهاب بصرك و قوله «مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» معناه منع منا فيما يستقبل إن لم نأته بأخينا لقوله فلا كيل لكم عندي «فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا» ابن يامين «نَكْتَلُ» أى نأخذ الطعام بالكيل إن أرسلته اكتلنا و إلا فمئنا الكيل و من قرأ يكتل بالياء فالمعنى يأخذ أخونا ابن يامين و قر بعير يكتال له «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» من أن يصيبه سوء و مكروه «قَالَ» يعقوب «هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمُنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ» أى لا آمنكم على ابن يامين فى الذهاب به إلا كأمنى على يوسف ضمنت لى حفظه ثم ضيعتموه أو أهلكتموه أو غيبتموه عنى و إنما قرعهم بحديث يوسف و إلا فقد كان يعلم أنهم فى هذه الحال لا يفعلون ما لا يجوز «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» أى حفظ الله خير من حفظكم «وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» يرحم ضعفى و كبر سنى و يرده على و

ورد فى الخبر أن الله سبحانه قال فبعزتى لأردنهما إليك من بعد ما توكلت على

«وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ» يعنى أوعيه الطعام «وَوَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي» أى ما نطلب فى منع أخينا عنه و قيل معناه ما نطلب بما أخبرناك عن ملك مصر الكذب و قيل معناه أى شىء نطلب وراء هذا أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن عن قتاده و أراد أن تطيب نفس يعقوب فيبعث ابنه معهم و تم الكلام ثم قالوا ابتداء «هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا» أى فلا ينبغى أن نخاف على أخينا ممن قد أحسن إلينا هذا الإحسان و قيل المراد ما نريد منك دراهم تعطيناها نرجع بها إليه بل تكفيننا فى الرجوع إليه بضاعتنا هذه فإن الملك إذا فعلنا ما أمرنا به فى أخينا يفى بما وعدنا و أرسله معنا «وَ نَمِيرُ أَهْلَنَا» أى نجلب إليهم الطعام «وَ نَحْفَظُ أَخَانَا» فى السفر حتى نرده إليك

«وَنَزِدَاكَ كَيْلًا بَعِيرٍ» لأجله لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير «ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ» أى ذلك كيل سهل أى يسهل على الذى يمضى إليه عن الزجاج والمعنى أنه هين على الملك لا يصعب عليه ولا يظهر فى ماله وقيل معناه إن الذى جئناك به كيل قليل لا يقنعنا فحتاج أن نضيف إليه كيل بعير أخينا عن الجبائى وقيل يسير على من يكتاله لا مئونه فيه ولا مشقه عن الحسن وهذا كله تنبيه منهم على وجه الصواب فى إرساله معهم فلما رأى يعقوب (عليه السلام) رده البضاعه و تحقق عنه إكرام الملك إياهم و عزم على إرسال ابن يامين معهم «قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ» أى تعطوننى ما يوثق به من يمين أو عهد من الله «لَتَأْتُنَّنِي بِهِ» أى لتردنه إلى قال ابن عباس يعنى حق تحلفوا لى بحق محمد خاتم النبيين ص و سيد المرسلين أى لا تغدروا بأخيكم و لتأتننى به اللام فيه لجواب القسم «إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ» أى إلا أن تهلكوا جميعا عن مجاهد وقيل إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك عن قتاده والمعنى إلا أن يحال بينكم و بينه حتى لا تغدروا على الإتيان به عن الزجاج «فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ» أى أعطوه عهدهم و حلفوا له بحق محمد و منزلته من ربه عن ابن عباس «قَالَ» يعقوب «اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» أى شاهد حافظ إن أخلفتم انتصف لى منكم و فى هذا دلالة على وجوب التوكل على الله سبحانه فى جميع المهمات و التفويض إليه فى كل الأمور و فيها دلالة أيضا على أن يعقوب (عليه السلام) إنما أرسل ابن يامين معهم لأنه علم أنهم لما كبروا ندموا على ما كان فرط منهم فى أمر يوسف و لم يصروا على ذلك و لهذا وثق بهم و إنما غيرهم بحديث يوسف حثا لهم على حفظ أخيهم.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٦٧ الى ٦٨]

إشارة

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؕ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؕ إِلَّا حَاجَهُ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

ص: ٣٨٠

الغنى الكفايه فى المال لأنه اكتفى به و ربما مد لضروره الشعر و الغناء بكسر الغين المد من الصوت يقال منه غنى يغنى غناء و الغناء بالفتح و المد الكفايه و غنى عن كذا فهو غان و غنى القوم فى دراهم أقاموا و المغانى المنازل لأنهم اكتفوا بها و الغانيه المرأه لأنها تكتفى بزوجه عن غيره أو بجمالها عن التزين.

المعنى

«و» لما تجهزوا للمسير «قال» يعقوب «يا بَيْنِي لَا تَدْخُلُوا» مصر «مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ» خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوى الجمال و هيئه و كمال و هم إخوه أولاد رجل واحد عن ابن عباس و الحسن و قتاده و الضحاك و السدى و أبى مسلم و قيل خاف عليهم حسد الناس إياهم و إن يبلغ الملك قوتهم و بطشهم فيحبسهم أو يقتلهم خوفا على ملكه عن الجبائى و أنكر العين و ذكر أنه لم يثبت بحجه و جوزه كثير من المحققين و

رووا فيه الخبر عن النبى ص أن العين حق و العين تستنزل الحائق

و الحائق المكان المرتفع من الجبل و غيره فجعل (عليه السلام) العين كأنها تحط ذروه الجبل من قوه أخذها و شده بطشها و

ورد فى الخبر أنه ع كان يعوذ الحسن و الحسين ع بأن يقول أعيذكما بكلمات الله التامه من كل شيطان و هامه و من كل عين
لأمه

و

روى أن إبراهيم (عليه السلام) عوذ ابنه و إن موسى عوذ ابنى هارون بهذه العوده

و

روى أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أسماء بنت عميس يا رسول الله إن العين إليهم سريره أ فأسترقى لهم
من العين فقال ص نعم

و

روى أن جبرائيل (عليه السلام) رقى رسول الله و علمه الرقيه و هى بسم الله أرقيك من كل عين حاسد الله يشفيك

و

روى عن النبى ص أنه قال لو كان يسبق القدر لسبقته العين

ثم اختلفوا فى وجه الإصابه بالعين فروى عن عمرو بن بحر الجاحظ أنه قال لا- ينكر أن ينفصل من العين الصائبه إلى الشىء

المستحسن أجزاء لطيفه فتتصل به و تؤثر فيه فيكون هذا المعنى خاصيه في بعض الأعين كالخواص في الأشياء و قد اعترض على ذلك بأنه لو كان كذلك لما اختص ذلك ببعض الأشياء دون بعض و لأن الأجزاء تكون جواهر و الجواهر متماثله و لا يؤثر بعضها في بعض و قال أبو هاشم أنه فعل الله بالعاده لضرب من المصلحه و هو قول القاضي و رأيت في شرح هذا للشريف الأجل الرضى الموسوى قدس الله روحه كلاماً أحببت إيرادته في هذا الموضع قال إن الله تعالى يفعل المصالح بعباده على حسب ما يعلمه من الصلاح لهم في تلك الأفعال التي يفعلها فغير ممتنع أن يكون تغييره نعمه زيد مصلحه لعمره و إذا كان يعلم من حال عمره أنه لو لم يسلب زيدا نعمته أقبل على الدنيا بوجهه و نأى عن الآخرة بعطفه و إذا

سلب نعمه زيد للعله التي ذكرناها عوضه فيها و أعطاه بدلا منها عاجلا أو آجلا فيمكن أن يتأول قوله (عليه السلام) العين حق على هذا الوجه على أنه

قد روى عنه (عليه السلام) ما يدل على أن الشئ ء إذا عظم في صدور العباد وضع الله قدره و صغر أمره

و إذا كان الأمر على هذا فلا ينكر تغيير حال بعض الأشياء عند نظر بعض الناظرين إليه و استحسانه له و عظمه في صدره و فخامته في عينه كما

روى أنه قال لما سبقت ناقته العضباء و كانت إذا سوبق بها لم تسبق ما رفع العباد من شئ ء إلا وضع الله منه

و يجوز أن يكون ما أمر به المستحسن للشئ ء عند رؤيته من تعويذه بالله و الصلاة على رسول الله ص قائما في المصلحة مقام تغيير حاله الشئ ء المستحسن فلا يغير عند ذلك لأن الرائي لذلك قد أظهر الرجوع إلى الله تعالى و الإعاضة به فكأنه غير راكن إلى الدنيا و لا مغتر بها انتهى كلامه رضى الله عنه «و ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ءِ» أى و ما أَدْفَعُ مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ءِ أَنْ كَانَ قَدْ قَضَى عَلَيْكُمْ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» فهو القادر على أن يحفظكم من العين أو من الحسد و يردكم على سالمين «و عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» أى و ليفوضوا أمورهم إليه و ليثقوا به «و لَمَّا دَخَلُوا» مصر «مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ» أى من أبواب متفرقة كما أمرهم يعقوب و قيل كان لمصر أربعة أبواب فدخلوها من أبوابها الأربعة متفرقين «ما كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ءِ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قِضَاهَا» أى لم يكن دخولهم مصر كذلك يغنى عنهم أو يدفع عنهم شيئا أراد الله تعالى إيقاعه بهم من حسد أو إصابه عين و هو (عليه السلام) كان عالما أنه لا ينفع حذر من قدر و لكن كان ما قاله لبنيه حاجه في قلبه فقضى يعقوب تلك الحاجه أى أزال به اضطراب قلبه لأن لا يحال على العين مكروه يصيبهم و قيل معناه أن العين لو قدر أن تصيبهم لأصابتهم و هم متفرقون كما تصيبهم مجتمعين عن الزجاج قال و حاجه استثناء ليس من الأول بمعنى لكن حاجه «و إِنَّهُ لَمَذُوعِلْمٌ» أى ذو يقين و معرفه بالله «لَمَّا عَلَّمْنَاهُ» أى لأجل تعليمنا إياه عن مجاهد مدحه الله سبحانه بالعلم و المعنى أنه حصل له العلم بتعليمنا إياه و قيل و أنه لذو علم لما علمناه أى يعلم ما علمناه فيعمل به لأن من علم شيئا و لا يعمل به كان كمن لا- يعلم فعلى هذا يكون اللام في قوله «لَمَّا عَلَّمْنَاهُ» كاللام في قوله «لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ» «و لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» مرتبه يعقوب في العلم عن الجبائى و قيل لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه عن ابن عباس.

إشارة

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعَيْرُ انْكُم لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَهُدُونَ (٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣)

قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)

القراءة

في الشواذ قراءة أبي رجاء صواع الملك بفتح الصاد وقراءة أبي عبد الله بن عوف صوع بضم الصاد بغير ألف وقراءة يحيى بن يعمر صوغ بفتح الصاد والغين معجمه وقراءة أبي هريره ومجاهد بخلاف صاع الملك والقراءة المشهوره «صَوَاعَ الْمَلِكِ» وقراءة الحسن من وعاء أخيه بضم الواو وقراءة سعيد بن جبير إعاء أخيه بالهمزه وقرأ يعقوب وسهل يرفع ويشاء بالياء والباقون بالنون وقرأ أهل الكوفه درجات بالتون والباقون بغير تونين وفي الشواذ قراءة ابن مسعود فوق كل ذي عالم عليم.

[الحجه] الصواع و الصاع و الصوع واحد و هو مكيال و أما الصوع فمصدر وضع موضع اسم المفعول أى المصوع و هو مثل الخلق و الصيد بمعنى المخلوق و المصيد و من قرأ إعاء فأصله وعاء أبدلت الواو المكسوره همزه كما قالوا فى وساده إساده و فى وجاح للستر أجاح و من قرأ وعاء بالضم فإنه يكون لغه و الهمزه فيه أقيس كما قالوا أعد فى وعدوا

وجوه فى وجوه و من قرأ «دَرَجَاتٍ» بالتونين فإن من يكون فى موضع نصب على معنى نرفع من نشاء درجات و من قرأها بغير تنوين فإن من يكون فى موضع جر بالإضافة و قال ابن جنى إن قراءه من قرأ و فوق كل ذى عالم عليم يحتمل ثلاثه أوجه أحدها أن يكون من باب إضافه المسمى إلى الاسم أى و فوق كل شخص يسمى عالما أو يقال له عالم عليم مثل قول الكميت:

إليكم ذوى آل النبى تطلعت نوازع من قلبى ظماء و ألب

أى إليكم يا آل النبى أى يا أصحاب هذا الاسم الذى هو آل النبى و عليه قول الأعشى:

فكذبوها بما قالت فصبحهم ذو آل حسان يزجى الموت و الشرعا

أى صبحهم الجيش الذى يقال له آل حسان و الوجه الثانى أن يكون عالم مصدرا كالباطل و غيره و الثالث أن يكون على مذهب من اعتقد زياده ذى فكأنه قال و فوق كل عالم عليم.

اللغة

يقال أوى إلى منزله يأوى أويا إذا صار إليه و آويته أنا إيواء و الابتئاس الاغتنام و اجتلاب البؤس و الحزن و السقايه الإناء التى يسقى منها و هو من السقى و قيل السقايه و الصواع واحد و الأذان و التأذين واحد و هو النداء يسمع بالأذن و يقال أذنته بالشىء أى أعلمته و أذنته أكثرت إعلامه و العير القافله من الحمير و قيل هو القافله التى فيها الأجمال و الأصل للحمير ثم كثر فسمى كل قافله عيرا و قيل العير الإبل السائره المركوبه و الجمع عيران و الحمل بالكسر لما انفصل و بالفتح لما اتصل و جمعه أحمال و حمول و الزعيم و الكفيل و الضمين نظائر و الزعيم أيضا القائم بأمر القوم و هو الرئيس قالت ليلى الأخيلية:

حتى إذا رفع اللواء رأيته تحت اللواء على الخميس زعيما

. الإعراب

«تَاللَّهِ» معناه و الله إلا أن التاء تختص باسم الله لا يجوز تالرحمن و تبرى و هو بدل من الواو كما أبدل من الواو فى تراث و تجاه و تخمه «قالوا جزأوه مَنْ وَجِدَ فى رَحْلِهِ» ذكر فى إعرابه وجهان (أحدهما) أن يكون «جزأوه» مبتدأ و «مَنْ وَجِدَ فى رَحْلِهِ» الخبر و يكون المعنى

ص: ٣٨٤

جزاء السرقة الإنسان الموجود في رحله السرقة و يكون قوله «فَهُوَ جَزَاؤُهُ» جملة أخرى ذكرت زياده في الإيانه كما يقال جزاء السارق القطع فهو جزاؤه زياده في البيان و على هذا تكون من موصوله و يكون تقديره استرقاق الذى وجد في رحله السرقة فحذف المضاف (و الآخر) أن يكون جزاؤه مبتدأ و «مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ» جملة شرطيه في موضع الخبر و العائد على المبتدأ الأول من الجملة الأولى «جَزَاؤُهُ» من قوله «فَهُوَ جَزَاؤُهُ» فكأنه قال فهو هو أى فهو الجزاء و الإظهار هاهنا أحسن لثلا يقع في الكلام لبس قال الزجاج إن العرب إذا فحمت أمر الشىء جعلت العائده إليه إعاده اللفظ بعينه و أنشد:

لا أرى الموت يسبق الموت شىء نغص الموت ذا الغنى و الفقيرا

و على هذا فيكون المعنى قالوا جزاء السرقة إن وجد في رحل رجل منا فالموجود في رحله السرقة جزاؤه استرقاق و قال صاحب الكشف تقديره جزاء المسروق من وجد في رحله أى إنسان وجد الصاع في رحله فمن نكره و هو مبتدأ ثان و قوله «وَجِدَ فِي رَحْلِهِ» صفة لمن و قوله «فَهُوَ جَزَاؤُهُ» خبر لمن و الجملة خبر قوله «جَزَاؤُهُ» و التقدير جزاؤه إنسان وجد في رحله الصاع فهو هو إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمرة قال و ليس في التنزيل من نكره إلا في هذا الموضع و موضع الكاف من «كَذَلِكَ كِدْنَا» نصب بأنه صفة مصدر محذوف و موضع «أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» نصب لما سقطت الباء أفضى الفعل إليها فنصب و التقدير إلا بمشيئه الله.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن دخولهم عليه فقال «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ» أى لما دخل أولاد يعقوب على يوسف ضم إليه أخاه من أبيه و أمه ابن يامين و أنزله معه عن الحسن و قتاده و

قيل أنهم لما دخلوا عليه قالوا هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به فقال أحسنتم ثم أنزلهم و أكرمهم ثم أضافهم و قال ليجلس كل بنى أم على مائده فجلسوا فبقى ابن يامين قائما فردا فقال له يوسف ما لك لا تجلس قال إنك قلت ليجلس كل بنى أم على مائده و ليس لى فيهم ابن أم فقال يوسف أ فما كان لك ابن أم قال بلى قال يوسف فما فعل قال زعم هؤلاء أن الذئب أكله قال فلما بلغ من حزنك عليه قال ولد لى أحد عشر ابنا كلهم اشتقت له اسما من اسمه فقال له يوسف أراك قد عانقت النساء و شممت الولد من بعده قال ابن يامين إن لى أبا صالحا و قد قال لى تزوج لعل الله يخرج منك ذرية تنقل الأرض بالتسيح فقال له يوسف تعال فاجلس معى على مائدتى فقال إخوه يوسف لقد فضل الله يوسف و أخاه حتى أن الملك قد أجلسه معه على مائدته روى ذلك عن الصادق (عليه السلام)

«قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ» أى أطلعه على أنه أخوه و قيل أنه قال أنا أخوك مكان أخيك الهالك و لم يعترف له بالنسبه و لم

يطلعه على أنه أخوه ولكنه أراد أن يطيب نفسه «فَلا- تَبَيِّنْسِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى فلا- تسكن و لا- تحزن لشيء سلف من إخوتك إليك عن وهب و السدى «فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ» أى فلما أعطاهم ما جاءوا لطلبه من الميره و كال لهم الطعام الذى جاءوا لأجله و جعل لكل منهم حمل بعير و يسمى حمل التاجر جهازا «جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ» معناه أمر حتى جعل الصاع فى متاع أخيه و إنما أضاف الله تعالى ذلك إليه لوقوعه بأمره و قيل إن السقايه هى المشربه التى كان يشرب منها الملك ثم جعل صاعا فى السنين الشداد القحاط يكال به الطعام و

قيل كان من ذهب عن ابن زيد و روى ذلك عن أبى عبد الله (عليه السلام)

و قيل كان من فضه و ذهب عن ابن عباس و الحسن و قيل كان من فضه مرصعه بالجواهر عن عكرمه ثم ارتحلوا و انطلقوا «ثُمَّ أَدَنَّ مُؤَدَّنٌ» أى نادى مناد مسمعا معلما «أَيَّتْهَا الْعَيْرُ» أى القافله و التقدير يا أهل العير و قيل كانت القافله من الحمير عن مجاهد «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» قيل إنما قال ذلك بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غير أمره و لم يعلم بما أمر به يوسف من جعل الصاع فى رحالهم عن الجبائى و قيل إن يوسف أمر المنادى بأن ينادى به و لم يرد به سرقة الصاع و إنما عنى به إنكم سرقتم يوسف عن أبيه و ألقيتموه فى الجب عن أبى مسلم و قيل إن الكلام يجوز أن يكون خارجا مخرج الاستفهام كأنه قال أ إنكم لسارقون فأسقط همزه الاستفهام كما فى قول الشاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالاً.

و يؤيده ما

روى هشام بن الحكم عن أبى عبد الله (عليه السلام) أنه قال ما سرقوا و لا كذب

و متى قيل كيف جاز ليوسف (عليه السلام) أن يحزن والده و إخوته بهذا الصنيع و يجعلهم متهمين بالسرقة فالجواب إن الغرض فيه التسبب إلى احتباس أخيه عنده و يجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى و روى أنه أعلم أخاه بذلك ليحمله طريقا إلى التمسك به و إذا كان إدخال هذا الحزن سببا مؤديا إلى إزالة غموم كثيره عن الجميع و لا شك أنه يتعلق به المصلحه فقد ثبت جوازه فأما التعريض للتهمه بالسرقة فغير صحيح لأن وجود السقايه فى رحله يحتمل أمورا كثيره غير السرقة فعلى هذا من حملة على السرقة مع علمه بأنهم أولاد الأنبياء توجهت اللائمه عليه «قالوا» أى قال أصحاب العير «وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ» أى على أصحاب يوسف «ما ذا تَفْقِدُونَ» أى ما الذى فقدتموه من متاعكم «قالوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ» أى صاعه

ص: ٣٨٦

و سقايته «و لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ» أى و قال المنادى من جاء بالصاع فله حمل بعير من الطعام «و أَنَا بِهِ زَعِيمٌ» أى كفىل ضامن «قالوا» أى قال إخوه يوسف «تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ» أيها القوم «مَا جِئْنَا لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ» قط و إنما أضافوا العلم إليهم بذلك مع أنهم لم يعلموه لأن معنى هذا القول إنكم قد ظهر لكم من حسن سيرتنا و معاملتنا معكم مره بعد أخرى ما تعلمون به أنه ليس من شأننا السرقة و قيل إنهم قالوا ذلك لأنهم ردوا البضاعة التى وجدوها فى رحالهم مخافه أن يكون قد وضع ذلك بغير إذن يوسف أى فإذا كنا تخرجنا عن هذا فقد علمتم أننا لا نسرُق لأن من رد ما وجد لا يكون سارقاً عن الكلبى و قيل إنهم لما دخلوا مصر وجدوهم قد شدوا أفواه دوابهم كى لا تتناول الحرث و الزرع و فى هذا دلالة على أن ما فعله إخوه يوسف به إنما كان فى حال الصغر و عدم كمال العقل لنفيهم عن أنفسهم الفساد الذى هو ضد الصلاح «قالوا فما جزاؤه» أى قال الذين نادوهم فما جزاء السرقة «إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ» فى قولكم إنا لم نسرُق و ظهرت السرقة و قيل معناه فما جزاء من سرق «قالوا جزاؤه مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ» أى قال إخوه يوسف جزاء السرقة السارق و هو الإنسان الذى وجد المسروق فى رحله و قد بينا تقديره فيما قبل و معناه إن السنه فى بنى إسرائيل و عند الملك كان استرقاق السارق عن الحسن و السدى و ابن إسحاق و الجبائى و كان يسترق سنه و قيل كان حكم السارق فى آل يعقوب أن يستخدم و يسترق على قدر سرقة و فى دين الملك الضرب و الضمان عن الضحاك و قيل إن يوسف سألهم ما جزاء السارق عندكم فقالوا أن يؤخذ بسرقة «كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» أى مثل ما ذكرنا من الجزاء نجزي السارقين يعنى إذا سرق و استرق و قيل إن ذلك جواب يوسف (عليه السلام) لقول إخوته إن جزاء السارق استرقاقه «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ» أى بدأ يوسف فى التفتيش بأوعيتهم لإزالة التهمة «ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا» يعنى السقايه «مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ» و إنما بدأ بأوعيتهم لأنه لو بدأ بوعاء أخيه لعلموا أنه هو الذى جعلها فيه و إنما قال استخرجها لأنه أراد به السقايه و حيث قال «و لِمَنْ جَاءَ بِهِ أَرَادَ بِهِ الصَّاع» و قيل إن الصاع يذكر و يؤنث قالوا فأقبلوا على ابن يامين و قالوا له فضحتنا و سودت وجوهنا متى أخذت هذا الصاع فقال وضع هذا الصاع فى رحلى الذى وضع الدراهم فى رحالكم «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» أى مثل ذلك الكيد أمرنا يوسف ليكيد بما يتهيأ له أن يحبس أخاه ليكون ذلك سبباً لوصول خبره إلى أبيه أى ألهمنا يوسف هذا الكيد و الحيله فجازيناهاهم على كيدهم بيوسف أى كما فعلوا فى الابتداء فعلنا بهم و قيل إن معنى كدنا صنعنا ليوسف عن ابن عباس و قيل ألهمنا عن الربيع و قيل دبرنا ليوسف بدلاله قوله «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» على أنه سبحانه علم من صلاح

هذا التدبير ما لم يعلمه غيره عن القتيبي «ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله» أي ما كان يمكنه أن يأخذ أخاه في حكم الملك و قضاؤه و أن يحبسه إذ لم يكن ذلك من حكم ملك مصر و أهله عن قتاده و قيل في دين الملك في سلطانه عن ابن عباس و قيل في عاداته في جزاء من سرق أن يستعبد و قيل إنه كان عادلا و لو لا هذه الحيله لما كان يمكنه من أخذ أخيه إلا أن يشاء الله أن يجعل ليوسف عذرا فيما فعل و قيل إلا أن يشاء الله أن يأمره بذلك لأنه كان لا يمكنه أن يقول هذا أخي و كان لا يمكنه حبسه من غير حيله لأنه كان يكون فعله ظلما و كان من سنه آل يعقوب أن يسترق و في حكم الملك و أهل مصر أن يضرب و يعزم و حبسه يوسف على قولهم و التزم حكمهم الذي جرى على لسانهم مبالغه في نفي السرقة عن أنفسهم و كان ذلك مراده و قد شاء الله لأنه بأمره عن الحسن و إنما سماه كيذا لأنه لو لا هذا السبب لم يتهيا له أخذه و الكيد ما يفعله فاعله ليوصل به إلى غيره ضررا من حيث لا يعلمه أو لينال منه شيئا من غير أن يعلمه «تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ» بالعلم و النبوه كما رفعنا درجه يوسف على إخوته و قيل بالتقوى و التوفيق و العصمه و الألفاف الجميله «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» يعني أن كل عالم فإن فوqe عالما أعلم منه حتى ينتهي إلى الله تعالى العالم بجميع المعلومات لذاته فيقف عليه و لا يتعداه و في هذا دلالة على بطلان قول من يقول إن الله سبحانه عالم بعلم قديم لأنه لو كان كذلك لكان فوqe عليم على ما يقتضيه الظاهر.

إشارة

قَالُوا إِنَّ يَسِيرَ قَدْ سَرِقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)
قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا
عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْسَوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ
قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)

اللغة

اليأس قطع الطمع من الأمر يقال يئس يئس و آيس يئس لغه و استفعل مثل استئس و استأيس و روى أبو ربيعه عن البري عن ابن كثير استئسوا منه و استئس الرسل و يئس و استئس بمعنى مثل سخر و استسخر و عجب و استعجب و النجى القوم يتناجون الواحد و الجمع فيه سواء قال سبحانه «وَ قَرَّبْنَا نَجِيًّا» و إنما جاز ذلك لأنه مصدر وصف به و المناجاة المساره و أصله من النجوه و هو المرتفع من الأرض فإنه رفع السر من كل واحد إلى صاحبه فى خفيه و النجوى يكون اسما و مصدرا قال سبحانه وَ إِذْ هُمْ نَجْوَى أَى يتناجون و قال فى المصدر إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ وَ جمع النجى أنجيه قال:

"إنى إذا ما القوم كانوا أنجيه"

و برح الرجل براحا إذا تنحى عن موضعه.

الإعراب

قوله «فَأَسْرَرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ» قال الزجاج هذا إضمار على شريطه التفسير لأن قوله تعالى «أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا» بدل من ها فى أسرها و المعنى فأسرها يوسف فى نفسه قوله «أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا» قال أبو على أن الإضمار على شريطه التفسير يكون على ضربين (أحدهما) أن يفسر بفرد نحو نعم رجلا زيد فقولك رجلا تفسير للرجل الذى هو فاعل نعم و قد أضمر (و الآخر) أن يفسر بجملة و أصل هذا يقع فى الابتداء كقوله فإذا هى شاخصه أبصار الذين كفروا و قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ المعنى القصة أبصار الذين كفروا شاخصه و الأمر الله أحد ثم تدخل عوامل المبتدأ عليه نحو كان و أخواتها و إن و أخواتها فينتقل هذا الضمير من الابتداء بها كما ينتقل سائر المبتدئات كقوله إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ و قول الشاعر:

" و ليس منها شفاء الداء مبدول "

و الذى ذهب أبو إسحاق فيه إلى أنه مضمير على شريطه التفسير ليس بمبتدأ فيلزمه التفسير بالجملة ألا ترى أنها فضله مذكوره بعد فعل و فاعل و هو قوله أسر فإذا كان مبينا لما أصله المبتدأ لم يجوز أن يفسر تفسيره و أيضا فإن المضمير على شريطه التفسير لا- يكون إلا- متعلقا بالجملة التى يفسرها و لا- يكون منقطعا عنها و لا متعلقا بجملة غيرها و ما ذكره أبو إسحاق فالتفسير فيه منفصل عن الجملة التى فيها الضمير الذى

زعم أنه إضمار على شريطه التفسير فخرج بذلك عما يكون عليه الإضمار قبل التفسير فإن قلت فعلى م تحمل الضمير في «فَأَسْرَرَهَا» قلنا يحتمل أن يكون إضمارا للإجابة كأنهم لما قالوا «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ» أسر يوسف إجابتهم في نفسه و لم يبيدها لهم في الحال و جاز إضمار ذلك لأنه دل ما تقدم من مقالتهم عليه و جاز أن يكون إضمارا للمقاله كأنه أسر يوسف مقالتهم لأن القول و المقاله واحد و يكون معنى المقاله المقول كما أن الخلق عباره عن المخلوق أى أكنها في نفسه و أوعاها و لم يطرحها إرادته للتويخ عليها و المجازاه بها انتهى تلخيص كلام أبى على و قوله «شَيْخًا» صفه الأب و الكبير صفه الشيخ و «مَعَاذَ اللَّهِ» منصوب على المصدر و العرب تقول معاذ الله و معاذه الله و عوذنا الله و عوذه الله و عياذ الله و يقولون اللهم عائذا بك أى أدعوك عائذا بك و أن تأخذ في موضع نصب و المعنى أعوذ بالله من أخذ أحد إلا من وجدنا متاعنا عنده فلما سقطت من أفضى الفعل فنصب عن الزجاج و قوله «إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ» فيه معنى الجزاء أى إن أخذنا غيره فنحن ظالمون و نجيا نصب على الحال و ما في قوله «مَا فَرَّطْتُمْ» لغو أى و من قبل فرطتم و يجوز أن تكون مصدرية في موضع رفع بمعنى تفريطكم واقع من قبل فيكون «مَا فَرَّطْتُمْ فِي يَوْسُفَ» في موضع رفع بالابتداء و من قبل خبره و يجوز أن يكون في موضع نصب عطفًا على أن، فيكون المعنى ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا و تفريطكم في يوسف و يحكم عطف على يأذن و يجوز أن يكون بمعنى إلا أن أى لن أبرح الأرض إلا أن يحكم الله لى.

المعنى

ثم أخبر سبحانه عن إخوة يوسف أنهم «قَالُوا» ليوسف «إِنْ يَسْرِقْ» ابن يامين «فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ» من أمه «مِنْ قَبْلُ» فليست سرقة بأمر بديع فإنه اقتدى بأخيه يوسف و اختلف فيما وصفوه به من السرقة على أقوال

ف قيل إن عمه يوسف كانت تحضنه بعد وفاه أمه و تحبه حبا شديدا فلما ترعرع أراد يعقوب أن يسترده منها و كانت أكبر ولد إسحاق و كانت عندها منطقه إسحاق و كانوا يتوارثونها بالكبر فاحتالت و جاءت بالمنطقه و شدتها على وسط يوسف و ادعت أنه سرقتها و كان من سنتهم استرقاق السارق فحبسته بذلك السبب عندها عن ابن عباس و الضحاك و الجبائي و قد روى ذلك عن أئمتنا (عليه السلام)

و قيل إنه سرق صنما لجده من قبل أمه فكسره و ألقاه على الطريق عن سعيد بن جبير و قتاده و ابن زيد و قيل إنه سرق دجاجة كانت في بيت يعقوب أو بيضه فأعطاها سائلا- فعيروه بها عن سفيان بن عيينه و مجاهد «فَأَسْرَرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ» أى فأخفى يوسف تلك الكلمه التى قالوها «وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ» أى لم يظهرها «قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا» فى السرقة لأنكم سرقتم أخاكم من أبيكم «وَاللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ» أى والله أعلم أ سرق أخ له أم لا عن الزجاج و يكون المعنى أنتم أسوأ حالا من يوسف فإنه لم يكن له صنيع فى المنطقه و كان يتصدق بإذن أبيه و لم تكونوا براء مما عاملتموه به و قيل معناه أنتم شر صنيعا بما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم و عقوق أبيكم فأنتم شر مكانا عند الله منه أى أسر هذه المقاله فى نفسه ثم جهر بقوله «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ» قال الحسن لم يكونوا أنبياء فى ذلك الوقت و إنما أعطوا النبوه بعد ذلك و الصحيح عندنا أنهم لم يكونوا أنبياء لأن النبى عندنا لا يجوز أن يقع منه فعل القبيح أصلا و قال البلخى إنهم كذبوا فى هذا القول و لم يصح أنهم كانوا أنبياء و جوز أن يكون الأسباط غيرهم أو أن يكونوا من أولادهم «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ» أى بدلا عنه إنما قالوا هذا لما علموا أنه استحقه فسألوه أن يأخذ عنه بدلا شفقه على والدهم و رفقوا فى القول على وجه الاسترحام و معناه كبيرا فى السن و قيل كبيرا فى القدر لا يحبس ابن مثله «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» إلى الناس و قيل من المحسنين إلينا فى الكيل و رد البضاعه و فى الضيافه و نحن نأمل هذا منك لإحسانك إلينا و قيل إن فعلت هذا فقد أحسنت إلينا فأجابهم يوسف بأن «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ» أى أعود بالله أن آخذ البرىء بجرم السقيم و قال من وجدنا متاعنا عنده و لم يقل من سرق تحرزا من الكذب «إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ» أى لو فعلنا ذلك لكننا ظالمين و فى هذا دلالة على أن آخذ البرىء بالمجرم ظلم و من فعله كان ظلما و الله يتعالى و يجلس عن ذلك علوا كبيرا «فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ» أى فلما يئس إخوه يوسف من يوسف أن يجيبهم إلى ما سأله من تخليه سبيل ابن يامين معهم «خَلَصُوا نَجِيًّا» أى انفردوا عن الناس من غير أن يكون معهم من ليس منهم يتناجون فيما يعملون فى ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم و يتدبرون فى أنهم يرجعون أم يقيمون و تلخيصه اعتزلوا عن الناس متناجين و هذا من ألفاظ القرآن التى هى فى الغايه القصوى من الفصاحه و الإيجاز فى اللفظ مع كثره المعنى «قَالَ كَبِيرُهُمْ» و هو رويين و كان أسنهم و هو ابن خاله يوسف و هو الذى نهى إخوته عن قتله عن قتاده و السدى و الضحاك و كعب و قيل شمعون و هو كبيرهم فى العقل و العلم لا- فى السن و كان رئيسهم عن مجاهد و قيل يهوذا و كان أعقلهم عن وهب الكلبي و قيل لاوى عن محمد بن إسحاق و عن على بن إبراهيم بن هاشم «أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ» أراد به الوثيقه التى طلبها منهم يعقوب حين قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به فذكرهم ذلك «وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ» أى قصرتم فى أمره و كنتم قد عاهدتم أباكم أن تردوه إليه سالما فنقضتم العهد «فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ» أى لا أزال بهذه الأرض و لا أزول عنها و هى أرض مصر «حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي» فى البراح و الرجوع إليه «أَوْ

يَحْكَمَ اللَّهُ لِي» بالخروج و ترك أخى هاهنا و قيل بالموت و قيل بما يكون عذرا لنا عند أبينا عن أبى مسلم و قيل بالسيف حتى أحارب من حبس أخى عن الجبائى «وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» لا- يحكم إلا- بالحق قالوا إنه قال لهم أنا أكون هاهنا و احملوا أنتم الطعام إليهم فأخبروهم بالواقعه.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ٨١ الى ٨٧]

اشاره

ارْجِعُوا إِلَىٰ أَيْبِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَ سَأَلَ الْقُرَيْبَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَ الْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَ تَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسِيفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥)

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَيَأْسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)

القراءه

فى الشواذ قراءه ابن عباس سرق بضم السين و تشديد الراء و كسرهما و قراءه الحسن و قتاده و عمر بن عبد العزيز من روح الله بضم الراء.

ص: ٣٩٢

الحجج

معنى سرق بضم السين نسب إلى السرقة فيكون من باب فسقه و فجره و شجعه إذا نسبه إلى هذه الخلال و أما روح الله فيمكن أن يكون من الروح الذي هو من عند الله و بطفه و هدايته و نعمته.

اللغة

القرية الأرض الجامعه لمساكن كثيره و أصله من القرى و هو الجمع يقال قرية الماء فى الحوض و نظيره البلده و المدينه و العير قد مضى ذكر معناه و الكظم اجتراع الحزن و هو أن يمسكه فى قلبه و لا يبثه إلى غيره و يقال ما زلت أفعل كذا و ما فتئت أفعله أفأ فتا قال أوس بن حجر يصف حربا:

فما فتات خيل تثوب و تدعى و يلحق منها لاحق و تقطع

و الحرض المشرف على الهلاك يقال رجل حرض و حارض أى فاسد فى جسمه و عقله و منه حرضته على كذا أمرته به لأنه إذا خالف الأمر فكأنه هلك و أحرضه أى أفسده قال العرجى:

إنى امرؤ لى حب فأحرضنى حتى بليت و حتى شفنى السقم

و الحرض لا يثنى و لا يجمع لأنه مصدر و الشكوى صفة ما عنده من البلوى يقال شكوته إلى فلان شكوى و شكايه و شكواء فأشكاني أى أعتبني من شكواى و أشكاني أيضا أخرجني إلى الشكوى و البث الهم الذى لا يقدر صاحبه على كتمانه فيبثه أى يفرقه و كل شىء فرقه فقد بثته و منه قوله وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ التحسس طلب الشىء بالحاسه و التجسس نظيره و

فى الحديث لا تحسسوا و لا تجسسوا

و قيل إن معاهما واحد و نسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظتين كقول الشاعر:

"متى أدن منه ينأ عنى و يبعد"

و قيل التجسس بالجيم البحث عن عورات الناس و بالحاء الاستماع لحديث قوم و سئل ابن عباس عن الفرق بينهما قال لا يبعد أحدهما عن الآخر التحسس فى الخير و التجسس فى الشر و الروح و الراحه و الروح و الرحمه و أصل الباب من الريح التى تأتي بالرحمه.

الإعراب

«سَيَلَّ الْقَرْيَةَ» أى أهل القرية و أهل العير فحذف المضاف و أقام المضاف إليه مقامه «يا أسيفى» معناه يا حسرتى و الأصل يا أسفى إلا- أن ياء الإضافه يجوز أن يبدل ألفا لخفه الألف و الفتحة و يجوز أن يكون ألف الندبه و يكون معناه لبيان أن الحال حال حزن

فكأنه قال يا أسف هذا من أوانك وقوله «على يوسف» من صله المصدر «تفتوا» معناه لا تفتا حذف حرف النفي لعلم السامع به كما في قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا و لو ضربوا رأسى لديك و أوصالى

و إنما جاز ذلك لأنه لا يجوز فى القسم تالله تفعل حتى تقول تالله لتفعلن أو تقول لا تفعل.

المعنى

ثم أخبر سبحانه أنه قال كبيرهم فى السن أو فى العلم «ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق» فى الظاهر «و ما شهدنا» عندك بهذا «إلا بما علمنا» أى بما شهدنا من أن الصاع استخرج من رحله فى الظاهر و بين بهذا أنهم لم يكونوا قاطعين على أنه سرق و قيل معناه ما شهدنا عند يوسف أن السارق يسترق إلا بما علمنا أن الحكم ذلك و لم نعلم أن ابنك سرق أم لا إلا أنه وجد الصاع عنده فحكم بأنه السارق فى الظاهر و إنما قالوا ذلك حين قال يعقوب (عليه السلام) لهم ما يدرى الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة و يسترق و إنما علم ذلك بقولكم «و ما كنا للغيب حافظين» أى إننا لم نعلم الغيب حين سألتناك أن تبعث ابن يامين معنا و لم ندر أن أمره يؤول إلى هذا و إنما قصدنا به الخير و لو علمنا ذلك ما ذهبنا به عن مجاهد و قتاده و الحسن قال على بن عيسى علم الغيب هو علم من لو شاهد الشىء لشاهده بنفسه لا بأمر يستفيدة و العالم بهذا المعنى هو الله وحده جل اسمه و قيل معناه ما كنا لسر هذا الأمر حافظين و به عالمين فلا ندرى أنه سرق أم كذبوا عليه و إنما أخبرناك بما شاهدنا عن عكرمه و قيل معناه ما كنا لغيب ابنك حافظين أى إننا كنا نحفظه فى محضره و إذا غاب عنا ذهب عن حفظنا يعنون أنه سرق ليلا و هم نيام و الغيب هو الليل بلغه حمير عن ابن عباس قال أى إننا لم نعلم ما كان يصنع فى ليله و نهاره و مجيئه و ذهابه «و شئل القرية» أى أهل القرية «التي كنا فيها» و القرية مصر عن ابن عباس و الحسن و قتاده و معناه سل من شئت من أهل مصر عن هذا الأمر فإن هذا الأمر شائع فيهم يخبرك به من سألته و إنما قالوا ذلك لأن بعض أهلها كانوا قد صاروا إلى الناحية التي كان فيها أبوهم و العرب تسمى الأمصار و المدائن قرى «و العير التي أقبلنا فيها» أى و سل أهل القافلة التي قدمنا فيها و كانوا من أرض كنعان من جيران يعقوب و إنما حذف المضاف للإيجاز و لأن المعنى مفهوم و قيل إنه ليس فى الكلام حذف لأن يعقوب (عليه السلام) نبي صاحب معجز

يجوز أن تكلمه القرية و العير على وجه خرق العاده و إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا أهل تهمة عند يعقوب «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» فيما أخبرناك به «قَالَ بَيْلٌ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسِيْكُمْ أَمْرًا» هاهنا حذف كثير يدل الحال عليه تقديره فلما رجعوا إلى أبيهم و قصوا عليه القصة بطولها قال لهم ما عندى أن الأمر على ما تقولونه بل سولت لكم أنفسكم أمرا فيما أظن «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» أى فأمرى صبر جميل لا جزع منه «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا» أى عسى الله أن يأتينى بيوسف و ابن يامين و روبيل أو شمعون أو لاوى أو يهوذا «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ» بعباده «الْحَكِيمُ» فى تدبير الخلق «وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ» أى انصرف و أعرض عنهم بشده الحزن لما بلغه خبر حبس ابن يامين و هاج ذلك وجده بيوسف لأنه كان يتسلى به «وَ قَالَ يَا أَسِيفِ عَلَى يُوْسُفَ» أى يا طول حزنى على يوسف عن ابن عباس و روى عن سعيد بن جبير أنه قال لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم يعط الأنبياء قبلهم «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» و لو أعطيتها الأنبياء لأعطيتها يعقوب إذ يقول «يَا أَسِيفِ عَلَى يُوْسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ» و البكاء و لما كان البكاء من أجل الحزن أضاف بياض البصر إليه و

سئل الصادق (عليه السلام) ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف قال حزن سبعين حرى ثكلى قيل كيف و قد أخبر أنه يرد عليه فقال أنسى ذلك

و قيل إنه عمى ست سنين عن مقاتل و قيل إنه أشرف على العمى فكان لا يرى إلا شيئا يسيرا «فَهُوَ كَظِيمٌ» و الكظيم هاهنا بمعنى الكاظم و هو المملوء من الهم و الحزن الممسك للغيظ لا يشكوه لأهل زمانه و لا يظهره بلسانه و لذلك لقب موسى بن جعفر (عليه السلام) الكاظم لكثرة ما كان يتجرع من الغيظ و الغم طول أيام خلافته لأبيه فى ذات الله تعالى و قال ابن عباس و هو المغموم المكروب «قَالُوا» أى قال ولد يعقوب لأبيهم «تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكُرُ يُوْسُفَ» أى لا تزال تذكر يوسف «حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا» أى دنفا فاسد العقل عن ابن عباس و ابن إسحاق و قيل قريبا من الموت عن مجاهد و قيل هرما باليا عن قتاده و الضحاك «أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» أى الميتين و إنما قالوا ذلك إشفافا عليه و تعطفوا و رحمه له و قيل إنهم قالوا ذلك تبرما ببكائه إذ تنغص عيشهم بذلك «قَالَ» يعقوب فى جوابهم «إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي» أى همى عن ابن عباس و قيل حاجتى عن الحسن «وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ» المعنى إنما أشكو حزنى و حاجتى و اختلال حالى و انتشارها إلى الله فى ظلم الليالى و أوقات خلواتى لا إليكم و قيل البث ما أبداه و الحزن ما أخفاه و

روى عن النبى ص أن جبرائيل أتاه فقال يا يعقوب إن الله يقرأ عليك السلم و يقول أبشر و ليفرح قلبك فو عزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك اصنع طعاما للمساكين فإن أحب عبادى إلى المساكين أ و تدري لم أذهبت بصرك و قوست ظهرك لأنكم ذبحتم شاه و أتاكم مسكين و هو صائم فلم تطعموه شيئا فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغذاء أمر مناديا ينادى ألا

من أراد الغذاء من المساكين فليتغذ مع يعقوب و إذا كان صائماً أمر منادياً فنادى ألا- من كان صائماً فليفطر مع يعقوب رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ في صحيحه

«وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أى و أعلم صدق رؤيا يوسف و أعلم أنه حى و أنكم ستسجدون له كما اقتضاه رؤياه عن ابن عباس و قيل و أعلم من رحمه الله و قدرته ما لا تعلمون عن عطاء و

فى كتاب النبوه بالإسناد عن سدير الصيرفى عن أبى جعفر الباقر (عليه السلام) قال إن يعقوب دعا الله سبحانه فى أن يهبط عليه ملك الموت فأجابه فقال ما حاجتك قال أخبرنى هل مر بك روح يوسف فى الأرواح فقال لا فعلم أنه حى فقال «يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ» ابن يامين

و قيل إنهم لما أخبروه بسيره الملك قال لعله يوسف عن السدى فلذلك قال «يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ» ابن يامين أى استخبروا من شأنهما و اطلبوا خبرهما و انظروا أن ملك مصر ما اسمه و على أى دين هو فإنه ألقى فى روعى أن الذى حبس ابن يامين هو يوسف و إنما طلبه منكم و جعل الصاع فى رحله احتيالا فى حبس أخيه عند نفسه «وَلَا تَيَأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» أى لا تقنطوا من رحمته عن ابن عباس و قتاده و الضحاك و قيل من الفرج من قبل الله عن ابن زيد و المعنى لا تيأسوا من الروح الذى يأتى به الله «إِنَّهُ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» قال ابن عباس يريد أن المؤمن من الله على خير يرجوه فى الشدائد و البلاء و يشكره و يحمده فى الرخاء و الكافر ليس كذلك و فى هذا دلالة على أن الفاسق الملى لا يأس عليه من رحمه الله بخلاف ما يقوله أهل الوعيد.

سؤال

كيف خفى إخبار يوسف على يعقوب فى المده الطويله مع قرب المسافه و كيف لم يعلمه يوسف بخبره لتسكن نفسه و يزول وجده.

الجواب

قال الجبائى العله فى ذلك أنه حمل إلى مصر فبيع من عزيز فألزمه داره ثم لبث فى السجن بضع سنين فانقطعت أخبار الناس عنه فلما تمكن احتال فى إيصال خبره بأبيه على الوجه الذى أمكنه و كان لا يأمن لو بعث رسولا إليه أن لا يمكنه إخوته من الوصول إليه و قال المرتضى قدس الله روحه يجوز أن يكون ذلك له ممكنا و كان عليه قادرا لكن الله سبحانه أوحى إليه بأن يعدل عن اطلاعه على خبره تشديدا للمحنه عليه و لله سبحانه أن يصعب التكليف و أن يسهله.

ص: ٣٩٦

إشارة

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُرْجَاهٍ فَاؤُفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

القراءة

قرأ أبو جعفر و ابن كثير إنك لأنك يوسف بكسر الهمزة و قرأ نافع و يعقوب غير زيد و سهل أنك بفتح الهمزة غير ممدود و قرأ أبو عمرو و قالون عن نافع و زيد عن يعقوب أنك بالمد و قرأ الباقون «أِنَّكَ» بهمزيين و فى الشواذ قراءة أبى إنك أو أنت يوسف و قرأ ابن كثير وحده من يتقى بياء فى الوصول و الوقف و الباقون بغير ياء فيهما.

الحجج

يدل على الاستفهام قوله «أَنَا يُوسُفُ» و إنما أجابهم عما استفهموا عنه قال أبو الحسن فى قوله «وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ» أنه على الاستفهام كأنه قال أو تلك نعمه فيجوز أن يكون من قرأ أنك على هذا فيكون القراءة تان متفتحتين و قلما يحذف حرف الاستفهام فأما فى القراءات فإنه يجرى على مذهبه فى اجتماع الهمزتين و قد تقدم القول فى ذلك و أما قراءة أبى فيكون على حذف خبر إن كأنه قال إنك لغير يوسف أو أنت يوسف قال ابن جنى فكأنه قال بل أنت يوسف فلما خرج مخرج التوقف قال أنا يوسف و قد جاء عنهم حذف خبر إن قال الأعشى:

إن محلا و إن مرتحلا و إن فى السفر إذ مضوا مهلا

أراد أن لنا محلا و أن لنا مرتحلا قال أبو على قوله من يتقى لا يحمل على نحو قول الشاعر:

" أ لم يأتيك و الأبناء تنمى "

لأن هذا و نحوه إنما يجىء فى الشعر و لكن تجعل من موصوله فيكون بمنزله الذى يتقى و يحمل المعطوف على المعنى لأن من يتقى، إذا كان من منزله الذى، بمنزله الجزء الجازم بدلاله أن كل واحد منهما يصلح دخول الفاء فى جوابه فإذا اجتمعا فى ذلك جاز أن يعطف عليه كما يعطف على الشرط المجزوم لكونه بمنزله فيما ذكرناه و مثل ذلك قوله فَأَصْدَقَ وَ أَكُنْ حَمَلتَ وَ أَكُنْ على موضع الفاء و مثله قول من قرأ و يذرهم فى طغيانهم جزما و يجوز أن تقدر الضمه فى قوله «وَ يَصِيْبُ» و تحذفها للاستخفاف كما يخفف نحو عضد و سبع و جاز هذا فى حركة الإعراب كجوازه فى حركة البناء و زعم أبو الحسن أنه سمع رسلنا لديهم يكتبون بإسكان اللام من رسلنا و يقوى ذلك قراءه من قرأ و يتقه أ لا ترى أنه جعل تقه بمنزله كتف و علم فأسكن فكذلك يسكن على هذا و يصبر.

اللغة

الإزجاء فى اللغة السوق و الدفع قليلا و منه قوله يزجى سحابا قال النابغه:

و هبت الريح من تلقاء ذى أرل تزجى مع الليل من صرادها صرما

و فلان يزجى العيش أى يدفع بالقليل و يكتفى به قال الأعشى:

الواهب المائه الهجان و عبدها عودا يزجى خلفها أطفالها

أى يدفع و قال آخر:

" و حاجه غير مزجاه من الحاج "

و إنما قيل «بِبِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ» لأنها يسيره ناقصه و إنما يجوز ذلك على دفع من أخذها و المن النعمة و أصله القطع لأنها تقطع المنعم عليه من حال بؤسه و الإيثار تفضيل أحد الشئيين على الآخر و نظيره الاختيار و الاجتباء و نقيضه الإيثار عليه و أصله من الأثر فإنه يؤثر من له أثر جميل و الأثر الإخبار يقال أثر يَأْثُرُ و المأثره المكرمه لأنها تؤثر و الخطأ ضد الصواب يقال خطأ الرجل يخطأ خطأ و خطأ فهو خاطئ و أخطأ بخطأ إخطاء فهو مخطئ قال امرؤ القيس:

التثريب التوبيخ يقال ثرب و أثرب و ثرب عن ابن الأعرابي و قيل التثريب اللوم و الإفساد و التقرير بالذنب قال أبو عبيده و أصله الإفساد و أنشد:

فعفوت عنهم عفو غير مشرب و تركتهم لعقاب يوم سرمد

و قال ثعلب ثرب و أثرب فلائن على فلائن أى عدد عليه ذنوبه و قال أبو مسلم هو مأخوذ من الثرب و هو شحم الجوف فكأنه موضوع للمبالغة فى اللوم و التعنيف و البلوغ بذلك إلى أقصى غاياته.

الإعراب

«هَلْ عَلِمْتُمْ» استفهام و المراد به التقرير ما فعلتم بيوسف تقديره أى شىء فعلتم بيوسف فكان ما فى موضع نصب و الجملة معلقه بعلمتم و قوله «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» فى موضع الجزم بأنه جواب الشرط و ذكر المحسنين تاب عن الضمير العائد إلى من لأن الاتقاء و الصبر فى معنى الإحسان فكأنه قال لا يضيع جزاءه، «لَأَنْتَ يُوسُفُ» هذه لام الابتداء و أنت مبتدأ و يوسف خبره و الجملة خبر أن و يجوز أن يكون أنت فصلا كما علمت فيما تقدم و قوله «لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ» تثريب نكره مفردة مبنية مع لا على الفتح و لا يجوز أن يتعلق عليكم به إذ لو كان كذلك لكان مشتبهها بالمضاف من حيث يكون عاملا فيما بعده و يكون عليكم من تمامه و كان يجب أن يكون منصوبا منونا كما تقول لا مرورا بزید عندك و إذا عرفت هذا فإن عليكم هاهنا فيه وجهان (أحدهما) أن يكون فى موضع الخبر على تقدير لا تثريب يثبت عليكم أو ثابت عليكم ثم حذف ذلك و انتقل الضمير منه إلى عليكم حيث سد مسده (و الآخر) أن يتعلق بمضمرة ذلك المضمرة وصف لتثريب و على هذا فيجوز فيه وجهان (أحدهما) أن يكون فى محل رفع تقديره لا تثريب ثابت عليكم كما تقول لا رجل ظريف (و الآخر) أن يكون فى محل نصب تقديره لا تثريب ثابتا عليكم كما تقول لا- رجل ظريفا ثم حذف الصفه و قام الظرف مقامه و يكون اليوم على هذا الوجه خبر لا و على الوجه الأول يجوز أن يكون خبرا بعد خبر و يجوز أن يكون متعلقا بالضمير الذى فى الخبر و يجوز أن يكون قد تم الكلام عند قوله عليكم و تعلق اليوم بما بعده فيكون تقديره اليوم يغفر الله لكم و هذا اختيار الأخفش و هكذا الكلام فى قوله «لَا رَبِّبَ فِيهِ».

و لما قال يعقوب لبنيه اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ خَرَجُوا إِلَى مِصْرَ «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ» أَى عَلَى يوسف «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضَّرُّ» أَى أَصَابَنَا وَ مِنْ يَخْتَصُّ بِنَا الْجُوعُ وَ الْحَاجَةُ وَ الشَّدَّةُ مِنَ السَّنِينِ الشَّدَائِدِ الْقَحَاطِ وَ قِيلَ أَنَّهُمْ شَكُوا مَا نَالَهُمْ مِنْ هَلَاكٍ مُوَاشِيَهُمْ وَ الْبَلَاءِ الَّذِى أَصَابَهُمْ «وَ جِئْنَا بِبِضَاعِهِ مُزْجَاهٍ» أَى نِدَافِعَ بِهَا الْأَيَّامِ وَ نَتَقُوتُهَا وَ لَيْسَتْ مِمَّا يَتَسَّعُ بِهِ وَ قِيلَ رَدِيئُهُ لَا تُؤْخِذُ إِلَّا- بُوَكْسَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ الْجَبَائِىِّ وَ قِيلَ قَلِيلُهُ عَنِ الْحَسَنِ وَ مُجَاهِدٍ وَ قَتَادَةَ وَ ابْنَ زَيْدٍ وَ أَبِي مُسْلِمٍ وَ اخْتَلَفَ فِي تِلْكَ الْبِضَاعَةِ فَقِيلَ كَانَتْ دِرَاهِمٌ رَدِيئُهُ زَيْوْفًا لَا تَنْفَقُ فِي ثَمَنِ الطَّعَامِ عَنِ عَكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ قِيلَ كَانَتْ خَلْقَ الْغَرَارِهِ وَ الْحَبْلِ وَرِثَ الْمَتَاعِ عَنِ ابْنِ أَبِي مَلِيكَةَ عَنْهُ وَ قِيلَ كَانَتْ مَتَاعَ الْأَعْرَابِ الصُّوفِ وَ السَّمَنِ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَرِثِ وَ قِيلَ الصُّنُوبِ وَ الْحَبَةِ الْخَضْرَاءِ عَنِ الْكَلْبِيِّ وَ مِقَاتِلٍ وَ قِيلَ دِرَاهِمٌ فَسُولٌ عَنِ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَ قِيلَ كَانَتْ أَقْطَا عَنِ الْحَسَنِ وَ قِيلَ النَّعَالِ وَ الْأَدَمِ عَنِ الضَّحَّاكِ وَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهَا سُيُوقُ الْمَقْلِ «فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ» كَمَا كُنْتَ تُوْفَى فِي السَّنِينِ الْمَاضِيَةِ وَ لَا تَنْظُرُ إِلَى قَلْبِ بِضَاعَتِنَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ «وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» أَى سَامَحْنَا بِمَا بَيْنَ النَّقْدِيِّينَ وَ سَعَرْنَا بِالرَّدِيِّ ء كَمَا تَسْعَرُ بِالْجَيِّدِ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِرَدِّ أَخِينَا عَنِ ابْنِ جَرِيحٍ وَ الضَّحَّاكِ «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» أَى يَثِيبُهُمْ عَلَى صَدَقَاتِهِمْ بِأَفْضَلٍ مِنْهَا وَ

فِي كِتَابِ النَّبُوَّةِ بِالْإِسْنَادِ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مَجْبُوبٍ عَنِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ الْفَرَّاءِ عَنِ طَرِبَالٍ عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فِي خَبَرِ طَوِيلٍ أَنَّ يَعْقُوبَ كَتَبَ إِلَى يوسفَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ وَ مَظْهَرَ الْعَدْلِ وَ مَوْفَى الْكَيْلِ مِنْ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ صَاحِبِ نَمْرُودِ الَّذِى جَمَعَ لَهُ النَّارَ لِيَحْرِقَهُ بِهَا فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَ سَلَامًا وَ أَنْجَاهُ مِنْهَا أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ أَنَا أَهْلُ بَيْتٍ لَمْ يَزَلِ الْبَلَاءُ إِلَيْنَا سَرِيعًا مِنْ اللَّهِ لِيَبْلُوَنَا عِنْدَ السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ أَنَّ الْمِصَائِبَ تَتَابَعَتْ عَلَى عِشْرِينَ سَنَةً أَوَّلَهَا أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنٌ سَمِيئُهُ يوسفَ وَ كَانَ سَرُورِي مِنْ بَيْنِ وَلَدِي وَ قَرَّةَ عَيْنِي وَ ثَمَرَةَ فُؤَادِي وَ أَنَّ إِخْوَتَهُ مِنْ غَيْرِ أُمِّهِ سَأَلُونِي أَنَّ أَبْعَثَهُ مَعَهُمْ يَرْتَعُ وَ يَلْعَبُ فَبَعَثْتُهُ مَعَهُمْ بِكَرِهٍ فَجَاءَ وَنِي عِشَاءً يَبْكُونَ وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذَبٍ وَ زَعَمُوا أَنَّ الذَّنْبَ أَكَلَهُ فَاشْتَدَّ لِفَقْدِهِ حَزْنِي وَ كَثُرَ عَنِ فِرَاقِهِ بِكَائِي حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَايَ مِنَ الْحَزَنِ وَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ أَخٌ وَ كُنْتُ بِهِ مَعْجَبًا وَ كَانَ لِي أَنْيسَا وَ كُنْتُ إِذَا ذَكَرْتُ يوسفَ ضَمَمْتُهُ إِلَى صَدْرِي فَسَكَنَ بَعْدَ مَا أَجِدُ فِي صَدْرِي وَ أَنَّ إِخْوَتَهُ ذَكَرُوا لِي أَنَّكَ سَأَلْتَهُمْ عَنْهُ وَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَأْتُوكَ بِهِ فَإِنْ لَمْ يَأْتُوكَ بِهِ مَنَعْتَهُمُ الْمِيرَةَ فَبَعَثْتُهُ مَعَهُمْ لِيَمْتَارُوا لَنَا قَمْحًا فَرَجَعُوا إِلَيَّ وَ لَيْسَ هُوَ مَعَهُمْ وَ ذَكَرُوا أَنَّهُ سَرَقَ مَكْيَالَ الْمَلِكِ وَ نَحْنُ أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَسْرِقُ وَ قَدْ حَبَسْتَهُ عَنِّي

و فجعتنى به و قد اشتد لفراقه حزنى حتى تقوس لذلك ظهرى و عظمت به مصيبتى مع مصائب تتابعت على فمى على بتخليه سيله و إطلاقه من حبسك و طيب لنا القمح و أسمح لنا فى السعرا و أوف لنا الكيل و عجل سراح آل إبراهيم قال فمضوا بكتابه حتى دخلوا على يوسف فى دار الملك و «قالوا يا أئها العزير مسنا و أهلنا الضر» إلى آخر الآيه و تصدق علينا بأخينا ابن يامين و هذا كتاب أينا يعقوب إليك فى أمره يسألك تخليه سيله فمى به علينا فأخذ يوسف كتاب يعقوب و قبله و وضع على عينيه به بكى و انتحب حتى بلى دموعه القميص الذى عليه ثم أقبل عليهم و «قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه»

و معناه أنه قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف من إذلاله و إبعاده عن أبيه و إلقائه فى البئر و الاجتماع على قتله و بيعه بثمان و كس و ما فعلتم بأخيه من إفراده عن يوسف و التفريق بينهما حتى صار ذليلا فيما بينكم لا يكلمكم إلا كما يكلم الذليل العزيز و إنما لم يذكر أباه يعقوب مع عظم ما دخل عليه من الغم لفراقه تعظيما له و رفعا من قدره و علما أن ذلك كان بلاء له ليزداد به علو الدرجه و رفعه المنزله عند الله تعالى قال ابن الأنبارى هذا استفهام يعنى به تعظيم القصة و معناه ما أعظم ما ارتكبتم و ما أقبح ما أتيتم من قطيعه الرحم و تضييع حقه كما يقول الرجل هل تدرى من عصيت و فى هذه الآيه مصداق قوله لئببئهم بأمرهم هذا و هم لا يشعرون و قوله «إذ أنتم جاهلون» أى صبيان عن ابن عباس و قيل شبان عن الحسن و معناه فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين جاهليه الصبى فى عنفوان الشباب حين يغلب على الإنسان الجهل و لم ينسبهم إلى الجهل فى حال الخطاب لأنهم كانوا تائبين ناديين فى تلك الحال و كان هذا تلقينا لهم لما يعتذرون به إليه و هذا هو الغايه فى الكرم إذ صفح عنهم و لقنهم وجه العذر و «قالوا أإنك لآنت يوسف» قيل أن يوسف لما قال لهم هل علمتم الآيه تبسم فلما أبصروا ثناياه و كانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف و «قالوا» له «أإنك لآنت يوسف» عن ابن عباس و قيل رفع التاج عن رأسه فعرفوه «قال أنا يوسف» أظهر الاسم و لم يقل أنا هو تعظيما لما وقع به من ظلم إخوته فكأنه قال أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله فكفى ظهور الاسم من هذه المعانى عن ابن الأنبارى قال و لهذا قال «و هذا أخى» لأن قصده و هذا المظلوم كظلمى «قد من الله علينا» بالاجتماع بعد طول الفرقة و قيل من الله علينا بكل خير فى الدنيا و الآخرة «إنه من يتق الله و يصبره» على المصائب و عن المعاصى «فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» أى أجر من كان هذا حاله و الضياع ذهاب الشىء من غير عوض «قالوا تالله» أى أقسموا بالله سبحانه «لقد آثرك الله علينا» أى فضلك و اختارك الله علينا بالحلم و العلم و العقل و الحسن و الملك «و إن كنا لخاطئين» أى ما كنا إلا مخطئين آثمين فيما فعلنا و هذا

يدل على أنهم ندموا على ما فعلوا و لم يصروا عليه «قال» يوسف «لا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» أى لا تعير و لا تويخ و لا تقريع عليكم الآن فيما فعلتم «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» ذنوبكم فإنى أستغفر الله لكم «وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» فى عفوه عنكم ما تقدم من ذنبكم و قيل فى صنيعه بى حتى جعلنى ملكا و قيل أراد باليوم الزمان فتدخل فيه الأوقات كلها كما قال الشاعر:

فاليوم يرحمنا من كان يغبطنا و اليوم نتبع من كانوا لنا تبعا.

و قيل إن الكلام قد تم عند قوله «لا- تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ» ثم ابتداء بقوله «الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» و هو دعاء لهم «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوُّهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا» قيل أنه (عليه السلام) لما عرفهم نفسه سألهم عن أبيه فقال ما فعل أبى بعدى قالوا ذهب عيناه فقال اذهبوا بقميصى هذا و اطرحوه على وجهه يعد مبصرا كما كان من قبل قال ابن عباس «يَأْتِ بَصِيرًا» يرتد بصيرا و يذهب البياض الذى على عينيه «وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ» إذا عاد بصيرا و هذا كان معجزا منه إذ لا- يعرف أنه يعود بصيرا بإلقاء القميص على وجهه إلا بالوحي و قيل أن يوسف قال إنما يذهب بقميصى من ذهب به أولا فقال يهوذا أنا ذهبت به و هو ملطخ بالدم فأخبرته أنه أكله الذئب قال فاذهب بهذا أيضا و أخبره أنه حى و أفرحه كما حزنه فحمل القميص و خرج حافيا حاسرا حتى أتاه و كان معه سبعة أرغفه و كانت مسافه بينهما ثمانين فرسخا فلم يستوف الأرقفه فى الطريق و قد ذكرنا شأن القميص من قبل و

روى أيضا الواحدى بإسناده يرفعه إلى أنس بن مالك عن رسول الله ص قال أن نمرود الجبار لما ألقى إبراهيم فى النار نزل إليه جبرائيل بقميص من الجنة و طنفسه من الجنة فألبسه القميص و أقعده على الطنفسه و قعد معه يحدثه فكسا إبراهيم ذلك القميص إسحاق و كساه إسحاق يعقوب و كساه يعقوب يوسف فجعله فى قصبه من فضه و علقها فى عنقه فألقى فى الجب و القميص فى عنقه فذلك قوله «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا»

و قال ابن عباس أخرج لهم قصبه من فضه كانت فى عنقه لم يعلم بها إخوته فيها قميص و هو الذى نزل به جبرائيل على إبراهيم و ذكر القصة و قال مجاهد أمره جبرائيل أن أرسل إليه قميصك فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى و لا سقيم إلا صح و عوفى.

اشاره

وَلَمَّا فَصَّيَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَن تَفَنَّدُونَ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)

اللغة

الفصل أصله القطع و منه قيل للحاكم فيصل لأنه يقطع الأمور و التنفيذ تضعيف الرأى قال:

يا صاحبى دعا لومى و تنفيذى فليس ما فأت من أمر بمردود

و الفند ضعف الرأى و قيل إن أصله الفساد قال النابغه:

إلا سليمان إذ قال المليك له قم فى البريه فاحدها عن الفند

أى امنعها عن الفساد.

المعنى

«وَلَمَّا فَصَّيَلَتِ الْعِيرُ» أى لما خرجت القافله و انفصلت من مصر متوجهه نحو الشام «قَالَ أَبُوهُمْ» يعقوب لأولاد أولاده الذين كانوا عنده «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ»

روى عن أبى عبد الله (عليه السلام) قال وجد يعقوب ريح قميص يوسف حين فصلت العير من مصر و هو بفلسطين من مسيره عشر ليال

و قيل من مسيره ثمانى ليال عن ابن عباس و قيل من ثمانين فرسخا عن الحسن و قيل مسيره شهر عن الأصم قال ابن عباس هاجت ريح فحملت بريح قميص يوسف إلى يعقوب و ذكر فى القصة أن الصبا استأذنت ربها فى أن تأتى يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص فأذن لها فأتته بها و لذلك يستروح كل محزون بريح الصبا و قد أكثر الشعراء من ذكرها فمن ذلك قولهم:

فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت على نفس مهموم تجلت همومها

و قول أبى الصخر الهذلى:

إذا قلت هذا حين أسلو يهيجنى نسيم الصبا من حيث يطلع الفجر

وقوله «لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» معناه لو لا أن تسفهونى عن ابن عباس و مجاهد و قيل لو لا أن تضعفونى فى الرأى عن ابن إسحاق و قيل لو لا أن تكذبونى و الفند الكذب عن سعيد بن جبیر و السدى و الضحاك و روى ذلك أيضا عن ابن عباس و قيل لو لا أن تهرمونى عن الحسن و قتاده أى تقولون أنه شيخ قد هرم و خرف و ذهب عقله و تقديره إنى أقطع أنها ريح يوسف لو لا- أن تفندون «قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ» أى قالوا له إشفاقا عليه و ترحما إنك لفى ذهابك القديم عن الصواب فى حب يوسف (عليه السلام) و أنه كان عندهم أن يوسف قد مات منذ سنين و لم يريدوا بذلك الضلال عن الدين و إنما أرادوا به المبالغة فى حب يوسف و الأمانى الفاسده فيما كان يرجو من عوده بعد موته عن قتاده و الحسن و قيل معناه إنك لفى شقائك القديم عن مقاتل و فى هذا دلالة على أن لفظ القديم قد يطلق فى اللغه على المتقدم فى الوجود «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ» و هو يهوذا عن ابن عباس و فى روايه أخرى عنه أنه مالك بن ذعر «أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا» أى ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب فعاد بصيرا قال الضحاك عاد إليه بصره بعد العمى و قوته بعد الضعف و شبابه بعد الهرم و سروره بعد الحزن فقال للبشير ما أدرى ما أثيبك به هون الله عليك سكرات الموت «قال» يعقوب لهم «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أى إنى كنت أعلم أن الله يصدق رؤيا يوسف و يكشف الشدائد عن أنبيائه بالصبر و كنتم لا تعلمون ذلك قال الحسن كان الله سبحانه أعلمه بحياته و لم يعلمه بمكانه «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ» فيما فعلنا «قال» يعقوب «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»

إنما لم يستغفر لهم فى الحال لأنه أخرهم إلى سحر ليله الجمعه عن ابن عباس و طاووس و روى ذلك عن أبى عبد الله (عليه السلام)

و قيل أخرهم إلى وقت السحر لأنه أقرب إلى إجابته الدعاء عن ابن مسعود و إبراهيم التيمى و ابن جريج و روى أيضا عن أبى عبد الله (عليه السلام)

و قيل أنه كان يستغفر لهم كل ليله جمعه فى نيف و عشرين سنه عن وهب و قيل أنه كان يقوم و يصف أولاده خلفه عشرين سنه يدعو و يؤمنون على دعائه و استغفاره لهم حتى نزل قبول توبتهم و

روى أن جبرائيل (عليه السلام) علم يعقوب هذا الدعاء يا رجاء المؤمنين لا تخيب رجائى و يا غوث المؤمنين أغثنى و يا عون المؤمنين أعنى و يا حبيب التوابين تب على و استجب لهم.

إشاره

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرًا إِنَّ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)

الإعراب

دخول من في قوله «مِنَ الْمُلْكِ» و «مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» جائز أن يكون للتبعيض فيكون المراد آتيتني بعض الملك و علمتني بعض تأويل الأحاديث و جائز أن يكون لتبيين هذا الجنس من سائر الأجناس فيكون المعنى آتيتني الملك و علمتني التأويل عن الزجاج قال و قوله «تَوَفَّنِي الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءٍ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ» يدل على أن من هاهنا لتبيين الجنس و مثله قوله «فَاجْتَبِئُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ» أى الرجس الذى هو وثن، «فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» منصوب على وجهين (أحدهما) أن يكون على الصفه لقوله «رَبِّ» لأن المعنى يا ربى فهو نداء مضاف فى موضع نصب فيكون «فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ» صفه له و جائز أن ينتصب على أنه نداء ثان على تقدير يا فاطر السماوات و ذلك فى موضع رفع بالابتداء و يكون خبره «مِنَ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ» و يكون «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» خبرا ثانيا و إن شئت جعلت نوحيه هو الخبر و جعلت ذلك فى معنى الذى و قوله «مِنَ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ» صلته.

«فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ» هاهنا حذف تقديره فلما خرج يعقوب و أهله من أرضهم و أتوا مصر دخلوا على يوسف و

فى حديث ابن محبوب بإسناده عن أبى جعفر (عليه السلام) أن يعقوب قال لولده تحملوا إلى يوسف من يومكم هذا بأهلكم أجمعين فساروا إليه و يعقوب معهم و خاله يوسف أم يامين فحثوا السير فرحا و سرورا تسعه أيام إلى مصر فلما دخلوا على يوسف فى دار الملك اعتنق أباه و قبله و بكى و رفعه و رفع خالته على سرير الملك ثم دخل منزله و اكتحل و ادهن و لبس ثياب العز و الملك فلما رأوه سجدوا جميعا إعظاما له و شكر الله عند ذلك و لم يكن يوسف فى تلك العشرين سنة يدهن و لا يكتحل و لا يتطيب حتى جمع الله بينه و بين أبيه و إخوته

و قيل أن يوسف بعث مع البشير مائتى راحله مع ما يحتاج إليه فى السفر و سألهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين فلما دنا يعقوب من مصر تلقاه يوسف فى الجند و أهل مصر فقال يعقوب يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك ثم تلاقيا قال الكلبى على يوم من مصر فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه بدأ يعقوب بالسلام فقال السلام عليك يا مذهب الأحران

و فى كتاب النبوه بالإسناد عن محمد بن أبى عمير عن هشام بن سالم عن أبى عبد الله (عليه السلام) قال لما أقبل يعقوب إلى مصر خرج يوسف ليستقبله فلما رآه يوسف هم بأن يترجل له ثم نظر إلى ما هو فيه من الملك فلم يفعل فلما سلم على يعقوب نزل عليه جبرائيل فقال له يا يوسف إن الله جل جلاله يقول منعك أن تنزل إلى عبدى الصالح ما أنت فيه ابسط يدك فبسطها فخرج من بين أصابعه نور فقال ما هذا يا جبرائيل قال هذا أنه لا يخرج من صلبك نبى أبدا عقوبه بما صنعت بيعقوب إذ لم تنزل إليه

و قوله «أَوَى إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ» أى ضمهما إليه و أنزلهما عنده و قال أكثر المفسرين أنه يعنى بأبويه أباه و خالته فسمى الخاله أما كما سمي العم أبا فى قوله «وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ» و ذلك أن أمه كانت قد ماتت فى نفاسها بآبن يامين فتزوجها أبوه و قيل يريد أباه و أمه و كانا حين عن ابن إسحاق و الجبائى و قيل أن راحيل أمه نشرت من قبرها حتى سجدت له تحقيقا للرؤيا عن الحسن «وَ قَالَ» لهم قبل دخولهم مصر «ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» و الاستثناء يعود إلى الأمن و إنما قال آمنين لأنهم كانوا فيما خلا يخافون ملوك مصر و لا يدخلونها إلا بجوازهم قال و هب أنهم دخلوا مصر و هم ثلاثة و سبعون إنسانا و خرجوا مع موسى و هم ستمائة ألف و خمس مائه و بضع و سبعون رجلا «وَ رَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ» أى رفعهما على سرير ملكه إعظاما لهما و العرش السرير الرفيع عن ابن عباس و الحسن و قتاده «وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» أى انحطوا على وجوههم و كانت تحيه الناس بعضهم لبعض يومئذ السجود و الانحناء و التكفير عن قتاده و لم يكونوا نهوا عن السجود لغير الله فى شريعتهم فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام و هى

تحية أهل الجنة عجلها لهم قال أعشى بن ثعلبه:

فلما أتانا بعيد الكرى سجدنا له و رفعنا العمارا.

و كان من سنه التعظيم يومئذ أن يسجد للمعظم عن الزجاج و قيل كان سجودهم كهينه الركوع كما يفعل الأعاجم عن الكلبي و قيل إن السجود كان لله تعالى شكرا له كما يفعله الصالحون عند تجدد النعم و الهاء في قوله «لَهُ» عائده إلى الله تعالى أى

سجدوا لله تعالى على هذه النعمه و توجهوا فى السجود إليه كما يقال صلى للقبلة و يراد به استقبالها عن ابن عباس و هو المروى عن أبى عبد الله (عليه السلام)

قال على بن إبراهيم و حدثنى محمد بن عيسى بن عبيد بن يقطين أن يحيى بن أكثم سأل موسى بن محمد بن على بن موسى مسائل فعرضها على أبى الحسن على بن محمد (عليه السلام) فكان إحداها أن قال أخبرنى أ سجد يعقوب و ولده ليوسف و هم أنبياء فأجاب أبو الحسن ع أما سجود يعقوب و ولده فإنه لم يكن ليوسف و إنما كان ذلك منهم طاعه الله و تحية ليوسف كما أن السجود من الملائكة لآدم كان منهم طاعه الله و تحية لآدم فسجد يعقوب و ولده و يوسف معهم شكرا لله تعالى لاجتماع شملهم ألم تر أنه يقول فى شكره فى ذلك الوقت «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ» الآية الخبر بتمامه

«وَقَالَ» يوسف «يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ» أى هذا تفسير رؤياى و تصديق رؤياى التى رأيتها «مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» أى صدقا فى اليقظه و قيل كان بين الرؤيا و تأويلها ثمانون سنه عن الحسن و قيل سبعون سنه عن عبد الله بن شوذب و قيل أربعون سنه عن سلمان الفارسى و عبد الله بن شداد و قيل اثنتان و عشرون سنه عن الكلبي و قيل ثمانى عشره سنه عن ابن إسحاق قال ابن إسحاق و ولد ليوسف من امرأه العزيز أفرايم و ميثا و رحمه امرأه أيوب و كان بين يوسف و بين موسى أربعمائنه سنه «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ» أى و قد أحسن ربي إلى حيث أخرجنى من السجن و أنعم على به «وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ» أى من البادية فإنهم كانوا يسكنون البادية و يرعون أغنامهم فيها فكانت مواشيهم قد هلكت فى تلك السنين بالقحط فأغناهم الله تعالى بمصيرهم إلى يوسف و إنما بدأ (عليه السلام) بالسجن فى تعداد نعم الله دون إخراجه من الجب كرما لثلا يبدأ بصنيع إخوته به و قيل لأن نعم الله تعالى فى إخراجه من السجن كانت أكثر و لأن السجن طالت مدته و كثرت محنته «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي» أى من بعد أن أفسد الشيطان بينى و بين إخوتى و حرش بينى و بينهم و قال ابن عباس معناه دخل بيننا بالحسد «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ» أى لطيف فى

تدبير عباده يدبر أمرهم على ما يشاء و يسهل لهم العسير و بلطفه حصلت هذه النعم علينا من الاجتماع و غيره قال الأزهرى اللطيف من أسماء الله سبحانه معناه الرفيق بعباده يقال لطف فلان بفلان لطفًا إذا رفق و قال غيره اللطيف الذى يوصل إليك إربك فى رفق و قيل اللطيف العالم بدقائق الأمور «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ» بجميع الأشياء «الْحَكِيمُ» فى كل التدابير و

فى كتاب النبوه بالإسناد عن أبى عبد الله (عليه السلام) قال قال يعقوب ليوسف يا بنى حدثنى كيف صنع بك إخوتك قال يا أبه دعنى فقال أقسمت عليك ألا أخبرتنى فقال له أخذونى و أعددونى على رأس الجب ثم قالوا لى انزع قميصك فقلت لهم إنى أسألكم بوجه أبى يعقوب أن لا تنزعوا قميصى و لا تبدوا عورتى فرفع فلان السكين على و قال انزل فصاح يعقوب فسقط مغشيا عليه ثم أفاق فقال له يا بنى كيف صنعوا بك فقال يوسف إنى أسألك بآله إبراهيم و إسماعيل و إسحاق إلا أعفيتنى قال فتركه

و

روى أيضا أن يوسف قال ليعقوب (عليه السلام) يا أبه لا تسألنى عن صنيع إخوتى بى و سل عن صنع الله بى

قال أبو حمزه بلغنا أن يعقوب عاش مائه و سبعا و أربعين سنه و دخل مصر على يوسف و هو ابن مائه و ثلاثين سنه و كان عند يوسف بمصر سبع عشره سنه و قال ابن إسحاق أقام يعقوب بمصر أربعا و عشرين سنه ثم توفى و دفن بالشام و قال سعيد بن جبير نقل يعقوب إلى بيت المقدس فى تابوت من ساج و وافق ذلك يوم مات عيصو فدفنا فى قبر واحد فمن ثم ينقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس و ولد يعقوب و عيصو فى بطن واحد و دفنا فى قبر واحد و كان عمرهما جميعا مائه و سبعا و أربعين سنه ثم رجع يوسف إلى مصر بعد أن دفن أباه فى بيت المقدس عن وصيه منه إليه و عاش بعد أبيه ثلاثا و عشرين سنه و كان أول رسول فى بنى إسرائيل ثم مات و أوصى أن يدفن عند قبور آبائه و قيل دفن بمصر ثم أخرج موسى عظامه فحمله حتى دفنه عند أبيه و قيل أفضت النبوه بعده إلى روبييل ثم إلى يهوذا و

فى كتاب النبوه بالإسناد عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر (عليه السلام) قال قلت له كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر قال عاش حولين قلت فمن كان الحجه لله فى الأرض يعقوب أم يوسف قال كان يعقوب الحجه و كان الملك ليوسف فلما مات يعقوب حمله يوسف فى تابوت إلى أرض الشام فدفنه فى بيت المقدس فكان يوسف بعد يعقوب الحجه قلت و كان يوسف رسولا نبيا قال نعم أ ما تسمع قوله عز و جل «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ»

و

بالإسناد عن أبى خالد عن أبى عبد الله (عليه السلام) قال دخل يوسف السجن و هو ابن اثنى عشره سنه و مكث فيها ثمانى عشره سنه و بقى بعد خروجه ثمانين سنه فذلك مائه سنه و عشر سنين

قالوا و لما جمع الله سبحانه ليوسف شمله و أقر له عينه و أتم له رؤياه و وسع عليه فى ملك الدنيا و نعيمها علم أن ذلك لا يبقى له و لا يدوم فطلب من الله سبحانه نعيما لا يفنى و تاقت نفسه إلى الجنه

فتمنى الموت و دعا به و لم يتمن ذلك نبي قبله و لا بعده تمنى أحد فقال «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ» أى أعطيتنى ملك النبوه و ملك مصر «وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» أى تأويل الرؤيا «فَاطَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى خالق السماوات و الأرض و منشئهما لا على مثال سبق «أَنْتَ وَلِيِّى» أى ناصرى و مدبرى و حافظى «فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» تتولى فيهما إصلاح معاشى و معادى «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا» قال ابن عباس ما تمنى نبي تعجيل الممات إلا يوسف لما انتظمت أسباب مملكته اشتاق إلى ربه و قيل معناه ثبتنى على الإيمان إلى وقت الممات و أمتنى مسلما «وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ» أى بأهل الجنة من الأنبياء و الأولياء و الصديقين و قيل لما جمع الله سبحانه بينه و بين أبويه و إخوته أحب أن يجتمع مع آبائه فى الجنة فدعا بهذا الدعاء و المعنى ألحقنى بهم فى ثوابهم و درجاتهم قيل فتوفاه الله تعالى بمصر و هو نبي فدفن فى النيل فى صندوق من رخام و ذلك أنه لما مات تشاح الناس عليه كل يحب أن يدفن فى محلته لما كانوا يرجون من بركته فرأوا أن يدفنوه فى النيل فيمر الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر فيكون كلهم فيه شركاء و فى بركته شرعا سواء فكان قبره فى النيل إلى أن حملة موسى (عليه السلام) حين خرج من مصر ثم عاد سبحانه بعد تمام القصة إلى خطاب النبي ص فقال «ذَلِكَ» أى الذى قصصت عليك من قصه يوسف يا محمد «مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ» أى من جملة أخبار الغيب «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» على ألسنه الملائكة لتخبر به قومك و يكون دلاله على إثبات نبوتك و معجزه داله على صدقك «وَمَا كُنْتَ لَمَدِّيهِمْ» أى و ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب «إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ» إذ عزموا على إلقاءه فى البئر و اجتمعت آراؤهم عليه «وَهُمْ يَمْكُرُونَ» أى يحتالون فى أمر يوسف حتى ألقوه فى الجب عن الجبائى و قيل يمكرون بيوسف عن ابن عباس و الحسن و قتاده.

إشارة

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْتَأْذِنُ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

القراءة

فى الشواذ قراءة عكرمه و عمرو بن فائد و الأرض يمرون عليها بالرفع و قراءة السدى و الأرض نصبا و القراءة المشهورة بالجر.

الحجج

من رفع أو نصب وقف على السماوات ثم ابتدأ و الأرض فالرفع على الابتداء و الجملة بعدها خبره و العائد إلى المبتدأ الهاء من عليها و الضمير فى عنها عائد إلى الآية و أما النصب فبفعل مضمر تقديره و يطئون الأرض و يؤيد ذلك قراءة ابن مسعود يمشون عليها فلما أضم الفعل الناصب فسر به بقوله «يَمُرُّونَ عَلَيْهَا» و من جر الأرض على قراءة القراء فإن شاء وقف على الأرض و إن شاء وقف آخر الآية.

اللغة

الحرص طلب الشىء باجتهاد فى إصابته و العالم الجماعه من الحيوان التى من شأنها أن تعلم مأخوذ من العلم و قيل لما حواه الفلك عالم على سبيل التبع للحيوان الذى ينتفع به و هو مخلوق لأجله و الغاشيه المجلله للشىء بانسائها عليه و غشيه يغشاه إذا غطاه و الغشاء الغطاء و البغته الفجأه و هى مجىء الشىء من غير توقع.

الإعراب

و كآين فى معنى كم و أصلها أى دخلت عليها الكاف و بغته مصدر وضع موضع الحال تقول لقيته بغته و فجاءه.

المعنى

لما تقدم ذكر الآيات و المعجزات التى لو تفكروا فيها عرفوا الحق من جهتها فلم يتفكروا بين عقيبتها أن التقصير من جهتهم حيث رضوا بالجهل و ليس من جهته سبحانه لأنه نصب الأدله و البيئات و لا من جهتك لأنك دعوتهم فقال «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» أى و ليس أكثر الناس بمصدقين و لو حرصت على إيمانهم و تصديقهم و اجتهدت فى دعائهم إليه و إرشادهم إليه لأن حرص الداعى لا يغنى شيئاً إذا كان المدعو لا يجيب «وَمَا تَسْتَأْذِنُ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ» أى و لا تسألهم على تبليغ الرسالة و بيان الشريعة أجرا فيصدهم ذلك عن القبول و يمنعهم من الإيمان و يثقل عليهم ما يلزمهم من الغرامه فأعذارهم منقطعه «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» أى ما القرآن إلا موعظه و عبره و تذكير للخلق أجمعين فلست بنذير لهؤلاء خاصة «وَكَأَيِّنْ مِنْ

آيِهِ» أى كم من حجه و دلالة «فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» تدل على وحدانيه الله تعالى من الشمس و القمر و النجوم فى السماء و من الجبال و الشجر و ألوان النبات و أحوال المتقدمين و آثار الأمم السالفه فى الأرض «يَمُرُّونَ عَلَيْهَا» و يبصرونها و يشاهدونها «وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» أى هم عن التفكير فيها و الاعتبار بها

ص: ٤١٠

معرضون لا- يتفكرون فيها يعنى الكفار «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» اختلف فى معناه على أقوال (أحدها) أنهم مشركو قريش كانوا يقرون بالله خالقا و محييا و مميتا و يعبدون الأصنام و يدعونها آلهه مع أنهم كانوا يقولون الله ربنا و إلهنا يرزقنا فكانوا مشركين بذلك عن ابن عباس و الجبائى (و ثانيها)

إنها نزلت فى مشركى العرب إذ سألوا من خلق السماوات و الأرض و ينزل المطر قالوا الله ثم هم يشركون و كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملكك عن الضحاك (و ثالثها) أنهم أهل الكتاب آمنوا بالله و اليوم الآخر و التوراه و الإنجيل ثم أشركوا بإنكار القرآن و إنكار نبوه نبينا محمد ص عن الحسن و هذا القول مع ما تقدمه رواه دارم بن قبيصه عن على بن موسى الرضا عن أبيه عن جده عن أبى عبد الله (عليه السلام)

(و رابعها) أنهم المنافقون يظهرون الإيمان و يشركون فى السر عن البلخى (و خامسها) أنهم المشبهه آمنوا فى الجملة و أشركوا فى التفصيل و روى ذلك عن ابن عباس (و سادسها)

أن المراد بالإشراك شرك الطاعه لا- شرك العباده أطاعوا الشيطان فى المعاصى التى يرتكبونها مما أوجب الله عليها النار فأشركوا بالله فى طاعته و لم يشركوا بالله شرك عباده فيعبدون معه غيره عن أبى جعفر (عليه السلام)

و

روى عن أبى عبد الله أنه قول الرجل لو لا فلان لهلكت و لو لا فلان لضاع عيالى جعل الله شريكا فى ملكه يرزقه و يدفع عنه فقيل له لو قال لو لا أن من على بفلان لهلكت فقال لا بأس بهذا و فى روايه زراره و محمد بن مسلم و حمران عنهما (عليه السلام) أنه شرك النعم

و

روى محمد بن الفضيل عن أبى الحسن الرضا (عليه السلام) قال أنه شرك لا يبلغ به الكفر

«أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ» أى أفأمن هؤلاء الكفار أن يأتيهم عذاب من الله سبحانه يعمهم و يحيط بهم و هى من غاشيه السرج لأنها تعمه بالسر و إنما أتى بلفظه التأنيث على تقدير العقوبه أى عقوبه مجلله لجميعهم عن ابن عباس و قيل هو عذاب الاستئصال عن مجاهد و أبى مسلم و قيل هى الصواعق و القوارع عن الضحاك «أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ» يعنى القيامة «بَغْتَةً» أى فجأه على غفله منهم «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» بقيامها قال ابن عباس تهجم الصيحه بالناس و هم فى أسواقهم.

إشارة

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسْأَلُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لِمَدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)

القراءة

قرأ حفص عن عاصم «إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ» بالنون حيث كان وقرأ الباقون يوحى بالياء وفتح الحاء «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» ذكرنا الخلاف فيه فى سورة الأنعام.

الحج

قال أبو على الوجه فى النون قوله «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ» و الوجه فى الياء قوله «وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ» و قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ.

اللغة

السبيل الطريق و هو المكان المهيا للسلوك و دين الإسلام طريق يؤدى إلى الجنة و السبيل يذكر و يؤنث قال:

فلا تبعد فكل بنى أناس سيصبح سالكا تلك السبيل

و البصيره ما يبصر به الشىء أى يعرف و السير المرور الممتد فى جهه و منه السير واحد السيور لامتداده فى جهه.

المعنى

ثم أمر سبحانه نبيه ص أن يبين للمشركين ما يدعو إليه فقال «قُلْ» يا محمد لهم «هَذِهِ سَبِيلِي» أى طريقى و سنتى و منهاجى عن ابن زيد و قيل معناه هذه الدعوه التى أدعو إليها دينى و طريقى عن مقاتل و الجبائى ثم فسر ذلك بقوله «أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ» أى أدعوكم أيضا إليه من آمن بى و يذكر بالقرآن و المواعظه و ينهى عن معاصى الله قال ابن الأنبارى و يجوز أن يتم الكلام عند قوله «أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ» ثم ابتداء و قال «عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» و هذا معنى قول ابن عباس أنه يعنى أصحاب محمد كانوا على أحسن طريقه «وَسُبْحَانَ اللَّهِ» معناه تنزيها لله عما أشركوا و تقديره قل هذه سبيلى و قل سبحانه الله و قيل أنه اعتراض بين الكلامين و الواو فيه مثل قولك قال الله و هو منزه عن الشركاء سبحانه الله «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» الذين اتخذوا مع الله ندا و كفوا و ولدا و فى هذه الآية دلالة على فضل الدعاء إلى الله سبحانه و إلى توحيد و عدله و يعضد ذلك

الحديث عنه ص أنه قال العلماء أمناء الرسل على

و فيها دلالة أيضا على أنه (عليه السلام) كان يدعو إلى الله في كل أوقاته و إن كان بين الشرائع في أوقات ما و فيها دلالة أيضا على أن الواجب في السعى أن يكون على ثقة و بصيره و دلالة قاطعه و ذلك يوجب فساد التقليد «و ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» بين سبحانه أنه إنما أرسل الرسل من أهل الأمصار لأنهم أرجح عقلا و علما من أهل البوادي لبعده أهل البوادي عن العلم و أهله عن قتاده و قال الحسن لم يبعث الله نبيا قط من أهل البادية و لا من الجن و لا من النساء و ذلك أن أهل البادية يغلب عليهم القسوه و الجفاء و أهل الأمصار أحد فطنا «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» أى أفلم يسر هؤلاء المشركون المنكرون لنبوتك يا محمد في الأرض «فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من الأمم المكذبين لرسولهم و كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال فيعتبروا بهم و يحذروا مثل ما أصابهم «وَأَلَمَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» يقول هذا صنعنا بأهل الإيمان و الطاعة في دار الدنيا إذ أهلكنا عدوهم و نجيناهم من شرهم و لدار الآخرة خير لهم من دار الدنيا و نعيمها و

روى أبو سعيد الخدرى عن النبي ص أنه قال لشير من الجنة خير من الدنيا و ما فيها

قال الزجاج قال الله سبحانه في غير هذا الموضع الدَّارُ الْآخِرَةُ. فالآخرة نعت للدار لأن لجميع الخلق دارين الدار التي خلقوا فيها و هي الدنيا و الدار الآخرة هي التي يعادون فيها خلقا جديدا فإذا قال دار الآخرة فكأنه قال دار الحال الآخرة لأن للناس حالين حال الدنيا و حال الآخرة و مثل هذا في الكلام الصلاة الأولى و صلاة الأولى فمن قال الصلاة الأولى جعل الأولى نعتا للصلاة و من قال صلاة الأولى أراد صلاة الفريضة الأولى و الساعه الأولى «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى أفلا يفهمون ما قيل لهم فيعلمون.

[سوره يوسف (١٢): الآيات ١١٠ الى ١١١]

اشاره

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصِيرُنَا فَنَجَّىٰ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

القراءة

قرأ أهل الكوفة و أبو جعفر

«كُذِّبُوا» بالتخفيف و هي قراءة على و زين العابدين

و زيد بن علي و ابن عباس و ابن مسعود و سعيد بن جبير و عكرمه و الضحاك و الأعمش و غيرهم و قرأ الباقر كذبوا بالتشديد و هي قراءة عائشه و الحسن و عطا و الزهري و قتاده و روى عن ابن عباس بخلاف و مجاهد بخلاف كذبوا بالتخفيف و فتح الذال و الكاف و قرأ عاصم و ابن عامر و يعقوب و سهل «فَنَجَّى مَنْ نَشَاءُ» بنون واحده و تشديد الجيم و فتح الياء و قرأ الباقر فننجي من نشاء بنونين و تخفيف الجيم و سكون الياء و فى الشواذ عن ابن محيصر فنجا بفتح النون و الجيم و التخفيف و عن عيسى الثقفى و لكن تصديق الذى بين يديه و تفصيل كل شىء و هدى و رحمه برفع الأحرف الثلاثة و القراءة بنصبها.

الحجه

قال أبو علي الضمير فى ظنوا فى قول من شدد كذبوا للرسول تقديره ظن الرسول أى تيقنوا أو ظنوا الظن الذى هو حسابان و معنى كذبوا تلقوا بالكذب كقولهم جبنته خطأته و تكذبيهم إياهم يكون بأن يلقوا بذلك كقولهم له و إن نَظُنُّكَ لِمِنَ الْكَاذِبِينَ أو بما يدل عليه و إن خالفه فى اللفظ و من حجه التثقيب قوله «فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ» و قوله «فَكَذَّبُوا رُسُلِي» و قوله «إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ» و أما من خفف فقال كذبوا فهو من قولهم كذبتك الحديث أى لم أصدقك و فى التنزيل وَ قَعِدَ الَّذِينَ كَذَّبُوا اللَّهَ وَ رُسُولَهُ وَ قِيَّاسَهُ إِذَا اعْتَبَرَ الْخِلَافَ أَنْ يَتَعَدَى إِلَى مَفْعُولِينَ كَمَا تَعَدَى صَدَقَ فِي قَوْلِهِ «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رُسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ» و قال الأعشى:

فصدفته و كذبتة و المرء ينفعه كذابه

قال سيبويه كذب يكذب كذبا و قالوا كذابا فجاءوا به على فعال و قد خففه الأعشى و قال ذو الرمة:

و قد حلفت بالله ميه ما الذى أقول لها إلا الذى أنا كاذبه

و الضمير الذى فى قوله «وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» للمرسل إليهم و ظن المرسل إليهم أن الرسول قد كذبوهم فيما أخبروهم به من أنهم إن لم يؤمنوا أنزل بهم العذاب و إنما ظنوا ذلك لما شاهدوه من إمهال الله إياهم و إملائه لهم فإن قلت كيف يجوز أن يحمل الضمير فى ظنوا على أنه للمرسل إليهم الرسل و الذين قد تقدم ذكرهم الرسل دون المرسل إليهم قيل إن ذلك لا يمتنع لأن ذكر الرسل يدل على المرسل إليهم لمقاربه إحدى الاسمين الآخر و لما فى لفظ الرسل من

أمنك البرق أرقبه فهاجا فبت أخاله دهما خلاجا

أى بت أخال الرعد صوت دهم فأضمر الرعد و لم يجر له ذكر لدلالة البرق عليه لمقاربه لفظ كل واحد منهما للآخر و فى التنزيل سِرَابِيلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ و استغنى عن ذكر البرد لدلالة الحر عليه و إن شئت قلت أن ذكرهم قد جرى فى قوله «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» فيكون الضمير للذين من قبلهم من مكذبي رسل الله فإن ذهب ذهاب إلى أن المعنى ظن الرسل أن الذى وعد الله سبحانه أممهم على لسانهم قد كذبوا به فقد أتى عظيما لا يجوز أن ينسب مثله إلى الأنبياء و لا إلى صالحى عباد الله تعالى و كذلك من زعم أن ابن عباس ذهب إلى أن الرسل قد ضعفوا فظنوا أنهم قد أخلفوا لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد حدثنا أحمد بن محمد قال حدثنا المؤمل قال حدثنا إسماعيل بن عليه عن أبى المعلى عن سعيد بن جبیر فى قوله «حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» قال إن الرسل يئسوا من قومهم أن يؤمنوا و أن قومهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما قالوا لهم أتاهم نصر الله عند ذلك و أما قوله «فَنَجَّيْنَا مَن نَّشَاءُ» فإن ننجى حكاية للحال لأن القصة مما قد مضى و إنما حكى فعل الحال كما كانت عليه كما أن قوله «رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ» جاء على الحكاية للحال الكائنه و من ذلك قوله «وَ كَلَّبَهُمْ بِالْوَصِيدِ» فلو لا حكاية الحال لم يعمل اسم الفاعل لأنه إذا مضى اختص و صار معهودا فخرج بذلك من شبه الفعل أ لا ترى أن الفعل لا يكون معهودا فكما أن اسم الفاعل إذا وصف أو حقر لم يعمل عمل الفعل لزوال شبه الفعل عنه بالاختصاص الذى يحدثه فيه التحقير و الوصف كذلك إذا كان ماضيا و أما النون الثانية من ننجى فهى مخفاه مع الجيم و كذلك النون مع سائر حروف الفم لا تكون إلا مخفاه قال أبو عثمان تبيينها معها لحن و للنون مع الحروف ثلاث أحوال الإدغام و الإخفاء و البيان و إنما تدغم إذا كانت مع مقاربهها كما يدغم سائر المقاربه فيما يقاربه و الإخفاء فيها مع حروف الفم التى لا تقاربهها و البيان فيها مع حروف الحلق فأما حذف النون الثانية من الخط فيشبهه أن يكون لكراهه اجتماع المثليين فيه أ لا ترى أنهم كتبوا مثل العليا و الدنيا و يحيا و نحو ذلك بالألف فلو لا اجتماعها مع الياء لكتبت بالياء كما كتبت حبلى و يخشى و ما لم يكن فيه ياء من هذا النحو بالياء فكأنهم لما كرهوا اجتماع المثليين فى الخط حذفوا النون و قوى ذلك أنه لا يجوز فيها إلا الإخفاء و لا يجوز فيها البيان فأشبهه بذلك الإدغام لأن

الإخفاء لا يبين فيه الحرف المخفى كما أن الإدغام لا يبين فيه الحرف المدغم بيانه في غير الإدغام فلما وافق النون المدغم في هذا الوجه أستجيز حذفه من الخط و من ذهب إلى أن النون الثانيه مدغمه في الجيم فقد غلط لأنها ليست مثل الجيم و لا مقاربه لها و إذا خلا الحرف من هذين الوجهين لم يدغم فيما اجتمع معه و من قرأ فنجى فإنه أتى على لفظ الماضى لأن القصه ماضيه و يقوى ذلك أنه عطف عليه فعل مسند إلى المفعول به و هو قوله «وَلَا يُرَدُّ بِأُسَيْنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» و لو كان ننجى مسندا إلى الفاعل كقول من خالفه لكان لا نرد بأسنا أشبه ليكون مثل المعطوف عليه و من قرأ «تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» و ما بعده بالرفع فيكون التقدير لكن هو تصديق الذى بين يديه و تفصيل كل شىء فحذف المبتدأ و بقى الخبر.

اللغة

استيئس بمعنى يئس كأنه طلب اليأس لعلمه بامتناع الأمر و البأس الشده و هو شده الأمر على النفس و منه البؤس الفقر و منه لا بأس عليك و القصص الخبر يتلو بعضه بعضا من أخبار من تقدم و العبره الدلاله التى تعبر إلى البغيه و الأبواب العقول واحداها لب و إنما سمي بذلك لأنه أنفس شىء فى الإنسان و لب كل شىء خياره.

المعنى

ثم أخبر سبحانه و تعالى عن حال الرسل مع أممهم تسليه للنبي ص فقال «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ» و هاهنا حذف يدل الكلام عليه و تقديره إنا أخرنا العقاب عن الأمم السالفه المكذبه لرسنا كما أخرناه عن أمتك يا محمد حتى إذا بلغوا إلى حاله يأس الرسل عن إيمانهم و تحقق يأسهم بإخبار الله تعالى إياهم «و ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» أى تيقن الرسل أن قومهم كذبوهم تكذيبا عاما حتى أنه لا يصلح واحد منهم عن عائشه و الحسن و قتاده و أبى على الجبائى و من خفف فمعناه ظن الأمم أن الرسل كذبوهم فيما أخبروهم من نصر الله إياهم و إهلاك أعدائهم عن ابن عباس و ابن مسعود و سعيد بن جبير و مجاهد و ابن زيد و الضحاك و أبى مسلم و قيل يجوز أن يكون الضمير فى ظنوا راجعا إلى الرسل أيضا و يكون معناه و علم الرسل أن الذين وعدوهم الإيمان من قومهم أخلفوهم أو كذبوا فيما أظهروه من الإيمان و روى أن سعيد بن جبير و الضحاك اجتمعا فى دعوه فسنل سعيد بن جبير فى هذه الآيه كيف يقرأها فقال «و ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا» بالتخفيف بمعنى و ظن المرسل إليهم أن الرسل كذبوهم فقال الضحاك ما رأيت كاليوم قط لو رحلت فى هذه إلى اليمن لكان قليلا و روى أبى مليكه عن ابن عباس قال كانوا بشرا فضعفوا و يئسوا و ظنوا أنهم قد أخلفوا ثم تلا قوله تعالى «حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصِيرُ اللَّهُ» الآيه و هذا بعيد و قد بينا ما فيه

«جاءَهُمْ» أى جاء الرسل «نَصِيْرُنَا» حين يأسوا بإرسال العذاب على الكفار «فَنَجَّى مَنْ نَشَاءُ» أى نخلص من نشاء من العذاب عند نزوله و هم المؤمنون «وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا» أى عذابنا «عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» أى المشركين «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ» أى فى قصص يوسف و إخوته «عِبْرَةٌ» أى فكره و بصيره من الجهل و موعظه و هو ما أصابه (عليه السلام) من ملك مصر و الجمع بينه و بين أبويه و إخوته بعد إلقائه فى الحب و بيعه و حبسه و قيل فى قصصهم عبره لأن نبينا ص لم يقرأ كتابا و لا سمع حديثا و لا خالط أهله ثم حدثهم به فى حسن معانيه و براعه ألفاظه و مبانيه بحيث لم يرد عليه أحد من ذلك شيئا فهذا من أدل الدلائل على صدقه و صحه نبوته «لِأُولَى الْأَلْبَابِ» أى لذوى العقول «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى» أى ما كان ما أداه محمد أو أنزل عليه حديثا يختلق كذبا «وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» أى و لكن كان تصديق الكتب الذى بين يديه لأنه جاء كما بشر به فى الكتب عن الحسن و قتاده «وَتَفْصِيْلَ كُلِّ شَيْءٍ» أى و بيان كل شىء يحتاج إليه من الحلال و الحرام و شرائع الإسلام «وَهُدًى» أى و دلالة «وَرَحْمَةً» أى و نعمه ينتفع بها المؤمنون علما و عملا- «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» إنما خصهم بذلك لأنهم المنتفعون به دون غيرهم و بالله التوفيق و العصمه و هو حسنا و نعم الوكيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
الغمامة
اصبحان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

